بسم الله الرحمن الرحيم

اسم المؤلف : **السيد عمار الحكيم**

عنوان الكتاب : **القيادة والإدارة**

شرح عهد أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ **لمالك الأشتر** رَضِيَ اللهُ عَنهُ

الطبعة الثانية : **٢٠٢٣**

الترقيم الدولي : ISBN: 978-9922-92-102-0

العراق - بغداد- الجادرية جسر ذي الطابقين

شارع المتنبي - مقابل مقهى الشابندر - قرب مصرف الرشيد

٠٧٧٠٢٦٨٢٥١٨

inky. publishing@gmail. com

القيادة والإدارة

شرح عهد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لمالك الأشتر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

السيّد عمّار الحكيم

الجزء الأوّل

المقدّمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين الميامين.

إنّ أهم وثيقة إسلاميّة ركّزت على موضوع النظرية الإسلاميّة في القيادة والإدارة، وأوجزت الفهم الإسلاميّ لها، هو عهد أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمالك الأشتر، وهو وثيقة تأريخيّة مهمة سلّطت الأضواء على العديد من الملامح الأساسيّة لموضوع القيادة والإدارة، في الأصول والمباني والسياسات والوسائل، وكذلك السلوك والأخلاق المطلوبة في عمليّة القيادة والإدارة، فنجدها مجتمعة في هذا العهد وفي هذه الوثيقة التأريخيّة المهمة.

وما زالت هذه الدروس الكبيرة التي قدّمها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه الوثيقة المهمة، مثار الاهتمام والدراسة والمراجعة لدى أهم مراكز البحوث والدراسات والجامعات العالمية في القيادة والإدارة. وقد أكّد سماحة السيد (عمار الحكيم) مرارًا في لقاءاته المتكررة أنّ القيادة في المنظور الإسلاميّ ليست حكرًا على شخص واحد، ولا يمكن أن تُختزل في موقع واحد، وإنما هي منظومة من الأدوار والممارسات التي تبدأ من المواطن البسيط في أدواره ومواقعه وصولًا إلى الأدوار المتقدمة والخطيرة التي يمارسها القادة في سلسلة المراتب القياديّة.

وقال إنّ عهد أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمالك الأشتر يختزل هذه النظريّة في أبعادها المختلفة، ولذلك سعى إلى أن يقف عند هذا العهد ودروسه المعطاء، والتأثير الكبير الذي تركه أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كرجل مارس هذه التجربة في الوقت نفسه، وتميّز وتألّق في الوعي ومستوى العلم والعصمة التي تجعل الإنسان بعيدًا عن الانحرافات والانزلاقات، ويقدّم الرؤية الصحيحة في القيادة والإدارة.

إنّ هذا العهد المهم والتأريخيّ بات مرجعًا ومصدرًا مهمًّا من مصادر الرؤية الإسلاميّة في القيادة والإدارة، وتعدّاها ليشمل الرؤية الإنسانيّة أيضًا، بعد أن شقّ طريقه اليوم إلى المعاهد العالميّة ووقفت على كل مفردة من مفرداته، وبعد أن أصبح وثيقة معتمدة لدى الأُمم المتحدة.

وقد بدأ سماحة السيد الحكيم سلسلة من اللقاءات للاستفادة والاستزادة من هذا العهد الشريف، والتعرّف على الرؤية الإسلاميّة في الإدارة والقيادة والحكم، لا سيَّما أننا اليوم بأمسّ الحاجة لاستحضار هذه الرؤية، إذ نبني تجربتنا السياسيّة الوليدة في العراق، مستثمرين الزخم الكبير والإيجابيّات الهائلة المتوافرة في هذا البلد الكريم، وفي مقدّمتها الإرادة العراقية الصلبة، لبناء مشروع تعددي يُحترم فيه الإنسان وتُحترم فيه الحريات، وينطلق العراقيون لبناء تجربتهم الفريدة.

وقد تحدّث سماحته على مدار أربع سنوات في الملتقى الثقافي ببغداد عن تسعة عشر مقطعًا من مقاطع هذا العهد الشريف، وهي تشمل الجانب السياسيّ في الإدارة والقيادة، من أجل أن يتعرّف المواطن على رؤية الإسلام لطبيعة المهام والواجبات والعلاقة التي يجب أن تسود وتحكم المنظومة القياديّة والإداريّة في أي عمل جماعي وفي أي مستوى من المستويات، وكيف يُدار ويُقاد؟، وما الضوابط والمعايير التي تحكم العلاقة بين أعضاء الفريق الواحد، وصولًا إلى قيادة الدولة، حيث الوزراء والأمراء والملوك والرؤساء؟، هذه المنظومة القياديّة قد تزيد أو تنقص، فهناك مسؤول عن شعب نسمّيه زعيمًا أو رئيسًا، وثانٍ مسؤول عن محافظة نسمّيه محافظًا، وثالث مسؤول عن قضاء نسمّيه قائممقامًا أو مدير ناحية.. وهكذا نزولًا إلى ربّ الأُسرة، ففي كل هذه المستويات القياديّة تأتي هذه الضوابط وهذه المعايير.

وربما يعترض شخص ويقول: لماذا يُصرف كل هذا الوقت الطويل في الحديث عن النظرية الإسلاميّة في الإدارة والقيادة في حين أنّها أبحاث تخصّ القادة وكبار المسؤولين وليس عموم المواطنين؟.

والجواب: أنّ هذه الأبحاث ترتبط بنا جميعًا، وإنْ كانت مرتبطة بشكل مباشر بقادة البلد والوزراء، فحينما تكون الثقافة العامّة هي ثقافة المعرفة التفصيليّة لطبيعة هذه العلاقة، فكلّ مواطن سيتعرّف على حقوقه وواجباته والتزاماته تجاه المسؤول وتجاه قيادة البلد، فهذه المعطيات والمعلومات مفيدة لنا جميعًا، في أي مستوى من المستويات وفي أي عمل من الأعمال.

وقد اقتصر عملنا في هذا الكتاب على حذف المكررات واختيار العناوين الفرعيّة واستخراج النصوص من مصادرها الأصليّة وتحويل ما كان من الكلام باللهجة العاميّة إلى اللغة الفصحى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

مؤسسة إنكي للدراسات والبحوث

النظام السياسيّ

تمهيد

إن المسألة المهمة التي تحظى باهتمام المواطنين اليوم، هي مسألة القيادة والإدارة والحكومة، والسياقات والضوابط والثوابت المطلوبة في إدارة الحكومة، لتكون بمستوى الطموح، وتكون ضمن المعايير والمقاييس التي نظر إليها الإسلام وتحدث عنها القرآن الكريم.

وتشمل مسائل الإدارة والقيادة المعايير والضوابط والمباني والأصول والوسائل الناجحة التي يجب أن تُستخدم لتكون الحكومة قوية ومنسجمة وراشدة وخدومًا لعموم المواطنين، وتشمل أيضًا الأخلاقيّات والسلوك المطلوب للمسؤولين والقادة، الذين يستطيعون تحقيق النموذج الراقي الذي ينشده الإسلام في الحكم. وهذه هي المسائل التي تحظى باهتمام الجميع.

عهد الأشتر تجسيد للنظرية الإسلاميّة في القيادة

ونجد أنّ أروع ما جسّد هذه النظرية الإسلاميّة للقيادة والإدارة، هو عهد أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ لمالك الأشتر النخعيّ، هذا العهد الذي جاء يستعرض بإيجاز هذه النظرية والرؤية الإسلاميّة الأصيلة. وهي أهم وثيقة إسلامية ركّزت على هذا الموضوع وأوجزت الفهم الإسلامي للقيادة والإدارة، وسلّطت الأضواء على العديد من الملامح الأساسيّة لموضوع القيادة والإدارة؛ في الأُصول، والمباني، والسياسات، والوسائل، وكذلك السلوك والأخلاق المطلوبة في عملية القيادة والإدارة، إذ نجدها جميعًا مجتمعة في هذا العهد المبارك.

وهي أطول وثيقة قدّمها عَلَيْهِ السَّلَامُ، ووضعها تحت تصرّف مالك الأشتر، حينما أوفده لولاية مصر في ذلك الحين. ومالك الأشتر الذي سنتحدث عنه لاحقًا، وإنْ لم يوفَّق في الوصول إلى مصر لتطبيق هذا العهد؛ إذ اعترضه الظالمون وسُقي السم واستشهد قبل

وصوله، لكن هذه الوثيقة بقيت وثيقة إنسانية واضحة المعالم، تضع الإطار العام للإدارة والقيادة في الفهم الإسلامي.

وقد مثّلت هذه الوثيقة منطلقًا وركيزة مهمة، لما كُتب بعدها من وثائق على مرّ التأريخ من كبار العلماء والفلاسفة والقادة والساسة، وصولًا إلى الوثائق المهمّة التي أصدرتها الأمم المتحدة، التي جاءت لتستقي من المفاهيم والمبادئ المهمة في هذه الوثيقة، وتأخذ منها الكثير من المعالم والأُصول.

وبقيت هذه الوثيقة التأريخيّة الأساس الذي يُستند إليه في فهم النظرية الإسلاميّة للإدارة والقيادة، ولكن المنطلقات التي انطلق منها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والدروس التي قدّمها، هي دروس إنسانيّة تغور عميقًا في واقع الحياة ومتطلباتها، لتصل إلى ذلك الإطار الإنسانيّ الذي يحدّد العلاقات والالتزامات المطلوبة، ويحدّد أيضًا التعاملات والسلوكيات المرجوّة من القيادات التي تتصدّى لمواقع الخدمة العامة.

ونحن – ومن خلال سلسلة من اللقاءات – نسعى إلى تسليط الأضواء على هذه الوثيقة التأريخية الفريدة، ونتلمس ونؤشر على مواطن الخلل والقصور والضعف والثغرات الموجودة، التي أدّت إلى مثل هذه المضاعفات في أداء حكوماتنا، وفي بناء الدولة في بلادنا. وهذه المسألة لا بُدَّ من أن تتحوّل إلى رؤية شعبية.

وربما يعترض البعض، بأن هذا علم يخصّ القادة، فليذهب المتصدون والرؤساء والأُمراء ويقرؤوا هذا العهد ويستفيدوا منه. والجواب: لعلّ الكثير ممن يتربع على الكرسي الدوّار لا يروق له أن يقف عند هذه المفاهيم ويلتزم بها، وحينما تتحول هذه القضية إلى ثقافة شعبية واسعة، وتعرف الناس ما هي واجبات المسؤول تجاه الأُمة، وكيف عليه أن يتعامل، وكيف يجب أن يتخذ قراراته، نسهم في التعبئة العامة التي تدفع باتجاه الالتزام بهذه المعايير الإنسانيّة، التي تضمن النجاح في مجمل الأداء القياديّ والإداريّ.

وفي بلادنا، وفي كل تجربة تسعى إلى أن تحظى بالنجاح والتوفيق، عليها أن تلتزم بتطبيق هذه الدروس وهذه الإضاءات، وهذا الإطار الذي يحدده أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر، والقواعد والضوابط التي يضعها في القيادة والإدارة، لتضمن لنا تجربة سياسيّة ناجحة، تنهض بالبلاد وتحقق الطموحات والتطلعات.

مشكلة التخلف في الحكم

إن المشكلة التي في بلادنا ليست في المواطنين، وهي ليست في الوسائل المستخدمة أيضًا، وإنما هي في الضوابط والمعايير وسياقات العمل المطلوبة لكي نحصل على أفضل النتائج. وليس قدرنا أن نكون من دول العالم الثالث نتيجة التراجع في الأداء، وقدر البعض من الدول الصناعية أن تكون في العالم الأول، ولكن هذه الدول أخذت هذه القواعد وعملت بها وصارت قانونًا ومعيارًا في إدارة البلاد، وهذا ما حذر منه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما قدّم وصاياه إلى ولديه الحسن والحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم قال لهما مقولته الشهيرة: «اللهَ اللهَ فِي الْقُرْآنِ، لاَ يَسْبِقْكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ»[1]؛ لأن القرآن الكريم قد تضمن القواعد والمعايير، أي إياكم أن يأخذ الآخرون هذه الوصايا والإرشادات ويعملوا بها، فحينئذ يتقدمون وتتأخرون؛ لأنكم لا تعملون بها.

نحن في واقعنا لا توجد عندنا أزمة نظرية، ولا أزمة فكرية، بل لدينا الفكر العميق والرؤية الواضحة والنظرية المتكاملة في القيادة والإدارة، ولكن ينقصنا التطبيق، وينقصنا استحضار هذه النظرية والعمل بها. وما دمنا اليوم في بداية انطلاقة جدية، وأمام محطة أخرى من محطات بناء العراق، فعلينا أن نقف عند هذه النظرية في القيادة والإدارة، ونستوعب دروسها واتجاهاتها، وبذلك نكون قد وضعنا الأُسس الصحيحة للمرحلة المقبلة. إذن نحن نتحدث عن الخلفية الفكريّة والجذور المتوفرة في نصوصنا لفهم القيادة والإدارة، والمسارات المطلوبة لتحقيق النجاحات في هذا المجال.

السياسة والممارسات القياديّة

إن من الأخطاء الكبيرة هو اعتبار الممارسة القياديّة بكل أنماطها وأشكالها ممارسة سياسيّة، ناتجة من المكر والخداع والتزوير والانتهازية، حتى أصبح اسم السياسة غير محبب لدى الكثيرين، فما أن يسمع الإنسان كلمة سياسة، حتى يتبادر إلى ذهنه عدد من الناس المخادعين الذين ليس لهم كلمة ولا التزام بالعهود والمواثيق، بل المكر والتحايل بكل الوسائل المتاحة.

ولتحقيق طموحات النظرية الإسلاميّة في القيادة والإدارة نقدم نموذجًا مختلفًا تمامًا عن هذه الرؤية، ونبرهن أن هناك مسارين مختلفين؛ فهناك مواقف سياسيّة ناتجة من رؤية انتهازية ومصلحية، لا ترى إلا المصالح الخاصة الفئويّة والحزبيّة، ولا يهمها مصالح

---

١. الكافي ٧: ٥١.

الناس. وهناك رؤية أُخرى ناتجة من فهم عميق ونظرة متوازنة وإطار ينظم العلاقة والمطالب والتطلعات بالشكل الذي يحقق تجربة ناجحة، يتجسد فيها إحقاق الحقوق والانتصار للمظلوم. وهذه ممارسة سياسيّة ولكنها ممارسة قياديّة يقوم بها قادة، وليس أُناسًا ليس لهم همّ إلا الوصول إلى مآربهم الخاصة الحزبيّة الضيقة.

ولعلّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يشير إلى هذا الدور القيادي بكلمته الشهيرة؛ حينما قال: «لَوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ. وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ لاَ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا. وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هٰذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»[٢]. ماذا تتصور عليًا عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما يتصدى لقيادة هذه الأمة، وحينما يقبل بأن ينزل لهذا الموقع ويستجيب لنداء الأمة؟. إنه لم يفعل ذلك من أجل سلطة، ولا دنيا، ولا امتيازات ورواتب، كتلك التي يتقاضاها ذوو الدرجات الخاصة، ولا إيفادات، ولا خدم وحشم، فليست هذه هي معايير التصدي للمسؤولية عند أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما تصدى لما أخذه الله تعالى على العلماء ألاّ يقارّوا على كظة ظالم وسغب مظلوم، فالدفاع عن المظلوم، والمطالبة بقضايا الأمة، ودفع الناس إلى الأمام، ودفع عجلة المجتمع إلى التقدم والازدهار، وتحقيق الحياة الكريمة للمواطنين، هي الأهداف التي دفعت الإمام عليًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مواقع الحكم والسلطة والإدارة والقيادة، ولولا هذه الدوافع لكانت هذه الدنيا أزهد عنده من عفطة عنز، فما هي قيمة العطسة والعفطة التي تصدر من عنز؟. لا قيمة لها مطلقًا، فالدنيا أزهد وأقل قيمة من عفطة عنز عند الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكنه يقف ويدخل في حروب ويواجه التحديات ويمسك زمام المبادرة لما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم. وهذه رؤية تعطي للموقع القيادي دورًا مميزًا يبتعد عن الانتهازية والمطالب الشخصيّة والمطامع الحزبيّة والفئويّة، وينفتح على الأُمة بهمومها وحقوقها ومطالبها وقضاياها.

السبيل لبناء نظام حكم ناجح

وعلينا اليوم أن نستحضر هذه النظرية في القيادة والإدارة التي تنطلق من مثل هذه الآفاق، وتضع المعالم الرئيسة والركائز الأساسيّة لبناء نظام حكم ناجح، يمكن أن يحقق طموحات المواطنين، فالقيادة بهذا المعنى هي عملية توجيه الرأي العام، وتوجيه الناس

---

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٣.

وإدارة شؤونهم، بما يحقق لهم الحياة الأفضل، وبما يحقق لهم الطموحات. وبعبارة أُخرى الانتقال بالناس من الواقع الذي يعيشونه إلى المستقبل أو الطموح الذي يحلمون به ويتطلعون إليه، وفرق كبير بين ما هو عليه الإنسان والأمة، وبين ما يجب أن يكونا عليه، فعملية القيادة هي عملية أخذ زمام المبادرة، ودفع الناس للانتقال مما هم عليه إلى ما يجب أن يكونوا عليه، وتحقيق أحلامهم وطموحاتهم وتطلعاتهم، وكيف يستطيعون تحقيقها؟، وما الخطوات المطلوبة لنكون على ما ينبغي أن نكون عليه وما يجب أن نكون عليه؟.

واليوم، عندما نذكر العراق كشاهد مثلًا، باعتبار أن العراق بلد الحضارة، وبلد الثروة والإمكانات الهائلة، وبلد التأريخ، وبلد الشخصية العراقية الفذة، وبلد الموقع الجغرافي المميز، ومحطة الأنبياء والأولياء والصالحين، من آدم إلى النبي الخاتم صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، نتساءل هل شأن العراق أن يكون بهذه السمات التي نعيشها اليوم، من حرمان وضعف في الخدمات وقصور في الأداء وتراجع وتخلف قياسًا مع الدول المحيطة بنا؟. من المؤكد أن هذا ليس شأننا. نعم، هذا هو واقعنا، ولكن هل نحن راضون بهذا الواقع؟ وهل طموحنا أن نكون بهذا الشكل؟ الجواب كلا، فهذا واقع يجب أن يتغير، ويجب أن نسير نحو المستقبل، ونحو الطموحات التي تنسجم مع أحلامنا و تطلعاتنا.

دور القيادة في بناء الحكم

إن عملية توجيه الأمة، وتوجيه الإمكانات واستثمارها، للانتقال من الواقع الذي نعيشه إلى الواقع الذي نتطلع إليه ونصبو له ونحلم به، هي العمليّة القياديّة. وإذا كانت القيادة تمثل مفتاح الحياة والنمو والانطلاق والبناء، تصبح هذه القيادة، وهذا الموقع، موقعًا مقدسًا وشريفًا، وتصبح هذه المهمة مهمة الأنبياء؛ فقد جاء الأنبياء ليأخذوا بأيدي الناس لتحقيق الأفضل.

وهكذا يتضح – بحسب النظرية الإسلاميّة – الفرق الكبير بين ممارسة سياسيّة تعتمد على أساس المصالح الضيقة، وتنتهج وسائل الخداع والتزوير والانتهازية بكل أوصافها، لكي تصل بصاحبها إلى السلطة ومواقع القرار ليستفرد ويستحوذ ويتمكن من استغلال هذا الموقع لمصالحه الشخصية والحزبية والعياذ بالله، وبين الممارسة السياسيّة والممارسة القياديّة التي تريد أن تأخذ بالإنسان من واقع يعيشه إلى مستقبل يحلم به ويتطلع إليه. فالنظرية الإسلاميّة للإدارة والقيادة تركز على هذا الجانب، وتجعل من القيادة أمرًا لا يزهد

به الناس ولا يبتعدون عنه ويسعون ألا يتلوثوا به، بل تجعل منه موقعًا يحظى بالقدسية والاحترام والاهتمام. وعليه فإن التصدي للموقع القيادي بحسب الرؤية الإسلاميّة قد يصل إلى مستوى الوجوب والضرورة لمن يتصف بهذه الصفات ويكون قادرًا على أن ينهض بالأُمة.

إن هدف القيادة هو تحقيق الحياة الكريمة للمواطنين، وتحديد المسارات التي تنهض بالشعوب والأمم إلى ما تطمح إليه وتتطلع له؛ فالقيادة هي المحطة، وهي اللولب، وهي مركز الثقل، وهي المغناطيس الذي يجتمع عليه الجميع ليتوحدوا حولها لتحقيق طموحاتهم وأهدافهم وغاياتهم النبيلة والمشروعة. والفراغ القياديّ هو الذي يوجِد الشلل والتعطيل في البلاد، وهو الذي يخل بالنظام ويضيع مصالح الناس، ولعلّه يؤدي إلى إزهاق الأرواح والإشكاليّات الأمنيّة الكبيرة وغيرها. فإذن القيادة لها دور الحياة، وغيابها يمكن أن يعصف بالمجتمع إلى أبعد الحدود.

ولهذا استدل بعض الفقهاء على وجوب التصدي للقيادة بآيات من القرآن الكريم؛ منها قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[٣]، أي من يقتل نفسًا فكأنما قتل الأنفس كلها، ومن أحيا نفسًا فكأنما أحيا الأنفس كلها.

وإذا كان للقيادة كل هذا الدور الكبير في إحياء الناس وفي تنظيم شؤونهم وفي الأخذ بأيديهم في تحقيق تطلعاتهم فهو إحياء للأمم. وكذلك فإن الفراغ القيادي يؤدي إلى اختلال التوازنات وإرباك الحياة وتعطيل المصالح وإزهاق الأرواح. فإذا كان هنالك شخص تتوافر فيه المواصفات القياديّة وهو قادر على أن يمارس الدور القياديّ على كل المستويات ولا يتصدى لهذا الدور، يكون سببًا في إزهاق الأرواح، وإذا تصدى يكون سببًا في إحيائها.

لذلك يجب على من تتوافر فيه هذه الصفات وهذه الشروط أن يتصدى لمواقع الإدارة والقيادة، ومن هنا تصبح عملية التصدي وتحمل المسؤولية بحسب هذه النظرية واجبًا من الواجبات الشرعيّة والوطنيّة على كل أبناء الشعب، فيجب التصدي على من يجد في نفسه الكفاءة والقدرة على أداء هذه المسؤولية؛ إذ على الإنسان أن يقف في خدمة وطنه وفي خدمة مواطنيه، وأن يناصر شعبه وأمته.

٣. سورة المائدة: الآية ٣٢.

سعة مفهوم القيادة

ولا نعني بالموقع القياديّ والدور القياديّ، أن يكون الشخص رئيسًا للجمهورية أو رئيسًا للوزراء، بل لهذه الأدوار القياديّة مراتب ومستويات، فمثلًا على الصعيد الفردي، هناك شخص ناجح في مشروع تجاري صغير ويقود هذا المشروع ويحقق أرباحًا مجزية، فهذا موقع قيادي، وعلى صعيد الأُسرة، هناك شخص قادر على إدارة أُسرته والأخذ بأيديها لما فيه تطلعاتهم المشروعة، فهذا دور قيادي أيضًا، وعلى صعيد المجتمع، هناك شيخ عشيرة قادر على توحيد الناس وحل مشاكلهم ومعالجة اختلافاتهم والأخذ بأيدي عشيرته إلى ما فيه الصلاح والرشاد، فهذا دور قيادي أيضًا، وهكذا هو الأمر في الجامعة والدائرة والمستشفى والأجهزة الأمنية وفي كل مكان يمكن أن يكون للإنسان فيه دور قياديّ.

فلا نقصد بالدور القياديّ موقعًا واحدًا، وهو من يقود أُمة من الناس فقط، وإنما يمكن أن يكون لهذا الدور سلسلة من المراتب؛ فيبدأ من الدوائر الضيقة ويتسع ليشمل من يقود أُمة من الناس.

أسباب تخلف الحكم

واليوم، إذا أردنا أن نؤشر على أهم إشكاليّة أدت إلى تلكؤ وتأخر الكثير من المصالح - واعتقد بأننا لن نختلف في هذه الإشكاليّة - فإنما هي عدم وضع الرجل المناسب في الموقع المناسب، حتى قيل إن هناك شخصيّة سياسيّة كبيرة في إحدى الدول العظمى، كان نائبًا للرئيس، وبعد ثلاثين سنة تبيّن أنه عميل لدولة أُخرى، ولكن كلما راجعوا سلوكه وأداءه، لم يجدوا أي ارتباطات مشبوهة أو سلوك مشبوه، أو مواقف مشبوهة، وبعد القبض عليه اعترف بأن مهمته خلال الثلاثين سنة الماضية كانت تنفيذ كل ما طُلب منه، وهو أن يضع الشخص غير المناسب في المكان الذي لا يناسبه، وإذا كان هناك شخص مناسب في مكانه المناسب، يسعى لتبديله بشخص غير مناسب. وهذه المهمة وحدها كافية لتعطل البلد!.

إن على الأمة أن تعطي الراية لأهلها، وتسلم المهمة لمن هو أهل لتحمل أعبائها، ثم انظروا كيف سينطلق البلد وبنفس الميزانية والإمكانيّات، وبنفس الأخطار. وكل ذلك لا يحتاج إلاّ إلى أن نضع الرجل المناسب في المكان المناسب، بعيدًا عن المحسوبيات والمنسوبيات، أي لا يكون المعيار أن هذا الشخص من حزبي أو من جماعتي أو من طائفتي

أو من قوميتي أو دياتني، بل ينبغي ملاحظة ما يحتاج إليه هذا الموقع من المواصفات والمقاسات والمعايير، فلا نحدد الأشخاص أولًا ثم نقول بعدها كيف سنكيّف الموقع معهم؟!، بل يجب علينا في البداية أن نضع المعايير التي يحتاج إليها هذا الموقع، ثم نبحث عن الأشخاص الذين يناسبونه.

ولكن الأمور على عكس ذلك في الواقع، فنرى أن الشخص الفلاني مثلًا يوضع في الوزارة الفلانية وعمره تسع وعشرون سنة، مع أن القانون ينص على أن الوزير يجب ألا يقل عمره عن ثلاثين سنة، فيقومون بتغيير القانون، ليشمل من كان عمره تسعًا وعشرين سنة. وهكذا نبدأ بتكييف المواصفات والشروط على قياس هذا الشخص، فلا يكون الموقع هو الأساس ثم نبحث عن الشخص الملائم له.

وهكذا يجب أن يكون الوزير في وزارة خدمية من أهل الاختصاص في تلك الخدمة التي يقدمها، فلا يأتي وزير ليس له أي علاقة بتلك الوزارة، فمثلًا يعين طبيب في وزارة ليس لها علاقة باختصاصه ومعلوماته، وهكذا في المسائل الأخرى، نحتاج إلى أن يتصدى من يجد في نفسه الكفاءة وتتوافر فيه المواصفات، ويجب أن تُعطى هذه القضية الأولويّة والأهمية الكبيرة جدًا. وهذا درس عظيم نأخذه من النظرية الإسلاميّة في القيادة و الإدارة.

تأكيد الروايات على ضرورة التصدي للقيادة

نجد أن العديد من الروايات جاءت لتؤكد ضرورة التصدي للأدوار القياديّة لمن هو أهل لها، كقول رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[٤]. فمن يقول أنا عراقي، وعنده القدرة على أن يقدم شيئًا ولا يقدمه لهذا الوطن فهو ليس منه، وليس له الحق في أن يدّعي الانتماء لهذا الشعب وهذا الوطن وهذه الأمة.

وورد عن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أيضًا قوله: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ»[٥]، فكل فرد يتحمل المسؤولية، ولا يحق لشخص في النظرية الإسلاميّة أن يقول لا يهمني الأمر، أو يقول هذا ليس عملي ولم يكلفوني به، كلا، فما دام يجد في نفسه القدرة، يجب عليه أن يتصدى ويتحرك ويعبّر عن طاقاته.

---

٤. الكافي ٢: ١٦٣ح١.

٥. بحار الأنوار ٧٢: ٣٨ ح٣٦.

وكم هي الطاقات الهائلة في الأمه التي ضاعت لعدم وجود من يستثمرها ويعطيها الفرصة، فنحن لا توجد لدينا أزمة عقول، ولا أزمة طاقات، ولا أزمة في الكوادر البشرية النوعية، بل لدينا أزمة في وضع الشخص المناسب في المكان المناسب.

لقد أخبروني أن هناك قسمًا خاصًا في وزارة التخطيط العراقية يضم عقول العراق، وظيفتهم وضع نظم وسياقات للإدارة والقيادة لمؤسسات الدولة، وقد صرفوا الكثير من الجهد والوقت حتى تعلموا وتخرجوا وأخذوا الشهادات العالية، وجاؤوا فرحين يريدون أن يبنوا دولة مؤسسات. فقلت: عجبًا، هذه من الأمور النادرة، ولا بُدَّ من أن هؤلاء ليس لديهم وقت لأي أمر آخر. فقالوا: كلا، إن هؤلاء عاطلون وليس لديهم أي عمل.

وعندما سألوني: لماذا لا تُستثمر طاقات هؤلاء الأشخاص؟، قلت: إن هؤلاء لديهم معايير علمية، وعندما يدخلون أي دائرة أو أي وزارة يطلبون ترتيب الأمور ضمن تلك المعايير، وهذه المعايير تقول إن فلانا الفلاني الذي هو في منصب مدير عام يجب أن يُنقل، ولكن هذا المدير هو ابن عم الوزير، وكذلك مدير القسم غير مناسب أيضًا ويجب أن يُغيَّر، ولكن هذا الآخر هو من حزب الوزير، وهكذا سيجدون أنفسهم أينما دخلوا يرتطمون بجدران كونكريتية لا يستطيعون أن يتجاوزوها، ولكي يُستراح منهم يقال لهم منذ البدء: أنتم لا تناسبوننا، وهذه المناصب قد وُزعت بيننا، والعراق كعكة قُسمت وانتهى الأمر، ولن نسمح لأحد أن يأتي ويعيد ترتيب الأمور على غير ما هي عليه. وهكذا هم يعملون وفقًا لأهوائهم؛ هذا يأتي وذاك يخرج والعراق له الله، الذي هو لهم بالمرصاد.

اليوم يجب علينا أن نأخذ فرصتنا، فعقول العراق جالسون في هذا القسم ليس لديهم عمل، ويقدمون دورات مجانية لمنظمات المجتمع المدني؛ لأن الدولة العراقية لا تريدهم، فذهبوا لإقامة دورات لهذه المنظمة وتلك المؤسسة لتستطيع أن تبني نفسها بالشكل الجيد والصحيح.

إن وضعنا كارثي في هذه الأمور، ولا أحد يصارح الناس، ولا أحد يتحدث في هذه الحقائق، ثم نقول لماذا كل هذه المشاكل؟، ولماذا البلد معطل؟، ولماذا البيروقراطيّة الإداريّة؟، ولماذا هذا الدور الكبير للمحسوبيّات والمنسوبيّات؟، ولماذا المواطن الذي لا يرتبط بكيان سياسيّ أو جهة معينة، يكون ظهره مكشوفا وقلبه يرتجف حينما يدخل إلى أي دائرة؟. إن الأسباب والعلل واضحة ويجب أن نعالجها، ولا نلوم أنفسنا، ولا نقول إن قَدَرَنا أن نبقى في حالة من التراجع والتخلف. إن بإمكاننا أن نكون على أفضل حال إذا ما أخذنا بالمعايير الصحيحة.

أهميّة الدور القيادي في تحقيق العدالة

إن التركيز الكبير على العدل والقسط في القرآن الكريم ـ فقد وردت خمس عشرة آية تدل على وجوب العدل، وثماني عشرة آية تؤكد على وجوب القسط ـ يشير إلى أهميّة العدالة الاجتماعيّة وتكافؤ الفرص بين الناس. والدور القيادي هو السبيل الذي يحقق هذه العدالة ويكرسها في المجتمع، لذلك فإن الدور القيادي ليس دورًا مغضوبًا عليه لكي يسعى البعض للابتعاد عنه، فيقول ليس لنا علاقة بالسياسة، دعنا نذهب بطريقنا ونعد بطريقنا، وهذه السياسة لا نريدها، وهو كلام صحيح، ولكن أي سياسة؟ إنها بالتأكيد ليست السياسة التي نتحدث عنها، وليست هي الأدوار القياديّة التي تنهض بالأمم والشعوب، بل يقصدون سياسة المكر والخداع والتضليل والافتراء والمصلحية والرؤية الضيقة، ونحن جميعًا لا نريدها ويجب أن نبتعد عنها، ولكن ما نطمح إليه جميعًا هو الأدوار القياديّة التي يتحمل فيها الإنسان المسؤولية، ويجب أن نتحمل المسؤولية تجاهها.

فهناك فرق كبير بحسب الفهم الإسلامي بين السياسة بمعناها الانتهازي، بمعنى المكر والخداع، والالتفاف على الحقائق، وبمعنى استخدام كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للوصول إلى السلطة والنفوذ، وبين السياسة بالمعنى القيادي، التي تعني توجيه الناس وإدارة المجتمع بالنحو الذي يحقق الطموحات المشروعة للمواطنين، ونقل الناس مما هم عليه إلى ما يجب أن يكونوا عليه، ودفع المجتمع وبناء الحياة الاجتماعيّة على أساس الحق والعدل، وعلى أساس القيم والمبادئ، وعلى أساس الضوابط والمعايير والقوانين والسياقات التي لا يختلف فيها هذا عن ذاك، ولا يميز مواطن عن مواطن، وإنما تكرس العدالة الاجتماعيّة والحقوق المتكافئة بين الناس. والسياسة بهذا المعنى ـ أي ممارسة الأدوار القياديّة ـ هي التي يتحدث عنها الإسلام وتتحدث عنها النظرية الإسلاميّة.

والقيادة بهذا المعنى ليست حكرًا على أحد، وليست مختزلة في شخص واحد، ليس لنا قائد ضرورة في الإسلام، حتى لو كان القائد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ. القيادة بهذا المعنى تشمل كل أبناء المجتمع، وكل من يتصدى، وكل من يتحمل المسؤولية، وكل من يرعى هذا المشروع ويُسهم ويضع لَبَنَة في بناء المجتمع، فهو شخصية قياديّة، يتحمل مسؤولية كبيرة في بناء مشروع كبير يحقق أحلام الناس وطموحاتهم المشروعة في الحياة الكريمة.

وكل إنسان هو قائد في دائرة مسؤوليته؛ فهناك من يقود أسرة أو عشيرة أو قبيلة أو قبائل، وهناك من يقود مشروعًا تجاريًا بسيطًا أو مصنعًا أو مزرعة، وهناك من يقود أمة من الناس.

إذن، المفهوم القياديّ في الفهم الإسلامي لا ينحصر برجل واحد، ولا ينحصر بموقع واحد، وإنما هو موقع يمتد ليشمل كل المساحات، فكل إنسان في موقعه وفي ظرفه يمكن أن يكون قياديًا، فالموظف البسيط وعنصر الخدمة في مكان ما يمكن أن يكون عنصرًا قياديًا حينما يوظف طاقاته وإمكاناته في إنجاح المهمة المناطة به، ولو كانت مهمة متواضعة على مستوى تقديم خدمة أو تنظيف مكان، وصولًا إلى أخطر المواقع وأخطر الأدوار.

فالمفهوم القياديّ بحسب الفهم الإسلاميّ لا ينحصر في دوائر ضيقة، ولا في غرف مظلمة، ولا يُحتكر على رجالٍ أو أُسَر أو عناوين أو مواقع محددة، وإنما يشمل الأمة بكل مواقعها وكل مساحاتها. والقيادة بهذا المعنى تكتسب القدسية والاحترام، وتمثل ضرورة من ضرورات الحياة.

ضرورة توفير القيادات

كيف لنا أن نبني مجتمعًا، ونحدد مسارات تطور الشعوب والأمم، ونحقق الازدهار والإعمار والبناء والتنمية في كل مفاصلها ومجالاتها في مجتمع طامح إلى تحقيق المزيد من دون أن تتوافر الأعداد الكافية من الشخصيات القياديّة في أبناء المجتمع؟ وأين نحن من هذه النظرية وهذه الرؤية؟.

لقد بُنيت مجتمعاتنا على نظم لا تساعد على إعطاء الفرصة لتألق الشخصية القياديّة في أبناء المجتمع، فنحن في سياقات وظروف لا نبحث فيها عن قادة، بل نبحث عن مُقادين، نحن نريد من يقول نفّذ ثم ناقش، وهذا بعيد عن الروح القياديّة. لماذا أُنفذ قبل أن أُناقش؟ دعني أُناقش.. دعني أطرح رؤية.. دعني أبين وجهة نظري، فأنا المواطن البسيط أقرب إلى الحقيقة من القائد الأعلى في بلد ما أو وزارة ما أو دائرة ما.. من قال إن هذا الآخر يفهم أكثر مني؟، ومن قال إنه أصاب الحقيقة؟. إن هذا المجتمع حافل بالخبراء والكفاءات والقدرات والشخصيات الفذة التي تستطيع أن تقدم الكثير في بناء المجتمع.

إن مجتمعاتنا تقتل الروح القياديّة، واسمحوا لي أن أكون قاسيًا في هذه التعابير، تقتل الروح القياديّة على كل المستويات؛ فنحن لا نريد أن نجد من يفكر أحسن منا، ولا نريد أن يقدم أطروحة أفضل من أطاريحنا، لا نريد أن نحترم إرادة الناس وخبرات الناس، لا نريد أن نقف عند تجارب الناس، فالأنانية هي التي تكرست في خصالنا وطباعنا، وفي مواقع المسؤولية.

قطعًا لا أعمم، وليس من الصحيح التعميم، ولكن نتحدث عن ظواهر اجتماعية، سببت الشلل الكبير في البلاد اليوم، فالسادة المسؤولون في مختلف المواقع يعتقدون بأنهم الأعلم والأكفأ والأقدر والأحرص والأنزه من كل البشر، فلماذا يسمح للآخر وهو أفهم من الآخر؟، ولماذا يصغي للآخر إذا وجد أن رأيه وقناعاته هي المطابقة للحقيقة؟.

فمسؤولنا اليوم يقول بالعصمة لنفسه من حيث لا يشعر، ويتصرف كأنه معصوم، لا يقول إلا الحق، فيبرر كل موقف وكلمة وسلوك، حتى أن المواطن البسيط أصبح يجلس على شاشات التلفاز ويستمع إلى كبار المسؤولين وهم يُسألون في وسائل الإعلام؛ كيف تقيمون التجربة الماضية وقد انتهت أربع سنوات؟، وهل تجدون أنكم وقعتم في خطأ ما؟، فتجد عددًا مهمًا من المسؤولين يقولون إننا لم نقع في أي خطأ، وكل مواقفنا كانت في الاتجاه الصحيح، وكل تصريحاتنا كانت صحيحة، وكل قراراتنا كانت صحيحة، وكل إجراءاتنا كانت صحيحة.

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا، إذن، نجد البلد معطلا؟! ولماذا يشكو المواطن من آلام ومحن ومشاكل؟! وإذا كانت الأمور كلها تسير كالساعة في اتجاهات صحيحة، فيجب ألا يكون في البلد هذا المستوى من الخلل والأخطاء والمشاكل التي نواجهها ونعاني منها بشكل مستمر. إن هذه المشاكل والأزمات تكشف عن أن هناك أزمة قياديّة، وأن هناك فراغًا قياديًا حقيقيًا، وأننا لم نستنفر الطاقات والإمكانات الكامنة لأبناء شعبنا.

دعوة المخلصين الأكفاء إلى التصدي

إن النظرية الإسلاميّة تتحدث عن نمط آخر من القيادة، وتنظر إلى القيادة من زاوية أخرى بهذه السعة وبهذا الشمول. لذلك نجد الخلط الكبير بين الانتهازية السياسيّة وبين الأدوار القياديّة عند عدد كبير بين الناس، فما أكثر الناس الذين يتراجعون وينكفئون ويبعدون أنفسهم عن ساحة التصدي وتحمّل المسؤولية، وحينما تسألهم؛ لماذا تتركون ساحة العمل وأنتم تملكون الطاقة والقدرة على التصديّ؟. لماذا لا تقول كلمتك؟، ولماذا لا تخطو خطوة بالاتجاه الصحيح؟، يأتي الجواب الجاهز الناجز: ما لنا وهذه السياسة التي كلها لعب وتطاول وتجاوز على الناس، والتفاف على الحقيقة، ومكر وخداع؟، لا نريد أن نتلوث.

وهكذا ينزوي الطيبون والصلحاء والشرفاء والوطنيون والمخلصون بالتدريج، ولا يبقى سوى الانتهازيين والسيئين وذوي المصالح الخاصة وذوي النظرات الضيقة،

المستعدين لتقديم كل شيء من أجل الوصول إلى المواقع القياديّة والسلطة. وبهذا النحو ترون المخلصين يتهمشون في الوزارات وفي الدوائر، ويتصدى الآخرون. فلماذا يا مخلص تتهمش؟ ولماذا تنزوي؟ وربما يجيب أن القضية لم يعد لها لون ولا طعم، أريد أن أحافظ على سمعتي وتأريخي وسلوكي، فهذه السمعة الطيبة لا أبيعها بالدنيا وما فيها، والعمل السياسيّ أصبح يلوث سمعة الإنسان.

فأي نمط من أنماط السياسة هذا الذي يلوث السمعة؟! وأي نمط من أنماط التصدي صار يوقع الإنسان في هذه المطبات؟. إن الانتهازية تلوث، أما الأدوار القياديّة التي يقف فيها الصلحاء والشرفاء ويتحملون المسؤولية الجسيمة والعظيمة من أجل هذا الوطن، فهي عزة وكرامة وشرف. ألا يستحق هذا الشعب أن نقف اليوم معه، حينما نرى كيف يضحي العنصر الأمني الذي يقف في الشارع أو عنصر الجيش بحياته من أجل هذا الوطن ويقدم حياته وهو فرح؟!.

إن التأريخ الإنساني لا يحتفظ في ذاكرته إلا بعدد محدود من نماذج قد رأيناها في هذا الشعب بأم أعيننا، فما أكثر العناصر الأمنية التي شخصت انتحاريًا يريد أن يفجر نفسه وسط جمع من الأبرياء، فاندفعت تضحي بأنفسها من أجل إنقاذ حياة الآخرين، وقد استشهد الكثيرون بهذه الطريقة من التضحية الطوعية، وقدموا أنفسهم وأرواحهم رخيصة من أجل الوطن، ومن أجل القيم، ومن أجل المواطن. أفلا يستحق أن نضحي بسمعتنا من أجل هذا الوطن، ومن أجل هذا المواطن؟!.

وحينما نشيع هذه الثقافة، يشعر كل إنسان له قدرة على ممارسة دور قيادي، في أي مستوى من هذه المستويات، بمسؤوليته فيقف ويدافع ويصلح في مساحته، وكلما كان الإنسان في موقع أكبر، كانت مسؤوليته أعظم، ولكن المسؤولية لا تسقط بحال من الأحوال. إن البعض يخشى على سمعته أكثر مما يخشى على حياته، فيقبل أن تُستهدف حياته من أجل هذا الوطن ومن أجل هذه القيم، ولكنه يخشى على سمعته أن يمسها ما يشينها حينما يدخل معترك الصراع السياسيّ. فلتسقط هذه السمعة إذا كان الطريق صحيحًا، وإذا كانت الخطوات التي نخطوها لمجتمع صالح وطامح للحق والحقيقة والبناء والتطور والازدهار، ولنقدم هذه السمعة قربانًا للشعب الذي يقدم في كل يوم عشرات القرابين على أيدي الحاقدين والماكرين من أجل الانعتاق من الظلم والتحرر من الجهل والتخلف والمرض.

وليعلم كل من يريد أن يتصدى أنه سيتعرض لسيل من الإشاعات والافتراءات منذ اليوم الأول. افتحوا الإنترنت وانظروا ماذا يتكلمون؟! فما أكثر الشبهات!، وما أكثر الاتهامات!، وما أكثر المعلومات الخاطئة التي تُذكر تجاه الأشخاص!. في يوم من الأيام بحثت في الإنترنت عن اسم عمار الحكيم، فظهر (١٩٨) ألف مكان فيه عمار الحكيم، فقلت: يا ساتر يا الله، هل أنا مهم إلى هذه الدرجة ولا أدري؟، وهذه باللغة العربية فقط، وفتحت بعضًا منها فرأيت العجائب والغرائب، رأيتهم يتحدثون عن أمور لا علم لي بها؛ فبعضهم يقول اشترى نصف العراق، وآخر يقول أخذ كذا وكذا من الأموال، وثالث يقول اشترى أساطيل، وهكذا. فقلت أين هؤلاء الذين يعطوننا أخبارًا عن ممتلكاتنا ولا خبر عندنا بها؟. كلها إشاعات واتهامات وافتراءات.

بل إني أسمع أكثر من ذلك؛ فقد تصل الحالة إلى أن البعض يذهب ليستغل هذا الاسم في هذه الدائرة أو تلك، ويدّعي أنه أتى من قبل فلان، وهو يريد أن يشتري أو يبيع، أو يريد صفقة معينة. وأنا لا أعرف مدى صدقية هذا الأمر، ولكنني قلتها لمرات، وأقولها من جديد، وأوجه ندائي لكل مؤسسات الدولة العراقية، ولكل مواطن شريف يطّلع على مثل هؤلاء الناس، أن يخبر الجهات والسلطات القضائيّة أولًا، وإذا تكرّم وأخبرني لأكون صوتًا آخر لملاحقة مثل هؤلاء الناس.

خادمكم (عمار الحكيم) ليست له أي مصالح اقتصاديّة أو عقود أو أي شيء، ولا يتدخل في هذه القضايا، وإذا قيل أي شيء في هذا الخصوص، فهو انتحال شخصيّة، ويجب أن يعاقب من يمارس هذا الانتحال.

إن من القضايا الأساسيّة والمهمة، أننا يجب أن نميز بين الانتهازية السياسيّة وبين الأدوار القياديّة، ولذا يجب ألا يزهد أي مواطن في أي موقع وفي أي دور يمارسه، وألا يفرط بفرصته للتصدي وتحمل المسؤولية وخدمة هذا الشعب، فنحن بأمس الحاجة لجميع الطاقات والقدرات والشخصيات الكريمة، ونحن بأمس الحاجة إلى كل جهد يُبذل من أي مواطن شريف لخدمة هذا الوطن. وبما أن هذه القضية من القضايا الشائعة، فما أكثر الطاقات التي نجدها تبتعد عن مواقع الخدمة والتصدي!؛ لأن الأجواء غائمة، والظروف صعبة، ولأن من يتصدى التصدي الشريف يتهم ويطارد ويحاصر. وهذا يجده الكثيرون مبررًا للابتعاد عن تحمل المسؤولية. ولهذا الاعتبار وقفت لأركز على هذه النقطة وأؤكد أن الفهم الإسلامي يرى أن هذا التصدي ضرورة من الضرورات لبناء

المجتمع والحياة الإنسانيّة، وعلى الغيور أن يتصدى ويتحدى ويتحمل الأعباء، فهذه مسؤولية لا يجوز التنصل عنها.

النصوص الدالة على تحمل المسؤولية

وعلى ضوء هذه الخلفية نستعرض بعض النصوص الشرعيّة من الآيات الكريمة والروايات الشريفة الواردة في هذا الموضوع، لنرى كم أن هذه القضية تحظى بأهمية بالغة في الفهم القرآني والفهم الإسلاميّ، ويجب أن نشيعها ثقافة لئلا يأتي شخص ويبرر لنفسه الانكفاء والانعزال بدعوى أن هناك أخطاء، فمن يصلح الأخطاء؟! وبدعوى أن هناك فسادًا، فمن يقاوم هذا الفساد؟! وبدعوى أن هناك ظلما، فمن يغير الظلم ويحقق العدالة الاجتماعيّة؟! ومن سيتحمل هذه المسؤوليات الجسام غير المؤمنين المخلصين من أبناء هذا الوطن؟!.

وبحسب هذه النصوص التي سنتعرف عليها ونستذكرها معًا، يتبين لحضراتكم أنه لا يحق لأحد أن يرى نفسه بعيدًا عن دائرة المسؤولية، فكلنا مسؤولون أمام الله (سبحانه وتعالى) في أن نوظف كل الإمكانات وكل الطاقات في خدمة وإصلاح هذا البلد الكريم.

أولًا: النصوص القرآنية

هناك آيات كثيرة بهذا الشأن لا نستطيع أن نستوعبها بأجمعها، ولكن نشير إلى نموذج منها يدل على أهمية التصدي وتحمل المسؤولية.

الآية الأولى: آية الحياة الطيبة

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٦].

يشير المقطع الأول من الآية الشريفة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إلى أن العمل الصالح والإيمان خصوصيتان إذا اجتمعتا معًا تحققت الحياة الطيبة، فكما أن العمل الصالح وحده لا يجدي فكذلك الإيمان وحده لا ينفع من غير عمل صالح.

ويشير المقطع الثاني من الآية الكريمة: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾ إلى أن المسؤولية تقع على عاتق الجميع، لا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة، والشخصية القياديّة والدور القيادي

---

٦. سورة النحل: الآية ٩٧.

لا ينحصر بالرجال دون النساء، وإنما يشمل الجميع، فكما لا يحق للرجل أن يتخلى عن المسؤولية بدعوى أن هناك خللا وأخطاء وتحديات، فكذلك لا يحق للمرأة أن تتخلى عن مسؤولياتها هذه أيضًا بمثل هذه الدعاوى.

ويشير المقطع الثالث من الآية الكريمة: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ إلى مسألة مهمة وهي مسألة الحياة الطيبة. والسؤال الكبير؛ كيف تتحقق الحياة الطيبة؟، وماذا يُقصد بالحياة الطيبة؟. مما لا شك فيه أنه لا حياة طيبة في ظل الفوضى واللانظام، وفي ظل اللامؤسسات، وفي ظل اللاقانون، وفي ظل المزاجيات والأنانيات والفئويات والمصالح الشخصية. وإنما تتحقق الحياة الطيبة ببناء دولة المؤسسات، وفي ظل الالتزام بالدستور والقانون، والالتزام بالمعايير الصحيحة في وضع الرجل المناسب في الموقع المناسب، وبوجود الخطط الواضحة التي توصلنا إلى التطور والبناء والإعمار والازدهار، فلا حياة طيبة بلا هذه الأمور على المستوى المادي.

كما أن الحياة الطيبة على المستوى المعنوي ودار الآخرة لا يحصل عليها الإنسان إلا من خلال خدمة خلق الله، وإلا من خلال الالتزام بالقيم والثوابت، وبالتالي لا يمكن أن نحصل على الحياة الطيبة بدون التصدي وتحمل المسؤولية.

فقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، الإيمان يعني الالتزام بالقيم، والعمل الصالح هو التصدي وتحمل المسؤولية. فلا تقل: إن الأمر لا يهمني، ولا يخصني، ولا شأن لي به. وإذا كان منطق كل واحد منا ذلك، إذن من الذي عليه أن يتحمل المسؤولية؟! إن علينا جميعًا بمنطق هذه الآية الشريفة أن نتحمل المسؤولية ونقف لنصلح الأخطاء، ولذلك تجدون أن عملية التصدي اعتبرت عملًا صالحًا في هذه الآية، وعبّرت عن التصدي بالعمل الصالح، فالله تعالى يشهد بالصلاح لأي تصدّ نافع يمكن أن يساعد في تصحيح المسارات، على أي مستوى، وفي أي دائرة، وفي أي حلقة من الحلقات.

الآية الثانية: آية المستضعفين الظالمين لأنفسهم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾[٧].

٧. سورة النساء: الآية ٩٧.

تضمنت الفقرة الأولى من الآية الشريفة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، الحديث عن حوار بين فئة من الناس وبين الملائكة، عندما تقبض أرواحهم وتتوفاهم وهم ظالمو أنفسهم، لم يظلمهم أحد من الناس. وعجيب معنى هذه الآية؛ فالإنسان قد يظلم نفسه أحيانًا، حينما لا يستثمر طاقاته وإمكاناته، وحينما لا يتعامل مع نفسه بالطريقة التي تليق بها، وبالطريقة التي لا تنسجم مع ما أراده الله سبحانه وتعالى لهذا الإنسان، فحينما يرتكب الإنسان المعصية، والعياذ بالله، يظلم نفسه قبل أن يظلم الآخرين.

أيها الإنسان إن الله سبحانه وتعالى أراد لك أن تكون عزيزًا كريمًا مرفوع الرأس، فلماذا تذلّ نفسك بالمعصية؟ ولماذا تصغّر نفسك والله تبارك وتعالى يريد أن تكون كبيرًا؟ ولماذا تنزل إلى الهاوية بهذه الطريقة والله جل جلاله يريد لك الكمال؟ ولماذا تقنع بالمواقع الدنيا وأنت كبير؟ ولماذا تتعامل تعامل الصغار؟ بالله عليكم هل رأيتم رجلًا كبيرًا يضع في فمه ما يضعه الطفل (مصاصة) ويصبح أضحوكة في المجتمع؟! ونفس هذه (المصاصة) لا يقبلها من كان عمره أربع سنوات، وقد كانت أمه تضعها في فمه عندما كان عمره سنتين، يقول لها الآن: لا أريدها؛ لأنه صار له وضع خاص. وأنت الآن كبير فلماذا تتعامل تعامل الصغار؟، لا يليق بالإنسان أن يكون هكذا.

معنى الاستضعاف

لقد اعتذر الظالمون لأنفسهم عن سؤال الملائكة: (فيم كنتم؟)، لماذا ظلمتم أنفسكم؟: ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾. فما معنى الاستضعاف؟. ذهب البعض إلى أن الاستضعاف ذو بعد اقتصادي، فمن لا يملك مالًا يعتبر مستضعفًا. وذهب آخرون إلى أن الاستضعاف ذو بعد فكري، فحينما تعيش أوساط من المجتمع حالة الجهل وعدم الوعي الكافي وعدم التعرف على الحقائق تكون مستضعفة. والسؤال: لماذا نعيش الجهل وأمامنا الفرصة بأن نكون من أهل العلم والمعرفة؟.

ومن مصاديق الاستضعاف هو الاستضعاف الديني، ويظهر حينما يكون الإنسان مخلًا بالتزاماته الدينية وغير عارف بالأحكام الشرعيّة وبصحة أعماله الدينية. فترى أحدهم وقد بلغ من العمر خمسين أو ستين عامًا وهو لا يعرف كيف يتوضّأ أو لا يعرف كيف يصلي!، ويعتذر بأنه هكذا قيل له. ألم يكن الأجدر به أن يفتح كتابًا ليقرأ فيه أو يذهب

ليسأل ويتعلم؟! وأمثال هؤلاء يُسألون يوم القيامة فيقولون: كنا لا نعلم، فيقال لهم: أفلا تعلمتم[٨].

وهناك مصداق آخر من مصاديق الاستضعاف وهو الاستضعاف السياسيّ، وهو من أهم مصاديق الاستضعاف. فمن يتخلى عن مسؤولياته وواجباته تجاه المجتمع وتجاه الوضع السياسيّ القائم من غير علة، هو من أفراد هذا النوع من الاستضعاف. وتراهم يرددون أن هذه الأمور لا تخصنا ولا علاقة لنا بها، ويتساءلون لماذا نخرج للانتخابات؟، وما فائدتها لنا؟، وماذا سوف يحدث لو لم نشارك؟، كل من يأتي للسلطة نسمّيه عمّنا. وهذا استضعاف سياسيّ، ويتحقق حينما لا يبذل الإنسان الجهد الكافي في البحث وإعطاء الثقة للمؤمنين المخلصين من الوطنيين، الذين يمكن أن ينهضوا بالبلاد. فأحيانًا قد يمنح الإنسان الثقة لأشخاص غير كفوئين بسبب تقصيره في البحث عنهم، وحينئذ لا ينفع أن يعض على أصابعه ندمًا، حيث لا تنفع الندامة.

ومن مصاديق الاستضعاف السياسيّ أن يترك المؤمنون كلهم العمل السياسيّ والتصدي وينزووا بعيدًا، بذريعة الخوف من التلوث في مستنقع السياسة الآسن، ولتبقى سمعتهم طيبة. وحينئذ يصبح البلد بيد غير الطيبين، وغير النزيهين، وغير الوطنيين، وهذا يعني أنهم سيأخذون البلد إلى ما لا تُحمد عقباه، فيشيع الظلم ويتمكن الظالمون منّا. وهذا الاستضعاف السياسيّ خطير جدًا، فإنه يعني الاستخفاف بالمجتمع العادل، والاستخفاف بالقيم الاجتماعيّة، والاستهانة بالدور المطلوب من الصلحاء في تقويم المسارات وتصحيحها. وهو يترك آثارًا عظيمة في مستقبل البلد أيضًا.

الحساب العسير

وعندما يقف المستضعفون للحساب غدًا أمام محكمة العدل الإلهيّ، سيكون جوابهم بأنهم كانوا مستضعفين: ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾، وهم يعتقدون بأن هذا الجواب سينجيهم من العذاب الأليم، ويأتي رد الملائكة كالصاعقة على رؤوسهم بما لم يتوقعوه: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾، لماذا لم تغيّروا هذا الواقع؟، ولماذا لم تصحّحوا هذه المسارات الخاطئة؟، ولماذا رضيتم بأن تكونوا عرضة للظلم والعدوان؟. وينتظر الملائكة الجواب ولكن من غير جدوى، إذ يسود صمت مطبق من هول المفاجأة.

---

٨. انظر: بحار الأنوار١: ١٧٨ ح٥٨.

ثم تنتهي الآية بهذه المفردة وبهذا النص المعبّر: ﴿فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. لا تعتذروا وتقولوا: كنا مستضعفين، فلا تكفي هذه الحجة، وهذا العذر غير مقبول في منطق السماء، وحينها سيساقون إلى جهنم سوقًا، وستكون جهنم مأواهم الأبدي، وساءت مصيرًا. لا يُقبل من الإنسان في يوم القيامة مثل هذه الأعذار الواهية: والله لا نقصد، والله لا يخصنا هذا الأمر، والله نبقى في بيوتنا أحسن. لماذا لا تتصدّى عندما ترى الخطأ؟، ولماذا لا ترفع صوتك ضمن القانون وضمن السياقات المتاحة؟.

يجب أن نعمل لإصلاح المجتمع، وإلا فهذه هي النتيجة، وأنتم تجدون كيف أن هذه الآية الشريفة واضحة في بيان أهمية التصدي وتحمّل المسؤولية وتغيير هذا الواقع.

معنى الهجرة

يسأل الملائكة هؤلاء المستضعفين: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾، فما معنى الهجرة؟ هي الانتقال من حالٍ إلى حال، سواء كان هذا الانتقال مكانيًا أو ظرفيًا يغيّر الواقع، فيهاجر المستضعف من حالة الظلم إلى حالة العدل، ومن حالة الفساد والارتشاء والمواقف غير الصائبة إلى حالة النزاهة والصدق والمواقف النزيهة والصحيحة. فهذا أيضًا نمط من أنماط الهجرة.

وهذه الآية صريحة في المسؤولية العظيمة الملقاة على عواتقنا، وهي تُحمّلنا مسؤولية التصدي في كل المواقع لإصلاح واقعنا الاجتماعي. لا تتصوروا أن الواقع يتغير بالمعاجز الإلهيّة، فالله تعالى هو الذي أراد لنا أن نغيّر ما بأنفسنا أولًا لكي يغيّر واقعنا، قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٩]. فالتغيير يبدأ منا، ولا يمكن تغيير هذا الواقع بأن يتكل كلٌ واحد منا على الآخر، أو يلقي المسؤولية على كاهل الحكومة فقط. فما هذه الحكومة؟ هل هي مجموعة أنبياء، أو هم بشر مثلنا ومن بيننا؟. نعم، الحكومة ومواقع المسؤولية الكبيرة والصلاحيات والإمكانات تحمّلهم مسؤوليات أعظم من عموم المواطنين، لكن التكليف لا يسقط عن أحد، وكل واحد منا يتحمّل المسؤولية بحسب قدراته وبحسب ظروفه.

٩. سورة الرعد: الآية: ١١.

الآية الثالثة : آية ظالمي أنفسهم من غير المستضعفين

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِين﴾[١٠] .

يشير المقطع الأول من الآية الكريمة إلى فئة من الناس تتوفاهم الملائكة يوم مغادرتهم الحياة الدنيا إلى النشأة الأخرى ، حيث يبدأ الحساب وتبدأ المساءلة ، وقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم ظالمو أنفسهم ، ولم يظلموا أحدًا ، وأشد الظلم أن يظلم الإنسان نفسه ، فهذا الذي لا تنجو منه نفسه من باب أولى لا يسلم منه الآخرون . والسؤال ؛ كيف ظلم هؤلاء أنفسهم ؟ .

وتشير الفقرة الثانية من الآية الكريمة : ﴿فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ إلى أعذار هذه الفئة من الناس حين المساءلة ، إذ قالوا : ما عملنا سوءًا ، وما شاركنا الظالمين في ظلمهم ، وما وقفنا مع الظالمين لنساعدهم ونُعينهم وننصرهم على ظلمهم . إذن ما العمل الذي عملوه لكي يستحقوا وصف الظالمين لأنفسهم ؟ ، إنهم سكتوا عن الظلم وتركوا التصدي والانتصار لأنفسهم ، ولم يقفوا بوجه الاعتداءات ، ولم يقفوا بوجه الظالمين .

وفرقٌ كبير بين من يشترك في الظلم ويكون من عصابة الظَلَمَة ، وبين من لا يشترك ولكن لا يتصدى لمواجهة الظلم وتقويم الانحراف وتصحيح المسار وبناء المجتمع العادل الصالح ، وقد وصفهم الله عزّ وجلّ في قرآنه الكريم بأنهم ظالمو أنفسهم ، فهؤلاء ظلمة أيضًا مع أنهم لم يشتركوا مع الظالمين ولم يناصروهم ، وقد نقل على لسانهم من لا يُخطئ ولا يكذب : ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ ، نحن لم نقم بعمل سيّئ ، ولكننا لم نقف بوجه العمل السيّئ ، وكان موقفنا هو عدم المبالاة ، وعدم التصدي للعمل السياسيّ والاجتماعي ، وعدم المشاركة في تقويم الانحراف . وكان تقييم الله سبحانه وتعالى لهم بأنهم ظالمو أنفسهم .

إذن ، لا يقبل الله تبارك وتعالى العذر من الإنسان بأنه لم يشارك في ظلم أو إساءة ، ولا ينجيه في يوم الحساب العسير قوله : أذهب بطريقي وأرجع بطريقي . فإنه حتى لو لم يظلم أحدًا ، وحتى لو لم يُعن على الظلم ، فإنه يكفي في الإدانة أنه لم يقف بوجه الظالمين ، ولا ينفعه قوله : ليس لنا علاقة ، وما لنا والدخول بين السلاطين ، وهذا شغل السياسة

---

١٠ . سورة النحل : الآيات ٢٨ ـ ٢٩ .

وشغل أحزاب وأُناس أصحاب مصالح، ليتنصل من المسؤولية. فمن قال إنّ السياسة كلها مصالح شخصيّة وفئويّة وحزبيّة؟!.

إذا أنت لم تتصدّ أيها المواطن الشريف، وإذا لم يتصدّ الطيبون، وإذا لم يتصدّ الشرفاء، فمن المؤكد أن الساحة ستخلو لأولئك الانتهازيين الذين يبحثون عن مصالحهم الحزبيّة والفئويّة والشخصيّة. ولكن المؤمن حينما يتصدى، والإنسان الصالح حينما ينبري ويتحمل المسؤولية، فحينئذ لا مجال لبقاء الأُمور على سياقاتها السلبيّة.

وتشير الفقرة الثالثة من الآية الكريمة: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، إلى المصير الذي ينتظر هؤلاء القاعدين عن التصدي لتغيير الواقع السيئ بلا عذر، سوى أنهم لم يعملوا سوءًا. ولاحظوا كيف يعبّر القرآن الكريم عن هؤلاء الناس فيقول: أيها الإنسان حينما لا تتصدى ولا تتحمل المسؤولية، فأنت متكبّر على الله. يصفهم الله العزيز الجبار بالمتكبرين فيقول: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾. فيجب على كل واحد منا أن يقف ويتصدى ويتحمل مسؤوليته الاجتماعيّة، بحجمه وظروفه وقابلياته وقدراته. فصنف قادر على الكتابة، وصنف قادر على الخطابة، وصنف قادر على التعبئة، وصنف قادر على تنظيم شيء في مساحته.. وهكذا.

وربما يعترض البعض بأن الأمور كلها خطأ في خطأ، وكلها مشاكل، ولا نعلم من أين نبدأ. والجواب: ابدأ من نفسك، ولو أن كل واحد من الشرفاء والوطنيين العراقيين يبدأ من نفسه، ومن العمل الذي يمسكه، والمهمة التي بيده، والزقاق الذي يعيش فيه، والدائرة التي يتواجد فيها، والناس الذين يتعامل معهم، لقضينا على مساحات واسعة من الفساد، وأصلحنا الكثير الكثير من الأمور. وقد ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قوله: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»[١١]. فليبدأ كل منا من نفسه، ليبدأ من محيطه، من الناس القريبين منه. ولو كان كلٌ منا يتصدى ويتحرك بهذا الاتجاه، فسوف نرى أن الخير يعم ويشيع، والصلاح ينتشر ويتسع.

فحينما يقعد الإنسان عن أداء مسؤوليته ولا يكترث ولا يبالي، ويقول لا شأن لي بالناس، دعني من المشاكل ومن وجع الرأس، أذهب بطريقي وأرجع بطريقي، يكون قد تعالى عن الإرادة الإلهيّة، وتطاول عليها، فيصدق عليه أنه متكبر، وينتظره مأواه الأبدي البائس: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِين﴾.

---

١١. نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦.

الآية الرابعة : آية القتال من أجل المستضعفين

قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[١٢] .

لماذا لا تتصدون؟ ، ولماذا لا تواجهون؟ ، ولماذا لا تقفون بوجه الظلم؟ ، ولماذا لا تهبّون للدفاع عن الحق؟ ، ولماذا لا تنتصرون للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يدعون الله للخروج من البلد الذي يظلم أهلُهُ؟ ، ولماذا لا تقاتلون من أجل من لا يستطيع الانتصار لنفسه؟ .

وهنا سؤال يطرح نفسه على بساط البحث ، لماذا لم يدعُ القرآن الكريم للقتال من أجل جميع الناس ، واقتصر على الدعوة للقتال من أجل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يسألون الله تعالى أن يخرجهم من القرية الظالم أهلُها؟ .

إن هؤلاء المستضعفين لم يقصّروا في أداء واجبهم في الهَجرة والخروج من القرية الظالمة ، ولكنهم لا يستطيعون الخروج . إذن تكليف المستضعفين واضح وهو الهجرة ، ولا يجوز للإنسان أن يعرّض نفسه للاستضعاف . والهجرة هي الانتقال من مكان يتعرّض فيه الإنسان للظلم والاستضعاف ولا يستطيع إقامة شعائره الدينية ولا يستطيع تغيير الواقع الذي يعيش فيه ، إلى مكان آخر لا يتعرّض فيه لذلك ، كهجرة المسلمين في صدر الإسلام إلى الحبشة والهجرة إلى يثرب .

فالبلد الذي فيه ظلم وفوضى وفساد مالي وإداري واعتداء وعدم احترام للمعايير وخرق للقوانين والضوابط والسياقات ، ويتعرّض فيه الإنسان إلى الاضطهاد بسبب معتقداته ، يحقّ لأهله الذين يتعرضون لذلك أو يخافون أن يتعرضوا لذلك الهجرة إلى بلد آخر ، يكونون فيه في مأمن من الظلم ومصادرة الحريات وانتهاك الكرامات .

وهؤلاء المستضعفون الذين تتحدث عنهم الآية لا يقبلون أن يعيشوا في ظل حكومة فوضى ، ولا يقبلون بالظلم . والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه ، وعكسه العدل ، وهو وضع الشيء في موضعه . فالعين يجب أن ترى ماهو صالح ، وحينما ينظر الإنسان إلى ماهو صالح فهذا عدل بحق العين ، ولكن إذا نظر إلى ما هو غير صالح فهو ظلم بحق العين . وكذلك اللسان يجب أن ينطق بالحق والصواب ، فإذا نطق الإنسان بذلك يكون قد استخدمه استخدامًا عادلًا ، وإذا استعمله في الكذب والنفاق والنميمة إلى غير ذلك

١٢ . سورة النساء : الآية ٧٥ .

– أجارنا الله وإياكم من أمراض اللسان – فهو ظلم بحق اللسان. فاستعمال الشيء في ما وضع له عدلٌ، واستعماله في غير ما وضع له ظلمٌ.

وهذه الآية الشريفة تتحدث عن رجال ونساء وولدان لايقبلون بوضع الشيء في غير موضعه، فيعترضون ويتحركون ويسألون الله تعالى الخروج من هذه القرية الظالم أهلها، ويطلبون من الله تعالى أن يجعل لهم وليًا ونصيرًا لكي ينتصروا على أعدائهم: ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

ويشير القرآن الكريم في هذه الآية الشريفة إلى ضرورة التصدي لرفع الاستضعاف عن الناس، وكما قلنا سابقًا، فإن هذا الاستضعاف لم يكن استضعافًا ماليًّا فقط، فنحن نقول على الفقير إنه مستضعف، في حين أن هناك مراتب من الاستضعاف أشدّ من الاستضعاف المادي، وهو الاستضعاف الفكري والاستضعاف السياسيّ، حينما تصادر إرادة الشعوب والأمم.

وهذه الآية الشريفة تشير إلى ضرورة التصدي وتحمّل المسؤولية لرفع الاستضعاف، وضرورة النصرة لإخراج الناس من الواقع السيئ، ولكن ليس المراد بالناس هنا الناس الراضين بالظلم والمتعاطفين معه والمستفيدين منه، بل المراد من الناس هم الناقمون على الظلم ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، فهؤلاء الناس يريدون الانتقال إلى واقع آخر، فهم غير راضين بهذا الظلم، ولا يريدون فسادًا، بل يريدون نزاهة، ويريدون استقامة، ويريدون دولة مؤسسات، ويريدون احترامًا للقانون، ويريدون تكافؤًا للفرص، ولا يريدون أن يميز أحد على الآخر. إن هؤلاء الذين يسألون الله الخروج من القرية الظالم أهلها يريدون واقعًا آخر فيه عدالة وإنصاف. وعلى ضوء هذه الآية الشريفة يجب التصدي لتحقيق هذا الواقع.

الخامسة: آيات هلاك الأمم

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تشير إلى أن الظلم هو سبب حقيقي لضياع الحضارات وسبب لسقوط وهلاك الشعوب والأمم. فقد وردت أكثر من (٢٥) آية بهذا المعنى، وهذه الآيات تجعلنا أمام مسؤولية كبيرة للتصدي وإزالة الظلم وتقويم الانحراف، ولبناء الحياة الاجتماعيّة على أسس صحيحة. وهذه الآيات تحمّلنا المسؤولية الكبيرة في إدارة الحياة الاجتماعيّة بشكل صحيح.

منها:

١ - قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾، فالظلم كان سببًا في هلاك تلك الشعوب والأمم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾[١٣]، فحينما يشيع الظلم في أي شعب وفي أي أمة، فاعلموا بأن الهلاك قادم لا محالة وإنْ تأجل، وأنّ للظلم وللظالم نهاية محتومة في انتظاره، ويمكن أن تحافظ الشعوب والأمم على نفسها وتصون حضاراتها بتنظيم حياتها الاجتماعيّة، لتسير الأمور بسياقاتها الصحيحة.

إن آهات المظلومين التي تنطلق من قلب متصدّع لظلامة تلحق به أقوى عند الله من صولات الظالم، مهما كانت إمكاناته وفرصه ومواقعه. فالشعب الذي يرزح تحت الظلم لا بُدَّ من أن يتخلص يومًا من الظلم، والظالم لا يمكن أن يبقى ويستمر، وسياقات الظلم هي سياقات بعيدة عن الفطرة الإنسانيّة، قد تطول سنة أو سنتين، أو عشرًا أوعشرين، ولكنها ستنهار، وكم رأينا من إمبراطوريات عظمى بُنيت على أساس الظلم وسرعان ما انهارت وتفككت.

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[١٤]. أي حينما يظلمون نهلكهم، فالهلاك بالظلم. وهذه الآيات تشير بوضوح إلى ضرورة التصدي وتحمل المسؤولية في إدارة الحياة الاجتماعيّة.

السادسة: الآيات الآمرة بالجهاد والتصدي

وهناك أيضًا العديد من الآيات القرآنية الشريفة التي جاءت لتأمر بالجهاد والتصدي لدفع الظلم والوقوف بوجهه، وهي تشير بوضوح إلى أهمية وضرورة التصدي لتنظيم الحياة الاجتماعيّة وتقويم المسارات وتصحيح الانحرافات.

منها:

١- قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ

١٣. سورة الكهف: الآية ٥٩.

١٤. سورة القصص: الآية ٥٩.

إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[١٥] .

الفقرة الأولى من الآية الكريمة : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ ، تؤكد أنهم إنما أُذن لهم بالقتال والتصدي وتحمل المسؤولية والمواجهة بسبب تعرضهم للظلم ، فحينما يتعرض الإنسان إلى الظلم لا ينبغي أن يخضع ويركع ، وينبغي أن يندفع للمواجهة ، ولا يقبل بالظلم ، وألا يعتذر بأعذار واهية ؛ مثل أخاف أن أتكلم ويكتب عني المخبر السري تقريرًا ، أو أخاف أن أتكلم بقضية فأجد أمامي مائة قنبلة موقوتة في داخل الدائرة أو الوزارة أو المكان الذي أعمل فيه . كلا ، فحينما نستسلم من أجل الحفاظ على قضايا بسيطة نفرّط بقضايا كبيرة ، وحينئذ ستضيع القضايا الصغيرة والكبيرة معًا ، فيجب علينا أن نقف وندافع ونحصّن أنفسنا بالقانون .

لا تتراجعوا أيها العراقيون ، وارفعوا رؤوسكم ، ودافعوا عن بلدكم ، ودافعوا عن القانون ، ودافعوا عن الدستور ، ودافعوا عن حقوقكم ، وستجدون الكثير ينصرونكم في هذا الحق ويدافعون عنكم ، فلا يمكن أن نخضع أو نركع أو نقبل بأي تهديدات وأي ضغوط من شأنها أن تحوّل هذه التجربة الفتية إلى تجربة ظالمة لنفسها .

وأشارت الفقرة الأولى من الآية الثانية من المقطع القرآني السابق : ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ، إلى أن الحق هو الأساس في تحديد الموقف ، فأي موقف يُبنى على أساس الحق ندافع عنه ، ونتمحور حوله ، ونقف معه . وأي خطوة ليست بحق وعلى خلاف الحق فسنقف بوجهها ولا نرتضيها .

وأشارت الفقرة الأخيرة من الآية الثانية : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ إلى أن الله عزّ وجلّ ينصر من يقف معه وينصره ويدافع عن الحق . فلا تخشوا أحدًا ، ولا تقلقوا فإن الله معكم ما دمتم مع الحق .

وأشارت الآية الثالثة من المقطع القرآني أعلاه : ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ إلى الفئة التي أُتيحت لها فرصة تسلّم الدور القيادي في المجتمع ، وتحمّل مسؤوليتها في كل المستويات ، ومنها التصدي إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتقويم الأمور ووضعها في السياق الصحيح ، ما يضعها أمام مسؤولية كبيرة وخطيرة .

---

١٥ . سورة الحج : الآيات ٣٩ ـ ٤١ .

٢- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[١٦]. فالهدف من إرسال الرسل وبعثة الأنبياء وإنزال الكتاب والميزان معهم هو إقامة العدل والقسط. وفي قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى بعث الأنبياء وأنزل معهم الكتاب والميزان لكي ينطلق الناس ويتحملوا مسؤولياتهم في المشاركة الواعية في تقويم الانحراف وتحقيق العدالة الاجتماعيّة انطلاقًا من هدي الأنبياء، وهذه نسميها المشاركة السياسيّة. وهي تعني المشاركة الواسعة للناس وتحمّل مسؤولياتهم على ضوء هدي الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وهكذا نجد عددًا من الآيات الشريفة التي جعلت التزكية هدفًا للأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[١٧]. فالتزكية هدف من أهداف بعثة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ويجب على الناس أن يتعاونوا بينهم حتى يحققوا المجتمع القيمي الذي يعتمد القيم والمُثُل والمبادئ، والذي تتحمل فيه الناس المسؤولية؛ إذ لا يمكن أن يكون المجتمع قيميًّا ولا تشيع فيه القيم النبيلة، إلا حينما تُرصّ الصفوف ويتحملون مسؤولياتهم في بناء الحياة الاجتماعيّة على أسس صحيحة وقوية.

إن جميع هذه الآيات والنصوص الشرعيّة واضحة البيان في أهمية التصدي وتحمل المسؤولية، ولا مجال لأحد أن يلتمس العذر وأن يتخلف عن أداء واجباته ومهامه في أي موقع من مواقع المسؤولية.

كيفية تحقيق أهداف الأمة

إن مفهوم القيادة في الإسلام هي نقل الناس مما هم عليه إلى ما يجب أن يكونوا عليه، أي توجيه الناس إلى ما فيه مصالحهم وإرضاء طموحاتهم وأحلامهم.

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف نحقق للناس وللأمة ما يطمحون إليه؟ وللإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نعرف أن عملية القيادة هي إدارة المجتمع باتجاه تحقيق مصالح الناس، ولهذا لا يمكن حصر الدور القيادي برجل واحد وموقع واحد، وإنما هي سلسلة من الحلقات والمفاصل والمواقع التي يكمّل بعضها بعضًا، لتشكّل المنظومة القياديّة في المجتمع. وعليه فإن كل إنسان مهما كانت مهمته ووظيفته الاجتماعيّة متواضعة يمكن

---

١٦. سورة الحديد: الآية ٢٥.

١٧. سورة الجمعة: الآية ٢.

أن يمارس دورًا قياديًا في إدارة عمله حينما ينجزه على أفضل وجه، وحينما يحقق أقصى حالات الطموح في ذلك العمل الخاص للموقع الذي هو فيه. وهكذا فإن العمل مهما كان متواضعًا فإن صاحبه يمارس دورًا قياديًا.

التعريف بشخصية مالك الأشتر وخصائص القيادة

لا بُدَّ لنا قبل الخوض في تفاصيل هذا العهد، من أن نقف عند مالك الأشتر، الذي خصه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا العهد، الذي اختزل فيه النظرية الإسلاميّة في مهمة أوفده بها لحكم مصر. فمن هو مالك؟ وما خصوصيات مالك؟ وكيف جسّد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه النظرية في تطبيقاتها العمليّة حينما أوفده في هذه المهمة؟.

إن الوقوف عند شخصية مالك سيشير إلى طبيعة العلاقة في المنظومة القياديّة بين القائد الأعلى والقيادات الوسطية. كما أن الوقوف عند خصوصيات مالك ورؤيته تجاه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ورؤية علي عَلَيْهِ السَّلَامُ تجاهه، يشير إلى الخصائص والمميزات والمواصفات الذاتية والموضوعية التي يجب أن تتوافر في من يتصدى للمواقع القياديّة.

ولد مالك في اليمن قبل البعثة النبوية الشريفة بفترة وجيزة، من قبيلة نخع، وهي قبيلة عربية أصيلة، ثم انتقل إلى العراق وأقام في الكوفة. وقد عاصر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ولكنه لم يلتق به ولم يسمع حديثه، وبالتالي لم يُصنّف من الصحابة، واُعتُبر من التابعين؛ لأنه لم يتشرّف بلقاء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مباشرةً، ولكن النصوص التأريخية تشير إلى أنه ذُكر عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فقال في حقه: «إنه لمؤمن حقًّا»[١٨]. وهذه شهادة كبيرة من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بحق مالك الأشتر. ووصفه بالمؤمن حقًّا يعني أنه يتميز بالمرتبة الحقيقية للإيمان، وفرق كبير بين من يدّعي الإيمان وبين من يكون مؤمنًا حقيقيًا، وحينما يشهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لمالك الأشتر بالإيمان الحقيقي فهذا يعني أن هذا الرجل كان يتصف بالمراتب العالية من التقوى والورع التي ينبغي أن تتوافر في المؤمن.

وهذا يكشف أيضًا عن أن مالكًا الأشتر لم يكن رجلًا نكرةً أو مجهولًا حتى على عهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بالرغم من فتوته وشبابه، وأن خبره كان قد بلغ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ والمسلمين حتى طُرح اسمه وجرى الحديث عنه في مجلس شارك به المسلمون وحضره رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

١٨. أعيان الشيعة ٩: ٤١.

وقد ورد في خصاله في الوثائق التأريخية وفي كتب التأريخ أنه:

«الكريم المُغدِق»، أي أنه ذو كرم وسخاء، وكان يعطي بكثرة من ملكه للآخرين، وهذه من الصفات المهمة التي ينبغي أن تتوافر في القيادة.

«والشجاع الفتّاك»، أي أنه لم يكن شجاعًا فحسب، بل كان فائق الشجاعة، وكان حينما يبرز في الحروب يصول ويجول فيها ويوقِع بالعدو أفدح الخسائر.

«والخطيب القدير»، أي كان خطيبًا مفوّهًا، يهيمن على سامعيه ويبعث فيهم روح الحماسة.

«والشاعر الصوّال»، أي كان شاعرًا بليغًا، ينظم الشعر متى أراد، وفي شتى أبواب الشعر.

وهذا التعريف يكشف عن تنوّع في شخصية مالك، إذ من الممكن أن يكون شخصٌ رجلَ حربٍ وقائدًا عسكريًّا محترفًا، ويكون آخرُ أديبًا شاعرًا، ويكون ثالثٌ اجتماعيًّا كريمَ النفسِ يُحسن التواصل مع الناس، ولكن من خلال هذه الأوصاف يتبين أن شخصية مالك الأشتر كانت جامعة مانعة، أي يتوافر فيه هذا التنوّع في الخصال الحميدة، سواء في المجال القيادي أو العسكري أو الاجتماعي أو الخصال الذاتية، إذ كان في كل هذه الأمور رجلًا مميزًا ومتألقًا.

وقد لُقب بالأشتر ـ والأشتر لغة من الشَتَر، والشَتَر هو الاختلال الذي يحصل في العين لسبب ما ـ لأنّه كان من المقاتلين الأشداء الذين وقفوا وذبّوا عن الإسلام فأُصيب بعينه في إحدى المعارك. وقد اختلف المؤرخون في المعركة التي أُصيب فيها، ورجح بعضهم أن ذلك كان في معركة اليرموك التي وقعت بين المسلمين والروم في السنة الثالثة عشرة من الهجرة، حيث أصابته ضربة سيف شجّت رأسه وأصابت عينه أيضًا، فحصل فيها نوع من الاختلال فأُطلق عليه الأشتر. وهو وسام شرفٍ للتصدي ولتحمل المسؤولية وللقتال ببسالة دفاعًا عن الرسالة الإسلاميّة.

وكانت له أدوار مهمة في حروب الردة، فقد دخلت مجاميع كبيرة من الناس في الإسلام بعد فتح مكة، ولكن بعد وفاة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وتخلّف المهاجرين والأنصار عن الإمامة وتحوّل الخلافة النبوية إلى ملك عضوض، نشطت حركات أدعياء النبوات الكاذبة التي كانت موجودة منذ حياة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ واستقطبت مجموعة من القبائل طمعًا في السلطة والسيطرة، وبدؤوا يشكّلون خطرًا على نفوذ الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية مما اضطر المسلمين إلى خوض حروب معها لإخضاعها، وسُمّيت هذه

الحروب بحروب الردة. وكان لمالك أيضًا حضور مهم ولافت في معركة اليرموك، وكان له دور مميز في القادسية وفي غيرها من الحروب التي شهدها المسلمون في صدر الإسلام.

ولكننا حينما نريد أن نقيّم موقف مالك الأشتر تجاه أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ ينبغي أن نستشف ذلك من خلال النصوص، فحينما نذهب لزيارة الأئمة الأطهار عَلَيهِمُ السَّلَامُ نجد بعض النصوص، مثل: «من زاره عارفًا بحقه دخل الجنة»[١٩]، والعارف بحق الإمام هو العارف بمنزلة الإمام، هذا في الزيارة فكيف في الموقف والنصرة؟! ولقد كان مالك الأشتر عارفًا بمنزلة علي عَلَيهِ السَّلَامُ، وكان متفهمًا لدور علي عَلَيهِ السَّلَامُ، ولم يكتفِ بهذه المعرفة وإنما كان يبينها للآخرين.

وهذه خصوصية مهمة للمنظومة القياديّة، وهي ربط الناس بالقائد، فقد عمل مالك الأشتر جاهدًا لتثقيف المسلمين على حقانية علي عَلَيهِ السَّلَامُ وعلى منزلة علي عَلَيهِ السَّلَامُ وعلى صفات علي عَلَيهِ السَّلَامُ؛ لأن الناس غير متساوين في إدراك هذه الحقائق. وقد لا يكون الكثير من الناس على احتكاك بالقيادة بشكل مباشر، فهذه المسؤولية يتحملها القادة في المنظومة القياديّة وعلى كل المستويات، بدءًا من الإنسان العادي الذي يمارس دور التصدي إلى أعلى المستويات. فالجميع يُعرِّف بعضهم بعضًا منزلة القيادة ويؤازر بعضهم بعضًا.

ولما بويع علي عَلَيهِ السَّلَامُ لخلافة المسلمين قال مالك الأشتر وهو يرى أن مسؤوليته هي ربط الناس بعلي عَلَيهِ السَّلَامُ: «أيها الناس هذا وصيّ الأوصياء، ووارث علم الأنبياء، العظيم البلاء، الحسن العناء في أيام الشدة، شهد له كتاب الله بالإيمان، ورسوله بجنة الرضوان، من كملت فيه الفضائل، ولم يشكّ في سابقته وعلمه وفضله الأواخر ولا الأوائل»[٢٠]، هكذا عرّف مالك عليًا عَلَيهِ السَّلَامُ للناس، فلم يكن علي عَلَيهِ السَّلَامُ وصيًا فقط، بل هو وصيّ الأوصياء ووارث علم الأنبياء، وهو العظيم البلاء، فشخصية علي عَلَيهِ السَّلَامُ تختزل هموم المجتمع وهموم الأمة، وهو الحسن العناء حينما تشتد الضغوط وتتبين هنالك قدرات القائد وصبره وحسن تعامله مع المشاكل والصعوبات والمحن والأزمات. وهو الذي شهد له القرآن الكريم بالإيمان، وشهد له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بجنة الرضوان. وهو من تجسدت فيه الفضائل بأتمها على أكمل وجه. وهو الذي لم يشكّ في سابقته

١٩. انظر بحار الأنوار ٢٨٦:٤٩ح١٠، ١٧٦:٥٦ح٩، ٩٧: ٢٢٧ح١.
٢٠. تاريخ اليعقوبي ٢: ١٧٩.

إلى الإسلام ولا في علمه وفضله أحد من الصحابة والتابعين. فيا أيها الناس اعرفوا من علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقفوا إلى جانبه، والتفوا حوله، فهو الوحيد الذي يمتلك هذا التأريخ وهذه الصفات. هكذا كان مالك يربط الناس بقيادة علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وفي خطبةٌ أخرى له كان يستعد فيها للقتال ويشحذ همم المقاتلين الذين يقفون ويدافعون عن المشروع الإلهيّ، يقول فيها: «معنا ابن عمّ نبينا، وسيف من سيوف الله علي بن أبي طالب، صلّى مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، لم يسبقه إلى الصلاة ذكرٌ حتى كان شيخًا، لم يكن له صبوةٌ، ولا نبوةٌ، ولا هفوةٌ، ولا سقطةٌ، فقيه في دين الله، عالمٌ بحدود الله، وعليكم بالحزم والجد، واعلموا أنكم على حق وأن القوم على باطل»[٢١].

أي إذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ غائبًا عنا فابن عمه حاضر بيننا، اليوم وأنتم تقاتلون تحت راية علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كأنما تقاتلون تحت راية رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ. وعلي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان دائمًا سبّاقًا للصلاة خلف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وكان يواظب على أداء الصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى الصلاة والاهتمام بها من سمات القيادة الإسلاميّة. وهو عالم بالحلال والحرام والواجب والمستحب والحدود الإلهيّة، ويعلم أين يقدُم وأين يتراجع ويتوقف.

وهذه كلها سمات مهمة في القيادة، فالقائد يجب أن يكون عالمًا باتخاذ الموقف الصحيح، وليس له أن يأخذ شعبه إلى حروب ويلقي بهم إلى التهلكة دون أن تكون هناك المبررات الكافية. وهو يعرف أيضًا أين يكون الإقدام وأين يكون الإحجام، وأين يرفع صوته وأين يخفضه، وأين يخفض جناحه للآخرين ويتعامل معهم برفق. وما دام عندكم قيادة بهذه المواصفات حاضرة معكم في هذه الحرب، فلا تأخذكم في الله لومة لائم، فالحزم والجد والوقوف مع القيادة واستنفار الطاقات وشحذ الهمم هي من السمات والمواصفات التي يجب أن تكون في الأمة التي تسير خلف قائدٍ تتوافر فيه المواصفات القياديّة المطلوبة.

ثم يخاطب مالك الناس فيخبرهم بأنهم على الحق وأن القوم على الباطل. ويبدو أن هذه الخطبة كانت في صفين؛ لأن مالكًا الأشتر كان القيادي الأساسي الذي قاد الحرب في صفين، وهو الذي رشحه الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للتحكيم، ولكن رفضه من رفضه ورشحوا بدلا منه أبا موسى الأشعري.

---

٢١. بحار الأنوار ٣٨: ٣٧١.

وفي صفين يلقي مالك خطبته موضحًا الحقائق الدامغة التي لا تقبل التزييف قائلًا: «إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدريين، قريبٌ من مئة بدري، سوى ما حولكم من أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، أكثر ما كان معكم راياتٌ قد كانت مع رسول الله هذه الرايات، وعدونا مع راياتٍ قد كانت مع المشركين على رسول الله، فمن يشكّ بقتال هؤلاء إلا ميّت القلب، أنتم على إحدى الحسنيين إما الفتح أو الشهادة. عصمنا الله وإياكم بما عصم به من أطاعه واتقاه، وألهمنا وإياكم طاعته وتقواه وأستغفر الله لي ولكم»[٢٢].

وفي هذه الخطبة يشير مالك إلى مجموعة من الحقائق لبيان أن الإمام عليًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وجيشه على الحق وأن معاوية وجيشه على الباطل، فيقول هل هناك إشارة أوضح على حقانيتكم من أن هناك مئة شخص قاتلوا في بدر تحت راية رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقاتلون اليوم تحت راية علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟، أنتم مع الحق، فلا تأخذكم في الله لومة لائم، ولا تلتبس عليكم الأمور.

ومن المعروف أن هذه الحروب التي خاضها الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الجمل وصفين والنهروان كلها كانت حروب داخل المجتمع الإسلامي بين المسلمين. فكان السؤال الذي تتداوله الألسن: كنا نحارب مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ الكفار والمشركين، وكانت الحدود واضحة؛ هذا مسلم وذاك مشرك، وأما اليوم فنحن نحارب مسلمين يصلّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم! ومن المعلوم أيضًا أن جيش معاوية في صفين رفع المصاحف بوجه علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن معه من المقاتلين. فذكّرهم مالك في خطبته هذه بأن عليًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع الحق، وذكر لهم الشواهد على حقانيتهم، قائلًا: إن الرايات التي معكم اليوم هي نفس الرايات التي كانت مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في غزواته، فلا تترددوا ولا تشكّوا وقفوا ودافعوا عن الإسلام مع علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وناصروا القيادة في تحدياتها وفي ما تواجهه من أجل إنقاذ هذه الأمة.

ثم يذكر شواهد أخرى على حقانية علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قائلًا: إن عدوكم مع راياتٍ قد كانت بالأمس مع المشركين تقاتل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فهذه الرايات التي ترونها اليوم في الجانب الآخر، هي نفسها التي رُفعت من قبل المشركين في الغزوات التي حاربوا فيها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ. ومن يشكّ بقتال جيش معاوية إلا إنسان ميت القلب. فمن لا يرى هذه الحقائق ولا يستطيع تمييز الحق من الباطل لا تكون له القدرة على أن

٢٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥: ١٩١.

يعرف القائد الذي يأخذ بيد هذه الأمة إلى بر الأمان، ويخلط بينه وبين من يدعو الناس إلى الهلاك ويفرّقهم ويُضلّهم ويحرفهم.

لاحظوا الوعي والبصيرة التي كان يقدمها مالك الأشتر لهؤلاء المقاتلين مع علي عَلَيهِ السَّلَامُ عندما يقول لهم: «أنتم على إحدى الحسنيين إما الفتح أو الشهادة». ففي القاموس الإسلامي لا يوجد شيء اسمه فشل، بل كله ظفر وفتح، إما فتح مادي بأن يتغلب الإنسان على الأعداء أو يوفق للشهادة في سبيل الله تبارك وتعالى، والشهادة هي إحدى الحسنيين.

ويختم مالك خطابه بالدعاء لنفسه وللمقاتلين في صفوف جيش علي عَلَيهِ السَّلَامُ بقوله: «عصمنا الله وإياكم بما عصم به من أطاعه واتقاه»، وبالفعل فإن الأمة بحاجة إلى عصمة وإلى حصانة وإلى مناعة لتشخص الحق وتقف معه. والإنسان بحاجة إلى الدعاء دائمًا، وخاصة في الأزمات: «اللهم أرني الحق حقًّا فأتبعه والباطل باطلًا فأجتنبه»؛ لأن الإنسان بحاجة إلى التمييز بين الحق والباطل، والتمييز بين من يدعو إلى الحق وبين من يدعو إلى الباطل، والتمييز بين القيادة التي تأخذ المجتمع إلى ما فيه صلاحهم وطموحاتهم وبين القيادة التي تأخذ المجتمع إلى ما يتقاطع ويتعارض مع صلاحهم. وهذه مسألة في غاية الأهمية.

هكذا كان مالك الأشتر في تقييمه لعلي عَلَيهِ السَّلَامُ، وفي حث الناس نحوه، وفي دعوة الناس إليه، وفي ربط الناس به.

مالك رجل المهام الصعبة

كان علي عَلَيهِ السَّلَامُ يعرف معادن الرجال، ويعرف من هو مالك، ولذلك كان مالك رجل المهام الصعبة. ففي معركة الجمل نجد مالكًا يقاتل ببسالة وشجاعة قلّ نظيرها. وعندما انتهى القتال أوفده علي عَلَيهِ السَّلَامُ إلى منطقة الجزيرة ليكون واليًا عليها، والجزيرة في ذلك الحين كانت تشمل ولاية الموصل بكل توابعها؛ الموصل وسنجار وغيرها من هذه المناطق، أي ما نطلق عليه شمال العراق اليوم، وكان علي عَلَيهِ السَّلَامُ يستعد لحرب صفين، إذ أرسل طلائع جيشه إلى صفين وجعل على مقدمتها زياد بن نظير وشريح بن هاني، وفي الطريق اختلفا في ما بينهما، فكان أحدهما يأمر بشيء ويأمر الآخر بنقيضه، وبقي الجيش متحيرًا.

إن من أخطر الأشياء حصول عملية التشكيك والتردد والاختلاف داخل المنظومة القياديّة، فحينما يختلف القادة في ما بينهم تُرى ماذا سيكون حال الجنود؟ وكيف يمكن أن تدار المعركة؟ ولذلك حصل ضعف كبير وتخلخل في الموقف. وهنا أرسل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مالك رجل المهام الصعبة ليأتي ويتحمل هذه المسؤولية.

وحينما كلفه بهذه المهمة، أرسل معه كتابا إلى زياد بن نضير وشريح بن هاني يقول فيه: «وقد أمّرت عليكما وعلى من في حيزكما مالك بن الحارث الأشتر فاسمعا له واطيعاه، واجعلاه درعًا ومجنًا، فإنه ممن لا يُخاف وهنُه، ولا سقطته، ولا بُطؤه عما الإسراع إليه أحزم، ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل»[٢٣]. انظروا ماذا يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بحق مالك: لا يُصاب بالضعف، فهو صلب قوي شديد، واضح الرؤية. امشوا وراء القوي، فالقيادة يجب أن تكون واضحة، ويجب أن تكون حازمة، ويجب ألا يظهر عليها آثار الضعف والوهن في الشدائد وفي المحن.

وهو أيضًا ممن لا تُخاف سقطته، أي ليس لديه أخطاء قاتلة، ولا اجتهادات في غير محلها، فالقيادة يجب أن تكون واعية، صحيح أن مالكًا غير معصوم، ولكننا نتحدث اليوم عن قيادة غير معصومة، وحينما نقول إن مالكًا ليس عنده سقطات، ولا قرارات انفعالية ومستعجلة وسريعة، فهذا لا ينافي أن تكون السرعة مطلوبة عندما يتطلب الموقف الإسراع، شرط أن يحزم الإنسان أمره. فمالك لم يكن متباطئًا ولا متسرعًا، بل كان قادرًا على أن يتصرف بما يناسب الموقف، فإن تطلب السرعة أسرع، وإن تطلب البطء أبطأ وتريث.

وهذه هي سمات القيادة غير المعصومة، وهي سمات القائد المتمثل بمالك الأشتر بتقييم الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو تقييم مهم وعظيم بحق مالك الأشتر، فهنيئًا له على ذلك.

وخاض مالك حرب صفين إلى جانب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان قائدًا على ميمنة الجيش، وكادت الحرب تنتهي بالنصر لولا خدعة رفع المصاحف والدعوة إلى التحكيم التي رفضها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ومجموعة من المخلصين معه، واستجاب لها العدد الأكبر من جيشه، وطلب منهم علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يعيروه جماجمهم ساعة واحدة فقط ثم يعصوه الدهر كله، ولكنهم رفضوا ذلك، وطلبوا منه أن يسحب مالكا والكتيبة التي تقاتل

---

٢٣. نهج البلاغة: الرسالة١٣.

من ساحة المعركة وأحاطوا به وهددوه بالقتل إن لم يفعل. ثم رشحه الإمام علي عَلَيهِ السَّلَامُ للتحكيم، ورفضوا ذلك أيضًا وأصرّوا على تعيين أبي موسى الأشعري في القصة المعروفة.

وانتهت حرب صفين ورجع مالك إلى مهمته الأولى في منطقة الجزيرة بتكليف من أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ. وبعد صفين لاحظ معاوية قوة علي عَلَيهِ السَّلَامُ، وعلم أنه لو أمهله بعض الوقت لاستثمر هذه المدة ليجيش الجيوش ويعد العدة لحرب أخرى لاحقة ينهي بها هذه المسألة والإشكاليات التي وُجدت بفعل المشاغبات. وهنا قام معاوية بإيجاد العديد من أعمال الشغب، وجهّز مجاميع تصول وتغير على البلاد الإسلاميّة، وكان الهدف من هذه الغارات هو إرباك ومشاغلة الإمام علي عَلَيهِ السَّلَامُ عن تحضير الجيش والاستعداد لمواجهته من جديد.

وكان من ضمن هذه الخطة إرسال عمرو بن العاص إلى مصر، وكان محمد بن أبي بكر واليًا على مصر من قبل أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ، وكان شابًا يافعًا، وقد اختاره أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ باعتبار أن مصر لم تكن بؤرة للصدام والصراع في تلك المرحلة، ولكن حينما أصبحت ساحة للمواجهة وبدأت الغارات تتوجه إليها من الشام، لاحظ أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ أن قيادة الصراع في مصر تحتاج إلى كفاءة، فجاء دور رجل المهام الصعبة من جديد، وكان لا بُدَّ من إرسال مالك الأشتر وتكليفه بهذه المهمة، ليذهب ويقاتل في تلك المعركة الضروس. فأرسل له أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ رسالة ذكر فيها أيضًا تقييمًا لمالك، يقول له فيها:

«أما بعد، فإنك ممن أستظهر به على إقامة الدين..»، يامالك أنت الإنسان الذي نستقوي به في اليوم الذي نحتاج فيه إلى خطوة شجاعة في تثبيت دعائم الدين والدفاع عن المشروع الإلهيّ، فأنت رجل المهام الصعبة.

«وأقمع به نخوة الأثيم، وأسد به الثغرة المخوف، وكنت ولّيت محمد بن أبي بكر مصر، فخرجت عليه بها خوارج، وهو غلامٌ حدث السن، ليس بذي تجربة للحروب، ولا بمجرب للأشياء، فأقدم عليّ لننظر في ذلك في ما ينبغي..»[٢٤].

المنظومة القياديّة

إنه لدرس كبير قدمه الإمام علي عَلَيهِ السَّلَامُ في القيادة والإدارة، وهو من هو في علمه وخبرته وعصمته، فلم يقل لمالك: تعال كي أبعثك، بل قال له: أقدم عليّ لننظر ونتدارس الأمور. وهنا يتضح منهج علي عَلَيهِ السَّلَامُ في صناعة الأدوار القياديّة، فعلى الرغم من كون القائد في أعلى مراتب القيادة، وملمًّا وكفوءًا وقادرًا على اتخاذ القرار الصحيح، فإنّه يشرك القيادات الأخرى

٢٤. نهج البلاغة: الرسالة ٤٦.

في هذه العمليّة، وهذا جزء من عملية بناء الشخصية القياديّة في المنظومة القياديّة العامة، وهذا درس عظيم يقدمه الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في منظومة القيادة، وهو الشراكة في القرار، والمشورة بالاستفادة من آراء الآخرين، حتى لو كان الإنسان ملمًا بقضية معينة من كافة جوانبها.

وصايا قياديّة

ويوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مالكًا قبل أن يغادر ولاية الجزيرة إلى ولاية مصر بالوصايا التالية:

١ . استخلاف أهل الثقة

«. . واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك»، أي اجعل على ولاية الجزيرة رجلًا من أصحابك، بشرط أن يكون من أهل الثقة ومن أهل النصيحة، ولا تترك عملك السابق بلا خليفة لك، فنصلح شيئًا ونفسد شيئًا آخر.

٢ .الاستعانة بالله وخلط الشدة باللين

«. . واستعن بالله على ما أهمّك، واخلط الشدّة باللين». فلا يصح اللين وحده ولا الشدة والحزم وحدهما، بل يجب المزج بين اللين والحزم. وهذا منهج الفهم الإسلامي في القيادة والإدارة.

٣ .استعمال الرفق

«وارفق ما كان الرفق أبلغ. .»، واستعمل الرفق والكلمة الطيبة في تحقيق مآربك وأهدافك المشروعة وغاياتك النبيلة، ولا تستخدم القوة إلا عند الحاجة إليها. وهذا المنطق الإسلامي الصحيح هو عكس المنطق السائد الذي يقول إن المنظومة القياديّة لا تكون لها هيبة إلا بصولات وجولات وشدة ورهبة؛ لأن الناس يجب أن ترتجف خوفًا من المسؤول حتى يكون مسؤولًا.

٤ .استعمال الشدة

«واعتزم بالشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة»[٢٥]، فهناك صنف من الناس عندما ترفق بهم يحملونك على الضعف، وقد تمر ظروف قاهرة على البلد لا ينفع فيها الرفق، وحينئذ لا

---

٢٥. بحار الأنوار ٣٣: ٥٥٣ ح ٧٢١.

محيص من استعمال الشدة والقوة حينما لا يوجد سبيل سواها، فهذا الصنف الذي لا يفيده إلا السيف يجب أن يجد القوة والحزم والضوابط الحازمة والواضحة ليقف عند حده، وإلا أفلت زمام الأمور وتعرضت مصالح الناس إلى الخطر. ولكن عموم الناس لا يحتاجون إلى أن تستخدم معهم الشدة، ولا أن توظف سيف القانون ضدهم، بل تساهل مع الناس حينما يمكن أن تعالج الأمور بالتساهل، وإذا كانت هناك بعض الحالات التي تحتاج إلى شدة، يجب أن نكون أشداء. وهذا المنهج يحفظ التوازن.

استشهاد مالك

وعندما تناهى إلى مسامع معاوية إيفاد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكًا الأشتر إلى مصر قلق كثيرًا؛ لأنه كان يعرف من هو مالك، فدبر له مكيدة ـ وهذه سمة الجبناء ـ ودسّ له السم في الطعام وهو في طريقه إلى مصر، فاستشهد مسمومًا بمكيدة من معاوية بن أبي سفيان وانتقل إلى رحمة الله تعالى، ولم تتحقق المهمة على يد مالك الأشتر، ولكن بقيت هذه الرسالة المهمة وهذا العهد التأريخي يعبّر عن الفهم الإسلامي والنظرية الإسلاميّة للقيادة والإدارة.

ولكن اسمعوا ما قاله علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بحقه بعد وفاته مخاطبًا محمد بن أبي بكر: «إلا أن الرجل الذي كنت ولّيته مصر كان رجلًا لنا مناصحًا، وعلى عدونا شديدًا، فرحمة الله عليه، وقد استكمل أيامه، ولقي حمامه، ونحن عنه راضون، فرضي الله عنه، وضاعف له الثواب، وأحسن له المآب»[٢٦]. وهذه شهادة من الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بحق مالك الأشتر.

ونُقل أيضًا أنه حينما أُخبر علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بشهادة مالك الأشتر كان يتلهف ويتأسف عليه ويقول: «مالك! وما مالك! لو كان جبلًا لكان فندًا»، أي لو كان جبلًا لكان مميزًا عن سائر الجبال، «ولو كان حجرًا لكان صلدًا، لا يرتقيه الحافر، ولا يوفي عليه الطائر»[٢٧]. وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «رحم الله مالكًا فلقد كان لي كما كنت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ»[٢٨].

وما عساني أن أقول في رجل هزّت حياته أهل الشام، وهزّ موته أهل العراق؛ لأسفهم عليه ولفقدهم إياه؟، فكان ذلك المخلص الذي وقف مع علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وجاهد معه في سبيل الله.

---

٢٦. نهج البلاغة: الكتاب ٣٤.
٢٧. بحار الأنوار ٣٣: ٥٩٢ ح ٧٣٧.
٢٨. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥: ٩٨.

دروس من عهد أمير المؤمنين
علي بن أبي طالب عَلَيهِ السَّلَامُ لمالك الأشتر

المقطع الأول

دور المسؤول في موقع القيادة

يبدأ أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ رسالته التي وجهها إلى مالك الأشتر بقوله :

«هـذَا مَـا أَمَـرَ بِـهِ عَبْـدُ اللهِ عَلِـيٌ أَمِيـرُ الْمُؤْمِنِيـنَ ، مَالِـكَ بْـنَ الْحَـارِثِ الأَشْـتَرَ فِـي عَهْـدِهِ إِلَيْـهِ ، حِيـنَ وَلاَّهُ مِصْـرَ : جِبَايَـةَ خَرَاجِهَـا ، وَجِهَـادَ عَدُوِّهَـا ، وَاسْـتِصْلاَحَ أَهْلِهَـا ، وَعِمَـارَةَ بِلاَدِهَا» .

تتضمـن هـذه العبارة القصيـرة مداليل عميقة جـدًّا، وفيها دروس كبيـرة في المنهج القيادي الإسـلامي، وتشـير إلـى العديد من المواضيع الأساسـيّة في النظـرة إلى القيادة والإدارة.

الدرس الأول

الإدارة من موقع العبودية لله سبحانه وتعالى

تشير إلى هذا المعنى عبارة: «هذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الأشْتَرَ». ماذا يعني الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بذكره هذه المفردة وهو يتحدث عن نظرية في الإدارة والقيادة؟ وماذا تعني العبودية لله سبحانه وتعالى؟ وماهي مدخلية العبودية لله في موضوع كهذا الموضوع؟.

لا بُدَّ لنا من أن نشير إلى أن الخلفية التي يتصدى فيها المتصدون لمسؤولية القيادة والإدارة في كل المواقع وفي كل الأدوار، والدوافع التي تدفع الإنسان ليكون في هذا الموقع أو ذاك، لها تأثيرات كبيرة في مجمل الخطوات التي سيتخذها القائد أو المسؤول حينما يصل إلى هذا الموقع؛ فإن الاجراءات والقرارات والسياسات والسلوكيات وطبيعة التعامل حينما يكون المسؤول مسؤولًا في موقع المسؤولية، تختلف تمامًا باختلاف الدوافع والخلفيات التي أوصلته إلى هذا الموقع.

فمثلًا، هل كان هذا الوزير بالأمس أستاذًا في الجامعة، أو كان إنسانًا بسيطًا أو مواطنًا في موقع من المواقع الإدارية؟، وكيف يرى نفسه بينه وبين ربه؟، وكيف يرى نفسه بينه وبين نفسه؟، وكيف يقيّم دوره؟، وكيف يرى الموقع الذي هو فيه؟، وما الانطباعات عن تعامل الناس معه في هذا الموقع، وعن تعامله مع الناس وهو في هذا الموقع، سواء كان هؤلاء الناس عاملين معه في وزارة أو إدارة أو أي مكان آخر؟، وكيف ينظر إلى الناس وهو جالس على كرسي الوزارة أو الإدارة؟.

فهذا الذي أصبح ملاحظًا أو مديرًا عامًا أو وكيلًا أو وزيرًا أو رئيسًا، حينما يجلس في هذا الموقع، ما انطباعاته عن نفسه، وعن الموقع، وعن الناس الذين يعمل معهم، وعن المواطنين الذين يراجعونه؟ وما توقعاته منهم؟ وما توقعاته من نفسه؟ فهذه الانطباعات تختلف تمامًا باختلاف الدوافع والخلفيات التي تدفع الإنسان ليكون في هذا الموقع.

فهناك من يبحث عن الموقع ليحقق حالة التسلط على الآخرين، ليحقق الأنا لنفسه، ويبحث عن دنيا، ويبحث عن وجاهة، ويبحث عن فرص للتأثير، ويبحث عن إصدار الأوامر إلى الآخرين، فيلتذ وهو يجد نفسه جالسًا على مقعد الرئاسة ليأمر هذا وذاك والجميع يأخذون له تحية ويقولون له نعم سيدي.

وهذه قد تكون دوافع لإنسان يجلس في موقع قيادي، وهذه الخلفية لا ترتبط بمن يكون رئيسًا للجمهورية أو رئيسًا للوزراء أو وزيرًا، فإن أي مسؤول في أي موقع وفي أي مهمة مهما كانت بسيطة، من الممكن أن يصاب بهذا المرض.

فلا يتصور الإنسان حينما نتحدث عن خلفيات من هذا النوع أننا نخص مرحلة من مراحل الإدارة والمسؤولية، بل هذه حالة طبيعية يمكن أن تشمل الجميع، فعلى مستوى الأُسرة نجد الأب يصدر تعليمات للزوجة والأبناء والبنات، وبمجرد أن يدخل إلى البيت يحوّله إلى جحيم ومعسكر لمجموعة الأوامر التي يصدرها بحق هذا أو ذاك. وهكذا يمكن أن توجد هذه الحالة عند فرد مقاول إلى غير ذلك من مهام، وصولًا إلى المواقع المتقدمة.

إذن، فخلفية الانطباعات والتصورات عن المسؤولية، والدوافع التي تدفع الإنسان إلى سلوك معين في هذا الموقع أو ذاك من تسلّط وتحكّم وأنا وهوى وحبّ الدنيا والوجاهات، قد تكون خلفية معينة لمن يتصدى. وماذا نتوقع ممن يتصدى للخدمة وهو بهذه الخلفيات؟ لا شك أنه حينما يصل سيتخذ مجموعة من الإجراءات القاسية والتعسفية والقرارات الظالمة والسلوكيات العنجهية التي لا تحترم الآخر، ويعتقد بأن من يعمل تحت أُمرته هو عبد ويتعامل معه تعامل المولى مع العبد وليس تعامل مسؤول مع مرؤوسين يستحقون الاهتمام والرعاية كما هو الحال في الإسلام.

وهناك من ينظر إلى موقع المسؤولية على أنه محطة لهداية الناس وخدمتهم، ومحطة يؤتمن فيها على مصالح الناس، ومحطة يضمن من خلالها حقوق الناس، أيا كان هؤلاء الناس، ومهما كان عددهم، قليلًا أو كثيرًا، ويرى نفسه مؤتمنًا من قبل الناس لحفظ

مصالحهم وتحقيق طموحاتهم وضمان حقوقهم. ومن يأتي بهذه الخلفية ستكون له إجراءات مختلفة عن تلك الإجراءات التي يعتمدها ذلك الآخر.

إذن، فالدوافع والخلفيات لها تأثير كبير في مسار الأداء القيادي على كافة الأصعدة، وفي جميع المجالات. وعلى ضوء هذه الخلفية نتعرف على السر الذي جعل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يقدم مفتاحًا سحريًا لمالك الأشتر من مفاتيح النجاح والتفوق، وهي العبودية لله تعالى. وهي ليست قضية ثانوية أو قضية لا صلة لها بموضوع القيادة والإدارة.

والعبودية لله واستحضار العلاقة بين الإنسان وربه لها الأثر العميق في مجمل السلوك القيادي في كافة المراتب، وعلى جميع الأصعدة. العلاقة بالله سبحانه وتعالى واستحضار العبودية لله جلّ وعلا تجعل الإنسان المسؤول يمارس علاقة إنسانية، وليست علاقة سلطوية مع غيره من العاملين تحت أُمرته أو مع المواطنين ممن يراجعونه في قضاياهم وهمومهم.

فالدور القيادي يجب أن تتوافر فيه حالة القوة والحزم القيادي، وهذا أمر مطلوب، ولكن هذا الحزم لا يتقاطع ولا يتعارض مع العلاقة الإنسانيّة التي يبنيها المسؤول في سلسلة المراتب مع من يعمل تحت أمرته ومن يراجعه في قضية من القضايا. والقوة والحزم لا يعنيان إطلاقًا التجاوز على الآخرين وظلمهم والاستهانة بحقوقهم والإساءة لهم وتحقيرهم وجعلهم ينتظرون خلف الأبواب لساعات طويلة، ويتصور البعض أن هذا من لوازم الموقع، وأن المدير الذي بابه مفتوح للمواطنين يدخلون مباشرة، لا يحترمه أحد. بل ينبغي أن تكون العلاقة علاقة إنسانية، وعلاقة الرحمة والشفقة والمودة والمحبة، وليس فيها تسلط وظلم واعتداء وتجاوز وتطاول على الآخرين.

ولكن المشكلة أننا حينما نتحدث عن عبودية الإنسان لله سبحانه وتعالى، نستحضر مباشرة عبودية الإنسان للإنسان وحالة الرقّ ونعمّمها على عبودية الإنسان لله سبحانه وتعالى، مع أن هناك فرقًا كبيرًا بين هاتين العبوديتين، فعبودية الإنسان للإنسان تجعل العبد ملكًا لمالكه في كل طاقاته وقدراته ونجاحاته وإمكاناته، ويكون في خدمة مالكه، والمالك يشعر أنه مالك لهذا الشخص وهو أسير لديه، فتراه يصيح به: لماذا تجلس؟، لماذا تنام؟، لماذا تستريح؟، لماذا لا تتابع هذه القضية أو تلك؟، ويتصور أنه مجرد عبد ويجب عليه أن يوقف نفسه لخدمته، وأن يتوقف عن كل ما يرتبط بكمالاته الخاصة ويسخّر وجوده لخدمة المالك، حتى يكون عبدًا يحسن العبودية.

ولكن علاقة الإنسان بربه والعبودية لله سبحانه وتعالى مختلفة تمامًا، فهي ليست علاقة تجميد، وإنما هي علاقة انطلاق وتكامل، فإن استعمال «عبد الله» تعني أن هذا الإنسان بقدراته المحدودة يتصل بالقدرة المطلقة، ويتزود من القدرة المطلقة، وينطلق ويتحرك ويندفع بزخم كبير، فيتمكن من أن ينهل ويستفيد من هذا الوجود المطلق ليتكامل بحسب ظرفه الوجودي وسعته الذاتية وقدراته الشخصية،

إذن، العلاقة بالله تعالى هي علاقة تكامل، وعلاقة انطلاق وعلاقة زخم حقيقي وكبير، وعلاقة الإنسان بالإنسان هي علاقة توقّف واحتكار وانحصار وأسر لكل الطاقات والإمكانات. وهذه المسألة يجب أن نلحظها لنجد أن الفارق كبير جدًّا بينهما، فعلاقة الإنسان بربه ـ والأمثال تضرب ولا تقاس ـ كعلاقة المتعلم بالمعلم، كلما ازدادت كَسَبَ الإنسان من العلم والمعرفة أكثر، وهي علاقة المُربِّي بالمربَّى، كلما طال اتصال المُربَّى بالمُربِّي أخذ دروسًا أكثر في الحياة، واستفاد أكثر.

فعلاقة الإنسان بربه هي علاقة انطلاق، وعلاقة الإنسان بالإنسان هي علاقة جمود، وفرق كبير بين الجمود والانطلاق. والإنسان الذي يحصل على هذا الشعور ويصل إلى هذا الإدراك العميق للعبودية لله سبحانه وتعالى لا يضيع نفسه ولا يفقد توازنه وإن صار زعيمًا على الدنيا وما فيها، فإنه يقف ليقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ما قيمتي؟، فبقدرة قادر وبكلمة (كُن) يمكن أن يزول كل شيء! وما قيمة هذا الملك وهذا السلطان وهذه الملايين من الأتباع؟!.

وقد تضمن هذا الدرس مجموعة من الإضاءات، هي:

الإضاءة الأولى:

آداب القيادة

من الإضاءات التي يمكن استفادتها من هذه العبارة الشريفة أيضًا ـ على اختصارها ـ هي أدب القيادة. فالقيادة لها آداب كما لأي دور من الأدوار وأي مهمة من المهمات آدابها الخاصة، فالتعامل مع الآخرين في المواقع المختلفة يتطلب آدابًا معينة، والقيادة أيضًا لها آدابها الخاصة بها.

وحينما يقال قيادة، فإن هذا يعني أن هناك قائدًا ومنقادًا، مهما كان دور ومساحة القائد. ولا شك أن هذا الدور يجب أن يُحفظ. فإن لم يكن هناك قائد يُطاع ومنقادون

يطيعون، فلا يمكن أن نتحدث عن منظومة قياديّة، ولكن بالرغم من وجود طابع الأوامر والمأمورين من ناحية، والطاعة للمأمورين من ناحية أخرى، فإن هناك أدبًا لهذه القيادة. وما يميز قائدًا عن قائد هو هذه الآداب التي يلاحظها ويمارسها.

ولو دققنا النظر في ما يقوله أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عبارة: «هذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ»، نلاحظ أنه لم يقل: هذا ما أمرتُ به، أو هذا ما أمرنا به، بينما نرى أن الرؤساء والمدراء حينما يصدرون تعليماتهم يقولون: نسّبنا، أمرنا، وجّهنا، وأمثال هذه العبارات وينسبون ذلك لأنفسهم.

ولكن عليًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ يعطي هنا درسًا كبيرًا، فالأمر منسوب إلى الموقع وليس إلى الشخص، وهذه الأوامر ليست أوامر شخصية، وليست نزعات شهوانية، وليست دوافع سلطوية، إنها أوامر تنطلق من منطلقات المصلحة الحقيقية، ولذلك تصدر هذه الأوامر من الموقع وليس من الشخص، فبوصفه أمير المؤمنين أمر أن يحصل كذا وكذا، وليس بوصفه فلانًا بن فلان، فليس من دوافع شخصية. وهذه دروس تربوية كبيرة نتلمسها في نهج علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إذن، في هذه الطريقة من إيصال التعليمات والأوامر هناك أمر، وهناك دور قيادي، وهناك حزم في ممارسة الدور القيادي، ولكنْ هناك آداب لهذه القيادة، وعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ يربّينا ويعلّمنا على هذه الآداب في القيادة. وهي تؤكد أن كل ما سيأتي في هذا العهد من توصيات وتعليمات في القيادة والإدارة هي تعليمات يُراد منها المصالح العامة، وليس المصلحة الشخصية للقائد، ويُراد منها تحقيق النظام الذي به تتحقق الأهداف والغايات في المنظومة القياديّة، ولا يُراد منها دوافع سلطوية لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ كقائد وفي موقع قيادي.

وهي تؤكد أيضًا أنها توصيات حق، وليست تعبيرًا عن طموحات شخصية أو نزوات خاصة لشخص القائد، وهي ليست تسلطًا على الآخرين، بقدر ما هي مداخل ومفاتيح لتحقيق النجاح في المنظومة القياديّة، وفي الوصول إلى الغايات المشروعة، فهي مداخل مهمة لنجاح المهمة القياديّة، وليست مداخل للتسلط والهيمنة والتحكم بمقدرات الناس.

الإضاءة الثانية

ملاحظة سلسلة المراتب في المنظومة القياديّة

ومن الإضاءات الأخرى في هذه العبارة الشريفة أيضا، هي ملاحظة سلسلة المراتب في المنظومة القياديّة، فمما لا شك فيه أن العلاقة في المنظومة العقائدية هي علاقة إنسانية؛ لأنها تنشأ من خلفية العبودية لله سبحانه وتعالى. ومما لا شك فيه أيضًا أنها علاقة تتسم بالآداب العالية، وتستحضر الدور الذي يناط بالموقع، وليس دور الأشخاص وشخصنة العمليّة. ولكن في الوقت نفسه هناك سلسلة من المراتب في المنظومة القياديّة ينبغي ملاحظتها، وإلا لن يبقى حجر على حجر؛ إذ لا يمكن لأي مسؤول أن يقدّم أوامر لأي شخص، أو لا يعرف ممن يتلقى الأوامر.

وقد يحصل في بلادنا اليوم في دائرة ما، أن هذا الموظف البسيط تأتيه أوامر وتعليمات من جهات مختلفة؛ هذا يقول له افعل وذاك يقول له لا تفعل، ولا يعرف هل يسمع أوامر الأمانة العامة لرئاسة الوزراء أو الوزير أو الوكيل أو يلتزم بتوصيات المدير العام؟، فيبقى تائهًا وحائرًا، بسبب عدم مراعاة سلسلة المراتب في المنظومة القياديّة، ووجود ثغرة وخلل حقيقي في إدارة العمليّة وفي تحقيق المهام المرجوّة. ولذلك ورد في هذه العبارة: «هذا مَا أَمَرَ بِهِ».

صحيح أن الأمر كان من الموقع وليس من الشخص، ولكنْ يوجد أمر ولا تتحمل القضية مجاملات؛ لأن هناك سلسلة مراتب وآمرًا ومأمورًا. وقد تضمّنت عبارة «هذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ أَميرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حِينَ وَلاَّهُ مِصْرَ» كلمة «وَلاَّهُ»، فهناك إذن من يولّي، وهناك من يتولّى ويتقبّل هذه الولاية. وقد تضمّنت هذه العبارة القصيرة ثلاث مفردات اُستُخدمت لتأكيد سلسلة المراتب في المنظومة القياديّة:

الأولى: أمر من القائد إلى المنقاد، وعلى سلسلة المراتب الأدنى أن تطيع وأن تستجيب لهذا الأمر.

الثانية: إن هذا الأمر صادر من أمير المؤمنين، وهو هنا علي عَلَيْهِ السَّلَامُ المعروف بتواضعه وزهده، وهو يصف نفسه بأنه أمير المؤمنين، أي أنا أمير المؤمنين ولا بُدَّ من أن أُطاع، فهذا الموقع يحكم الارتباط بعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ بوصفه أمير المؤمنين.

الثالثة: أشارت فقرة «حِينَ وَلاَّهُ مِصْرَ» إلى مسألة التولية ومراعاة المراتب، إذ تأتي كشاهد مهم على ضرورة الحفاظ على سلسلة المراتب لتحقيق النتائج في المنظومة القياديّة.

هذه في الحقيقة إضاءات يمكن أن نستلهمها من الدرس الأول من دروس علي عَلَيهِ السَّلَامُ.

الدرس الثاني

الأهداف العامة للمنظومة القياديّة

تضمنت الفقرة الثانية من المقطع الأول من عهد أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمالك الأشتر درسًا جديدًا في فنّ القيادة والإدارة، وهو تحديد الأهداف العامة لقيادة الولايات أو الأقاليم، عليهم الالتزام بها تجاه القيادة المركزية للدولة، وقد حدد أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أربعة أهداف لمالك حين ولاه مصر، هي:

الهدف الأول: توفير الإيرادات الماليّة

يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «جِبَايَةَ خَرَاجِهَا» أي جباية ضرائبها، وهذه مهمة أساسية على القيادة الالتفات إليها، فإن أيّ مشروع قيادي لا تتوافر لديه إيرادات مالية لا يستطيع أن يحقق الأهداف التي يطمح إليها. ولعل هذه المهمة قد وُضعت الأولى من بين الأهداف الأخرى؛ لأنها تساعد على تحقيق تلك الأهداف، فالمال هو عصب الحياة الذي يقوم عليه عمل الحكومات.

الهدف الثاني: توفير الأمن والدفاع

يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وَجِهَادَ عَدُوِّهَا»، أي توفير الأمن للمواطنين والدفاع عن البلد والوقوف بوجه الاعتداءات الخارجية. وهذا يمثل هدفًا أساسيًا من الأهداف العامة لقيادة الولايات.

الهدف الثالث: الإصلاح الاجتماعي

يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا»، أي العمل على تحقيق الإصلاح الاجتماعي والبناء القيمي في المجتمع وإشاعة الثقافة الصحيحة وتعميق الهوية الإسلاميّة.

الهدف الرابع : التنمية الاقتصاديّة

يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : «وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا» ، أي العمل على تنمية البلد اقتصاديًا ، وهو يشمل التنمية الزراعية والصناعية والتجارية وتوفير الخدمات السكنية والصحية والتعليمية وسائر الخدمات الأخرى .

وهذه هي الأهداف الأربعة الأساسيّة من أهداف الإدارة والحكم بحسب المنطق الإسلامي ومن منظور الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ .

صلاحية الأهداف الأربعة لقيادة أي مجموعة

علينا أن نؤكد أن هذه الأهداف الأربعة ، وإنْ وُضعت للحكم وإدارة البلاد ، لكنها تصلح كأهداف استراتيجية وأساسية لإدارة وقيادة أي مجموعة وأي منظومة قياديّة ، بدءًا من أصغر الخلايا القياديّة وهي الأسرة ، فإن إدارتها تحتاج إلى هذه الأمور الأربعة ؛ فالأسرة بحاجة إلى إيرادات مالية لتمرير احتياجاتها ، ولا بُدَّ من عمل ، ولا بُدَّ من مداخيل حتى يمكن توفير الأمن لها . والأسرة بحاجة إلى أن تؤمن البيت وتؤمن الأعضاء في حركتهم وعلاقاتهم وارتباطاتهم إلى غير ذلك ، وأن تضع الاحترازات الكافية لكي لا يُسرق البيت ، ولا يُعتدى عليه ، ولا يُعتدى على الأسرة من خلال الإجراءات التي تُتخذ في أصغر الخلايا القياديّة في المجتمع .

وفي أي مشروع سنحتاج إلى هذه الأهداف الأربعة ، كأهداف أساسية وإطار عام يتحكم بالمنظومة القياديّة في هذه المستويات المختلفة .

ولنقف قليلًا عند هذه الأهداف بشيء من البيان والتفصيل .

الهدف الأول: توفير الإيرادات الماليّة

فالإيرادات والضرائب للدولة يعتبرها الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هدفًا أساسيًا يجب أن يمارسه القائد والحاكم في أي دولة ، بل تتنزّل إلى كل المشاريع القياديّة الأخرى في المنظومة القياديّة ، فلا بُدَّ من تمويل لهذه المشاريع . و تمثل هذه المسألة مدخلًا مهمًا لنظام الحكم والإدارة في الفكر الإسلامي ، إذ إن تنظيم الموازنة العامة في البلاد ، التي هي ضرورة ملحّة ، يحتاج إلى جباية الضرائب ووضع النظم العادلة لتوفير الإيرادات الماليّة للدولة ، وهو حق مهم من حقوق الدولة .

ولكن الحديث عن الإيرادات وعن الضرائب يستبطن الحديث عن المهمة الأساسيّة للحكومة، وهي تقديم الخدمات العامة للمواطنين، فهي تأخذ هذه الضرائب لإصلاح حال الناس، ولإحداث عملية التنمية الاقتصاديّة التي سيأتي الحديث عنها لاحقًا، ولتوفير الخدمات العامة للناس، وتحقيق الرفاه الاجتماعي، والاهتمام بالمصالح العامة، وفتح الطرقات، وتنظيم الشؤون العامة، وتوفير الأمن، فكل ذلك من مسؤوليات الدولة بحسب رؤية الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

إذن، تأخذ الدولة الضرائب لتأمين الخدمات العامة للمواطنين، وهي مؤشر مهم على المسؤوليات الخطيرة الملقاة على عاتق الدولة، فلا تأخذ الضرائب من الناس من دون أن تقدم لهم شيئًا، أو تقدم خدمات قليلة وناقصة وتستحوذ على هذه الأموال لتنفقها على أعضاء الحكومة وتأمين مصالحهم وتوفير الخدمات لهم وسد احتياجاتهم اليومية.

الهدف الثاني: توفير الأمن والدفاع

المهمة الثانية من المهام التي يذكرها الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للحكم والحكومة وقيادة البلاد وإدارتها هي توفير الأمن للمواطنين والدفاع عن البلد ضد الاعتداءات الخارجية.

يوجد اليوم في موضوع الدفاع والأمن لغط كبير، لا سيَّما في ما يتعلق بقضية الجهاد، ولا سيَّما في هذه الظروف، إذ أصبح الجهاد مفهومًا أُسيء استعماله بشكل كبير، فأساؤوا إلى سمعة الإسلام والمسلمين في العالم وأصبح يُنظر إلى الجهاد على أنه يمثل سلوكية معينة للانتقام والتشفّي من الآخرين وقتل الناس، ولاحظنا البعض ممّن يسمّي نفسه مجاهدًا كيف أصبح يقطّع أشلاء الناس على قارعة الطريق!. وحينما سُئل بعضهم لماذا تقتلون الأبرياء؟، أجابوا بأنهم يريدون تناول الغداء أو العشاء مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وكأنه صاحب مطعم في الجنة، يستقبل في كل ساعة هؤلاء ويقدّم لهم وجبات الطعام!، وهذه إساءة عظمى لهذا المفهوم.

الإسلام دين السلام

نلاحظ أن الإمام عليًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في كلامه الآنف الذكر، يعتبر موضوع الأمن والدفاع وموضوع الجهاد من الركائز الأساسيّة في القيادة والإدارة، ومن مهام الحاكم؛ لكي تبقى الدولة مصانة ومحترمة. ولذا نود الإشارة إلى أن الإسلام دين السلام، وإنما سُمي إسلامًا لأنه مشتق من السلام. وهو دين التسامح، ودين المحبة، ودين الحوار، ودين

المعالجات السلمية للإشكاليات والتحديات. ولا يجوز استخدام السلاح ما دامت هناك فرصة لمعالجة التحديات والأخطار والإشكاليات بالطرق السلمية. وأين هو الإسلام اليوم من هذه السلوكيات الخاطئة التي يعتمدها البعض في استغلال المفاهيم الإسلاميّة لمطامع شخصية وأجندات مشبوهة؟.

فالإسلام لا يتماشى مع استخدام السلاح، إلا حينما تنفد وتنقطع كل الوسائل السلمية للدفاع عن المواطنين، ولذلك نجد التشديد من الله سبحانه وتعالى على صيانة الدماء وحرمة إزهاق الأرواح، حتى نجد أن الله تبارك وتعالى قد ساوى بين قتل إنسان واحد وبين قتل الناس جميعًا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٢٩]. هذه هي حرمة الإنسان وحرمة الروح الإنسانيّة البريئة في القرآن الكريم، يُنظر لها بهذا التشدد الكبير.

وهذا بحد ذاته يكشف عن أن الإنسان بطبعه وذاته مسالم وليس مجبولًا على التعدي والتطاول على الآخرين وقتل الأرواح البريئة؛ لأن التشريعات تأتي دائمًا منسجمة مع الفطرة الإنسانيّة ومواكبة لمتطلبات الإنسان، وحينما تساوي بين قتل النفس الواحدة وقتل البشرية جمعاء، فهذا يعني أن قتل الإنسان هو خلاف الفطرة وخلاف الطبع السليم.

وكذلك فإن الشعور بالاستعلاء والتطاول على الآخرين، هو مرض أخلاقي يحتاج إلى علاج، ولكن كم نحن بعيدون عن هذا الواقع، فنرى الاهتمام الكبير بالحالات المرضية العامة كالأوبئة التي يكون فيها السالم من المرض هو الاستثناء، فنحن نقف دائمًا عند الأمراض الجسدية والوباء الجسدي وفايروس إنفلونزا الطيور وفايروس الإنفلونزا الوبائية وما إلى ذلك، ويقلق العالم من الأمرض الجسدية، ولكنه يتغافل عن الأمراض الروحية والنفسية والأخلاقية التي تنخر في عمق وجود الشعوب والأمم، ولا أحد ينظر ويفكر في معالجتها.

ظهرت الإنفلونزا الوبائية فأنفق العالم مليارات الدولارات على مختبرات علمية وعلى بحوث علمية للوصول إلى مضادات قادرة على أن توقف هذا المرض وتحد من انتشاره، ولكن الأوبئة الأخلاقية كأمراض الهوى والأنانية والعدوان، كم نصرف لها من الجهد والوقت والمال لإصلاحها؟! حتى أن الله سبحانه وتعالى حينما يتحدث عن هذه الأمراض الاجتماعيّة يتحدث عنها كأنها حالة عامة، فيقول: ﴿وَالْعَصْرِإِنَّ الإِنسَانَ لَفِي

٢٩. سورة المائدة: الآية ٣٢.

خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[٣٠]، فالكلام مطلق هنا يشمل كل إنسان، والخسران يعمّ الجميع إلا من آمن وعمل صالحًا وتواصى وتربّى وبنى.

تحديد وقت الجهاد

هناك إشكالية كبيرة نجدها في واقعنا المعاصر، هي تحديد الوقت لحلول دور الجهاد. إن دور الجهاد يأتي حينما تستنفد وسائل الإرشاد والتوعية والتثقيف والنصيحة والموعظة والتواصي بالحق والصبر والعمل الصالح وإشاعته في المجتمع أدوارها، وينعدم تأثير كل هذه المضادات، فحينئذ يصل الدور إلى استخدام السلاح والقوة لإيقاف المعتدي عن عدوانه، ويصبح الجهاد حياة للأمم؛ لأنه سيكون المدخل الوحيد للوقوف أمام من يعتدي على الناس ويقتلهم، إذ ليس الجهاد وسيلة للقتل، بل هو وسيلة للحد من القتل.

فالجهاد هو وسيلة للحياة، وهو مدخل لتحقيق الحرية، وهو مدخل لتحقيق الكرامة الإنسانيّة. وهذه ثلاثة واجبات ومهمات أساسية للجهاد، وبه تتحقق هذه السمات الثلاث الأساسيّة. يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنّ الجهادَ بابٌ من أبوابِ الجنّة»[٣١]، فهو باب من أبواب الجنة؛ لأنه مدخل للحياة ومدخل للحرية ومدخل للكرامة الإنسانيّة، والمجاهد هو الذي يضحّي بنفسه من أجل أن يعيش الآخرون، ورسالة المجاهد هي رسالة الحياة وليست رسالة الموت. ويزعم البعض أن سيد المجاهدين الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ علّمنا كيف نموت، ولكن الواقع ليس كذلك، فإنه علّمنا كيف نعيش وكيف نضحّي ليعيش الآخرون، ورسالة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ هي رسالة الحياة وليست رسالة الموت، ورسالة البناء وليست رسالة الهدم، ورسالة إحياء النفوس وليست رسالة إزهاق الأرواح.

---

٣٠. سورة العصر: الآيات ١-٣.

٣١. نهج البلاغة: الخطبة ٢٧.

المقطع الثاني

المعايير الخلقية للشخصية القياديّة

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر :

«أَمَرَهُ بتقْوَى الله ، وَإِيثَار طَاعَتِهِ ، وَاتِّبَاع مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِه ، الّتِي لاَ يَسْعَدُ أَحَدٌ إلاّ بِاتِّبَاعِهَا ، وَلاَ يَشْقى إِلاّ مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا ، وَأَنْ يَنْصُرَ الله سُبْحَانَهُ بِيَدِهِ وَقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ ؛ فَإِنّهُ ، جَلّ اسْمُهُ ، قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزّهُ .وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشّهَوَاتِ ، وَيَزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ فَإِنّ النّفْسَ أَمّارَةٌ بِالسُّوءِ ، إِلاّ مَا رَحِمَ الله» .

ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد الحديث عن الأهداف الكلية للمنظومة القياديّة إلى الحديث عن موضوع أساسي آخر يُعتبر المدخل لنجاح أي عمل قيادي.

في هذا المقطع من هذا العهد المبارك يأمر الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكًا الأشتر بتقوى الله عز وجل، وقد مر شرح كلمة «أَمَرَهُ» في الدرس الأول، وأنه لم يقل له أَمَرْتُك، وأن ذلك من أدب القيادة، إذ لم ينسب الأمر إلى نفسه، بل نسبه إلى الموقع باعتباره أميرًا للمؤمنين، لكي لا تُشخصن القضايا.

وأول ما يأمر به أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ولاته، هو تقوى الله تبارك وتعالى، أي أن يجعلوا الله تعالى نُصْبَ أعينهم في كل صغيرة وكبيرة، وذلك يستلزم أن يؤثروا طاعة الله تعالى على طاعة غيره، ولذا قال له بعدها مباشرة «وَإِيْثَارِ طَاعَتِهِ». وإيثار طاعة الله تعالى يعني تقديم طاعته سبحانه على طاعة هواه وعلى أي طاعة أخرى.

ثم يأمره باتباع ما أمر به الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم. والاتباع هو الالتزام بأوامر الله سبحانه وتعالى في الفرائض والسنن، فيأتي بالواجبات والمستحبات، وينتهي عن المحرمات والمكروهات، وهذا الالتزام هو مصدر السعادة الدنيوية والأخروية، كما أن إنكارها وإضاعتها وعدم الالتزام بها مصدر الشقاء في الدنيا والآخرة.

وفي الفقرة الأخيرة من هذا المقطع، يطلب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من مالك الوالي الجديد على مصر أن ينصر الله سبحانه، لأن ذلك مقدمة لنصر الله سبحانه له، فإن من يريد النصر من الله، عليه أولًا أن ينصر الله، قال تعالى: ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٣٢].

وطلب منه أن ينصر الله بجميع جوارحه، بقلبه ويده ولسانه؛ لأنه حاكم مبسوط اليد ومخوّل باستعمال الوسائل الإعلامية والقوة العسكريّة لنصرة دين الله سبحانه.

يذكر الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ثلاث وسائل لتوثيق العلاقة بين الإنسان وخالقه، هي:

---

٣٢. سورة محمد: الآية ٧.

أولًا : تقوى الله .

ثانيًا : إيثار طاعته سبحانه ، أي أن يقدم طاعة الله سبحانه وتعالى على كل طاعة .

ثالثًا : اتباع ما أمر به الله تعالى في كتابه الكريم من فرائضه وسننه .

ولو طُبقت هذه الوسائل الثلاث لاستطاع الإنسان من خلالها أن يصلح علاقته مع الله سبحانه وتعالى . وهذه هي الركائز الثلاث الأساسيّة في بناء الشخصية القياديّة في المنظور الإسلامي .

الدرس الثالث

التقوى

التقوى لغة: الاتّقاء، واتّقى الشيءَ: وضع سورًا يحجب ويمنع من وقوع هذا الشيء، واتّقاها: منعها ودفعها.

والتقوى اصطلاحًا: هو السور الذي يسوّر الإنسان من الوقوع في الحرام والرذيلة والمعصية، أجارنا الله وإياكم.

والتقوى: هي حق الله على العباد، فهو الذي خلقنا ومنحنا كل شيء وتنعّم علينا بنعم كبيرة، وفي مقابل ذلك أراد منا أن نلتزم ونتّقي ونحافظ على الأطر والموازين الشرعيّة التي أرادها وقدّرها.

وهذا الحق يمثّل المدخل والعنصر الأساسي في تطوير وتعميم وترسيخ علاقة الإنسان مع ربّه. فأولى الخطوات وأهمها هي التقوى، ومن يريد أن ينفتح على الله تبارك وتعالى لا بُـدَّ له من أن يكون من أهل التقوى.

إذن، المدخل هو التقوى، وهي الركيزة الأساسيّة لبناء علاقة الإنسان مع ربّه، وإذا حصلت التقوى تحصل حالة الاستقرار والطمأنينة والثبات والإصرار على الموقف والشعور بالقوّة والعزّة والمَنَعَة؛ لأن الإنسان حينما يتصل بالله سبحانه وتعالى تتوافر لديه هذه المقوّمات التي تحفظه من الوقوع في الخطأ، فالنظر إلى الحرام مثلًا قد يكون شيئًا ممتعًا، ولكن ما الذي يدفع الإنسان لترك النظر إلى الحرام؟، حينما يكون الإنسان قويًّا وعزيزًا وكبيرًا لا يكون مستعدًّا لأن يصغُر ويذلّ نفسه أمام المعصية، وسيرى نفسه أكبر من أن يقع فريسة لنظرة محرّمة أو سماع كلمة محرّمة.

وعندما نقول التقوى هي السور، وهي الصيانة، وهي المناعة، نتساءل كيف تحصل المناعة؟، تحصل حينما يشعر الإنسان أنه أكبر من أن يقع في الرذيلة، فينزّه نفسه عن أن

ينظر إلى حرام أو يسمع حرامًا أو ينطق بكلمة حرام أو يخطو خطوة إلى حرام، فالتقوى تُبعد الإنسان عن الهوى.

وإذا كان هذا الإنسان البسيط يقع أمام مثل هذه التحديات، فكيف الأمر بالإنسان القيادي الذي يقف له الناس إجلالًا واحترامًا، ويخاطبونه بألفاظ التبجيل والاحترام؟!.

أتدرون ما تفعل هذه الكلمات في أعصاب الإنسان غير المحصّن بالتقوى حينما يجلس على هذا الكرسي الدوار، والمكتب الطويل، والناس تقف خائفة خلف الباب لا تعرف ماذا تتكلم؟، أتدرون ما الشعور الذي يشعر به مثل هذا الإنسان؟.. إنه يضيع نفسه، وتتعزز فيه الأنا والهوى وحب الذات، فلا يرى إلا نفسه، ولا يفكر إلا بنفسه، ويريد من الجميع أن يكونوا في خدمته.

ولو قيل له: إن هذا الموظف أو العامل أو الجندي الذي يعمل تحت أمرتك ليس عبدًا لك، بل هو أخوك وظفته الدولة لكي تتعاونوا في إنجاز التكاليف الملقاة على عواتقكم تجاه الوطن؛ لا يأبه لذلك وكأنه غير معنيّ بهذا الكلام، ولا يودّ سماع أي كلمة يمكن أن تَحُوْلَ بينه وبين حب الأنا وتركيز الذات.

لا تنسَ نفسك أيها المسؤول والقيادي، مهما كانت مواقعك القياديّة، واعلم بأنك لا يمكن أن تكون في موقع تسيء فيه إلى الآخرين وتتجاوز على حقوقهم، واعلم أن هذه المواقع تأتي وتذهب، وأن ما يبقى هو علاقة الإنسان مع الآخرين ونظرة الإنسان لنفسه.

انظروا إلى ما يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أوصيكم عباد الله بتقوى الله فإنها حق الله عليكم»، أي أن حق الله على عباده هو أن يتقوه ويلتزموا بأوامره ونواهيه. «والموجبة على الله حقكم»، أي عندما تصبحون ملتزمين سيكون لكم حق على الله تعالى، فالإنسان المطيع الملتزم له حق على الله في أن يثيبه ويعطيه ويعالج مشاكله ويصلح له أمر دنياه ويحسّن صورته أمام الناس وجميع الآثار الدنيوية والأخروية. «وأن تستعينوا عليها بالله»، أي لا تتصوروا أن التقوى تحصل بالمجان، بل تحتاج إلى استمداد العون من الله سبحانه. أي تستعينون بالتقوى على أداء فرائض الله، ولا تتصوروا أنكم تستطيعون من غير تقوى أن تؤدوا هذه الفرائض.

إذن كلما كان عندك ملكة في أن تطيعه أكثر، أصبح حقك أكبر على الله سبحانه، فالقضية متبادلة بين الطرفين، مزيد من التقوى يؤدي إلى مزيد من النجاح، والأشد التزامًا يعني قربًا متزايدًا من الله سبحانه وتعالى.

«وأن تستعينوا عليها (على التقوى) بالله، وتستعينوا بها على الله، فإن التقوى في اليوم (في الدنيا) الحرز والجُنّة (الوقاية)، وفي غد (يوم القيامة) الطريق إلى الجنة، مسلكها(طريق التقوى) واضح، وسالكها رابح، ومستودعها حافظ»[٣٣] فالتقوى مخزن تَحفظ ما يُستودع فيها.

والتقوى تؤدي إلى عزّة الإنسان؛ لأنه يتصل بالعزيز المطلق، يقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «التقوى تجلّ والفجور يذلّ»[٣٤]، فالذلّة في الفجور والعزّة في التقوى.

وقال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «لا عزّة أعزّ من التقوى»[٣٥]، فهي عزّ ليس فوقه عزّ.

أصناف التقوى

ينبغي التمييز بين صنفين من التقوى:

الأولى: التقوى الشخصية

يراد منها التحكّم بمسارات الإنسان وخطواته في ما يرتبط بحياته الشخصية. وتشمل الأحكام الإلهيّة من الواجبات والمحرمات التي يجب على الإنسان إطاعتها، كأحكام: لا تنظر إلى الحرام، لا تسمع الحرام، لا تنطق بالحرام، هذا واجب يجب عليك أن تفعله، ذاك حرام عليك أن تتجنبه وتبتعد عنه. عملية التحكم بسلوك الإنسان في حياته الشخصية تسمّى بالتقوى الشخصية.

الثانية: التقوى السياسيّة

هي التي تتحكم بالدور القيادي لمن يتصدى إلى المسؤولية ويتحمل المسؤولية، في أي مستوى من مستويات التصدي. فتتحكم بسلوك الدور القيادي والأداء القيادي بالشكل الذي ينسجم مع الحياة الاجتماعيّة للإنسان وتصدياته العامة.

إذن، التقوى الشخصية ناظرة إلى الحياة الخاصة للإنسان، وكيف يتعامل في حياته الخاصة، بأن يكون عادلًا ومنصفًا ومتسامحًا ولا يعتدي ولا يتطاول على الآخرين في

٣٣. نهج البلاغة الخطبة ١٩١

٣٤. عيون الحكم والمواعظ: ٣٤.

٣٥. نهج البلاغة: الحكمة ٣٧١.

حياته الشخصية. وأما التقوى السياسيّة فهي ناظرة إلى السلوك المطلوب من الإنسان في الحياة الاجتماعيّة.

وبما أن تأثير التقوى السياسيّة عام، فهي أهم وأصعب وأخطر من التقوى الشخصية. إن مسألة أن يكون الإنسان في حركته الخاصة منسجمًا مع ما يريد الله سبحانه هي مسألة صعبة، ولكن يمكن أن تتحقق، فإن أخطأ الإنسان كان ضرر ذلك عليه، وإن أحسن كان خيره له، لكنّ غياب التقوى السياسيّة ضرره على المجتمع بأسره، ووجودها يعود نفعه على المجتمع بأسره، ومساحة نفعها أو ضررها تكون بحسب مستويات التصدي للقيادة، فالوزير إذا كان متقيا بالتقوى السياسيّة يكون تأثيره الإيجابي في كل العاملين في وزارته بشكل خاص وفي الدولة بشكل عام، والمدير العام تكون دائرة تأثيره أضيق، وربّ الأسرة تكون مساحة تأثيره في القرارات التي يتخذها لهذه الأسرة. وهكذا يتسع تأثير التقوى السياسيّة أو يضيق بحسب مستويات التصدي، ومهما توسعت أو تضيقت تبقى هذه التقوى السياسيّة مرتبطة بالحياة الاجتماعيّة وليس الحياة الشخصية للإنسان.

ولذلك نجد أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما يتحدث عن المنظومة القياديّة وعن النجاح في الدور القيادي، يقف عند خصيصة التقوى؛ لأن الإنسان في مواقع المسؤولية وفي مواقع الخدمة العامة، إذا لم يراعِ التقوى السياسيّة فإنه سيصاب بهوس السلطة وشهوة القدرة والنفوذ والتأثير والفتك بالآخرين، حتى يقول: أنا موجود والقرار بيدي، وأنا مَن أقول، وأنا مَن أفعل، وتتجلّى الأنا بأوضح صورها وتتجسد في ذلك القيادي الذي يبتعد عن التقوى السياسيّة.

ولذلك نجد أن القرآن الكريم تطرّق إلى التقوى السياسيّة، كما تطرّق إلى التقوى الشخصية، فهناك ثلاث وخمسون آية في القرآن جاءت لتستنكر حالة الاستكبار والطغيان التي تحصل عند الإنسان وهو يمارس الإدارة والقيادة في مجالاتها المختلفة، كقوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[٣٦] حينما يصاب بحالة الاستغناء والشعور بالقدرة يُبتلى بالطغيان والاستكبار وتجاوز الحدود ويُصاب بهوس السلطة، وحينئذ يتحول إلى وحش يهلك العباد ويدمر البلاد من حيث لا يشعر، ولا يكترث لأي شيء، ولا يهمه إلا نفسه.

وحينما يتحدث القرآن الكريم عن (فرعون) يستعرض الحالة الفرعونية، فـ(فرعون) إنسان مثل باقي البشر، ولكن حينما ثُنيت له الوسادة وبدأت الأمور تأخذ مدياتها شيئًا

---

٣٦. سورة العلق: الآيات ٦-٧.

فشيئًا قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى﴾[٣٧]، وبدأ يتعامل من موقع السلطة ويفرض رؤيته وقناعته ويعتبر حياة الناس بيده.

وهكذا كان يتعامل فرعوننا المعاصر (صدام) مع الشعب العراقي، فهو رجل وُلد في منطقة قروية، حاله حال أي إنسان غيره من أبناء القرى، وكانت لديه مَلَكَة معينة ودوافع شريرة، ويمكن أن توجد هذه الدوافع عند كثير من الناس. قال أحدهم مرة: كثير من البشر عندهم صدام صغير، وحينما يخرج من القمقم وتتاح له الفرصة يتحول إلى صدام ثانٍ.

فلا تتصوروا أن صدامًا نادرة من نوادر التأريخ، بل هو حالة إنسانية يمكن أن تتكرر عند غيره، حينما تنثني له الوسادة ويلتزمه الآخرون ويصفقون له سيتحول بالتدريج إلى شخص يعتقد بأنه أكبر من الجميع، وله قدرات تفوق ما يتمتع به الآخرون، والحقيقة ليست كذلك.

وهذه مسألة نجد آثارها العميقة في الحياة الاجتماعيّة حينما يبتعد الإنسان عن التقوى السياسيّة، فيصاب بكل هذه الآفات والأمراض والأخطار والإشكاليات. وكلما التزم بالتقوى السياسيّة كان قادرًا على أن يمسك لجاج نفسه، ويتغلب على هواه ويسيطر على مشاعره ويتخذ القرار الصحيح، ويتحمل الآخرين حتى لو اختلفوا معه في الرأي.

ولهذه الاعتبارات نجد التأكيد الكبير على التقوى السياسيّة في ثقافتنا الدينية، كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣٨]، فمن لا يريد العلو، ولا يريد الفساد والإفساد، ويراعي التقوى السياسيّة، يجعل الله تعالى له الدار الآخرة، يحظى فيها بالسعادة الأبدية.

وقال رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «من أمّ القوم إمامة عمياء وفي الأُمة من هو أعلم منه فقد كفر»[٣٩]، وقال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «من ضرب الناس بسيفه ودعاهم إلى نفسه وفي المسلمين من هو أعلم منه فهو ضال متكلف»[٤٠]، فمن الكفر والضلال أن يتقدم الجاهل على العالم.

إن مشكلتنا اليوم في العراق هي وجود الرجل غير المناسب في المكان غير المناسب، وهي تطبيق دقيق للحديث الشريف المتقدم، وهي من أجلى مصاديق الخيانة بحق الأمة.

---

٣٧. سورة النازعات: الآية ٢٤.

٣٨. سورة القصص: الآية ٨٣.

٣٩. بحار الأنوار٢٢: ٤٨٧ح٣١.

٤٠. الكافي ٥: ٣٧ح١.

ومن أجل القضاء على هذه المشكلة يجب المبادرة إلى تشكيل لجنة من أهل الأمانة والاختصاص، تتولى إعادة تقييم مسؤولي الدولة في مختلف المستويات وعلى مختلف الأصعدة الإدارية والسياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة، وأن تنتهي هذه المحاصصة الحزبية المقيتة والأثرة العائلية والعشائرية والمناطقية التي جرّت على البلد الويلات، ويكون ابن الرئيس وابن المواطن البسيط على حد سواء، وننظر إلى الناس على حسب قدراتهم وكفاءتهم، بغض النظر عن انتمائهم الحزبي أو المناطقي، ولنضع الرجل المناسب في الموقع المناسب، وحينئذ ستنقلب حالة البلد رأسًا على عقب، بنفس الإمكانات ونفس الرجال ونفس الضوابط.

إن المشكلة فينا وليست في إسلامنا، فلماذا لا نلتزم بهذه الرؤية القياديّة الواضحة التي يقدمها الإسلام عبر القرآن الكريم والسنة الشريفة المروية عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِۦوَسَلَّمَ وأهل بيته الأطهار عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ، التي تعتبر من يتصدى لمنصب قيادي وهناك من هو أكفأ منه خائنًا؟.

ومع أن أحدًا لا يتوقع أن يأتي من هو في موقع مدير عام مثلًا إلى الوزير، ويطلب منه تعيين موظف عنده في الدائرة مديرًا عامًا بدلًا منه لأنه أكفأ منه، ولكن لو فعل ذلك، فإنه سيكبر في عين الله سبحانه وتعالى وفي عين الوزير وفي عين الموظفين. وعلى الوزير لو علم بذلك أن يصحح الاختيار ويعين ذلك الموظف مديرًا عامًا.

إنها ثقافة اختيار الأصلح والأكفأ لإدارة أمور الناس. ويجب أن نقضي على الثقافة الخاطئة التي يسعى الجميع في ظلالها إلى أن يكونوا في الصدارة، لأنها تجاوز للثقافة الإسلاميّة والفهم الإسلامي في إدارة المنظومة القياديّة.

يقول الإمام الكاظم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: «ما ذئبان ضاريان في غنم قد تفرق رعاتها بأضر في دين المسلم من طلب الرئاسة»[٤١]، أي أن الضرر الذي يدخل على دين من يطلب الرئاسة وليس مؤهلًا لها، أشد من ضرر الذئب الضاري على قطيع من الغنم ليس له راع.

فيا أيها المتدافعون على السلطة، وأيها الطامحون إلى المواقع القياديّة، انظروا في أنفسكم، وانظروا إلى هذه الثقافة، وحافظوا على دينكم وعلى آخرتكم، وانظروا هل أنتم مؤهلون لأن تكونوا في هذه المواقع؟، وإذا لم تكونوا كذلك فاعطوا الفرصة لغيركم.

٤١. الكافي ٢: ٢٩٧ح١.

وعن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ملعون من ترأّس، ملعون من همّ بها، ملعون من حدّث بها نفسه»[٤٢]، وهنا يلعن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ من يتصدى للرئاسة وهو ليس أهلًا لها. ثم يتنزل ويلعن أيضًا من يخطط لها ويكيد ويتآمر ويلتف على هذا وذاك حتى يصل إليها وهو ليس أهلًا لها. ثم يتنزل أكثر ويلعن أيضًا من يفكّر بالرئاسة.

ومعنى ذلك ألا يضع المؤمن أفكاره بهذه القضية، لكي لا يختزل البلد والمشروع كله في حالة معينة وتصور معين وموقع معين، فإن الأمور لا تكون بهذه الطريقة، وعليه أن ينظر إلى المسائل في إطارها الأوسع بنظرة موضوعية. وهذه بالحقيقة هي الخطوة الأولى في إصلاح العلاقة بين الإنسان وربه، والتقوى في بعدها الشخصي، والتقوى في بعدها السياسيّ هي الخطوة الثانية.

وهناك إضاءة يمكن استفادتها من هذا الدرس الذي يقدمه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الإدارة والقيادة.

أهمية إصلاح علاقة العبد مع ربّه

ما أهمية العلاقة بين العبد وخالقه؟، وكيف يستطيع الإنسان إصلاح علاقته مع الله تعالى؟، وكيف يستطيع تطوير هذه العلاقة؟.

إن العلاقة بين العبد وخالقه هي المفتاح والمدخل للنجاح، ومن يريد أن يكون ناجحًا في أي عمل وفي أي مهمة وفي أي موقع، عليه أولًا أن يبدأ بإصلاح علاقته مع الله سبحانه وتعالى، فإنها سر النجاح وركيزة التوفيق وبداية الانطلاق ومفتاح التقدم وبلوغ الغايات والأهداف.

وكلما زادت علاقة الإنسان مع ربه، ارتبط بالقوي المطلق، فيزيده ذلك قوة وتماسكًا وتلاحمًا وثباتًا وإصرارًا وقدرة على مواجهة الأخطار والتحديات.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله أمر دنياه»[٤٣]، فمن يُرد أن يحبه الناس وتتحسن علاقته مع أسرته وجيرانه وزملائه في العمل ويكون محبوبًا في المجتمع، فليكن أداؤه مميزًا وليصلح سريرته مع الله سبحانه وتعالى.

---

٤٢. الكافي٢: ٢٩٨ح٤.

٤٣. نهج البلاغة: الحكمة ٨٩.

ولإصلاح النية مع الله تبارك وتعالى آثار غريبة في المجتمع ، فنشاهد مثلًا مطعمًا بنفس المواصفات الموجودة في المطاعم الأُخرى ، ولكن نرى زبائنه أكثر ، مع أن أسعارهما واحدة ، ويمكن أن تكون خدماته أقل ومكانه ليس على شارع تقصده الناس ، وكذا نرى قصابًا يبيع اللحم تزدحم عليه الناس مع وجود آخرين في المنطقة ينتظرون من يشتري منهم ، وجودة اللحم واحدة والأسعار متساوية .

ونرى خطيبًا تهوي إليه القلوب وتقصده الناس لسماع خطبه ، مع أن هناك خطباء آخرين لا يحظون إلا بحضور قليل ، وربما كانت معلوماتهم أفضل وأصواتهم أجمل . وهكذا لو راجع كل واحد منا نفسه ، فسيرى كثيرًا من الناس محطًا لأنظار الآخرين مع أن جهدهم لا يتميز عن الآخرين .

والسر في ذلك أن هناك شيئًا اسمه البركة والتوفيق . وهذه قضايا معنوية وغيبية ولكننا نجدها في كل مكان ، ويريد الله سبحانه وتعالى أن يتم حجته على عباده من خلال هذه المظاهر والنماذج الظاهرة للعيان ، ويريد أن يعرّف الناس أن له سبحانه وحده القول الفصل في هذه الأمور .

ومن الأمثلة التي تُضرب لبيان معنى البركة ، هي المقارنة بين عدد الكلاب وعدد الأغنام ، فالكلاب مع أن مدة حملها أقصر ، وإنجابها في كل حمل يتجاوز الخمسة أو الستة ، ولكن أعدادها أقل من الأغنام التي تكون مدة الحمل فيها تسعة أشهر ، وإنجابها في كل حمل واحدا وأحيانًا تنجب توأمًا ، كما أن الذبح فيها مستمر ، ويُفترض بحسب المقاييس الماديّة أن يكون عددها أقل ، ولكن ما اكثر أن نرى قطيعًا من الغنم ولا نرى قطيعًا من الكلاب ، وعندما سئل الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن تفسير ذلك لخصها بكلمة واحدة ، وهي أن الله تعالى جعل البركة في الغنم ولم يجعلها في الكلاب .

وتناولت الجملة الثانية من كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المتقدم «ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله أمر دنياه» مسألة تأثير العمل للآخرة في إصلاح أمر الدنيا ، فمن يُرد أن تسير دنياه بشكل جيد ، فعليه بإصلاح شأن آخرته .

وقد يشكو البعض قائلًا إن الدنيا تسير على عكس ما يشتهي ، فيخرج مثلًا لإنجاز عمل ما فيتعرقل ذلك العمل وتتعقد عليه الأمور ، وربما مر كل واحد منا بهذه الحالة في حياته ، فيرى في يوم ما من الصباح إلى المساء كل شيء يسير عكس ما يتمناه ، وفي يوم آخر تسير الأمور وفقًا لما يريد . فلماذا تعقّدت في ذلك اليوم؟ ، ولماذا سارت بسهولة في اليوم الآخر؟ .

إن لله سبحانه وتعالى تقديرات لخلقه لا نعرفها، أخبرنا عن بعضها أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، منها أن من يصلح أمر آخرته يصلح الله سبحانه له أمر دنياه. وهذا وعد إلهي جرى على لسان وليّه الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ. وهنالك الكثير من الآيات والروايات التي دلّت على هذا المعنى.

إن على الإنسان القائد وفي كل المستويات القياديّة أن يصلح سريرته وعلاقته مع الله سبحانه وتعالى؛ لأن الإنسان الذي علاقته مع الله تعالى علاقة مربكة مضطرب يكون مهزومًا من داخله، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٤٤]. فالاستقرار والسكينة والاطمئنان تأتي بذكر الله عز وجل، وحينما يبتعد الإنسان عن الله تعالى، يعيش حالة الاضطراب والضياع، ولذلك نسمع في وسائل الإعلام بين فترة وأخرى أن الملياردير الفلاني انتحر.

وقد ذكرت الصحف خبرًا أن أستاذة جامعية لها من العمر أربعون عامًا رمت بنفسها من الطابق الثالث، فلماذا تنتحر أستاذة جامعية وهي ليست في سن متقدمة وعندها وجاهة ومنصب؟ وأين تكمن المشكلة؟ إن الإنسان إذا كان خائفًا ومهزومًا وضعيفًا من الداخل كيف له أن يحقق الاستقرار وأن يعطي القوة للآخرين؟!، في حين أن الشخصية القياديّة هي الشخصية التي تمنح القوة للآخرين في المساحة التي تتحرك فيها، ومن هو فارغ ومهزوم من الداخل كيف يستطيع أن يعطي القوة للآخرين «وفاقد الشيء لا يعطيه»؟.

إذن، العلاقة مع الله سبحانه تجعل الإنسان مستقرًا ومطمئنًا وثابتًا وقويًا وصلبًا، وستنعكس هذه الصلابة والقوة على أدائه الخارجي وعلى سلوكه. فالعبودية لله سبحانه وتعالى تجعل الإنسان قادرًا على أن يتجاوز كل المحن والصعاب التي تقف بوجهه في تحديات الحياة الكبيرة، وقادرًا على أن يضبط أعصابه ويمسك زمام نفسه أمام الهوى والانحراف والشهوات والميول التي تأخذ بالإنسان إلى طريق الضلال والضياع، وتبعده عن الطريق الصحيح. فتارة يمثّل الإنسان نفسه، فإذا ضلّ انحرف وحده، ولكن الشخص القيادي - في أي مستوى قيادي كان - إذا انحرف ضلّت أُمة من الناس معه.

يقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن عمل لدينه كفاه الله أمر دنياه، ومن أحسن ما بينه وبين الله أحسن الله ما بينه وبين الناس»[٤٥]، أي بادر إلى إصلاح سريرتك وانظر كيف يُشيع الله تعالى ذكرك الطيب بين الناس، واضبط التزاماتك

---

٤٤. سورة الرعد: الآية ٢٨.

٤٥. نهج البلاغة: الحكمة ٤٢٣.

الدينية وانظر كيف يرتب الله تعالى لك الدنيا . وأحسن نيتك في ما بينك وبين الله تعالى وأنظر كيف يحسن الله تعالى ما بينك وبين الناس .

إذن إصلاح العلاقة بين الإنسان وربه هي السر الأساسي ومفتاح النجاح لأي شخصية قياديّة تتصدى لأي مهمة من المهام .

الدرس الرابع

إيثار الطاعة

ثم ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن أمره بالتقوى إلى بيان الخصيصة الأخرى التي ينبغي أن تتوافر في من يتصدى للقيادة بقوله: «وإيثار طاعته»، أي أن يقدّم طاعة الله سبحانه وتعالى على كل طاعة، وفي كل خطوة، بل في كل حركة وسكنة وقول وفكرة، فيطبق هذه الخطوة والحركة على مسطرة، ثم يعرضها على هذه المسطرة ليرى هل تنسجم مع طاعة الله سبحانه.

إذن قضية تقديم طاعة الله سبحانه، على ما سواه يحتاج إليها المتصدون لمواقع الخدمة العامة، فمن يتصدى للخدمة عليه أن يستذكر هذه الحالة وتكون لديه قناعة في نفسه بها.

لقد حكم صدام ثلاثة وثلاثين عامًا، وأقحم العراق في أزمات كبيرة، ومر العراق في ظل حكمه بسلسلة من الهزائم، ولكن لم نسمعه يعتذر إلى الشعب العراقي ولو لمرة واحدة، بل على العكس من ذلك، نراه يطبّل بالنصر بعد كل هزيمة. وهذا هو ديدن الأنظمة الشمولية، فلم نسمع يومًا ديكتاتورًا يعتذر إلى شعبه عن خطأ ارتكبه، مهما كان ذلك الخطأ فادحًا. إنها حالة الاعتداد بالذات والاعتداد بالنفس.

ونحن اليوم في العراق الجديد، وبعد سنوات من التجربة الديمقراطية، لم نسمع يومًا مسؤولًا يقف ويعتذر إلى الشعب، بل كل المؤتمرات تتحدث عن الانتصارات والإنجازات. فإذا كان الأمر كذلك فلماذا نحن لسنا بخير ونعيش الأمرّين؟ ولماذا لا تحسّون بما في قلب المواطن من محنة وألم نتيجة هذا الفساد الذي زكمت رائحته الأنوف؟.

إنها حالة الاعتداد بالذات التي تدعو الإنسان إلى أن يبتعد عن جادة الصواب. ولذلك فإن إيثار طاعة الله عز وجل وتقديمها في كل خطوة مسألة يحتاج إليها الإنسان حينما يتصدى إلى مواقع القيادة والإدارة.

يقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[٤٦]، أي تحرُم طاعة أي إنسان -مهما كان ذلك الإنسان- في أي قول أو عمل فيه معصية لله عز وجل. ولا ينفع ما يتذرع به البعض حينما يرتكب معصية بأن المأمور معذور!، فالجندي أو الموظف أو أي مرؤوس آخر ليس بمعذور حينما يطيع ما يأمره به مسؤوله ورئيسه بفعل يخالف ما أمر به الله عز وجل.

وعندما يسأل الضابط الذي ضرب القنابل الكيمياوية على أبناء الشعب وقتل ستة آلاف إنسان في ثوان معدودات، يقول: المأمور معذور!، من قال لك يجب عليك أن تمتثل للأوامرحينما تكون هناك إبادة جماعية للمواطنين؟!، لا تجب طاعة أي أمر عسكري فيه معصية لله عز وجل، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وفي المحاكم التي أقيمت على أزلام صدام يقف أعتى المجرمين ليقول بكل بساطة: أنا غير نادم لأني نفذت أمرًا عسكريًا. ولكن من قال لك إن الأمر العسكري يجب أن يُنفذ حتى لو كان فيه فتك بالناس وبطش وإبادة جماعية وإزهاق للأرواح؟، لماذا لم تقدم استقالتك وترفض تحمّل هذه المسؤولية؟.

وهناك رواية لطيفة عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «بعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ سرية واستعمل عليها رجلًا من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، ولما كان ذات يوم غضب عليهم، فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا حطبًا. فجمعوه، فقال لهم: أضرموا نارًا. ففعلوا، فقال لهم: ادخلوها. فهمّوا بذلك، ثم جعل بعضهم يمسك بعضًا ويقولون، إنما فررنا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من النار! فما زالوا كذلك حتى خمدت النار وسكن غضب الرجل. فبلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فقال: لو دخلوها لما خرجوا منها إلى يوم القيامة، إنما الطاعة في المعروف»[٤٧].

إن أمر أي مسؤول هو في دائرة صلاحياته بما يحقق مصالح العباد والبلاد، وليس في الاتجاهات الأخرى أو في معصية الله سبحانه، فلا طاعة في معصية الله. الطاعة

٤٦. نهج البلاغة: الحكمة ١٦٥.

٤٧. مستدرك الوسائل ١٣: ١٤٢ح١.

في المعروف، فتُطاع القرارات السليمة ويُمتثل لها ويُلتزم بها، وأما القرارات التي فيها معصية لله فلا يجوز إطاعتها، وهذه ثقافة مهمة.

يقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في رسالته لمحمد بن أبي بكر حينما ولاه مصر: «اعلم يا محمد بن أبي بكر أني قد وليتك أعظم أجنادي في نفسي أهل مصر»، وهذه شهادة منه عَلَيْهِ السَّلَامُ بحق المصريين. «فأنت محقوق أن تخالف على نفسك»، هذا حقك عليك أن تخالف هواك وأن تخالف نفسك ولا تطيع شهواتك. «وأن تنافح عن دينك»، أي أن تحرص وتحمي دينك. «ولو لم يكن لك إلا ساعة من الدهر»، أي لو بقيت لك ساعة من الدهر لا يحق لك أن تقع في المعصية، ويجب عليك أن تحمي نفسك.

ولكن ترون بعض عوام الناس لو قيل له: لماذا فعلت هذه المعصية؟ يقول: ساعة لنفسك وساعة لربك. فهو يفسر الساعة التي لنفسه بجواز ارتكاب المحرمات والمعاصي، فهذه الساعة له يفعل فيها ما يفعل، ثم يقول في الساعة التي لله: استغفر الله ربي وأتوب إليه!.

لا توجد لدينا هذه الثقافة في الإسلام، بل كل ساعاتنا لربنا، وعلينا أن نكون في طاعة ربنا حتى لو بقي من الدهر ساعة. «ولا تسخط الله برضا أحد من خلقه»، أي ولا تغضب رب العالمين لكي يرضى عنك فلان من الناس. «فإن في الله خلفًا من غيره»، أي إذا أرضيت الله تعالى فهو يهوّن غضب الآخرين وسخطهم عليك. «وليس من الله خلف في غيره»[٤٨]، أي، إن الله إذا غضب عليك لم يكن هناك شيء يعوّض غضبه، فغضب الناس يُعوَّض برضا الله، ولكن غضب الله لا يُعوَّض برضا الناس؛ إذ لا فائدة برضا الناس عنك والله سبحانه غاضب عليك.

إن إيثار الطاعة ـ أي تقديم طاعة الله على طاعة الآخرين ـ لا يُقصد منه تقديم الطاعة في موارد الوجوب المنصوص عليها، أي، إذا دخل وقت الصلاة فلا ينبغي للإنسان أن يشغل نفسه بشيء آخر، بل يجب عليه أن يؤدي الصلاة، وإذا دخل شهر رمضان فعلى الإنسان المطيع لله ألا ينشغل بقضية أُخرى، ويقدم الصيام على أي شيء آخر. وهكذا. فالمسألة ليست محصورة بهذه الدائرة وهذا الإطار، وإنما هي في إطار أوسع.

ولقد كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: إن كل حركة وسكنة وقول وفعل وأداء وموقف وسلوك يريد أن يأتي به الإنسان يجب أن يخضع للموازين والأطر الشرعيّة، فمثلًا إذا أراد النظر إلى شيء يجب عليه أن يفكر أولًا، هل النظر إلى هذا الشيء جائز أو لا؟، بمعنى

٤٨. نهج البلاغة: الرسالة ٢١.

هل يرضى به الله تعالى أو - لا سمح الله - سيجلب غضبه سبحانه؟ ، وهكذا في كل قول وفي كل خطوة يجب أن يستحضر رضا الله سبحانه وتعالى أو عدم رضاه، وحينها يشعر الإنسان أنه يعيش في محضر الربوبية في كل لحظة وفي كل حركة وفي كل سكنة. وهذه الحالة تجعل الإنسان إنسانًا إلهيًا، وإنسانًا رساليًّا يعيش الأمل والثقة ويستشعر القوة لارتباطه بالقوي المطلق.

وقد جاءت النصوص لتؤكد هذا الموضوع، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[٤٩]، أي ليس صلاته فقط، وليس نسكه فقط، بل محياه ومماته وكل وجوده هو لله سبحانه وتعالى. ففي كل خطوة وكلمة وموقف يرى الله سبحانه وتعالى قبله وفيه وبعده، فإذا كان منسجمًا مع إرادة الله مضى فيه، وإلّا توقف.

الشرك الجلي والشرك الخفي

الشرك الجلي: هو اتخاذ آلهة غير الله سبحانه وتعالى، وهو أوضح مصاديق الشرك الذي يُعبّر عنه في علم الكلام بالشرك الجلي، فمن يعبد آلهة غير الله أو آلهة مع الله يكون مشركًا بالله سبحانه وتعالى.

والشرك الخفي: وهو أخطر وأعظم من الشرك الجلي، ويمثل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ الشرك الخفي بأنه كالنملة السوداء التي تمشي على صخرة صماء في ليلة ظلماء، كيف يخفى أمرها على الإنسان، إذ من الصعوبة جدًا أن تُرى، وهكذا هو الشرك الخفي.

مثلًا يقال لشخص: لماذا تذهب إلى المكان الفلاني، فيجيب أريد أن أستفيد، وهذا ظاهر المسألة، ولكن يمكن أن يوجد في قلبه شيء آخر؛ ربما يريد أن يراه المدير الفلاني أو يراه الآخرون، أو غير ذلك من القضايا التي يمكن أن تدخل على الخط فتفسد الأجر والثواب. وهذا حال الإنسان وهو ذاهب إلى المسجد لأداء الصلاة، وفي أوضح صورة من صور العبادة، فما بالك في الأمور الأخرى؟!.

إن ثقافتنا في الحقيقة ثقافة ملوثة في الكثير مما يمكن أن يقترب من الشرك الخفي، حتى أن بعض المفردات وبعض العبارات التي أصبحت مألوفة جدًا هي من هذا القبيل، مثل العبارة التي نقولها لشخص حينما نراه: مشتاقون، فهل نحن مشتاقون فعلًا ونحن لم نذكره ولم نسأل عنه عندما كان مريضًا في الفراش لمدة شهرين؟!. وأمثال ذلك كثير.

---

٤٩. سورة الأنعام: الآيات ١٦٢ - ١٦٣.

ومن أمثلة الشرك الخفي أننا نقوم احترامًا للشخص الوجيه المتدين إذا دخل مجلسًا عامًّا ونعطيه مكاننا، بينما لا نفعل مثل ذلك مع المتدين الذي لا وجاهة له في المجتمع، ويتبين من ذلك أننا لم نفعل ذلك لتدينه بل لوجاهته، وأننا لم نحترمه لأنه مؤمن، بل احترمنا ذاتنا ومصلحتنا، ووجدنا في الاحترام والاهتمام بذلك الشخص ما يمكن أن يحقق لنا مصلحة معينة.

وهكذا لو بدأنا من هذه القضايا البسيطة وصولًا إلى القضايا الكبيرة جدًّا في حياتنا الشخصية والاجتماعيّة نجد الكثير من ذلك في علاقاتنا، مما نتداوله ونتحدث به. إنها ثقافة قد تطبّعنا بها وسارت فينا مسرى الدم في العروق.

وهكذا نلاحظ أن عملية الشرك الخفي وإدخال قضايا لا يُراد منها القربة إلى الله تعالى والوصول إليه، تشوب كثيرًا من مواقفنا وسلوكنا وأدائنا وعلاقاتنا وأوضاعنا. وهذا يتقاطع مع المراتب العالية لإيثار الطاعة، وتقديم طاعة الله تبارك وتعالى على طاعة الآخرين.

ونقرأ في دعاء كميل هذه الفقرة: «يارب أسألك بحقك وقدسك وأعظم صفاتك وأسمائك أن تجعل أوقاتي من الليل والنهار بذكرك معمورة وبخدمتك موصولة»، أي، اللهم اجعل أعمالي ليلًا ونهارًا، صباحًا ومساءً، باتجاه واحد وهو ذكرك يا الله، فهو الذي يعمر النفوس والقلوب والأوقات، ويجب أن يكون ذكر الله تعالى حاضرًا في كل آن. والسؤال كيف يمكن للإنسان أن يُوجِد هذه الحالة في نفسه؟.

ثم يواصل الدعاء: «وأعمالي عندك مقبولة»، أي واجعل كل أعمالي عندك مقبولة يا رب العالمين، ولكن كيف يتسنّى للإنسان أن يجعل كل أعماله مطابقة لإرادة الله تعالى ومشيئته، بحيث تكون كلها مقبولة؟ حتى حينما يذهب ويتنزّه، ينوي بهذه النزهة الترويح عن نفسه لكي يقوى على طاعة الله تعالى وخدمة عباده، وحينما يأكل ينوي بهذا الطعام أن يتقوى على طاعة الله تعالى وخدمة عباده، فيكون تناول ذلك الطعام عبادة، والنزهة عبادة، والمزحة عبادة، والجلوس مع الأهل عبادة، ومداعبة أطفاله عبادة. لاحظوا هذه الثقافة التي يقدمها الإسلام للإنسان.

ويستمر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه قائلًا: «حتى تكون أعمالي وأورادي كلها وردًا واحدًا»، وكم هي عجيبة هذه الفقرة من دعاء كميل، إذ كيف يمكن أن تكون أعماله وأوراده كلها عملًا واحدًا ووردًا واحدًا؟، وكيف يمكن أن تكون الصلاة مع الطعام في

اتجاه واحد؟، وكيف يمكن أن يكون النوم والراحة والاستراحة والعبادة والطاعة وتلاوة القرآن وذكر الله كلها في اتجاه واحد؟.

والإجابة: يمكن كل ذلك حينما تكون الخلفية خلفية واحدة، وحينما يكون ذكر الله ومرضاته هما الأساس الذي يتحكم بكل أعمالنا وأفعالنا، فطعامنا عبادة وشرابنا عبادة وراحتنا عبادة وعبادتنا عبادة، وهذه هي أعلى مراتب العبادة.

ثم يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وحالي في خدمتك سرمدًا»، إن الهدف من خلق الإنسان بحسب الآيات والروايات هو الكمال والوصول إلى القرب من الله سبحانه وتعالى. فإذا استطاع الإنسان أن يكيّف سلوكه وأداءه، وأن يكون في مواقفه مندفعًا بدوافع إلهية، يكون بذلك قد حقق الكمال لنفسه وحقق الغرض والهدف الأساسي من خلقه في كل خطوة، وفي كل كلمة، وفي كل فكرة تدور في نفسه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٥٠].

فالطاعة والعبادة والمعرفة والتوجه نحو الله سبحانه وتعالى هي الهدف، فكيف يجعل الإنسان كل أعماله وأوراده وردًا واحدًا؟، وهذا هو السؤال الكبير، وهذا هو التحدي الخطير الذي يواجه الإنسان.

إن لقاء الله سبحانه هو الهدف الذي يجب أن يسعى إليه الإنسان، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٥١]، فلقاء الله تبارك وتعالى هو المغنم وهو الهدف في كل قول وفي كل حركة، لكي يستطيع الفوز برضوان الله تبارك وتعالى، يقول عز من قائل: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٥٢]، كيف نجعل رضا الله سبحانه وتعالى هو الهدف والغاية في كل سلوكنا وتحركنا ومواقفنا؟ وهذا في الحقيقة هو جوهر ما يشير إليه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الموجب والسبب الأساسي من أسباب إصلاح علاقة الإنسان مع خالقه.

---

٥٠. سورة الذاريات: الآية ٥٦.

٥١. سورة الكهف: الآية ١١٠.

٥٢. سورة التوبة: الآية ٧٣.

الدرس الخامس

اتباع الأوامر الإلهيّة

والركيزة الثالثة من مستلزمات إصلاح العلاقة بين الإنسان وربه، هي ما أشار إليه أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: «واتّباع ما أمَرَ بِهِ في كتابِهِ من فرائضِهِ وسُنَنِهِ»، أي الرجوع إلى القرآن الكريم، فهو المرجعية التي تحدد الإطار الصحيح في العلاقات الإنسانيّة، وهو الذي يحدد طبيعة العلاقة وينظم هذه العلاقة في المنظومة القياديّة.

وإذا ما تجاوزنا الأطر التي يشير إليها القرآن الكريم وتساهلنا وتغافلنا عن السياقات التي يحددها، فحينئذ سنبتعد ونشذ عن الطريق. فالقرآن هو الذي يحدد الواجبات في هذه العلاقة، ويحدد الآداب وأخلاقية العلاقة في المنظومة القياديّة، وعلينا أن نتمسك بهذه الواجبات والآداب والأخلاق. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٥٣]، فمن يريد سلوك الطريق الأقوم والأصح عليه التمسك بالقرآن الكريم وبالأُطر والسياقات القرآنية.

وعن علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «لا يسعد أحد إلا بإقامة حدود الله»[٥٤]، فلا يتصور أحد أنه إذا تجاوز حدود الله سبحانه سيكون سعيدًا. إن من الممكن أن يحصل الإنسان على المنصب والجاه الذي يريده، وقد ينال المال والإمكانات التي يطمح إليها، ولكنه لا يستطيع الحصول على السعادة القلبية؛ لأنها لا تحصل إلا بذكر الله تعالى، يقول عز من قائل: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٥٥].

فلا يمكن أن يشعر الإنسان بالسعادة حتى إذا كانت الناس كلها تطيعه وتسير وراءه؛ لأن علاقته بالله ليست ضمن إطارها الصحيح. إذن، فالالتزام بحدود

٥٣. سورة الإسراء: الآية ٩.
٥٤. غرر الحكم ٢: ٣٦٤.
٥٥. سورة الرعد: الآية ٢٨.

الله تعالى التي يشير إليها القرآن الكريم، هو المدخل الصحيح لتحقيق السعادة.

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول: «لا يسعد أحد إلا بإقامة حدود الله، ولا يشقى أحد إلا باضاعتها»[٥٦]، وهذا هو الفيصل بين السعادة والشقاء. نسمع اليوم أن أولاد أصحاب المليارات ينتحرون، مع أن لديهم إمكانات هائلة من القصور والسيارات الحديثة، ولديهم كل شيء يريدونه. فلماذا يفعلون ذلك؟، إن من الخطأ بمكان، أن نتصور أن السعادة والراحة تحصلان بالمال، فالمال يمكن أن يوفّر الراحة، لكن حينما يُنفق في اتجاهه الصحيح.

ونلاحظ في الحالة الإنسانيّة أن أشد المجتمعات كآبة وترديا في الوضع النفسي اليوم هي المجتمعات الغربية، مع أنها أفضل المجتمعات من الناحية الاقتصاديّة والإمكانات ومن ناحية الرفاهية، فهي تتمتع بدخل قومي مرتفع جدًّا، ولكن الحصيلة هي الكآبة والأمراض النفسية والمشاكل الاجتماعيّة ونسبة الطلاق المرتفعة جدًّا والأزمة الخانقة في العلاقات مع الآخرين والخيانة في كل شيء والتجاوز والتطاول في كل شيء.

لقد حصلوا على المال ولكنهم لم يحصلوا على الراحة والسعادة والنوم في راحة والجلوس مع أناس يحبونهم ويدافعون عنهم ويتحسسون معاناتهم. هذه هي الحياة في المدنية الغربية؛ ليس لها طعم، فليست الحياة طعامًا وشرابًا، فالبهيمة تأكل وتشرب أيضًا. إذن ما فرقنا عنها، إذا أردنا أن نختزل وجودنا في الطعام والشراب والقضايا الماديّة؟، فهذه يمارسها غيرنا من الكائنات الحية أيضًا، فالحيوانات والنباتات جميعًا تأكل وتشرب وتنمو، فما هو فرقنا عنها؟.

إن الفرق يكمن في أن الإنسان يمتلك أبعادًا معنوية وتأثرات نفسية وروحية ومشاعرية، فالإنسان ليس لحمًا ودمًا فقط، ومن لا يلاحظ الجوانب الأخرى ويضع السياقات الصحيحة للتعامل معها، سوف لا يشعر بالسعادة مهما كانت إمكاناته الماديّة كبيرة. وهذا درس عظيم نأخذه من علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

إذن، فإصلاح العلاقة بين الإنسان وربه تستوجب هذه المسائل الثلاث: تقوى الله، وتقديم طاعته على أي طاعة، والرجوع إلى كتابه القرآن الكريم واتباع ما ورد فيه من تعليمات تنظم العلاقة بين الناس.

---

٥٦. غرر الحكم ٢: ٨٥٢.

الدرس السادس

طرق توثيق العلاقة مع الله

والجانب الآخر في هذه العبارة القصيرة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هو في بيان سياقات وأوجه تحقيق هذا الصلاح وتوثيق العلاقة بين الإنسان وربه، وبيان مداخل تعزيز هذه العلاقة. يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه»، ومعنى أن ينصر الله تعالى بقلبه أي ينصره بالعقيدة السليمة والرؤية الصحيحة والالتزامات الوثيقة بينه وبين الله سبحانه وتعالى. ومعنى أن ينصر الله تعالى بيده أي بسلوكه، فاليد إشارة إلى السلوك والمواقف، أي أن تكون مواقفه منسجمة مع إرادة الله سبحانه وتعالى. ومعنى أن ينصر الله تعالى بلسانه، أي يكون لسانه ناطقًا بالحق، فلا يتردد ولا يجامل ولا يخاف؛ لأن من كان مع الله سبحانه وتعالى كان الله معه.

فهذه هي الأوجه الثلاثة التي يذكرها علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لتعزيز الصلاح بين الإنسان وربه، وهي أن يقول الحق ويدافع عن الحق و ينطق بالحق.

معنى نصرة الله

ماذا تعني نصرة الله؟ هل أن الله تعالى محتاج إلى أن ننصره ونقف إلى جانبه وهو الغني المطلق؟ وهل تعني هذه النصرة أن نُعين الله؟، وهل هو محتاج إلى معونتنا؟ بكل تأكيد ليس هذا هو معنى النصرة، فالله تبارك وتعالى ليس فيه نقص لكي يُكمل هذا النقص من خلال نصرة عباده له، حاشا لوجهه الكريم أن يكون فيه أي نقص، فهو الكمال المطلق وهو ذو القوة المطلقة، إذن، ماذا تعني نصرة الله، وكيف يمكن أن ننصره؟.

النصرة هي المطابقة والانسجام بين حركة القلب وسلوك اليد واللسان والمشيئة الإلهيّة. والله تعالى يريد للإنسان السير على الصراط المستقيم، والمشيئة الإلهيّة هي الأساس وهي الطريق الذي يجب على الإنسان اقتفاء أثره. ومشيئة الله هي أن نطابق

أفكارنا وعقيدتنا وسلوكنا وأداءنا وأقوالنا مع المشيئة الإلهيّة. فنصرة الله إذن هي حالة تكييف الإرادة الإنسانيّة مع إرادة الله، فما يريده الله تعالى، فنحن أيضًا نريده.

وبهذا حينما نقف وننتصر للمظلوم ونُعين الضعيف ونقف مع الناس ونُشيع الخير ونُصلح الفساد، فإننا نكون قد نصرنا الله تعالى؛ لأن مشيئة الله هي أن تسير الأمور بهذا الاتجاه. وكذلك حينما نُصلح أنفسنا ونزكّي أعمالنا ونُطهّر قلوبنا فهذه هي إرادة الله تعالى أيضًا. فإذا خطونا نحوها نكون قد نصرنا الله بذلك، قال عز من قائل: ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٥٧].

تكييف الإرادة الإنسانيّة مع الإرادة الإلهيّة

وبعد أن تبيّنَ معنى النصرة لله تبارك وتعالى، ينتقل البحث إلى كيفية إمكان تكييف الإرادة الإنسانيّة مع الإرادة الإلهيّة، أي كيف نكيف اليد والقلب واللسان مع مشيئة الله سبحانه وتعالى؟.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ أَطَاعَ اللهَ عَلا أَمْرُهُ»[٥٨]، فطاعة الله هي التي تحقق العُلى والرفعة والسمو. والإنسان ينصر الله سبحانه حينما يطيعه، وبذلك يكون قد كيّف إرادته مع إرادة الله تعالى. ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «من أراد عزًّا بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، وغنى بلا مال، وطاعة بلا ذل، فليتحول من ذل معصية الله إلى عز طاعته»[٥٩]، في الظروف الاعتيادية يكتسب الإنسان عزته من عشيرته؛ كلما كانت العشيرة أكبر كثر عدد الأشخاص الذين يقفون مع ابن عشيرتهم في ساعة المحنة، ويسير الإنسان وهو يحمل هذا العنوان معه.

ولكن من أراد عزًّا بلا عشيرة، فإن الله تعالى يعطيه ذلك بشرط أن يخرج من ذل المعاصي إلى عز الطاعة. ومن أراد أن يكون مُهابًا عند الناس من غير أن يكون له سلطان - فالناس تهاب صاحب السلطة عادة وتحسب له حسابًا - فإن الله تعالى يمنحه هذه الهيبة بشرط أن يخرج من ذل المعصية إلى عز الطاعة. ومن أراد أن يكون غنيًّا من غير أن يملك مالًا - لأن المال عادة هو الذي يورث الغنى - فإن الله تعالى يهبه ذلك بشرط أن يخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته.

---

٥٧. سورة محمد: الآية ٧.

٥٨. غرر الحكم ٢: ١٨٧.

٥٩. أنساب الأشراف ٢: ٣٥٨.

الدرس السابع

السنن الإلهيّة

يقول أمير المؤمنين (صلوات الله و سلامه عليه) في عهده لمالك الأشتر: «فإنّه جَلّ اسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ».

يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه العبارة الموجزة إلى بعض السنن الإلهيّة، وهي أن من يقف وينصر الله سبحانه وتعالى سيحظى بنصر الله ودعمه، ومن ينظر إلى الله سبحانه وتعالى نظرة إعزاز فإن الله سبحانه وتعالى سيعزه، ومن يتعامل مع الله سبحانه وتعالى باعتباره العزيز، فإن الله سبحانه وتعالى يتكرم عليه بالعزة في الدنيا.

هذه سنن إلهية مهمة يشير إليها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ونحن بأمس الحاجة لاستحضارها في المنظومة القياديّة لكل المتصدين وهم يتصدون لمهامهم القياديّة، أيا كانت هذه الدوائر والمنظومات القياديّة. وكما قلنا إن المنظومة القياديّة لا تنحصر بالرئيس والزعيم والأمير، بل تبدأ من دوائر ضيقة وصغيرة، فالأسرة هناك من يقودها، وكذا الشركة والمصنع والمتجر وصولاً إلى الدوائر الأوسع والأكثر خطورة وأهمية، فهذه السمات تشترك في كل هذه المنظومات القياديّة، صغيرة كانت أو كبيرة.

وفي هذا الدرس العظيم، هناك العديد من الإضاءات التي يبينها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو يتحدث عن المنظومة القياديّة وعن كيفية الحكم والإدارة.

الإضاءة الأولى

نظام الأسباب والمسببات

عندما يُرجع أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مالكًا الأشتر ويُرجع كل المتصدين إلى السنن الإلهيّة، وإلى القواعد التي تتحكم بمجرى التأريخ ومجرى العالم، فإنه يذكّر الناس بأن هذا العالم يسير على أساس النظام العِلّيّ (نظام الأسباب والمسببات)، فلا توجد مواقف

انفعالية أو عشوائية من الله سبحانه وتعالى، فالعالم محكوم بشكل دقيق ومدهش بنظام الأسباب والمسببات. ومن يريد أن يصل إلى شيء ما، فلا بُدَّ له من أن يدخله من خلال أسبابه الطبيعية، ومن يقوم بفعل ما، لا بُدَّ له من أن يتحمل مسبباته الطبيعية والآثار المترتبة عليه.

فلا نخطو خطوة ثم نقول بعدها: لماذا حدث هذا؟، لأننا بفعلنا دفعنا الأمور إلى أن تسير بهذا الاتجاه وبهذه الطريقة؛ لأن هذا الفعل كان سببًا لمضاعفات واستحقاقات وتأثيرات معينة، فلا يجوز أن نعترض على النتائج ونحن قد ولجنا أسبابها المؤدية إليها. ولا نقول: لماذا لم يحصل الشيء الفلاني؟، ولماذا لم نبنِ بلدنا؟، ولماذا لم تكن الظروف ملائمة؟، ولماذا لا نرى الظروف تتحرك كما نتمنى؟؛ لأن هذه الأمور تحتاج إلى أسباب طبيعية، ونحن لم ندخل إليها من خلال أسبابها الطبيعية حتى تحصل المسببات المطلوبة.

الإضاءة الثانية

ثبات السنن الإلهيّة

هناك قواعد وسنن إلهية تنظّم مجرى الحياة. وهذه السنن ثابتة لا تتغير، فقد تتغير الأسماء بتغير الشخوص، وتتغير المواقع بتغير الأزمنة، ولكن هذه السنن وهذه القواعد ثابتة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[٦٠]، و«لن» تفيد التأبيد، أي لا تتغير هذه السنن، فـ (٢+٢=٤)، سواء حسبتها بالتفاح فهي أربع تفاحات، أو حسبتها بالبرتقال فهي أربع برتقالات، وهكذا لو حسبتها في أي شيء فالنتيجة هي هي. فالقالب واحد وإنما تتغير الأسماء والمسميات.

الإضاءة الثالثة

النجاح مرهون باتباع السنن والقوانين

إذا إردت أن تنجح في منظومتك القياديّة، وإذا أردت أن تصل إلى ما تتمناه من الفوز، فعليك أن تدخل من خلال الأسباب الطبيعية، وعليك أن تلتزم بالقواعد والسنن التي

---

٦٠. سورة فاطر: الآية ٤٣.

تتحكم بمجرى التأريخ ومجرى الحياة ومجرى العالم. هذه هي رسالة علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذا الدرس الكبير. وإذا لم تلتزم بها فذلك هو الفشل.

ويُعبّر عن النجاح في الروايات والنصوص بالتوفيق، فالعمل الموفق هو العمل الناجح. ويُعبّر عن الفشل في تراثنا بالخذلان. فمن أراد الخذلان والفشل فعليه عدم الاكتراث بهذه القواعد والأسس، ومن أراد النجاح والتوفيق فعليه أن يسلك السنن الإلهيّة ويعتمد عليها؛ لأنها هي التي تنظم الحياة.

وهذا ليس في منطق السماء فقط، بل حتى نحن عندما نريد أن ننظم أمورنا، علينا أن نضع قوانين ونحرص على تطبيقها، فمثلًا نضع قوانين المرور لتنظيم حركة السير، فالشخص الذي يتجاوز الخط يمكن أن يفرض عليه شرطي المرور غرامة مالية معينة، وكذا إذا تجاوز السرعة المسموح بها، ولا يمكن لأحد أن يقول هذه السيارة ملك لي وليست لأحد علاقة بالموضوع، فأنا أرغب في أن أسير بسرعة كبيرة، أو أنا أرغب بالدخول بسيارتي إلى المكان الفلاني وليس لأحد أن يمنعني، أو أنا أرغب في أن أتجاوز السيطرة الفلانية ولا أقف للتفتيش، فهذه سيارتي وأنا حر بها.

ويقال لمثل هذا الشخص: صحيح أن السيارة سيارتك ولكنك لا تعيش وحدك في هذا لبلد، بل يوجد آخرون يعيشون معك، وتوجد قوانين لتنظيم العلاقات والحياة يجب أن تُحترم، وهناك سياقات وضوابط يجب أن تراعى. وكل شيء في هذه الحياة إذا أريد له أن يحظى بالتوفيق والنجاح يجب أن يخضع لضوابط وأسس تتحكم فيه، حتى يكون ناجحًا وموفقًا.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[٦١]، تشير هذه الآية الشريفة إلى أخطر الأمراض التي يُبتلى بها الإنسان المتصدي في مواقع الإدارة والحكم والقيادة، ألا وهو الاستكبار والتعالي على الآخرين والاعتداد بالنفس، بنحو لا يرى إلا نفسه ولا يرى للآخرين شيئًا. والاستكبار في الأرض هو الخطر الكبير الذي يكون السبب في كل المظالم والسيئات التي تصدر من الإنسان. وعندما يصبح مستكبرًا يبدأ يمكر ويسيء ويتجاوز ويتطاول ويعتدي، وهذه هي سمات المستكبرين بحسب الفهم القرآني.

ولكن الآية الكريمة تشير أيضًا إلى سُنّة إلهية وهي: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، أي لا تظن أيها المستكبر إذا اعتديت وتجاوزت وأسأت، أن هذه الإساءة

٦١. سورة فاطر: الآية ٤٣.

ستوصلك إلى نتيجة، بل إنها كدودة القز ستزيدك عزلة وانكماشًا، وستزيد مواجهاتك مع الآخرين. هذه هي سُنّة الله سبحانه وتعالى في خلقه: (من حفر بئرًا لأخيه وقع فيها). قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ﴾[٦٢].

أيها الحكّام، يا من تتصدون إلى الإدارة والقيادة، انظروا إلى سنة الأولين. إن هذه القواعد التي عاشها السابقون ستعيشونها أنتم أيضًا، وسيعيشها من يأتي بعدكم، فهي لا تتغير بتغير الأزمان. ومن يريد أن يكون ناجحًا في الإدارة والقيادة والحكم عليه أن يقرأ التأريخ؛ لأن التأريخ يجدد نفسه، والتأريخ يوضح ويكشف عن هذه السنن، ويعبّر عن هذه القواعد والضوابط في إدارة المجتمعات، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[٦٣].

ويقول الله تبارك وتعالى أيضًا: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلًا سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[٦٤]، يارسول الله، إن هؤلاء المشركين ضغطوا عليك في مكة وأساؤوا إليك واستهدفوك وأرادوا أن يخرجوك منها، ولكن كان الوقت مبكرًا للخروج، وما كانت الضغوط مناسبة للخروج، ولو استجبت لتلك الضغوط وتأثرت بعدوانهم وخرجت من مكة قبل أن يحين الوقت المناسب، فإن البلاء سينزل بهم، ولكن حينما وقفت في وجوههم حفظتهم من نزول العذاب الإلهيّ بساحتهم. هكذا يتحدث القرآن الكريم عن السنن الإلهيّة.

ويقول الله تبارك وتعالى في الآية التي تليها: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾، فهنا سنن إلهية وقواعد تتحكم بمجرى التأريخ. وأنت يا رسول الله لست بدعًا من الرسل، بل يجري عليك ما جرى عليهم من السنن الإلهيّة، فهذه السنن غير قابلة للتغير ولا للتبدل. وهذه الرؤية القرآنية للسنن الإلهيّة.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ: «التوفيق والخذلان يتجاذبان النفس»[٦٥]، فهذه النفس الإنسانيّة يتجاذبها النجاح والتوفيق من جهة، والخذلان والفشل من جهة أخرى؛ لأن هذه النفس يتجاذبها الالتزام بالضوابط، والخروج عنها، فإذا التزمت بالضوابط كانت ميّالة ومنحازة إلى التوفيق والنجاح، وإذا تجاوزت الضوابط كانت ميّالة ومنحازة

٦٢. سورة فاطر: الآية ٤٣.
٦٣. سورة فاطر: الآية ٤٣.
٦٤. سورة الإسراء: الآيات ٧٦-٧٧.
٦٥. غرر الحكم ١: ٢٦.

للفشل والخذلان، فهما يتجاذبان النفس، فأيهما غلب كانت النفس في حيزه، فإذا غلب النجاح والالتزام بالضوابط والمعايير والأسس انحازت النفس إلى التوفيق فيكون الإنسان موفقًا، وإلا انحازت إلى الخذلان.

الإضاءة الرابعة

الاستفادة من التجارب

يحظى موضوع استفادة الإنسان من تجاربه أو من تجارب الآخرين بأهمية بالغة، فمن لا يحسن قراءة التأريخ ولا يحسن فهم التأريخ سيكون هو درسًا من دروس هذا التأريخ. فعلى الإنسان أن يراجع التأريخ وينظر إلى تجاربه السابقة وإلى تجارب الآخرين، ليعرف طريق التوفيق والنجاح، ويتعرف على الوسائل التي تبعده عن التوفيق و توقعه في الفشل والخذلان.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ومن التوفيق حفظ التجربة»[٦٦]، أي أن الإنسان الذي يحفظ التجارب ويعيها ويستوعب الماضي والتأريخ، يكون قادرًا على تحقيق التوفيق لنفسه ومنظومته القياديّة وجماعته. فالتوفيق يحتاج إلى استذكار التجارب.

الإضاءة الخامسة

الإمارة أمانة

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لرفاعة واليه في الأهواز: «واعلم يا رفاعة أن هذه الإمارة أمانة، فمن جعلها خيانة فعليه لعنة الله إلى يوم القيامة، ومن استعمل خائنا فإن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بريء منه في الدنيا والآخرة»[٦٧]. لا تتصور أيها الإنسان أنك إذا أصبحت مديرًا أو رئيسًا أو وزيرًا فإن الملك لك والإمارة إمارتك!، كلا، فالمسؤولية إنما هي أمانة تؤتمن عليها. فإن لم تؤد الأمانة ولم تلتزم باستحقاقات هذا الموقع الذي أنت فيه تكون خائنًا. ومن جعل الأمانة خيانة فعليه لعنة الله إلى يوم القيامة، ومن لعنه الله سبحانه كان من الأخسرين في الدنيا والآخرة.

---

٦٦. نهج البلاغة: الحكمة ٢١١.

٦٧. مستدرك الوسائل ١٧: ٣٥٥.

وهذه الفقرة تبيّن إلى أي مدى كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ شديدًا بحق من لا يلتزم بالضوابط، ومن استعمل خائنًا. فهو يقول إذا لم يوضع الرجل الكفوء في المكان المناسب، فهي خيانة بحق الأمة، فالمسؤول يخون حينما يُحمل المسؤولية لشخص غير كفوء. وليس معيار التصدي للمسؤولية أن يكون قائمًا في الليل صائمًا في النهار، بل المعيار هو من يستطيع أن يفي بواجباته بشكل صحيح. فإن لم يفعل كان خائنًا في منهج علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ومن استعمل خائنًا على أمور المسلمين فإن محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بريء منه في الدنيا والآخرة، ومن تبرّأ منه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ تبرّأ منه الله عز وجل.

الإضاءة السادسة

بعض مواصفات القيادة

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في المواصفات المطلوبة لوضع الرجل المناسب في الموقع المناسب، وفقًا للنظرية الإسلاميّة في القيادة والإدارة: «أيها الناس من استنصح الله وفق، ومن اتخذ قوله دليلًا هُدي للتي هي أقوم»[٦٨]، من أراد التوفيق والنجاح فليطلب النصيحة من الله سبحانه وتعالى، وليعمل بالضوابط والمعايير التي وضعها. ومن اتخذ قول الله سبحانه وتعالى دليلًا هداه إلى أقوم الطرق والأساليب، فإن من استنصح الله تعالى نصحه، ومن استهداه هداه إلى صراطه المستقيم.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا: «من استنصح الله حاز التوفيق، وقد تكفل بنصر من نصره»[٦٩]، أي من طلب النصح من الله تعالى والتزم بما أمره به فإنه سبحانه وتعالى يمنحه التوفيق. وهذا درس عظيم نأخذه من علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في المنظومة القياديّة، وهو الالتزام بالسنن والقواعد والضوابط في معالجة الأمور.

---

٦٨. نهج البلاغة: الخطبة ١٢٧.

٦٩. غرر الحكم ٥: ٣٠٢.

الإضاءة السابعة

سُنّة الله في النصر

ثم يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بعض هذه السنن، وهي أن الله تعالى يتكفّل بنصر من ينصره، ومن تكفل الله تعالى بنصره فهو لا محالة من المنتصرين. وهذه واحدة من السنن الإلهيّة التي أشار إليها القرآن الكريم أيضًا في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٧٠].

تخاطب الآيتان الكريمتان المسلمين الذين خرجوا من مكة مضطرين بعد إيذاء المشركين لهم، وهاجروا إلى المدينة المنورة، وكان المسلمون يُضربون ويأتي بعضهم مشجوج الرأس إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ويشكون إليه ذلك، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «اصبروا فإني لم أُؤمر بالقتال، حتى هاجر فأنزل الله عليه هذه الآية في المدينة. وهي أول آية نزلت في القتال»[٧١]، كما روي ذلك عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثم بينت الآية الكريمة وجه المظلومية، وهو أنهم أُخرجوا من ديارهم بغير حق سوى أنهم كانوا يقولون ربنا الله، فعوقبوا على قولهم هذا ولخروجهم عن عبادة الأوثان إلى عبادة الله الواحد الأحد، فأذن الله تعالى لهم بالجهاد.

وهذه الآية هي إحدى الآيات التي تدلل على جواز الجهاد والدفاع عن النفس لمن يُعتدى عليه ويُقاتَل ويضطر للخروج من دياره لأنه يقول ربنا الله، بكل ما تستلزمه كلمة ربنا من مداليل، ومنها الالتزام بالضوابط والقوانين الإلهيّة.

ثم يشير سبحانه إلى سُنّة من السنن الإلهيّة وهي سُنّة التدافع، وهي من السنن الفطرية التي أودعها الله تعالى في الإنسان، لكي يدافع عن نفسه وما يتعلق بها من شؤونه، ومنها الحفاظ عن أماكن العبادة التي يسعى أعداء الدين لهدمها، لولا الدفع والقتال من أجل بقاء أصل الدين وآثاره المتعلقة به كدور العبادة. إذن لولا سُنّة التدافع ولولا هذه السنن والقواعد والضوابط التي وضعها الله سبحانه وتعالى لضاعت كل هذه المحطات المهمة في بناء الإنسان، أيًّا كان توجهه وأيًّا كان التزامه.

---

٧٠. سورة الحج: الآيات ٣٩-٤٠.

٧١. مجمع البيان: ذيل تفسير الآية ٤٠ من سورة الحج.

ثم تطرق القرآن الكريم لسُنّة النصر في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. وهذه السنة الإلهيّة تمثل حالة الردع وتثبت المؤمنين وتدعوهم إلى الالتزام بقيمهم وثوابتهم مهما كانت الضغوط ومهما كان الاستهداف؛ لأن الله تعالى ينصر من ينصره ومن يلتزم ويتمسك ويدافع عن الحق والقيم والثوابت والمبادئ والأسس الصحيحة، وكل من يحكم بالعدل، وكل من يلتزم بهذه الضوابط في المنظومة القياديّة والإدارية، يكون قد نصر الله سبحانه وتعالى، فإن الله ينصره بالتوفيق والنجاح ويجعل عمله مؤثرًا لتحقيق الغايات والنتائج ويلقي حُبّه في قلوب الناس.

لقد وقف الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ مرة أمام هارون العباسي وقال له: «أنا إمام القلوب وأنت إمام الجسوم»[٧٢]، فإمامة القلوب ليست بيد السلطان ولا تأتي بالجيوش والإمكانات، والله سبحانه وتعالى هو الذي يتكفل بها، فالإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ المقيد بالسلاسل في غياهب السجون المظلمة هو إمام القلوب، ولم يستطع هارون العباسي بكل جيوشه أن يكون إمامًا للقلوب، وإن كان إمامًا على الأجسام، فهو يحكم بقوة السيف.

وأحد آثار نصر الله أن يُلقي حبّه في قلوب الناس، كما وردت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[٧٣]. إذن يجب أن يكون هناك إيمان والتزام وموقف صحيح ضمن الأسس والمعايير الصحيحة حتى يجعل الله الرحمن لهم ودًّا وحبًّا في قلوب الناس. فمثلًا هل يملك الإمام السيد السيستاني الجيوش أو المليارات أو الإمكانات حتى يملك كل هذا الود في القلوب؟، إنه لا يملك دارًا ويجلس في بيت مؤجَّر مساحته ثمانون مترًا، ولم نشاهده يومًا في بقعة من بقاع الأرض يتدافع مع المتدافعين أو يتسابق مع المتسابقين، ليظهر على وسائل الإعلام، ومع ذلك إذا قال كلمته فإن صدى تأثيرها ليس في العراق فحسب، بل نرى مساحات مهمة من البشر يتحركون طبقًا لها، وليس من أتباع مدرسة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولا من المسلمين وحدهم.

وقد طُرحت اقتراحات عديدة من آخرين، بأن تمنح جائزة السلام للإمام السيستاني. فما هذه المحبة؟ وما هذا التأثير في قلوب الناس؟ وأنا أُمثّل بشواهد حيّة، ولا أذكر

٧٢. الاتحاف بحب الأشراف: ٥٥. الصواعق المحرقة: ١٢٢.
٧٣. سورة مريم: الآية ٩٦.

الأنبياء والأوصياء والأئمة الأطهار فيقال هؤلاء معصومون!، وإنما شاهدُنا إنسان غير معصوم يصل إلى هذا المستوى والتأثير في قلوب الناس.

وورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قوله: «من عمل بالحق مال إليه الخلق»[٧٤]، فإذا ما التزم الإنسان بالحق وعمل بواجباته بشكل صحيح، فإن الله تعالى يرسل الناس ويهديهم إليه، فيميلون إليه ويندفعون نحوه. وقد ورد: «من كان لله كان الله له»[٧٥]، أي أعط نفسك لله أيها الإنسان، واجعل عملك لله، والله سبحانه وتعالى سيلقي رحمته ولطفه عليك. وهذه سُنّة إلهية مهمة.

إذن في هذا الدرس العظيم نستفيد من عطاء علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في التأكيد على واحد من الأسس المهمة في نجاح المنظومة القياديّة، وهو الالتزام بالسنن والقواعد والضوابط.

٧٤. غرر الحكم ٢: ٢٠٤.
٧٥. بحار الأنوار ٧٩: ١٩٧.

الدرس الثامن

المسؤول وتزكية النفس

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر: «وأَمَرَهُ أنْ يكسرَ نفسَهُ من الشهواتِ، ويزعَها عند الجَمحات».

يأمر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكًا الأشتر في هذا العهد باعتباره حاكمًا أن يكسر نفسه من الشهوات، أي يجب على مالك المتصدي لموقع الخدمة العامة والحاكم والمسؤول والوزير بتعابيرنا اليوم، أن يكسر نفسه أمام الشهوات، وأمام الطموحات، وأمام الرغبات، وأمام الميول الشخصية..

ويطلب عَلَيْهِ السَّلَامُ منه أيضًا أن يمسكها عند الجموح والتمرد، فالنفس تجمح أيضًا وتتمرد وتنزع للوصول إلى مآربها وشهواتها وطموحاتها الشخصية، فإن النفس بطبعها أمّارة بالسوء، وتبعث نحو السوء، وتُغرى بالسوء إلا ما رحم الله، هذه العبارة العميقة والمؤثرة درس من دروس علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في القيادة والإدارة.

ولنقف قليلًا عند هذه العبارة ونتعرف على بعض الإضاءات التي يمكن أن نستلهمها من هذا الدرس العظيم

الإضاءة الأولى

خطر التصدي

إن الأدوار القياديّة ومواقع الإدارة في الحكم تعني مزيدًا من السلطة والنفوذ. وكما ذكرنا سابقًا فإن المنظومة القياديّة يمكن أن تكون لها مستويات مختلفة، تبدأ من أبسط المستويات وهي الأسرة، فربُّ الأسرة له نوع من الإدارة لشؤون تلك الأسرة، وصولًا إلى المشاريع الكبيرة وإدارة البلد وقيادته وحكومته إلى غير ذلك.

يمكن أن يكون الشخص مسؤولًا عن عدد من الناس، كأن يكون مقاولًا يعمل تحت يده عدد من العمال، أو يكون مدير شركة أو مدير مصنع أو مديرًا في دائرة أو أي موقع من مواقع الإدارة والخدمة والقيادة، وهذه الضوابط لا تختلف في أي منظومة قياديّة، صغرت أم كبرت، وتبقى هي نفسها وإن اختلف حجم المسؤولية؛ فهناك مسؤول عن زوجة، وآخر مسؤول عن زوجة وأولاد، وهناك مسؤول عن عشرة أو عشرين أو مائة أو مائتين، وهناك مسؤول عن ملايين من البشر، ومع ذلك لا تختلف الأطر والضوابط، وإنما يختلف حجم المسؤولية والمهمة التي تُناط بهذا الإنسان.

والموقع القيادي هو موقع التأثير والإدارة، ويعني مزيدًا من النفوذ والسلطة لهذا الإنسان بدءًا من أبسط منظومة قياديّة وهي الأسرة، إذ إن هذه الإدارة تعطيه سلطة ونفوذًا لكي يأمر وينهي، وإن كانت الشريعة قنّنت وأطّرت هذه الإدارة، فهي ليست عملية وصاية وإنما هي إدارة، ولكن البعض يسيء استخدام هذا الموقع، فيبدأ في تفكيك هذه الأسرة. وهذه الحالة يمكن أن تتكرر كلما توسعت المنظومة القياديّة.

إذن، السلطة والنفوذ من الأمور الطبيعية التي تحصل لمن له موقع في الإدارة والحكم والقيادة، والسلطة والنفوذ يغريان الإنسان في أن يتعدى الحدود، ويمكّن هواه وشهواته وميوله، فيسعى لتحقيق طموحاته الشخصية من خلال هذا النفوذ والتأثير. ولذلك نجد أن البعض يفقد توازنه وسيطرته على مشاعره حينما يتبوأ موقعًا بسيطًا، فما بالك بالمواقع الأخطر والأهم؟!، إذ تبدأ بالتأثير في سلوكه وعلاقاته مع الآخرين، ويتعدى ذلك إلى درجة توظيف السلطة والنفوذ لتحقيق مآربه الشخصية وقضاياه الخاصة.

بل يتجاوز ذلك، حين يستغل سلطته ليشفي غليله من الآخرين، كأن يقال له فلان على الباب، فيقول: فليجلس وينتظر، فهو يستعظم، وهو مدير عام، أن يأتي شخص بلا موعد ويدخل مباشرة، فليجلس وينتظر لنصف ساعة أو ساعة حتى يبدو أن المدير شخص مهم. ثم يقول له: إن هذه القضية تحتاج إلى نظر، اذهب وارجع بعد شهر، مع أنه توقيع بسيط لا يحتاج لشيء، فلماذا تعطّل مصالح الناس لشهر أو أكثر أو أقل؟، ولا يمكن تفسير هذه المواقف إلا بأنها انتصار للأنانية وانتصار للهوى.

وهذه قضية خطيرة نستلهمها من هذا الدرس العظيم، فالسلطة والنفوذ هما المحطة الأساسيّة لانطلاق الشهوات، ومواقع الإدارة والحكم هي التي تعطي هذه السلطة والنفوذ، فيقع الإنسان فريسة هذه المغريات الكبيرة.

ويقول علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في إحدى حكمه في تأييد هذا المعنى: «مَن ملك استأثر»[٧٦]، أي من يصل إلى موقع المسؤولية، ولم يكن مربّيًا لنفسه ومهذبًا لمشاعره وغير ملتزم بهذه الضوابط فإنه يصاب بحالة الاستئثار، استأثَرَ لغةً تعني استبدّ، فيقال: هذا مدير مستبد، وزير مستبد، ورئيس مستبد، وربّ أسرة مستبد. فمثلًا يدخل رب أسرة البيت فيدخل معه الخوف إلى جميع أفراد الأسرة، والكل يتمنى الساعة التي يخرج فيها من الدار لكي يتخلصوا منه!، في حين أن هذا البيت سكن، ويسمى سكنًا من السكنى والاستقرار والطمأنينة؛ لأنه مصدر راحة لأفراد هذه الأسرة، وليس مصدر قلق وإزعاج.

إن استغلال الموقع وبالتالي الاستئثار مَلَكَة في الإنسان ليس لها علاقة بالمسؤولية، فمن الممكن أن يكون الشخص في مواقع متقدمة جدًّا، ويكون مسيطرًا على نفسه، ومتواضعًا وبسيطًا وخدومًا، بينما ترى شخصًا مسؤوليته محدودة جدًّا ولكنه على عكس ذلك. وهذا ما نراه في بعض الوزارات، فهناك مسؤولون في مواقع متقدمة يتّسمون بالتواضع والمحبة والمودة وحب خدمة الناس، وفي المقابل هناك مسؤولون صغار يعطّلون مصالح العباد والبلاد حتى يشفوا غليلهم وأنانيتهم من خلال هذا الموقع.

ويقول علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا مشيرًا إلى مخاطر الاستبداد: «من استبدّ برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها»[٧٧]، يا مستبد اعلم أن هلاكك في هذا الاستبداد، ولا تظن أن تغليب رأيك على رأي الآخرين، هو انتصار كبير تحققه لنفسك. كلا، بل ستهلك به وتضيع.

ومن أراد عقلًا أكبر فليشاور الرجال؛ لأنه في ذلك يشاركهم في عقولهم، فينبغي للإنسان أن يستشير الآخرين؛ إذ «الحكمة ضالة المؤمن»[٧٨] كما قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ. فإنسان بسيط يمكن أن يتكلم بكلام يحل لنا مشكلة كبرى، ولذا يجب علينا أن نسمع الآخرين ونصغي إليهم، ولا نعتد بآرائنا مهما كنا نرى الحق في شيء ما، فمن الممكن أن نكون متوهمين، وربما يكون الحق في شيء آخر. ومن لا يسمح للآخرين أن يقولوا كلمتهم ولا يريد أن يسمع رأيًا آخر، سيقع في المهالك لا محالة، كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

٧٦. نهج البلاغة: الحكمة ١٦٠.
٧٧. نهج البلاغة: الحكمة ١٦١.
٧٨. نهج البلاغة: الحكمة ٨٠.

ويشير عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا المعنى أيضًا في قوله: «من نال استطال»[٧٩]، أي من بلغ ووصل إلى طموحه وصار مسؤولًا استعلى على الآخرين، وتنشأ عنده حالة الاستعلاء، وحالة التكبر، وحالة الاعتداد بالذات، وحالة أن يرى نفسه متميزًا عن الآخرين. مَن قال لك إنك تفهم أكثر من غيرك؟!، وقد جاء بك القدر لأنك من الحزب الفلاني أو الجماعة الفلانية أو ابن خالة المسؤول الفلاني فصرت مسؤولًا.

إنك نفس صاحبنا السابق الذي لم يكن يعرف أن يحل رجل دجاجة كما يقولون، فما الذي تغير فيك؟، هل لأن أربعة أو خمسة أشخاص يقفون حولك، وعندك سيارات وموكب، وهناك أناس تدخل وتحييك وتقول لك نعم سيدي؟، لماذا هذا الاستعلاء؟ ولماذا ترفع نفسك على الآخرين؟!، وهذه من زلات من يتصدى لمواقع الإدارة والقيادة والحكم.

وهذه التعابير تكشف عن حجم الخطر الذي يداهم الإنسان حينما يتصدى لهذه المواقع، كخطر الانزلاق، وخطر أن يتحول الإنسان إلى وحش كاسر بصورة إنسان. إن الإنسان يخاف من الأسد ويخاف من الحيوانات المفترسة؛ لأنها لا تفكر إلا بنفسها، وإذا جاعت تفتك وتقتل وتفعل كل شيء من أجل أن تشبع، وهكذا الحاكم والمسؤول إذا تحول إلى وحش كاسر، يفعل كل ما يحلو له من أجل أن يشبع أنانيته، ومن أجل أن يحصل على احتياجاته.

الحيوان يأكل على قدر حاجته، وحين يشبع يترك فريسته، وأخطر الحيوانات إذا شبع لا يعتدي على أحد، وأما هذا الإنسان فهو نهم لا يقف عند حد، ولا يقنع بما يحصل عليه ويسعى دائمًا وراء الأكثر، ومهما بلغ في إمكاناته فهو يريد المزيد.

فالحيوان المفترس قضيته أسهل بكثير من هذا الإنسان الذي ليس له حدود تحده وتؤطر عمله؛ ولذلك يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا الخطر العظيم، حينما يتصدى الإنسان ويأخذه وهج السلطة، ليعتدي على كل الحرمات، ويتجاوز كل الحدود، ولا يرى إلا نفسه، ويستأثر بكل شيء، وهذه مشكلة كبيرة يقع فيها الإنسان.

ولهذا يشير الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعاء مكارم الأخلاق إلى هذه الحقيقة: «اللهم لا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي بقدرها»، أي يا إلهي كلما كان موقعي أمام الناس أكبر ومسؤوليتي أعظم، فاجعل شعوري بالتواضع والذل أمامك أكبر. وهذه هي التربية الأخلاقية التي بشّر بها الإسلام في الرؤية الإسلاميّة في القيادة والإدارة.

---

٧٩. نهج البلاغة: الحكمة ٢١٦.

الإضاءة الثانية

وضع الكوابح الداخلية

لا بُدَّ من وضع المصدات الداخلية لكبح جماح الاعتداء والتطاول والتجاوز لدى النفس لمنع تحقق أنانيتها، فهي تحتاج إلى مصدات وحواجز وموانع وسيطرة، فالسيارة إذا لم يكن بها كوابح فهي خطرة جدًّا ويمكن أن ترتطم بأي شيء. وكذلك أي قضية في هذه الحياة، إذا لم يكن فيها كوابح يمكن أن تتحول إلى خطر كبير.

وموضوع القيادة والإدارة والحكم أيضًا من المسائل التي تحتاج إلى هذه المصدات التي يضعها الإنسان وهو يتصدى إلى هذه المواقع القياديّة، ولذلك نجد في هذه العبارة أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يحدد هذه المصدات، ويستعمل عبارات قاسية جدًّا في تحديدها. ويحدد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه الفقرة من عهده لمالك الأشتر أمرين:

الأمر الأول: قوله: «وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ من الشَّهَوَات»، فلم يقل: يحد، أو يضيق، بل قال (يكسر)، والكسر هو أقسى الحالات، لأنه إذا كان الخطر عظيمًا فالعلاج يجب أن يكون قاسيًا، وآخر الدواء الكي، فالمرض العضال لا يُعالج بحبة أو أُبرة وإنما بعملية جراحية كبرى. وهذه القضية بما أنها خطر كبير على الإنسان، فهي تحتاج إلى معالجة قاسية أيضًا، ولهذا جاء الأمر بكسر النفس حتى تستطيع أن تواجه الخطر، وأن توقف التداعي في الاعتداء على الآخرين، وفي تجاوز حدود الآخرين، وفي استغلال السلطة والجاه والنفوذ للمآرب الشخصية.

الأمر الثاني: قوله: «وَيَزَعَهَا عِنْدَ الجمحات»، أي كفّ النفس عن التمرّد. ويستعمل أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هنا لفظ الجموح، وهي صفة الخيل الوحشية المتمردة التي تصهل صهيلًا شديدًا، والتي لا يستطيع كبار المدربين السيطرة عليها. وحالة الجموح هذه يمكن أن تقتل أُناسًا.

ويشبّه أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ النفس بهذه الحالة للخيل، جموح، تمرد، عصيان، ويقول اكبحها، وقف بوجه هذا التمرد للنفس الإنسانيّة. ترون كم هي العبارات قاسية. ونلاحظ في القوات الأمنية أن هناك شرطيًا يقف في السيطرة، وهناك شرطي مرور لا يحمل سلاحًا وإنما ينظّم السير، ولكن هناك قوات لمكافحة الإرهاب، وقوات لمكافحة الشغب، وهي تختلف في ملابسها وسلاحها وتدريباتها، بل تختلف حتى في قسوة تعاملها عن الآخرين؛ لأنها مهيأة للمهام الصعبة. يستخدم أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مثل

هذه العبارات الشديدة الحازمة ليشير إلى الخطر الكبير والمحدق، جراء التعامل مع النفس الإنسانيّة حينما يكون الإنسان في مواقع الحكم والإدارة.

وقال أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ حينما بويع بالمدينة في نفس هذا المعنى: «أَلاَ وَإِنَّ الْخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَخُلِعَتْ لُجُمُهَا، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ. أَلاَ وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلُلٌ، حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا، فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ»[80].

وشُمُس جمع شَموس، وهي الخيل التي تمنع أن يركبها أحد. يشبّه عَلَيْهِ‌السَّلَامُ هذه الخطايا بالخيل غير الأليفة التي لا تسمح لأحد بأن يركبها، فالخطايا هي خيل شموس جامحة، ركب عليها أهلُها الخطاؤون، فخلعت لُجمها. واللُجم جمع لِجام، وهو الذي تُمسك به الخيل. وإذا خلعت الخيل عنانها، وكانت هي أيضًا غير مطيعة ومتمردة، فحينئذ لا يستطيع أحد أن يبقى على ظهرها لثوان، وكذلك الخطاؤون، فكأنهم راكبون على خيل من هذا النوع ومن دون لجام، فتقحمت بهم في النار. وهكذا يمثّل أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ الإنسان الخطاء الذي لا يجد ضوابط وأُطرا تحكم حركته وسلوكه.

ثم يشبّه عَلَيْهِ‌السَّلَامُ التقوى بالمطايا الذُلل، وهي الدواب المروضة الطائعة الهادئة الأليفة التي تسير على مهل، وقد حُمل عليها أهلها المتقون، وأُعطوا أزمتها ولُجمها بأيديهم، فأدخلتهم الجنة.

إن الضوابط والقيم والثوابت والأُطر، هي القضية الأساسيّة التي يجب أن تتحكم بسلوكيات من يتصدى للإدارة والقيادة.

الإضاءة الثالثة

وضع الكوابح الخارجية

لا يكفي أن يهتم المسؤول والقائد والرئيس والوزير والمدير بمراجعة نفسه ومحاسبتها، فهذه القضية لا يمكن أن تُضبط؛ لأن هناك من يراعيها وهناك من يغفل عنها، كما تختلف نسبة المراعاة عند من يراعيها من شخص إلى آخر، فلا يمكن أن يرهن مصير أُمة بيد أشخاص يمكن أن يمارسوا أدوارهم بنسب متفاوتة في السيطرة على ميولهم ونزواتهم ورغباتهم الجانحة للتمدد والاستئثار ومزاولة النفوذ والسلطة.

---

٨٠. نهج البلاغة: الخطبة ١٦.

لذلك نجد أن الإسلام من ناحية يعطي أهمية كبيرة للعنصر الداخلي؛ إذ يبني الإنسان نفسه ويسيطر على أعصابه، ويكبح جماح شهواته ونزواته وميوله نحو مزيد من السلطة والنفوذ، ولو كان على حساب الآخرين وحرياتهم وحقوقهم، ولكن من ناحية أخرى يركز الإسلام على المصدات الخارجية، أي وضع الضوابط والأطر والنظم التي تضمن عدم الوصول إلى حالة الاستئثار، التي هي جوهر الديكتاتورية، هذا الشيء البغيض الذي يتنصل منه حتى من هو متلبس به، ويشمئز منه كل الناس.

إن حقيقة الديكتاتورية وجوهرها، هي حالة الاستئثار التي تحصل للإنسان واعتداده برأيه وتحكيم إرادته على كل إرادة وتغليب رأيه على كل رأي، والسعي لمصادرة آراء الآخرين وحرياتهم وحقوقهم لصالحه ولصالح آرائه وتصوراته. هكذا عشنا في أنظمة بائدة في هذا البلد الكريم، ونعرف ماذا يعني النظام الديكتاتوري، ذلك النظام الذي لا يدع مجالًا لأحد أن يتنفس، ولا يسمح لأحد أن يتحرك إلا بإرادة القائد الضرورة.

وهذه الحالة تحتاج إلى ضوابط وأطر وسياقات ونظم، تمنع الإنسان من الوصول إلى أن يكون ديكتاتوريًا، حتى إن كان هذا الإنسان يوقع نفسه في هذه المخاطر والمطبات من أجل المجتمع.

فإذن، العمليّة ليست عملية تمنيات أو قضية خاصه تربط الإنسان في مواقع الإدارة والقيادة مع ربه، ولا بُدَّ له من أن يسيطر على مشاعره، فهذا جانب المصدات الداخلية، وأما الجانب الآخر فهو المصدات الخارجية.

واليوم يعيش العراق تجربة تتحدث عن الشراكة الحقيقية، التي ينبغي أن تتمثل في الالتزام بالدستور وبناء دولة المؤسسات وتوزيع الأدوار والصلاحيات الكاملة لكل المواقع، وهي تعتبر الضمانات التي تضمن لهذا البلد التوازنات الصحيحة التي تمنعه من الوقوع في حالة المركزية الشديدة أو الانفراط الذي يخاطر بالمشروع التعددي والديمقراطي. وهذه المطالب لها خلفيات في الرؤية الإسلاميّة في الإدارة والقيادة، كما نرى في هذا الدرس العظيم والكبير من دروس الإمام علي عَلَيهِ السَّلَامُ.

الإضاءة الرابعة

خطر الديكتاتورية

إن هذه الأخطار والسلبيات التي يقع فيها الإنسان في مواقع الإدارة والقيادة والحكم، هي أخطار عامة على الجميع، ولا يُستثنى منها أحد، ولا يتصور أحد أنه بمأمن من الوقوع في مثل هذا الخطر، ومن التمدد إذا ما حصل على السلطة والنفوذ.

وهذا الكلام لا يشمل موقعًا خاصًا، بل يعم المنظومة القياديّة التي تبدأ من دائرة ضيقة هي الأسرة، التي يمكن أن تُقاد وتُدار ضمن أُطر ونظم محددة بين زوجين وأولاد، وتتوسع هذه الدائرة إلى العشيرة والشركة والمصنع وكل منظومة تُقاد وتُدار من قبل عدد من الناس، وأي جمع يزيد على واحد فهو منظومة، ولذلك كان رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «إذا كنتم ثلاثة فأمّروا أحدكم»[٨١]، أي إذا كنتم ثلاثة فهناك آراء مختلفة، فلا بُـدَّ من إيجاد منظومة قياديّة.

وفي هذه المنظومات القياديّة، مهما اتسعت أو تضيقت، لا بُـدَّ من أن يُراعى هذا الجانب، ولا ينبغي لأحد أن يرى نفسه بمعزل عن هذه الأخطار. فمن الممكن لرب أسرة أن يتمدد ويتطاول على أفراد أسرته، ومن الممكن أن يتطاول مدير شركة على موظفيه، ومن الممكن أن يتجاوز مدير مصنع على العاملين، وهكذا وصولًا إلى مواقع الإدارة والقيادة لبلد ولشعب ولأمة من الناس.

ولهذا نجد تعبير أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ «فإنّ النفسَ أمّارةٌ بالسُّوء»، فالألف واللام في كلمة النفس للجنس، وهي تفيد العموم ولا تختص بشخص دون آخر، ولذا لا ينبغي لأحد أن يتصور أنه بمعزل عن الوقوع في خطر التمدد والاستئثار إذا حصل على النفوذ والسلطة، في أي مساحة وفي أي دائرة من الدوائر.

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٨٢]، النفس الإمّارة بالسوء ميّالة إلى الهوى والسلطة والمواقع والجاه والحصول على المزيد من الامتيازات والمكاسب، حتى لو كان على حساب الآخرين، فكلما كانت سلطة الإنسان أكبر ونفوذه أكبر، كانت قدرته على تحقيق هذه النزوة والرغبة أكبر، فلا بُـدَّ من أن توضع المصدات، ولا استثناء في هذه العمليّة.

---

٨١. كشف الخفاء للعجلوني ١: ٩٧.

٨٢. سورة يوسف: الآية ٥٣.

الإضاءة الخامسة

نفي القداسة عن المنظومة القياديّة

ليس لدينا حكومة مقدسة ولا إدارة مقدسة. ومعنى القداسة هو اعتبار كل القرارات وكل السلوكيات مطابقة لمصالح الناس وليس فيها اعتداء. وهذا شعور خاطئ بحسب النظرية الإسلاميّة؛ إذ المنظومة القياديّة تعني جمعًا من الناس، وهؤلاء الجمع منهم من يُخطئ، ومنهم من له دوافع غير نبيلة، ومنهم من له طموحات غير شريفة، ومنهم من يبحث عن مصالح خاصة، فلا يمكن لأي منظومة فيها جمع من الناس أن تدّعي القداسة والاحترام والعصمة والانسجام مع المصالح بشكل عام، إذ يمكن أن يقع الإنسان في الخطأ في كثير من الحالات.

إن محاولة تكريس انطباع القداسة وصحة المواقف تحدّ من فرص الرقابة الشعبية، وتحدّ من إمكانية التعبير عن المواقف المخالفة لرأي الحاكم أو المسؤول في أي موقع من مواقعه، فلا بُدَّ من أن تُعطى الفرصة للاعتراض، ولا بُدَّ من أن يُشكر من له رأي آخر يذكره ويبينه؛ لأن هذا هو إحدى الضمانات الحقيقية التي تُوجِد حالة التوازن المطلوب في عمليّة الإدارة والقيادة.

وحينما تُحبس وتُكتم الأنفاس، وحينما يُمنع الناس من الاعتراض وإبداء الرأي المخالف لتوجهات الحاكم والمسؤول والمدير وما إلى ذلك، فإن ذلك يؤول إلى الديكتاتورية لا محالة.

وترفع الديكتاتورية شعار: (نفّذ ثمّ ناقش)، وقد تصل الحال في بعض الدكتاتوريّات إلى أن يكون شعارهم: (نفّذ ثمّ نفّذ من غير نقاش). وهو شعار مرفوض، فإن حق النقاش من الحقوق الأولية التي ينبغي أن يتمتع بها الإنسان. ولكن يلاحظ شيوع هذه الروح التسلطية في مجتمعاتنا، فلا أحد له حق النقاش، سواء في الأسرة أو في المساحات الأوسع، حيث يكون رأي المسؤول هو الرأي النافذ ولا يُسمح لأحد بأن يناقش. وهذا هو الخطأ الكبير الذي يُوقع المنظومة القياديّة – توسعت أو تضيقت – في أخطار عظيمة.

ولكن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا يبرّئ نفسه ولا يبرّئ حتى حكمه، وهو الإنسان المعصوم، والإنسان العالم، والإنسان الخبير، والإنسان الذي عجنته ظروف الحياة.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبة طويلة له في صفين: «فلا تكفّوا عن مقالة بحقّ، أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق أن أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني، فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لربٍّ لا ربَّ غيره، يملك منا ما لا نملك من أنفسنا»(٨٣).

يطلب الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ من المسلمين أن يبينوا ويتحدثوا معه عن قضية يعلمون أنها حق، ولا يتحدثوا معه في قضية يعلمون بطلانها. وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول ذلك مع أنه إمام معصوم مُفترَض الطاعة، وقد قال فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قولته المشهورة: «عليّ مع الحقّ، والحقّ مع عليّ، يدور معه حيثما دار»(٨٤)، ولكنه يضع منهجًا ويعلّم الناس ويربّيهم على طريقة الحكم الصحيحة.

ويطلب منهم أيضًا أن يقدّموا له المشورة بعدل، لا لأنه بحاجة إلى رأي الناس، فهو المعصوم عن الخطأ، ولكنه اقتفى أثر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الذي كان يستشير الناس ويجمعهم ويسألهم ويتعرّف على آرائهم، مع أنه المعصوم المسدد بالوحي، فهو منهج الإسلام الذي أراده الله تبارك وتعالى للبشر، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾(٨٥). وإذا كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يعمل بالمشورة، فليس هناك من هو مستغن عن مشورة الناس ومشورة من يعمل معهم.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فإني لست في نفسي بفوق أن أُخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي»، فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ كأي بشر معرّض للخطأ لولا أن يعصمه الله تبارك وتعالى، ولذلك يستدرك قائلًا: «إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني»، وهذا الكلام منه عَلَيْهِ السَّلَامُ دليل على شدة تواضعه، فهو لا يتبجح بعصمته أمام المسلمين ويتطاول عليهم بما منحه الله الكريم من هذه الفضيلة الجليلة.

ثم يبين أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الاستماع إلى مقولة الحق وقبول المشورة بعدل هي من مقتضيات العبودية لله عز وجل، فيقول: «فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لربٍّ لا ربَّ غيره، يملك منا ما لا نملك من أنفسنا». والله تبارك وتعالى هو وحده المستغني عن المشورة بمقتضى أُلوهيته. وهذا هو منهج علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في القيادة والإدارة.

---

٨٣. نهج البلاغة: الخطبة ٢١٦.

٨٤. بحار الأنوار ٣٣: ٣٦٧ح٦٠٦.

٨٥. سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

الإضاءة السادسة

الحاجة المستمرة للرحمة الإلهيّة

إن المتصدي هو أحوج الناس إلى الرحمة الإلهيّة، لكثرة المنزلقات الخطيرة في مواقع الإدارة والقيادة. في يوم تحدّث شهيد المحراب (قدس سره) قائلًا إن العمل السياسيّ هو من أشرف الأعمال، وقد استغربت شخصيًا من هذا الحديث، ودار في خلدي كيف يمكن أن يكون العمل السياسيّ أشرف الأعمال، مع أن هناك أعمالًا واضحة الشرف، فيها جوانب دينية وروحية وعبادية، كما أن نظرتنا إلى السياسة بأنها وسخ دنيا، وأن أصحابها يبحثون عن مصالح.

قطعًا، هو لا يقصد هذه السياسة المتعارفة في عالمنا اليوم، وإنما يقصد السياسة التي كان ينتهجها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وما أخذ الله على العلماء من وجوب التصدي لرفع المظلومية مع وجود الناصر. وبعد انتهاء الخطاب والحديث سألته عما دار في خلدي، فقال (قدس سره): يكون العمل السياسيّ أشرف الأعمال باعتبار أن الأخطار والمنزلقات في العمل السياسيّ كثيرة وخطيرة، ولذا فهي أخطر الأعمال، فمن يلجّ في هذا المسلك ويُحسن الأداء ويعمل على إحقاق الحق والانتصار للمظلوم والوقوف بوجه الظالم، فهو يمارس أفضل وأشرف وأخطر مهنة.

وهو من نوع الاختصاصات النادرة، فهناك اختصاص معين يستطيع كل طالب الحصول عليه بعد إنهاء الدراسة الجامعية الأوليّة في أربع سنوات، ومثل هذا الاختصاص ليس له تلك القيمة المميزة لتوفره بكثرة، ولكن هناك اختصاص نادر لا يوجد مثيل له في البلد، أو يوجد مثيله ولكن بأعداد قليلة جدًا مع مَسيس الحاجة إليه، فندرة الموضوع وصعوبة الوصول إليه وحجم الأخطار التي تعتريه وتقف بوجهه تجعله أهم الاختصاصات.

وهكذا يتعرض المتصدون للعمل القيادي إلى أخطار ومنزلقات كثيرة لا ينجو منها إلا من رحم ربي.

وهذا درس من دروس الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي مسألة مهمة لمن يتصدى ويتحمل المسؤولية، وهي ليست مسألة وجاهات وامتيازات ورواتب عالية، بل المسؤولية هي الوقوف على الصراط يوم القيامة.

وينبغي على السادة والسيدات النواب، أن يُشفقوا على أنفسهم؛ فهم سيوقفون غدًا على الصراط، ويُسأل كل واحد منهم إذا قصر في الدفاع عن أحد، فماذا سيكون حاله إذا كان من يسأله مائة ألف مواطن عراقي؟!.

وهو فرح في الدنيا بالراتب والامتيازات والإيفادات والجواز الدبلوماسي وقطعة الأرض على شاطئ دجلة، وهي لا تعادل مساءلة طفل صغير له على الصراط، عندما يوقِف أحدَ هؤلاء النواب ويقول له: أنا واحد من المائة ألف من المنطقة الفلانية التي تمثلها، لماذا لم تصوّت في اليوم الفلاني عندما صُوِّت على المشروع الفلاني؟، ولماذا لم تحضر في اليوم الفلاني؟، ولماذا لم تدافع عن حقوقنا في الجلسة الفلانية؟، ولماذا جاملت على حساب القضية الفلانية؟.

وهكذا تتوالى عليه مئات الأسئلة، حتى يتهاوى الجميع أمام ميزان العدالة الإلهيّ، إلا من رحم ربي، فأحسن أداء مهمته وكان مستعدًّا لهذا اليوم العصيب. فالرحمة الإلهيّة مطلوبة جدًّا، وهذا ما يتطلب من الإنسان حينما يتصدى إلى مواقع المسؤولية، أن يصلح علاقته بالله سبحانه وتعالى.

وقد اهتم الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بإثارة هذه القضية أمام أنظار الولاة الذين كان يكلفهم بالمهمات الصعبة، ففي وصية له عَلَيْهِ السَّلَامُ لشريح بن هاني، حينما نصبه قائدًا في جيش المسلمين المتوجه إلى الشام، يقول له فيها: «اتقِ اللهَ في كلِّ صباحٍ ومساء، وخَفْ على نفسِكَ الدنيا الغرور، ولا تأمنْها على حالٍ، واعلمْ أنّكَ إنْ لم تردعْ نَفْسَكَ عن كثيرٍ مما تحبّ مخافةَ مكروهٍ، سَمتْ بك الأهواءُ إلى كثيرٍ من الضرر، فكنْ لنفسِكَ مانعًا رادعًا، ولنزوتِكَ عندَ الحفيظةِ واقمًا قامعًا»[٨٦].

يخاطب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الوصية أحد ولاته، يطلب منه أن يتقي الله سبحانه في كل صباح وفي كل مساء، وفي كل خطوة وفي كل حركة وفي كل سكنة. ثم يطلب منه أن يخاف على نفسه من الدنيا الغرور، وأحق ما وصفت به هذه الدنيا هو وصف الغرور، فقد وقع في شباكها الكثيرون بعد أن غرتهم بزخرفها، ومن يتصدى لأمر القيادة أحرى بالخوف من الدنيا لكثرة ما يتعرض له من إغراءات، ولذا يتوجب عليه الحذر والانتباه منها، لعله يستطيع الخلاص من إغراءاتها بملازمة التقوى صباحًا ومساءً والخوف على نفسه منها.

٨٦. نهج البلاغة: الرسالة ٥٦.

ثم يحذره أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من أن يأمن الدنيا على حال من الأحوال، فإنها كالحية إذا اقتربت منها يمكن أن تلدغك في أي لحظة، وهكذا الدنيا تراها لطيفة المنظر وناعمة الملمس ولكنها تقتل بلدغتها. ثم يلفت أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ انتباه المتصدين إلى أنفسهم الأمارة بالسوء ويحثهم على كبح جماحها ومنعها من كثير مما ترغب وتحب خشية المكروب والضرر والخطر الذي يمكن أن يأتي من الاستجابة لجميع متطلباتها، فإن كثيرًا من الأشياء التي يحبها الإنسان ربما كانت ضارة له، فرُبّ أكلة منعت أكلات، ورُبّ خطوة أوقعت الإنسان في مطبات.

فإن لم تمنع نفسك مما تحب سمت بك الأهواء إلى كثير من الضرر وفادح من البلاء، ولذا يجب أن تكون لنفسك مانعًا ورادعًا عن كثير مما تشتهي وإلا ألقت بك في المهالك. ثم يطلب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من القائد أن يكون مسيطرًا على نفسه عند الغضب، فلا يبادر إلى استعمال أقسى العقوبات عند أول خطأ، فإن آخر الدواء الكي، وليس أول الدواء.

وربما يبرر القائد لنفسه تصرفه باستعمال العنف في معالجة المشاكل بقوله: أنا مسؤول عن تطبيق القانون، ومعاقبة من خرج عنه بأشد العقوبات، لكي يخشاني الجميع فلا يفكر أحد بعدها بالمخالفة. وقد يظن بعض المسؤولين أن خوف مرؤوسيه منه منقبة يكسب من خلالها المهابة والاحترام. وعلى هذا ينبغي على المسؤول الحذر من أي تصريح أو عمل في حالة الغضب، وعليه أن يصبر إلى أن يزول غضبه ثم يفكر في علاج الموقف.

المقطع الثالث

الرأي العام

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ :

«ثُمّ اعْلَمْ يَا مَالكُ ، أَنّي قدْ وَجّهْتُكَ إلى بِلادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ ، مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ ، وَأَنّ النّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلاَةِ قَبْلَكَ ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ ؛ وإِنّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ .فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصّالِحِ ؛ فَامْلِكْ هَوَاكَ ، وَشُحّ بِنَفْسِكَ عَمّا لاَ يَحِلُّ لَكَ ، فَإِنّ الشُّحّ بِالنّفْسِ الإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحْبَبْتَ وَكَرِهْتَ» .

الدرس التاسع

رقابة الرأي العام

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ : «ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ، أَنِّي قدْ وَجَّهْتُكَ إلى بِلاَدٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلاَةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ».

هذه العبارة على إيجازها تحمل الكثير من المعاني المهمة والأسرار في نجاح العمليّة القياديّة والإدارية. إن على المسؤول أن يقف ويتعرف على هذه الأسرار حتى ينجح في مسؤولياته، أيا كانت هذه المسؤولية في مستوياتها ومدياتها.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في صدر هذه الفقرة: «ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ، أَنِّي قدْ وَجَّهْتُكَ إلى بِلاَدٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ»، يا مالك إنك تذهب إلى مصر، وهي كغيرها من البلدان، حكمتها الكثير من الحكومات العادلة والظالمة، وفيها صلاح وفيها فساد، وفيها خير وفيها شر، وهذه هي سنن الحياة، وهذه هي القواعد الاجتماعيّة التي تتحكم بمجرى التأريخ. ففي كل أمة وفي كل شعب هناك الخير وهناك الشر، وهناك الصلاح وهناك الفساد، وهذه المتناقضات تعيشها الشعوب والأمم. يا مالك إني أرسلك إلى بلد وقعت فيه كل هذه الأحداث الطيبة وغير الطيبة.

ثم يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بعدها: «وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلاَةِ قَبْلَكَ». واعلم يامالك أن الناس اليوم ينظرون إلى الاجراءات التي تتخذها، بنفس العين التي كنت تنظر بها إلى تلك الاجراءات لمن تولى المسؤولية قبلك، عندما كنت مواطنًا عاديًا، حين كنت توجه الملامة والعتاب وتنتقد هذا المسؤول أو ذاك على الأقوال والأعمال التي يأتون بها. واليوم وأنت في موقع المسؤولية لا تنسَ حق الناس في أن ينتقدوك ويتحدثوا بما يعتقدونه تجاه أدائك ومسؤوليتك ومواقفك وسلوكك وتصرفاتك.

اليوم تنظر الناس في أمورك كما كنت تنظر في أمور الولاة الذين سبقوك، فتقيّم وتنتقد وتعبّر عن مواقفك تجاههم، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم. اليوم وأنت ذاهب إلى مصر لتكون حاكمًا ومسؤولًا في هذه المنطقة عليك أن تعي هذه الحقيقة، وأن تتهيأ لتسمع من الناس ما كان يسمعه السابقون منك، حينما لم تكن في مواقع القرار والمسؤولية.

وفي هذا الدرس العظيم العديد من الإضاءات إذا أردنا أن نقف ونتعمق فيه.

الإضاءة الأولى

ذاكرة التأريخ

يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذا الدرس إلى أن ذاكرة التأريخ قوية، فالناس لا تنسى ما جرى عليها وعلى الأمم الأخرى في سلسلة تأريخية طويلة. والناس تعايش الحكومات وتعايش المسؤولين وتعايش التجارب وتسمع عن تجارب وتقرأ عن تجارب، فلا يضيع منها شيء، وكل شيء محفوظ ومدوّن في ذاكرة الشعوب والأمم.

إن الذاكرة التأريخية قوية أيها الطغاة والظالمون، يا من تتصدون إلى مسؤوليات على أي مستوى وأنتم لستم لها أهل، لا تظنوا أن بإمكانكم تزييف الحقيقة، ولا تظنوا أن بإمكانكم تشويش الواقع، ولا تظنوا أن بإمكانكم التغطية على الأخطاء، فإن التأريخ يعرّي ويكشف هذه الأمور، وهذه سُنّة الحياة.

هذه الإضاءة مهمة نستلهمها من هذا الدرس «قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ» كل الأحداث التي تمر على الشعوب والأمم، وكل التحديات والمخاطر التي تواجه الناس في المنظومات القياديّة، من الأسرة، وهي المنظومة الصغيرة، إلى الدولة، وهي المنظومة القياديّة الأكبر، وما بينهما منظومات كثيرة، وكل مجموعة تدار ضمن إطار ونظام وقواعد، هي منظومة قياديّة فيها مسؤول يأمر وفيها أناس تأتمر بأوامره. ولا تختلف الضوابط والقواعد في أي منظومة قياديّة، سواء في الأسرة أو الشركة أو المصنع أو الوزارة أو الشعب أو الأمة إلى غير ذلك، مهما توسعت أو تضيقت.

إذن، التأريخ له ذاكرة، والتأريخ يحفظ جيدًا في ذاكرته كل هذه التفاصيل والمواقف. ونقرأ اليوم حتى عن الجهود التي بُذلت لتضييع الحقيقة والتشويش على الواقع، يقال فلان من الحكام كان يعطي كذا من المال لأناس حتى يضعوا الحديث وحتى يصوروا الأمور على خلاف ما كانت.

لقد بُذلت إمكانات مادية ومعنوية هائلة على طول التأريخ لتغييب الحقيقة. وكان المتصدون يوظفون إمكاناتهم دائمًا لعرض الأمور على الطريقة التي تروق لهم.

ونرى اليوم في حياتنا قضية بسيطة جدًا؛ فإن إنسانا يتحدث بحديث فتختلف النقولات والروايات، مع وجود الفضائيات وكل واحد في بيته مطلع على الموقف، ومع ذلك تختلف الروايات والانطباعات والتصورات والتكهنات والتحليلات لهذه القضية أو تلك.

ولا نتحدث عن تعدد في المواقف، بل الموقف الواحد، ولكن يتحدث فلان بأربع كلمات، فترى عشرة يقفون وينقل كل واحد عنه بنحو يختلف عن الآخرين، مع أن الجميع حاضرون في الحدث، فما بالكم إذا طُوّع التأريخ وطُوِّعت الحقائق بالإغراءات الماليّة والإمكانات البشرية ليُكتب بالطريقة التي يريدها الطغاة؟. ويُفترض أن تضيع الحقيقة، ولكن بقيت الحقيقة ناصعة وبيّنة.

فمن ينظر إلى الخط العام للتأريخ الإنساني اليوم يجد أن الحقائق مضيئة وواضحة وتزهر كالنجوم، كما يجد كل المظالم واضحة أيضًا ويعرفها الناس، حتى قال البعض إن التأريخ لا يرحم، ومعنى ذلك أن الحقائق تبقى واضحة ولا يمكن طمسها مهما حاولوا التشويش، وأن ذاكرة الشعوب والأمم هي أكبر من أن تخضع لمثل هذه المحاولات البائسة.

وهذا يعني أن المواقف والسلوك والأداء والقرارات لا تضيع، وإن كان البعض يستطيع أن يغطي عليها لفترة قصيرة وفي مرحلة ما، ولكن سرعان ما تتكشف الحقائق ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾[87]. وهذا درس عظيم نأخذه من الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أيها المسؤول يا من تتصدى لمواقع المسؤولية اعلم أنك تحت المجهر، في كل حركة وسكنة وموقف، والأنظار متوجهة إليك، ومواقفك يحسب لها ألف حساب، وستسجل في التأريخ مهما حاولت أن تغير الحقيقة. فإذا كنت خدومًا ستعرف الناس يومًا هذه الحقيقة، وسيتذكرون شخصيات من الماضي كانوا خدومين. إن أبسط القضايا تتذكرها الناس اليوم وتتناقلها وتتحدث بها مع أنه قد مضى عليها عقود من الزمن وبعضها قرون.

---

٨٧. سورة الرعد: الآية ١٧.

إن منهج علي عَلَيْهِ السَّلَامُ هو تنشيط هذه الذاكرة، فيذكّر الناس دائمًا بما مضى، وهو منهج قرآني، فالقرآن مليء بالحكم والعبر والإضاءات عن تأريخ الأنبياء وأممهم السابقة، وعن تأريخ الأمم الصالحة والطالحة، فيسرد المواقف ويقص القصص ويقتبس العبرة؛ لأننا بحاجة دائمًا إلى هذا التأريخ لكي لا نقع بما وقع فيه السابقون.

وعلينا دائمًا أن نتمتع بزخم تأريخي وحضاري، وأن ننطلق ونبدأ من حيث انتهى الآخرون، فالبشرية تتكامل، وفي المجموع مسيرة البشرية مسيرة تكاملية، وهذا ما نذكره في تفسير تعدد الديانات، فالله تبارك وتعالى واحد، والبشر هم أيضًا حقيقة واحدة، وهذه الرسالات متعددة، والكتب السماوية متعددة، وربما يقال إن كتابًا واحدًا منها يكفي، ويأتي أنبياء ويبشرون بنفس الرسالة، فلماذا التعدد؟.

نقول: إن البشرية تتكامل، فالجوهر واحد والحقيقة واحدة، ولكن تطور هذه الرسالة بحسب طبيعة التطور البشري واحتياجات الإنسان، وتصبح معجزة الرسالة الإسلاميّة، انها جاءت بأطر وضوابط قادرة على أن تتكيف مع الواقع، ومع الزمان والمكان وتطورات الحدث. لذا يرى الناس القرآن والرسالة الإسلاميّة والمنهج الذي حملته، يرون كل ذلك حاضرًا وطريًا في كل زمان ومكان، ومنسجمًا مع تحدياتهم. إذن، الإنسان يتطور والبشريّة تتطور، ولا بُدَّ من أن نستفيد من الماضي.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبة له في الكوفة، وهي خطبة طويلة ولكن نأخذ مقطعًا منها: «وإن لكم في القرون السالفة لعبرة» أيها الناس اعتبروا من القرون السالفة، ومن الأمم التي جاءت بكل ما حملته من خير وشر. «أين العمالقة وأبناء العمالقة؟» يبدأ باستعراض بعض المراحل المهمة في تأريخ الإنسانيّة؛ إمبراطوريات كما نسميها في مصطلحاتنا المعاصرة، وأنظمة جاءت وذهبت. «أين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟» أين ذهبوا؟ كل واحد كان له تأثير كبير في زمانه، وكانت إرادته تتحكم بإرادة الملايين من البشر، أين أصبحوا؟، جاؤوا وذهبوا وبقيت أخبارهم ومواقفهم.

«أين اصحاب مدائن الرسّ الذين قتلوا النبيين»، أصحاب الرسّ هم الذين حكموا الدنيا بعد أصحاب ثمود، ويتحدث عنهم القرآن الكريم بأنه كان لهم تأثير واسع وكبير، وقد أرسل الله تعالى العديد من الأنبياء لهم، ولكنهم كذّبوهم وأساؤوا لهم وقتلوهم، فأهلكهم الله سبحانه وتعالى، يقول جلّ من قائل: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرا﴾[٨٨]. ويقول أيضًا: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ

---

٨٨. سورة الفرقان: الآية ٣٨.

وَثَمُودُ﴾[٨٩]، وقد ذكرهم الله تعالى مرتين، ما يشير إلى تأثيرهم. وقد وقف علي عَلَيْهِ السَّلَامُ عندهم وذكرهم أيضًا.

«وأطفؤوا سنن المرسلين» كانوا معاندين ووقفوا بوجه الحق والحقيقة، وخلدوا ليكونوا ملعنة للتأريخ، كما أن الأنبياء والصلحاء الذين اتخذوا المواقف الصائبة والصحيحة، بقوا يترحم عليهم جميع الناس ويتذكرون أحوالهم وشؤونهم في كل زمان ومكان.

«واحيوا سنن الجبارين» أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا الأُلوف وعسكروا العساكر، ومدنوا المدائن؟. يسأل عَلَيْهِ السَّلَامُ أين هؤلاء الذين كان لهم صولات وجولات، وكانوا في يوم ما يملكون الدنيا وما فيها، وكان قرارهم يؤثر في الناس؟، رحلوا ولم يبقَ لهم من الآثار إلا بعض الأحجار ومواقف وسلوكيات وطريقة في التعامل مع الشعوب والأمم ومع الناس الذين كانوا تحت أُمرتهم، وأصبحوا نماذج تُدرس في تقييم المنظومات القياديّة.

وقف علي عَلَيْهِ السَّلَامُ مع جيشه وهو ذاهب إلى صفين عند المدائن واطلعوا على طاق كسرى، وهو من الآثار التأريخية المتبقية من العهد الساساني، وهنا استشهد الحر بن سهم بن الطريف أحد أصحاب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بشعر معروف للأسود بن يعفر:

جرتِ الرياحُ على مكانِ ديارِهم . . . فكأنّما كانوا على ميعادِ

أي كأن ميعادهم مع هذه الرياح، بأن تأتي وتأخذ كل شيء ولا تُبقي إلا بعض الآثار البسيطة عنهم. فقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «سُنّة صحيحة»، ولكن لماذا الاستشهاد بهذا البيت من شعراء الجاهلية؟، وأشار إلى أن الأَولى أن يُستشهد بالآية الشريفة: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾[٩٠].

لقد ذهب هؤلاء وتركوا بساتين وقصورًا وعيون مياه جارية ومحاصيل زراعية متنوعة، وكانوا يصنعون مساكن فخمة أنيقة وزاهية، وكانوا متمتعين بنعم كبيرة وكثيرة نتيجة موقعهم واستغلالهم للثروات والموارد العامة، ثم زالت هذه النعم منهم وأُعطيت إلى قوم آخرين، فما بكت عليهم الملائكة الذين هم سكّان أهل السماء، ولم يبك عليهم أهل الأرض، لقد رحلوا وهم غير مأسوف عليهم، فلا أحد يذكرهم بخير ولا أحد

٨٩. سورة ق: الآية ١٢.

٩٠. سورة الدخان: الآيات ٢٥-٢٩.

يتفقدهم. وحتى أنهم لم يُعطوا فرصة الدفاع عن أنفسهم، ولم يُعطوا فرصة إيضاح ما حل بهم، وفي ما بعد أصبحوا شيئًا لا يُذكر، ولا يستحق الوقوف عنده.

بينما ينبغي أن يعيش الإنسان حياته بطريقة إذا مات بكى عليه الناس، ولا تبكيه الناس إلا حينما يفتقدونه فيتذكرونه ويتأسفون على فقده بسبب آثاره الطيبة معهم، وإذا عاش حنوا إليه لحسن خُلقه معهم. ولا يكون الإنسان كذلك إلا حينما يترك بصمات إيجابية في الحياة، كما قال علي عَلَيهِ السَّلَامُ: «عاشروا الناس بالمعروف إن عشتم حنّوا إليكم، وإن متم بكوا عليكم»[٩١].

ثم قال عَلَيهِ السَّلَامُ: «إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين، لم يشكروا النعمة فسلبوا دنياهم بالمعصية»، لقد ورث هؤلاء من سبقهم فأُهلكوا وأصبحوا موروثين ممن جاء بعدهم، وكان سبب هلاكهم أنهم لم يشكروا النعم التي وهبها الله تعالى لهم، فسُلبوا دنياهم بسبب معصيتهم بترك شكرها وعدم التعامل معها بشكل صحيح، فأخذتهم الدنيا نحو المعصية والرذيلة.

ثم يقول أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ: «فإياكم وكفر النعم». وهنا يخاطب علي عَلَيهِ السَّلَامُ أصحابه والمسلمين والبشرية جميعًا، بألا يكفروا بالنعم وألا يقللوا من قيمة الفرص الهائلة التي يتيحها الله سبحانه وتعالى لهم، لكي لا تحل بهم النقم، فإنهم إذا كفروا بالنعم ستحل بهم النقم؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٩٢]. فعلينا أن نكون محتاطين حذرين.

الإضاءة الثانية

إحساس الناس بالعدل أو الظلم في المنظومات القياديّة

إن سنن الحياة تقول: إن كثيرًا ممن يتصدون للإدارة والحكم يظنون أن الناس لا يفهمون ولا يعون وينخدعون بسرعة، ويصدّقون كل ما يُقال لهم. نعم، قد يكونون مضطرين لأن يتجاوبوا، لكن حينما يراجعون أنفسهم سيجدون اليوم أن الناس تتندر بالسابقين، حتى إذا كانوا أمواتًا، فتبيّن أن أحدًا لم يصدق كل هذه المقولات.

---

٩١. بحار الأنوار ٧٥: ٧٧ح٤٧.

٩٢. سورة إبراهيم: الآية ٧.

إذن، فالناس تشخّص وتقدّر أي موقف هو الموقف العادل، وأي موقف هو الموقف الظالم، وما الصحيح وما الخطأ. ولا يظن أحد ممن هو في المنظومة القياديّة أنه حينما تلتبس الأمور تضيع الحقائق على الناس، كلا، فالناس تشخّص وتقدّر الأمور بشكل صحيح، وهي تستخدم العقل والفطرة والتجربة لتميز الأمور بعضها عن بعض وتتوصل إلى الحقائق كما هي وتحفظها في ذاكرتها لتتحول إلى ذاكرة التأريخ وتصبح حقائق تأريخية من خلال هذه القنوات الثلاث.

هكذا هي دواليب الحياة، وهكذا هي السنن التي تتجدد في كل زمان ومكان. واستحضار هذه الحقيقة لمن يتصدى للحكم وإدارة المسؤولية في أي موقع يجعله يحسب مئة حساب لسلوكه ومواقفه وحركاته وسكناته، فلا يندفع متوهمًا أن الناس لا تفهم ولا تعي، وسيعمل المسؤول على أن يجسّد العدالة في سلوكه حتى يكون شيئًا يُذكر بخير، وإلا أصبح لعنة للتأريخ.

الإضاءة الثالثة

الواقعية

يجب على المسؤول والمتصدى إلى مهمة أن يكون واقعيًا. والواقعية تعني أن تتوقع للناس ما كنت تتوقع لنفسك، وأن تقبل من الناس ما كنت تقبله من نفسك حينما لم تكن في موقع المسؤولية.

نتذكر عندما كنا معارضين لنظام صدام، كنا نصرخ وننتقد ونتحدث ونعرّي الأخطاء وندافع عن الحقوق ونشرح ظلامتنا في كل الأروقة الاقليمية والدولية، وكنا نصدر إصدارات ونحاول أن نوصل ظلامة شعبنا إلى الناس. واليوم أصبحنا نحن في مواقع الإدارة والخدمة العامة، وأخذ الآخرون مواقعنا وأصبحوا معارضة، فإذا كانت صدورنا تتسع لسماع انتقاداتهم وملاحظاتهم وصراخهم فهذه هي الواقعية.

وهذه واحدة من القضايا الأساسيّة، فإن الحياة لا تتغير، والواقع لم يتغير، وكل ما حصل هو تبادل في الأدوار، بالأمس كان فلان وزيرًا وفلان مديرًا عامًا، وكان ينتقد الوزير، فدارت دواليب الحياة وأصبح المدير العام وزيرًا وغدا اليوم لا يتحمل النقد!، بالأمس عندما كان مديرًا عامًا كان الانتقاد حلالًا له، واليوم عندما صار وزيرًا أصبح الانتقاد على غيره حرامًا.

وقد قرأت في الصحف أن أحدهم كان نائبًا في البرلمان أو عضوًا في مجلس المحافظة، وكان لديه سائق، وفي الانتخابات دخل كل واحد منهما في قائمة، فصعد السائق ولم تتوفر للنائب السابق فرصة الصعود. ومن الممكن أن تكون كلمة قد خرجت من النائب ضد هذا السائق، بوجهه أو خلفه، واليوم وقد أصبح السائق نائبًا، فكيف سيتعامل مع سائقه الجديد؟.

إن المواقع تتبدل وتتغير ولكن الإطار محفوظ والقواعد والأُسس التي تحدد الحياة ثابتة لا تتغير. واستحضار هذه الحقيقة والسعي لتكييف من هو في مواقع الإدارة والقيادة معها، أي تكييف نفسه بهذه الواقعية، سيعطي فرصة للسيطرة على المواقف لمراجعة ما يقوله وما يفعله كلٌ منا قبل أن يفعل وقبل أن يقول، كما تُدين تُدان، وسوف يأتي يوم الآخرين ليقولوا ما كنت تقوله بحقهم، فعلينا ألا نقول ما لا نتحمله من الآخرين.

الإضاءة الرابعة

ضرورة إصلاح الانطباعات والتوقعات

كيف ينبغي أن ينظر المسؤول إلى نفسه؟ وما انطباعاته عن نفسه؟ وما انطباعاته عن الآخرين، وعمن يعمل معه في دائرة المسؤولية، وعن عموم المواطنين؟، وما انطباعاته عن الموقع الذي هو فيه؟. وهذه الانطباعات وهذه التوقعات من المسائل المهمة التي ينبغي التعرّف عليها، فإن البعض ما إن يُصبح مسؤولًا حتى تتغير انطباعاته وتوقعاته، فيعذر نفسه في كل شيء ولا يعذر الناس في أي شيء، ويتوقع من الآخرين كل شيء ولا يتوقع من نفسه شيئًا، ويرى نفسه أنّه الربّ الأعلى كما يذكر القرآن الكريم.

فمثلًا، يسير في موكب من السيارات فلا يحترم نظام المرور، وعندما يُسأل لماذا تفعل ذلك؟، يقول: أنا مدير عام!، صحيح أنك مدير نصّبوك لتنظم الأمور في الدائرة الفلانية أو الوزارة الفلانية، ولكن ما علاقة ذلك بالحياة اليومية؟، ولماذا استخدام هذا الاسم في هذه المجالات واستغلاله للتأثير وللسلطة وللنفوذ وللواجهات في مسائل كثيرة لا علاقة لها بالمهمة المناطة بك؟، وهذه القضية في غاية الأهمية، فالإنسان إذا أراد أن يكون عادلًا فعليه أن يكيّف سلوكه وتوقعاته وانطباعاته تجاه نفسه واتجاه الآخرين وتجاه العاملين، ويكيّفها مع المنهج العادي، وإذا أراد أن يشذّ ويظلم فعليه أن يكيّف كل هذه الأمور ضمن سياقات الظلم.

واليوم هناك أناس يُطردون باسم القانون والالتزام بالمادة رقم كذا من مناطق بائسة أو معسكرات خارج المدن ويسكنون في بيوت من طين، فلماذا يُفعل بهذا المواطن المسكين هكذا، وهناك مئة مادة في القانون تدافع عنه وتحميه وتلزم الحكومة بأن توفر له أبسط مقومات حياته؟، ولماذا لا يستحضر أحد هذه المواد ولا يستذكرها؟، وقدرتكم فقط على هذا المواطن الضعيف، وتسألونه لماذا يسكن في المعسكر الفلاني؟، بينما توجد هناك الكثير من أراضي العراق الصحراوية، اذهبوا وأقيموا عشرين معسكرًا آخر، وإذا أردتم هذا المعسكر بالذات فوفّروا فرص معيشة وفرص سكن للناس ثم طالبوهم بأن يغادروا هذه الأماكن. وهنالك حالات يجدها الإنسان تُدمي القلب، فقد شاهدت في إحدى القنوات الفضائية تقريرًا عن عائلة هُدم مسكنها في انفجار إرهابي، وطبعًا وكما هو المألوف، لا أحد يرى نفسه معنيًا بأن يوفر لها المسكن البديل أو يساعدها وهي في حالة مُزرية، فقد كان الرجل مريضًا والزوجة مريضة وليس لهما سوى عدد من البنات، فبكيت وقلت هذا هو وضع الإنسان في العراق؟، وقبل يومين سمعت تقريرًا، عن أن العراق أصبح البلد الثالث في العالم في المخزون النفطي بحسب المستكشف حتى الآن، ويمكن أن يكون أكثر من ذلك بكثير.

إذن هذه قضية أساسية في نهج علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي كيف ننظم ونكيف القانون ليدفعنا نحو السلوك العادل أو السلوك الظالم؟، وكيف نصحح هذه الانطباعات والتقديرات والتوقعات لتكون المؤسسة الحكومية مؤسسة عادلة وتدفع للمزيد من العدل؟.

الإضاءة الخامسة

جعل النفس ميزانًا في ما بينه وبين الآخرين

والإضاءة المهمة الأخرى هي أن يضع الإنسان نفسه في موضع الآخرين ويقبل لهم ما يقبله لنفسه، ويعذرهم بما يعذر به نفسه، ويعاتبهم بما يعاتب به نفسه. فعلى المسؤول أن يتذكر أنه بشر، ولقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بشرًا، وقد أكد القرآن الكريم على بشريته بقوله: ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾[٩٣]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[٩٤]. فإذا كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهو أفضل الخلق بشرًا، فاعلم

٩٣. سورة الفرقان: الآية ٧.

٩٤. سورة الكهف: الآية ١١٠.

أيها المدير والرئيس والوزير بأنكم أيضًا من البشر، فلا تنظر لنفسك بأنك تختلف عن الآخرين ولا تميّز نفسك عن الآخرين.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصية طويلة أوصاه بها وهو في صفين: «يا بني اجعل نفسك ميزانًا في ما بينك وبين غيرك، فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم، وأحسن كما تحب أن يُحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وأرض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قلّ ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك»[٩٥].

وتجسّد هذه الكلمات لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الإضاءة بشكل واضح وجلي، إذ يضع القاعدة الأساسيّة للإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ باعتباره سيتولى شؤون الخلافة والمسؤولية من بعده، فيوصيه بأن يجعل نفسه ميزانًا بينه وبين الناس، من حيث الحب والكره، والظلم والإحسان، والاستقباح والرضا. ثم يوصيه بأن يقول ما يعلم ويسكت عما لا يعلم، وألا يقول لأحد ما لا يحب أن يقال له.

وتستوعب هذه الأمور التسعة جميع علاقات المسؤول مع الناس، وتُعد جميعًا تطبيقات للقاعدة التي ذكرها عَلَيْهِ السَّلَامُ في صدر كلامه. وهي ضوابط تفوق جميع ما طرحته القوانين الدولية في تحديد العلاقة القائمة بين المسؤول والناس، لأن غاية ما تطمح إليه هو تحقيق العدالة والإنصاف، بينما تهدف كلمات الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى تحقيق الإحسان القائم على أساس الحب، وهو درجة أعلى من العدالة.

فالإحسان يتضمن الشفقة والمودة والمحبة والكلمة الرقيقة والموقف الطيب والشيمة والنخوة والعون والنصرة. وأين الآن هذه المفاهيم؟ وكم نحن بحاجة لها؟ وما أكثر من يدّعي التمسك بهذه المفاهيم في مجتمعنا في دائرة المسؤولين وأصحاب المناصب، ولكن هناك في الحقيقة بون شاسع بين الادّعاء والواقع. ونحن بحاجة ماسّة إلى تعزيز هذه المفاهيم وترسيخها بشكل أكبر ليكون البناء الاجتماعي سليمًا، ونستطيع بناء الدولة على أسس صحيحة.

---

٩٥. نهج البلاغة: الرسالة ٣١.

الدرس العاشر

معيار الرأي العام

يقول أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر: «وإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ. فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ؛».

يشير أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ في هذه العبارة القصيرة إلى حقيقة أخرى من الحقائق المهمة في نجاح المنظومة القياديّة وفي تحقيق الأهداف لمن يتصدى لإدارة الأمور، أيا كان مستوى هذا التصدي، وأيا كانت مساحة هذا التصدي. وقد ذكرنا أن المنظومة القياديّة لا ترتبط فقط بالزعماء الذين يقودون شعوبًا وأُممًا، وإنما يمكن أن تنزل إلى أضيق الدوائر القياديّة حينما يدير الإنسان عددًا محدودًا من الناس كما في الأسرة أو المصنع أو المتجر أو أي مهمة من المهام القياديّة التي يجتمع فيها عدد من الناس وهناك من يقودهم، فهذه الضوابط والسياقات سارية المفعول على كل هذه الحلقات القياديّة.

وهنا يذكر أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ واحدًا من المعايير التي يُستدل بها على صلاح المسؤول والمتصدي، وهي أن الإنسان الصالح والمسؤول الصالح والقيادي الصالح، هو ذلك الذي يلهج الناس بذكره ويتحدثون بأعماله الصالحة. فانطباعات وتصورات الرأي العام وتقييمها لأداء المسؤول تمثل واحدًا من المداخل التي يُستدلّ من خلالها على صلاح المسؤول ورشده وحسن أدائه. ولهذا يحث علي عَلَيهِ السَّلَامُ الحاكم والمسؤول أن يكون أحب الذخائر إليه ذخيرة العمل الصالح.

ويحتوي هذا الدرس على مجموعة من الإضاءات الكبيرة، وهي:

الإضاءة الأولى

موقع الصالحين في قلوب الناس

يستهوي الله سبحانه وتعالى قلوب المؤمنين وقلوب الناس ويستميلها باتجاه المتصدي الصالح والمسؤول الصالح، وهو الذي يحظى بحسن تقييم الناس وبحسن ظنهم، فيتحدثون عنه بخير. وهذه خصوصية غاية في الأهمية. وقد ضمن الله سبحانه وتعالى لمن يحكم ويدير الأمور على أساس الحق والعدل، وعلى أساس تقديم الخدمة العامة، وعلى أساس المعايير الصحيحة، المكانة المرموقة والمحبة في قلوب الناس في الدنيا قبل أن يضمنها له في الآخرة. وهذه عطية إلهية وهبة إلهية.

إن الإنسان الصالح حينما يتصدى يحظى بالمحبة والتقدير من الناس، فهو قادر على أن يدخل إلى قلوب الناس ويسيطر على قلوبهم وعواطفهم من دون حاجة إلى التصنع والتظاهر بأمور معينة، ومن دون الحاجة إلى إغراءات يقدمها لهذا وذاك، ومن دون الحاجة إلى المكر والخداع، ومن دون الحاجة إلى ترهيبهم وإخافتهم وفرض رأيه عليهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى تكفل لهذا المسؤول بأن يضمن له حسن السمعة والمحبة في قلوب الناس حينما يسير بالاتجاه الصحيح.

ليس الطريق لجعل الناس يطيعون ويلتزمون بكلام المسؤول، هو الإرهاب والتخويف والوعد والوعيد والإغراءات، بل إن الالتزام بالمعايير الصحيحة ومراعاة القيم والثوابت والصدق مع الناس كافية لأن تجعل الناس يحترمون ويقدرون ويتعاطفون ويتفاعلون مع هذا المسؤول ليصبح ذا سمعة طيبة، وهذا ما نراه بالوجدان، ففي دائرة ما وفي مكان ما نسمع الكل يتحدث بخير عن المسؤول الفلاني. وهذه عطية إلهية، فمن يريد أن يكون له موقع في قلوب الناس لا يحتاج إلى أن يذهب ويستخدم الوسائل الملتوية، بل يكفي أن يكون واضحًا وبيّنًا ويسير في الإطار الصحيح حتى يحظى بثقة الناس واحترامهم.

وقد تحدث القرآن الكريم عن العلاقة بين المؤمنين والمسؤول ووصفها بأنها علاقة أُلفة ومودة ومحبة، يقول الله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[٩٦]. إذن فهذه قضية إلهية، ولا يمكن أن تأتي

٩٦. سورة الأنفال: الآية ٦٣.

بالإرعاب والتخويف، فالحاكم ولو كان بمستوى رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ غير قادر على التأليف بين القلوب والتقريب بين النفوس، فهذه قضية تكفلها الله سبحانه وتعالى.

ويشير القرآن الكريم في آية أخرى إلى السر في تحقيق هذه الألفة، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[٩٧]، أي أن العقيدة الصالحة والعمل الصالح إذا اجتمعا يضمنان للإنسان المودة والمحبة في قلوب الآخرين.

فمن يطمح إلى أن يحبّب نفسه إلى قلوب الناس من دون اعتماد المعايير الصحيحة يضيع وقته مهما أنفق من مال إذا كان الأداء والنية غير صحيحين، فإن الله لا يُلقي حُبّه في قلوب الناس، ولا يحصل على هذه الهبة.

وهذا ما نلاحظه اليوم في زماننا، فهناك قادة وحكام تصل ميزانيات بلدانهم إلى مئات المليارات من الدولارات في السنة الواحدة ولا يحظون بأي محبوبية من شعوبهم، وهناك قادة وزعماء لا يمتلكون مالاً ولا يمتلكون وسائل إعلام ومع ذلك ترى حبهم في قلوب الناس.

ولو جرى اليوم استطلاع رأي في العراق، فأنا أعتقد بأن الإمام السيد السيستاني والمراجع العظام سيكون لهم الحظ الأوفر من محبة الناس واحترامهم، مع أن هؤلاء لا يملكون فضائيات، ولم ينفقوا أموالاً حتى يحبهم الناس، فليس لديهم مثل هذه الإغراءات، ولا يتعاملون بالمجاملات مع الآخرين.

إذن قضية المحبة وقضية التأثير في النفوس هي قضية معنوية إلهية، والله سبحانه تعالى قد تكفلها. وما على الحاكم والمسؤول والمتصدي إلا العمل ضمن السياقات، والله سبحانه يضمن له المحبة والاحترام في قلوب الناس، وهذه هي القاعدة والإضاءة التي يمكن أن نستفيدها من هذا الدرس العظيم لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الإضاءة الثانية

الرأي العام هو الملاك في صلاح المسؤول

إن رأي الناس وانطباعاتهم وتقييمهم للحاكم والمسؤول والمدير معيار وملاك في صلاحهم. وهذه قضية مهمة جدًا، فالمسألة ليست اعتباطية. وليس للمسؤول أن يقول

---

٩٧. سورة مريم: الآية ٩٦.

أنا أعمل وفقًا للضوابط والسياقات التي أراها صحيحة وليس للناس علاقة بالموضوع. فالمعيار هو ما يقوله الناس، وكيف يقيّمون المسؤول؛ لأن الله تعالى قد أجرى على ألسنتهم الحق.

إذن، هؤلاء العباد يجب أن يحرزوا الوضوح في الموقف والعمل الذي يقوم به المسؤول، وهذه أيضًا مسألة مهمة جدًا، مع قطع النظر عن مدى التزام هؤلاء الناس بكلام الزعيم والقائد والمسؤول، فقد يكون القائد قائدًا روحيًا، واليوم يذكر التأريخ الأنبياء بخير كبير، وهناك أُناس عاشوا مع أؤلئك الصلحاء يذكرونهم بخير، مع أنهم كانوا يتمردون على تعاليمهم.

فلم يذكر لنا التأريخ تشكيكًا بصدقية الأنبياء والصالحين والأولياء والمتصدين الذين التزموا بالضوابط والقيم والمبادئ، مع أنه حدثنا عن عدم طاعتهم، والقلب دائمًا مع الحق، حتى أن من قاتل سيد الشهداء الإمام الحسين عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ كانت مشاعرهم وقلوبهم وعواطفهم معه، كما وصفهم الفرزدق. فالقلوب مع الإنسان الصالح، وهذا سرّ من الأسرار الإلهيّة.

إذن رأي الناس هو الملاك والمعيار والمقياس الحقيقي لمدى صلاح المتصدي والحاكم. وعندما نرى الناس جميعًا تتحدث عن شخص بسوء، فلا يمكن أن يكون صالحًا في أدائه. نعم قد تُشوّش الصورة ويرتبك المشهد عندما ينقسم الناس؛ فيذكره البعض بخير ويذكره البعض الآخر بسوء، وفي هذه الحالة - كما تشير مجمل النصوص - يذهب الإنسان إلى الصالحين وإلى النخب من أصحاب الفكر وإلى الناس الذين لا يتأثرون بالتشويش، فيكون كلامهم هو المعيار والحجة على صلاح المسؤول والمتصدي.

الإضاءة الثالثة

احترام آراء الناس في الخطأ والصواب

يعبّر هذا الدرس عن مدى الاهتمام برأي الناس، فهو محترم ومقدر على كل حال. وما نفهمه من هذه النصوص أن رأي الناس محترم حينما يصيبون، وهو محترم أيضًا حينما يخطئون. وهذه الكلمة لعلي عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ فيها درس عظيم، فهي تريد من الحاكم والمسؤول أن يقف عند كلام الناس وتقييمهم له حتى لو كان البعض منهم مُغرضًا ويتعمّد الإساءة، وعليه أن يسمع من الجميع، فإن كان بعضهم مصيبًا وسجل ملاحظات منهجية

حول الأداء فعليه أن يستفيد من أخطائه ويتعرف عليها ويعالجها حتى لا يشذ عن الطريق وينحرف عن الضوابط والمقاييس، وينبغي ألا تأخذه الحالة النرجسية للمنصب والنفوذ فيضيع عليه كل شيء وتلتبس عليه الأمور.

وأما إذا كان الناس غير صائبين في تقييمهم وآرائهم ومغرضين ومغررًا بهم ومتأثرين بأحاديث غير صحيحة، ففي هذه الحالة أيضًا على المسؤول أن يستمع إليهم حتى يعرف أين هو سوء الفهم ومناشئ الالتباس؟، لكي يتسنى له معرفة مزاج الشارع، فالمسؤول الذي لا يعرف مزاج الشارع ولا يعرف كيف ينظر الناس إلى تصريحاته ومواقفه يبتعد عن الناس، في حين أنه مسؤول عنهم ويتحمل المسؤولية في خدمتهم، وإن كانوا غير عارفين بسر موقفه وسلوكياته وخطواته ومشاريعه.

ولذا ينبغي على المسؤول أن يصغي ويتفهم ويتفاعل حتى مع حديث المغرضين، ويضعه في خانة معينة، ويتخذ الإجراءات المناسبة لمعالجة هذا الالتباس الذي دعا بعض الناس إلى أن يأخذوا انطباعات خاطئة عنه. ومن هنا يتضح عمق الرؤية الإسلاميّة في هذا الموضوع التي تقول بأن عدم الاكتراث وعدم الاعتناء برأي الناس سيدفعهم إلى اتخاذ خطوات خاطئة لإيصال صوتهم، وستزداد الفرقة والتفكك في المجتمع الذي يتعرض إلى حالة من هذا القبيل.

وهذا درس عظيم يقدمه لنا علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو أن رأي الناس مهم وإن كان بعضهم مغرضًا، ومعطلًا، ويبحث عن زلات، وليس موضوعيًا، ولا ينظر إلى الأمور بتجرد، أو هو منحاز. وعلى المسؤول أن يسمع لهم ويتعرف على خلفية مواقفهم ويعالج هذا الموضوع، ولا يمكن لمسؤول أن ينجح وهو يقول إن الجميع مخطئون وأنا مصيب، فمن أعطاه هذه العصمة؟ وعلي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يحكم الأمة بهذا المنهج، وقد كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يجلس مع الناس ويتشاور معهم ويوضح لهم مواقفه، فكيف الأمر بغير المعصوم؟!.

إن الفجوة بين المسؤول وعموم الناس هي أخطر ظاهرة يمكن أن تجهض المنظومة القياديّة وتَحُوْل دون الوصول إلى أهدافها وغاياتها. ومن الأمور المهمة أن يكون المسؤول قريبًا من المجموعة التي يقودها، ويتفهم معاناتها، ويشرح لها خلفيات القرارات التي يتخذها ويعتمدها.

الإضاءة الرابعة

أهمية العمل الصالح للمسؤول

إن من يتصدى ويتحمل المسؤولية محتاج إلى ذخيرة، فلا أحد يستغني عن الذخائر حتى لو كان حاكمًا وبيده مقدرات الأمة، ولكن ما هذه الذخيرة؟ يعتقد البعض بأنها الثروة والإمكانات، ويعتقد البعض بأنها القوة والسلاح والجيوش التي يتكئ عليها ويحقق أهدافه من خلالها، ويعتقد آخرون بأنها شيء آخر، وهكذا. ولكن عليًّا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يشير إلى أن العمل الصالح هو أحب الذخائر وأهمها، وهو الذي يجلب المال والقوة ويعبئ المجتمع ويوظف كل الإمكانات لصالح المشروع.

ومما يؤيد قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في أن العمل الصالح هو خير ذخيرة قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٩٨]، وللعمل الصالح في الرؤية الإسلاميّة مفهوم واسع جدًّا، فكل خطوة مفيدة مؤثرة وإيجابية هي عمل صالح، ولا يتقيد العمل الصالح بموضوعات وعناوين محددة وعبادات معينة، بل الباب مفتوح ليشمل كل خير، وكل ما يحقق منفعة للناس فهو عمل صالح، ولمثل ذلك فليتنافس المتنافسون على فعل الخير.

والعمل الصالح بهذا المفهوم الواسع هو الذخيرة التي لا يستغني عنها القائد والحاكم ومن يكون في موقع المسؤولية. وقد اقترن العمل الصالح بالإيمان في كثير من آيات القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فالاقتران الصحيح هو ما كان بين العقيدة السليمة وفعل الخير، فالعمل الصالح بدون عقيدة سليمة كمن يسير ولا يعرف الجهة التي تؤشر إليها البوصلة، العقيدة الصحيحة تجعل الإنسان متوجهًا نحو الله عز وجل في مسيرته التكاملية، وكل عمل صالح يقرّبه إلى الله تبارك وتعالى يدفعه بالاتجاه الصحيح.

---

٩٨. سورة النحل: الآية: ٩٧.

الدرس الحادي عشر

التعامل مع الرأي العام

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمّا لاَ يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الإِنْصَافُ مِنْهَا فَيما أَحْبَبْتَ وَكَرِهْتَ».

تتضمن هذه العبارة الموجزة معاني عظيمة وكبيرة في المنظومة القياديّة وفي الأدب القيادي للمسؤول حينما يتصدى. فهي تخاطب المسؤول الذي يتحمل المسؤولية تجاه الآخرين بأن يسيطر على هواه ويكبح جماح نزواته ورغباته ومشاعره وأنانيته، فهو ليس في موقع يتعامل مع من يريد كيف يشاء، فهو مسؤول عن مجموعة من الناس – أيا كان حجمها وعددها ـ عليه أن يلحظ هذه المسؤولية في مجمل حركاته وسكناته ومواقفه وسلوكياته.

ويطلب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من المسؤول أن يشح بنفسه، والشح هو البخل، أي يريد منه أن يكون بخيلًا مع نفسه، وأن يكون شديدًا عليها في ما لا يحل له في القضايا التي لا يسمح له كمسؤول أن يمارسها أو يقوم بها، فيتعامل بشح وبخل واقتصاد شديد وحزم كبير مع نفسه حينما يكون في مواقع المسؤولية، فإن الشح بالنفس يتحقق عندما يراقب المسؤول نفسه ويميل عليها، وحينما يتعامل بحزم معها.

ثم يطلب عَلَيْهِ السَّلَامُ من المسؤول الإنصاف منها في ما أحب أو كره، أي أن هذا البخل والحزم والشدة في التعامل مع النفس هو إنصاف لها، ويتحقق ذلك بعدم السماح لها بأن تنطلق لتحب كما تريد وتكره كما تريد؛ إذ لعلها تحب أشياء تضر بها وهي لا تعلم، ولعلها تكره أشياء تنفعها وهي لا تعلم، كما بين الله تبارك وتعالى ذلك بقوله: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[99].

٩٩. سورة النساء: الآية ١٩.

إذن هذه النفس تميل نحو أمور وتحجم عن أمور، وهي من الممكن أن تحجم عن الحق وتميل إلى الباطل. فمن حق النفس على صاحبها إنصافها.

والإنصاف من النَّصْف، أي مسك العصا من الوسط. فعلى المسؤول ألا ينساق وراء نفسه ووراء هواه، فما يدريه لعله يحب فيندفع ويكون في هذا الاندفاع ضرر، ولعله يكره فيحجم فيكون في هذا الإحجام ضرر.

والإنصاف يعني الوسطية والموضوعية والدقة في تقييم الأمور، وألا يحكم المسؤول العواطف والمشاعر والأنانيات، فيكرّم من يظهر الخضوع والطاعة وينتقم ممن لم يظهر الولاء والخضوع.

ولا ينبغي أن تسير الأمور بهذه الطريقة، فقد يكون خيرك في شخص لا يظهر التملق لك، وقد يكون بعض المتملقين والمتزلفين بمثابة غدة سرطانية تقترب من الإنسان وتفتك به وتوقعه في كثير من الزلات. فليس المدح والإطراء المعيار الوحيد للدعم والإسناد، ولا التعامل بحزم ووضوح والانتقاد ورفع الصوت وقول الحق المعيار الكافي للإساءة.

والأمر اللطيف في هذا الدرس أن عليًّا عَلَيْهِ‌السَّلَامُ يطلب من الإنسان أن ينصف نفسه قبل أن ينصف الآخرين، فحينما يندفع ويتفاعل مع إساءة نفسه للآخرين، يكتشف أنه يسيء إلى نفسه قبل أن يسيء إلى الآخرين، وحينما يكيّف ويؤطّر مواقفه بالإطار الصحيح فهو ينتصر لنفسه قبل أن ينتصر للآخرين.

وهذه نقطة مهمة جدًّا في الفهم القيمي الإسلامي لحركة الإنسان وسلوكه، فالإنسان لا يمكن أن يجد نفسه بمعزل عن الآخرين، وبالتالي فإن الإحسان إلى الآخرين هو إحسان لنفسه والإساءة إلى الآخرين هي إساءة إلى نفسه قبل أن تكون إساءة إلى الآخرين.

والخلاصة أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ يطلب الشح بالنفس والبخل معها وتقويمها من خلال عدم التعاطي المطلق مع رغباتها في ما تحب أو تكره.

وفي هذا الدرس العظيم هناك مجموعة من الإضاءات:

الإضاءة الأولى

ضرورة السيطرة على النفس

إن السلطة والنفوذ والوجاهة والتأثير والإمكانات والامتيازات التي تُسخّر للمسؤول، أيًا كان مستواه وأيًا كان حجمه، يمكن أن تُوقع الإنسان في فخ عظيم وتنمّي في وجوده حالة الميل إلى الـ (أنا)، أي الذي يريده يجب أن يكون، والذي يقوله يجب أن يحدث، وليس لأحد الحق في أن يناقش ويتكلم ويعترض.

وفي الأيام السالفة كان يُطرح شعار «نفّذ ثم ناقش»، ولكن اليوم وصلت الأمور إلى أن يكون الشعار الواقعي «نفّذ ثم نفّذ ثم نفّذ»، وإذا قيل لهم متى سيكون النقاش؟، يقولون بعد عبور الأزمة، ولكن ما ان تنتهي الأزمة الأولى حتى ندخل في أزمة ثانية وثالثة..، أو يقولون يوجد الآن وضع خاص ووضع استثنائي، وهكذا على هذا السياق يستمر الحال سبع سنوات تحت شعار: «نفّذ ثم نفّذ ثم نفّذ»، ويستمر الوضع من أزمة إلى أزمة، ومن قضية إلى قضية.

أليس من حق المواطن أن يسأل وأن يعترض؟ أليس له الحق بأن يستوضح؟ إن حال البلد لا يخلو من أزمة، فلماذا يجب علينا السكوت والطاعة العمياء؟ ولماذا كل من يرفع صوته يعتبر خارجًا عن السياق ومتمردًا على الديمقراطية ومخلا بالأمن والسلم الاجتماعي؟، إن هذا ليس هو منهج علي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الذي وضع لنا المعايير الصحيحة، بل هذه في جوهرها رغباتنا الشخصية التي نضفي عليها ثوب الإسلام، فنحن في موقع المسؤولية لا نريد أن نُسأل عن شيء، ولا نريد أن نُعاتَب على قضية، ولا نريد أن ندخل في مماحكات وفي احتجاجات وفي استدلالات عن هذا الموضوع أو ذاك. وهذا أمر غير صحيح.

إن السيطرة على النفس هي المدخل الصحيح في تحمّل المسؤولية، فيجب على من يتحمّل المسؤولية أن يكون مسيطرًا على نفسه في أي دائرة و في أي مساحة كان، وعليه ألا يمرر قناعاته ويفرضها على الآخرين تحت يافطة الانتصار للقانون والانتصار للسلم الاجتماعي وتطبيق النظام العام وما إلى ذلك من عناوين وشعارات، وهو في الحقيقة ينتصر لأنانيته ولذاته من خلال تكميم الأفواه وعدم السماح للناس أن يتحدثوا

وينطقوا بما يريدون، فهذه الكوابح مطلوبة، وهذه المصدات للنفس الإنسانيّة حينما يكون الإنسان في موقع المسؤولية مسألة في غاية الأهمية.

ويشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى ذلك بقوله: «فَامْلِكْ هَوَاكَ»، أي أن الإنسان مسلط تمامًا على ما يملك، وليس لأحد أن ينازعه على ملكه، فمثلًا هذا البيت ملكه يستطيع أن يفعل به ما يشاء من الهدم أو البناء، نعم، هناك ضوابط للبلدية يجب أن تُراعى، ولا ينبغي لأحد أن يتجاوزها. وهنا يحث أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الإنسان على أن يملك هواه، أي يريد منه أن يكون هواه في قبضة يده ويتحكم به، فلا يتحكم به هواه.

إن الميول النفسية والهوى والرغبات والنزوات الدنيئة لا خير فيها، وهي تعزز أنانية الإنسان وتنتصر لذاته، حتى إن كان على حساب مصلحة الذات فضلًا عن مصالح الآخرين. فعلى الإنسان وخاصة المسؤول والمتصدي ألا يسمح لهذه النزوات أن تعبث به وتأخذه يمينًا ويسارًا.

ويشرح أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذا المفهوم في رسالة إلى الأسود بن قطبة الذي كان قائدًا للجيش في منطقة حلوان الواقعة غرب إيران في منطقة (سربل زهاب) على ما يذكره المؤرخون. يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «أما بعد، فإن الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيرًا من العدل، فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء، فإنه ليس في الجور عوضًا من العدل، فاجتنب ما تنكر أمثاله، وابتذل نفسك في ما افترض الله عليك، راجيًا ثوابه ومتخوّفًا عقابه»[١٠٠].

أي أن المسؤول إذا انساق وجرى وراء رغباته ومآربه وميوله، وأصبح يحكّم هواه في سلوكه، فهذه السلوكية وهذه الأخلاقية سوف تمنع هذا القائد من تطبيق العدل في مواطن كثيرة، فالعدل قد يتطلب انتصارًا لقضية، لكنها لا تناسبه ولا تناسب مصالحه الشخصية، كما لو ترك عقاب من هو محسوب عليه، ويترك مكافأة من لا يتملّق له.

إن تحكيم الـ (أنا) سيدفع الإنسان إلى أن يبتعد ويجافي العدل والحق في قضايا كثيرة. ولذا يجب على المسؤول أن يكون الناس عنده في الحق سواء، فلا يميّز بين المواطنين مراعاة لحق المواطنة وترسيخًا لمفهوم المواطنة الصالحة، ويكون عادلًا ومنصفًا ويساوي بين العباد في التعامل. ولكن نرى مع الأسف أن هناك استغلالًا لبعض الاعتبارات للتمييز بين الناس، كالاعتبارات الأمنية مثلًا، فيتعرض البعض للتفتيش ويُعفى آخرون منها، ويبالغ في استغلالها والتأسيس للتمييز بين الناس.

---

١٠٠. نهج البلاغة: الرسالة ٥٩.

وليعلم المسؤول أن أمر الناس ينبغي أن يكون عنده في الحق على حد سواء؛ لأن الجور والظلم لا يمكن أن يكونا بديلًا من العدل، فلا يتصور المسؤول أن نتيجة الظلم والجور ستكون واحدة، وقد يتصور المسؤول الذي يسيّر أموره على أساس الظلم أنه منتصر وأن الأمور لا تستقيم له إلا بهذا الأسلوب، ولكن لو مد نظره إلى أُفق أوسع لعلم أنه الخاسر الأكبر؛ لأن نتائج أعمال الإنسان مردودة عليه في دار الدنيا ودار الآخرة، إن كانت خيرًا فخير وإن كانت شرًّا فشر.

فحينما يؤسس المسؤول سياقات عمله على أسس غير صحيحة، وحينما يتجاوز الأطر الصحيحة، وحينما يميز بين الناس، فإنه سيتلقى نتيجة عمله على أساس قاعدة «كما تُدين تُدان»، وسوف يصل إليه في يوم من الأيام عين ذلك العمل أيضًا، وبنفس المنطق سوف يسيئون له ويعتدون عليه، ومن يرى لحية جاره تُحلق ولا يتحدث فليسكب الماء على لحيته ويترقب دوره، ومن يقبل أن يطول الاعتداء والظلم الآخرين فلينتظر دوره، فهذه هي سنن التأريخ التي يتحدث عنها علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ومن هنا يجب على المسؤول أن يجتنب ما ينكر أمثاله على نفسه من الظلم وكل ما لا يقبله لنفسه، ولا يجعل من نفسه استثناء، ويبرّر لنفسه بأن الشيء الذي يعمله لا يوجد مانع منه، ولكن إذا عمله الغير معه فهو ممنوع.

ثم يطلب أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من المسؤول أن يصرف وقته ويبذل جهده في ما فرضه الله تعالى عليه، والسير في السياق الصحيح الذي يريده الله تعالى منه، راجيًا بذلك ثوابه تعالى، ومتخوّفًا من عقابه سبحانه.

هكذا يربّي علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ضباطه وجنوده وقياداته العسكريّة وولاته على هذه الأخلاق، فلذلك أصبحت خلافة علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التي لم تستغرق سوى أربع سنوات منهجًا للدراسة في المحافل العلمية بعد ألف وأربعمائة سنة، وما زلنا نذكر هذا الإنجاز العظيم بفخر كبير.

إذن، فالانحرافات تبدأ من ظلم الآخرين، ثم يستسلم الإنسان إلى رغباته الشخصية ويبتعد عن السياقات والأطر المطلوبة في نجاح مهامه.

وفي مقطع آخر من خطبة طويلة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول فيها: «إنما بدْءُ وقوعِ الفتن أهواء تُتبع، وأحكام تُبتدع، يُخالَف فيها كتابُ الله، ويتولى عليها رجالٌ رجالًا على غير دين الله»[١٠١].

١٠١. نهج البلاغة: الخطبة ٥٠.

يبين أمير المؤمنينعَلَيۡهِ‌ٱلسَّلَامُ في هذا المقطع من خطبته المباركة أن بداية شرارة الفتنة، وانطلاق فتيل الأزمة، ونقطة شروع الانحراف، هي اتباع هوى النفس ورغباتها والخروج عن السياقات والعمل وفقًا للأمزجة الشخصية. ثم يتلوها ابتداع أحكام في شتى المجالات، فربما تكون هذه الأحكام المبتدعة سياسيّة أو اجتماعية أو أمنية أو اقتصادية.

والبدعة هي تكييف القرارات مع المصلحة الشخصية أو مع المصلحة الحزبية، وعندما تُكيّف بشكل قانون تظهر وكأن صاحبها ملتزم بالقانون. وهنا يكمن الخطر، فتارة يكون القانون مُشرّعًا تشريعًا صحيحًا ولكن نحن نخالفه، فهناك مسطرة يُرجع إليها فيُعرف الحق من الباطل والصحيح من الخطأ، وتارة يُكيّف القانون على ضوء الأنانية والفئوية، فيختلط الحق بالباطل، ويكون الباطل حقًّا والحق باطلًا، وعندما يُكيّف القانون على ضوء الإرادات والأهواء الشخصية تكون بداية الفتنة.

ومن مصاديق الأحكام المبتدعة في المجال السياسيّ، هو الجلسة المفتوحة لمجلس النواب، في بلد يعيش في عناء طويل وهناك قضية لا بُدَّ من إتمامها، وندع الأمور تخرج عن السياقات الصحيحة، وتُكيّف الإجراءات وفقًا للرغبات والمصالح الخاصة تكييفات قانونية بسياقات قانونية.

وهذه هي بداية الفتنة كما يقول عليعَلَيۡهِ‌ٱلسَّلَامُ، فيُخالَف فيها كتاب الله عزّ وجلّ، حيث تتحدث آيات القرآن عن أمور، ونحن نذهب لنعمل خلافها. وهذا شيء ملحوظ في مجتمعاتنا وفي التزاماتنا اليومية، فالدستور يتحدث بأمر ونحن نخالفه ونجتهد في مقابل نصوصه القطعية، ونضع لها تكييفات قانونية لا تصح. ثم يتولى عليها الرجال ويتضامنون مع بعضهم على هذه الأحكام المبتدعة خلافًا لدين الله تعالى.

وإذا مشينا في هذا الطريق فلا يمكن أن نتوقع أن يتصدى الكفوء إلى الموقع الصحيح، بل سيتولى غير الأكفاء وغير المؤهلين المواقع بدلًا من الأكفاء، وكل من كان أكثر تزلفًا وأكثر انتهازية ستكون له فرصة تولّي الوظائف العليا للدولة، وإن كان لا يعرف غير مسك القلم والتوقيع، ويُهمل الآخرون من أهل الاختصاص والكفاءة، الذين أفنوا أعمارهم في طلب العلم والدرس والخبرة من جراء الخدمة الطويلة، فالكفوء المشهود له في الوزارة الفلانية بالنزاهة، يبقى في السُلّم الوظيفي العادي إلى أن يتقاعد؛ لأنه لا يجد من يدعمه.

فكيف يمكن القبول بمثل هذه الأشياء؟!، ويتساءل البعض لماذا نحن هكذا؟. والجواب بسيط، لأننا لا نلتزم بالسياقات والضوابط والقيم والمُثُل التي وُضعت في القيادة والإدارة.

وتبقى كلمات علي عَلَيْهِ السَّلَامُ تقرع أسماعنا وهو يغادر هذه الدنيا في وصيته للحسن والحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: «الله الله في القرآن لا يسبقكم إلى العمل به غيركم»[١٠٢]، وهذا ما حدث اليوم، حينما أخذ الآخرون بكلمات علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وطبقوها في واقع حياتهم فتقدموا علينا، ونرى بلدانهم اليوم تدار ببناء مؤسساتي، يتساوى فيها الجميع أمام القانون، حتى أن المواطن البسيط يدخل المحكمة أو الدائرة التي لا يعرفه أحد فيها ويأخذ حقه كاملًا؛ لأن ظهره مسنود بالقانون، وأمامنا وقت طويل وجهد جسيم حتى نصل إلى هذه المرحلة.

لماذا نحن متخلفون وهذه نظرياتنا وقيمنا؟، والجواب: أننا لم نلتزم بهذه النظريات والقيم، وقد حذرنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته من أنه في حالة عدم الالتزام ستسير الأمور باتجاهات أخرى. وهكذا شخص علي عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل ألف وأربعمائة سنة الداء والدواء، ولكن نحن لم نلتزم، وقد أسرتنا الميول، فهي تأسر الإنسان وتأسر عقله وفكره، فيصبح عقل الإنسان أسيرًا للهوى والنزوات والرغبات.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: «وكم من عقل أسير تحت هوى»[١٠٣]، فالهوى هو الأمير والعقل أسير مكبّل لا يستطيع التفكير، ولا يستطيع أن يرى، وأصبح منقادًا للرغبات والنزوات.

وأشار أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مرة أخرى إلى هذه المشكلة التي تواجه الإنسان في خطبة له يقول فيها: «والسعيد من وُعظ بغيره، والشقي من انخدع لهواه وغروره»[١٠٤]، فالسعيد هو الذي يرى ما يجري على غيره فيتعظ ويتعلم، فحين رأى الآخرين يموتون قال: عجبًا، هذه نهايتنا؟ لأُصحح مسيرتي، ورأى عاقبة ما يحل بالظالمين فتجنّب ظلم الآخرين، ونظر إلى ما يجري للمحسنين وما هي تبعات إحسانهم فقرر أن يكون منهم، وهكذا في سائر ما يرى من الآخرين فيتعظ به.

١٠٢. الكافي ٧: ٥١.
١٠٣. نهج البلاغة: الحكمة ٢١١.
١٠٤. نهج البلاغة: الخطبة ٨٦.

والشقي هو من انخدع لهواه وغروره وانقاد لهما، ومن مواطن الغرور مواقع المسؤولية، فلا تتصوروا أنها قضية بسيطة، فموقع الخدمة العامة، بقدر ما يراه الآخرون موقعًا جيدًا، فهو سيف ذو حدين، إما يتألق فيه الإنسان إذا أحسن الخدمة وتواضع للآخرين، وإما أن يكون منزلقًا للانحدار والضياع.

وليفكر المسؤول بأن ما حصل عليه من الاحترام والتقدير والأموال والجاه له نهاية، وستكون لنا جميعًا نهاية نحن محكومون بها، فلكل واحد منا عمر محدود بمدة زمنية معينة، ثم ينتهي كل شيء وتكون عاقبة أمرنا إلى الموت الذي لا بُدَّ منه، فيجب أن نكون حذرين ونستعد لما بعد الموت حين نقف للحساب عن كل صغيرة وكبيرة.

الإضاءة الثانية

الأُمور الممنوعة على المسؤول

نستفيد من هذا الدرس الكبير من دروس علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أن هناك أمورًا ممنوعة على المتصدي لمواقع الخدمة العامة، وقد لا تكون ممنوعة على عموم الناس. فهناك ما هو محرم على الجميع، سواء كان مسؤولًا أو لم يكن، وهناك أمور ممنوعة على من يتصدى لموقع المسؤولية، فالمسؤولية ليست تشريفًا، وليست صرف امتيازات ووجاهات واحترامًا من الآخرين وتأثيرًا ونفوذًا وسلطة، بل المسؤولية التزام وضوابط ومعايير في التعامل مع الأمور.

ويتضح ذلك من هذه العبارة من كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الدرس الكبير: «وشحَّ بنفسك عمّا لا يحل لك»، أي أمسك نفسك أيها المسؤول عما لا يحل أن يصدر منك، وإن كان حلالًا على غيرك وجائزًا منه، فكونك مسؤولا يجب أن يحمّلك المزيد من الالتزام.

ونلاحظ كم أن الفرق كبير بين ثقافة الإسلام وبعض الثقافات الشائعة في زماننا، فالمسؤول اليوم هو الأقل التزامًا وانصياعًا للضوابط، فيُطلب من المواطن ما لا يُطلب من المسؤول، في حين أن كل الالتزامات التي يلتزم بها الإنسان البسيط، يجب أن يلتزم بها المسؤول أيضًا وزيادة في الثقافة الإسلاميّة. ويتمتع المسؤولون اليوم عندنا برواتب وامتيازات وإمكانيات ومخصصات مادية ومعنوية أكثر بكثير من المواطن البسيط،

ويتجاوزون الكثير من القوانين والضوابط والسياقات، ويُعتذر له إذا ما طُلب منه الالتزام ثم عرّف نفسه بأنه مسؤول. وأما في الإسلام فعلى المسؤول أن يلتزم أكثر.

وقد وردت في هذا الموضوع العديد من النصوص، التي تمثل نهجًا قويمًا لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ في التعامل مع رجل الخدمة العامة، أي المسؤول في مصطلحاتنا، ويقال له رجل خدمة عامة أي أنه ليس ملكًا لنفسه، بل هو ملك الجميع، فيجب أن يأخذ بنظر الاعتبار المسائل الكثيرة والالتزامات المختلفة، وحينما يقول كلمة ويخطو خطوة، عليه ألا ينظر لنفسه وما يقوم به لأنه قادر عليه، بل ينظر هل يقبل المجتمع منه ذلك؟، وهل تحمّله المسؤولية في ما هو فيه، يسمح له أن يقول هذه الكلمة أو يخطو هذه الخطوة؟.

وفي رسالة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى عثمان بن حنيف واليه على البصرة، يوبخه فيها لاستجابته لدعوة أحد الأعيان والأثرياء في البصرة لمأدبة طعام، ومن الطبيعي أن دعوة الوزير أو المحافظ إلى وجبة طعام من قبل رجل أعمال تثير الشكوك بأنه ربما كانت لديه عقود يريد من خلال هذه المائدة أن يمررها، أو يريد التنصل من دفع الضرائب أو تقليلها، وما إلى ذلك من غايات. وعلم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بالأمر فلم يكتفِ بالإشارة إليها، ولم يكتفِ بتمريرها باعتبارها المرة الأولى، بل كتب له رسالة ودُونت كوثيقة للتأريخ في هذا الموضوع.

ونذكر بعض المقتطفات منها: «أما بعد يابن حنيف، فقد بلغني أن رجلًا من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها، تُستطاب لك الألوان، وتُنقل إليك الجفان (الأواني)، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم (فقيرهم) مجفوّ (مطرود)، وغنيهم مدعوّ، فانظر إلى ما تقضمه من هذا القضم (المأكل) فما اشتبه عليك علمه فارفضه، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه، ألا وان لكل مأموم إمامًا يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعامه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تبرًا، ولا أعددت لبالي ثوبي طمرًا، ولا ادّخرت من غنائمها وفرًا، ولا حزت من أرضها شبرًا، ولا أخذت منه إلا كقوت أتان دبرة، ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مقرة»[١٠٥].

يخاطب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في كلماته هذه المسؤولين ويحذرهم من أن يعرّضوا أنفسهم للشبهة أو يضعوا أنفسهم في موضع مع الأثرياء فيتحسس فيه الفقراء من فقرهم،

١٠٥. نهج البلاغة: الرسالة ٤٥.

ولو على مستوى تلبية لدعوة تناول طعام على مائدة لا يشترك فيها الفقراء، فضلًا عن أن تكون وراء تلك الدعوة أهداف وأغراض أخرى.

كما إذا كان الطعام يفرّق بين الناس على أساس طبقي، أو يسهّل مهمة العقود والملفات التي ستُعرض على المسؤول بعد المائدة، أو يعبّر عن رشوة، فهناك نيات معينة وخروقات قانونية وخروج عن السياقات، فإن طعامًا كهذا يوقع المسؤول بما يتقاطع مع النزاهة، وما يتعارض مع الالتزام المطلوب في التعامل بمساواة مع المواطنين.

ويجب على المسؤول أن يرفض مثل هذا الطعام ولا يأكل منه فهو طعام حرام. ولكن إذا أيقنت أيها المسؤول بطيب وجوه هذا الطعام، وخلوه من الاعتبارات السابقة فكُل منه، فالثراء ليس مثلبة إذا كان من الطريق المشروع والحلال، والغنى لطف من الله سبحانه وتعالى للإنسان.

والإسلام ليس لديه مشكلة مع الغني ولا مع من يمتلك المال، ولكن لديه مشكلة مع من يطرد الفقراء ويقرب الأغنياء، ولديه مشكلة مع من يختل توازنه حينما يكون غنيًا، وليس لديه مشكلة مع الغني الذي لا شبهة في أمواله ومائدته مفتوحة للجميع، ومضيفه مفتوح يستقبل الناس ليس على أساس التمييز بين الأغنياء والفقراء، وليس لتمرير الصفقات والعقود.

فلا مانع من أن يستجيب المسؤول لمائدة طعام يجلس عليها الغني والفقير، ولا شبهة فيها من مال حرام، أو طلب لتمرير صفقة ستعرض على مكتبه، بل هي مجرد علاقات اجتماعية يراد بها وجه الله تعالى.

ثم ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الخطاب إلى بيان مسألة مهمة، وهي مسألة القدوة بقوله: «ألا وإن لكل مأموم إمامًا يقتدي به ويستضيء بنور علمه»، أي أن لكل مسؤول مسؤولًا يقتدي به ويسير على خطاه، فإذا كان إمامه من أهل الصلاح فينبغي أن يكون من يعمل تحت أمرته من أهل الصلاح أيضًا، وألا يخطو خطوة حتى يعلم كيف كان موقف إمامه في أمثالها.

ويشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هنا إلى أن هناك تعددًا في القيم القياديّة في النظم القياديّة، و تعددًا في المنظومة القياديّة، تتمثل بهذا القائد أو ذاك، فقد يكون سلوكًا منضبطًا أو لا يكون، وقد يقدم صورة ناصعة أو قد لا يقدم، ولكنه إمام يلتقى معه بكل تفاصيله.

ثم يبين علي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هذه النظم، فيبدأ بتعريف نفسه والقيم التي يعتمدها والنظام الذي يعتمده. فيقول عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: «ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه»، والطمر هو نصف الثوب، وفي ذلك الوقت كانت الملابس تتألف من قطعتين، أي يقول إن إمامكم اكتفى من دنياه بثوب واحد، «ومن طعامه بقرصيه» برغيفين من الخبز في اليوم. ثم يبين عدم قدرة من يقتدي به على ذلك، ولذا فهو يعفيهم من اتّباعه في ملبسه ومأكله، ولكن يطلب منهم إعانته على إدارة الدولة وتسيير أمورها بالورع عن ارتكاب المحارم والابتعاد عن الشبهات والاجتهاد في الطاعة.

فيا أتباع علي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عليكم بالجد والاجتهاد، وأن تنفضوا عن أنفسكم حالة الكسل والخمول، فإمامكم علي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يريد منكم الاجتهاد والجد والحركة، وخاصة في طلب العلم، والاختصاص في العمل والمهام الخدمية العامة في المجتمع.

ولكن واقعنا على عكس ما يريده لنا علي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فمثلًا هنالك أمور مؤلمة في التقارير التي نقرأها عن معدل ساعات عمل الإنسان في العالم الثالث، وفي الشرق الأوسط، فحينما يجمعون ساعات العمل المفيد ويقسمونها على عدد السكان تظهر الأرقام مذهلة، فالعمل المفيد بضع دقائق في اليوم فقط، بينما في الدول الصناعية كاليابان وأمثالها، معدل العمل المفيد ساعات طويلة في اليوم.

وما يريده علي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا من العاملين معه في دولته ومن هو تحت أمرته هو إعانته بعفة وسداد. والعفة مطلوبة في البصر والسمع واللسان، وفي التعامل مع المال، وفي التعامل مع الآخرين. والسداد هو العمل الصحيح، وكما جاء في الحديث الشريف: «رحم الله امرأ عمل عملًا فأتقنه»[١٠٦].

ثم يبين أمير المؤمنين عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ خصال من يجب الاقتداء به، حكاية عن نفسه، فيقسم بالله سبحانه بأنه ما كنز من الدنيا تبرًا، والتبر هو تراب الذهب والفضة، فعلي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهو خليفة المسلمين لم يدخر شيئًا لنفسه وعياله مما يحرص الناس على ادخاره لنوائب حياتهم.

ولم يدخر من غنائم الدنيا مالًا وفيرًا، ولا أعدّ لعتيق ثوبه ثوبًا يستبدله به، ولم يستحوذ على شبر من هذه الأرض لنفسه، فقد عاش علي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ومضى وهو لا يملك دارًا، بل لم يملك شبرًا، ولم يأخذ من الدنيا إلا كقوت اتان دبرة، وهي الناقة

---

١٠٦. تفسير القرطبي ١٣: ٢٤٤.

التي يُعقر ظهرها فلا تأكل إلا القليل من الطعام، فقد أخذ أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الدنيا بقدر القوت، وهو عيشة الكفاف.

وقد كان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يوصي أصحابه: «لا تجلسْ على الطعام إلا وأنت جائع، ولا تقم إلا وأنت تشتهيه»[١٠٧]، أي على الإنسان أن يتناول من الطعام بقدر لا يشعر معه بالشبع. وهذا هو منهج علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في تعامله مع الدنيا. ثم يتطرق إلى بيان قيمة الدنيا في نظره عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيقول: «ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مقرة»، أي هي أهون من حبة شجرة البلوط في عيني.

فعلي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا يرى في هذه الدنيا شيئًا إلا أداء الواجب وخدمة العباد. فهذا هو إمامكم خذوا منه هذا المنهج بهذه الأوصاف الأربعة: الاجتهاد والورع والعفة والسداد.

الإضاءة الثالثة

مستلزمات كبح النفس

إن الشح بالنفس وضبط النفس وإمساك النفس عن الانجرار وراء الانحرافات، لها مستلزمات وطرق ووسائل وآليات:

الآلية الأولى: التقوى

إن من أهم وسائل كبح النفس كما يشير إلى ذلك أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، هي التقوى؛ فالتقوى من الوقاية أي الحفظ، وهي الغطاء الذي يحفظ الإنسان فيه نفسه من الأخطار الداخلية حينما ينطلق الهوى ويدفع الإنسان نحو الرذيلة، ويحفظه من الأخطار الخارجية عندما تكون الإغراءات كبيرة أمامه، ولا سيَّما في مواقع السلطة والنفوذ وتحمّل المسؤوليات. ولذلك تشكل التقوى أهم عناصر الكوابح التي يمكن أن تمنع الإنسان من الانزلاق. إذن، فالتقوى تعني أن يُوجِد الإنسان في نفسه حصانة ومناعة من الوقوع في المعاصي. وهو كالتلقيح الذي نلقح به أطفالنا لتحصل عندهم المناعة من الفايروسات.

---

١٠٧. بحار الأنوار ٥٩: ٢٦٧ح٤٢.

وقد أولى أمير المؤمنين اهتمامًا كبيرًا لمسألة التقوى، يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ في إحدى خطبه: «فإن تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتق من كل ملكة، ونجاة من كل هلكة، بها ينجح الطالب، وينجو الهارب، وتُنال الرغائب»[١٠٨].

يبين أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الخطبة المباركة أن التقوى هي مفتاح التسديد والنجاح، وهي ذخيرة لليوم الآخر الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، وهي عتق من كل عبودية، وهي نجاة من كل هلكة ومعصية، التي تجعل الإنسان أسيرًا بيد الشيطان فيسيطر عليه ويوجهه كيفما شاء. وبالتقوى يتحقق النجاح لطالب كل حاجة. وبها ينجو الهارب من كل مكيدة ودسيسة تعمل ضده. وبها تُنال الرغائب والحاجات. إذن، فدفع الضرر وجلب المنفعة لا يتمان إلا من خلال التقوى.

ويشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبة أخرى إلى أهمية التقوى أيضًا فيقول: «اعلموا عبادَ الله أن التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه، ألا وبالتقوى تُقطع حُمة الخطايا، وباليقين تُدرك الغاية القصوى»[١٠٩].

يشبه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ التقوى هنا بدار سورها محكم ومنيع، ويشبه الفجور الذي هو ضد التقوى بدار سورها واه وضعيف، فيدخلها السراق ويقتحمها العدو بسهولة، ومثل هذا السور الضعيف لا يحمي أهله ولا يحفظ من لجأ إليه.

وبالتقوى تُقطع حُمة الخطايا، والحمة هي أُبرة العقرب التي تلدغ بها، فمن خلال التقوى يمكن قطع سطوة الذنوب والمعاصي، ومن خلال اليقين الذي هو الوضوح في الرؤية تُدرك الأهداف البعيدة والكبيرة التي يضعها الإنسان. فالبصيرة والوضوح والمعرفة والعلم واليقين هي التي تجعل الإنسان ثابتًا، مهما كانت التحديات والأخطار.

وفي خطبة أخرى لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يشرح فيها أهمية التقوى وفوائدها وبعض صفات المتقين، يقول: «أوصيكم عباد الله بتقوى الله التي هي الزاد، وبها المعاذ، زاد مبلغ، ومعاذ منجح، دعا إليها أسمع داع، ووعاها خير واع، فأسمع داعيها وفاز واعيها، عباد الله إن تقوى الله حمت أولياء الله محارمه، وألزمت قلوبهم مخافته،

---

١٠٨. نهج البلاغة: الخطبة ٢٣٠.

١٠٩. نهج البلاغة: ١٥٧.

حتى أسهرت لياليهم، وأظمأت هواجرهم، فأخذوا الراحة بالنصب، والري بالظمأ، واستقربوا الأجل فبادروا بالعمل، وكذبوا الأمل فلاحظوا الأجل»[١١٠].

وهنا يشبه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ التقوى بالزاد والوقود الذي يمنح الإنسان القدرة على الحركة، وهي المعاذ والملاذ لمن أراد أن يلوذ بها. فهي زاد مبلغ لمن أراد الوصول إلى الهدف، لا تترك صاحبها في منتصف الطريق، وهي أيضًا معاذ منجح لمن أراد النجاح والحصول على الغايات.

وقد دعا إلى التقوى أسمع داع، وهو الله سبحانه وتعالى. ووعاها وفهمها وأدركها خير واع وفاهم ومدرك من بني البشر. فأسمع الداعي إلى التقوى - وهو أفضل خلق الله النبي الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - كل أُذن، وفاز من وعى التقوى وأدرك أهميتها.

ثم يخاطب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ الناس بصفة العبودية لله قائلًا: يا عباد الله إن تقوى الله منعت أولياء الله من ارتكاب الحرام، وألزمت قلوبهم مخافة الله، وحينما تلازم القلب هذه المخافة ترى الإنسان دائمًا يخاف الله جل جلاله، ويقيه خوفُهُ من الوقوع في الكثير من الزلات، حتى قضوا لياليهم بالسهر، بينما يغط الآخرون في نوم عميق، أو يقضون لياليهم بالسهر بمسامرة الأصدقاء أو متابعة الأفلام والمسلسلات، في حين يقضي المتقون لياليهم بمناجاة الله سبحانه وتعالى والتضرع إليه.

ثم يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ صفة أخرى للمتقين، وهي مداومتهم على الصيام لله عز وجل، ويتحملون الجوع والعطش، بينما يتلذذ الآخرون بأنواع الطعام والشراب، فأخذوا راحة أبدانهم بالنصب والتعب، واستبدلوا الشبع بالجوع والري بالظمأ؛ لأن لديهم هدفًا في طاعة الله تعالى. واستقربوا آجالهم ونهاية أعمارهم وكأنهم سيموتون غدًا، فشمروا عن سواعد الجد، وأوصلوا الليل بالنهار في عبادة ربهم ونيل رضوانه.

وكذبوا طول الأمل بأن الأجل ما زال بعيدًا، وأن هناك فرصة للتوبة واستئناف العمل. وتُعتبر هذه من أهم الكوابح التي تساعد الإنسان في السيطرة على نفسه، وألا يؤثر وجوده بموقع المسؤولية في دينه وآخرته.

---

١١٠. نهج البلاغة: ١١٤.

الآلية الثانية : التعقل

إن التعقل والتدبر والنظرة المعمقة للأمور، يمكن أن تساعد المسؤول ومن يتصدى لقيادة أي حلقة من حلقات المسؤولية على اتخاذ القرار الصحيح وعدم الانجرار إلى الرغبات والميول والهوى، التي يتعرض لها الإنسان حينما يكون في موقع السلطة والنفوذ.

إن العقل أساسًا هو المدخل المهم لاتخاذ المواقف الصائبة لأي إنسان في أي موقع كان، ولكن حينما يكون في موقع المسؤولية، تتجاوز القرارات والتأثيرات مساحاته الشخصية، فمن الممكن أحيانًا أن يكون هناك قرار معين له تداعيات على آلاف أو ملايين من البشر، ومن أجل أن تكون هذه القرارات رصينة وقوية، يجب أن يتدخل العقل والتدبر في إنجاح هذه المهمة وفي الابتعاد عن الانحرافات التي يمكن أن تأخذ المسؤول بعيدًا عن السياقات الصحيحة والالتزامات القيمية المطلوبة والمرجوة.

وقد ورد التأكيد الكبير على موضوع العقل في النصوص الشرعيّة، ونحاول هنا أن نستعرض بعض هذه الروايات التي تشير إلى دور العقل، والفوائد التي يمكن أن يحصل عليها الإنسان حينما يعرض موقفه على عقله، ليتدبره ويفكر فيه ويتأمله ويقلب الأمور ثم يتخذ القرار الذي يُوصف بالعقلانية، ويتحدث بالكلمة التي تتصف بالعقلانية، وحينئذ من الصعب أن يندم عليها الإنسان؛ لأنها في الاتجاه الصحيح.

ورد عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ قوله: «إن العقل عقال من الجهل، والنفس مثل أخبث الدواب»[١١١]، فالعقال هو حالة السور، وبهذه التسمية يسمى هذا التاج الذي يضعه لابسو العقال على رؤوسهم؛ لأنه يسوّر الرأس. إذن فالعقال هو السور والمانع والحصن، والعَقْل من العِقال، ولهذا فإن العقل عقال من الجهل حينما يستخدمه الإنسان ويفكر ويتدبر به في الأمور، وحينئذ يسوّر مواقفه وأقواله وأفعاله وسلوكه من الوقوع في الجهل.

وأما النفس وهي الهوى والميول والرغبات، فقد شبهها رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ بأخبث الدواب، إذ الدواب على نوعين، فهناك دابة أهلية سلسة القياد، وهناك دابة وحشية خبيثة لا يمكن السيطرة عليها، وإن لم تُعقل تهرب وتتيه. وكذلك النفس؛ فإنها تضيع وتتيه إذا لم تُعقل، فالعقل عقال من الجهل، وهذه هي فائدة العقل

١١١. بحار الأنوار ١: ١١٧ ح١١.

للإنسان العاقل، فالإنسان الذي يستعمل العقل في اتخاذ قراراته سوف لا تكون قراراته جاهلة، وسوف لا يتكلم بكلمات تنم عن جهل وتوقعه في مطبات وتحرجه في ما بعد، فيضطر إلى التبرير وإصدار التنويهات وغير ذلك.

وكم من مواقف انفعالية سرعان ما يتراجع عنها الإنسان ويضطر إلى تبريرها؟. وفي زماننا والحمد لله التبرير جاهز، وهو أن يقول: هناك تحريف في التصريحات!، أو يقول: كنت أقصد كذا وأنوي أن أقول كذا، إلى غير ذلك. يا أيها المسؤول لا تتكلم وتطلق التصريحات وتَعِد الناس بقضية، ثم بعد يومين يتبين أنك غير قادر على أدائها، أو أنك غير صادق.

وورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: «العقل يوجب الحذر»[112]، فالإنسان حينما يستخدم عقله يتعامل بحذر وحيطة، ويكون حذرًا في أقواله وأفعاله، لذلك تتصف مواقفه بالصواب في كثير من الحالات.

وورد عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا قوله: «العقل أقوى أساس»[113]، فيقال مثلًا: هذا البناء أساسه «كونكريت مسلح» لا يؤثر فيه تفجير ولا زلزال، وكذلك العقل هو خير أساس وأقوى أساس يمكن أن يعتمده الإنسان فيمضي على بينة من أمره دون أن يتردد، ويكون موقفه عقلانيًا ومنطقيًا.

وفي رواية أخرى عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «للحازم من عقله عن كل دنيئة زاجر»[114]، فالحازم هو المحتاط في عقله، الذي يحتاط في اتخاذ القرارات، ويرجع إلى عقله ويتدبر ويتبصر في الأمور، فيحصن نفسه ويجد في نفسه مناعة من الوقوع في الخطأ وعدم الصواب والانحراف أينما كان، فينزجر عن كل دنية أو خسة بعقله واحتياطه، حينما يتخذ المواقف العقلانية.

وورد عن الإمام المجتبى عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: «اعلموا أن العقل حرز»[115]، والحرز هو الحفظ، أي أن العقل يحفظ الإنسان، والموقف العقلاني يحافظ على كرامة الإنسان وعلى صحة مواقفه، وعلينا أن نتشبث بالعقل والعقلانية في مواقفنا.

١١٢. عيون الحكم والمواعظ: ٢٩.
١١٣. عيون الحكم والمواعظ: ٣٥.
١١٤. عيون الحكم والمواعظ: ٤٠٣.
١١٥. ارشاد القلوب: ١٩٩.

وورد عن علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قوله: «إن أصل العقل العفاف»[١١٦]، وتكون العفة في اللسان والعين والأذن وفي جميع الجوارح. فأصل العقل هو العفة، ومن يتصرف على أساس العقل لا يمكن أن يقع في الحرام والمعصية والرذيلة، وسيجد نفسه أكبر من أن ينساق وراء المواقف المشبوهة والدنيئة التي لا تحفظ كرامة الإنسان وسموه ورفعته.

وفي رواية أخرى عن علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا قوله: «إنما العقل التجنب من الإثم، والنظر في العواقب، والأخذ بالحزم، ومجانبة التبذير وحسن التدبير، والعاقل من رفض الباطل، والعاقل من قمع هواه بعقله»[١١٧].

فالعقل:

أولًا: هو التجنب عن الإثم والمعصية، فالرذيلة شيء مضر، ولا يمكن أن يتخذ الإنسان موقفًا عقلانيًا يسوقه إلى الإضرار بنفسه، فمن يعتمد العقل لا يصدر منه الخطأ ولا المعصية؛ لأنه يحترم نفسه وسلوكه وشخصيته ويعتز بكرامته الإنسانيّة.

ثانيًا: هو النظر في العواقب، فالإنسان حينما لا يستخدم عقله تكون نظرته بسيطة إلى الخطوة التالية، ولكن عندما يستعمل عقله يحسب للأمور حسابها، فمثلًا يقدر أن هذه الكلمة يمكن أن تكون اليوم ليست مضرة، ولكنها قد تكون في الغد مضرة، ويقدر أن هذه الخطوة يمكن ألا تشوّش على الآخرين الآن، ولكن يمكن أن تضر بمصداقيته على الأمد الطويل.

وهكذا فقد أتحدث اليوم بكلمة أو أسير باتجاه معاكس أو أغير التزاماتي بشكل مستمر لأحصل على مصلحة آنية هنا أو هناك، ولكن على الأمد الطويل ستنتهي المصداقية، وسيقال إن هذا ليس عند كلمته والتزاماته، في حين أن من أهم القيم الإسلاميّة هو الالتزام بالعهود والمواثيق، فالدين المعاملة، وهو ليس مجرد طقوس والتزامات فقهية من الصلاة والصيام فقط، بل إن المعاملة هي جوهر الدين وحقيقته، أي كيف نتعامل مع الآخر؟، وكيف يمكن للآخر أن يفتح ألف حساب على كلمة تطلقها أو وعد تَعِد به؟ وما إلى ذلك.

إذن، العقل هو النظر في العواقب، والإنسان العاقل هو الذي ينظر إلى المضاعفات والتداعيات والنتائج المترتبة على كلمة يقولها أو فعل يأتي به أو موقف يتخذه.

١١٦. بحار الأنوار ٧٥: ٧ح٥٩.
١١٧. غرر الحكم ٣: ٨٤.

ثالثًا: هو الأخذ بالحزم، والحزم هو الاحتياط. فالعاقل هو الذي يحتاط في مواقفه وفي سلوكه، أينما كان وحيثما كان.

رابعًا: هو مجانبة التبذير وحسن التدبير، فمن العقل أن يحسن الإنسان تدبير أموره حتى إذا كانت إمكانياته بسيطة، فيخطط لحياته، كيف ينفق؟، وكيف يتعامل؟، وكيف يعيش؟، ويميز الضروري عن غير الضروري، إلى أن تتحول هذه الحالة إلى تربية في وجوده، فيعيش حياته في وقار وعزة وكرامة، ويمكن أن يكون له فائض فيدخره، وكل هذا من العقل وحسن التدبير.

إن استحضار العقل في السلوك والأداء والمواقف العقلانية يترك آثاره في كل مساحات الحياة، كما نجد ذلك جليًا في هذه الروايات، وقد انتقينا بعض هذه النصوص التي تشير إلى مساحات متعددة في كل هذه المجالات الأخلاقية والعلمية والعمليّة والاقتصاديّة والأمنية والسياسيّة، ففي كل هذه المجالات يمكن أن يترك الموقف العقلاني آثاره في حياة الإنسان ويحفزه على اتخاذ القرارات الصائبة التي تحقق له النجاح ولا تسبب المزيد من الإحراجات.

والعاقل هو من رفض الباطل؛ لأن العاقل لا يستطيع أن ينسجم مع الباطل؛ لأنه خلاف الحق، وما هو خلاف الحق لا ينسجم مع الضوابط والأسس، فالإنسان حينما يعتمد على عقله يسير على الطريق الصحيح؛ لأن العقل يرشده إلى هذا الطريق وإلى الصراط المستقيم، لذلك فإن العاقل لا يقبل الخطأ، فهو يظهر مهما تم تدليسه، فالماء الآسن المتعفن تظهر على سطحه طبقة من الخضرة أحيانًا، ومهما كانت صورة هذه الخضرة جميلة، ولكنها غير قادرة على أن تغطي على رائحة الماء النتن وسماته، فالعاقل يكره الباطل والتعامل غير الصائب.

والعاقل هو من قمع هواه بعقله، فمن خلال الرجوع إلى العقل يسيطر الإنسان على الهوى، وتمتنع النفس من أن تنزلق وراء الشبهات والمواقف التي تسيء إليه.

وقد وردت نصوص كثيرة في هذا المجال، وهذا مدخل آخر من مداخل شحّ النفس.

الآلية الثالثة: عدم مداهنة النفس

إن أخطر شيء على المسؤول، هو حينما يعتبر نفسه استثناء عن الآخرين، فما هو ممنوع على المواطن جائز للمسؤول، فهو يسمح لنفسه بأن يتجاوز المحظور

ويعتدي على القانون ويضع سياقات لنفسه، ويرتضي لها تجاوز أمور لا يرتضيها للآخرين، وحينئذ يبدأ عملية المداهنة للنفس وعملية المساومة معها، ومن هنا يبدأ الانحراف ويبدأ الخطر العظيم والفادح الذي يمكن أن يصيب الإنسان، فمن لا يكون عادلًا مع نفسه، كيف يكون عادلًا مع الآخرين؟!، ومن لا يلتزم بالضوابط والأطر والقواعد والسياقات الصحيحة، كيف له أن يقنن هذه الضوابط للمجتمع؟!.

ويتحدث الجميع اليوم عن ثقافات أو ظواهر اجتماعية لا تلتزم بالقانون، وغالبًا ما يتساءلون لماذا لا نملك ثقافة الالتزام بالقانون المروري وحركة السير؟، ولماذا هناك ظاهرة عدم إنجاز مهام المواطنين من قبل الموظفين والمتصدين؟، ولماذا كذا وكذا... وقد يقول البعض: إن الموظفين هم المسؤولون عن هذه المشكلة والمواطن هو المسؤول عن زحام السير. ولكن هل سمعتم من يقول إن من يتصدى لإدارة هذه الشؤون هو المسؤول الأول؛ لأنه لم يطبق ذلك في سلوكه اليومي، وفي اليوم الذي تحترم فيه مواكب المسؤولين قوانين المرور ولا تقطع الشوارع ولا تمشي في الاتجاه المعاكس، فحينئذ نتوقع من المواطن أن يلتزم بهذه الضوابط.

ولكن المواطن حينما يرى المسؤولين يضربون هذه الضوابط عرض الحائط، لا يجد نفسه ملزمًا بالالتزام بها، فالمشكلة تبدأ من هنا، وهذه من أولويات الثقافة الإسلاميّة في الدور القيادي، ومن له موقع المسؤولية عليه أن يكون أول من يلتزم ويطبق ثم يتوقع من الآخرين الالتزام بهذه الضوابط والقوانين.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في كلام له من خطبة طويلة: «ولا ترخصوا لأنفسكم فتذهب بكم الرخص مذاهب الظلمة، ولا تداهنوا فيهجم بكم الإدهان على المعصية»[١١٨].

يطلب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ من الناس ألا يتساهلوا مع أنفسهم ولا يتركوا النفس تفعل ما تريد، فإنهم إن فعلوا ذلك ذهبت بهم الرخص مذاهب الظلمة، حتى يظلموا الناس فيكونوا من الظالمين من حيث لا يشعرون، فمن لا يكون عادلًا فهو ظالم، وليس هناك حد وسط، فأما أن تسير ضمن الضوابط فتكون عادلًا، أو تخرق الضوابط فتكون ظالمًا لنفسك وظالمًا للآخرين. إذن في منهج علي عَلَيْهِ السَّلَامُ من يرخص لنفسه ويعتبرها استثناء يدخلها في قائمة الظالمين وسيعين على نفسه.

١١٨. نهج البلاغة: الخطبة ٨٦.

ثم يطلب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ من الناس عدم المداهنة وإظهار خلاف الواقع وخلاف ما يعتقدون. والمداهنة هي التغطية على الحقيقة كما في الدهن الذي يستعمله الإنسان فيستر به البشرة ويغطيها. وعلة التحذير من المداهنة هي أنها تفتح الباب أمام الإنسان للهجوم على المعصية، فبمجرد أن يبدأ بالمداهنة ينزلق في طريق المعاصي.

وتسمى المداهنة في مصطلحاتنا اليوم التبرير، كما نلاحظ ذلك عندما يرتكب أحدهم مخالفة قانونية فسرعان ما تأتي التبريرات من هذا وذاك ليغطي على الحقيقة، ولكن هذه التغطية لا تزيد إلا في الدفع باتجاه المعصية بشكل أكبر بحالة هجومية. إذن فعملية التدليس والتبرير تدفع الإنسان نحو المعصية والابتعاد عن السياقات الصحيحة.

المقطع الرابع

العلاقة بين المسؤول والمسؤول عنهم

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ ، وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ : إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ ، أو نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ ، يُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَأ ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ ، وَ وَالِي الأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ ، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ! وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ ، وَابْتَلاَكَ بِهِمْ» .

نبدأ مفصلًا جديدًا من مفاصل هذا العهد، والوثيقة التأريخية المهمة التي يستعرض فيها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ توجيهاته بخصوص العلاقة بين الحاكم والمحكوم، بين المسؤول والرعية، بين المسؤول والمسؤول عنهم، في المستويات المختلفة في هذه المنظومات القياديّة.

الدرس الثاني عشر

الأصل العام في العلاقة بين المسؤول والمسؤول عنهم

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ،».

يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه العبارة القصيرة إلى الأساس الذي تعتمد عليه المنظومة القياديّة في الفهم الإسلامي في الإدارة والقيادة، وهو الرحمة والشفقة واللين وزرع الثقة بين المسؤول المتصدي والناس الذين يكونون تحت هذه المسؤولية.

ولا ينبغي أن تكون هذه العلاقة علاقة تشفّ وانتقام واعتداء وسلطة ونفوذ وقمع وفرض للإرادات، وإنما يجب أن تكون علاقة مودة ومحبة وثقة وفهم متبادل بين المسؤول ومن يقع تحت دائرة مسؤوليته، وهذا هو الأصل العام.

إذن، الأساس في المنظومة القياديّة من وجهة نظر الإسلام هي حالة المودة والمحبة والشفقة والرعاية واللطف في هذه العلاقة، وهنا لا بُدَّ من التركيز على مجموعة من الإضاءات في فهم هذا المبدأ المهم من مبادئ النظرية الإسلاميّة:

الإضاءة الأولى

موقع الرحمة في المنظومة القياديّة للإدارة والحكم

إذا أردنا أن نتحدث عن إدارة صالحة، وإذا أردنا أن نتحدث عن حكم عادل، فلا بُدَّ لنا من أن نقف عند طبيعة التعامل الذي ينبغي أن يتعامل به المسؤول مع الآخرين حينما يتصدى للمسؤولية. إن الأساس في تنظيم هذه العلاقة هو الرحمة والشفقة.

وعندما يتحدث القرآن الكريم عن المنظومة القياديّة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، يؤكد على هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[١١٩]، أي يارسول الله هذه رحمة من الله أن جعلك لينًا في التعامل مع الناس، فأنت النبي وأنت المسؤول وأنت القائد، كنت لين العريكة وكنت حسن التعامل مع الناس، وهذا اللين هو الذي حقق هذا النجاح، وجعل الناس يلتفون من حولك، وجعل الجمهور يؤمن بك ويقاتل تحت رايتك، ويدافع ويذب عن الإسلام الذي رفعت شعاره.

ولو كنت فظًا غليظ القلب تتعامل بشدة وقسوة لانفض الناس من حولك، فإن حقانية المشروع لا تكفي في استجابة الناس لك، وحتى لو كنت أنت رسول الله بصدقيتك وحقانيتك وحقانية مشروعك، لكن هذا أيضًا لا يكفي في اجتماع الناس حولك.

إذن، هذا أصل مهم في عملية الإدارة والقيادة، فالمشروع يجب أن يكون حقًا، والحاكم والمتصدي والمسؤول والقائد يجب أن يكون عادلًا، ولكن العدالة والمساواة والمنهج الصحيح لا تكفي في الإدارة، بل نحتاج بالاضافة إلى ذلك كله إلى اللين والرحمة والشفقة، كما أشارت إلى ذلك الآية الشريفة: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[١٢٠].

فقد حث الله تبارك وتعالى رسوله الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ على أن يشرك المسلمين ويحمّلهم المسؤولية في اتخاذ القرار، وألا ينفرد في اتخاذ القرار وإن كان هو رسول الله والعالِم بكل الأمور بفضل من الله سبحانه وتعالى، ثم أمره بالتوكل على الله والإقدام بعد استقرار عزمه ليشعر الجميع أنه يتحمل المسؤولية في أداء الواجب.

---

١١٩. سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

١٢٠. سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

إن المهم في هذا الأساس وهذا المبدأ في القيادة والإدارة هو الرحمة والشفقة والمحبة واللين، ويجب ألا تكون هذه المحبة ظاهرية وشكلية وتَصنعية ونظرية، بل يجب أن تكون حقيقية وعملية، وعلى الزعيم أو القائد أو المسؤول أن يستشعر في قلبه المحبة لمواطنيه، وألا تكون مجرد كلمات وشعارات وليس في قلبه شيء من الحب، ولا في سلوكه أثر للتمظهر بهذه المودة.

الحب الحقيقي والحب الشكلي

وحينما نقول إن المودة والمحبة أساس النجاح، وسر النجاح في المنظومة القياديّة، فلا نقصد التصنع أو التظاهر بهذه المحبة، وإنما نقصد أن يعيش الإنسان هذه المحبة في وجوده، وأن يعبّر عنها في سلوكه وفي مواقفه تجاه الآخرين.

وهذه ليست قضية فلسفية أو قاعدة عقلية نريد أن نناقشها في دهاليز الجامعات والأروقة العلمية، وهي ليست قضية معقدة نضعها على طاولة التشريح لدى النخب والمفكرين والعلماء، بل هي قضية وجدانية يجب أن يستشعرها المسؤول في نفسه، فلا يقول أنا أحبكم كثيرًا، ولكن الناس لا ترى في سلوكه وفي أدائه وفي مواقفه وفي قراراته ما يُنبئ عن هذا الحب، فهذه المحبة أو المودة ليست ادّعاء وليست تعابير وكلمات، بل هي شعور ووجدان وإحساس.

ولا بُـدَّ للمتصدي من أن يعيش هذه الحالة، وأن يكون قادرًا على التعبير الصادق عن هذه الأحاسيس الصادقة، ففي بعض الحالات يظهر المتصدي المودة والمحبة ولكن ليس على خلفيات واقعية، وإنما تندرج هذه القضية ضمن الانتهازية السياسيّة كما يُعبَّر عنها، فيتصرف بعض التصرفات وينطق ببعض الكلمات أمام الكاميرا من أجل أغراض دعائية، وقد تتحول أحيانًا إلى مسرحية.

وأذكر أيام المهجر، أن منظمة عالمية دولية غربية جاءت لزيارة أحد مخيمات اللاجئين العراقيين، وبعد ذلك أخبرني أحد الحاضرين أن هؤلاء ـ وكان بعضهم نوابًا في برلمانات دول غربية ـ جاؤوا بمساعدات ومعهم كاميرات ومصورون، إذ يدخلون على أسرة فقيرة، ويعطونها هدية، ثم يصرخ أحدهم اقطع التصوير فالإنارة غير جيدة، ويأخذون الهدية من هذا المسكين ويخرجون ليعيدوا تصوير اللقطة من جديد.

فهذه ليست محبة، ولذلك تجدون أن مثل هذه المواقف المتصنعة لا تترك أثرًا في النفوس. وما أكثر من يتظاهر ويتصنع التودد إلى الناس، ولكن جوهره وحقيقته خاليان

من هذه المودة والمحبة ولا يحمل في ضميره وفي وجدانه ومشاعره الحب للناس، لذلك تصبح كل هذه المواقف عبثية لا أثر لها كما يتمناها أولئك.

ونجد في بعض البلدان، عندما تحدث أزمة أو مشكلة، ينزل أناس إلى الشارع يحيون الناس ويسألونهم عن مشكلتهم ويطلبون منهم الدخول إلى المطعم لتناول شيء من الطعام والشراب، ويطلبون من فلان الذهاب إلى فلان لبحث المشكلة، خوفًا من خروج مسيرة وتطور المشكلة وحدوث احتقان.

وهذا كله تطييب للخواطر وإظهار للمحبة من أجل التنفيس والانتهازية وليس فيه محبة حقيقية. ونرى اليوم على شاشات التلفزيون في بعض الدول، أن المسؤولين يختلطون مع الناس في الشوارع ويتحدثون معهم. فأين كانوا طيلة السنوات الماضية؟! وماذا حدث حتى تذكرتم الناس الآن؟!.

إذن، النظرية الإسلاميّة لا تقصد الحالة الشكلية أو الانتهازية في المحبة، وإنما تطلب النية الصادقة التي تسعى لإيجاد علاقة متجذرة وعلاقة ثقة حقيقية بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم.

حب النفس وحب الآخرين

من يريد أن يحب الآخرين، فلا بُدَّ من أن يسأل نفسه أولًا؛ هل يحب نفسه؟، فالذي لا يحب نفسه، كيف يمكنه أن يحب الآخرين؟!. قد يقال إن مشكلتنا أن هؤلاء يحبون أنفسهم كثيرًا، ومن يحب نفسه نرى فيه الأنانية والانشغال بالذات إلى أعلى مستوى، ونقول هذا هو الخطأ؛ فهناك فرق كبير بين حب الذات وحماية الذات والحفاظ عليها.

فالأناني يخاف على كرسيه وعلى سمعته ووجاهته وامتيازاته، فيتعامل بأنانية من أجل الوصول إلى هذه الامتيازات والحفاظ عليها، والحفاظ على حياته خوفًا من الاغتيال، والحفاظ على سمعته من أجل أن يبقى ويواصل عملية الاستثمار والاستغلال للإمكانات المتاحة. وحب الذات هذا ينجم من معرفة الإنسان لذاته ونفسه حتى يحبها، فمن يريد لنفسه الكمال ويريد أن يتطور ويصل إلى الله سبحانه وتعالى، فعليه أن يعرف قيمة نفسه أولًا، وحينئذ ستتولد لديه الإرادة في الترقي والصعود والتكامل.

ومن عرف نفسه فإنه سيريد لها الخلود والرفعة، لا في المواقع والامتيازات والفرص الدنيوية الزائلة، بل سوف يحب الآخرين ويتعامل معهم من منطلق أن الكمال لا يحصل إلا من خلال هذا التواصل مع الآخرين.

فعلى الإنسان أن يعرف نفسه، حتى تنبثق لديه الإرادة للكمال، فهذا الذي يضع الإنسان في طريق صاعد نحو الله سبحانه وتعالى وفي علاقات متزايدة مع الآخرين. ولذلك على الإنسان أن يعرف نفسه حتى يحبها، فإذا أحبها أحب الآخرين أيضًا. وهذه هي القاعدة.

فإذا أحب الإنسان نفسه لا يقبل لها أن تكون أنانية، ولا يقبل لها أن تكون فئوية، ولا يمكن أن تحظى بامتيازات تغيب عن الآخرين. إذن هناك فرق كبير بين صيانة الذات وحمايتها، وحب الذات الذي قد يكون ناتجًا عن الأنانيات، وحب الذات الحقيقي هو حب إلهي، وحب الذات لا يكون إلا بحب الآخرين، وهذه هي خريطة الطريق. على الإنسان أن يعرف نفسه لكي يعرف قيمته ويحبها، ولكي يحب الآخرين حينما يتعرف على منزلته.

أهمية تودد المسؤول للناس

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قلوب الرجال وحشية، فمن تألّفها أقبلت عليه»[121]، أي أن قلوب الرجال تنفر من الآخرين، فمن أوجد الألفة معها وتحبب إليها وتقرب لها واهتم بهذه القلوب ورعايتها أقبلت عليه. فهذه القلوب التي كانت نافرة ومتوجسة وخائفة تصبح مقبلة ومندفعة وقريبة بالتودد والتحبب. لذلك ينبغي على المتصدي أن يبالغ في الألفة مع الناس لتتقرب القلوب نحوه.

وحينما تحصل علاقة المودة والمحبة يصبح الالتزام بالقانون أمرًا سهلًا، وتتدافع الناس للالتزام بالضوابط. ونحن نرى بعض الموظفين مواظبين ومثابرين، وعندما يقال لهم انتهى الدوام يقولون هذا وطننا وهذا عملنا، وقد يكون هؤلاء في دائرة حكومية، أو في دائرة أهلية.

وربما يقال إن هؤلاء عددهم قليل، فنقول: لأن المنظومة لا تسير بشكل صحيح؛ لأن المودة والمحبة وتحميل الآخرين المسؤولية وإشعارهم بالمسؤولية والتشاور معهم، كل ذلك غير موجود، ونحن نعلم أن هناك بعض الوزراء يمر الشهر والشهران ولا يجتمع مع وكيله ومع المدير العام في وزارته، بذريعة أنه مشغول ووظيفته التوقيع على البريد ثم يذهب.

١٢١. نهج البلاغة: الحكمة ٥٠.

وقد سمعت شخصيًا من وكلاء بعض الوزراء، بأنه يمر الشهر أو الشهران وهو لا يستطيع أن يرى الوزير، وكلما طلب موعدًا للقائه يقول إنه مشغول. وإذا كان مثل هذا الوزير لا يرى وكلاءه ومدراءه فمتى ستُحل مشاكل الوزارة؟! وبأي شيء هو مشغول؟، ألا يجب أن يكون مشغولًا بهموم الناس؟.

فإذن، عندنا مشكلة في هذا المجال، فإذا وجدت هذه القناعة وشعر العاملون في منظومة معينة أنهم مندفعون ومؤمنون بهذه المنظومة القياديّة، وبهذا العمل الجماعي، فإنهم سيعطون كل ما في وجودهم من أجل إنجاح هذا العمل، وسيعملون ليلًا ونهارًا من غير أن تكون أعينهم على الراتب أو على الساعة، وسوف لا يهتمون إلا بالعمل الذي يريدون إنجازه وتحقيقه، وهم يشعرون بالسرور عندما ينجزون هذا العمل.

أهمية التودد في نجاح العمل

إذن، المحبة والمودة توجدان أجواء ومناخات وسياقات مختلفة في العمل، وحينئذ لا يحتاج إلى أن تضع له كاميرا للمراقبة، ولا يحتاج إلى أن تضع له جهازا لتسجيل دخوله وخروجه، فهو يعمل ويتجاوز الزمان والمكان والرواتب والحقوق لإنجاز المهمة المناطة به.

لذلك يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «التودد نصف العقل»[١٢٢]، إذا كان تودد المسؤول إلى مرؤوسيه نصف العقل، فهذا يعني أنه حقق نسبة نجاح مقدارها (٥٠٪)، ويبقى عليه أن يخطط ويضع برامج لإنجاز الأعمال لتحقيق نسبة نجاح (٥٠٪). فإذن نصف النجاح مشاعر وعواطف ومحبة وألفة واندفاع وقناعة وإيمان بذلك العمل، والنصف الآخر خطط وبرامج لكي تحقق نسبة (١٠٠٪) من النجاح.

إن الكثير من الإمكانات هي ضريبة كبيرة ندفعها لكي يسير القانون، ولكي يلتزم الناس به، لأننا ننظر إلى هذه العمليّة نظرة جوفاء بعيدة عن الأحاسيس والمشاعر والقناعة ورغبة الناس.

نحن نرى في كل بلد، أن هناك ناطقًا رسميًا باسم الحكومة، ينطق بالقرارات والاجراءات التي تتخذها الحكومة، وكذلك هناك جريدة الوقائع العراقية، تقوم بالإعلان عن القوانين الصادرة عن مجلس البرلمان والمصادق عليها من قبل رئاسة الجمهورية. ولكن لم نر شخصًا يخرج ويشرح للناس هذه القرارات والإجراءات

---

١٢٢. نهج البلاغة: الحكمة ١٤٢.

وخلفيتها والأسباب الموجبة لتشريعها والأخطار الناجمة عن عدم الأخذ بها والمصالح المرتقبة منها للمواطنين.

فيجب أن يفهم المواطن أن في الالتزام بهذه القوانين أمنه واستقراره وازدهاره وعمران بلده وحل مشاكله، لكي يؤمن به ويمضي في تطبيقه عن قناعة. ولكننا تركنا هذا الشيء، لذلك ندفع ضريبة كبيرة لوجود مساحة كبيرة من خرق القانون، في حين أنه كلما كان اهتمامنا بمشاعر وأحاسيس الناس وقناعتهم أكبر، وجدنا الأمور تسير بكلفة أقل ونتائج أفضل.

ونرى اليوم في الوسائل الحديثة للإدارة والقيادة في الغرب، أنهم يضعون تصورات وينظرون إلى كل قضية نظرة مادية، فيرفعون الرواتب مثلًا بالطريقة الفلانية، ويصعدون من التنافس بين الشركات بهذا النحو، وتوضع قوانين صارمة بهذا الشكل لتحقيق نتائج أفضل.

ولكنهم اليوم رجعوا وقالوا يوجد شيء ناقص لم نضعه في الحساب، وهو العلاقات الإنسانيّة بين العاملين، فالشركة التي تريد النجاح تعقد اجتماعات يسمونها كسر الجمود، حيث يجمعون مسؤولي الأقسام ويتباحثون معهم عن كيفية تطوير العمل، والاجراءات المناسبة لذلك، والتعرف على الأخطاء والمشاكل التي تعيق عملية التطوير.

وتفيد التجارب بأن مثل هذا الاجتماعات تقوي العلاقة الإنسانيّة بين العاملين، ولها تأثير كبير في إحداث طفرة في العمل وانطلاقه. إذن، حتى في النظرة الغربية، التي هي في العادة نظرة مصلحية للأمور، أصبحوا يدركون أيضًا أن المصلحة في الاهتمام بالمشاعر والأحاسيس.

وقد ورد التأكيد على هذه الفكرة في كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «من تألّف الناس أحبوه»[١٢٣]، أي كلما تودد الإنسان إلى الناس، كان قريبًا منهم وأحبوه، وأن أكثر الناس لا يحبون أن يتعاملوا مع شخص عبر وسائل الإعلام، فالناس تريد أن ترى المسؤول مباشرة أمامها.

وقد يعتذر المسؤول عن ذلك بوجود مشاكل أمنية، أو أنه مشغول بهموم العباد والبلاد. ولكن يمكن تجاوز هذه الصعوبات بتوفير الأجواء الآمنة للقاء الناس وتقليص ساعات الاجتماعات وتخصيصها للجلوس مع الناس والتعامل معهم وحل مشاكلهم، وحينئذ سيرى المسؤول كيف ستحل مشاكله بسرعة أكبر وبإمكاناتٍ أقل.

---

١٢٣. غرر الحكم ٢: ١٦١.

الإضاءة الثانية

عناصر البعد الإنساني بين الحاكم والمحكوم

إن هناك عناصر ثلاثة لا بُدَّ من الالتفات إليها عندما نتحدث عن علاقة على أساس البعد الإنساني بين الجانبين، ومادامت العلاقة إنسانيّة فلا بُدَّ من مراعاة ثلاث قضايا ورد ذكرها في هذه العبارة القصيرة، وهي: المحبة والرحمة واللطف. فماذا تعني كل من هذه المفردات؟ وما الترابط بين هذه المفردات بعضها مع البعض الآخر؟.

الأساس الأول: الرحمة

الرحمة في اللغة هي حالة الرقة التي تدفع الإنسان إلى الإحسان للآخر. والرحمة من الله تبارك وتعالى للإنسان هي الإحسان المجرد عن الرقة، ولكن الرحمة من الإنسان للإنسان هي رقة في القلب تدفع الإنسان لكي يكون محسنًا لذلك الشخص الآخر.

الأساس الثاني: المحبة

المحبة هي رغبة شديدة نحو شيء نراه خيرًا لنا، فالإنسان لا يحب شيئًا لا يرى فيه خيرًا له. وليعلم المسؤول أن هؤلاء الناس فيهم خير في موقع المسؤولية، ويجب أن توجد لديه رغبة شديدة في التواصل مع هؤلاء الناس، وهذه الرغبة لا تحصل إلا إذا أيقنت أن خيرك في التواصل معهم والرغبة إليهم.

الأساس الثالث: اللطف

اللطف هو الرفق، أي أن هناك حالة تراتبية، إذ لا بُدَّ من وجود رحمة حتى تحصل المحبة، ولا بُدَّ من وجود محبة حتى يحصل اللطف.

ويجب على المسؤول أن يتحلى بهذه المراتب الثلاث (الرحمة والمحبة واللطف) في تعامله مع الناس إذا أراد أن يسير على هذا النهج. وهذه هي المدرسة الإسلاميّة في القيادة والإدارة التي توجب أن تكون العلاقة بين المسؤول والمسؤول عنهم على أسس إنسانية، وليست مجرد واجبات والتزامات وضوابط وقوانين كما هي علاقة العسكر.

وهذا لا يمنع من وجود ضوابط وحقوق، فالحاكم له حقوق، والرعية لها حقوق، وهناك التزامات متبادلة. وكل هذا أمر صحيح، ولكن يبقى الأساس هو البعد الإنساني في هذه العلاقة.

الإضاءة الثالثة

معيار تطبيق المسؤول للنظرية الإسلاميّة

ما المعيار والمقياس لأن يكون هذا الحاكم والمتصدي والمسؤول مطبقًا لهذه النظرية الإسلاميّة أو غير مطبق لها؟، وهل علاقته مع المسؤول عنهم قائمة على أساس البعد الإنساني أو لا؟ وما الذي يشير إلى وجود هذا المعيار والمقياس؟.

يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «أشعِرْ قَلبَكَ الرَّحمَةَ للرَّعيّة»، والشعور إحساس باطني، وهو حالة متقدمة على ما يظهره الإنسان. أيها المسؤول، أيها المتصدي، حينما تكون خلف الأبواب المغلقة لايسمعك ولا يراك أحد، هل يوجد لديك شعور وإحساس بالمحبة لأناسك وشعبك أو لا؟، وهل توجد في قلبك رقة ولطف تجاههم؟.

الخطوة الأولى شعور باطني، والخطوة الثانية إبراز هذا الشعور، والخطوة الثالثة الثبات والإصرار عليه. فإذا لم يكن هناك ثبات فإن الظهور كان مجرد رياء، وكان التعبير عن المحبة غير صحيح، وإذا كان التعبير غير صحيح، فهذا يعني أنه لا يوجد شعور أصلًا.

إذن، المعيار والمقياس هو ثلاث خطوات:

الخطوة الأولى: وهي الأساس، وتترتب عليه الثانية والثالثة بشكل طبيعي، وهو الشعور الباطني، وقد عبر عنه أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: «أشعر قلبك..».

والخطوة الثانية: إبراز هذا الشعور بكلمات رقيقة. تتذكرون عندما كان شهيد المحراب يقول: أتمنى أن أنزل وأُقبّل أيادي هؤلاء الناس ـ الملايين التي استقبلته ـ واحدًا واحدًا، كبارًا وصغارًا حتى الأطفال. لقد كان هذا شعورًا حقيقيًا، وكان هناك إبراز لهذا الشعور، وكان يبكي، ولم يكن في هذا الشعور تصنّع، وكان شعورًا لا يستطيع السيطرة عليه.

والخطوة الثالثة: الثبات والإصرار على هذا الشعور، وهو لا يتغير بتغير المصالح والظروف.

الإضاءة الرابعة

التشديد على المنهج المخالف والمعاكس

إن التشديد على الرحمة والشفقة واللطف، يقابله بنفس المقدار التحذير من الشدة والقسوة والغلظة والاعتداء على الناس، وقد تجسد ذلك بقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا». وهنا يشبه أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المسؤول، حينما لا يكون تعامله على أساس الرفق والرحمة، بالحيوان المفترس الذي يبطش ويفتك بفريسته.

يا أيها الحاكم والمسؤول لا تعتد على أناسك؛ لأن هذا الاعتداء يجعلك بمثابة ذلك الحيوان المفترس الذي يأكل فريسته ويرى أن ذلك غنيمة. وهذا هو المنهج الإسلامي في هذه المسألة.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مقطع من إحدى خطبه واصفًا المجتمع حينما يقع في الانحراف: «أين تذهب بكم المذاهب؟ (أي أين تأخذكم العقائد الباطلة والأفكار الضالة؟)، وتتيه بكم الغياهب (يعني الظلمات؛ لأن الإنسان عندما يشذ عن الطريق وعن الحق يذهب إلى الظلمات)، وتخدعكم الكواذب (أي الإدعاءات الفارغة والكاذبة)، ومن أين تؤتَون (أي من أين ترون الضلال)، وأنى تؤفكون (أي ومتى ترجعون إلى الحق الذي فارقتموه)، فلكل أجل كتاب، ولكل غيبة إياب (أي لكل أجل نهاية ونتيجة، ولكل غيبة رجعة وعودة، فهذه السنن تعود، ولن تجد لسنة الله تبديلًا ولن تجد لسنة الله تحويلًا، فالسنن الإلهيّة تتحكم في مجرى التاريخ).

فاستمعوا من ربانيكم (أي من عرفائكم)، يقول أنا أمير المؤمنين بين أيديكم فاستمعوا إلى كلامي، أنا العارف بالله، أنا الذي لا أبحث عن موقع أو عن مصلحة شخصية ولا أغضب إلا للحق)، وأحضروه قلوبكم واستيقظوا إن هتف بكم (انتبهوا ياناس من غفلتكم حينما يتحدث إليكم علي)، وليصدق رائد أهله (الرائد الذي يتقدم القوم، ومادام أنا علي بن أبي طالب حامل الراية فلا أقول إلا الصدق والحق)، وليجمع شمله (لا تذهبوا للسراب)، وليحضر ذهنه (ركز بالك معي أريد أن أتحدث بكلام مهم)، فلقد فلق لكم الأمر فلق الخرزة (أنا علي أوضح وأشرح لكم الأمور وحقائقها كما تنفلق الجوزة فيتبين ما بداخلها)، وقرفه قرف الصمغة (الشجرة عندما تقشر ويخرج الصمغ من جوانبها وتحتها، أي لا تأخذكم المظاهر).

فعند ذلك (عندما لا تسمعون، ولا تأخذون النصح والكلام، وتمشون في الظلام، وتأخذون العقائد الضالة، وعندما تغلبون مصالحكم الخاصة على المصالح العامة)، أخذ الباطل مأخذه (عند ذلك يأخذ الباطل مأخذه فيكم ويتغلب عليكم) وركب الجهل مراكبه (سوف يشيع الجهل، ولا يستمع أحد للمعلومة الصحيحة، ولا أحد يسأل عن الإعلام العلمي، وسيُغلب هذا المنطق)، وعظمت الطاغية، وقلت الداعية (يكثر الطغيان، وتقل الدعوة إلى الحق وتضعف في تلك المجتمعات).

وصال الدهر صيال السبع العقور (العقور: المفترس)، وهدر فنيق الباطل بعد كظوم (الفنيق فحل الإبل، أي يعلو صوت فحول الظلمة ويكثر بعد سكوت وغياب) وتواخى الناس على الفجور (التواخي هو التقارب، أي يتقاربون على المنكر والباطل)، وتهاجروا على الدين (يصبح الدين مفرقًا والفسوق مقربًا)، وتحابوا على الكذب، وتباغضوا على الصدق (الصادق والواضح والصريح الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، فإذا أصبح المجتمع بهذه الصورة)، كان الولد غيظًا (يصبح الولد عاقًا لوالديه)، والمطر قيظًا (ويجلب المطر الحر بعد أن كان يقضي على الحر)، وتفيض اللئام فيضًا، وتغيض الكرام غيضًا (الكرام يغيضون ويجفون مثلما تجف العيون)».

«وكان أهل ذلك الزمان ذئابًا، وسلاطينه سباعًا، وأوساطه أُكالًا، وفقراؤه أمواتًا، وغار الصدق، وفاض الكذب، واستعملت المودة باللسان، وتشاجر الناس بالقلوب، وصار الفسوق نسبًا، والعفاف عجبًا، ولُبس الإسلام لبس الفرو مقلوبًا»[١٢٤]. هذه هي الصورة التي يقدمها أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ للمجتمع عندما ينحرف، وهذه هي الآثار الوضعية التي تترتب على هذا الانحراف.

وقوله عَلَيهِ السَّلَامُ في خطبة أخرى: «إن البهائم همها بطونها، وإن السباع همها العدوان على غيرها»[١٢٥].

١٢٤. نهج البلاغة: الخطبة ١٠٩.

١٢٥. نهج البلاغة: ١٥٣.

الدرس الثالث عشر

أثر الخلفية الفكرية في تقييم الآخرين

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر: «فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، أو نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ».

بعد أن تحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ عن موضوع الرحمة والشفقة واللين تجاه الرعية وتجاه من يتحمل مسؤوليتهم، وذكر أن العلاقة الإنسانيّة هي الأساس في العلاقة بين المسؤول والمسؤول عنهم، يتطرق أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ هنا إلى أن هؤلاء الذين يتحمل المسؤولية تجاههم صنفان: إما أخ له في الدين أو نظير له في الخلق.

ماذا يقصد أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ من هذه المقولة؟، كأنه عَلَيْهِ‌السَّلَامُ يريد أن يقول أيها الإنسان إن السلوك والأداء والموقف تجاه الآخرين تخضع لخلفية الرؤية والتقييم الذي يحمله الإنسان تجاه الآخر.

فلو استذكر كل منا الآن سلوكه ومواقفه داخل البيت والأسرة، سواء مع الطفل الصغير أو مع الأولاد الكبار أو مع الزوجة، فإن له سلوكًا خاصًا مع كل واحد منهم، وله سلوك آخر خارج البيت مع الصديق والزميل في العمل والمسؤول في العمل ومن هو دونه في المسؤولية ومع الناس المجاورين ومع شيخ العشيرة إلى غير ذلك من العناوين التي يمكن أن نطرحها، إذا سأل كلٌ منا نفسه؛ هل يتعامل مع كل هذه العناوين تعاملًا واحدًا؟، بالتأكيد سيكون الجواب كلا، فالتعامل مختلف.

لماذا يختلف التعامل بين شخص وآخر؟، الجواب: إنه يرتبط بطريقة وطبيعة رؤيتنا ونظرتنا لهذا الشخص، فإذا كان هذا الشخص ابنًا يتعامل معه من موقع الأب والابن، وهناك استحقاقات معينة والتزامات خاصة في التعامل مع الصديق، وإذا كان شيخًا كبيرًا أو شيخ عشيرة أو مسؤولًا كبيرًا في مكان ما أو وجيهًا فتوجد استحقاقات أخرى.. وهكذا.

وهذه الرؤية، هل هذا صديق أو عدو؟ هل هذا قريب أو بعيد؟ ما طبيعة هذا الشخص الذي نحن نتعامل معه؟، هذه الرؤية تنعكس تمامًا على سلوكنا في التعامل مع هذا الشخص، سواء كان شيخًا كبيرًا أو طفلًا صغيرًا أو ولدًا كبيرًا، يمكن أن يكون التعامل مختلفًا.

وهكذا، فالخلفية التي ينظر بها المسؤول إلى الناس تدفعه ليتعامل مع هؤلاء الناس بسلوك ينسجم مع هذه الرؤية وهذه الخلفية، فإن كانت خلفيته أن هؤلاء الناس ليس لهم قيمة، وهو ملك عليهم، وهم عبيد له، و هو متسلط عليهم، وأعلى سلطة في البلد، فهذا المنطق سيدفع هذا المسؤول أو الرئيس أو الملك أو القائد أو الوزير أو الزعيم أو السلطان أو أيًا كان عنوانه في أي مكان، يدفعه بكل تأكيد إلى سلوك مختلف تمامًا مع من ينظر إليهم على أساس أن هؤلاء هم أناس مثله، وهم إما أخ له في الدين أو نظير له في الخلق.

فهو ليس أفضل منهم، والقدر هو الذي جعله مسؤولًا، وهم يشتركون معه إما في العقيدة أو في الإنسانيّة، فهم مثله، كما صرح بذلك القرآن الكريم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[١٢٦].

فهو أمر من الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، أي قل يا رسول الله وأخبرهم بأنك مثلهم، ولا تحتفظ بهذه المعلومة لنفسك، بل عليك أن تشيع هذه الثقافة بين الناس، فمع أن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ هو أعلى إنسان في كمالاته ولكنه بشر مثل الآخرين، فالبعد الإنساني تجسد في كلمة «مثلكم»، وأما الكمال فهو محل التنافس بين البشر، كما صرح به القرآن الكريم في قوله: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[١٢٧]، فهي دعوة مفتوحة إلى كل من يستطيع أن يتكامل أكثر وأكثر.

وهذا منهج مهم وفريد، واعلم أيها المسؤول والمتصدي أيًا كانت مسؤوليتك، سواء كنت رئيس دولة أو وزيرًا أو مديرًا، أن هؤلاء الذين هم تحت إمرتك وأنت مسؤول عنهم ليسوا أقل منك شأنًا، بل هؤلاء مثلك، وهم إما شركاؤك في العقيدة أو شركاؤك في الإنسانيّة.

وهذه الرؤية ستنعكس تمامًا على سلوك المسؤول، حينما ينظر إلى الآخرين على أنهم مثله وليسوا أقل منه، بل يمكن أن يكون البعض منهم أحسن منه. وحينئذ سيكون

---

١٢٦. سورة الكهف: الآية ١١٠.

١٢٧. سورة المطففين: الآية ٢٦.

التعامل معهم مختلفًا، ولا توجد فيه إساءة أو تعدّ أو تجاوز أو تطاول أو سحق أو مقابر جماعية أو إبادة جماعية، أو استعمال للدبابات والطائرات والمدافع.

فهذه كلها تنطلق من رؤية مختلفة عن الرؤية القائلة بالزعيم الأوحد والقائد الضرورة. والمسؤول حينما يُشبّع بفكر من هذا النوع، وحينما تكون رؤيته إلى الآخرين بأنهم لا يفهمون وليس لهم قيمه وهم عبيد، فحينئذ سيكون السلوك عدوانيًا، وفيه إساءة وتطاول وتجاوز على الآخرين.

ولكن حينما يشعر أن هؤلاء أهله وشعبه، فإنه سيحسن إليهم ويحترمهم ويشفق عليهم، ويطلب لهم ما يطلب لنفسه، ويتمنى لهم ما يتمنى لنفسه، إلى غير ذلك من الاعتبارات.

إذن، هذه قضية مفصلية في الفهم الإسلامي لطبيعة العلاقة بين من يتصدى لمواقع المسؤولية، ومن هم خاضعون لتلك المسؤولية.

ويحتوي هذا الدرس على مجموعة من الإضاءات، هي:

الإضاءة الأولى

دولة الإسلام هي دولة المواطن

نتداول اليوم في أدبياتنا السياسيّة مصطلح (دولة المواطن) و (دولة المسؤول)، ويطرح هذا السؤال: هل العراق دولة المواطن أو دولة المسؤول؟، كما يطرح هذا السؤال في بلدان أخرى: هل أفغانستان مثلًا دولة المواطن أو دولة المسؤول؟.

والجواب عن هذا السؤال يرتبط في جوهره بالجواب عن السؤال التالي: من صاحب القيمة والشأن في هذا البلد؟، فإذا كان الناس هم أصحاب الشأن والقيمة، وهم أصحاب المشروع والدار، وهم من يختارون موظفًا بدرجة متقدمة ليخدمهم ويرعاهم، ليحسن إليهم وينظم شؤونهم، فهذه الدولة هي دولة المواطن، وهي تتطلب سلسلة من القوانين والضوابط والإجراءات والسلوكيات والأدوات والمواقف على مختلف المستويات الإدارية.

وإذا كان صاحب القيمة والشأن هو المسؤول، فإن الدولة هي دولة المسؤول. ويتضح ذلك من خلال تعريفنا لموقع المسؤول، هل هو خادم وراع، أو هو حاكم ومتسلط؟، سواء كان اسمه سلطانا أو ملكا أو رئيس جمهورية أو رئيس وزراء.

انظروا إلى المفردات التي تُستخدم، مع قطع النظر عن مداليلها السياسيّة المعاصرة، فعندما يكون الشخص هو الرجل الأول في نظام ملكي يقال له ملك، ولنتوقف قليلًا عند المدلول اللغوي لكلمة ملك، فالملك هو من يملك شعبًا، فهذا الشعب هو شعب مملوك، إذن هنا علاقة مالك ومملوك، مالك وعبيد. وهذه ستكون علاقة مختلفة. وكذا كلمة سلطان، فهناك متسلط ومتسلط عليه. فإذا كانت العلاقة بهذا المعنى فإن لها استحقاقات كبيرة وخطيرة جدًّا.

وإذا كانت المفردة التي تستعمل هي الراعي والرعية كما ورد استعمالها كثيرًا في تراثنا الفكري، فالراعي هو الذي يرعى ويهتم بشؤون من يتولى أمرهم، والرعية هي التي تُرعى ويُهتم بشؤونها، فالعلاقة بين الراعي والرعية هي علاقة الرعاية والاهتمام بمصالح الآخرين. وهذه كلها ترتبط بطبيعة النظرة والرؤية التي يعتقد بها المسؤول والمتصدي لإدارة شؤون الناس.

وبهذا يتبين أن الفاء في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فإنهما صنفان» هي فاء التفريع. وهي إشارة إلى أن هذا الحديث والكلمة تعليل لما مر من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ في الدرس السابق: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم»؛ لأنهم مثلك - يا حاكم ويا مسؤول - في العقيدة أو في الإنسانيّة، فعليك أن تلطف بهم وتكون لينًا معهم.

فأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه العبارة يعلل ويذكر سبب ما قاله في العبارة السابقة، من أن هذه العلاقة هي علاقة الرحمة والشفقة والمودة والمحبة.

لماذا يجب على المسؤول أن يستشعر الرحمة والمودة والمحبة واللطف تجاه من هم دونه في المسؤولية؟، الجواب: لأنهم مثله في العقيدة أو في الإنسانيّة، وليسوا أقل منه شأنًا، فيجب أن يرأف بهم. وبهذا يتبين، وبحسب الرؤية الإسلاميّة، أن سلوك رجال الدولة لا يتحدد بمجرد لوائح انضباطية؛ فيقال مثلًا: قررنا أيها الضباط والمدراء والمسؤولون والموظفون، أن تتعاملوا برفق ومحبة مع الناس، فإن مثل هذا القرار لا يُنفذ؛ لأن المسألة ليست قرارات أو صرف تعليمات، بل هي ترتبط بالرؤية والنظرة إلى الناس.

ونحن نرى اليوم عندما يدخل المواطن – الذي هو الأهم - إلى دائرة، فبالإضافة إلى أنه لا يستطيع الوصول إلى المسؤول أو المدير في كثير من الأحيان، وإذا سلم على

الموظف فإنه لا يرد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، لأنه يعيش في عالم آخر ، فلا يستحق المواطن حتى أن يرد عليه ، ولكن إذا كان الموظف خلوقًا فإنه يرد التحية ويقول تفضل بالجلوس .

فلماذا هذا التعامل المهين مع المواطن ، مع أنه مثله في العقيدة ، ومثله في الوطنية والانتماء لهذا الوطن والإنسانيّة؟ ، وما فضله عليه؟ ، بل قد يكون هذا المواطن أفضل منه ألف مرة ، وكل ما في الأمر أن الفرصة لم تتح له ليصبح مسؤولًا .

إذن ، فهذا المسؤول لم يفهم أن هذا الموقع يجعله خادمًا لهذا المواطن الذي يراجعه ، ولا توجد لديه هذه الرؤية . ونحن نحتاج اليوم إلى إشاعة ثقافة دولة المواطن ، وثقافة المواطنة الصالحة بين الجميع .

وهنا أود الإشارة إلى ظاهرة ملفتة للنظر ، وهي إرسال آلاف الموظفين في الثمان سنوات الماضية إلى خارج العراق والإنفاق عليهم من أموال الشعب العراقي مئات الملايين من الدولارات لدخول دورات تأهيلية ، فيرسلون إلى لبنان وغيرها وينزلون الفنادق الراقية .

علمًا أن مدة الدورة لا تزيد على ثلاثة أيام ، وهي دورات لتعليم الكومبيوتر ، في حين أن مصاريف دورة واحدة يمكن أن يُشترى بها ألف كومبيوتر ، وتجعل الدورات في الدوائر مجانية ، ونعمل على تعليمهم القيم الإسلاميّة والقيم الوطنية التي نؤمن بها نحن كعراقيين ، لما تمتاز به ثقافتنا وحضارتنا عن الآخرين ، وينبغي أن نعلمهم الثقافة الوطنية ، فإن الملاحظ أنهم يتعلمون سياقات العمل الإداري ولا يتعلمون كيف يتعاملون مع المواطن ، فهذا الأمر مغفول عنه تمامًا .

ففي الجيش والشرطة تُقدّم دروس كثيرة في كيفية إمساك السلاح وكيفية القتال ، ولكن ما المحاضرات التوجيهية التي توضح لهذا الجندي العزيز كيف يتعامل مع المواطنين عندما يقف في السيطرة؟ ، فقد يكون بين هؤلاء المواطنين متهم ويخفي نفسه بينهم ، لكن هؤلاء المواطنين هم الأساس وهم الأصل ، ووقفة الجندي معهم وابتسامته لهم وتعامله معهم ، يجب أن يكون فيها التوقير والاحترام والتكريم .

فمثل هذا الدرس لا يأخذه الجندي ولا الموظف ، فلذلك يوجد علم وخبرة في شؤون مهنية صرفة ، ولكن لا توجد عندهم روح التعامل ، فتكون الآثار أحيانًا عكسية .

ولقد أكد الإسلام على جعل هذه العلاقة علاقة إنسانية وعلاقة محبة وشفقة ، وهي التي تحل المشاكل ، ويأتي الاحتراف والمهنية كعنصر مهم في تنظيم العمل ومساراته ، وهذا الأمر ـ مع الأسف ـ غير مُلتفّت إليه .

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتاب له كتبه لمن يرسلهم لجباية الزكوات وجباية الضرائب، وهو أنموذج لما يجب أن يكون عليه المسؤول في كيفية تعامله مع المواطنين: «انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروّعن مسلمًا، ولا تجتازن عليه كارهًا، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله، فإذا قدمت على الحي فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم، ثم أمض إليهم بالسكينة والوقار، حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخدج بالتحية عليهم ثم تقول: عباد الله، أرسلني إليكم ولي الله وخليفته، لآخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم حق فتؤدوه إلى وليه؟. فإن قال قائل: لا، فلا تراجعه، وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده أو تعسفه أو ترهقه، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه، فإن أكثرها له، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به، ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها، ولا تسوءن صاحبها فيها، واصدع المال صدعين ثم خيره، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره، ثم اصدع الباقي صدعين ثم خيره، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله، فاقبض حق الله منه، فإن استقالك فأقله، ثم اخلطهما ثم اصنع مثل الذي صنعت أولًا حتى تأخذ حق الله من ماله. ولا تأخذن عودًا ولا هرمة ولا مكسورة ولا مهلوسة ولا ذات عوار، ولا تأمنن عليها إلا من تثق بدينه، رافقًا بمال المسلمين حتى يوصله إلى وليهم فيقسمه بينهم»[١٢٨].

يحتوي هذا النص الشريف على مجموعة من الوصايا إلى المتصدين للتعامل المباشر مع الناس.

الوصية الأولى: تصفية النية

إن أول عمل ينبغي أن يقوم به المسؤول هو تصفية النية، فلا يكون ما يأتي به من أجل الراتب، حتى إن كان عملًا وظيفيًا معيّنًا، لكن النية مهمة والإخلاص مهم. والإخلاص لله هو الذي يدفع الإنسان إلى الإخلاص في العمل. وتتجلى هذه الوصية من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له».

١٢٨. نهج البلاغة: الرسالة ٢٦.

الوصية الثانية : عدم تخويف الناس

إن على المسؤول ألا يروّع الناس ولا يخيفهم ، ويتضح ذلك من قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : «ولا تروّعن مسلمًا» . ولكننا نلاحظ اليوم أن الواقع على خلاف ذلك ، فلو وضعنا سمّاعة القلب على قلب المواطن عندما يدخل إلى الدائرة ، لسمعنا دقات قلبه ، وكأنه يريد أن يخرج من مكانه ، فلماذا هذا الخوف والقلق ، وهو في مراجعة عادية لإنجاز عمل رسمي غير مخالف للقانون؟ ! .

وكذلك نلاحظ كيف أنه خائف ومرعوب إذا دخل المحكمة ، مع أنه صاحب الحق ، ولو سُئل لماذا هذا الخوف وأنت صاحب الحق؟ ، لقال إنما أخشى ألا أُنصف ويدفع الطرف الآخر رشوة وتتحول القضية لصالحه ! .

الإضاءة الثانية

الملاك في تقسيم الناس

تشير هذه العبارة المؤثرة من هذا العهد الشريف من قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : «إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق» ، إلى الملاك في تقسيم الناس في نظر الإسلام وفي نظر علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ .

إن التقسيم السائد للناس في هذه الأيام هو تقسيمهم بحسب ولائهم للأنظمة إلى موالاة ومعارضة ، فالمعيار في تقسيم الناس هو الموقف السياسيّ من الحكم ، فالمعارضة في خندق والموالاة في خندق آخر .

وهناك تقسيم آخر للناس على أساس الولاء الشخصي ، فلو سألنا بعض المتصدين : كيف تقسمون الناس حقيقة وبغض النظر عن الشعارات؟ ، فسيقول : نقسم الناس إلى صنفين : من يحبني ومن لا يحبني ، ومن يطيعني ومن لا يطيعني . وكل من كان أكثر التصاقًا بي والتزامًا بكلامي وطاعة لي فإني أقربه وأعطيه المهام والمسؤوليات ، ومن كان صاحب رأي ونقاش ووجهة نظر ، فإني أبعده شيئًا فشيئًا . فالمعيار إذن في تقسيم الناس إنما هو على أساس القرب والبعد من المسؤول والمتصدي .

ويقسم البعض الناس على أساس طبقي . . على أساس الفقر والغنى ، فهذه طبقة برجوازية تتألف من أصحاب الأموال والإمكانات ، وتلك طبقة الفقراء تتألف من المساكين والمعدمين والكادحين ، فيكون التقسيم على أساس القدرات الماليّة .

ويقسم الناس أيضًا في مساحات معينة على أساس العمق الثقافي، إلى طبقة مثقفة وطبقة قليلة المعرفة.. إلى غير ذلك من الاصطلاحات التي يتداولها البعض.

ويصنف الناس أحيانًا على أساس قومي، هذا من القومية الفلانية فهو محترم، وذاك من قومية أخرى فلا يحترم. ويصنف الناس أحيانًا على أساس ديني، فهذا من دين معين فيقدر، وذاك من دين آخر فلا يُكترث به. ويصنفون أحيانًا على أساس طائفي، فهذا من المذهب الفلاني فيُحترم، وذاك من المذهب الآخر فلا يُكترث به.. إلى غير ذلك من التشقيقات والتصنيفات.

وكل هذه التصنيفات قد تأخذ مدياتها في مجالاتها الخاصة بها، ففي دور العبادة توجد اعتبارات دينية أو مذهبية، وفي الساحة الاقتصاديّة توجد اعتبارات اقتصادية، وفي المنظومة الفكرية والثقافية هناك اعتبارات فكرية، فلسنا بصدد تقييم هذه التصنيفات والتقسيمات؛ هل هي في مجالاتها المعينة، يمكن أن تكون مقبولة أو لا تكون؟، فهذا بحث آخر.

معيار المواطنة

ولكن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد طرح فهمًا آخر لتقسيم الناس من موقع القيادة، ففي المنظومة القياديّة يكون المعيار الذي يقسم الناس على أساسه لمن يريد أن يتحمل المسؤولية عن عدد من الناس، هو أن الناس إما أخ للمسؤول في الدين أو نظير له في الخلق.

فالمعيار هو المواطنة، فلا يُفضل أحد على أحد في المنظومة القياديّة، لأن القائد مسؤول عن أمة ومسؤول عن عدد من الناس، فلا يقدم هذا ويعطيه الفرص لأنه قريب منه أو من حزبه، ويبعد الآخر لأنه ليس من أقاربه أو حزبه، فهذا مما لا يكون في الرؤية الإسلاميّة بحسب ما يشير إليه علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يوجد معيار القيم الدينية ومعيار القيم الإنسانيّة، ويجمعهما في مصطلحاتنا المعاصرة اصطلاح (حق المواطنة). فلكل مواطن حقوق متكافئة مع الآخرين، مهما اختلفت الإمكانيات الماديّة أو وجهات النظر السياسيّة أو تبني قضية معينة أو عدم تبنيها.. إلى غير ذلك.

وفي هذه العبارة درس كبير يقدمه علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لفهم النظرية الإسلاميّة في القيادة و الإدارة، فهناك تكافؤ فرص بين المواطنين، ولا تميز لمواطن على آخر على أساس

اختلافه مع الحاكم أو اختلافه مع القيادي المتصدي في مذهب أو دين أو قومية أو توجه سياسي أو قدرات معينة أو إمكانات، إلى غير ذلك، بل الجميع سواسيه.

وهذا ما نلاحظ تطبيقه في فترة خلافة علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فالخوارج الذين خرجوا وحملوا السلاح بوجه علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقف ليقول بحقهم: «لا تقاتلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه»[١٢٩].

فهؤلاء ظنوا أن ما هم عليه هو الحق، وأن علي بن أبي طالب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان مخطئًا، فنهى عن قتالهم وإن كانوا مخطئين ولكنهم كانوا طلاب حقيقة، فهناك فرق بين من يريد الإفساد والضلال والانحراف والتآمر، ومن يريد أن يصل إلى الحق ويرى الحق في موقف معين، فهو قد يكون مخطئًا في نظرته ورؤيته، ولكنه حتى لو أخطأ وشهر السلاح باعتقاد دفاعه عن حق يعتقده، فيجب أن نوضح له أنه مخطىء، ولا يوجد أعدل من علي بن أبي طالب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وهذه دروس في القيادة والإدارة نجدها في منطق علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في بيان أنه لا شروط ولا قيود لاستيفاء الحقوق وتكافؤ الفرص بين المواطنين: «جعل الله سبحانه حقوق عباده مقدمة لحقوقه، فمن قام بحقوق عباد الله كان ذلك مؤديًا إلى القيام بحقوق الله»[١٣٠].

إن من يريد الوصول إلى الله تعالى والوفاء بحقوقه وتأدية واجباته تجاه خالقه، فليبدأ بأداء حقوق خلق الله أولًا، فطريق عبادة الله يأتي من مراعاة خلق الله والاهتمام بهم والوفاء بحقوقهم.

وأما الاكتفاء ببعض العبادات الشخصية بين الإنسان وربه وتجاهل حقوق الناس، فهذا ليس هو طريق التكامل. ومن قام بحقوق الناس وأعطى المواطن حقه فإن ذلك سيؤدي به إلى القيام بحقوق الله، وسيكتب الله تبارك وتعالى له التوفيق وينوّر قلبه ويسهل له مهمة الوفاء بحقوق خالقه وعبادته.

هذه هي النظرية القياديّة في الإسلام، فالإنسان المواطن هو المعني بالاهتمام والتركيز بالدرجة الأساسيّة. ومن لم يستطع تحمل المسؤولية بهذا الشرط، فليقدم استقالته، وليخرج ويعطِ فرصة لغيره ممن يستطيع أن يفي بهذا الواجب وبهذه المسؤولية.

---

١٢٩. نهج البلاغة: الخطبة ٦١.

١٣٠. غرر الحكم ٣: ١٠٧.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في رسالة لأسود بن قطبة قائد الجيش في منطقة حلوان، إحدى ولايات فارس: «أما بعد، فإن الوالي إذا اختلف هواه، منعه ذلك كثيرًا من العدل، فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء، فإنه ليس في الجور عوضًا من العدل، فاجتنب ما تنكر أمثاله، وابتذل نفسك في ما افترض الله عليك، راجيًا ثوابه ومتخوفًا عقابه»[١٣١].

يحذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ولاته وقادة عسكره من أنه إذا انشغل الحاكم والمسؤول بمصالحه الخاصة ومآربه الشخصية منعه ذلك كثيرًا من تحقيق تكافؤ الفرص بين الناس وإيجاد العدل بينهم، وحينئذ إذا كانت المصالح الشخصية هي المعيار، فلا يمكن أن تسير الأمور كما ينبغي، ولا يمكن أن يتحقق العدل. ولهذا يوصي عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يكون أمر الناس عند المسؤول في الحق على حد سواء.

ومن مصاديق هذه الوصية الكريمة: إنجاز المعاملة التي جاءت ضمن الضوابط المقررة على أساس صحيح، وإن لم أعرف، أنا المسؤول، صاحبها، وعم إنجاز المعاملة الأخرى الفاقدة للضوابط المطلوبة وإن كنت أعرف صاحبها، أو أرسل لي هدية، وقام بالاتصال أو أرسل وفودًا.

ومن المصاديق الأخرى قبول ابن الوزير الفلاني في الجامعة، مع أنه لم ينجح، وعدم قبول ذلك المسكين رغم نجاحه في الاختبار. فينبغي أن يكون الحق هو المعيار، فإدارة الموقع الفلاني مثلًا، تتطلب إنسانا بخصوصيات معينة، وهذا المرشح من حزبي ليس فيه هذه المواصفات، وذلك الآخر لديه هذه المواصفات، فأيهما ينبغي أن يقدم وفقًا لمنهج علي عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي أمر أن يجعل الناس في الحق على حد سواء؟.

ثم يبين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الجور لا يمكن أن يكون بديلًا من العدل، فإنهما طريقان متعاكسان ينتهيان إلى نتائج مختلفة، ولذا لا يكون أحدهما عوضًا من الآخر. ولا يظن المتسلطون أنهم يستطيعون بالجور والغلبة وتفسير القوانين بالطريقة التي تلائمهم والإجراءات التعسفية، من ضرب الشعب بالطائرات والمدافع والدبابات، إنقاذ أنفسهم من مصيرهم المحتوم على يد شعوبهم.

أيها الحكام لا تضربوا شعوبكم بالهراوات ولا تضيقوا على الناس، واعلموا أن الآلة العسكريّة عاجزة عن الوقوف أمام إرادة الشعوب، فإن كل رصاصة هي حاجز آخر وجدار آخر بين المسؤول والناس.

---

١٣١. نهج البلاغة: الرسالة ٥٩.

انظروا ماذا يحصل في ليبيا واليمن والبحرين، إن الحكام كلما خطوا خطوة لقمع الشعب، ازدادوا عزلة وازداد الشعب جرأة وتقدم خطوة إلى الامام لتحقيق حريته وكرامته وعزته. إذن يجب أن يكون الحق هو المعيار، والعدل هو الأساس، ولا يمكن أن يكون الجور عوضًا من العدل.

ثم يتطرق أمير المومنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الجملة التالية من هذه الفقرة إلى ضرورة اجتناب المسؤول ارتكاب ما ينكر أمثاله فيما لو وقع من غيره، فحري بالمسؤول ألا يدع الناس تنتظر، كما لا يقبل أن يوضع في خانة الانتظار، وألا يسمح بأن تذهب حقوق الناس، كما لا يحب أن يؤخذ حقه. . وهكذا في كل قضية تعرض له، فيجب على المسؤول دائمًا أن يضع نفسه في مكان الآخرين وينظر هل يقبل لنفسه ما يقبله لهم؟، فإن لم يكن يقبله لنفسه فحري به ألا يقبله لهم أيضًا.

ثم ينتقل علي عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى وصية أخرى من وصاياه إلى القادة والمسؤولين، فيأمرهم بأن يبذلوا أنفسهم في ما افترض الله عليهم من الفرائض فيقيموها، وأن يفرغوا أنفسهم لهذا الأمر، رجاء ثواب الله عز وجل وخوفًا من عقابه.

لقد شاهدتم القذافي، ففي حين كان الشعب يرزح تحت خط الفقر، كانت عشرات المليارات في حساباته الشخصية في المصارف الأجنبية جمعها خلال أربعين سنة، ثم ذهبت بقرار واحد من مجلس الأمن وجُمدت جميع الأرصدة وانتهت، وكذا صدام، ذهبت المليارات التي أودعها في مصارفهم بجرّة قلم، ولو كان قد صرفها على الشعب لأصبح العراق اليوم بشكل آخر.

فاتعظوا أيها المسؤولون، ولا تظنوا أنكم عندما تجمعون الأموال يمكن أن تنفعكم، والتزموا بما أمركم الله تبارك وتعالى به، وتعاملوا بالإنصاف واتركوا لكم ولذويكم السمعة الطيبة.

واليوم مازال شعبنا يتذكر حكّامًا حكموه، بالرغم من ملاحظاتنا عليهم، ويترحم عليهم؛ إذ يقولون عن أحدهم إنه إذا كان في اجتماع لمجلس الوزراء، وحان وقت الغداء يدعوهم على حسابه الخاص، ويخرج النقود من جيبه ويطلب لهم الطعام من أقرب مطعم، ثم يواصلون الاجتماع، وإنه كان ينزل من سيارته وحده ويسير ويوزع الأراضي بين المواطنين.

فهذه الأشياء تبقى في ذاكرة الشعب يتناقلها عبر الأجيال، فكيف إذا كان الحاكم صاحب منهج صحيح، ولديه رؤية واضحة وجذور صحيحة، وكان عادلًا مع الناس؟،

فلا شك في أنه سيبقي الذكر الحسن ذخرًا له في الدنيا، وجزاء الله له في الآخرة. وهذا أهم شيء يمكن أن يهتم به الإنسان.

إن النظرية التي يتحدث عنها علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هي نظرية إنسانية، ولا نستطيع أن نقول عنها إنها نظرية إسلامية فقط؛ لأن الإسلام له قراءة واقعية ومنصفة لواقع الحياة، ولو طبقنا هذه المعايير لوجدنا الواقع اليوم يختلف عما نعيشه بكثير، ولكن علينا أن نذكّر أنفسنا بهذه المعايير، وأن يخطو كل منا خطوة ويبذل جهدًا ويقول كلمة ويدفع ويشجع ويضغط، لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

الدرس الرابع عشر

مبدأ العفو والصفح في التعامل مع الأمة

يقول أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ في تتمة الفقرة السابقة من عهده لمالك الأشتر: «يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، يُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَأ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ».

يخاطب أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ مالكًا في هذه الفقرة ومن ورائه كل حاكم مسلم، ويطلب منه أن يتعامل مع الشعب على أساس مبدأ العفو والصفح، فإن هؤلاء الناس قد تصدر منهم الزلات ويخطئون في مواقفهم، كما هو الملاحظ في أي شعب، وقد تعرض لهم أسباب فينحرفون عن الطريق السوي وتدعوهم لاتخاذ مواقف وسلوكيات معينة، وتصدر منهم سلوكيات ومواقف وتصريحات لا تنسجم مع تقديراتك للمصلحة، ويكونون مخطئين في نظرك، وقد يقومون بهذه السلوكيات عمدًا وهم عارفون أنها تغيظك، وقد تصدر منهم هذه السلوكيات خطأ ومن غير عمد، وهذا أمر خلاف القانون والالتزامات.

والموقف الصحيح الذي ينبغي اتخاذه في مثل هذه الظروف، هو أن تتعامل معهم بمنطق العفو والصفح، فتعطيهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيه الله تبارك وتعالى لك من عفوه وصفحه، فينبغي أن يكون تعامل الحاكم مع أفراد الشعب على أساس مبدأ العفو والصفح، كما يحب هذا الحاكم أن يعامله الله سبحانه على أساس العفو والصفح.

فإن هؤلاء الناس يمكن أن تصدر منهم الأخطاء، فهم يخطئون في سلوكهم وشعاراتهم ومواقفهم، وتعرض لهم العلل والأمراض الخُلقية والخروج عن الاستقامة، وقد يخرقون القانون والضوابط والاجراءات في بعض الأمور، وتصدر منهم سلوكيات لا

تناسب ولا تعجب الحاكم والمسؤول، فيطلقون تصريحات ويتجمهرون في مسيرات، وقد تكون لهم سلوكيات أخرى لا يرتاح لها الحاكم ولا يرتضيها.

وهم يأتون بهذه المواقف عن عمد أحيانًا، وعن خطأ أحيانًا أخرى. فما الموقف من هؤلاء الناس الذين يخطئون ويخرجون عن القانون أحيانًا، ويمارسون بعض المواقف والأعمال والأقوال التي لا يرتضيها المسؤول والحاكم عن عمد أو عن خطأ؟.

يبين أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الموقف الصحيح الذي ينبغي للحاكم اتخاذه في مثل هذه الحالة؛ وهو أن يعطيهم من عفوه وصفحه مثل الذي يحب ويرضى أن يعطيه الله تبارك وتعالى من عفوه وصفحه إذا أخطأ، وليكن شعاره معهم هو العطف والعفو والصفح، وألا يكون قاسيًا معهم، بل يتحمل بعض مخالفاتهم.

ولا ينبغي للحاكم أن يعتقد بأن الشعب يجب أن يكون نسخة طبق الأصل عنه، وأن عليهم أن يفكروا كما يفكر، ويقولوا ما يريد له أن يقال، ويسمعوا ما يريد له أن يُسمع. كلا، فليس هكذا تُساس الشعوب، فإن هؤلاء المعترضين قد يختلفون مع الحاكم في أشياء وقد يخطئون، ولكن حقهم عليه العفو والصفح.

ونتعرض في ما يلي إلى الإضاءات التي يمكن استفادتها من هذه العبارة، القليلة في كلماتها، الكبيرة في مداليلها ومضامينها.

الإضاءة الأولى

ضرورة سعة الصدر في الحكم والإدارة

إذا أراد الحاكم إدارة ناجحة وقيادة موفقة فعليه بسعة الصدر، وذلك باستعمال الحلم والصفح وغض الطرف عن بعض الأخطاء. وعليه أن يتظاهر بأنه لم يرَ ولم يسمع، وعليه أن يستوعب، وأن يتحمل.

إن سعة الصدر هي المفتاح السحري للنجاح الإداري والقيادي، ومن أراد أن يعطي الحقوق لأهلها فعليه بسعة الصدر. ومن لم يكن عنده سعة صدر، وضاق صدره بما يرى من أفعال لا تروقه، أو بما يسمع من أقوال لا تعجبه، فسوف لا يبقى معه أحد. وإذا بقي في دوامة أن هذا صرح ضدي وهذا تحالف مع جهة ما على حسابي، ويبدأ بالهجوم على هذا وذاك ويتضايق من هذا وذاك ويشتد مع هذا وذاك، فمن سيبقى معه في المجتمع؟!.

إن الحاكم أو المسؤول لا يستطيع أن يعطي الشعب حقه وهو ناقم عليه، بل سوف يسلبه حقه ويقع في الظلم من حيث لا يشعر. وقد يكون الحاكم محقًا، ولكن حقانية رؤية الحاكم، وبطلان موقف المواطن في رأي الحاكم، لا يسلبان حق المواطنة، بل يبقى مواطنًا وله كامل حقوق المواطنة حتى ولو اختلف معه، فهو معارض يحمل رأيًا مخالفا لرأي المسؤول، ويعارضه بالكلام وليس بالسلاح، فهو لا يهدد النظام، بل معارضته سلمية، وله حق الخروج بمسيرة سلمية، وتبقى له كامل حقوق المواطنة.

فإذا هاجمه الحاكم ولم يكن لديه سعة صدر، فكيف سيعطيه حقه؟. من المؤكد أنه سوف لا يعطيه حقه، لأن إحقاق الحقوق بسعة الصدر، والعدالة الاجتماعيّة بسعة الصدر، وإنصاف الناس بسعة الصدر. وهذا هو مفتاح الرئاسة.

وعلى الحاكم أو المسؤول إذا لم يكن عنده سعة صدر، أن يكتب استقالته ويخرج من الحكومة؛ لأن الموقع يتطلب سعة الصدر، ومن لم يكن مستطيعًا فليقدم استقالته، ليأتي بدلا منه من يمتلك سعة الصدر.

فإذا أراد المسؤول النجاح، وأراد العدل والإنصاف، وأراد أن يكون حقانيًا، وأراد خدمة المواطنين فعليه بسعة الصدر، وإلا فكيف يستطيع المسؤول أن يخدم إنسانًا قد ضاق صدره منه أو كان متحاملًا عليه؟!.

ومن علامات سعة الصدر الابتسامة العفوية وليست التصنعية، والمحبة الصادقة لا الكاذبة. وبعض المسؤولين يتصنع بإظهار المحبة للناس، ولكن قلبه مليء بالبغض والكراهية والحقد والعياذ بالله، وهذه للأسف قد نقع فيها كثيرًا.

ومن علامات سعة الصدر اللسان الصادق، لا مجرد مجاملات وكلمات يلوكها اللسان، سرعان ما يلفظها وبعد لحظات تتحول إلى سباب وشتم، بعد أن يخرج أو يغلق الهاتف.

ونذكّر بما قلناه في الدروس السابقة من قول أمير المؤمنين عَلَيهِ‌السَّلَامُ لمالك الأشتر: «وأشعرْ قلبكَ الرحمةَ للرّعيّة»، فالمسؤول يجب أن يستشعر الرحمة في قلبه قبل أن يشعر بها المواطن، فحينما تكون القضية في الشعور والإحساس القلبي تكون الحالة واقعية ولا مجال ولا فرصة للتصنع.

وفي مقابل ذلك ضيق الصدر، فإذا فقد الإنسان مكرمة سعة الصدر وضاق صدره ماذا سيحدث؟. إن ذلك سيؤدي إلى حيرة كبيرة في اتخاذ القرار؛ إذ كيف يمكن أن يتخذ

قرارًا وهو مشدود ومتأزم ومستفَّز؟!. سيتخد قرارًا ويرجع عنه، ويصدر قرارًا وزاريًا ثم يأتي القرار الثاني ليبطل السابق.

ويجد الإنسان في مؤسسات الدولة تعميمات وقرارات تصدر وسرعان ما يأتي نقيضها، ثم ينقض هذا النقيض بنقض جديد، ويبقى الموظف المسكين لا يعرف بأيها يعمل، بالقرار الأول أم الثاني أم الثالث، وقد جاء أحدها بكتاب رسمي، والآخر في قصاصة بخط اليد، والثالث بهاتف، وكل واحدة لا تشبه الأخرى.

لماذا هذا التخبط؟!، إن ضيق الصدر يؤدي إلى الضجر، وإلى مواقف خاطئة، وإلى حيرة في اتخاذ القرار، وإلى سوء في التعامل مع الآخرين. فالمسؤول حينما يكون مستفَّزًا لا يمكنه أن يتعامل مع الآخرين بطريقة هادئة، وسرعان ما يغضب فتصدر منه عبارات غير لائقة ويورط نفسه أكثر وأكثر، فتكثر المشكلات.

ويقع الإنسان في سوء التعامل وسوء السلوك حينما يضيق صدره، ويؤدي إلى استخدام القوة المفرطة، وكل إنسان يستعمل هذه القوة على قدره، فسائق السيارة إذا غضب واُستُفزّ تحدث مشكلة، فيحمل ما تحت يده من سلاح أو عصا وينزل إلى من أغضبه، وسرعان ما تتحول القضية إلى ضرب بالعصي أو ماشابه!، ويحدث ذلك لأنه مُستفَّز لضيق صدره، فتتولد ردود أفعال وانفعالات سريعة لا يمكن السيطرة عليها.

أما الحاكم أو المسؤول فإذا ما اُستُفزّ، فإن تحت يده جيشًا وشرطة وستكون القضية أكبر بكثير، فسيُنزل أفواجًا من الجيش والشرطة لتضرب وتبطش وتفتك، فإن لم يُجدِ ذلك استخدم الطائرات والدبابات والمدافع. وهذا ما نراه اليوم في عالمنا العربي..

إن ضيق الصدر يؤدي إلى استخدام العنف والقوة المفرطة تجاه الآخرين، فيدفع لمزيد من الظلم، وكلما زاد الظلم ازدادت ردود الأفعال فيضطر إلى استعمال جرعة إضافية من الظلم لكي يسيطر، فيزداد سخط الناس، فيزيد في قمعهم. وهكذا تستمر العمليّة تصاعدية. فمن لم يكن عنده سعة صدر فلا يتصدّ للمسؤولية؛ لأن التصدي يتطلب سعة الصدر وإلا وقع المسؤول في ظلم الناس لا محالة.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في تأييد هذا المعنى: «من ضاق صدره لم يصبر على أداء الحق»[١٣٢]، فمن أجل أن يكون الإنسان حقانيًا، ومتمسكًا بالحق، وملتزمًا بالحق، ومدافعًا عن الحق، يحتاج إلى صبر على أداء الحق. ويتحقق الصبر على أداء الحق من سعة الصدر.

---

١٣٢. كنز الفوائد ١: ٢٧٨.

وقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «آلة الرئاسة سعة الصدر»[١٣٣]، أي أن الوسيلة التي ينجح بها المسؤول في رئاسته هي سعة الصدر، سواء كان رئيسًا لعائلة أو مصنع أو بلد أو أي موقع آخر من مواقع المسؤولية.

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[١٣٤]، يا رسول الله، إنك برحمة من الله صرت ليّن العريكة مع الناس، فحالة اللين لا تأتي إلا بفضل من الله تعالى. ولو كنت ضيق الصدر؛ انفعاليًا تصرخ بوجه المؤمنين لتركوك وانصرفوا، ولو كنت رسولاً لله.

فعليك بالعفو؛ فهو الطريق حتى لمن يسيء ويخطئ معك يا رسول الله، واطلب لهم المغفرة، وعليك بمشاورتهم في الأمور، فإذا صمّمت فتوكل على الله سبحانه وتعالى. وطبقًا لهذه الآية الكريمة على الحاكم والمسؤول أن يتعامل مع المواطنين على أساس العفو عنهم، وطلب المغفرة لهم، والمشورة، وإعطائهم الكرامة، وإعطائهم القيمة.

ماذا يحدث أيها الوزير لو بعثت على المدراء العامين الذين تحت إدارتك وجمعتهم في اجتماع وسألتهم عن آرائهم في القضية الفلانية، وما القرار الذي ينبغي أن يتخذوه حولها، وما رأيهم في المشكلة الفلانية، وكيف نعالجها؟، وهكذا. اسمع منهم وشاورهم وأشركهم، ليروا أنك تحترمهم وتأخذ برأيهم وتسمع لأفكارهم ومقترحاتهم، فتبعث فيهم الحماسة حينما يرون أن كلامهم مسموع بالفعل.

ويا شيخ العشيرة، إذا أردت أن تأخذ قرارًا فابعث إلى وجهاء العشيرة وأجلسهم في مضيفك واسألهم عن آرائهم في المشكلة الفلانية، وكيف نتعامل معها؟. ويا رئيس الشركة اجمع العاملين المختصين واطرح عليهم المشكلة التي تواجه الشركة واطلب منهم الحل. وهكذا كل مسؤول ضمن حدود مسؤوليته عليه أن يشرك الآخرين ويشاورهم في الأمور التي تتعلق بعملهم وأن يعفو عنهم ويتسامح معهم. وهذه هي المسالك لنجاح الإدارة والقيادة، التي تُعتبر سعة الصدر المدخل لها.

قال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض»[١٣٥]، أي كما أن الله تبارك وتعالى أمر رسوله الكريم صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بالصلاة

١٣٣. نهج البلاغة: الحكمة ١٧٦.
١٣٤. سورة آل عمران: الآية ١٥٩.
١٣٥. الكافي ٢: ١١٧.

والصيام أمره بمداراة الناس أيضًا، وبهذه المقارنة أوضح قيمة المداراة وموقع المداراة في التعامل مع الناس في الفهم الإسلامي.

وقال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في بيان أهمية الرفق في العمل الإداري والقيادي: «إذا ملكت فارفق»[١٣٦]، والمقصود من الملك هنا هو التصدي للمسؤولية، أي إذا صرت مسؤولًا في مكان ما، فالرفق هو الأساس لنجاحك في الإدارة والقيادة.

وقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا في نفس الموضوع: «عليك بالرفق فإنه مفتاح الصواب، وسجية أولي الالباب»[١٣٧]، الرفق هو المفتاح لاتخاذ الموقف الصائب والصحيح، وإن طبيعة أصحاب العقول استعمال الرفق. وهكذا يتفق العقل والشرع في الحث على الرفق للنجاح في أي عمل في مختلف مجالات الحياة، وخاصة في مجال القيادة والإدارة. فالرفق هو طريق النجاح والتوفيق والفلاح.

وعنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا: «نِعم السياسة الرفق»[١٣٨]، أي أن أفضل السياسة الرفق بالناس.

وقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تأكيدًا لدور الرفق في العمل السياسيّ: «رأس السياسة استعمال الرفق»[١٣٩].

وفي رواية أخرى عنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «الرفق ييسر الصعاب ويسهل الشديد من الأسباب»[١٤٠]، أي أن المهام الصعبة والشاقة تتيسر بالمحبة والإخوانيات والنخوة، وكل مشكلة عويصة يمكن أن تعالَج بالرفق. وأما الشدة والغلظة والأوامر والنواهي فهي تصعّب الأمور أكثر وتعرقلها.

فأصعب الأمور وأشدها تتيسر من خلال استعمال الرفق واللين. والرفق يفلّ حدّ المخالفة، ويقلل من شدتها، فحينما نتعامل بإحسان ولطف مع شخص ما، فإنه متى نختلف معه يتذكر طيب تعاملنا معه، فيقلل ذلك من حدّة المخالفة، ويُدخل بعض الحياء في سلوكه. فالرفق يخفف ويفكك المعارضة والمخالفة.

وقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا: «من كان رفيقًا في أمره نال ما يريد من الناس»[١٤١]. أيها المسؤول، أيها الحاكم إذا كنت تريد أن تحصل على ما تريد من الناس فتعامل معهم بلين ورفق، فهذا هو الطريق للوصول إلى ما تريد وما تتمنى.

---

١٣٦. غرر الحكم ١: ٢٧٥.
١٣٧. غرر الحكم ٤: ٢٩١.
١٣٨. غرر الحكم ٦: ١٦٧.
١٣٩. عيون الحكم والمواعظ: ٢٦٣.
١٤٠. غرر الحكم ٢: ٤٥.
١٤١. الكافي ٢: ١٢٠ح١٦.

ويشير القرآن الكريم إلى واحدة من التهم التي كان يُتهم بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾[١٤٢]. كان المنافقون جالسين في مجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ويسيئون إليه بكلامهم، فقال أحدهم: اخفضوا أصواتكم، فقد تصل الكلمة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أو يسمعها أحد الناس فيخبره بها. فأجابه أحدهم: إذا وصلت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وجاء ليسألنا عن قولنا ننكر ذلك، وهو أذن سيصدق ما نقوله.

فاستصغروا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بقولهم هذا واستهزؤوا به؛ لأنه كان يقبل من الناس أعذارهم، ولا يصرّ على أنهم قالوا ويأتي بالشهود ليثبت لهم ذلك. والأُذُن الذي يسمع كل ما يقال له ويصدق به، ولا يستطيع أن يسيطر على سمعه.

ويريد الله تعالى أن يدافع عن رسوله الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من هذه التهمة، فقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾، أي من مصلحتكم أن يكون عندكم نبي حينما تعتذرون إليه يقبل عذركم، وحينما تقولون انكم لم تفعلوا يقبل منكم ولا يصر عليكم ولا يثبت أنكم فعلتم؛ ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إن الله تعالى يلعن هؤلاء المنافقين ويعذبهم، فرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مظهر الرأفة ومظهر اللين ومظهر المحبة. والمداراة والمرونة دليل على صلابة النظام وليس على تفكك النظام.

ربما يقول البعض: يجب أن تُهاب الحكومة، ولا تُهاب إلا بالعصي ومظاهر القوة والاستعراض العسكري، فتنتشر الدبابات في الشوارع لكي تخاف الناس وتشعر بهيبة الحكومة. انظروا إلى التبريرات!، يقولون إن الهيبة بالقوة وبالغلظة!، وإذا أردت أن تتعامل بتواضع ومحبة فلا أحد يسمع منك، ولا أحد يقبل منك وستضيع، فيجب أن تكون قويًا حتى تُهاب. هكذا يقولون، والحال أن النظرية الإسلاميّة تقول شيئًا آخر، تقول إن الذي يتخذ مواقف شديدة هو في قرارة نفسه خائف مهزوز. وإذا لم يكن للمسؤول القدرة على الإقناع فهو ليس مديرًا ناجحًا. فهل يجب أن يصرخ في الشركة أو المصنع أو أي مكان آخر لكي يستمع إليه الناس؟. إنه لا يحتاج إلى الصياح، بل يحتاج إلى محبة، ويحتاج إلى منطق، ويحتاج إلى قدرة على الإقناع. وقد قيل: (أقرع الطبل أجوفه)، أي كلما كان جوف الطبل أكبر، كان صوته أعلى، ولكن إذا مُلئ فسوف لا يخرج منه

---

١٤٢. سورة التوبة: الآية ٦١.

صوت، وكذلك المسؤول إذا كانت رجله على أرض صلبة، كان مسيطرًا على الموقف أكثر، وإذا ما اقتحم قلوب الناس الذين هو مسؤول عنهم كان مسيطرًا على قلوبهم قبل أن يكون مسيطرًا على أجسادهم، كما قال الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ لهارون العباسي: «أنا إمام القلوب وأنت إمام الجسوم»[١٤٣]، أي إذا كانت قدرة هارون وهيبته على هؤلاء الناس بالشرطة والجيش والزنازين والإعدامات، فإن مكانتي وتأثيري هما في قلوب الناس، فلا أحتاج إلى كل هذه الأشياء، إنك ياهارون تركض وراء الناس، بينما الناس تركض ورائي، فالقضية عكسية.

ولذلك فالمرونة دليل على الصلابة والاستقرار في المنظومة القياديّة. ومتى كان الحاكم مسيطرًا فلا يحتاج إلى أن يصرخ، ولا يحتاج إلى أن يفتك، ولا يحتاج إلى أن يسيء، فكلامه مسموع من الجميع من دون حاجة إلى مثل هذه الأمور.

ولكن هذه المرونة وهذه السعة في الصدر لا تعني غياب الحزم، فالحزم مطلوب. والإسلام لا يتماشى مع فكرة الترهل، ولا مع فكرة التشظي، فيعمل كل شخص ما يحلو له، بل الحزم والوضوح والأهداف المشخصة والعزيمة لتحقيق الأهداف كلها مطلوبة، ولكن طريق الوصول إلى الحزم ليس هو الشدة والغلظة، وإنما هو المرونة ومحبة الناس.

الإضاءة الثانية

كيفية نظر المسؤول إلى الأخطاء؟

كيف ينظر المسؤول إلى أخطاء الناس؟ وكيف يقيمّها؟ وكيف يتعامل معها؟ ورد في هذه العبارة قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، يُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَأ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ».

وكأن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يشير إلى أن الذين تصدر منهم سلوكيات ومواقف قد ينسجم بعضها مع القانون وقد لا ينسجم، وقد ينسجم بعضها مع رغبات المسؤول وفهمه وتقديراته للمصالح، وقد لا ينسجم، وقد يقومون بهذه الأعمال عمدًا وهم عارفون بأنها تغيظه، وقد تصدر منهم خطأ، فيجب أن يتعامل معهم على أساس مبدأ العفو والصفح.

---

١٤٣. تحف الأشراف: ٥٥. الصواعق المحرقة: ١٢٢.

وهذا العفو أو الصفح لا يعني تجاهل الحق العام، فإن ترك من يتجاوز الحدود والسِلم الاجتماعي والنظام العام في البلد بلا محاسبة يؤدي إلى أن تفقد الحكومة هيبتها، وتفقد المؤسسات هيبتها، وينبغي ألا يكون هذا العفو والصفح مبررًا ووسيلة لكي تنفرط الأمور وتخرج عن سياقاتها الصحيحة، بل لا بُدَّ من الحزم والوضوح في تطبيق الإجراءات، ولكن المقصود من هذا المبدأ هو زرع الثقة بين المسؤول والناس على مختلف المستويات، من أجل أن تكون الأجواء أجواء ثقة ومحبة واحترام وتفهّم، لكي يستطيع المسؤول أن يدفع الناس باتجاه المزيد من الالتزام بالضوابط والتعليمات التي يُفترض أنها وضعت لخدمتهم. يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الديوان المنسوب إليه:

وَذي سَفهٍ يُخاطِبُني بِجَهلٍ — فَأَكرَهُ أَن أَكونَ لَهُ مُجيبا

يَزيدُ سَفاهَةً وَأَزيدُ حُلما — كَعودٍ زادَ بِالإِحراقِ طِيبا

أي قد يكون الفعل الصادر من إنسان وقع خطأ، أو صدر منه بسفه، وهذا السفيه بسبب جهله يواجهني بسلوك غير مناسب ولائق، وأكره أن أجيبه بموقف انفعالي ورد فعل معين وأحولها من مسألة صغيرة إلى أزمة كبيرة، ثم تتفاقم هذه الأزمات، فيزيد سفاهة وأزيد حلمًا، كالعود كلما احترق أكثر انتشر طيبه.

فهذا السفيه يريد أن يستفزني بجهله وإساءته أو بشعار يرفعه أو بموقف يتخذه، ولكني أواجهه بمزيد من الحلم والاستيعاب والاحتضان وسحب كل الذرائع التي من شأنها أن تؤجج الموقف وتخلق أزمة، ولكن بشرط ألا يتعارض هذا العفو مع السلم العام والنظام العام ومع طبيعة الظروف المطلوبة للاستقرار في بلد ما.

الإضاءة الثالثة

الواقعية في نظرة المسؤول إلى نفسه

لا ينبغي أن يظن المسؤول أنه إذا كان وزيرًا أو أميرًا أو رئيسًا أو زعيمًا، فإنه صار خارج دائرة الخطأ وأصبح معصومًا، وأن الوزارة أو الرئاسة عاصمة لمن يتولاها عن الخطأ!، ولذا عليه ألا يعتقد بأن كل ما يفكر به ويتخذه من خطوات هو صحيح، فليس

الأمر كذلك، وعليه أن يكون واقعيًا في نظرته لنفسه وقدراته، ويحتمل الخطأ في كل كلمة وإجراء وسلوك وخطوة يخطوها، فإنه أيضًا يذنب ويعصي ويخالف رب العالمين، ويتخذ مواقف خلافًا للسياقات، ثم يمد يده إلى رب العالمين يطلب منه الصفح.

وإذا ما ادّعى المسؤول أنه لا يخطئ، فمعنى ذلك أنه ممن تأخذه العزة بالإثم، فهو لا يملك خصوصية تميزه عن غيره، وكل ميزته أنه جاءته فرصة فأصبح مسؤولًا!، ومع غض النظر، هل هذه الفرصة قد أخذها بجدارة وكفاءة وعلم وتصدّ وحسن أداء، أو أخذها عن غير وجه حق من الحزب الفلاني أو الجماعة الفلانية، وشفع له حظه الجيد فرشحه الحزب الفلاني وأصبح وزيرًا، في حين كان يحلم أن يكون ملاحظًا في دائرة.

ولكن سواء كان هذا أو ذاك، فالوزارة والإدارة والمسؤولية لقضية ما ولموقع ما، شيء، وصدور الخطأ من قبل المسؤول أو عدم صدوره شيء آخر، فهو يمكن أن يصدر منه الخطأ، وهو بحاجة إلى رحمة الله تعالى وإلى صفحه وعفوه.

وإذا كان يتوقع أنه لا يحتاج، فهذه مشكلة كبيرة، وإذا كان يحتاج ويعرف من نفسه الوقوع في الخطأ فلماذا لا يقدم الصفح لغيره؟!، وإذا كان يعرف أنه يمكن أن يخطئ فليقبل من غيره أنه يمكن أن يقع في الخطأ أيضًا، فلا يكون الخطأ مقبولا منه، ولكن يجب على الآخرين ألا يخطئوا!، فهذه ازدواجية، وهذا كلام غير مقبول.

فثقافة علي عَلَيْهِ السَّلَامُ هي ثقافة بناء الرؤية الموضوعية في نظره لنفسه، وعدم المكابرة في الاعتراف بالوقوع في الخطأ، والمسؤول بحاجة إلى العفو والصفح من الله تبارك وتعالى، فإذا كان كذلك فلماذا لا يسمح ولا يعترف بإمكانية أن يقع الناس في الخطأ، وهم بحاجة إلى العفو والصفح أيضًا؟! وهذه رؤية موضوعية يطرحها علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في طيات هذه العبارة.

الإضاءة الرابعة

العلاقة بين صفح الله وصفح الإنسان

هناك علاقة طردية مباشرة بين صفح الله سبحانه وتعالى عن عباده، وصفح الإنسان عن الإنسان. إن من يريد أن يُرحم فعليه أولًا أن يرحم الآخرين، ومن يريد الصفح من الله فليصفح أولًا عن الناس.

إذن، فهناك علاقة بين فعل الإنسان وفعل الله؛ كيف تتعامل مع الناس، فتوقع أن يأتي التعامل من الله على أساس هذه الخلفية. وهذه قاعدة مهمة من قواعد تنظيم السلوك الإنساني بحسب الرؤية الإسلاميّة، إذ يصبح الإنسان دائمًا مرآة لما يتوقع ويتطلع إليه في علاقته مع ربه.

فعليه أولًا أن يجسد هذه التوقعات في تعامله مع الناس، وحينما تسنح له الفرصة لخدمة أحد عباد الله، فليبادر إلى خدمته، فالذي يريد من الله أن يعطيه ويرحمه، فليرحم عباده أولًا، وأما من كانت لديه القدرة على الرحمة ولم يرحم، فكيف يطلب الرحمة من الله؟!.

إن هذه العلاقة تجعل الإنسان دائمًا أمام كوابح تكبح جماحه وتمنعه من أن يتطاول على الناس؛ لأنه ضعيف أمام الله سبحانه وتعالى، وله توقعات كبيرة جدًا، ومن منا ليس له قائمة طويلة من التوقعات والحوائج من الله سبحانه وتعالى، ويريد تحققها؟.

وقد تطرق القرآن الكريم إلى العلاقة بين فعل الله وفعل الإنسان، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١٤٤]، إذ ربطت الآية الكريمة بين العفو عن العباد ومغفرة الله تبارك وتعالى.

ونجد هذا الربط أيضًا بين الصفح عن الناس، ومغفرة الله تعالى على لسان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ إذ يقول: «الراحمون يرحمهم الرحمن»[١٤٥]، فالذي يريد أن يرحمه الله عليه أن يرحم الناس، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. فمن يريد الرحمة من السماء عليه أن يبدأها في الأرض وفي تعامله مع عباد الله. وهذه أيضًا قاعدة مهمة، وقد ورد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قوله: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»[١٤٦]، فارحم الناس حتى تتوقع الرحمة الإلهيّة. وفي هذا أيضًا درس كبير وعظيم.

---

١٤٤. سورة النور: الآية ٢٢.

١٤٥. مستدرك الوسائل ٩: ٥٥. كنز العمال ٣: ١٦٣..

١٤٦. صحيح مسلم ١٥: ٧٧.

الدرس الخامس عشر

سلسلة المراتب

وتناولت العبارة الأخرى في هذا المقطع الشريف من عهد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لمالك الأشتر: «فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَ وَالِي الأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ»، موضوع سلسلة المراتب في العمل الإداري والقيادي. فالوالي فوق هؤلاء الناس في الهرم الإداري، ثم الحاكم مسؤول عن هذا الوالي، ثم الله سبحانه فوق هذا الحاكم.

وقد استطاع البشر أن ينظموا حياتهم في جوانبها المختلفة على أساس تسلسل المراتب، فمثلًا تبدأ سلسلة المراتب المدنية من ملاحظ، ثم مسؤول قسم، ثم مدير، ثم مدير عام، ثم وزير، ثم رئيس وزراء. وأما سلسلة المراتب العسكريّة فتبدأ من ضابط بدرجة بسيطة حتى يصل إلى رتبة فريق. وسلسلة المراتب عند علي عَلَيْهِ السَّلَامُ تبدأ من المسؤول وتنتهي عند الإمام، ثم الله تعالى فوق الإمام.

ماذا تعني سلسلة المراتب في عملية الإدارة والقيادة؟، وما الرؤية الإسلاميّة للعلاقة الإنسانيّة في إدارة الأمور والشؤون؟. هذا ما سنتطرق إليه في الإضاءات التالية.

الإضاءة الأولى

الرؤية الصحيحة في سلسلة المراتب

سلسلة المراتب هي نوع من بسط النفوذ والرؤية السلطوية؛ فالمسؤول عن سيطرة تفتيش مثلًا يفتك بالناس ويؤخرهم حتى يشفي غليله من المسؤولية، ويأتي الضابط الأعلى منه رتبة فيسيء إليه حتى يشفي غليله أيضًا من المسؤولية، ثم يأتي الأعلى منه ليمارس نفس الدور.

وهكذا الموظف مع المواطن ومدير القسم مع الموظف والمدير العام مع مدير القسم والوكيل مع المدير العام. فهل سلسلة المراتب هي حالة تشفّ وحالة إشباع للروح السلطوية عند الناس؟، وهل هي اعتراف بهذا النفس السلطوي الذي يتحول إلى ثقافة وسلوكيات في الإدارة؟.

ونحن جميعًا نشاهد هذه الظواهر في حياتنا اليومية، فحينما يأتي مسؤول أدنى إلى مسؤول أعلى نراه يقف ساعة أو ساعتين ولا يقول له تفضل بالجلوس، وكأنما العمليّة قائمة على أساس أن كل واحد من موقعه يمارس هذه الحالة السلطوية على من هو دونه. وأما الموظف البسيط فهو يظهر حقد كل المسؤولين مع المواطن، الذي يقف بالانتظار ساعات على الشباك الخارجي للدائرة وعندما يأتي دوره يؤجل إنجاز عمله إلى الأسبوع القادم، وعندما يقول المواطن: إن معاملتي تحتاج إلى توقيع فقط وعندي التزامات كثيرة أخرى، يرد الموظف: ليس الأمر بهذه السهولة، فالمعاملة تحتاج إلى إجراءات روتينية وتحتاج إلى وقت، ولكن لو كان هذا المواطن يحمل قصاصة ورق من مسؤول أعلى، لما احتاج إلى ذلك الوقت.

وهكذا تتحول هذه السلوكيات إلى ثقافة، وكل واحد في سلسلة المراتب يريد أن يشبع غليله السلطوي ويمارس حالة التسلط على من هو دونه، فهل هذه هي النظرية الإسلاميّة في الإدارة؟، وهل يقبل الإسلام ويعترف بهذه السلوكيات؟، والجواب: كلا، إذ كيف يمكن أن يقبل الإسلام بمثل هذا وهو الذي دعا إلى تكريم الإنسان، كما جاء ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾؟[١٤٧].

إذن، السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا سلسلة المراتب هذه؟، أليست نوعا من الطبقية والتمييز بين الأفراد؟.

إن سلسلة المراتب في نظر الإسلام هي مجرد حالة تنظيمية للعمل وإدارة شؤون الناس، فمصالح الناس تتطلب نوعًا من التنظيم لتوجيه كل الطاقات باتجاه الهدف المنشود، فالشركة التي يعمل فيها ألف شخص تحتاج إلى مدير، والوزارة التي لديها مهام ومسؤوليات بلد تحتاج إلى وزير لإدارتها، ولا يمكن إدارة الآلاف من العاملين والتواصل معهم إلا من خلال عملية تسلسل المراتب من أجل تنظيم العمل وتفعيل كل الطاقات لتحقيق الهدف المنشود.

---

١٤٧. سورة الإسراء: الآية ٧٠.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في رسالته إلى الأشعث بن قيس عامله على آذربيجان: «وإن عملك ليس لك بطعمة، ولكنه في عنقك أمانة، وأنت مسترعى لمن فوقك»[١٤٨].

ينبه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ المسؤولين بأن الوظيفة التي أُنيطت بهم، كمدير ناحية أو شركة أو وزارة، ليست طعمة ومغنمًا، فيستغلون مركزهم لجمع الأموال، ويحاولون الاستفادة الشخصية من هذه الوظيفة إلى أقصى الحدود، فهذا الموقع ليس غنيمة، بل هو أمانة في أعناقهم، وعليهم أداء هذه الأمانة على أحسن وجه.

فالمنصب عند علي عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أمانة يؤتمن عليها المسؤول في هذا الموقع أو ذاك.

ثم يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في تعبير عجيب: «وأنت مسترعى لمن فوقك»، أي أن المسؤول معني بحفظ الأمانة لمن هو فوقه، ومن فوقه يحفظ الأمانة لمن فوقه، حتى يتحقق الهدف لخدمة الناس من خلال كل هذه المنظومة، وهذا ليس مغنمًا، بل هي أمانة في أيدينا، وعلينا أن نحافظ عليها.

إذن، سلسلة المراتب هي عملية تنظيمية لإدارة شؤون أي منظومة قياديّة لتحقيق أهدافها المنشودة، وعلى جميع من يتصدى لهذه المسؤولية في أي مرتبة من المراتب، أن يحفظ هذه الأمانة ويرعاها ويسلمها كاملة، حتى تنجز مصالح الناس ويتحقق الهدف الأساسي وهو خدمة الناس.

وهذا يعني أنه لا توجد صلاحيات مطلقة لأحد، ولا يوجد مسؤول فوق القانون وفوق العدالة وفوق الإجراءات، فالمسؤول مهما كانت درجته الوظيفية ستبقى هذه المسؤولية أمانة في عنقه، والله تعالى فوقه يراقبه في حفظ هذه الأمانة.

لقد أعطى الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لمالك الأشتر رسالة ينقلها إلى أهل مصر، بالإضافة إلى العهد الذي أعطاه إياه وحمّله فيه إدارة ولاية مصر وحدد له واجباته. وقد بين أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الرسالة لأهل مصر الطريقة التي ينبغي أن يتعاملوا فيها مع الوالي الجديد.

يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أما بعد، فقد بعثت إليكم عبدًا من عباد الله، لا ينام أيام الخوف، ولا ينكل عن الأعداء ساعات الروع، أشد على الفجّار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج، فاسمعوا له وأطيعوا أمره في ما طابق الحق..»[١٤٩].

---

١٤٨. نهج البلاغة: الرسالة ٥.

١٤٩. نهج البلاغة: الرسالة ٣٨.

أول شيء يذكره علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في تعريف أهل مصر بمالك أنه عبد لله، فهو لم يبعث طاغية وسلطانًا يتأمر عليهم، بل هو عبد من عباد الله عز وجل، بكل ما تتسع له العبودية من معنى.

ثم يصفه عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه لا ينام أيام الخوف، فهو لا يتنصل من تحمل المسؤولية في أيام الشدة، ولا يلقي بأعباء المسؤولية على كاهل الآخرين أيام الأزمات والمشاكل، ليحملهم الفشل بعد حين، أو أنه يخفي رأسه تحت الرمال كالنعامة عند حدوث الأزمات، وكأنه لا مشاكل ولا شيء يعكر صفو الوضع، وأن كل شيء على أحسن ما يرام، أو يخرج في أحسن الأحوال ليخبر الناس عن وجود مشكلة ويطلب منهم أو من الجهات المعنية التصدي لحلها. فمثل هؤلاء لا يعرفون من المسؤولية سوى إيفادات وامتيازات وخدمات ومكاتب فارهة.

والصفة الأخرى التي يصف بها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكًا هي أنه لا ينكل عن الأعداء ساعات الروع، ولا يجبن أيام المعارك والحروب، بل يتقدم أمام الجميع ولا يفر من المواجهة. وهو أشد على الفجار من حريق النار لشدة بأسه وقوة شكيمته، فلا يتساهل مع الاعوجاج والانحراف الذي يخاطر بسلامة المجتمع. ثم يذكر لهم اسمه ونسبه، ويأمرهم بالسمع له والطاعة في ما يأمرهم به ما كان مطابقًا للحق.

ومع كل هذه الصفات والخصال التي يتمتع بها مالك فإن عليًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يأمرهم بإطاعة أمره ويسكت، بل أمرهم بالطاعة في ما وافق الحق، فليس هناك أمر مطلق في الطاعة، بل يجب التأكد هل ما يأمر به المسؤول مطابق للحق فيؤخذ به، أو غير مطابق للحق فلا يؤخذ به. فالحق هو المعيار، والعدل هو المعيار. وهذا هو منهج علي عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي يضعه دستورًا للمسلمين، فمنهج علي عَلَيْهِ السَّلَامُ هو منهج الإسلام، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والمأمور ليس معذورًا.

وينبغي أن يسأل الإنسان نفسه: هل هذا الأمر الذي يأمر به المسؤول ينسجم مع الحق وطاعة الله أو لا ينسجم؟، فإذا كان منسجمًا فليعمل به وإلا فلا. ولاحظوا مثلًا يوم انتصرت الثورة الإسلاميّة كان الإمام الشهيد الصدر ينظر إليها بأنها ثورة يقودها مرجع من مراجع المسلمين وعالم من علماء الدين، ولكن مع ذلك قال: ذوبوا في الإمام الخميني كما ذاب هو في الإسلام. فأنا اليوم أرى الرجل ذائبا في الإسلام، ولكنه ليس معصومًا حتى لو كان عالمًا كبيرًا ومرجعًا من مراجع المسلمين.

الإضاءة الثانية

سلسلة المراتب وتوزيع الصلاحيات

تشير هذه العبارة الشريفة من العهد المبارك لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مالك الأشتر إلى أن سلسلة المراتب تعبّر عن عملية توزيع الصلاحيات والعمل الجماعي، فكأن الإسلام في منظومته القياديّة يعتقد بضرورة العمل الجماعي، ولا يقبل باحتكار القرار والسلطة والموقع المتقدم لشخص واحد، فهو أمر بعيد عن النظرية الإسلاميّة في القيادة والإدارة.

وسلسلة المراتب تعني توزيع الصلاحيات بين مجموعة من الناس، فإن العمل المشترك، والعمل الجماعي هو الطريقة المثلى للإدارة الصحيحة من وجهة نظر إسلامية، وإن الرجل الواحد مهما كان كفوءًا ومقتدرًا ويمتلك قدرات ذهنية عالية، لكنه لا يستطيع أن يلبي كل الاحتياجات ويغطي كل المساحات في الدائرة التي يتحمل مسؤوليتها، ولا بُدَّ له من الاستعانة بالآخرين لضمان النجاح، فالرأي الواحد مهما كان حصيفًا ينزلق في الخطأ أحيانًا، والجهد الواحد مهما كان كبيرًا، لكنه قد لا يغطي كل المساحات، واليد الواحدة مهما كانت قوية فهي لا تصفق، والإنسان يحتاج إلى أكثر من يد حتى يتمكن من التصفيق، فالإنسان لوحده لا يستطيع تحقيق النتائج الكاملة للعمل الذي يضطلع به.

ومن ناحية أخرى فإنه حينما يُحتكر القرار والسلطة في أي مساحة من المساحات بيد رجل واحد، فهذا لا يبعث الحماسة ولا يشجع الآخرين لكي يبذلوا جهدهم لهذا العمل، ويزعم أنه إذا أشرك الآخرين فإن جهوده ستصادر ويكون التصفيق لفلان من الناس ويغيب هو عن الإطار، ويتوهم أن النتائج إذا كانت خيرًا فستنسحب للآخرين، وإذا كانت سوءًا فهو الذي سيتحملها.

فلا يمكن أن تحصل حالة الحماسة وحالة الاندفاع والاستعداد للتضحية من أجل نجاح مشروع ما، إلا من خلال العمل الجماعي وسلسلة المراتب ووجود صلاحيات تُمنح لعدد من الناس في المنظومة الإدارية والقياديّة، وحينئذ ستنبعث الحماسة والاندفاع في إطار العمل الجماعي، ما يؤدي إلى استنفار كل الطاقات في العمل الواحد، وهذا يؤثر في مستوى العلاقة الإنسانيّة بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من خطبة له في صفين في أثناء المعركة: «وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته، وتقدمت في الدين فضيلته، بفوق أن يُعان على ما حمله

الله من حقه، ولا امرؤ وإن صغّرته النفوس، واقتحمته العيون، بدون أن يُعين على ذلك أو يُعان عليه»[١٥٠].

أي مهما كان الإنسان عظيم المنزلة، لا في القدرة على القتال، ولا في الشجاعة، ولا في اللياقات البدنية، بل كان عظيم المنزلة في الحق، أي في حقانية المشروع والشعار والمسار والوسائل والأهداف والخلفيات والدوافع والمبررات، فهو ليس فوق أن يُعان على أداء مسؤوليته.

ومن الأمثلة البارزة على عظمة المنزلة في الحق، هو علي الأكبر عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما تجسد ذلك في قوله لأبيه الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أولسنا على الحق؟ إذن لا نبالي أوقعنا على الموت أم وقع الموت علينا». فالعظمة في الحق هي أعلى رتبة من العظمة في الشجاعة وفي المؤهلات الشخصية وفي الوجاهات وفي التأثير في الناس.

ومهما تقدمت فضيلة هذا الإنسان في الدين أيضًا، فهو غير مستغن عن المساعدة في أداء مسؤوليته. والتقدم بالفضل في الدين إنما يتحقق في الاعتماد على المعايير والقيم والثوابت الدينية، والالتزام بالأطر والسياقات والمبادئ والقيم، فهو رجل مثالي يسير في الاتجاه الصحيح، فشعاراته حقة ووسائله حقة. فمثل هذا الإنسان العظيم المنزلة في الحق، والمتقدمة فضيلته في الدين، ليس بمستغن عن أن يعينه الآخرون. ولقد كانت هذه الصفات تنطبق على علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في ساحة المعركة، فهو يريد أن يعطي الدرس في الوقت المناسب والمكان المناسب.

وقت طرح المعلومة

ربما يدور في خلد البعض، لماذا يطرح علي عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه المعلومة في هذا الوقت الحساس، وهو في خضم المعركة، والقائد في حاجة ماسة إلى طاعة جيشه وعدم إشراك الآخرين في قراره؟، ألم يكن من الأجدر أن يؤخر الحديث عن هذا الموضوع إلى حين حسم نتيجة المعركة والرجوع إلى الكوفة؟.

والجواب، أن هنا درس آخر يريد أن يعلمنا إياه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو متى ينبغي أن تعطى المعلومة حتى لو كانت تضر بالإنسان نفسه وبصلاحياته وقدراته؟. وعلى المسؤول أن يعلم أن هناك ضوابط معينة وثغرات ومداخل إذا اطلع عليها المواطن يمكن أن يستند إليها ويقف بوجهه ويعطل قراره ويدعوه إلى أن يسمع منه ويلزمه بأن يأخذ منه،

١٥٠. نهج البلاغة: الخطبة ٢١٦.

ففي حالات كهذه، هل يخبر المواطن بأن لديه هذه الحقوق، أو ينبغي أن يخفيها عنه خوفًا من أن يستفيد منها ضده؟.

وفي الوقت الذي كان فيه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في ساحة المعركة ويحتاج إلى أن يكون هو الآمر والناهي، يختار هذه اللحظة ليقول للناس: «وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته وتقدمت في الدين فضيلته، بفوق أن يعان على ما حمّله الله من حقه». وهنا إشارة مهمة جدًا إلى أن مسألة الإدارة والحكم هي حق الله سبحانه، فهذا المال وهذه المسؤولية ليسا ملك المسؤول، بل هما حق الله وهو مؤتمن عليهما، وعليه تأدية الأمانة كما ينبغي وفقًا لما حمّله الله تعالى.

فالله هو من حمّله هذه الأمانة، فأصبح مسؤولًا في مساحة ودائرة تلك المسؤولية، فالزوج مسؤول عن زوجته، وهي أمانة عنده، فلا يجوز له أن يظلمها، وهو مسؤول عن أولاده وهم أمانة في رقبته، فلا يجوز أن يضربهم ويحاول أن يهديهم ويربيهم من خلال الرفق واللين.

وكذلك المسؤول في المصنع والدائرة والمعسكر والعشيرة والمدرسة وفي أي مساحة من مساحات المسؤولية، فلا ينبغي أن يسيء إلى من هم تحت مسؤوليته، وليستعن بهم ويستخدمهم في العمل الجماعي.

ومن جانب آخر تتجلى عظمة علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في فهمه الدقيق للإسلام ورؤيته العميقة للعمل الاجتماعي في قوله: «ولا امرؤ وإن صغّرته النفوس واقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه». فهناك رجل تزهد به الناس، ويتساءلون عما يملك هذا حتى يمكن أن يقدم ويعطي شيئًا، وما هي خبرته؟، ونحن أناس أصحاب شهادات وتجارب، فمن يكون حتى نستشيره ونأخذ كلامه؟.

ومعنى صغّرته النفوس: قللت قيمته، ومعنى اقتحمته العيون: احتقرته، فهو برأيهم لا يساوي شيئًا، وليس عنده فكر ولا رؤية ولن يفيدهم بشيء. ومثل هذا الشخص لا بُدَّ من أن تُطلب مساعدته، ولا يجوز الاستهانة بقدراته، فهناك، أحيانًا، رجل ذو ثقافة بسيطة، ولكنه يتكلم بمعان عميقة، نستطيع أن نأخذ الفكرة منها ونصوغها.

انظروا إلى ما يقوله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «عليكم بدين العجائز»[151]، واستغرب السامعون وتساءلوا: ما دين العجائز؟ سُئلت عجوز: ما الدليل على وجود الله؟، فقالت وهي تغزل بمغزلها: إني إذا أوقفت يدي وقف هذا المغزل وإذا حركته تحرك، فكذلك

١٥١. بحار الأنوار ٦٦: ١٣٥.

هذا الكون لا يمكن أن يتحرك من غير محرك، وإذا رفع يده عنه توقف، فهذا شاهد بسيط ومثال بسيط، ولكن يعبّر عن دليل عقلي وفلسفي عميق للتوحيد، ولدور واجب الوجود في الكون. فليس المهم العبارات والشكليات، بل المهم هو المغزى والمضمون.

ويقال لمن يسترسل في الكلام بأنه رجل متكلم، ولكن نحن نبحث عن المضمون، فربما كان هناك شاب بسيط، ولكن يمكن أن تأتي في باله رؤية تمثل نقلة نوعية وتؤدي إلى انتصارات كبرى.

واليوم بدأ العالم يتكلم بالفيس بوك، وبدأت الشعوب تستخدم الفيس بوك وتقوم بثورات، فما قصة الفيس بوك؟، قصته أن شابًا بسيطًا عمره سبع عشرة سنة غضبت منه صديقته، فجلس في البيت مغموما، وسأل نفسه كيف أتواصل مع الناس؟. ففكر أن يفتح موقعًا في الإنترنت ويبحث عن أصدقاء، وهكذا بدأ من فكرة بسيطة من شاب بسيط، حتى أنه لم يكن عبقريًا في نظام الحاسبات، فبدأ وانتشر كالنار في الهشيم، وتحول اليوم إلى أكبر موقع للتواصل الاجتماعي.

وخلال أربع أو خمس سنوات، بعد أن بدأت الفكرة من شاب فقير، يقال إن هذا الموضوع يساوي اليوم ستين مليار دولار. فهذه فكرة جاءت في ذهن شاب بسيط وتحولت إلى ثورات غيرت حكومات، ولو جلس كبار الخبراء والمختصين لتجميع الشعوب وتحريكها لم يتوصلوا إلى هذه الفكرة.

والإسلام يقول في المنظومة الناجحة، لا تزهدوا بأي فكرة أو رأي، فربما أنتج مشاريع كبيرة، فمهما كان امرؤ بسيطًا في نظر الناس، وكانت تنظر إليه العيون باحتقار، ليس بأقل من أن تصدر منه الإعانة والمساعدة لمن يتصدى لتحمل المسؤولية، أو تعينوه إذا تحمل المسؤولية.

إذن فما دام هذا الإنسان ليس كفوءًا وأصبح مسؤولًا، فيجب مساعدته وعدم إظهار الشماتة به لعدم كفاءته، والحذر من تعريته والإساءة إليه، فإن ذلك سيعطل مصالح شعب كامل، فإذا كان ضعيفًا فيجب الوقوف إلى جانبه حتى ينجح، وإذا كان قويًا فلا ينبغي له أن يزهد بأبسط الناس لعله يقدم له رؤية وفكرة يستطع من خلالها القيام بعمل كبير. فيجب على المسؤول أن تكون له أُذن صاغية يسمع ويرى ويستفيد، ولا يصاب بالغرور، وهذه صفة مهمة جدًا في نجاح المنظومة القياديّة من وجهة نظر علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

إذن، المنظومة الادارية الناجحة تعني العمل الجماعي، وتعني استنفار الطاقات والإمكانات البشرية والماديّة في خدمة هدف المنظومة الإدارية الصالحة والناجحة، وتعني توزيع وتخويل الصلاحيات من المسؤول الأعلى لمن هم دونه في المراتب.

وأما نظامنا فيقول إن الوزير هو الأول والآخر والظاهر والباطن في شؤون وزارته، وهو أمر غير صحيح، وعلى الوزير تخويل وكلائه بعض صلاحياته، فلا يجلس الوكلاء في غرفهم بلا عمل والوزير لا يستطيع حتى أن يتواصل مع البريد، ويصر على أن تكون كل الصلاحيات بيده، في حين يجب عليه تخويل الوكلاء بعض الصلاحيات، فإن نجاحهم نجاح له أيضًا، وعلى الوكيل أيضًا تخويل المدراء العامين الصلاحيات، وهكذا سلسلة المراتب. فالمدير الناجح ليس هو من يعمل ليل نهار، بل هو الذي يعرف كيف يجعل الآخرين يعملون ليل نهار.

إن تخويل الصلاحيات في الفهم الإسلامي هو أيضًا توسيع للشراكة في القرار وفي الإدارة، وتوسيع الشراكة في المنظومة القياديّة من الوسائل الأساسيّة في الفهم الإسلامي لنجاح العمل، فحينما تخول الصلاحيات يصبح للمسؤول الأدنى مساحات أوسع يتحرك فيها، ولكن هذا التخويل لا يسلب منه المسؤولية، فيكون المسؤول الأدنى مسؤولا في المباشرة، والمسؤول الأعلى مسؤولا في الإشراف، وهو شريك مع الآخرين الذين يعملون معه في دائرة المسؤولية.

هكذا ينظر الإسلام إلى هذه الأمور، حينما أعطى علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وصاياه الخالدة قال: «الله الله في القرآن لا يسبقكم إلى العمل به غيركم»[١٥٢]، إياكم أن تسبقكم الأمم الأخرى للعمل بهذه التوصيات فتتقدم، بينما تبقون متأخرين بسبب تركُكم لهذه الوصايا.

قرأت قبل فترة في صحيفة أن قطارًا في أحد البلدان ارتطم مباشرة مع قطار آخر، فقدم وزير النقل استقالته؛ لأنه يعتقد بأنه لم يستطع أن يبني منظومة صحيحة، فهو المسؤول الأول عما حدث من أخطاء، وإن خول الآخرين صلاحياته.

وهذه هي النظرية الإسلاميّة في تخويل الصلاحيات، ولكن يبقى الوزيرهو الشريك في المسؤولية، ولا يتحمل المسؤولية المسؤول الأدنى فقط. ولكن في بلدنا، تُعلّق أكبر المشاكل التي تحصل في أعناق المراتب الدنيا، ويُبرأ أصحاب المراتب العليا من المسؤولين.

١٥٢. الكافي ٧: ٥٧.

فمثلًا، في تفجير يذهب ضحيته ستون شهيدًا، تُلقى المسؤولية على السيطرة الفلانية ويرمون في السجن، ويُبرأ الضابط الأعلى والمسؤول الأعلى ووزير الداخلية، ولا يتكلمون عنهم، ويقولون إن المشكلة حدثت من خرق تسبب به هذا الجندي، في حين يذهب الإسلام إلى إشراك المسؤول الأعلى في المسؤولية وإن منح صلاحياته إلى من هو دونه؛ لأن مهمة الإشراف تبقى من مهامه في هذه العمليّة.

ولا يحق للمسؤول الأدنى أن يتنصل من المسؤولية أيضًا ويمتنع عن توقيع بعض القرارات بذريعة أن وراءها نزاهة، ويقول ليوقع الوزير أو المدير العام، فإنه لو حدثت مشكلة فإن وراءهما حزبًا يحميهما، ولو حصلت نتيجة إيجابية فستذهب إلى غيري. وهكذا لا يريد المسؤول الأدنى أن يتحمل المسؤولية، والمسؤول الأعلى يريد أن يحتكر المسؤولية، أو يعطيها حينما يكون وراءها مشاكل ليتنصل من تلك المسؤولية. وهذا كله خلاف الفهم الإسلامي والرؤية الإسلاميّة للمنظومة القياديّة والإدارية.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في رسالة كتبها إلى ابن عمه عبد الله بن عباس وكان قد ولاه على البصرة، وهي تتألف من مقطعين، وشاهدنا في المقطع الثاني، ولكن نذكر المقطع الأول هدية لأهل البصرة وهدية لبني تميم الذين يمدحهم كثيرًا: «فحادثْ أهلها بالإحسان إليهم، واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم، وقد بلغني تنمرك لبني تميم، وغلظتك عليهم، وإن بني تميم لم يغب لهم نجم إلا طلع لهم آخر، وإنهم لم يسبقوا بوغم في جاهلية ولا إسلام، وإن لهم بنا رحمًا ماسة، وقرابة خاصة، نحن مأجورون على صلتها، ومأزورون على قطيعتها. فاربع أبا العباس رحمك الله في ما جرى على لسانك ويدك من خير وشر، فإنا شريكان في ذلك، وكن عند صالح ظني بك، ولا يفيلن رأيي فيك»[١٥٣]

يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ محافظ البصرة أن يكون حديثه وحواره مع أهل البصرة هادئًا، وأن يحسن إليهم ويسمعهم الكلام الطيب، فإن أهل البصرة يستحقون الإحسان. ويطلب منه أيضًا أن يحلل عقدة الخوف عن قلوبهم، ولا يجعلهم يشعرون بالخوف والقلق، وأن يفتح لهم الأبواب والقلوب.

ثم ينتقل إلى توبيخه على سوء تصرفه مع قبيلة بني تميم، وهي من أكبر قبائل البصرة، ويقول له إنه قد تناهى إلى سمعه تشدده على بني تميم، وإسماعهم كلامًا شديدًا، وغلظته في تعامله معهم.

---

١٥٣. نهج البلاغة: الرسالة ١٨.

ثم يحذره عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن بني تميم لم تغب لهم شخصية قياديّة إلا طلع لهم قيادي آخر، فهؤلاء قبيلة معروفة بالأصالة والشجاعة، ولا أحد يجرؤ على حربهم، لا في زمن الإسلام ولا في الجاهلية؛ لأنهم أبطال أشاوس فلا أحد يسبقهم ويتقدمهم بقتال.

فلماذا تسيء إليهم؟، مع أن لهم ببني هاشم رحمًا ماسة وقرابة حقيقة تعود إلى إلياس بن مضر وهو الجد السادس عشر لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فنسب بني تميم وبني هاشم يلتقي عند إلياس بن مضر، ونحن مأجورون على صلتها والتواصل معها، ومأثومون على قطيعتها وهجرانها. وهذه شهادة من علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لبني تميم على خصالهم الحميدة وقرابتهم الحميمة.

ثم يحذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن عباس في ما يجرى على لسانه ويده من خير أو شر، ويبين له العلة في ذلك بأنه شريك له في كل ما يصدر منه من خير أو شر. ولا تظنَنَّ أنك تتحمل المسؤولية بمفردك، فأنا علي بن أبي طالب الذي وضعتك في هذا المنصب أتحمل المسؤولية معك.

وأين أنت ياعلي لترى ما نحن فيه؟، فإنا لا نرمي فشل الحكومات المحليّة على المحافظ ومجلس المحافظة فقط، بل نرمي مشاكل الحكومة الاتحاديّة أيضًا على الحكومات المحليّة؛ فعندما يُسألون عن عدم توفر الخدمات، يقولون إن السبب هو أن مجالس المحافظات لا تعمل بشكل جيد. وإذا سُئلوا عن الفساد المالي والإداري يحمّلون مجالس المحافظات ذلك.. وهكذا.

فهل هذه مهام مجالس المحافظات؟، ولو كانت مهامها، فكذلك يجب على الحكومة الاتحاديّة ألا تتنصل من المهام التي هي شريكة فيها مع الحكومة المحليّة، فما بالك إذا كانت هي من صلاحياتها؟!.

وعلى كل حال فهذا هو المنهج الذي يقدمه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو شريك في ما يقوله ويعمله المسؤولون الذين نصّبهم. ولذلك يجب علينا جميعًا أن نتحمّل المسؤولية.

وأخيرأ يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ واليه على البصرة أن يكون عند حسن ظنه به، فإنه يحسن الظن به، ولا يجعل قناعته تضعف وتنتهي به، بسبب تصرفاته هذه. وفي هذا الكلام تحذير مبطن وتهديد بالعزل إن تكرر منه ذلك.

وأين نحن من نهج علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي يتكلم مع ابن عمه بهذا الأسلوب، فتسقط اعتبارات القرابة والحزبية عندما يتولى المسؤولية، بينما نتستر على الفاسدين والمقصرين إذا كانوا من أقربائنا أو من حزبنا. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الدرس السادس عشر

حسن الأداء والكفاءة

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر حينما ولاه مصر: «وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ، وَابْتَلاَكَ بِهِمْ».

يخاطب أمير المؤمنين مالكًا بصفته مسؤولًا: لقد استكفاك الله سبحانه وتعالى أمر الناس، أي طلب منك الكفاية وحسن أداء المسؤولية، فإنها أمانة الله بين يديك، وعليك ألا تخونها، فأنت مسؤول أمام الله قبل أن تكون مسؤولًا أمام الناس الذين تتحمل المسؤولية تجاههم.

وهذه في جانب منها ترتبط بالثقافة التي تجعل المسؤول ناظرًا إلى الله سبحانه، فهو الذي يراقب ويتابع، وحينذاك يرصد كل كبيرة وصغيرة وكل شاردة وواردة، ومن كان قادرًا على إخفاء معلومة عن الآخرين فهو غير قادر على إخفائها عن الله سبحانه. وهذه تعطي الحصانة للمسؤول وتمنعه من أن يقع في الخطأ حتى إذا استطاع ذلك من دون أن يترك بصمات معينة، ولكنها من جانب آخر تشير وتؤكد أيضًا على أهمية حسن الأداء والكفاءة.

ثم يقول له إن هذه المسؤولية ليست تشريفًا أو امتيازات أو فرصة لتطوير وتوسيع النفوذ والإمكانيات، وإنما هي ابتلاء واختبار من الله سبحانه وتعالى، ليرى كيف ستتعامل وتلبّي طموحات المواطنين، وكيف سيكون التزامك بالمعايير المطلوبة لإنجاح هذه المهمة القياديّة.

وهنا يمكن الإشارة إلى مجموعة من الإضاءات في فهم هذه العبارة القصيرة.

الإضاءة الأولى

التصدي مسؤولية والتزام

إن التصدي لمواقع الخدمة العامة إنما هو مسؤولية والتزام، ولا مجال فيه للتساهل والارتجال والمزاجية، فحينما يكون الإنسان في موقع الخدمة العامة ومواقع التصدي يكون مسؤولًا أمام الله سبحانه وأمام المواطنين.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تأكيدًا لهذا المعنى في عهده لمحمد بن أبي بكر حين ولاه مصر: «فاخفض لهم جناحك، وألن لهم جانبك، وابسط لهم وجهك، وآسِ بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم، فإن الله تعالى يسائلكم معشر عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة، والظاهرة والمستورة»[١٥٤].

عندما يُنصب الإنسان مسؤولًا فعليه أن ينظر أولًا إلى سلوكه وتعامله مع الناس، فيخفض جناحه ويتواضع لهم، وأن يكون سهلًا في التعامل معهم، وأن يبسط لهم وجهه، وبساطة الوجه هي الابتسامة، أي حينما يتعامل مع المسؤول عنهم يبتسم لهم، لا أن ينبض قلب المواطن قلقًا إذا أراد أن يدخل غرفة المسؤول وإن كان موظفًا بسيطًا لأنه لا يدري بماذا يجاب، وكيف سيتعامل معه. فعلى المسؤول أن يلقى الناس بطلاقة الوجه ويتعامل معهم بسهولة ويسر.

ثم يطلب منه المساواة بين المراجعين في نظراته الفاحصة ونظراته الخاطفة، فلا ينشغل مع شخص ويترك الآخر؛ لأن الأول يمثل الحزب الفلاني يجلس معه نصف ساعة، والآخر مواطن عادي لا يجيبه ولا يرد سلامه، فينهار ويشعر بالتمييز والتفاضل، لأن هناك من هو أفضل منه وهو الشخص الذي يُولى الاهتمام.

فلا يمكن لإنسان أن يكون مسؤولًا عن مجموعة وهو لا يعدل بينهم، ولا يواسي بينهم حتى في النظرة، في حين ينبغي على المسؤول أن ينظر للجميع على حد سواء؛ لكي يشعر الجميع بالاطمئنان، سواء كان فقيرًا أو غنيًا، ووجيهًا أو مواطنا بسيطًا. فلا يجوز للمسؤول أن يفرّق بين الناس على أساس خلفياتهم المذهبية أو القومية أو السياسيّة

١٥٤. نهج البلاغة: الرسالة ٢٧.

أو المستوى الاجتماعي أو الطبقة الاجتماعيّة أو ما إلى ذلك، لأنه مسؤول عن الجميع ويجب أن يكون تعامله عادلًا مع الجميع ويتعامل معهم على حد سواء.

ثم يعلل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وجوب المساواة بين المواطنين بأنه حتى لا يطمع أصحاب الوجاهات والنفوذ وأصحاب الأموال في إمكانية ظلم المسؤول للناس من أجلهم، ولا ييأس الضعيف من عدل المسؤول، فيأتي ولديه أمل بأنه يستطيع أن يأخذ حقه ممن ظلمه.

ثم يبين أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ حقيقة غائبة عن أنظار المسؤولين، وهي أن الله تعالى يسائلهم عن عباده يوم القيامة. وهذه رؤية لها خلفيات عميقة جدًا تجعل الإنسان يراقب إيقاعات سلوكه، ويدقق في كل خطوة من خطواته وفي كل كلمة من كلماته وفي كل إشارة من إشاراته، لأنها يمكن أن تكون مثار المساءلة من الله تعالى، فإن الله تعالى يسأل المسؤولين عن كل أقوالهم وأعمالهم، الصغيرة منها والكبيرة، فحجم العمل لا يغير من طبيعة المساءلة، سواء كان الخطأ جسيمًا وعظيمًا أو كان بسيطًا وتافهًا.

وقد يقول البعض إن الأخطاء الصغيرة ليست مشكلة، كلا، بل كلها مشاكل، فالمرض مرض سواء كان زكامًا أو ورمًا خبيثًا، وهو يحتاج إلى العلاج ومراجعة الطبيب. وكذلك يحاسبهم الله تعالى على أعمالهم الظاهرة للعيان أو المستورة والخفية على الناس، فهي لا تختلف عند الله تعالى، فالسرقة سرقة، علم الناس بها أو لم يعلموا، والخطأ خطأ عرفه الناس أو لم يعرفوه.

ولذلك عندما يكون الحساب دنيويًا فالمسؤول يتستر ويخفي أعماله غير الصحيحة عن الآخرين، ليكون في مأمن من الملاحقة القانونية، ولكن حينما تدخل السماء في هذه العمليّة فلا يمكن أن يُخفي عليها شيئًا. فالله تعالى لا يخفى عليه شيء، وحينذاك يراقب الإنسان نفسه أينما كان وحيثما كان.

الإضاءة الثانية

العلاقة بين التصدي وحسن الأداء

هذه العبارة تربط بين التصدي وحسن الأداء. يجب على الإنسان إذا أراد أن يكون مسؤولًا أن يتأكد من قدرته على أداء الواجب في هذه المهمة المناطة به. انظروا إلى العبارة ماذا يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ»، أي أن الله تبارك وتعالى

طلب من المسؤول حسن الأداء وألا يتحمل المسؤولية بدون قدرة على تقديم الأداء الجيد.

فلا ينبغي له التصدي إلى المهمة التي ليس لديه اختصاص فيها، فمن كان مهندسًا لا ينبغي له أن يتسلم مسؤولية الصحة، ومن كان طبيبًا لا ينبغي له أن يتسلم مسؤولية التجارة.. وهكذا. فلا ينبغي أن يتصدى الإنسان إلى مهمة بعيدة عن اختصاصه، وعليه أن يتصدى إلى مهمة بإمكانه أن يحقق النجاح فيها ويصلح أمر الناس من خلالها.

إذن، يقول الإسلام إن من لا يجد في نفسه الكفاءة في مهمة معينة، لا يحق له أن يتصدى لها، ومن لا يجد في نفسه الاختصاص في مهمة معينة حتى لو عُرضت عليه، لا يحق له قبولها. ولا يجوز له أن يبرر قبوله بإلحاح الجماعة عليه أو أن الواجب الشرعي أو الواجب الوطني يحتّم عليه القبول، وما إلى ذلك من تبريرات واهية.

فمن قال إن هذا واجب شرعي؟. لقد أصبح المسؤولون اليوم كلهم فقهاء يفتون كما يشاؤون! وإلا كيف أصبح التصدي لما هو خارج عن الاختصاص واجبًا شرعيًا؟! وكيف يصبح مثل هذا التصدي واجبًا وطنيًا لمن لا يستطيع أن يقدم في هذا الاختصاص شيئًا؟!. وإنه لمن المخجل حقًا أن نلوذ ونتستر خلف شعارات الواجبات الشرعيّة والوطنية في خطوات تتقاطع مع هذه الواجبات.

فمن كان وطنيًا وهو غير كفوء يسيء لنفسه وللموقع وللناس، ومن كان متشرعًا فالإسلام لا يجيز له أن يتصدى لمهمة ليس مختصًا فيها، فقد روي عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ: «إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها»[155]، فمن كانت لديه الأهلية والكفاءة والقدرة على حسن الأداء، يجوز له التصدى للرئاسة والمسؤولية. ولا يجوز أن يتصدى لمن ليست له القابلية على تحمّل المسؤولية أن يتصدى، وإن اقترح عليه البعض ذلك، وسيكبر حينئذ في عيون الناس، كما أن له الأجر العظيم عند الله تبارك وتعالى؛ لأنه غير قادر على تحقيق النتائج المطلوبة. وتصدي غير الكفوء عبث وتضييع للجهود، وابتعاد عن الأهداف المرجوة في أي مساحة من المساحات.

ويشهد لذلك قول أمير المؤمنين عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ في إحدى خطبه: «وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون من أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا

١٥٥. الكافي ١: ٤٧ح٦.

الحائف للدول فيتخذ قومًا دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة»[١٥٦].

يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع الشريف مجموعة من الصفات التي لا يصلح من كانت فيه أن يتصدى للحكم والمسؤولية، وهي صفات البخل والجهل والجفاء والحيف والرشوة وتعطيل السُنّة.

فينبغي للحاكم على الفروج والأعراض والدماء والأموال والحاكمية العامة على المسلمين ألا يكون بخيلًا؛ لأن نهمته ستكون في أموالهم، ومن كان كذلك فلا يمكن أن يؤتمن على أعراض الناس أيضًا ودمائهم وحاكميتهم، فمن كانت له القابلية على الخيانة في الأموال فهو خائن أيضًا في الأعراض والدماء والحكم، وسيسهل عليه بيعها بأتفه الأثمان. فلا يجوز تسليم المسؤولية للبخيل إذ ستتحول بيده إلى معول يهدم فيه كيان المسلمين الاجتماعي والاقتصادي والسياسيّ.

كما ينبغي للحاكم والمسؤول ألا يكون جاهلًا، فيسلك بهم طريق الضلال بجهله. فهذا الجاهل حتى لو كان إنسانًا طيبًا ولكنه غير مختص وغير خبير فيسيء إلى المهمة المناطة به، وحينئذ سيضل الناس في ما هو مكلف به.

وينبغي للحاكم والمسؤول ألا يكون جافيًا فيقطع الناس بجفائه ويمنعهم من الوصول إليه، والجافي من الجفاء وهو الظلم، والظالم لا يستطيع أن يمد جسور التواصل مع الناس، بل هو خبير بقطع هذه الجسور بعدوانه وتجاوزه وظلمه للآخرين.

ولهذا لا يستطيع الظالم أن يكون مسؤولًا وحاكمًا، لأن العدل أساس مهم للحكم. وحينئذ سيدبر الناس عنه، وإذا أدبرت الناس عن الحاكم تحول الحكم بيد من هم دونه من المتملقين وضعاف النفوس وغير الكفوئين وضاعت مصالح الناس.

وينبغي للحاكم والمسؤول ألا يكون حائفًا للدُّوَل، والحيف هو الجور، والدُّوَل هو المال الذي يتداوله الناس، فالجائر على أموال المسلمين لا يمكن أن يكون أمينًا على الأمة؛ لأنه سيتخذ قومًا دون قوم، فيقدم جماعة ويؤخر آخرين، فتكون التعيينات مثلًا لحزبه، والأموال والمشاريع لأقربائه، والإمكانيات وتخصيصات قطع الأراضي لأصدقائه والمقربين منه.

إن هذا المنهج الذي نبحثه يتقاطع مع ثقافة المكرمات التي نراها في مجتمعنا اليوم، إذ نسمع كثيرًا أن هذه مكرمة السيد رئيس الوزراء، وهذه مكرمة السيد الوزير! فهل هذه

---

١٥٦. نهج البلاغة: الخطبة ١٣١.

الأموال التي تتكرمون بها ورثتموها من آبائكم، أو هي أموال شركاتكم الخاصة، أو هي أموال هذا الشعب؟. فإذا كانت أموال الشعب فهل يحتاج صرفها على الشعب إلى مكرمة منكم؟! أي كلام هذا؟!.

إن الحديث عن المكرمات لشيء غريب!، فحينما يوضع موظف على الخزنة، ثم يقوم بإرجاع الأموال إلى أصحابها، فهل يستطيع أن يقول تفضلت عليكم بها؟، أيّ تفضل هذا والشعب هو من نصبك موظفًا في هذا المكان؟!. وهل للمحاسب في المصرف أن يتعامل بهذه الطريقة مع أصحاب الأموال المودعة في المصرف ويعتبرها مكرمة؟!.

إنه من المستهجن والقبيح الحديث عن مثل هذه المكرمات، وهي تنم عن عقدة حقارة، يحاول المسؤول التنفيس عنها بهذا الأسلوب.

ولا ينبغي للحاكم والمسؤول أن يكون مرتشيًا في الحكم فيذهب بالحقوق. فالمرتشي يسيّر الأمور على غير سياقاتها، ويبتعد عن الحدود والضوابط والموازين والإجراءات الصحيحة، ولو سُئل كيف صرفت هذا المال؟ لجاء بمائة دليل عن صحة تصرفه، وإن كان لا ينطبق مع سياقات العمل.

وهو يحاول أن يكيّف كل الإجراءات مع مصالحه الشخصية، ولا يعرض مصالحه على الضوابط. وهذه هي مشكلة المرتشي، وهو يبحث دائمًا عن الثغرات ليتاح له من خلالها أن يأخذ ما ليس له. وإذا تفشت الرشوة ضاعت الحقوق، إذ يمنعها عمّن يمتنع من دفع الرشوة إليه. ولهذا لا يصلح المرتشي للتصدي للمسؤولية.

كما ينبغي للحاكم والمسؤول ألا يكون معطلًا للسنة، فيسبب هلاك الأمة. فالمسؤول حينما لا تكون عنده منظومة أخلاقية ومنظومة دينية وقيم وطنية سيضيع ويضيع الناس معه. إن وجود قيم أخلاقية وقيم وطنية وقيم دينية يجعل الإنسان أمينا على الأمانة التي يؤتمن عليها في المسؤولية التي هو فيها، فالموظف البسيط يؤتمن على مساحات من الصلاحيات محدودة، والموظف الأكبر منه يؤتمن على مساحة أكبر، ورب الأسرة مؤتمن على عائلته.. وهكذا.

فلا يجوز لهم خيانة هذه الأمانة والتفريط بها، وعليهم اتباع السنة في تعاملهم مع من هم تحت مسؤوليتهم، فلا يجوز لرب الأسرة مثلًا أن يتعامل بعنف مع زوجته وأولاده، وقد ورد فيها ضرورة التعامل بالرفق واللين والإحسان. ولكن الإنسان الذي لا يملك القيم سيضيع ويضيّع الآخرين معه.

من المشاهد التي يجب التركيز عليها في الحديث عن مسائل الديمقراطية والحرية هي هذه القيم، وإذا لم نتعرف على المجموعة القيمية ستبقى الكثير من المشاكل من غير حل.

إذن، هذه هي المعايير التي يضعها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمن يجب ترشيحه للمسؤولية، فلا يمكن تسليمها لشخص ممن يتصفون بإحدى الصفات الست، وهم: (البخيل، والجاهل، والجافي، والحائف، والمرتشي، والمعطل للسُنة). فإمامة المسلمين والحاكمية عليهم لا يجوز أن ينالها شخص تكون سمته البخل أو الجهل أو الجفاء أو الحيف أو الرشوة أو التعطيل للسُنة؛ لأن أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم ستكون في خطر محدق، وسيؤول أمر الأمة إلى الهلاك.

الدرس السابع عشر

السمات القياديّة

تشير مجمل النصوص الواردة في هذا الموضوع إلى ضرورة توفر خمس صفات في من يتصدى لأي موقع من مواقع المسؤولية، هي: (الدراية، والمعرفة، والعدالة، والقدرة على الأداء، والنزاهة).

وكما ذكرنا أكثر من مرة، فإن نظرية القيادة والإدارة في الإسلام لا تحدد ملامح الشخصية القياديّة في المواقع المتقدمة فحسب، ولا تتحدث عن الرئيس والزعيم والوزير وما شابه ذلك من كبار المسؤولين فقط، وإنما تمتد من إدارة الأسرة وإدارة الشركة أو المصنع أو أي مشروع من المشاريع الأخرى وصولًا إلى إدارة الدولة، وبالتالي فهذه الصفات الخمس ستكون مطلوبة وتتعمق أهميتها وحجمها بحجم المهمة المناطة بالشخص المسؤول.

فدرجة هذه المواصفات في المسؤول عن مشروع صغير أو أسرة صغيرة تختلف عما إذا كان مسؤولًا عن ملايين من البشر في دولة معينة، ولكن تبقى هذه السمات والصفات مطلوبة لمن يتصدى لأي موقع من المواقع القياديّة. ونتناول الآن هذه السمات بشيء من التفصيل.

السمة الأولى: الدراية

وهي الرؤية التي يجب أن تتوافر في المسؤول تجاه المهمة المناطة به، وسعة الأفق التي يستشرف بها المستقبل، ويكون طموحًا في تحقيق مستويات عالية من النجاح في ما أُنيط به من مهمة، وهو ما نسمّيه في مصطلحاتنا اليوم (التخطيط الاستراتيجي).

فعندما يكلف شخص بمهمة معينة، يجب أن تكون له قدرة على إيجاد تصورات ووضع خطط ملائمة ومناسبة لنجاح هذه المهمة بأعلى المستويات وأفضلها. إذن

الحديث عن الرؤية الثاقبة وسعة الأفق هو حديث عن إشراك العقل وإدخاله في تحديد ملامح المهمة والإطار الذي يتحرك به الإنسان، وهو حديث عن الشمولية والسعة في النظرة إلى هذا الواجب وإلى هذه المسؤولية حتى يحقق أفضل حالات الإنجاز في ما يناط به من مهام.

ويؤيد هذا المعنى قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يحتاج الإمام إلى قلب عقول»[١٥٧]، والمقصود بـ (الإمام) هنا هو من يتصدر المهمة والمسؤولية، والقلب على نوعين، القلب العاطفي، وهو القلب الذي تأخذه مشاعر الحب والبغض والانطباعات السريعة لاتخاذ القرار، والقلب العقول المتدبر، وهو القلب الذي لا يتأثر بالعواطف ويضع الرؤية الصحيحة ويصر عليها لتحقيق الإنجازات الكبيرة.

إن أي مهمة ومسؤولية تغيب عنها الدراية ويغيب عنها العقل والتخطيط تكون محفوفة بالفشل والتلكؤ في تحقيق الأهداف المرجوة من تلك المهمة.

ولذلك نجد في كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يشهد لهذا المعنى، يقول: «نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل، وبه نستعين»[١٥٨]، فكأن العقل ينام ويرقد كما ينام البدن. فالبعض منا يُبطل عقله ولا يحرك قدراته العقلية في المهام التي تناط به، فيكون كثير العمل والحراك وقليل التدبر والتفكير، فيكثر خطؤه. ولكن هناك من يتدبر ويخطط ويستشرف المستقبل ثم يخطو فتكون خطواته أقرب إلى النجاح والتوفيق.

ويعبّر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن هذه الحالة بسبات العقل وقبح الزلل ويتعوذ بالله منها، فحينما يرقد العقل وينام، وحينما يعطل التفكير سيأتي الزلل والخطأ والانحراف والضلال وعدم إمكانية تحقيق النتائج الصحيحة.

وما أقبح أن يقع الانسان في الخطأ، ولكن قد يغتفر الخطأ أحيانًا للإنسان إذا كان مواطنًا بسيطًا ممن لا يتحمل مسؤولية، وإن كانت القاعدة التي تحكم البشرية أن القانون لا يحمي المغفلين، كما أن القانون لا يلاحظ علم الإنسان وعدمه بالقوانين النافذة، إذ كان عليه أن يتعلم ذلك، فمن يقود سيارة يجب عليه أن يكون عالمًا بقوانين المرور، ومن يقع في الخطأ ستكتب عليه غرامة وإن كان جاهلًا بها، وليس له حق الاعتراض. وإذا كان لا يُغفر للمواطن البسيط عند مخالفة القانون، فكيف يمكن أن يُغفر للمتصدي؟!.

١٥٧. غرر الحكم ٦: ٤٧٢.
١٥٨. نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٤.

وفي الجملة الأخيرة يستعين أمير المؤمنين عَلَيهِ‌السَّلَامُ بالله عز وجل حينما يأتي الحديث عن التخطيط وعن استخدام العقل وعن الأضرار المترتبة على تجميد التفكير والعقل والدراية، مما يشير إلى حجم الخطورة في مثل هذا المنحى.

السمة الثانية: المعرفة

الصفة الثانية المطلوب توافرها في المتصدي للمسؤولية هي المعرفة والخبرة أو ما نعبر عنها اليوم بالكفاءة. فيجب أن يكون المسؤول كفوءا وخبيرًا وعالمًا بالمهمة المناطة به. والدراية غير المعرفة، فالدراية هي التخطيط والرؤية، بينما الكفاءة هي القدرة على تنفيذ الخطة وتحقيق الرؤية على الأرض.

ولا يمكن تحقيق النجاح إلا حينما يكون المسؤول عارفًا بمهمته، فإن كان جاهلًا وقع في أحد محذورين: إما الإفراط في الأداء، وبالتالي يحمل المهمة المناطة به ما لا تحتمل، وإما التفريط في الأداء فيقصر في أداء الواجب. ومن الصعب تشخيص الحدود الصحيحة بين الإفراط والتفريط فيبقى دائمًا بينهما.

ويؤيد هذا المعنى قول أمير المؤمنين عَلَيهِ‌السَّلَامُ في إحدى خطبه: «أيها الناس إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، وأعلمهم بأمر الله فيه»[١٥٩]، أي أن الأقدر على هذه المهمة هو الأعلم بما أمر الله في الضوابط والسياقات والقوانين والسنن، سواء كانت هذه الضوابط في الإطار الشرعي أو الإطار الوضعي، حسب القوانين التي تحيط بمهمة من مهام بلادنا. إذن فالأعلم هو الأولى أن يتصدى لهذه المهام.

ويؤيده أيضًا قوله عَلَيهِ‌السَّلَامُ: «لا ترى الجاهل إلا مُفْرِطًا أو مفرّطًا»[١٦٠]، فالجاهل إما متطرف فيزيد على الحد المطلوب، أو يفرط ويضيع جزءا من الواجب والمهمة المناطة به.

السمة الثالثة: العدل

العدل أساس الحكم، وأساس الملك، وأساس التصدي وتحمّل المسؤولية. والعدل هو وضع الشيء في موضعه، أي هو اتخاذ الإجراء الصحيح في الوقت المناسب وفي الظرف الصحيح، ووضع الرجل المناسب في الموقع المناسب، وتوزيع الأدوار بطريقة صحيحة، وقول الكلمة في وقتها الصحيح. ولا بُدَّ للمسؤول من أن يكون عادلًا.

---

١٥٩. نهج البلاغة: الحكمة ١٧٣.

١٦٠. نهج البلاغة: الحكمة ٧٠.

والعدل هو إيصال الحق إلى أهله، سواء كان فيه مضرة أو منفعة للمسؤول، فالمواطن يجب أن يعطى حقه، سواء كان متفقًا أو مختلفًا مع المسؤول في قضية أو توجه سياسي أو حزبي أو عشائري أو ديني أو قومي، وحقوق المواطنة يجب أن تؤدى كاملة.

والعدل هو عدم التمييز بين الناس، فلا يشعر مواطن حينما يدخل إلى دائرة ما بأنه صاحب حظوة أكبر، بينما يشعر مواطن آخر بعدم الرعاية والاهتمام. ويتحقق عدم التمييز بين الناس بالابتعاد عن الهوى، وعن المصالح الخاصة، وعن المزاجيات.

ويجب أن يكون القانون هو المعيار، سواء أعجب هذا القانون المسؤول أو لم يعجبه، لأنه موظف بدرجة رفيعة معني بتطبيق القانون لا غير، ويجب ألا يكون لإعجابه ورغباته أثر في تعطيل مصالح الناس وتمرير قضايا البعض على خلاف القانون. فهذا هو العدل كما يُفهم من روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

فقد روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الكلمات التي قالها وهو في طريقه إلى صفين لحرب القاسطين: «فإن الرعيّة الصالحة تنجو بالإمام العادل، ألا وإن الرعيّة الفاجرة تهلك بالإمام الفاجر»[١٦١]، أي إن نجاة المواطنين الصالحين بالحاكم والمسؤول العادل، فهو سبب في تحقيق النجاة للرعية الصالحة.

أما الرعية غير الصالحة فلا يحقق لها الحاكم العادل النجاح؛ لأن غير الصالح لا يتبع الصالح، فتحدث مشاكل سببها المواطن غير الصالح؛ إذ المسؤول قد أدى واجباته، فهذه ليست مشكلة المسؤول الذي أعطاه الطريق الصحيح. فالإمام العادل والمسؤول العادل هو الضمان لنجاح المواطنين الصالحين.

وفي الاتجاه الآخر يبين أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الحاكم والمسؤول حينما يكون فاجرًا ويتنصل من إقامة العدل سيهلك المواطن الفاجر؛ لأن الفاجر يتبع الفاجر، بينما المواطن الصالح لا يتبع الحاكم الفاجر، وحتى لو انحرف المسؤول فالإنسان الملتزم بالقانون لا ينحرف معه، ولكن لو تماشى مع المسؤول غير العادل وأعطاه الرشوة مثلًا، فإنه سيضيع أيضًا.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا في خطبة له يصف فيها الحاكم العادل: «قد ألزم نفسه العدل، فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه، يصف الحق ويعمل به، لا يدع للخير غاية إلا أمّها، ولا مظنّة إلا قصدها، قد أمكن الكتاب من زمامه، فهو قائده وإمامه، يحل حيث حل ثقله، وينزل حيث كان منزله.

---

١٦١. الارشاد: ١٢٤.

وآخر قد تسمى عالمًا وليس به، فاقتبس جهائل من جهال، وأضاليل من ضلال، ونصب للناس أشراكًا من حبائل غرور، وقول زور، قد حمل الكتاب على آرائه، وعطف الحق على أهوائه، يؤمّن الناس من العظائم، ويهوّن كبير الجرائم، يقول أقف عند الشبهات، وفيها وقع، ويقول اعتزل البدع، وبينها اضطجع، فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصد عنه، وذلك ميت الأحياء»(١٦٢).

يجب على المتصدي أن يلزم نفسه العدل، والعدل مُرّ كما الحق مُرّ، ومن أراد أن يكون عادلًا قد يتشدد على جماعته، ولكن من الممكن أن يتساهل مع الآخرين.

وإلزام المسؤول نفسه العدل حينما يتصدى، في أن يكون أول عدله نفي الهوى عن نفسه، فمن يريد أن يكون عادلًا مع الآخرين، فليبدأ بنفسه أولًا ويحاول أن يصلح نفسه، حتى يكون قادرًا على إصلاح الآخرين، وعليه أن يسحق المزاجية والهوى والرغبات الخاصة لكي يستطيع أن يفي بواجباته كما ينبغي.

والمهمة الثانية للحاكم العادل والمسؤول العادل أن يصف الحق ويعمل به. فيجب عليه أن يضع المعايير الصحيحة للتمييز بين الحق والباطل، ويبين الحق للناس، ويكون هو أول من يعمل به. فالمسؤول الذي يضع قانون المرور يجب عليه أن يكون أول من يلتزم بهذا القانون، وأما إذا كان هو أول من يخالفه فكيف سينتظر من المواطن تطبيق هذا القانون؟.

وكذا الأمر في الالتزام بأوقات الدوام، فالموظف يأتي الساعة الثامنة إلى الدائرة، وإذا تأخر سجلوه غائبًا، بينما المسؤول لا يلتزم بأوقات الدوام الرسمي غالبًا. حينما توضع الضوابط وموازين الحق، يجب أن يكون المسؤول هو أول من يلتزم بها.

ومن سمات المسؤول العادل أنه لا يدع للخير غاية إلا توجه إليها، وليس هناك فعل خير إلا وركض وراءه، فهو دائمًا يريد الخير والتقدم والإبداع ويشجع على الابتكار لكي يقدم شيئًا جديدًا لإنجاح المنظومة القياديّة وإنجاح الآخرين.

ومن سماته أيضًا أنه لا يوجد شيء فيه مظنة الخير إلا وقصده وتحرك نحوه؛ لأنه عنصر خير ويريد الخير. فمثلًا، هناك مسؤول يسعى لمساعدة المواطن، وعندما يرى أن في قضيته ما يخالف القانون، يقول له إن هناك فرصة واستثناء يمكن أن أساعدك بواسطتها، فهدفه مساعدة المواطن وتكييف القانون بالشكل المناسب مع الحفاظ على

---

١٦٢. نهج البلاغة: الخطبة ٨٧.

القانون، ويحل مشكلته، ولا يدخر تلك الاستثناءات والثغرات إلى جماعته ومعارفه فقط.

وهناك مسؤول يتعامل بالعكس، فيتشدد في إنجاز معاملات المواطنين ويحاول تأخيرها.

ومن سماته أيضًا أنه قد أمكن القرآن من زمامه وقيادته، فيعمل وفقًا لما يطلبه القرآن منه، فيتخذ الإجراءات الملائمة للسياق العام للعمل الشرعي. ونفس الكلام ينطبق على الحالة المحكومة بضوابط معينة وقوانين ملزمة تشريعية ووضعية، فيكون مطية للحق ويعطي زمامه للضوابط والالتزامات الشرعيّة والقوانين، فهي قائده ويمضي فيها، ويحاول أن يتعامل مع الجميع على هذا الأساس. ويمضي مع القرآن ومع القانون والإطار الصحيح، فيحل حيثما حل في أدائه وإجراءاته.

وفي مقابل ذلك نرى الحالة المعاكسة حينما يخرج المسؤول عن العدل، ويصف نفسه بالعِلم، وهو ليس كذلك، ويدّعي الكفاءة والقدرة، ويدّعي العدل في التعامل، ولكنه ليس من ذلك في شيء.

فاقتبس جهائل وأضاليل من جُهّال وضُلّال ممن يحيطون به، فمن كان جاهلًا وضالًا يكون مستشاروه والمحيطون به من الجهال وأهل الضلال؛ لأن الطيور على أشكالها تقع، فالخبير يكتشف الخبراء ويقرّبهم إليه ويأخذ مشورتهم، ولكن الجاهل يأتي بالجهال فيضعهم حوله، ويأخذ بأضاليلهم، فيزداد ابتعادًا عن الحق، ويزداد انحرافًا عن الجادة الصحيحة.

ولذلك ترى منظومة المسؤول والخبراء، إما أن تتحول إلى حالة مثالية تحقق إنجازات كبيرة جدًا، وإما أن تتحول إلى عصابة يصعب على أحد من الناس أن يخترقها ويتجاوزها، وتتحول إلى عبء كبير على المجتمع.

في حين كان يجب على المسؤول أن يحفظ النظام ويسهّل مصالح الناس ويخطو بالاتجاه الصحيح. ثم إن هذا المسؤول حينما ينحرف، والمحيطون به أُناس جهلة يحرّضونه على الآخرين، يبدأ ينصب الفخاخ والشِباك لمن هو مسؤول عنهم، ويستعمل أنواع المكر والخداع.

وهذه كلها عوارض تطرأ على المجتمع حينما يتصدى غير الكفوء لموقع المسؤولية، فيقتبس الجهائل والأضاليل وينصب للناس أشراكًا من حبائل الغرور وقول الزور من الكلام الباطل والوعود الزائفة.

ثم يبدأ بتكييف القانون وفقًا لآرائه، فبدلًا من أن يتكيف هو مع القانون يقوم بتكييف القانون مع آرائه وأفكاره، ولقد سمعنا من الطغاة قولهم: إن القانون شخطة قلم، أي إن القانون هو ما يقوله، ومعنى ذلك أنه يرى نفسه أنه الحق المطلق، فيعطف الحق على أهوائه ورغباته ومصالحه، ويكيفه مع أفعاله، فإنْ بطش بالناس وفتك بهم وقتلهم أظهر أن ذلك هو الحق، وإنْ قام بفعل آخر يحاول أن يبرر أنه هو الحق.

وهذا ما نجده اليوم في الأنظمة الديكتاتورية التي تمارس قتل الناس على قارعة الطريق، ثم يخرج القائد ويتحدث عن الحق، وما سواه لا يساوي شيئًا، كما نرى ذلك في تجارب نعيشها اليوم.

ومن سمات الحاكم والمسؤول الظالم أنه يؤمّن الناس من الأمور العظيمة والأخطار الجسيمة. فحينما يخالف القانون والسياقات ويكثر الجهلة من حوله الذين يحرضونه على الناس، تزداد المشاكل الأمنية والاقتصاديّة، وتنشأ أخطار عظيمة، فيلجأ إلى تطمين الناس بعدم وجود أي خطر، وأن ما يسمعونه مجرد تهويلات إعلامية، وتقارير كاذبة بعيدة عن الواقع.

وهكذا تسير الأمور، ويُغرر المسؤول بالتقارير التي يقدمها المتزلفون والانتهازيون وأصحاب المصالح. إن على المسؤول أن ينظر إلى الحقيقة كما هي، ويشخص المشكلة ويعالجها علاجًا صحيحًا، فالتقارير التي تقلل من قيمة الأخطار والمشاكل لا يمكن أن تكون حلًا لها، ففي بعض الأحيان عندما يهمل الإنسان مرضًا بسيطًا ولا يعالجه يتحوّل إلى معضلة كبيرة ومرض مزمن يصعب علاجه، فكذلك لا تُحل المشاكل بإنكارها أو التهوين منها، وينبغي التصدي لها بمجرد حدوثها، فإن علاجها سيكون يسيرًا.

كما لا ينبغي السكوت عن الذنوب الكبيرة وتجاوز القانون وانتهاك حرمة المجتمع، فإن من يريد أن يرتكب الموبقة والحرام ويشرب الخمر فعليه على الأقل أن يفعل ذلك في بيته، فلا يخرج في الشارع والأماكن العامة ويسيء إلى المجتمع بذريعة الحرية الشخصية، فهل أنت وحدك من يمتلك هذه الحرية؟.

علينا أن نضع الضوابط لمثل هذه السلوكيات التي لا تنسجم مع قيمنا الإسلاميّة وقيمنا الوطنية. ويجب ألا تتعارض الحرية التي يمارسها الشخص مع حريات الآخرين، فحينما لا تحفظ هذه الحرية حرمة المواطن وحينما لا تستطيع العوائل الخروج إلى الشارع في أماكن معينة بسبب هذه المظاهر، فيجب أن توضع الحدود لهذه الحرية، لئلا تتعارض مع حريات الآخرين.

إن هذه الأمور منظمة في الغرب اليوم، ولكن يراد فرضها في مجتمعنا الإسلامي والعربي بهذه الطريقة. فالسائق هناك إذا كان قد تناول مسكرًا وقُبض عليه يغرم بأقصى الغرامات، وإن كان وزيرًا أو مسؤولًا، ولا يشفع له هذا المنصب الكبير؛ لأن من يجلس خلف المقود ليس له الحق في تناول المسكر.

ونحن الآن في مجتمعنا العراقي الذي تغلب عليه الثوابت والقيم والمبادئ، يراد له أن تداس كل هذه الأمور تحت يافطة الحرية، وتمنح مجموعة قليلة من الناس الحرية في أن تفعل ما تشاء من المنكرات وتتجاهر بها، وتتجاهل مشاعر الملايين من أبناء الشعب العراقي.

ثم يزعم هذا المسؤول أنه يقف عند الشبهات وهو ملتزم بالقانون، ولكنه في الشبهات وقع، وارتكب مخالفة القانون. ويزعم أيضًا أنه يعتزل البدع، ويدّعي عدم التجاوز على صلاحية الآخرين وعدم الاعتداء على أدوارهم وعدم مخالفة الضوابط والإجراءات، بينما هو غارق في التجاوز على صلاحيات الآخرين.

فهذا التداخل الكبير بين دوائر الدولة أو بين القطاع العام والقطاع الخاص أو بين الحكومة المحليّة والحكومة الاتحاديّة، هذا كله تجاوز على الصلاحيات، ولا بُدَّ من الالتزام بهذه الصلاحيات.

وأخيرًا يلخص أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا المشهد بأن هذا المسؤول هو في الظاهر بصورة إنسان ولكن قلبه قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيبتعد عنه، وتلتبس عليه الأمور فلا يعرف الهدى من الضلال، وأين الصحيح من الخطأ، فتكون القرارات تخبطية، وذلك ميّت الأحياء، فهو حي ولكن جوهر الحياة وفلسفة الحياة غائبة عنه، فهو ميّت يتحرك على الأرض.

السمة الرابعة: القدرة على الأداء

ولا يقصد بالقدرة هنا السطوة، ولا الجيوش، ولا استخدام القوة مع الناس، فالقوة والقدرة في المنظومة القياديّة والإدارية لها معنى أوسع، وهي تعني مجمل السمات والصفات التي تجعل المسؤول قادرًا على إنجاح المهمة من خلال الوسائل الصحيحة والطبيعية والمألوفة، وليس من خلال الضغط على الناس وإرهابهم.

وحينما نتحدث عن القدرة والقوة فإنما نتحدث عن سعة الصدر وتحمّل المنافسين وتحمّل المخالفين؛ إذ كل من يتصدى لعمل هناك من يخالفه؛ لأن الناس على أطوار

مختلفة، وعلى المسؤول أن يعرف كيف يتعاطى مع المخالفين له، ولذا يجب عليه أن يكون له منطق قوي وشجاعة كافية في اتخاذ القرار. ومقدار الشجاعة المطلوبة أن يعرف أن الواقع يتطلب إجراء معينًا وقرارًا معينًا، ولكن هذا القرار يعرضه إلى بعض المضايقات التي تتطلب أن يخاطر بمصالحه وتُوقعه في إشكاليات.

فالشجاعة هي في اتخاذ القرار الصحيح وتحمّل التبعات. والمسؤول يجب عليه أن يتخذ القرار، وحينما يصل إلى القرار ينبغي ألا يدع الآخرين يتخذون القرار نيابة عنه، لأن مصالح الناس يجب أن تُضمن من خلال هذا الموقف. فالقوة في الأمور تعني استقامة المسؤول وثباته وعدم تزلزله بسبب الضغوط التي يتعرض لها من هنا أو هناك.

والحكمة مطلوبة في مراعاة الاستقامة واتخاذ الموقف الصحيح. وربما يخشى المسؤول من اتخاذ القرار الصحيح على مصالحه، أو يخشى أن يقيله المسؤول الأعلى منه أو ينقله، فهنا يجب عليه اتخاذ الموقف الصحيح المنسجم مع مصالح الناس مع مراعاة الحكمة، فإن أُخرج فضميره مرتاح. ولا يجوز له التنازل عن مصالح الناس لكي يبقى في منصبه، بل العكس هو المطلوب.

وهذا تحول كبير في مجمل الغايات والأهداف، فالمصلحة العامة هي الهدف، وينبغي أن يسعى الإنسان لتحقيق المصالح العامة من خلال المنصب، وليس العكس.

وينبغي أن تكون للمسؤول القدرة في مواجهة التحديات، فيواجه التحدي وهو في موقع المسؤولية. ويجب عليه أيضًا الحفاظ على حقوق من هو مسؤول عنهم ما دام مسؤولًا، فرب الأسرة يجب عليه أن يحافظ على أسرته، فلا يتركهم جياعًا ليُشبع بطون الآخرين، فالأقربون أولى بالمعروف، وهم واجبو النفقة عليه، وهو المسؤول عنهم، ثم ينطلق بعدها إلى الآخرين الأقرب فالأقرب.

وهكذا كل مسؤول عن دائرة، يجب عليه أن يعرف كيف يتعامل مع الموظفين الذين تحت مسؤوليته ومع المراجعين في هذه المسؤولية، في حفظ المسائل العامة للمساحات التي يتحمل المسؤولية فيها. وهذه قضية أساسية مهمة.

كما يجب على من يتصدى للمسؤولية أن يكون الالتزام بالقانون محط نظره، وعليه مراعاة المعايير الصحيحة في القيم والمبادئ، مع إمكانية تبرير مواقفه فلا يخشى الاستجواب، لأن لديه المستندات والمنطق والحجة الكافية التي يدافع من خلالها عن كل موقف يقوم به.

والاستجوابات أحد المؤشرات على صحة القرارات والأعمال. ففي الدول الديمقراطية هناك استضافات دورية مسجلة بشكل طبيعي، فكل وزير يحضر في الشهر مرة لمدة نصف ساعة إلى مجلس النواب ويعطي تقريرًا على ما قام به خلال الشهر، والنواب من اللجنة المختصة يسألونه أربعة أو خمسة أسئلة، والأسئلة الإضافية يقوم بالإجابة عنها خطيًا.

قضية الاستضافات والاستجوابات مسألة طبيعية جدًا، وهذا ما نجده في الدول الكبيرة؛ فلا يقال كيف يستجوب الرؤساء وأصحاب المناصب السيادية؟، بل ليس هناك قضية إلا ويكون فيها حضور واستجواب في البرلمان.

ويجب أن يتحلى المسؤول بالهمة العالية، فيحاول تحقيق أقصى ما يمكن من المهام والواجبات في الفترة المعطاة له. وإذا كانت الهمم متواضعة، فلا يستطيع أن ينجز ما أُنيط به من المهام، أو أن يقدم أكثر ويدفع البلد إلى الأمام في الظروف الصعبة.

سأل العلامة الحلي، وهو من كبار علماء الإسلام، ابنه وكان من العلماء والفقهاء أيضًا: ماذا تريد أن تكون؟، فقال: أريد أن أكون مثلك. فقال العلامة الحلي: أنا كنت أريد أن أصير مثل جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، فصرت العلامة الحلي. يجب أن يتحلى المسؤول بالهمم الكبيرة والطموحات العالية والمعقولة ثم يعمل جاهدًا لتحقيقها، فإذا لم تتحقق جميعها فلا أقل من أن يتحقق سبعون بالمئة منها مثلًا.

ولكن حينما تكون الهمم متواضعة، فماذا يريد أن يعمل الوزير في السنوات الأربع من عمر وزارته؟. هل يريد أن يوقّع البريد ويزور الدوائر فقط؟. هذا سوف لا يدفع البلد إلى الأمام، فيجب أن يكون الطموح عاليًا، ويجب أن تكون هذه أيضًا ضمن مقاييس القوة المطلوبة في المسؤول.

ويجب على المسؤول أيضًا أن يبث الأمل في نفوس الآخرين، فلا يشكو ويصرّح باستمرار: لا نملك الميزانية الكافية، ولا توجد تخصيصات، ومجلس المحافظة والحكومة لا يتعاونون معنا، ونأتي إلى بغداد فلا تتعاون الوزارة المختصة معنا ولا الماليّة تعطي ولا التخطيط تخطط.

فالمواطن حين يسمع المسؤول يشكو ويشكو، يقول: أنا أشكو والمسؤول يشكو، فمن يعالج هذا الواقع ويغير الظروف الصعبة التي نمر بها؟. على المسؤول أن يتحمل مسؤوليته ويبث الأمل ويشيع ثقافة تحقيق الإنجازات الكبرى في أسوأ الظروف، ولا يكون مثل ذاك القائد العسكري الذي يقول: أرسلتموني إلى الأعداء!، فهل يُبعث القائد

العسكري إلى الأصدقاء؟!. أو يقول: إنهم يطلقون النيران، فماذا تريد في المعركة، هل يوزعون الحلوى؟!.

إن القائد العسكري يتألق حينما يحقق نصرا في ساحة المعركة في أسوأ الظروف، وكذا المسؤول السياسيّ يجب أن يحقق الإنجاز في أحلك الظروف. وعندما لا نحتاج إلى حالات استثنائية، وكل واحد منا يستطيع أن ينجز ما أنيط به، فهو من مؤشرات القوة أيضًا.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في إحدى خطبه: «أيها الناس أن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه»[١٦٣]

أي أن الأقوى على أداء المسؤولية هو الأحق بها، وليس الأقوى هو من استقوى على الضعفاء، فإنه ضعيف حتى يستطيع أداء الأمانة الملقاة على عاتقه. ومن يخشى أن يتكلم عنه الآخرون فلا ينبغي له أن يتصدى، وليتركها للقوي الذي يتحمل ويقف ويعالج ويخدم الناس ويدفع الضريبة في سبيل الله. هكذا يجب أن تكون المسارات والأمور.

وإذا كان المسؤول قويًا فإنه لا يقع تحت تأثير السلطة وإغراءاتها، فالسلطة مغرية. وعندما يكون الإنسان رب أسرة، تكون مسؤوليته محدودة ومنحصرة في أفراد أسرته، ولا تبعث فيه الغرور لأنها مسألة عادية يمارسها الملايين مثله.

ولكن إذا توسعت دائرة مسؤوليته وأصبح مسؤولًا عن خمسة آلاف شخص أو عن خمسين ألفًا أو أكثر فإنه قد يصاب بالغرور. وكلما ازدادت مساحة التأثير ازدادت درجة الإغراء. وتكمن القوة الحقيقية للمسؤول في درجة سيطرته على أعصابه، وعلى نفسه، وعلى هواه، فلا يندفع ليستغل المنصب في غير المصالح العامة أو المهام المناطة به ليشبع غليله وسطوته من خلال هذه السلطة.

والسؤال والتحدي الكبير، هو كيف يستطيع المسؤول أن يحيّد الحاشية التي تحيط به، فلا يقع تحت تأثيرهم؟، فهناك دائمًا من يحيط بالمسؤول، وهؤلاء لهم مصالح، ويصورون الأمور له بالطريقة التي تخدم مصالحهم، لا مصالح الناس. فعلى المسؤول أن يكون قويًا ولا يتأثر بالحاشية التي تصور له الأمور بالطريقة التي لا تضمن مصالح الناس، فترضي أقلية منهم وتغضب الملايين من أفراد الشعب.

وإذا وقع المسؤول تحت تأثير الحاشية فسيصاب بتشتت في المواقف وتخبط ومزاجية، وتشتت في القرارات فينقض الواحد الآخر. ولهذا السبب لا نرى أي تأثير

---

١٦٣. نهج البلاغة: الخطبة ١٧٣.

وهيبة للقرار، سواء كان صادرًا من مسؤول أو مدير أو وزير، لأنه يصدر اليوم ويُنقض غدًا، وهو يعبّر عن حالة التخبط والإرباك، ويكشف عن تشتت في الرؤية والقرار والإجراءات المطلوبة، ويكشف أيضًا عن وجود تأثيرات خارجية على المسؤول تمنعه من اتخاذ الموقف الصحيح والقرار الصحيح.

ويشهد لذلك قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أقوى الناس من قوي على غضبه بحلمه»[(١٦٤)]. فمن يريد أن يكون قويًا عليه أن يمسك مشاعره وغضبه وأحاسيسه ورغباته ومصالحه ومصالح أقاربه وحزبه وحاشيته ويغلب عليها المصلحة العامة، بالحلم والعلم والحكمة.

وهنا تكمن القوة الحقيقية، لا في امتلاك الجيوش ليهاجم بها في كل يوم شعبه أو الآخرين. فسطوة القوة الحقيقية هي أن يكون المسؤول ماسكًا لنفسه وملمًّا بمهمته وقادرًا على اتخاذ الموقف الصحيح، ويمضي قُدُمًا في تحقيق مصالح الناس، ويحيد المؤثرات والأضرار والعوارض الأخرى التي قد يتعرض لها.

السمة الخامسة: النزاهة

يجب على المسؤول أن يكون نزيهًا، ولكن النزاهة في الرؤية الإسلاميّة لها معنى أوسع بكثير من معنى النزاهة الماليّة التي تتبادر إلى الذهن. فالنزاهة تعني في مجتمعاتنا اليوم عدم السرقة، ولكن النزاهة في الفهم الإسلامي لها معنى أوسع من قضية المال، فهي تعني الطهارة، أي أن يكون الإنسان طاهرًا نقيًا، وهذا النقاء المعنوي له آثاره في مساحات مختلفة، ويوجِد تغيرات وتحولات كبرى في سلوك الإنسان المسؤول حينما يتصدى إلى مواقع المسؤولية، فالمسؤول يحتاج إلى أن يكون طاهرًا ونقيًا من الدنيا وحب الدنيا.

فإذا كان يحب الدنيا فإنها ستوقعه في سلسلة طويلة من الإجراءات والسياقات والبروتوكولات. . إلى آخره، وكلها تتخذ في الظاهر شكل القانون والسياقات والالتزامات، وهي في المضمون حب الدنيا، يريد أن يشفي غليله ويستفيد ويتنعم بهذه الدنيا، إنه حب الأنا، وهذه هي البداية التي تُوقِع المسؤول في الكثير من المشاكل، والنزيه لا يحب الأنا، ولا يكرر في كلامه: أنا قلت. . أنا أرى، ثم ماذا ستكون النتيجة إن انفرد بالقرار؟، ألا توجد لجنة استشارية؟، أليس هناك مسؤولون وخبراء؟، ألا توجد

١٦٤. غرر الحكم ١: ١٩٨.

سياقات عمل يجب أن تُحترم؟!. إن هذه الأنا التي تريد أن تقدمها على كل شيء لا تحقق نجاحًا.

إن إحدى إشكالياتنا اليوم التي تدعو إلى التلكؤ في الأداء، ليست غياب العقول والخبراء في دوائر القرار وفي الوزارات، بل هي خشية الخبير أن يقول كلمته خلافًا لما يقوله المسؤول أو الوزير، ؛ لأن المسؤول لا يريد أن يسمع سوى كلمات الإطراء والمديح، وأن تكون كلمته هي النافذة.

فالأنا تتقاطع مع النزاهة، وحالة الاحتكار والاستحواذ هذه تتقاطع مع النزاهة، فالمسؤول حينما يضع اليد على كل شيء، ويريد أن يكون قرار كل المهام بيده وليس بيد الآخرين، لا يعطي فرصة لمن يعمل معه.

إن المسؤول الناجح ليس هو من يتخذ القرار بمفرده، وإنما هو الذي يبعث الحماسة والشجاعة في عدد كبير من المسؤولين ليتخذوا القرار في مساحاتهم.

إن حالة الاستحواذ وحالة الاحتكار وحالة الاعتداد بالرأي التي يقع فيها المسؤول هي من حالات الأنانية، حيث يعتقد أن رأيه هو الصائب، ويرفض الاستماع إلى آراء المستشارين والخبراء الذين معه، فمسؤولنا يريد أن يتكلم ولا يريد أن يسمع، وليس لديه الوقت لكي يسمع، ويرى وظيفته هي أن يجلس ويدير الاجتماع فقط، بل في بعض اجتماعات المفاصل الإدارية في الدولة لا مجال للمسؤول أن يُسأل.

وقد أخبرني أحد المسؤولين الكبار في وزارة سيادية، قال إنهم برغم الموقع المتقدم جدًا في هذه الوزارة، لا يرون الوزير إلا مرة في كل ثلاثة أشهر وأحيانًا في كل ستة أشهر. وهذا هو الواقع الذي كنا نعيشه في ظروف سابقة.

إن حب الرئاسة والسلطة يدعو المسؤول إلى التشبث بالمنصب، ويكون همه الأول كيف يحافظ على موقعه، فليس هناك نزاهة، وسيكيف كل القرارات والإجراءات والخطوات وفقًا للقاعدة التالية: هل هذا القرار يخدمني أكثر في البقاء في المنصب أو سيؤثر في إخراجي؟، فإذا كان الثاني أتركه وأرفع اليد عنه. وتمر السنة والسنتان ومصالح الناس معطلة، والمهم لديه هو جلوسه على الكرسي. وهذه من المشاكل الكبيرة.

ومن مشاكل النزاهة الرغبة في الشهرة والمديح والإطراء، فهو يريد أن يصطف له الموظفون سماطين ويأخذوا له التحية عندما يدخل الدائرة أو يخرج، ويستقبلوه ويودعوه بعبارات التفخيم والإطراء، فهو حائر بنفسه، لا بالمهمة المناطة به، ويعيش

حياته الخاصة ويعيش التفكير في كيفية استثمار هذه الفرصة واستغلالها لمزيد من النفوذ والتأثير.

ومما يتقاطع مع النزاهة أيضًا الرغبة في الشهرة، عندما تكون هي الهاجس الوحيد للمسؤول؛ كيف يصفّق له الآخرون، وتكون مسألة ظهوره كاسم لامع في الساحة هي القضية الوحيدة التي يقف عندها ويهتم بها، ويعيش الأماني والآمال العريضة لشخصه ونجاحاته.

وهذا كله يجعل الشخص المسؤول غير قادر على أن ينظر بموضوعية للأمور، وضعيفًا أمام المغريات والمحفزات الماليّة من أصحاب العقود والمقاولين فيغض النظر عن تلاعبهم بالمال العام. فعندما يخرج هذا المقاول وقد ربح مئتي مليون دولار، يقدم مليونين أو ثلاثة ملايين أو عشرين مليون دولار لهذا المسؤول أو ذاك بطريقة ما.

كما يجعله ضعيفًا أمام الضغوط، فمثلًا هناك بعض القوى السياسيّة تلوّح بالانسحاب، فتشعر جهات معينة بالخوف من الضغوط.

ومما يتقاطع مع النزاهة أيضًا خوف المسؤول على سمعته ومصالحه. ومن كان كذلك ينبغي له ألا يتصدى، فمن يتصدى يجب أن يكون حريصًا على مصالح الناس في المنظومة التي يريد أن يتصدى فيها. ومن المؤكد أنه حينما يتصدى مسؤول ما فهناك من يعارض خوفًا على مصالحه، وهناك من يمدح وهناك من يقدح، ولذا ينبغي على من يتحمل المسؤولية أن يتقبل ملاحظات الآخرين ولا يضيق صدره بها. فيجب أن يكون قويًا أمام هذه الضغوط.

ويجب أن يكون المسؤول عفيفًا في نظرته وفي تعامله مع المسائل المختلفة، ويتجنب هتك الحرمات ونشر الغسيل وكشف المستور من أعراض الناس، وألا يكون منطلقه أن فلانًا من حزب آخر فيحاول أن يؤذيه، وبحكم موقعه كمسؤول يمكنه أن يطّلع على وثائق ومعلومات وتقارير قد يكون بعضها كيديًا ويظهرها علانية، وهذا أمر سيئ جدًا.

واليوم حينما نجد كل هذا التشويش في ساحتنا ونرى سائل الإعلام تتحدث عما يليق وما لا يليق، وبما هو صحيح وما هو غير صحيح، فإن مثل هذه الأمور تكشف عن حالة من الضعف في نزاهة المسؤول الذي تتوافر لديه هذه المعلومات ويشهّر بها قبل التدقيق بصدقيتها وفي صحتها، بناء على قاعدة أن كل صحيح يجب أن يُشاع ويُنشر حتى إذا كان رذيلة، وإن كانت هذه القاعدة لا وجود لها.

فمن يكون في موقع المسؤولية يجب أنْ يكون صبورًا وكتومًا وألا يُعمل قناعاته الخاصة لتسقيط الآخرين، والعفة ليست في السلوك الشخصي والأخلاقي فقط، بل هناك العفة الاجتماعيّة أيضًا، وهي إشاعة الهدى والمنع من انتشار الفضيحة والمحافظة على أسرار الناس وأعراضهم. وحينما تُنشر معلومات عن هذا المسؤول أو ذاك وهي غير ممحصة فإن المواطن ستتولد لديه قناعة بأن ساسة القوم مجموعة من السرّاق والخونة ويتشجّع حينئذ لارتكاب الحرام والوقوع في الخطأ. وهذا أيضًا من القضايا التي تحتاج إلى معالجة.

ومما يتقاطع مع مفهوم النزاهة ضيق الأفق والتحجّر، فيجب على المسؤول أن يستوعب الآخرين، وأن يكون عنده بُعد نظر. فإن ضيق الأفق وعدم تحمل الآخر وعدم قبول الآخر، يجعل المسؤول غير قادر على اتخاذ القرارات الموضوعية ومراعاة التوازنات المطلوبة لتحقيق النجاح.

ومما يتقاطع مع مفهوم النزاهة أيضًا حالة الغدر وعدم الوفاء، وعندما يقال للمسؤول الغادر: ألم نتفق؟ أليس هناك التزامات سياسيّة يجب الوفاء بها؟ أليس المؤمنون عند شروطهم؟ يقول: هذه سياسة. والتاجر يقول: هذا اقتصاد. فإذا كانت السياسة تعني عدم الالتزام بأي وثيقة، وإذا كان الاقتصاد يعني التلاعب وتحقيق أعلى الأرباح على حساب مصالح الناس، فأي صدقية تبقى في المجتمع؟!، وأين هي الأطر والمبادئ التي يجب أن تُراعى حينما يبرر للأخطاء والغدر وعدم الوفاء بالالتزامات بتبريرات مصلحية أو باصطلاحات مثل مناورات سياسيّة أو تكتيكات سياسيّة، وما أكثر الاصطلاحات التي تستخدم اليوم في تبرير هذه الأمور!.

وعندما ينقض المسؤول عهوده ومواثيقه والتزاماته، فستشيع حالة من الشك بين الأطراف السياسيّة المختلفة، ويصبح من الصعب الاعتماد على كلام ووعد بين المسؤولين أنفسهم أو بين المسؤول والمواطن. وحينئذ يفقد المسؤول صدقيته، ويفقد الناس ثقتهم بكلام المسؤول، ولذلك فإن الالتزام بالعهود والمواثيق يعتبر جزءًا أساسيًا في عملية النزاهة.

ومما يتقاطع مع مفهوم النزاهة أيضًا الطمع، فالمسؤول حينما يكون عنده طمع في المال وفي الوصول والتسلق إلى المناصب يفقده ذلك التوازن، ويفقده القدرة على اتخاذ القرار الصحيح، ويصبح صعبًا عليه جدًا أن يفكّر بالمصلحة العامة، بل يرى دائمًا مصلحته في الموقع الذي يريده، والفرصة والمال اللذين يريد أن يحصل عليهما،

ويفكر أن الخطوة الفلانية ربما تُغضب المسؤول الأعلى أو التاجر الفلاني الذي يريد أن يعطيني الشيء الفلاني، فيبقى يعيش هواجسه الخاصة، وبالتالي لا يتقدم خطوة بالاتجاه الصحيح.

ومما يتقاطع مع مفهوم النزاهة أيضًا سوء الخلق والتعامل السيئ مع المواطنين، فينظر إليهم شزرًا، ويتعامل معهم بطريقة جافة، ويجلس متغطرسًا على الكرسي ليرهب من يدخل عليه، متناسيًا أنه في موقع الخدمة لهؤلاء الناس وليس في غرفة تحقيق.

كما نلاحظ حالة استخدام العبارات البذيئة، إذ يظن أن أحدًا لا يطيعه إذا لم يفعل ذلك، فيصيح ويشتم من هو دونه في المسؤولية، ظانًا أن لا مجال للضبط الإداري إلا من خلال الإساءة للآخرين!. إن هذه الضوابط الغريبة تتقاطع مع أخلاقياتنا العربية والإسلاميّة. وإنه شيء مؤسف أن تتحول هذه الأمور إلى ثقافة، ثم يُنظر لها على أن تحقيق النجاح يتطلب مثل هذه الإساءات!.

ومما يتقاطع مع مفهوم النزاهة أيضًا الحقد، فالمسؤول الحقود لا يستطيع أن يكون نزيهًا، ولا يستطيع أن يكون متوازنًا دائمًا، فنار الحقد تشتعل في صدره ويبحث عن الانتقام من هذا وذاك، ويريد أن يوظف الموقع المعنوي والإمكانات الماديّة التي تتيحها السلطة له لتصفية الخصوم وضرب المنافسين والإساءة إلى الآخرين والضغط عليهم.

ومثل هذا الشخص لا يمكن أن يكون مسؤولًا نزيهًا وهو يتصف بصفات المكر والخديعة واللف والدوران بذريعة أن الحرب كرّ وفرّ، فيقول في لحظة واحدة لهذا شيئا وللآخر شيئا آخر، ويُطمع الجميع في نفسه، ويؤمّل الجميع في شيء ما، ويجعل الأطراف السياسيّة تتنافس وتتصادم وتتصارع، ويبقى هو عنوانا يستفيد من خلال ضرب الأطراف بعضها ببعض، وهذا الخُلق لا ينسجم مع مفهوم النزاهة للمسؤول كما يراها الإسلام.

ومما يتقاطع مع مفهوم النزاهة أيضًا الغلظة والشدة في التعامل واستخدام القوة المفرطة. فترى الضابط مثلًا يعاقب الجندي على أتفه الأسباب بحلق الرأس أو السجن، متناسيًا أن هذا الإنسان عنده عائلة، وهو لا يستحق مثل هذه العقوبة الصارمة.

إن المسؤول عندما يملك مستوى من الصلاحيات، فذلك لا يعني أن يستخدم أعلى السقوف الممنوحة له في العقوبة. فهل يأتي المسؤول ليؤذي الناس أو ليجعلهم في منظومته القياديّة محبين ومخلصين؟.

إن سياسة الغلظة تجعل الآخرين يتعدون عن المسؤول ويتربصون به الدوائر للنيل منه، ولذلك نراهم، عندما يخرج مسؤول ويأتي آخر بدلا منه، يتسابقون إلى المسؤول الجديد، وكل واحد يخفي عددًا كبيرًا من الملفات، ويسارعون إلى المحاكم ويرفعون دعاوى قضائية ضد المسؤول الأول، ويساعدون كل الخصوم ويمكنونهم من هذا المسؤول. ونفهم من هذه الحالة أن هناك حقدًا وضغينة ضد المسؤول بسبب سياسة الشدة التي استعملها بدل علاقة المودة والمحبة.

ومما يتقاطع مع النزاهة أيضًا أزمة الثقة والشك ومنطق المؤامرة. فترى المسؤول يتساءل دائمًا عن صحة كل ما يسمعه، ويضع كل شيء في دائرة الشك، وحينئذ يصبح شغل الناس في مثل هذه المنظومة القياديّة تبرير مواقفهم مقابل حالة الشك التي يعيشها المسؤول، ويفقدون الثقة بكل منظومته القياديّة. وهذا أمر فيه اتهام للناس بتهم خطيرة.

ومما يتقاطع مع النزاهة أيضًا اللجاج في الرأي، وكأن المسؤول هو الذي يعرف كل شيء، بينما لا يعرف الآخرون شيئًا، ولا ينفع معه نصح الناصحين والمستشارين والخبراء وذوي الاختصاص، ويبقى معاندًا ومصرًا على رأيه ويتناسى أن المنصب الذي هو فيه هو منصب سياسي، وأنه لم يتعرف بعد على الوزارة أو الدائرة وتفاصيلها، وينبغي له أن يصغي إلى الآخرين ويترك العناد والإصرار جانبًا.

ومن المؤسف أن تكون هذه الآراء التي يُصرّ عليها المسؤول هي آراء خاطئة في كثير من الحالات، والبلد هو الذي يدفع ضريبة هذه الآراء.

الدرس الثامن عشر

المسؤولية ابتلاء

أشار أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الجملة الثانية من هذا المقطع في قوله: «وابْتَلاكَ بِهِم» إلى أن التصدي لمواقع المسؤولية هو محطة مهمة وعصيبة من محطات الاختبار الإلهيّ. فالمسؤولية ليست مغنمًا، وليست امتيازات، وإنما هي ابتلاء من الله سبحانه وتعالى وامتحان عسير لمن يتصدى لهذا الموقع، وذلك من خلال كيفية تعامل هذا المسؤول وتمكنه من تحقيق الأهداف المرجوة والوسائل التي يعتمد عليها في إنجاح المهمة وانطباعات الناس عنه في مهمته الخاصة من خلال المؤشرات.

فالإنسان المتصدي يُختبر ويُمتحن لهذا الموقع أو ذاك، معتبرًا التصدى للمسؤولية كالدخول إلى قاعة الامتحان، وعندها يكون تحت المجهر الإلهيّ في كل خطوة وكلمة وحركة وسكنة؛ كيف سيتعامل؟، وهل ما يفكر ويتكلم به، وما يخطوه، كلها لتحقيق الهدف المطلوب، أو أن ذلك كان لأجل أغراض شخصية ومطامع خاصة ومصالح فئوية؟.

لقد شدد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ على أن المسؤولية اختبار عسير، وفيها دروس عظيمة، وعلى الإنسان أن يعرف حينما يتصدى للمسؤولية بأنه قد عرّض نفسه للاختبار الإلهيّ والوسائل الإلهيّة وهو في موقع المسؤولية.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتاب أرسله إلى معاوية بن أبي سفيان مؤيدًا لهذا المعنى: «أما بعد، فإن الله سبحانه قد جعل الدنيا لما بعدها، وابتلى فيها أهلها، فأبناؤها مُعرّضون للابتلاء والاختبار ليعلم أيّهم أحسن عملًا، ولسنا للدنيا خلقنا، ولا بالسعي فيها أُمرنا، وإنما وُضعنا فيها لنُبتلى بها. وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي، فجعل أحدنا حجة على الآخر»(١٦٥).

---

١٦٥. نهج البلاغة: الرسالة ٥٥.

يبدأ أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه المقولة الشريفة ببيان حقيقة مهمة، وهي أن الله جل جلاله قد خلق الدنيا لغيرها، وقد أشار عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى هذا المعنى في قول آخر له، يقول: «إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لمقركم»[١٦٦]، فهي بمثابة الممر إلى غيرها.

ثم يبين أننا لم نُؤمَر بالعمل للدنيا، وإنما أُمرنا أن نعمل في هذه الدنيا للآخرة، وهذا أمر لا يتعارض مع قول الإمام الحسن المجتبى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا»[١٦٧]، أي ينبغي أن نعمل للدنيا كأننا نعيش فيها الدهر كله، فيتوفر عملنا على الإتقان والعمل الصحيح والخطوات الصحيحة، ولكن الغاية والهدف والخلفية والنية في هذا العمل يجب أن تكون للآخرة.

ثم يتطرق أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى بيان مفهوم آخر وهو أن الله تبارك وتعالى إنما وضعنا في هذه الدنيا ليختبرنا فيها، وينظر كيف نتعامل، ومن هو المحسن منا ومن هو المسيء؟. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله عز من قائل: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[١٦٨].

ثم يبين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمعاوية أن الله تبارك وتعالى قد ابتلى أحدهما بالآخر، فجعل علي بن أبي طالب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بلاء عظيما لمعاوية، وجعل معاوية بن أبي سفيان بلاء عظيما لعلي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأن الاستحقاقات والأدوار مختلفة بينهما. ثم جعل سبحانه وتعالى أحدهما حجة على الآخر. وهذا من أدب الحوار مع الخصم، فإن الله تعالى قد جعل أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حجة على معاوية ولم يجعل معاوية حجة على علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولكن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لو كان قد قال لمعاوية قد جعلني الله تعالى حجة عليك لم يكن ليقبل معاوية بذلك.

وقد ورد نظير ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[١٦٩]، فهنا يأمر الله تبارك وتعالى نبيه الكريم أن يخاطب الكفار بهذا الأسلوب، مع أنه قطعًا على الهدى والكفار على ضلال.

إن الدنيا دار ابتلاء واختبار، ومن يتصدى للمسؤولية عليه أن يستعد للاختبار والابتلاء الإلهيّ؛ لأن المسؤولية محطة الابتلاء والاختبار.

---

١٦٦ . نهج البلاغة: الخطبة: ٢٠٣.

١٦٧ . بحار الأنوار٤٤: ١٣٩ح٥.

١٦٨ . سورة الملك: الآية ٢.

١٦٩ . سورة سبأ: الآية ٢٤.

والدرس الذي نستفيده من هذه العبارة الكريمة، هو أن على المسؤول حينما يتسلم مسؤولية معينة أن يكون مهيأ نفسيًا وواقعيًا لهذا الابتلاء. وكأن الامام علي عَلَيهِ السَّلَامُ يريد أن يقول: يا من تتصدى للمسؤولية، هل أنت قادر على تحمل أعبائها؟، وهل هيأت نفسك لاستحقاقات هذه المسؤولية؟، وهل أنت مسلح بسلاح العلم والمعرفة لتحقيق النجاح في هذه المهمة؟.

فإذا كنت متهيئا لتحمل المسؤولية وقادرًا على النجاح فادخل على بركة الله، وأما إذا كنت غير مهيأ وتسلمت المسؤولية فإن ذلك يؤثر سلبًا في أدائك، وبالتالي سيكون الفشل في تقديم الخدمة حليفك، ويبقى الناس يعانون، فالمسؤولية ومواقع الخدمة مكان مَن تعلّم وليس من يريد أن يتعلم، فهي ليست محطة من محطات التعلم، وإنما هي محطة العطاء والخدمة لمن هو قادر على العمل.

ويشهد لذلك قول أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ: «من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[١٧٠]. فقد يكون المتقدم للمسؤولية مخلصًا ويريد الخدمة ولكنه لا يعرف ولا يستطيع، فتكون الأضرار المترتبة على مسؤوليته أكثر من المنافع التي من الممكن أن تتحقق على يده.

١٧٠. تحف العقول: ٣٣.

المقطع الخامس

الأخلاق القياديّة

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ :

«وَلاَ تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللهِ فَإِنَّهْ لاَ يَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ وَلاَ غِنَىً بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ . وَلاَ تَنْدَمَنّ عَلَى عَفْوٍ ، وَلاَ تَبْجَحَنّ بِعُقُوبَةٍ ، وَلاَ تُسْرِعَنّ إلى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً» .

الدرس التاسع عشر

محاربة الله

يخاطب أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في المقطع الأول من هذه الفقرة الحاكم والمسؤول ويطلب منه ألا ينصب نفسه لمحاربة الله سبحانه. ويكون ذلك عندما لا يمتلك المسؤول القدرة على رد النقمة الإلهيّة والغضب الإلهيّ، وعندما لا يستطيع أن يستغني عن عفو الله ورحمته ولطفه.

ويقصد أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بمحاربة الله، أنه يجب على المسؤول أن يكون كفوءًا، فإن لم يكن كفوءًا وتصدى للمسؤولية فقد نصب الحرب لله سبحانه وتعالى. وينصب غير الكفوء الحرب لله سبحانه وتعالى لأنه لا يستطيع أن يحسن التصرف فيهدر المال العام ويضر بالمصلحة العامة ويتجاوز على حقوق الناس ويعتدي عليهم. وكل من يتصدى لمسؤولية وهو لا يحسنها يكون قد حارب الله سبحانه وتعالى، سواء كان إسلاميًا أو علمانيا.

ونستفيد من هذه العبارة أهمية الإنسان وحق المواطن في نظر الإسلام، فالإساءة للمواطن حرب على الله، والاعتداء عليه حرب على الله، وأن المسؤول إن أحسن إلى المواطن فقد أطاع الله، وإن أساء إليه فقد عصى الله. وهذا هو منطق الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

إن التساهل في تلبية احتياجات المواطن وعدم الاعتراف بحقوقه وهمومه ومحنته ومطالبه يعتبر في منطق الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حربًا على الله سبحانه وتعالى. وهذه هي قيمة المواطن وأهمية الإنسان في رؤية الإسلام.

ويشهد لهذا المعنى قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «من أبدى صفحته للحق هلك»[١٧١]، أي من واجه الحق وقاومه هلك؛ إذ لا أحد يستطيع الوقوف بوجه الحق. فحينما يعتز المسؤول بمنطق خاطئ وهو يعلم أنه خطأ ويصر عليه، ويبرر ذلك بأن تراجعه سيكشف

---

١٧١. نهج البلاغة: الحكمة ١٣٨.

عن خطئه أمام الآخرين!، فوفقًا لهذا المنطق تبقى الناس في عناء بسبب خوف المسؤول على سمعته.

ويشهد له أيضًا قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في رواية أخرى: «من صارع الحق صُرع»[١٧٢]. وقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «الغالب بالشر مغلوب، والمحارب للحق محروب»[١٧٣]. أي حتى لو حصل على مكاسب معينة فإنها سوف ترتد عليه وسوف يُفضح على رؤوس الأشهاد في الدنيا قبل الآخرة.

إن من يعتقد بأنه من خلال الشر وظلم الناس يستطيع أن يحصل على شيء وتسير الأمور كما ينبغي فهو مخطئ، لأنه ما إن تتغير الأمور وتتحول الأوضاع سيتعرى أمام الناس وتظهر حقيقته جلية للعيان، وهذا تمامًا ما نراه اليوم في محيطنا العربي من التحولات التي تحصل، فبعض هؤلاء الحكام كانوا يتحدثون ويتعاملون بعنجهية مع شعوبهم، ولكنهم اليوم أصبحوا في خبر كان، بعضهم بالسجون والبعض الآخر في ظروف لا يُحسدون عليها كما تعلمون. فالغالب بالشر مغلوب حتى لو تقدم خطوة، فلا يظن أنه هو الغالب أو أنه حقق شيئا لنفسه.

كما أن من حارب الحق سوف يرتد كيده إلى نحره ويكون هو المحروب، ولا يمكن أن ينتصر وسوف يخسر المعركة على الأمد الطويل.

ثم يعلل أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نهيه لمن يريد نصب الحرب على الله عز وجل بقوله: «فَإِنَّهُ لاَ يَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ»، أي لا أحد يمتلك القدرة للوقوف بوجه نقمة الله سبحانه وتعالى. فعلى غير الكفوء ألا يتقلد المسؤولية ولو عُرضت عليه، وهو بعمله هذا ستزداد منزلته عند الناس وعند الله تبارك وتعالى.

ويؤيد هذا المعنى قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «لا تغالب من يستظهر بالحق، فإن مغالب الحق مغلوب»[١٧٤]، أي لا تنصب العداء والحرب لأهل الحق أصحاب الموقف الرصين؛ لأن من يحارب الحق مغلوب لا محالة، فالحق يعلو ولا يُعلى عليه.

ولا يجوز الوقوف ضد شخص هو في خانة الحق، ويجب الابتعاد عن محاربته؛ لأن من حارب الحق خاسر، وهذه سنة الله، حتى على الأمد القصير، فإنها سوف ترتد عليه. ويجب على غير الكفوء ألا يتورط بالتصدي للمسؤولية. وإذا كان كل إنسان يحتاج إلى

---

١٧٢. نهج البلاغة: الحكمة ٤٠٨.

١٧٣. غرر الحكم ١: ٢٧٢.

١٧٤. غرر الحكم ٦: ٣٢.

رحمة الله وصفحه، فإن حاجة المسؤول لرحمة الله أعظم؛ لأن التعامل مع الناس قضية حساسة، وفيها منزلقات خطيرة، وفيها تداعيات كبيرة، فعلى الإنسان أن يدرك هذه الأمور ويستعين بالله سبحانه وتعالى.

ولذلك يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الجملة الأخيرة من هذه الفقرة: «وَلاَ غِنَىً بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ»، مشيرًا إلى أن الإنسان لا يستطيع - مهما كانت قدرته - الاستغناء عن رحمة الله وعفوه، فلا ينبغي للإنسان أن يأخذه الغرور بالمسؤولية؛ لأن الأمور تتغير بين عشية وضحاها.

ولذا ينبغي له ألا يشعر بالاستغناء عن رحمة الله وعفوه؛ لأنه حينئذ سيطغى، كما أخبر بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[١٧٥]، فالشعور بالطغيان والتمرد والأنفة والأنانية والاستغناء بداية الانحراف وظلم الآخرين.

وهكذا الديكتاتوريات تبدأ من زاوية ثم تتعمق وتصل إلى ما تصل إليه. بينما الغنى الحقيقي لله وحده، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إلى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[١٧٦]، فالفقر والغنى صفتان متقابلتان لا تجتمعان في وقت واحد، وهذا التقابل بينهما فقدان ووجدان، والله تعالى يقول: أنا الغني، ويحصر الغنى في ذاته الشريفة والمقدسة، ويقول: وأنتم الفقراء، فالإنسان صفته ووجوده الفقر، وهو بحاجة إلى الغني. فعلى الإنسان ألا يشعر بالاستغناء فيكون ذلك بداية الانحراف، نسأل الله أن يجيرنا من ذلك.

---

١٧٥. سورة العلق: الآيات ٦-٧.

١٧٦. سورة فاطر: الآية ١٥.

الدرس العشرون

التنزه عن الصفات السلبية

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في المقطع الثاني من الفقرة السابقة من عهده لمالك الأشتر: «وَلاَ تَنْدَمَنَّ عَلَى عفْوٍ، وَلاَ تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ، وَلاَ تُسْرِعَنَّ إلى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً».

يخاطب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكا الأشتر ومن ورائه كل حاكم ومسؤول أن يتنزه عن مجموعة من الصفات السلبية:

الأولى: الندم على العفو

ينبغي للحاكم والمسؤول إذا عفا عن شخص ألا يندم؛ لأن من كان في موقع المسؤولية عليه أن يصفح ويعفو ويتساهل، وعليه أيضًا أن ينفتح ويستوعب الآخرين.

الثانية: عدم التبجح بالعقوبة

وينبغي للحاكم والمسؤول أيضًا ألا يشعر بالفرح والسعادة والتشفي حينما يعاقب إنسانا حتى لو كان هذا الإنسان يستحق هذه العقوبة، وحتى لو كان مجرمًا قد ارتكب خطيئة واعتدى على الآخرين. فإن لهذه العقوبة أسبابا ومناشئ، ويراد لها أن تعالج إشكاليات معينة في الواقع الاجتماعي، وليست محطة للشماتة حتى يفرح المسؤول ويسعد بها.

الثالثة: عدم التسرع في ردود الأفعال

ويوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الحاكم والمسؤول بعدم الإسراع إلى بادرة يجد منها مندوحة. والبادرة هو ما يبدر من الإنسان عند الغضب من الشدة والحدة، فلا ينبغي

الإسراع في ردود الفعل ولا يتخذ قرارًا وهو غاضب؛ لأن حالة الغضب يمكن أن تدفعه إلى اتخاذ قرارات يندم عليها لاحقًا.

والمندوحة هي الفرصة للتخلص من ردة الفعل، فقد يكون الغضب غضبا مستقرا؛ لأن الإنسان يُفترض أن يغضب لله تعالى، ويغضب لوجود خلل ما، وربما يكون هذا الغضب ناتجًا من حالة مشاعرية، فحينذاك يقول أمير المؤمنين عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: يا مالك إذا واجهتك حالة من الغضب والشد والتوتر فلا تتخذ قرارًا؛ لأن قرارك في حالة التوتر لن يراعي كل الجهات والخصوصيات والحيثيات المطلوبة في اتخاذ القرار الصائب والناجح.

حينما توضع الأوامر الإدارية بين يديك يامسؤول وكنت غاضبًا فلا تكتب ولا توقّع؛ لأن هذا التوقيع قد لا تكون فيه كل معايير المصلحة التي قد تتوصل إليها وأنت في ظرف آخر.

وتحتوي هذه الفقرة الكريمة من العهد المبارك على مجموعة من الإضاءات.

الإضاءة الأولى

العفو أساس العمل

إن الأساس في الإدارة والتعامل مع الآخرين هو الصفح والعفو والتساهل، ولا سيَّما حينما يكون الإنسان في موقع القوة، وهو قادر على أن يتخذ موقفًا ما بحق الآخر، ولكنه يصفح ويتسامح ويحكم فرص التسامح مع المواطنين وليس التشدد عليهم.

الإضاءة الثانية

المرونة والتساهل مع المواطنين

يجب على المسؤول عدم استعمال التشدد ليتشفى من المواطن، بل المفروض أن يبحث للمواطن عن الثغرات والاستثناءات والصلاحيات التي تمنحه الفرصة لكي يتساهل مع المواطنين، ومع من هو مسؤول عنهم، فإن الأساس - حسب القاعدة التي يذكرها أمير المؤمنين عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - هي العفو والتساهل ما لم يؤدِّ ذلك إلى حالة التجرؤ على القانون وكسر شوكة الدولة وهيبتها، ففي ذلك الحين لا بدّ من الشدة، لكي نضمن أن تكون العلاقة علاقة شفقة ومودة كما مرّ شرح ذلك بالتفصيل.

ويؤيد ذلك قول الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾[177]، فحينما يصدر السوء من شخص ما ينبغي أن يكون الموقف هو العفو والصفح عن تلك السيئة والخطيئة، فإن الله هو العفو والقدير. فالعفو قد يجتمع مع القدرة، إذ حينما يكون المسؤول قادرًا يعفو ويصفح، فإن لم تكن لديه القدرة على إنزال العقوبة فإن العفو ليس له معنى.

وتتجلى أهمية العفو حينما يكون المسؤول في موقع المسؤولية ويعفو عن المسيء؛ يقول العلامة الطباطبائي في تفسير هذه الآية الشريفة: «والعفو عن السوء هو الستر عليه قولًا وفعلًا»[178]، ومعنى الستر بالقول هو ألا يذكر ظالمه بظلمه، فقد يكون الإنسان في موقع المسؤولية ويتخذ إجراء عنيفًا بحق شخص ما، وقد تنقلب الأمور ويصبح ذلك الشخص هو المسؤول، فإن التستر هو ألا يذكر الظالم بظلمه، فهي صفحة قد انطوت، فلماذا التذكير بأخطاء الآخرين؟!.

وإذا كان هناك شخص قد أخطأ، فنحن أيضًا قد نخطئ، فما فرقنا عن الآخرين؟، وإذا أردنا أن نتعامل مع الآخرين بنفس تعاملهم معنا في سنوات خلت وفي ظروف سابقة، فما فرقنا عنهم، في حين أننا نقول إننا في عراق جديد فيه الديمقراطية والتسامح والتعددية؟.

إذن، فالقضية المهمة هي أن يتجاوز الإنسان ويطوي صفحة معينة متمثلة بحالة الغل، كما ورد في الدعاء الشريف في القرآن الكريم: ﴿وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[179]. وهذه الأمور يجب التخلص منها، فلا يجوز التشهير بالإساءة. ويشهد لهذا المفهوم قول العلامة الطباطبائي: «ولا يذهب بماء وجهه عند الناس ولا يجهر عليه بالسوء من القول»[180]، أي لا يتحدث عنه أمام الناس ويشهّر به، بل المفروض ألا يقف عند هذه المسائل ويتخطّاها، ولا يجهر عليه بالسوء من القول.

وفسر العلامة الطباطبائي التستر بالفعل، بألا يواجهه بما يقابل ما أساء به ولا ينتقم منه في ما يجوز له ذلك. أي ألا يتعامل معه بما يتناسب وإساءته، فالمسؤول في موقع القدرة والمسؤولية حينما يريد التستر على هذا الإنسان، ينبغي ألا يتعامل معه بما ينسجم وإساءته إليه؛ لأنه سوف يتعامل بنفس الطريقة أيضا.

---

١٧٧ . سورة النساء: الآية ١٤٩ .

١٧٨ . الميزان ٥ : ١٢٤ .

١٧٩ . سورة الحشر: الآية ١٠ .

١٨٠ الميزان في تفسير القرآن ٥ : ١٤ .

وأما قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[١٨١]، أي يجوز الاعتداء عليه في حينه، ولكن يقول المتصدي أنا من موقع المسؤولية لا أريد استخدام صلاحياتي، ولا أريد الاعتداء عليه.

ويشير قوله تعالى: ﴿إن الله كان عفوًا قديرا﴾ إلى أن العفو صفة من صفات الله جل جلاله الكمالية. وربما يخطر تساؤل أن الآية الكريمة تتحدث عن مسؤول متصدّ يعفو ويصفح، فلماذا انتقلت للحديث عن الصفح الإلهيّ؟. إن هذا يعني أن العفو عن السوء هو اتصاف بصفة من صفات الله تعالى الكمالية، فالمسؤول عندما يصفح فهو يجسد صفة من الصفات الكمالية لله تعالى.

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[١٨٢] فإن هذه الصياغة الإلهيّة ﴿أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ تستخدم للإشارة إلى عظمة الأجر والثواب، فالأجر حينما يكون عظيمًا ولا يمكن حصره برقم معين يقال قرآنيًا ﴿أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. إذن حالة الصفح عن المسيء والمخطئ من الموارد التي وقع أجرها على الله.

ويقول أيضًا في آية أخرى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[١٨٣]، أي إن الإنفاق في السراء فيه فوائد، وحينما تكون الناس في شدة تكون الفوائد أعظم. كما أن كظم الغيظ والعفو عن المسيء من مصاديق الإحسان وفيهما الأجر العظيم.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «العفو تاج المكارم»[١٨٤]، وكم هو تشبيه رائع يقدمه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لمكانة العفو بين الأخلاق، فالعفو عن المسيء هو تاج مملكة المكارم الأخلاقية والصفات الحميدة، وهو أرفعها شأنًا، وأعلاها منزلة.

ويقول عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «العفو زكاة القدرة»[١٨٥]، فكل شيء له زكاة، وزكاة القدرة هي العفو. كما إن الزكاة حق الفقراء في المال فكذلك هي حق المسيئين والمقصرين. وكما أن الزكاة تعني النمو والزيادة - ولذا تزداد أموال من يؤدي الزكاة -، فكذلك هي تنمّي وتزيد أخلاق من يعفو ويصفح عن الآخرين.

---

١٨١. سورة البقرة: الآية ١٩٤.
١٨٢. سورة الشورى: الآية ٤٠.
١٨٣. سورة آل عمران: الآية ١٣٤
١٨٤. غرر الحكم: ١٤٠.
١٨٥. عيون الحكم والمواعظ: ٣١.

وفلسفة العفو على الصعيد الفردي، أنها تَحُوْل دون أن يتحول الإنسان إلى وحش كاسر يبطش بالناس ويستغل هذه القدرة والصلاحيات والفرص والإمكانات لإشباع شهوة الانتقام من الآخرين والإساءة إليهم.

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «أحسن أفعال المقتدر العفو»[١٨٦]، انظروا إلى ثقافة الإسلام والإدارة التي يُراد لها أن تكون على أساس الانفتاح والتسامح وطي صفحة الماضي والنظر لحاضر الناس وليس في تأريخهم، وهذا هو المنهج الإسلامي في الإدارة والقيادة، الذي من لوازمه عدم الشعور بالندم بعد العفو والصفح عن الآخرين.

الإضاءة الثالثة

عدم التشفي عند تطبيق العقوبة

علينا ألا نكون سعداء عند تطبيق العقوبة على مستحقها، كما أنه على المسؤول الابتعاد عن حالة التشفي عند تطبيق العقوبة، فقد يكون العقاب حدًا من حدود الله، أو قد يكون تطبيقًا لقانون هذه العقوبة، ولذا يجب ألا يكون بها حالة التشفي، ويجب ألا يدس فيها حالة الانتقام، ويجب ألا نكون سعداء حينما نعاقب الآخرين، وأن ننظر إلى العقوبة على أنها علاج ودواء.

وأتذكر موقفًا لشهيد المحراب عندما أُعلن عن مقتل عدي وقصي ابني صدام حسين، فقد كنت حينها في النجف الأشرف، وبدأت الأفراح والإطلاقات النارية، فدخلت على شهيد المحراب ورأيته متأملًا وليس هناك من آثار فرح على وجهه، فجلست عنده وأخبرته أن الله تعالى قد انتقم لدماء الشهداء وقد قُتل عدي وقصي، فلماذا لا أجد علامات الفرح على وجهك؟ فقال: إننا لسنا أهل شماتة، بل نحن أهل اعتبار، ولا بدّ للظالم من نهاية.

ودولة المواطن هي الدولة التي يُحترم فيها الإنسان، لأن الأساس فيها هو الإنسان، وكل إنسان له كرامة حتى لو كان مجرمًا وقاتلًا ومخطئًا، فإنسانية الإنسان لا تسمح بأن نفرح بعقوبته؛ لأن العقوبة يُراد منها تطهير المجتمع حينما تنتشر فيه فيروسات الجريمة، فإن المجرمين والذباحين الذين يقطّعون أشلاء الناس هم فيروسات تتحرك في المجتمع يلوثون البيئة الاجتماعيّة، وعقابهم تطهير للمجتمع.

---

١٨٦. غرر الحكم ٢: ٣٩٩.

ومن الآثار الإيجابية لتطبيق عقوبات الحدود والتعزيرات أيضًا، هي أن من أمن العقوبة أساء الأدب، فمن أجل وضع حد للإساءة والتعدي على الناس لا بد من العقوبة، فنعاقب لنضع حدًا لتفشي الجريمة في المجتمع، ولكننا لسنا سعداء لهذه العقوبة.

الإضاءة الرابعة

الجريمة مرض بحاجة إلى علاج

إننا لا نفرح بالعقوبة لأنها تكشف عن وجود جريمة، والجريمة مرض من الأمراض الاجتماعيّة، وكلما ازدادت العقوبات عبّر ذلك عن ازدياد المرض وتفشيه. كما أن الفرح بعقوبة هذا أو ذاك يؤدي إلى الانشغال بالتشفي بهؤلاء الناس، ونترك البحث في أسباب ومناشئ مثل هذه العوارض.

فمهما بررنا ووجهنا العقوبة، فلا بد من البحث عن أسباب المشكلة، وفي واقعنا اليوم مهما عاقبنا من مجرمين وذباحين فلا يمكن حل المشكلة إلا إذا عالجنا الفكر الذي يربي الذباحين وأمثالهم، فعندما قُتل ابن لادن، هناك من قال إنه تم القضاء على القاعدة، والواقع أن القاعدة ليست أفرادا فقط، ولكن القاعدة فكر هدام، والقاعدة رؤية ظلامية لا تريد الحياة للناس، والقاعدة تعني عدم القبول بالآخر لأنه يختلف بالفكر. فالفرح بعقوبة الناس يشغلنا عن النظر في الأسباب والمناشئ التي دعت إلى صدور هذه الاعتداءات.

والمسؤول حينما يعاقب يجب أن يستشعر الألم، كما ينقل ذلك عن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أنه يتحدث بألم عن المشركين والكفار والعصاة والمذنبين، والله تعالى بعدله قد أدخل أهل النار فيها، بينما رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يتألم ويتقطع حرقة على هؤلاء.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحالة في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[١٨٧]، والبخع هو حالة الهلاك، وهي أعلى مراتب الألم، وهنا تتدخل الرحمة الإلهيّة لتطييب خاطر رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لجرحه العميق وأسفه الشديد الذي يصل إلى حد البخع (الهلاك) على حال المجرمين والظلمة والعصاة في النار.

---

١٨٧ . سورة الكهف: الآية ٦ .

وهذه هي أخلاق الإنسان الكامل المتمثل برسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وهكذا كان علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في تعامله مع الناكثين في الجمل، فقد أشارت النصوص إلى هذا المعنى، فبعد أن انتهت المعركة وانتصر علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تُقرع طبول النصر، ولم يعبّر عن سعادة وفرح بهذا الانتصار، بل لما مر بطلحة بن عبد الله وهو مقتول وقف على جثته وقال: «لقد أصبح أبو محمد بهذا المكان غريبًا، أما والله كنت أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب»[١٨٨].

وهنا يعبّر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أسفه في أن تكون جثامين قريش تحت أضواء الكواكب، ولكن ليس في اليد حيلة لعدم وجود خيار إلا بمعالجة المرض بإنزال العقوبة بحق من تجاوز وتعدى وأصبح السكوت عليه مخاطرة. وينقل الطبري كلمة عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في نفس المشهد يقول: «والله لوددت أني مت من قبل اليوم بعشرين سنة»[١٨٩]. وهؤلاء الذين يتحدث عنهم علي عَلَيْهِ السَّلَامُ هم الناكثون الذين نكثوا بيعته، فهذه ثقافة الإسلام، وعلينا أن نعتمد هذه الثقافة.

١٨٨. نهج البلاغة: الخطبة ٢١٩.

١٨٩. تاريخ الطبري ٤: ٥٣٧.

الدرس الحادي والعشرون

نبذ سياسة ردود الأفعال

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر: «وَلاَ تُسْرِعَنَّ إلى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً»، إن معنى هذه العبارة، أن على المسؤول ألا يسرع إلى المبادرة باتخاذ الموقف والقرار، وعليه الابتعاد عن اتخاذ القرارات في حال الغضب. إذ ليس من الصحيح أن يبدر إلى الحاكم والمسؤول الغضب ويأخذه الانفعال حينما يسمع كلمة أو يصله تقرير أو يشاهد خبرًا في وسيلة إعلامية أو ينقل له شيء فيدون أمرًا معينًا وهو في حالة الغضب غير قادر على اتخاذ القرار الصحيح.

وما دام هناك فرصة لحمل الخبر على محمل حسن، فلا ينبغي التفريط فيها، فقد يكون التقرير خاطئًا أو كيديًا أو المعلومة غير دقيقة أو لم تعكس الصورة كاملة. ولذا ينبغي للمسؤول أن يجد مبررًا حتى يخرج من ذلك الموقف دون اتخاذ قرار. فعليه أن يهدأ ويحقق بالموضوع ثم يتخذ القرار الذي لن يعيد النظر فيه ولا يتراجع عنه، حتى لا يكسر قراره في وقت لاحق.

فمسألة الغضب والانفعال في البعد الإداري والقيادي هي من أخطر الأمور التي تؤدي إلى تضييع الحقوق، وتجعل المسؤول في موقف محرج، فإن تراجع كسر قراره وضاعت هيبته، وإن أصر يكون قد أصر على الخطأ في قضية لا تستحق مثل هذه القرارات المجحفة في موضع ما، التي قد تكون جاءت على خلفية الانفعال. إن التريث والصبر والحكمة والهدوء في هذه المسألة مطلوبة جدًا.

التوصيات التي يجب على الحاكم مراعاتها

وقد ورد في كلمات أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ إلى بعض عماله في وصيته له، قال: «فاستعن بالله على ما أهمك، واخلط الشدة بضغث من اللين، وارفق مادام الرفق أرفق، واعتزم

بالشدة حين لا تغني عنك إلا الشدة، واخفض للرعية جناحك وابسط لهم وجهك، وألن لهم جانبك وساوِ بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية، حتى لا يطمع العظماء في حيفك، ولا ييأس الضعفاء من عدلك»[١٩٠].

تضمنت هذه الفقرة المباركة مجموعة من التوصيات التي يجب على الحاكم والمسؤول مراعاتها، وهي:

أولًا: استحضار الله في الأمور المهمة

فيجب على المسؤول أن يستحضر الله عز وجل في الأمور المهمة ليعطيه القوة والعزيمة والإرادة. إن الالتصاق والارتباط بالله سبحانه واستحضار العلاقة معه تعطي المسؤول قوة كبيرة في الشدائد والمهمات، ولذا يجب عليه أن يضع الله سبحانه وتعالى بين عينيه.

ثانيًا: مزج الشدة باللين

ينبغي للمسؤول أن يمزج الشدة باللين دائمًا، وألا يتعامل بقسوة وغلظة، فإن لكل فعل ردة فعل، فلعل موقفًا شديدًا سوف يرتد عليه في ما بعد، ولذا عليه دائمًا أن يمزج الشدة باللين حتى تتحقق حالة الحزم، ولكن يجب عليه أيضًا ألا يكسر من هو مسؤول عنهم.

ثالثًا: استعمال الرفق ما كان أرفق بهم

ويجب على المسؤول استعمال الرفق بمن هو مسؤول عنهم ما كان الرفق أرفق بهم، ففي كل موضع فيه مجال للتعامل بالرفق والليونة والمرونة يجب التعامل بها؛ لكي تبقى أنظار المواطنين شاخصة دائمًا إلى لحظة تنفيذ العقوبة ويبقوا مترقبين لها؛ لأن العقوبة إذا كثرت سهلت وتجرأ الناس على مخالفة القانون.

ولا يجوز إصدار الأوامر بالاعتقال بسهولة ويسر، وكذلك الإيداع في السجن؛ لأنه حينذاك سيفقد السجن قيمته المعنوية في إصلاح الناس. إذن مادام الرفق ممكنًا فيجب التعامل به.

---

١٩٠. نهج البلاغة: الرسالة ٤٦.

رابعًا : استعمال الشدة حين لا ينفع الرفق

يجب على المسؤول استعمال الشدة حين لا ينفع الرفق ولا تغني إلا الشدة. أي لا يُلجأ إلى القوة إلا حينما لا يكون هناك طريق سوى موقف الحزم والشدة. ولكنها يجب أن تبقى مضربًا للمثل ولا تتكرر كثيرًا، لكي تساعد في خلق حالة صحية بين الناس.

خامسًا : خفض الجناح وبسط الوجه

ويجب على المسؤول أن يخفض للمواطنين جناحه، ويتواضع لهم ويبسط لهم وجهه، فالابتسامة والبشاشة تريح المقابل، فقد يدخل مواطن على مسؤول ويراه مبتسمًا وينتقي عبارات المودة والمحبة في مخاطبته، فيؤدي إلى شعور المواطن بالطمأنينة ويستطيع أن يعبر عما في داخله ويشرح قضيته من غير خشية وقلق.

سادسًا : مبدأ المساواة في المعاملة

ويجب على المسؤول أن يكون لينًا مع المواطنين ويساوي بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية، إذ لا يمكن ترقب العدالة من مسؤول منحاز إلى طرف دون طرف، بل يجب المساواة بين الناس حتى في التحية وتقاسيم الوجه، وأما الصداقة والقرابة فمكانها البيت والعلاقات الخاصة، لا محل العمل واللقاءات العامة. فعلى المسؤول مادام هو في موقع المسؤولية، أن يشعر الجميع أنه على مسافة واحدة منهم حتى يكون قادرًا على إدارتهم.

والعلة التي من أجلها تراعى المساواة أمران:

الأول: لكي لا يطمع العظماء في حيف المسؤول. أي حتى لا يطمع أصحاب الأموال والوجاهات والتأثير ويشعروا بالأمل في حكمه، وأنه سوف يميل على الضعفاء والفقراء بغير وجه حق لصالح هؤلاء العظماء.

والثاني: ولا ييأس الضعفاء من عدل المسؤول، أي يجب ألا يشعر الضعيف باليأس من إمكانية استعادة حقه من خلال المسؤول.

ولقد وردت الكثير من النصوص والروايات التي جاءت لتشدد على أن اتخاذ القرار في ظرف الغضب والانزعاج قرار خاطئ في أغلب الأحيان، إذ يضطر المسؤول لكسره

لاحقًا والرجوع عنه، وهذا ما يكسر هيبة المسؤول حينما تتعدد قراراته في القضية الواحدة.

الغضب يفسد الألباب

يقول أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ: «الغضب يفسد الألباب، ويبعد من الصواب»[١٩١]، أي أن العقل يتعطل حينما يكون الإنسان غاضبًا، ولا يستطيع التفكير بشكل سليم، ولا يقدر على اتخاذ القرار الصحيح. وحينئذ سيقع في إشكاليات كثيرة وكبيرة.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ أيضًا: «شدة الغضب تغيّر المنطق، وتقطع مادة الحجة، وتفرق الفهم»[١٩٢]، إذ كلما اشتد الغضب أصبح المنطق الذي يفكر فيه الإنسان ويتعامل به مغايرا لسجيته وطبعه الصحيح، وحينما يتخذ موقفًا غير صحيح بسبب الغضب سيكون غير قادر على البحث عن سياقات الحجة والبرهان، بل ستكون الانفعالات والمشاعر الجياشة هي السائدة.

ولا سيّما أن المتملقين حول المسؤولين ـ وهم كثر في كل عصر ـ يعملون على الإبقاء على حالة الغضب عند المسؤول مستمرة تجاه الآخرين، بل يجعلونه في أجواء عزلة عن الواقع الخارجي، لكي يتخذ أقسى العقوبات والقرارات بحق الآخرين. ولكن أول من يكتوي بنار هذه القرارات هو المسؤول نفسه حينما ترتد عليه وتضطره إلى أن يكسر هذه القرارات ويتراجع عنها.

كما أن حالة الغضب تفرّق الفهم وتشتته، ويحصل ذلك عندما يصدر المسؤول تعليمات وقرارات وهو في ثورة الغضب وفي حالة من عدم الاتزان وعدم الاستقرار النفسي.

إذن حري بنا التريث والهدوء والاستقرار لننظر ما هو حجم المشكلة، ثم ننظر في الحلول والمعالجات المطلوبة لحلها.

---

١٩١. غرر الحكم ١: ٣٥٧.

١٩٢. كنز الفوائد: ٣١٩.

المقطع السادس

تحديات موقع التصدي

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ

«وَلاَ تَقُولَـنَّ : إِنِّـي مُؤَمَّـرٌ آمُـرُ فَأُطَـاعُ ، فَـإِنَّ ذلِـكَ إِدْغَـالٌ فِـي الْقَلْـبِ ، وَمَنْهَكَـةٌ لِلدِّيـنِ ، وَتَقَـرُّبٌ مِـنَ الْغِيَـرِ» .

يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذا المقطع إلى مجموعة من المواصفات والخصائص ذات الصلة بتحديات موقع التصدي، فحينما يكون الإنسان مسؤولًا عن جمع من الناس فإن هذا الموقع يعرّضه إلى مجموعة من المخاطر والأعراض، وهنا يحدد أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الموقف المطلوب تجاه هذه الأعراض.

الدرس الثاني والعشرون

المسؤولية والاستبداد

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر: «وَلاَ تَقُولَنَّ: إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ».

ينبغي للمسؤول ألا يقول أنا مُؤمر وقد نُصبت في موضع المسؤولية ويجب أن يطاع أمري، لكي لا تأخذه حالة التجبر، والتكبر والاستبداد، والنرجسية، فمثل هذه الظواهر تُوقع الإنسان في فخ عظيم. ومثل هذه السلوكية وهذه النرجسية حينما يصاب بها المسؤول، فإن فيها إفسادا للقلب، وتعرّضه إلى مشاكل ومطبات أخلاقية كثيرة. وهذه الحالة منهكة للدين ومضيعة له.

إذن هناك مشكلة دينية وعقدية حينما يصاب الإنسان بحالة الاستبداد والنرجسية. كما أن هذه الحالة تقرّب الإنسان من عملية التغيير والتحول، ويكون أمام واقع يجعل الناس يصطفون أمامه ويهتفون: «الشعب يريد إسقاط النظام». فحينما يصاب الحاكم أو المسؤول بالنرجسية والاستبداد، واحتكار السلطة والتجبر، والتكبر على الناس والهيمنة عليهم، فإن الناس لا ترتضي ذلك، وتفقد فرصتها في الإدارة والقيادة.

ولذلك فإن هذا الكلام هو تحذير من هذه الأخلاقية التي قد يصاب بها المسؤول، وهي تختلف بين مسؤول وآخر، ولعله بسبب اختلاف موقع المسؤولية من شخص

لآخر، ولكن هذه الأخلاقيات قد نجدها في أي مسؤول لم يتخذ الاحترازات والإجراءات الكافية والمناسبة للسيطرة على نفسه.

وهذه القضية لاعلاقة لها بحجم المسؤولية، إذ يمكن أن يكون مسؤول قسم لم يهذب نفسه يقع في هذه المشكلة الأخلاقية الكبيرة، وقد يكون مسؤول كبير مسيطرًا على نفسه وعلى أعصابه فلا يقع فيها. وهذه إشكاليات يتعرض لها الإنسان حينما يتصدى لمواقع المسؤولية.

وهناك مجموعة من الإضاءات التي يمكن استفادتها من هذه الكلمة القصيرة ومن هذا الدرس البليغ من دروس أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر، .

الإضاءة الأولى

ظاهرة الاستبداد والنرجسية

إن خطورة حالة الاستبداد والنرجسية التي يصاب بها المسؤول، تتجلى عندما لا يرى فيها إلا نفسه، ولا يستشعر إلا مشاعره الخاصة، وحينئذ، يفقد القدرة على أن يتماشى مع الناس ويتفهم معاناتهم ويحمل همومهم، ويصبح لديه عجز عن ذلك، ولا يستطيع أن يفهم كيف يفكر الناس، وماذا يريدون؛ لأنه يعيش في هالة خاصة من الفردية، ومحاط بفريق وجماعة يطبلون له ويمدحونه على الدوام، ويكبّرون من شأنه ومن قيمة أقواله وأفعاله، ويقللون كل رأي وكل موقف يختلف مع رأيه وموقفه، فيصبح في حالة يعجز فيها عن التواصل مع الآخرين وفهم معاناتهم.

وتتعزز هذه الحالة شيئًا فشيئًا فيصبح لا يرى إلا نفسه، ولا يرى الأفكار الحسنة، ولا يرى في ما سواه أي حسن أو أي موقف صحيح أو خطوة صحيحة، فيخطّئ الآخرين، ويصحّح مواقفه، ويقلل من قيمة الآخرين، ويبالغ في إطراء نفسه وإلى غير ذلك.

وهو مرض عضال من الأمراض النفسية المزمنة التي يقع فيها المسؤول حينما يكون في موقع المسؤولية.

ويؤيد هذا المعنى قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «بئس الاستعداد الاستبداد»[١٩٣]. فهل يعتقد المسؤول بأنه حين يشدد القبضة يستعد لدوام الحكم ودوام المسؤولية؟، وهل

١٩٣. غرر الحكم ٣: ٢٥٦.

يعتقد بأنه كلما احتكر السلطة ووضع يده على مساحات أوسع وغيّب الآخر وضيّق عليه، وانتصر لإرادته ورغباته، وكبح جماح الآخرين، فإنه يعمّق ويجذّر إدارته وحكمه؟.

إذا كان اعتقاده ذلك فهو مخطئ، في كل خطوة يخطوها، بل هو يتبع أسوأ طريق ويمهد لنفسه أسوأ مصير، فالحفاظ على المسؤولية لا يكون من خلال احتكار السلطة وعدم إعطاء دور للآخرين في المشاركة، بل سيؤدي بهم إلى الانتفاض عليه وإسقاط حكمه وإخراجه من المسؤولية. فإن من أصعب الأمور هو الوصول إلى مرحلة لا يرضى الشعب فيها بأقل من هلاك المسؤول أو الطاغية.

إن المداخل التي تضمن للمسؤول دوام المسؤولية واستمرار ثقة الشعب هي: توزيع الصلاحيات، واحترام الرأي الآخر، وتفهم معاناة الآخرين، والتحسس بهمومهم وهواجسهم، وأن يضع نفسه في موضعهم، ويكون منصفًا معهم.

إن أسوأ حالات الاستبداد التي يصاب المسؤول بها هي عندما تهتز ثقة الشعب به، وهذه سُنّة إلهية لا تختص بزمان ومكان معينين، فأي شعب من الشعوب وأي أمة من الأمم وفي أي زمان من الأزمنة، حينما تُبتلى بحاكم مستبد أو مسؤول لا يرى إلا نفسه، تبدأ الفجوة تزداد بينه وبين شعبه شيئًا فشيئًا، وتؤدي إلى مزيد من الاستبداد ومزيد من الظلم، وكلما ازدادت هذه الفجوة اضطر المسؤول إلى ممارسات أكبر من الاستبداد والقهر والتخويف والترويع للآخرين؛ حتى يستطيع أن يشدد قبضته، وهكذا نجد العلاقة تتخذ منحى عكسيًا.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في تأييد هذا المعنى أيضًا: «من استبد برأيه زل»[١٩٤]. فحينما يكون هناك استبداد بالرأي من قبل المسؤول تحصل الزلة والانحراف والضياع والابتعاد عن جادة الصواب.

ويقول عَلَيْهِ السَّلَامُ في رواية أخرى: «من استبد برأيه خاطر وغرر»[١٩٥]، فحينما يستبد المسؤول فإنه يضع نفسه في موضع المخاطرة، فيخاطر بموقعه ومسؤوليته ويغرر بنفسه أمام الآخرين ويأخذ بنفسه إلى الهاوية.

١٩٤. غرر الحكم ٥: ١٧٠.
١٩٥. غرر الحكم ٥: ٤٦٠.

ويقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا: «الاستبداد برأيك يزلك، ويهورك إلى المهاوي»[١٩٦]، واستبداد المسؤول برأيه بداية الزلل والانحراف، وبداية الوقوع في الهاوية والتراجع وفقد الشعبية وأزمة الثقة بينه وبين الآخرين.

ويقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا: «من استبد برأيه هلك»[١٩٧]، فالاستبداد يؤدي إلى الهلاك والضياع. ونشاهد اليوم في منطقتنا العربية، أن الحاكم أصبح هو الذي يدعو إلى الانتخابات بعد ثلاثين سنة أو أكثر من الحكم، ولكن حلم الناس بهذه الانتخابات لا يصير واقعًا، ورغم إصرار الزعيم في الدعوة إلى انتخابات حرة وإشراف دولي وألا يكون هناك تزوير أبدًا، ، ولكن الناس تخرج وتهتف«الشعب يريد إسقاط النظام»، فيتراجع الزعيم أكثر ويقبل بتسليم الحكم، مقابل أمواله وعائلته وضمان عدم الملاحقة فقط، ولكن الناس تخرج وتهتف«الشعب يريد إسقاط النظام».

وهذا معناه الوصول إلى مرحلة لا يرضى الشعب فيها بأقل من هلاك المسؤول أو الطاغية، وتسير الأمور هكذا عندما يصل الاستبداد إلى ذروته، فتحصل أزمة الثقة وتصل الأمور إلى مستوى اللارجعة. ولذا يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بتجنب هذه الحالة. والنظرية الإسلاميّة تعتمد على مثل هذا الأساس.

الإضاءة الثانية

المنطلقات القياديّة في الرؤية الإسلاميّة

ما منطلقات القيادة والطاعة والعلاقة بين المسؤول أو الحاكم ومن هو مسؤول عنهم أو الرعية؟ وما طبيعة هذه العلاقة؟ وكيف تصان إسلاميًا؟ وهل هذه المنطلقات هي منطلقات الاستعلاء والهيمنة وفرض السلطة على الآخرين والإذلال والتحقير والتهديد والترويع وإخافة الناس حتى ينصاعوا، أو هي منطلقات التطميع والإغراء؟ وكيف تبنى هذه العلاقة في الرؤية الإسلاميّة؟.

يعتبر الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جميع هذه المنطلقات خاطئة، ولا يمكن أن تحقق النتيجة المطلوبة والغرض المنشود، بل لها آثارها العكسية. ويكمن الحل في نظر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفي الرؤية الإسلاميّة بأمرين:

---

١٩٦. غرر الحكم ١: ٣٩٠.

١٩٧. نهج البلاغة: الحكمة ١٦١.

الأول: العلاقة القلبية بين المسؤول والناس؛ فيجب أن يستشعر المسؤول الرحمة تجاه الرعية، كما يجب أن تحب الناس المسؤول وتُحسن الظن به وتثق به، وهذه العلاقة الإنسانيّة هي علاقة قلبية.

الثاني: الحقوق المتبادلة والضوابط والقوانين التي تنظم العلاقة، فلا يوجد شيء فوق القانون، ولا يوجد شخص بمعزل عن الإطار والضوابط. فعلى المسؤول كما يضع الضوابط والإجراءات للآخرين، أن يضع الضوابط لنفسه، وأن يقبل بالضوابط التي تضعها الناس له.

وكما يريد من الآخرين أن يتقيدوا بالضوابط، يجب عليه أن يتقيد هو بالضوابط أيضًا، فإن هذه العلاقة ليست علاقة من طرف واحد، بل هي علاقة بين طرفين، والحقوق متبادلة بينهما، فالمسؤول يجب أن يطاع، ولكن في نفس الوقت، هناك التزامات تجاه الناس عليه أن يلتزم بها.

فإذا صلحت العلاقة القلبية الإنسانيّة بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم، وإذا نظمت الحقوق المتبادلة بينهما، وإذا وُضِعت الأطر والسياقات التي تضمن مصلحة المسؤول وقدرته على أداء الواجب ومصلحة الناس وقدرتهم على الانسجام والالتزام، فحينذاك يمكن أن نعتقد بأن هناك علاقة رصينة بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ: «أما بعد، فقد جعل الله لي عليكم حقًا بولاية أمركم، ولكم علي من الحق مثل الذي لي عليكم، فالحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحد ألا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له، ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصًا لله سبحانه دون غيره، لقدرته على عباده، ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه، ولكنه سبحانه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب، تفضلًا منه، وتوسعًا لما هو من المزيد أهله»[١٩٨].

يبين أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ في هذا المقطع الشريف من خطبته القاعدة التي يستند إليها حق الحاكم في طاعة المحكومين، وهي أنه بعد ثبوت الولاية للحاكم يتفرع منها ثبوت حق الطاعة له. أي أنه بعد أن أصبح وليًا ومسؤولًا وخليفة، فبمقتضى هذه الولاية يثبت له حق على الناس.

١٩٨. نهج البلاغة: الخطبة ٢١٦.

ولكن هذه الولاية في الوقت الذي تثبت فيه حق الحاكم على المحكوم، تثبت أيضًا حقًا للمحكوم على الحاكم، ولم يتغافل أو ينسى علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكر حقوق الناس تجاهه كحاكم.

فالحق أوسع الأشياء بالتواصف، أي عندما نأتي إلى الوصف والشعارات والأقوال نرى المساحة واسعة، وما أكثر ما نسمعه من القيادات والحكام والمسؤولين من شعارات لطيفة وحديث جميل عن حقوق الإنسان وعن حقوق المواطنة وعن الحريات والالتزام بالقانون إلى غير ذلك مما تسمعون، ولو أصغيتم يومًا لخطاب زعماء أشد الأنظمة ديكتاتورية في العالم، لوجدتموها أكثر الخطابات ديمقراطية وانفتاحًا وتفهمًا لحقوق الآخرين.

ولكن في الوقت الذي يكون فيه الحق أوسع الأشياء في التواصف، نجده أضيقها في التناصف. أي عندما نأتي إلى الإنصاف والكلام الحقيقي والتطبيقات والأمر الواقع، سنجد عند ذاك أن الحق ضيق، ومساحة الناس الملتزمة بالحق مساحة ضيقة، وهم قلة، والحق مُرّ في أنظار الكثيرين؛ لأن الالتزام بالحق يعني التخلي عن الكثير من الامتيازات والاستحقاقات والأمور الأخرى.

لذلك نجد أن الحق هو الأضيق في التناصف. فكما أن الحق يجري لك ولصالحك يجري عليك أيضًا، فلا يمكن أن يكون الحق لطرف ولا يكون في مقابله حقًا عليه، والحق الذي يقف إلى جانب الإنسان في قضية سيقف ضده في قضية أخرى. ولذا يجب القبول بالحق سواء كان لنا أو علينا.

وإذا وقف الحق بالضد منك يومًا، فإنه سيكون معك في يوم آخر، وهذه هي القاعدة المتوازنة في شؤون الحياة وفي سنن الحياة، ولو كان لأحد أن يجري له الحق ولا يجري عليه لكان ذلك خالصًا لله سبحانه دون غيره.

ولا نستطيع أن نتخيل مخلوقًا من المخلوقات يكون الحق له ولا يكون عليه، فهذه الصفة لا تنطبق إلا على الله سبحانه وتعالى، إذ هو المالك والخالق ومن بيده كل شيء. وأما نحن فليس بأيدينا شيء، فنحن في الواقع لا نملك شيئًا، حتى الكلمة التي نطلقها والفعل الذي نصنعه محتاج إلى جهد وقدرة منحها لنا الله سبحانه وتعالى.

وعلة انحصار الحق لله تعالى من غير أن يكون عليه حق، هي لقدرته على عباده، ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه. فالله سبحانه وتعالى عادل في تعامله مع الناس، وهو القادر، وهو العادل، وبالرغم من أنه قادر ويملك كل شيء، ولكن لا

يرضى لنفسه إلا العدل، فيتعامل بالعدل مع الناس، فجعل لهم حقوقًا عليه بالرغم من أنه الوجود الوحيد الذي يمكن أن يكون الحق له ولا يمكن أن يكون عليه.

وليس هناك حقوق متبادلة حقيقة مع الله تعالى، والحق كله لله سبحانه، ولا منّة على الله مهما فعلنا؛ فجعل حقه على العباد أن يطيعوه، ولكن الله تعالى مع ذلك جعل بلطفه وكرمه وإحسانه، حقوقًا متبادلة بينه وبين عباده، وجعل حقهم عليه جزاءهم على هذه الطاعة والعبادة بمضاعفة الثواب، وهذا لطف من الله تبارك وتعالى، وفضل منه سبحانه.

حقوق الحاكم والمواطن

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا في تأييد هذا المعنى من خطبة له: «أيها الناس إن لي عليكم حقًا، ولكم علي حق. فأما حقكم علي فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا. وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم»[١٩٩].

ويتضح من هذا النص الشريف أن هناك حقوقًا متبادلة بين الحاكم والمواطن، يجب على كل طرف مراعاتها.

حقوق المواطن

فأما حقوق المواطن التي تناولتها هذه الفقرة الكريمة من كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ فهي:

الأول: حق النصيحة

إن من حق الأمة على الحاكم أن يستفرغ وسعه في نصيحتها، ويبين لها مواطن الخطأ والصواب ومواضع الحق والباطل بكل صدق وإخلاص؛ لأن من دواعي قبول النصيحة هي أن يكون الناصح صادقًا ومخلصًا. وعلى الأمة إذا علمت من حاكمها هذه الخصال أن تقبل نصيحته في أمورها ولا تعصيه، وإلا أورثها الحسرة والندامة، كما بين ذلك أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في إحدى خطبه حين قال: «إن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة»[٢٠٠].

---

١٩٩. نهج البلاغة: الخطبة ٣٤.

٢٠٠. نهج البلاغة: الخطبة ٣٥.

الثاني : حق المعيشة

ومن حقوق الأمة على الحاكم والمسؤول، توفير فيئها عليها، والفيء هو الأموال العامة من الضرائب والثروة العامة، وذلك من خلال التوزيع العادل لها. وهو يستلزم حماية هذه الأموال من السراق والمتلاعبين بالمال العام، فأموال الشعب للشعب وليست للسراق، وهذا الكلام الذي يقال في الشارع ليس كلاما طارئا أو انفعاليا، بل هو كلام يتطابق مع حقوق المواطنة في النظرية الإسلاميّة كما بينها علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ويستنتج من هذا النص الشريف، أنه يجب أن يكون الحاكم والمسؤول الذي يتولى هذه المهمة أمينًا على أموال الأمة، وأنه ليس للخائن ولاية على الأمة، وأنه متى طرأت عليه الخيانة فللأمة عزله من منصبه الذي اختارته له، بل ينعزل تلقائيًا وتسقط كل ما له من حقوق في ذمة الأمة.

الثالث : حق التعليم

وهو من الحقوق المهمة التي يجب على الحاكم والمسؤول توفيرها للأمة، بل ينبغي أن يصل هذا التعليم في مستواه العام إلى التخلص من الجهل في كافة مجالاته العلمية والعمليّة المتنوعة. وهذا واجب الحكومة وواجب الدولة والمسؤولين أن يوفروا فرص التعليم لجميع أبناء الأمة من غير استثناء أو استئثار، وخاصة فرص التعليم العالي.

ويدخل في هذا الحق أيضًا تعليم الناس جميع حقوقهم القانونية، وإخراجهم من دائرة الجهل حتى لا يقعوا في الخطأ؛ لأن القانون لا يحمي المغفلين كما يقال. وهذه المقولة لها أصول وجذور صحيحة، فيجب أن يُعلم المواطن حتى يكون قادرًا على معرفة التزاماته ليفي بها.

الرابع : حق التأديب

ومن حق الأمة على الإمام أن يُحسن تأديبها وتربيتها، لكي تتعلم حسن السيرة والسلوك، وذلك بإرشادها وتهذيبها ببيان الأخلاق الحسنة، وحثها على اتباعها، وبيان الأخلاق السيئة وأمرها باجتنابها.

حقوق الحاكم

كما تناولت هذه الفقرة من كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بيان حقوق الحاكم والمسؤول، وقد ذكر منها أربعة حقوق هي:

الأول: حق الوفاء بالبيعة

إن أول حقوق الحاكم الشرعي على الأمة هو حق الوفاء بالبيعة، أي حق الطاعة، إذ البيعة عقد بين الحاكم والأمة يجب الالتزام به من الطرفين، ويعد الإخلال به من أي طرف نقضًا له. ويجب على الأمة طاعة إمامها في ما يأمرها به من جهاد عدوها أو كف أيديها عن القتال مثلًا، فإن لم تفعل فقد خانت البيعة التي ألزمت بها نفسها.

إن الوفاء بالبيعة، هو الوفاء للنظام السياسيّ الذي يختاره الناس والالتزام بالإطار العام للعملية السياسيّة كما نعبّر عنه اليوم، ولذا ينبغي الوقوف إلى جانب الحاكم الشرعي ومساندته ودعمه.

الثاني: حق النصيحة في المشهد والمغيب

وهو من الحقوق المشتركة والمتبادلة بين الأمة والإمام، وبين المسؤول والناس، فكما يجب على الحاكم أن يمحض النصيحة للأمة، فكذلك على الأمة أن تمحض النصيحة للحاكم والمسؤول في حضوره وغيابه. وعلى المسؤول ألا ينزعج أو يغضب إذا وقف أحد المواطنين وقدم له النصح، ووضع اليد على الأخطاء، وأشار إلى مكامن القوة والضعف، فهذا هو حقه على الناس.

وينبغي ألا يتعالى المسؤول عن الاستماع إلى النصيحة وقبولها فيصاب بالنرجسية، ويرى أنه عبقري قد جادت به السماء على الناس، وليعلم أنه كأحدهم لا يختلف عنهم، وقد جاء به القدر ووضعه في هذه الدائرة أو الوزارة وأصبح نائبًا أو وزيرًا أو رئيسًا.

وهكذا ينبغي المحافظة على سلامة المسيرة من خلال تبادل النصيحة بين الحاكم والمحكوم، ويتم ذلك بتأسيس مجالس النصح لعقلاء الأمة مع المسؤولين لتدارس الأوضاع والمسائل المختلفة. وبهذا يتم الخروج من حالة اللامبالاة وعدم الاهتمام، وتربية الناس على الشعور بالمسؤولية وتحملها لئلا يضيع البلد جراء السياسات الاستبدادية الخاطئة للحكام.

إن الشعب شعبنا، والبلد بلدنا، والوطن وطننا، ومصالحه مصالحنا، والمسؤولين إخواننا وأولادنا، فيجب أن نكون في موقع النصيحة لهم في حضورهم وغيابهم.

الثالث: حق الإجابة

ومن حق الحاكم والمسؤول على الأمة إجابته حين يدعوها لأمر من الأمور، كالاجتماع أو التفرق، ولا يجوز لها التخلف عما يدعوها إليه؛ لأنه المدافع عن مصالحها والحامي لثرواتها وأموالها والحريص على مستقبلها. فإن لم تفعل تشتت أمرها وانفرط عقدها وضعفت هيبتها وطمع فيها عدوها وصارت أكلة سائغة لغيرها من الأمم.

الرابع: حق الطاعة

ومن حق الحاكم والمسؤول على الأمة أيضًا طاعته في ما يأمر وينهى، وعدم عصيانه والتمرد عليه.

وقد جعل الإسلام لطاعة الحاكم والمسؤول حدودًا، ولا يجوز إطاعته في كل ما يأمر وينهى، قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في رسالته لأهل مصر عندما عقد الولاية فيها لمالك الأشتر: «فاسمعوا له وأطيعوا أمره في ما طابق الحق»[٢٠١]، فإن كان أمره لا يطابق الحق فلا طاعة له.

فيجب على الأمة أن تقف إلى جانب المسؤول الذي يفي بواجباته لها وتطيعه؛ لأن هذا المسؤول لا يأمر بخلاف ما أنزل الله تعالى، ولا بخلاف المصلحة العامة للشعب، ولا يأمر بتبديد الإمكانات والثروات والميزانيات في غير محلها. فهذه هي الحقوق المتبادلة بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم في الرؤية الإسلاميّة.

الإضاءة الثالثة

عوارض الاستبداد والنرجسية

إن حالة الاستبداد والنرجسية تترك آثارًا وتخلّف تبعات في سلوك الإنسان ووجوده. وقد استعرض أمير المؤمنين ثلاثا من هذه التبعات والعوارض الأساسيّة لظاهرة الاستبداد والاستعلاء والاستكبار والهيمنة والنرجسية التي يصاب بها المسؤول:

---

٢٠١. نهج البلاغة: الرسالة ٣٨.

العارض الأول: عارض ذاتي فردي، وهو ما جاء في قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «إدغال للقلب»، أي إفساد للقلب. وهذه قضية شخصية يصاب بها المسؤول ويفقد الفرصة في الحفاظ على إنسانيته.

العارض الثاني: عارض عقائدي، وهو ما جاء في قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «ومنهكة للدين» أي مضيعة للدين. فعلى المسؤول أن يحذر من تسلل الاستبداد إلى نفسه، حذرًا على دينه من الضياع، وعلى دين الناس من الضياع أيضًا تبعًا له، لأن الناس على دين ملوكهم، فإن دين الناس يتعرض للمخاطرة حينما يقع المسؤول في شراك حالة الاعتداد بالذات إلى حد كبير.

العارض الثالث: العارض الاجتماعي والسياسيّ، فإن الاستعلاء والاستبداد يؤديان إلى مزيد من السخط الشعبي الذي يدفع باتجاه التغيير ويهز عرش المسؤول حينما يمارس مثل هذه المنهجية.

العارض الأول: العارض الفردي

إن حالة الهيمنة والاستعلاء على المستوى الفردي كما قلنا تجعل قلب الإنسان قلبًا مظلمًا، تغيب عنه المشاعر والأحاسيس، وتغيب عنه الفرصة في تحسس آلام الناس، ويعيش الإنسان في عالمه الخاص وينقطع عن آلام وهموم المجتمع، ولا يفكر إلا بنفسه وهمومه وقضاياه، وتنكسر الحواجز النفسية والمعنوية، وإذا انكسرت فسيجد الإنسان نفسه بؤرة للانحراف والضلال والاستعداد للقيام بكل شيء، من أجل الحفاظ على عرشه وكرسيه وموقعه، ويضحي بكل شيء ويهتك كل حرمة من أجل الحفاظ على موقعه. فتضيع القيم الإنسانيّة وتغيب الحالة المبدئية، وهذه مشكلة ومعضلة كبرى يصاب بها الفرد المسؤول حينما يكون في مثل أجواء النرجسية العالية والاستبداد.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في خطبته المعروفة بالقاصعة، أي المحقّرة التي تحقر الجبابرة، لما ورد فيها من التركيز على هذا الجانب: «فاحذروا عباد الله عدو الله أن يعديكم بدائه، وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله، فلعمري لقد فوّق لكم سهم الوعيد، وأغرق إليكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب، فقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾»[٢٠٢].

٢٠٢. نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.

يحذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في خطبته المباركة هذه الناس من الشيطان الرجيم وإغوائه ومن أن يعديهم بدائه، وداء الشيطان هو الاستكبار، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى﴾[٢٠٣]، وهذه مشكلة الشيطان في الجوهر.

ثم يحذرهم من أن يستفزهم بندائه، وأن يجلب عليهم بخيله ورجله، أي ألا يستنهضهم إبليس بسيرته السيئة باتجاه الأخلاق التي يمتلكها، وألا يخيفهم بجيوشه، في إشارة إلى أعوان السوء. وليحذر المسؤول من أن تحيط به بطانة السوء التي لا ترى إلا مصالحها، وكل ما يهمها كيف تنتفخ وتبالغ في الاستفادة من الفرص والإمكانات، فيتزلفون للمسؤول ويظهرون له المودة، ليس حبًا به ولا خشية من مكروهه، بل هم يبحثون عن فرص ومواقع وأدوار وامتيازات.

ثم يبين أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إرصاد إبليس لبني آدم ووقوفه على أُهبة الاستعداد للإيقاع بهم وحرفهم عن طريق الهدى إلى طريق الضلال والردى. وقد شبّه استعداده بمن وضع السهم في كبد القوس وسحبه بشدة ثم رمى هدفه من مكان قريب، وفي مثل هذه الحالة لا بد من أن يصيب السهم هدفه.

وكذلك الشيطان الرجيم هو قريب منا، ويرانا من حيث لا نراه، وهو لنا بالمرصاد يتحين الفرصة المناسبة لرمينا بسهامه المسمومة. وهذا هو حال الشيطان من المسؤول حينما يكون في موقع المسؤولية، فإنه يكون أكثر عرضة لإغوائه، لكثرة المغريات التي يتعرض لها المسؤول.

ويحكي القرآن الكريم كلام الشيطان الرجيم مع رب العالمين في هدفه على الأرض بإغواء بني آدم، قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢٠٤]، وهذا قسم للشيطان أقسم به أمام الله سبحانه وتعالى حينما عرف أن لا مكان له في الجنة بعد عصيانه رب العزة والجلالة وامتناعه عن السجود لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ولما كان الإنسان في موقع المسؤولية أكثر عرضة للإغراءات، كان تركيز الشيطان عليه أكثر وأكبر.

وهذا هو الأثر الفردي والنفسي الذي يصاب به المسؤول. فعلى المسؤول ألا يفرح بالامتيازات التي يحصل عليها، بل عليه وهو في موقع المسؤولية التفكير في مثل هذه

---

٢٠٣. سورة طه: الآية ١١٦.

٢٠٤. سورة الحجر: الآية ٣٩.

الأخطار التي تتربص به من عدو لدود، موقعه قريب منه، وقد صوب سهامه نحوه، وهو على أهبة الاستعداد ليستهدف صدره وقلبه.

العارض الثاني: العارض العقائدي

لا يمكن أن يجتمع الخضوع والخشوع لله، مع حالة الاستعلاء والتجبر، ومن كان خاضعًا لله فيجب أن يستشعر حالة الخضوع في وجوده وفي نفسه، وهذه الحالة تحصنه من الوقوع في حالة الاستبداد والنرجسية والاستعلاء.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبة له يذكر فيها أسباب هلاك الناس ويتحدث عن الجبابرة وسلوكهم: «فيا عجبًا! وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها! لا يقتصون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفون عن عيب، يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ماعرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم، كأن كل امرىء منهم إمام نفسه»[٢٠٥].

يتعجب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبته من خطأ هذه الفرق المختلفة من أصحاب الأديان والمذاهب على اختلاف حججها وأدلتها على أفكارها، كيف لا يبحثون عن الحق؟، وكل منهم يريد أن يبرر لنفسه وللآخرين أن الموقف الذي اتخذه هو أفضل المواقف، وأنه أحسن الناس، وأنه يفكر أفضل من غيره، وأن الحزب أو الجماعة التي ينتمي إليها والتوجه الذي يؤمن به هو أفضل الأحزاب والتوجهات.

ويتعجب منهم كيف أنهم لا يقتصون أثر نبي ولا يقتدون بعمل وصي من أجل معرفة الحقيقة والوصول إلى الحق. وكيف أنهم لا يؤمنون بغيب، فإن الإنسان إذا لم يؤمن بالغيب لا يبقى حجر على حجر.

فإننا نؤمن بالله والجنة والنار والدار الآخرة إيمانا غيبيا، وهؤلاء لا يؤمنون بالغيب وكل شيء يرونه بالمنظور المادي، مع أننا نرى في الواقع أن نِصْفَ أثرى أثرياء العالم أُميون، بينما نجد بروفيسورًا في الاقتصاد لا يملك لقمة عيشه، فهناك إذن أسباب ومسببات، والأمور تسير بأسبابها الطبيعية، ولكن هذه الاستثناءات تلقي علينا الحجة البالغة على وجود أمر غيبي يصرف الأمور كيفما شاء، وأن لله تعالى كلمة يقولها تأتي منسجمة مع أغلب السياقات في أغلب الأحيان، ولا تأتي في بعض الأحيان، لكي تقول إن الأمر ليس

---

٢٠٥. نهج البلاغة: الخطبة ٨٨.

ماديًا صرفًا ، وبذلك يوضع أكثر الناس إلحادًا بالله عز وجل أمام مواقف محرجة حين يرون أن جميع قواعدهم التي بنوا عليها قناعاتهم قد ضُربت .

ففي الطب هناك معاجز لا أحد يعرف أسبابها ، وجاءت نتيجة الاستغاثة بالله تعالى والتوسل بالأئمة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وهذه الأمور كلها جاءت لكي تعطي رسالة إلى هؤلاء الملحدين والمنكرين لوجود عالم الغيب. ونرى أيضًا أن القلوب تميل إلى حب من لا يملك شيئًا ، بينما نراها لا تميل إلى من يمتلك الجيوش والمليارات ، لأن قلوب الناس لا تُشترى بالمال ، بل الله سبحانه وتعالى يهدي الأنفس والقلوب لتهوى هذا الشخص أو ذاك .

وما أكثر من ينفق ، ولديه وسائل إعلام ، ولكن الناس لا تحبه ، وهناك من لا يملك شيئًا ولا يملك الإعلام ولكن قلوب الناس تهواه ؛ كما نشاهد اليوم أن أكثر الناس محبوبية في هذا البلد الكريم هو الإمام السيد السيستاني ، مع أنه لم يصرف دينارًا واحدًا على الإعلام ، ولم يظهر في وسيلة إعلامية ، فقد ألقى الله محبته في قلوب الناس .

فيجب على المسؤول أن يكون لديه الإيمان بالغيب ، ولا يأخذه الغرور بالموقع .

ثم يتحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن هذه الفرق والأحزاب المختلفة بأنهم لا يعفون عن عيب ، فهناك من المسؤولين من ينظر ويتحدث في مؤتمرات صحفية ، ثم يظهر بعد يومين ويتحدث بخلاف ما قال ! .

ثم يذكر عَلَيْهِ السَّلَامُ صفة أخرى لهم ، وهي أنهم يعملون في الشبهات ، فنجد المسؤولين يبحثون عن الشبهة وخرق القانون وحقوق الإنسان . ولكن هذا الأمر لا ينطبق على كل المسؤولين ، بل فيهم المخلصون والشرفاء ومن يتسم بالنزاهة ، وغالبًا يُحارَب هؤلاء ويطاردون ويهمشون .

ونرى أن أخطر شيء يُرجف قلوب المسؤولين هو الاستضافة في البرلمان ، فضلًا عن الاستجواب ، فلماذا هذا الخوف ؟ ، في حين أنه يجب أن يمتلك المسؤول التبرير الواضح لمواقفه .

ثم يشير عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى صفة ثالثة وهي أنهم يتبعون الشهوات ، وقد تركوا العقل جانبًا ، وكل همهم بطونهم وفروجهم ، قد هجموا على الدنيا هجوم مفترس لا يرعي إلًا ولا ذمة .

وأما الصفة الرابعة التي اتصف بها هؤلاء فهي أن المعروف فيهم ماعَرفوا ، والمنكر عندهم ما أنكروا . أي أن الشيء الحسن هو ما يرونه حسنًا ، والشيء المنكر هو ما يرونه منكرًا ، ولا وجود لميزان تُعرض عليه المواقف ، بل هناك مواقف تُكيّف القوانين والدساتير والمبادئ والقيم معها .

وإن من أخطر الأمور أن يكون المسؤول بمستوى يلبس الحالة المبدئية ثوبه وسلوكه وأداءه، ولا يعرض أداءه على الثوابت والمبادئ.

ثم يذكرعَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ صفة خامسة لهم وهي أن مفزعهم في المعضلات والمشكلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم. فتجدهم عندما تحصل لهم مشكلة يلجؤون إلى أنفسهم، ولا يرون إلا رأيهم، ويتجاهلون الخبراء والمستشارين.

وعندما تحدث أزمة سياسيّة كبيرة مع دولة جارة أو قضية أمنية خطيرة أو قضية اقتصادية وغيرها من الأمور التي يتوقف عليها مصير البلاد والعباد، لا يصلح أن يرجع فيها المسؤول إلى رأيه الشخصي، وكأن كل امرئ منهم إمام نفسه، أي يقتدي بقناعاته وميوله ورغباته، وهذه من سمات المسؤول حينما ينحرف ويتجبر ويتكبر.

إن أكبر الأخطاء التي يقع فيها المسؤول ليس في خطئه فحسب، بل في تقمص الثوب الديني والموقف الشرعي والقانوني لمواقفه. وأكبر خطر هم أولئك المستشارون القانونيون من مستشاري السوء الذين يبحثون عن الثغرات والمخارج القانونية لتصرفات وقرارات المسؤولين. وتكمن خطورة استبداد المسؤول في تكييف القانون والثوابت والقيم والدستور مع موقفه الشخصي وقناعاته الشخصية.

ونرى اليوم الكثير من الجدل السياسيّ القائم في بلدنا، يستند فيه الجميع إلى الدستور، مع أن الدستور واحد، فكيف يستنبط كل منهم حكما مختلفًا؟!، وهذا يبرهن على أن هناك رؤية خاطئة.

علماء الزور

ويقول أمير المؤمنينعَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا في هذا الصدد: «وآخر قد تسمى عالمًا وليس به، فاقتبس جهائل من جهال، وأضاليل من ضلال، ونصب للناس أشراكًا من حبائل غرور، وقول زور، قد حمل الكتاب على آرائه، وعطف الحق على أهوائه، يؤمّن الناس من العظائم، ويهوّن كبير الجرائم. يقول أقف عند الشبهات وفيها وقع، ويقول أعتزل البدع وبينها اضطجع، فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصد عنه، وذلك ميّت الأحياء»[٢٠٦].

هناك من يرى نفسه عالمًا، وأنه يفهم كل شيء، ويعرف كل شيء، ويعطي رأيه في كل شيء، ولكن لو سُئل من قال إنك عالم؟، هل عندك شهادة اختصاص في هذا المجال؟،

٢٠٦. نهج البلاغة: الخطبة ٨٧.

هل عندك خبرة طويلة في هذا المجال؟، لأجاب: إن من حولي يقولون ذلك. ما شاء الله ما هذا الفكر النير!، ومن قال لك إن هؤلاء المحيطين بك ليسوا متزلفين وليسوا انتهازيين، وأنهم لا يوقعونك في الفخ ويصعّبون عليك المهمة؟، ولماذا تصدق بهم وأنت تعرف أنك لا تملك الاختصاص؟، وأنت تدري أن غيرك يعلم أكثر منك وهو خبير في هذا المجال، فلماذا لا تذهب وتستعين به؟، ولا تظن نفسك علّامة في المسؤولية، وأن الآخرين لا يفهمون شيئًا.

وهنا تكمن المشكلة، فعندما يبحث المجتمع عن مصالح خاصة، ويصفق لكل مسؤول، فهذه ظاهرة توقع المسؤول في وهم أنه يفهم جدًا ومحبوب جدًا. ويجب على مجتمعنا ألا يقدم المشاعر والعواطف لمن هب ودب وبدون اعتبار، بل عليه أن يحترم الناس على قدر عطائهم، فيصفق للمسؤول الذي يقدم الخدمة ولا يصفق للمسؤول الفاشل، لكي يشعر بفشله ويعلم أن الناس غير راضية عن أدائه.

فهذه قضية مهمة، وهي أن يسمي شخص نفسه عالمًا وهو ليس كذلك، بل يدّعي شيئًا ليس فيه، ويدّعي علمًا لا يملكه. وكل ما لديه جهل أخذه من جهال وضلال، ويتحقق ذلك عندما يكون من حوله وحاشيته من أهل الجهل والضلال، وبدلًا من أن يأخذ علمه من العلماء وذوي الاختصاص وضع حوله جهلة وضلالًا من بطانة السوء، فيقدمون له النصائح التي تزيده جهلًا إلى جهله، وضلالًا إلى ضلالته، فيزداد بُعدًا عن اتخاذ القرارات الصحيحة، وكلما استمع إليهم أكثر ازدادت المشاكل والعقد أكثر.

فحينما يكون الإنسان غير سوي وانتهازيا ويبحث عن مصالح خاصة، وحينما يتزلف إلى المسؤول، فإنه سيقدم نصيحة غير صادقة تعجب المسؤول، لأنه يعلم أنها تتلاءم مع ذوقه وهواه، فيكون ضلالًا. وحينما يأخذ بها المسؤول يزداد ضلالًا.

أفعال أدعياء العلم

ثم انتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بيان بعض أفعال من يدعي علمًا وهو ليس كذلك.

الأول: نصب الشراك للناس

وأول هذه الأفعال أنه يقوم بنصب أشراك من حبائل غروره للناس، أي يضع المكائد والحيل عندما يقع في مطبات خطيرة تخرجه عن الشفافية والوضوح والحرص على مصالح الناس، فيكون همه كيف يستخدم التكتيكات لكي يبقى في المنصب، وكيف

ينصب الفخ للناس، ويوظف الإمكانات والامتيازات التي تعطيها له السلطة، ويضرب هذا بذاك، ويخلق الفتن بين الناس، كل ذلك من أجل البقاء في السلطة.

فعلى المسؤول مهما كانت مسؤوليته في السلطة ألا يضرب موظفا بآخر، فيقول لهذا شيئًا ويقول للآخر شيئًا آخر ليوقع الفتنة بينهما، وألا يمارس سياسة (فرّق تَسُد) الاستعمارية، لكي يصور نفسه بأنه هو المنقذ.

الثاني: قول الزور

وثاني هذه الأفعال التي يفعلها من يدعي علمًا وهو ليس كذلك، هو قول الزور، فيخدّر الناس بالوعود الكاذبة، وتحتل (السين وسوف) مساحات واسعة من حديثه، وتمضي مدة الوعود التي يقطعها المسؤول على نفسه ولا شيء على أرض الواقع غير وعود جديدة، وهكذا تمضي الشهور والسنين ولا شيء غير كيل من التهم المتبادلة بين المسؤولين، وكلٌ يحمِّل الآخر تبعات الفشل. والنتيجة أن الأمة ستفقد ثقتها بهؤلاء المسؤولين وترفع أيديها عن تأييدهم وتندفع إلى الشارع لتحطم عروشهم الكارتونية المهزوزة.

الثالث: تفسير القرآن برأيه

وثالث هذه الأفعال التي يقوم بها هذا المدعي هي حمل الكتاب على آرائه، فيقوم بتوجيه القيم والمُثُل والضوابط والقوانين على مزاجه ووفقًا لمصلحته الشخصية، فيعطي لأعماله وأقواله سمة القداسة وسمة الشرعيّة، وهنا يكمن الخطر العظيم.

الرابع: إمالة الحق على هواه

ورابع هذه الأفعال أنه يعطف الحق على أهوائه، أي يحمل الحق على رغباته ونوازعه الشخصية، فالمسؤول حينما يرى نفسه هو الحجة الكبرى، وموقفه هو الموقف الصحيح دائمًا، ولو قيل له إن المادة الفلانية في الدستور أو القانون تقول هكذا، يقول نطلب لها تفسيرا، فهذه وظيفة خبراء القانون، هذا المسؤول يعمل بما يشتهي ويرغب، ثم يطالب المستشار القانوني أن يجد مخرجًا قانونيًا.

الخامس : تصغير الأخطار العظيمة

وخامس هذه الأفعال أنه يؤمّن الناس من المشاكل العظيمة والأخطار الداهمة، أي يهوّنها ويصغرها، ويطلب من الآخرين عدم المبالغة في عرض المشاكل والأخطار وعدم تسييسها.

إنه يهدّئ الناس ويخدّرهم بقوله: ليست هناك مشاكل وأزمات، أو إنها بسيطة وهينة وليست ذات أهمية. ولو قيل له إن جريمة (عرس الدجيل) من الجرائم الكبرى، حيث ذُبح الأطفال والنساء والرجال كما يُذبح الكبش ومثلوا بالعروس بعد اغتصابها، والضحايا أناس أبرياء مسالمون فرحون بعرسهم، لهونها وقلل من قيمتها في أنظار الناس، وقال إنها بسيطة.

كيف تكون بسيطة وهي جرائم كبرى تُرتكب بحق الإنسانيّة؟!، ولو قيل له إن نصف مليون إنسان قُتلوا في الانتفاضة في غضون أسبوعين، وهي أكبر مجزرة في تأريخنا المعاصر، لقال: لا تبالغوا، فالقتلى ليسوا بهذا العدد!. إنه يقلل من قيمة الجرائم، وهذه مشكلة يقع فيها المسؤول.

السادس : ادعاء الوقوف عند الشبهات

وسادس هذه الأفعال أنه يدعي الوقوف عند الشبهات، ويقول أنا ألتزم بالدستور، وأنا أحتكم إلى القانون، وإن أعمالي كلها قانونية، وأنا لا أتخطى الحواجز، وأنا أهتم بالحريات، وأنا أتمسك بحقوق الإنسان.

إنه يزعم أنه يقف عند الشبهات ولكنه فيها وقع، فهو أول من يخرق القانون، وأول من يتجاوز على المال العام، وأول من يصادر الحريات ويسيء إلى كرامة المواطنين.

ويزعم أيضًا أنه يعتزل البدعة، وأنه يريد السير على الطريق الصحيح، ويريد أن يرسي الشفافية في البلد، ويريد أن يعمل ضمن السياقات الصحيحة. ولكن لو نظرت إلى سلوكه لرأيت أنه كله بدع، وكله خروج عن المألوف، وكله تجاوز للسياقات الصحيحة.

ومثل هذا المسؤول الذي يُبتلى بهذه السلوكيات سيئ كله، ويحاول أن يغطي على الرائحة النتنة للهوى والشهوات والاستبداد والتكبر على الناس، برائحة الدين الطيبة. وعندما يكون المسؤول من هذا النوع فإن حاله تكون ـ كما قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ الصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان، أي تراه يمشي على الأرض مثل بقية البشر ولكن ليس لديه شيء من الإنسانيّة.

السابع : الجهل بالهدى والضلال

وسابع هذه الأفعال أنه لا يعرف باب الهدى فيتبعه ، فلا يدري أين الموقف الصحيح ، قد اشتبكت عليه الأمور ، وكثر عليه المشيرون ، كل يعطيه رأيا بما يتلاءم مع مصلحته .

ولا يعرف أيضًا باب العمى فيصد عنه ، فلا يعرف أين هي المشكلة والحفرة حتى لا يقع فيها ، وتلتبس عليه الأمور .

ومثل هذا المسؤول هو ميت الأحياء ، ترونه حيا يأكل ويشرب وينام ويتحرك ، ولكن ليس لديه سِمة من سمات الحياة؛ إذ الحياة ليست أكلا وشربا ، وإنسانيتنا ليست في الأكل والشرب ، فالنبات أيضًا يأكل ، وكل الكائنات الحية تأكل وتشرب أيضًا . وإنما إنسانيته تتجلى عندما يكون قادرًا على أن يخطو في الاتجاه الصحيح ، وأن يحقق خدمة للناس ، وأن يزيل مظلمة من مظالمهم ، وأن يقرّب الناس إلى ما فيه صلاحهم . فهذه هي الحياة ، والذي لا يملك هذه الحالة فهو ميت الأحياء كما يعبّر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ .

العارض الثالث : العارض الاجتماعي

عندما يستبد المسؤول برأيه ، ولا يعترف بأحد غيره ، ولا يقبل بالرأي الآخر؛ ويرى نفسه يفهم أكثر من غيره؛ سيتقاطع مع الآخرين وتزداد الاحتجاجات الشعبية وتتسع المعارضة السياسيّة وتتكتل القوى الشعبية الأخرى ضده ، وسيرى نفسه معزولًا ، فهو في واد والشعب كله في واد آخر .

وهذه تجربة الربيع العربي كما يسمونها ماثلة أمامنا ، فقد كانت مقدرات الشعوب بأيدي حكامها ثلاثين سنة أو أكثر ، إذا ضحك الزعيم فعلى الشعب أن يضحك ، وإذا غضب الزعيم فعلى الشعب أن يغضب ، وتتزايد هذه الضغوط حتى وصلت إلى مستوى انفجر فيه الناس ونزلوا إلى الشارع ، ولم تنفع مع موجة الغضب العارم كل دباباتهم وأسلحتهم الثقيلة وجيوشهم ومنظوماتهم الاستخبارية .

ويظن المسؤول أنه يستطيع أن يمسك الوزارة بحزبه وجماعته ، وهو لا يعلم أنه كلما أزاح شخصًا وجاء بآخر بدلا منه من جماعته ، يكون قد حرض عددًا أكبر من الناس ضده ، وكلما ازدادت المعارضة فإنها ستصل إلى حالة الذروة وحالة التغيير ، هذه سُنّة إلهية تحدث عنها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأشارت إليها الآيات القرآنية .

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : «احذر الحيف والجور، فإن الحيف يدعو إلى السيف، والجور يعود بالجلاء، ويعجل العقوبة والانتقام»[٢٠٧].

يحذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه الحكمة الحاكم والمسؤول من الحيف والجور، فإن الظلم والقسوة والاعتداء على الناس تلجئهم إلى العنف، ويدعوهم إلى الاصطفاف والتمحور ضد الحاكم. كما إن جور الحاكم على الأمة يعود بالجلاء، ويضطرهم إلى الهجرة وترك البلاد، وحينئذ لا يستطيع أن يمسكهم، وسيسخرون كل طاقاتهم للضغط عليه. كما إن الحيف والجور سيؤديان إلى تعجيل العقوبة الإلهيّة.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا: «من جارت ولايته زالت دولته»[٢٠٨]، أي من كان حكمه قائمًا على أساس الجور فإن حكومته ستسقط وتنهار.

وفي حكمة أخرى لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول: «من جار أهلكه جوره»[٢٠٩]، فالظلم يطيح بالمسؤول، ويؤدي إلى هلاك الظالم. ويؤدي أيضًا إلى هلاك الأمة الظالمة، كما صرح بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[٢١٠]، فحينما يشيع الظلم ينهار الحكم ويأتي الهلاك، وعلى العكس من ذلك الأمة المصلحة، كما نطق بذلك القران الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[٢١١].

إذن، الصلاح والعدالة يدفعان عن الأمم الهلاك، وإذا كان هناك ظلم يتدخل الله سبحانه ليطيح بهذا الظلم. فعلى المسؤولين تجنب الاستبداد والعمل بدماثة الخلق والترابية والإصغاء إلى الرأي الآخر، فإنه المدخل لرضا الناس ورضا الله تعالى ودوام الحكم. وهذا هو طريق الدنيا وطريق الآخرة، ولا مناص من الدخول والولوج من هذا المدخل الصحيح، والتواضع للناس، والاستماع للخبير والأخذ بكلامه.

---

٢٠٧. غرر الحكم ١: ١٤٠.

٢٠٨. غرر الحكم ٢: ١٨٧.

٢٠٩. غرر الحكم ٢: ١٥٨.

٢١٠. سورة القصص: الآية ٥٩.

٢١١. سورة هود: الآية ١١٦.

الدرس الثالث والعشرون

أمراض السلطة وعلاجها

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر: «وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أو مَخيلَةً، فَانْظُرْ إلى عِظَم مُلْك الله فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مَنْكَ عَلَى مَا لاَ تَقْدر عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذلكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ، يَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ».

إن موقع السلطة، سواء كان سلطة بلد أو سلطة نائب في برلمان أو وزير أو مدير عام أو مدير في شركة أو أي سلطة كانت، يعطي الإنسان الفرصة في أن يأمر ويعطي التوجيهات للآخرين، فهذا الموقع إذا أوجد عنده شعورا بالأبّهة والعظمة والكبرياء، أو أوجد عنده حالة من الخيلاء والعجب؛ فعليه أن يتبع الخطوات التالية:

أولًا: أن ينظر إلى عظم ملك الله فوقه، لكي يستطيع السيطرة على نفسه ولا يصاب بالعجب وبحالة الاستعلاء؛ فإنه لا قيمة لملك الحاكم والمسؤول أمام ملك الله سبحانه وتعالى غير المتناهي، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك.

ثانيًا: أن ينظر إلى قدرة الله سبحانه وتعالى من الإنسان على ما لا يقدر عليه هو من نفسه، فعملية التنفس والهضم والتفكير وغيرها من العمليات التي يقوم بها الإنسان بشكل تلقائي ولا يستطيع أن يتحكم بها، وهو سبحانه وتعالى قادر عليها، فما قيمة قدرة الإنسان في محضر قدرة الله تبارك وتعالى، وما هو إلا عبد من عبيده؟! وهذا يؤدي إلى أن يستصغر الموقع الذي هو فيه مهما كان كبيرًا ومؤثرًا.

إن النظر في هذين الأمرين يخفض ويقلل ويهدئ من حالة الطغيان والتمرد التي يشعر بها الحاكم والمسؤول، لأن الإنسان إذا تسلم مسؤولية معينة يكون بحالة أخرى غير التي عهدناه عليها، وهكذا يمكن له السيطرة على حالة الطغيان التي تبرز لديه، وذلك

باستحضار أن الله فوقه وهو القادر على كل شيء، وأنه لا قيمة لهذا الموقع مهما عظم وكبر بالنسبة إلى موقع الله سبحانه وتعالى ومكانته.

وحينئذ يستطيع أن يكف عن نفسه حالة الغضب وحالة الحدة. وهذا الاستحضار لمكانة الله سبحانه وتعالى يجعله يمسك نفسه عن حالة الغضب والاندفاع اللامبرر والانفعالات غير المنضبطة. وحينئذ يرجع إليه ما غاب عنه من عقله.

فأيها المسؤول، ما بك تخليت عن عقلك بمجرد أن أصبحت مسؤولًا، وأخذت تتعامل بدون عقل ومنطق، ومواقفك غير مبررة عقليًا، وفقدت توازنك ولم تستطع أن تتخذ القرار الصحيح؟، ولكن اعلم أنه حينما تستحضر الله سبحانه وتعالى فوق رأسك، وتعرف أنه القادر والعليم بكل شيء وبيده الأمور كلها، وأنه يرفع من يشاء ويضع من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، فإنه سوف يعود إليك عقلك وتبدأ بالتفكير وتسيطر على نفسك.

إن هذه العبارة على قصرها تحمل مضمونًا كبيرًا ودرسًا مهمًا في الحياة لكل من يتصدى ويتحمل المسؤولية. وهناك عدة إضاءات يمكن استفادتها من كلمات أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذه، وهي كالتالي:

الإضاءة الأولى

الالتفات إلى العوارض الناتجة من السلطة

تتناول هذه الإضاءة أهمية الالتفات إلى العوارض الناتجة من السلطة والنفوذ، فكما أن على الإنسان حينما يذهب إلى بيئة معينة أن يعرف ما العوارض المترتبة على التواجد في تلك البيئة، وكما على من يريد الدخول في مسابقة أن يعرف من الخصم وما طبيعته ونقاط قوته وضعفه، وما العوارض والأخطار التي يتعرض لها الإنسان في كل قضية، فكذلك على من يريد التصدي وتحمل المسؤولية أن يعرف العوارض الناتجة من السلطة والنفوذ ومواقع الخدمة العامة.

فهنا يحذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من يتصدى لموقع المسؤولية بأنه أمام عوارض وأخطار عليه أن يتنبه لها. يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه العبارة: «وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ»، معنى أحدث أنه كان مفقودًا ووُجد، فحالة الحدوث هي الوجود بعد العدم. إذن هي عوارض لم تكن موجودة عند من هو متصد للمسؤولية ثم وجدت في

الوقت الذي تصدى فيه، فهذه العوارض هي عوارض السلطة، وعوارض الوجاهات والمواقع، وعلى المسؤول أن يتنبه لها.

وهذه العوارض هي: الاستئثار، الكبرياء، العظمة، العُجب، والاعتداد بالذات. فليحذر المسؤول أن يقع في هذه الأمراض ويفقد السيطرة على نفسه. وسنذكر في ما يلي مجموعة من هذه العوارض:

الأول: الاستئثار

يقول علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «من ملك استأثر»[٢١٢]، أي من ملك ووصل إلى موقع القدرة والتصدي أصيب بحالة الاستئثار بالقدرة، فيحتكر السلطة والمال والقرار وكل شيء، ولا يترك للآخرين مجالًا للمشاركة. وهذه من طبائع الإنسان لو خُلّي وطبعه. وهي من العوارض الخطيرة لمن يتصدى للمسؤولية.

الثاني: الاستعلاء

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «من نال استطال»[٢١٣]، أي أن الذي يصل إلى مسؤولية معينة يصعر خده للناس ويستعلي ويتكبر على الآخرين.

آثار التكبر

وللتكبر آثار وخيمة في الإنسان، نذكر بعضها:

الصرف عن آيات الله

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[٢١٤]، فمن يتكبر ويستعلي بغير وجه حق سينال عقوبة الصرف عن التوجه إلى آيات الله تبارك وتعالى. ففي قضية بسيطة يرى المواطن الحل ولكن المسؤول لا يستطيع أن يهتدي إلى هذا الحل بالرغم من بساطته؛ لأنه تكبر فحجبه الله سبحانه عن رؤية الطريق والحل، وبالتالي سيفشل ويتوقف وتزداد الخصومات والسخط الشعبي

٢١٢. نهج البلاغة: الحكمة ١٦٠.
٢١٣. نهج البلاغة: الحكمة ٢١٦.
٢١٤. سورة الأعراف: الآية ١٤٦.

عليه؛ لأنه لا يرى بعين الله، فلا يرى الحق؛ لأنه متكبر ولم يتجنب الوقوع في عوارض وأمراض الموقع.

التبختر في المشي

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[٢١٥]. على المسؤول ألا يشعر بالبهجة والسرور والتبختر حينما يسير، فإنه لا يستطيع أن يشق الأرض عندما يمشي، ولا يستطيع أن يصل إلى الجبال في طولها مهما رفع رأسه إلى أعلى. والمشي بتبختر كناية وإشارة لحالة التكبر التي يصاب بها الإنسان حينما يصل إلى مسؤولية معينة.

إنكار المعاد في يوم القيامة

يقول الله تعالى: ﴿اسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[٢١٦]، تتحدث الآية المباركة عن استكبار فرعون وجيوشه بالباطل، وظنهم أنهم لا يرجعون إلى الله سبحانه في يوم القيامة فيحاسبهم على طغيانهم وتجبرهم في الأرض بغير الحق.

فيتعامل المسؤول بطريقة تجبرية ظنا منه أنه سوف يبقى في هذه المسؤولية إلى الأبد. فعلى المسؤول ألا يعتدي على الناس فيُعتدى عليه في ما بعد، وهناك من المسؤولين ما إن يخرج من المسؤولية، حتى يفاجأ بقائمة طويلة من الشكاوى وفتح الملفات، وكان باستطاعته أن يفكر بهذا اليوم ويتعامل مع الناس بالطريقة الصحيحة.

منازعة الله

ورد عن الإمام أبي جعفر الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «الكبر رداء الله، والمتكبر ينازع الله رداءه»[٢١٧]، فمن يتكبر ينازع الله في كبريائه وعظمته، وله الخزي في الدنيا والآخرة؛ لأن التكبر لا يليق إلا بالله عز وجل.

---

٢١٥. سورة الإسراء: الآيات ٣٧-٣٨.

٢١٦. سورة القصص: الآيات ٣٩-٤٠.

٢١٧. الكافي ٢: ٣٠٩.

حلول اللعنة

وورد عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: «إنما الجبار الملعون من غمص الناس وجهل الحق». فقال له الراوي: وما الغمص؟ فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من حقر الناس وتجبر عليهم»[٢١٨]، فالذي يحقر الناس ولا يرى قيمة لهم، ويستخف بعقولهم، ويظن أنهم ينسون ما يقول، فاليوم يتحدث بشيء وغدًا يتحدث بشيء آخر، وهم يتذكرون جيدًا الوعود الكاذبة؛ هذا الشخص يكون جبارًا في الأرض وتحل به اللعنة الإلهيّة.

الثالث: العُجُب

ومن عوارض التصدي للمسؤولية العجب، فقد ورد عن الإمام أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «إن يوسف لما قدم عليه الشيخ يعقوب دخله عز الملك فلم ينزل إليه. فهبط جبرئيل فقال: يا يوسف ابسط راحتك. فخرج منها نور ساطع فصار في جو السماء، فقال يوسف: يا جبرئيل ما هذا النور الذي خرج من راحتي؟ فقال: نُزعت النبوة من عقبك عقوبة لما لم تنزل إلى الشيخ يعقوب فلا يكون من عقبك نبي»[٢١٩].

وقد اختلفت الروايات في أنه كان على كرسي الحكم، وفي رواية أخرى تقول إنه كان صاعدًا على ظهر الفرس. ولكن النتيجة واحدة وهي أنه لم يقم من مكانه لأبيه.

إن يوسف نبي من الأنبياء وهو معصوم، ولأنه معصوم لا يمكن أن يكون قد تكبر، ولا يمكن أن يكون قصد الإهانة لأبيه في هذا الموقف، ولعل يوسف كان أمام الناس وضمن البروتوكولات شعر الناس أن قيامه لشخص آخر غير مسؤول فيه انتقاص من هذا الموقع، وكان يجب عليه أن يحافظ على هذا البروتوكول ويحافظ على هذا الموقع لكي يخدم من خلاله عباد الله، فهو لم يقصد أن يتكبر، ولم يقصد أن يقلل من قيمة أبيه.

ولكن كان الأولى ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يقدم احترام الأب على مصلحة الحكم، فترك الأَولى ولم يقع في معصية. فهبط جبرئيل وأخرج نور النبوة من عقبه، عقوبة له لعدم نزوله إلى والده الشيخ يعقوب. وهكذا تعلقت إرادة الله في نزع النبوة من ذريته لأنه ترك الأَولى في هذا الموقف.

---

٢١٨. الكافي٢: ٣١١ ح١٣.
٢١٩. الكافي ٢: ٣١١ ح١٥.

وورد عن الإمام الصادقعَلَيهِالسَّلَامُ قوله: «من دخله العجب هلك»[٢٢٠]، فهلاك الإنسان يتحقق حينما يصاب بالعجب، نستجير بالله من ذلك، ونسأل الله لكل من يتصدى لمسؤولية أن يمن عليه بخفض الجناح والترابية والتواضع؛ لأنه لا بد من أن يعرف أن هذا المنصب مهما كبر ومهما التفت الناس حوله فله نهاية، وهذه هي سُنة الحياة، فقد يكون في هذا اليوم بطلا قوميا والأمة العربية كلها تصفق له، وفي اليوم الثاني ترميه بالحجارة.

و لم يُستثنَ الأنبياء من هذه السنة، فهناك حروب اشتركوا فيها ولم يُكتب لهم الانتصار، فما بالك بغيرهم؟. لذلك علينا ونحن في مواقع المسؤولية أن نتذكر أن هذه المسؤولية لا تدوم إلى الأبد، ويجب على الإنسان أن يكون خافض الجناح للناس.

الإضاءة الثانية

عوارض السلطة

يشير أمير المؤمنينعَلَيهِالسَّلَامُ في هذه العبارة إلى ثلاثة من عوارض السلطة وموقع المسؤولية:

الأول: الطماح

إن من أهم عوارض السلطة، هي حالة الطغيان والتمرد والغدر والمكيدة ونقض العهود والمواثيق، حتى ذهب البعض إلى أن السياسة في معناها لا تصدق إلا على المكر والخديعة، ولا توجد سياسة شريفة ونبيلة، بل السياسة تعني الغدر ونقض العهود والمواثيق.

وهذا التفسير ناتج من ملاحظة الواقع الذي يسير على الأرض، فالكثير من السياسيّين على مر العصور والدهور والأماكن والمواقع، ينقضون ويكيدون ويتآمرون ويغيرون المسارات، حتى أصبح البعض يعتقد بأن السياسة ترادف المكر والخديعة، فإذا وجدوا متدينًا يمارس السياسة ينكرون عليه ذلك، متناسين أن السياسة في واقعها على نمطين؛ فهناك سياسة مكر وخديعة ولعب، وهي من يقع في هذا العارض من أعراض التصدي، ولذلك اعتبر عارضا ومرضا.

٢٢٠. الكافي ٢: ٣١٣ ح٢.

ولكن هناك سياسة أخرى لمن حصن نفسه، فلا يصاب بهذا العارض، فتكون سياسة الشرف والنبل والقيم والمبادئ والدفاع عن الإنسان والمطالبة بالحقوق واستحضار المصالح العامة إلى غير ذلك. وقد عبر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن هذه السياسة في إحدى خطبه، فقال: «وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم»[٢٢١]، أي أن الله قد أخذ على العلماء أن يتصدوا لتحمل المسؤولية وإدارة شؤون الناس.

وقد تصدى الأنبياء من قبل لإدارة الدولة ورعاية شؤون الناس، وكان آخرهم الرسول الأعظم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الذي أسس الدولة الإسلاميّة في يثرب.

سمات الحكومة الظالمة

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبة له في بيان تحديات التصدي للمسؤولية والحكم، في بني أمية كأنموذج: «وَاللهِ لاَ يَزَالُونَ حَتى لاَ يَدَعُوا لله مُحرمًا إلا اسْتَحَلوهُ، وَلاَ عَقْدًا إلا حَلوهُ، وَحَتى لاَ يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ وَ لاَ وَبَرٍ إلا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ، وَنَبَا بِهِ سُوءُ رَعْيِهِمْ، وَحَتى يَقُومَ الْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ وبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتى تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيدِهِ إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ وَإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ، وَحَتى يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فِيهَا عَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِاللهِ ظَنًا، فَإِنْ أَتَاكُمُ اللهُ بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا وَإِن ابْتُلِيتُمْ فَاصْبِرُوا فَإِن الْعَاقِبَةَ لِلْمُتقِينَ»[٢٢٢].

يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الخطبة إلى مجموعة من سمات وملامح حكومة بني أمية، وهي الآتي:

أولًا: استحلال المحارم

إنهم لا يتركون لله حرمة إلا انتهكوها، يفعلون ما يشتهون وهم يتجلببون بجلباب الدين ويحكمون باسم الدين.

ثانيًا: خيانة العهود

وإنهم لا يدعون عهدًا إلا نقضوه، ولا عقدًا إلا حلوه، إذ لا يوجد في قاموسهم شيء اسمه الوفاء، فهم لا يعرفون غير الخيانة والغدر.

---

٢٢١. نهج البلاغة: الخطبة ٣.

٢٢٢. نهج البلاغة: الخطبة ٩٨.

ثالثًا : إشاعة الظلم

وإنهم سيتوغلون في الظلم حتى يدخل ظلمهم بيوت الأغنياء والفقراء، وقد وقعت الإشارة إلى بيوت الأغنياء في قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ «وَحتى لاَ يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ» وبيت المدر هو البيت المبني من الحجر، ووقعت الإشارة إلى بيوت الفقراء في قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ «وَ لاَ وَبَرٍ» وبيت الوبر يعني الخيمة. فظلم بني أمية ليس له حدود يقف عندها، وإن شدة ظلمهم ستملأ الآفاق.

رابعًا : تشريد الناس

ومن ملامح حكمهم أن سياستهم الظالمة ستؤدي إلى تشريد الناس، فعندما لا يجد الإنسان ملجأ للخلاص من الظلم يفكر بالفرار والعيش في بلد آخر، وإن كان ترك الديار وهجران الوطن والأحباب أمرا في غاية الصعوبة، حتى أن القرآن الكريم قد جعله مساويًا لقتل النفس، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾[٢٢٣].

خامسًا : تحطيم دين الناس ودنياهم

ونتيجة لشدة ظلم الحكم الأموي الذي يشمل دين الناس ودنياهم، فلا يسلم من ظلمهم أحد، حتى يقوم الباكيان، باك يبكي لضياع دينه، وباك يبكي لضياع دنياه، فالفتنة عامة لا يسلم منها صاحب دين ولا صاحب دنيا.

سادسًا : استعباد الناس.

ومن سمات الحكم الأموي وسياستهم الغاشمة أنهم سيحولون الناس إلى عبيد لهم، بحيث لو حاولوا الانتصار لأنفسهم والتخلص من حكومتهم الظالمة، فإنه سيكون كانتصار العبد من سيده، فالعبد محكوم ومملوك ليس له إلا أن يعبّر عن آيات الطاعة والخضوع لسيده.

سابعًا : شيوع ظاهرة النفاق

إن سياسة الإرهاب والتخويف الشديد تؤدي إلى شيوع ظاهرة النفاق في المجتمع. فيتظاهر الناس بالطاعة في حضور الحاكم الظالم، ويغتابونه إذا غاب عنهم. وعندما

---

٢٢٣. سورة النساء: الآية ٦٦.

يضطر الإنسان إلى العمل على خلاف قناعاته بسبب الخوف، تُمسخ شخصيته ويتحول إلى مواطن سلبي في المجتمع.

ثامنًا: استهداف المتدينين

وعندما تستحكم سلطة النظام الغاشم، تقوم باستهداف أهل الصلاح والدين في المجتمع حتى يكونوا أعظم الناس عناء فيه. وهكذا سيكون حال المؤمنين في ظل حكومة بني أمية كما يستقرئها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وأخيرًا يقدم علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المنهج في مواجهة مثل هذه الحكومة الظالمة التي لا يستطيع الناس مواجهتها والثورة عليها، وهو القبول بالعافية إن أتاهم الله تعالى بها، وبالصبر في حال الابتلاء، فإن العاقبة للمتقين لا محالة، وحينئذ سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا في إشارة إلى هذه الحقيقة: «لولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن لكل غدرة فجرة، وكل فجرة كفرة، ولكل غادر لواء يُعرف به يوم القيامة، والله ما استغفل بالمكيدة، ولا استغمز بالشديدة»[٢٢٤].

إن المنظومة القيمية هي التي لا تسمح لعلي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يمارس الغدر والدهاء؛ لأن الغدر فيه فجور وخروج عن جادة الصواب، والفجور يؤدي إلى الكفر. فإن لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة، وهم مصنفون حسب أنماطهم، ومن أشد ما يواجهه الإنسان يوم القيامة هو الفضيحة، والفضيحة في الدنيا لا تكون إلا في مساحات محدودة، ومع ذلك فهي محرجة ومريرة، فكيف بالإنسان حينما يُفضح أمام الخلائق جميعًا، وهي تتفرج على ما يصدر منه؟!.

ثم يقسم أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه لا يمكن أن يستغفل بمكيدة، لأن القيم والمبادئ التي يحملها الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والقيود والمحددات غير الموجودة عند الآخرين الذين يبطشون ويعتدون، لا تسمح له أن يمارس الغدر. كما إنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا يستغمز بالشديدة، أي لا يمكن أن يخاف من الجيوش والقوة والأجهزة الأمنية، ولكن المنظومة القيمية هي التي تجعل الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتعامل بهذه الطريقة وليس تلك.

---

٢٢٤. نهج البلاغة: الخطبة ٢٠٠.

العارض الثاني: حالة الغرب

وهي حالة الحدة والغضب والانفعال والأنانيات، بما تتضمنه من التعسف والشدة والغلظة والحدة، وكأن المسؤول له الحق في أن يشتم ويسب ويهين من يشاء، ويطلق على هذه الحالة في اللغة: الغرب. ونلاحظ مثلًا أن أبًا قد يؤذي ويعذب أبناءه في البيت، فليس لهذا الأمر علاقة بحجم المسؤولية، فقد يكون هناك شخص مسؤول عن الآلاف من الناس ولا يُبتلى بهذا العارض.

ونلاحظ هنا أهمية وضرورة أن يتحلى المسؤول بسمات ضبط النفس، والتعامل بهدوء وحكمة، والخلق الحسن في التعامل مع من هو مسؤول عنهم.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكلْ عَلَى اللهِ إِن اللهَ يُحِب الْمُتَوَكلِينَ﴾[225].

الآية الكريمة خطاب لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وقد أشارت في فقرتها الأولى إلى أهمية اتصاف المسؤول بحالة اللين، أي لو كنت يا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قاسيًا مع الناس لتفرق الناس من حولك. ولذلك فإن هذا اللين وهذا التعامل الطيب مع هؤلاء الناس هو السبب في التفافهم حولك، وبقائهم قريبين منك، وفي التزامهم بتوجيهاتك.

إن التعامل باللين مطلوب ولو كان المسؤول معصومًا ونبيًا مرسلًا، بل حتى لو كان خاتم النبيين وسيد المرسلين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فهو محتاج إلى هذا التعامل اللين، وإلا انفضت الناس من حوله، فما بالك بمن هو دونه في المواصفات؟!.

وأشارت الآية في فقرتها الثانية إلى أهمية المشورة وتعليمهم المشاركة في الرأي والقرار. فالشراكة في القرار مبدأ قرآني حتى لو كان المسؤول والقائد نبيًا مرسلًا كرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فعليه أن يشرك الآخرين ويتشاور معهم.

وأشارت الآية في فقرتها الثالثة إلى أهمية العزم والتوكل الذي ينبغي أن يتصف به المسؤول، فهي تخاطب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ألا يتردد، وأن عليه بعد المشاورة ثم العزم، التوكل والمضي في اتخاذ القرار؛ لأن القرار القيادي هناك دائمًا من يعارضه، فإن وقف عند كل معارضة وعند كل حديث فإنه لا يستطيع اتخاذ القرار، ولا يستطيع أن يخطو خطوة. فيا رسول الله بعد أن أخذت هذه الإجراءات فامض على بركة الله، واعلم أن الله يحب المتوكلين.

---

٢٢٥. . سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا في تأييد هذا المعنى: «الخرق شر خُلق»[226]، أي أن الخرق وحالة الحدة والشدة شر خُلق؛ إذ من أسوأ الأخلاق أن يكون الإنسان شديدًا وأن يكون عنيفًا وغليظًا في التعامل مع الآخرين.

ويقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا: «من خشنت عريكته أقفرت حاشيته»[227]، أي قلت جماعته، وقل أنصاره يومًا بعد آخر وذهبوا إلى غيره ولا يبقى معه أحد. فلا تستطيع الناس تحمل الشدة والغلظة. بل تريد محبة ولطفا ورعاية.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا في حكمة له: «استعمل العدل واحذر العسف والحيف، فإن العسف يعود بالجلاء، والحيف يدعو إلى السيف»[228]. يدعو أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الحاكم والمسؤول إلى اتباع العدل، ويحذر من استعمال التعسف، وهو التعامل بالشدة والغلظة بغير وجه حق، ومن استخدام الحيف وهو الخروج من العدل، فإن العسف يعود بالجلاء، أي أن الضغط المستمر على الناس يسبب هجرة الناس؛ لأن الجلاء يعني الهجرة. والحيف يدعو إلى السيف، فإذا تجاوز الحاكم والمسؤول العدل وظلم الناس فإن المظلوم سيقف بوجهه؛ لأن الضغط المستمر سوف يوصل الناس إلى مستوى من الاحتقان يجعلها تثور.

وقد لاحظنا ما حصل مع أبناء شعبنا وكيف نهضوا بوجه الطاغية صدام، ونلاحظ اليوم التحولات الكبرى في بعض بلادنا العربية وكيف وقفت شعوبها ضد حكام ظلموها وابتزوا حقوقها واعتدوا عليها. ومهما كان الزعيم والمسؤول قويًا ومتفرعنًا، فإن الشعب حينما تكون عنده الإرادة الجماعية، لا تقف بوجهه الدبابات ولا الجيوش والأجهزة الاستخبارية ولا المنظومات الحديدية.

وورد عن الإمام أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال: «قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل»[229]. تشبّه الرواية الغضب والانفعالات والشدة والقسوة بالخل وكيف أنه يفسد الإيمان الذي هو كالعسل، ويخرج الإنسان عن جادة الصواب مهما كانت الأعمال التي يقوم بها صالحة.

وفي رواية أخرى عن الإمام أبي جعفر الباقر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «مكتوب في التوراة: في ما ناجى الله عز وجل به موسى: يا موسى أمسك غضبك عمن ملكتك عليه، أكف عنك

---

٢٢٦. غرر الحكم ١: ٢٠٠.
٢٢٧. غرر الحكم ٥: ٣٢٥.
٢٢٨. نهج البلاغة: الحكمة ٤٧٦.
٢٢٩. الكافي ٢: ٣٠٢.

غضبي»[٢٣٠]. فمن يُرد أن يتخلص من غضب الله عز وجل، فليكظم غيظه ويمسك أعصابه حينما يتعامل مع من هو مسؤول عنهم. وكذا ينبغي على المسؤول أن يتعامل مع من هم تحت مسؤوليته.

في رواية أخرى عن الإمام الباقر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا قال: «قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: من كف نفسه عن أعراض الناس أقاله الله نفسه يوم القيامة، ومن كف غضبه عن الناس كف الله تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة»[٢٣١].

تتحدث الرواية عن ظاهرتين خطيرتين في المجتمع، الأولى هي ظاهرة الغيبة والبهتان، وتقول إذا كف الإنسان لسانه عن هتك أعراض الناس وكشف ما أخفوه وستره الله تعالى عليهم من العيوب؛ كان الله تبارك وتعالى بنفسه هو من يقيله من أخطائه يوم القيامة ويعفو عنه. وهذه ظاهرة سيئة، فحينما يطلع شخص على خطأ أو ذنب لشخص آخر، فالمفروض منه الستر والحفاظ على حرمة الناس ولا يجوز له إشاعتها.

والظاهرة الثانية التي تتحدث عنها الرواية هي ظاهرة الغضب، وتقول إن من كف غضبه عن الناس كف الله تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة، ومن كف الله تعالى عنه غضبه دخل الجنة وكان من الفائزين. وهكذا يكون الطريق إلى الله من خلال خدمة العباد والتواضع للناس والعمل الصالح لهم والتعامل الرقيق معهم.

العارض الثالث: عزوب العقل

وهو ضياع العقل، فيصبح المسؤول في حركته غير خاضع لمعايير العقل والمنطق، وتكون قراراته ارتجالية وليس فيها عقل أو دراية أو منطق بسبب ما يدخله من العجب.

فقد يظن الإنسان أنه إذا كان في موقع مسؤولية معينة يكون قراره صائبًا، وهنا يتبين أن من عوارض السلطة غياب العقل، وهذا ما يلاحظه الإنسان أحيانًا في قرارات مصيرية لحكام وإمبراطوريات نقرأها في التاريخ، كأن تكون قرارات لدول عظمى أو قرارات لمجلس الأمن، ومع ذلك نراها غير خاضعة للمنطق وليس فيها حكمة.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في رصد هذه الظاهرة: «عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله»[٢٣٢]، فإذا كان الحسد هو تمني زوال نعمة الغير، فإن العجب هنا يمنع الإنسان

---

٢٣٠. الكافي ٢: ٣٠٣ح٧.
٢٣١. الكافي ٢: ٣٠٥ح ١٤.
٢٣٢. نهج البلاغة: الحكمة ٢١٢.

عن استعمال عقله، وحينئذ تصبح قراراته ارتجالية ويبادر إلى اتخاذ مواقفه بمعزل عن العقل والتدبر.

ويقول عَلَيهِ السَّلَامُ أيضًا: «كم من عقل أسير تحت هوى أمير»[٢٣٣]، أي أن الهوى والشهوات وحب الذات تصبح هي الأمير، ويصبح العقل أسيرا لها، فتكون قراراته ومواقفه في حدود ما تأمره وتنهاه، ولا يستطيع الخروج عن إرادتها.

علاج أمراض السلطة

يقول أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ في خطبته المعروفة بخطبة الوسيلة: «أيها الناس من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومن رضي برزق الله لم يأسف على ما في يد غيره، ومن سل سيف البغي قُتل به، ومن حفر لأخيه بئرًا وقع فيها، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن نسي زلته استعظم زلل غيره، ومن أُعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل»[٢٣٤].

تناول أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ في هذا المقطع من خطبته مجموعة من النصائح الأخلاقية التي ينبغي على الإنسان الالتزام بها، لئلا يقع في تبعات مخالفتها وآثارها، إلى أن يصل في أخراها إلى موضع الشاهد، وهو خطر العجب.

وأولى هذه الوصايا هي أن ينشغل الإنسان بالنظر في عيوب نفسه، فإن فعل ذلك انشغل عن عيوب الناس؛ لأن ما هو فيه من العيوب يكفيه عن ذكر عيوب الآخرين.

وفي رواية عن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»[٢٣٥]. فالأفضل أن يشتغل الإنسان بنفسه لينظر ما هي عيوبه وما هي أخطاؤه ويهتم بتصحيحها وإصلاحها، فهو أفضل من ترصد عيوب الآخرين.

وثانيتها هي أن الإنسان إذا قنع برزقه لم ينظر أسفًا إلى ما في أيدي الناس من النعم التي يفتقدها، وعاش سعيدًا في دنياه.

وثالثتها هي أن الشخص إذا شهر سيفه بالاعتداء على الآخرين والإساءة إليهم فقد يستطيع إيذاءهم، وقد يستطيع أن يربك الصورة ويشوش على الحقيقة، ولكن ليعلم أن هذا السيف هو نفسه الذي سيذبحه، وأن الإشاعة التي أطلقها واتهم الآخرين بها في

---

٢٣٣. نهج البلاغة: الحكمة ٢١١.

٢٣٤. الكافي ٨: ١٩.

٢٣٥. بحار الأنوار ١: ٢٠٥ ح٣١.

أعراضهم وأموالهم وأخلاقهم وسلوكهم هي نفسها التي سترجع إليه لتشمله وتستهدفه بسهمها.

فلنحذر من أن نبدأ بالاعتداء على الآخرين؛ لأن «البادئ أظلم»[٢٣٦] كما ورد ذلك عن الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ورابعتها أن من حفر بئرًا لأخيه وقع فيها، ومن نصب الشراك ليصطاد بها أخاه، فهو الذي سيقع فيها. وهذه سُنة إلهية. ولا يظن أحد أنه يستطيع الخروج عن هذه السُنة؛ لأنه لا تبديل وتغيير في السنن الإلهيّة.

وخامستها أن من هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته. ولو ستر المسؤول أعراض الآخرين لستر الله عورته بحكم مسؤوليته، فقد تصل إليك تقارير أمنية عن تفاصيل داخلية، فلماذا يذهب بها إلى وسائل الاعلام ويهتك أعراض الناس بمعلومة قد تكون غير صحيحة؟، فليعلم أن هذا الأمر سيرتد عليه.

وسادستها أن من نسي زلته وخطأه استعظم زلل وأخطاء غيره، فالذي لا يرى أخطاءه سوف تكبر في عينه أخطاء الآخرين. ومن تذكّر أخطاءه هانت في عينه أخطاء الآخرين.

وسابعتها أن من يعجب برأيه ضل عن سبيل الهدى، وهنا الشاهد، فالإعجاب بالرأي يؤدي إلى الضلال والانحراف وضياع العقل.

وثامنتها أن من استغنى بعقله زل، أي من شعر بالاستغناء عن الرجوع إلى عقول الآخرين ومشاورتهم ابتعد عن طريق الصواب.

وتاسعتها أن من تكبر على الناس أذله الله سبحانه؛ لأن إرادة الله أن تبقى الشعوب عزيزة، وأن يبقى المجتمع هو العزيز والعالي، فمن يريد أن يتكبر على الناس فليترقب الذل والهوان.

الإضاءة الثالثة

طرق السيطرة على عوارض السلطة

وقد استعرضناها في طي الاضاءات السابقة، ونتناول فيها طرق السيطرة على عوارض السلطة والنفوذ، وذلك من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية: كيف يمكن الحد منها؟ وكيف يمكن علاجها؟ وكيف نمنع من تأثيراتها؟.

---

٢٣٦. بحار الأنوار ٧٥: ٣٢٤ ح٢٥.

وقد جاءت الإشارة إلى العلاج في كلمة أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ: «فَانْظُرْ إلى عِظَمِ مُلْكِ اللهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مَنْكَ عَلَى مَا لاَ تَقْدِرِ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ». فالنظر والتدبر والتفكير في عظمة خلق الله تبارك وتعالى فوقنا، هي التي تجعلنا نسيطر على مشاعرنا ونتجاوز العقبات والتحديات التي تقف في وجوهنا، فإن من لا يستطيع أن يصلح نفسه، لا يستطيع أن يصلح شخصا آخر، فضلًا عن أن يصلح مجتمعا بأكمله.

وإذا أراد المسؤول أن يلتزم الناس بالقانون، فلا بد من أن يبدأ من نفسه. وكذا إذا أراد أن يلتزم الناس بالقيم، فلا بد من أن يبدأ من نفسه، وحينما يبدأ من نفسه ويصلح سريرته، فحينذاك بإمكانه أن يتوقع إصلاح سريرة الآخرين.

ومن لا يدرك جلال الله وجبروته، ومن لا يستحضر عظمة الله سبحانه وتعالى، لا يستطيع أن يكتشف نفسه وحقيقة وجوده؛ إذ لا يمكن الفصل بين المخلوق وخالقه، لأنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

وكلما تعرّف الإنسان أكثر على عظمة الله جل جلاله، تعرف على نفسه وجوهره ووجوده وحقيقته أكثر، ومن لا يدرك حقيقته لا يعرف قيمتها، ومن لا يعرف دوره في هذه الحياة ومنزلته ومكانته في هذا الكون لا يستطيع أن يسيطر على نفسه، وسوف يقع في الزلل والانحراف وسيؤذي الآخرين ويعتدي عليهم، وسوف يصاب بالغرور ولا يرى الدنيا إلا من خلال هذه اللقطة القصيرة التي يراها لنفسه وهو وزير أو مسؤول أو ما إلى ذلك.

فمن لا يعرف نفسه سوف يقع في الغرور وينحرف، ومن ينحرف سوف يُهزم من الهوى ومن الحالات النفسية والنرجسيات التي يصاب بها. والمسؤول حينما يكون مهزومًا داخليًا لا يستطيع أن يبعث الأمل والحماسة والحياة في المجتمع وفي من هو مسؤول عنهم، ولذا نرى هذه الحلقات مترابطة.

فالمسؤول إذا أراد النجاح فعليه أن يبدأ من نفسه ويعرف قيمتها ومنزلتها كإنسان وليس كمسؤول، حتى يتلاشى الهوى ويقف أمام العوارض، وحتى يكون قويًا ويمنح القوة للآخرين، ويحقق النجاح في منظومته القياديّة، وبدون ذلك لا يمكن أن يتحقق النجاح.

الدرس الرابع والعشرون

تشبّه الحاكم بالله في جبروته

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر: «إيّاكَ ومُساماةَ اللّهِ في عَظَمَتِه، والتَشَبُّهِ بِهِ فِي جَبَروتِهِ، فإنّ اللّهَ يُذِلُّ كلَّ جبّارٍ، ويُهِينُ كلَّ مختالٍ».

يحذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكا الأشتر ويحذر كل مسؤول من خلاله، يتصدى للمسؤولية، أن يسامي ويجاري الله سبحانه في العظمة أو يتشبه بالله سبحانه وتعالى في الجبروت؛ لأن الجبروت والعظمة والفخر لله وحده، فلا يجوز له التشبه بسمات الله سبحانه، وعليه أن يحافظ على تواضعه ويخفض الجناح للناس الذين هو مسؤول عنهم، وهو الشرط السادس من شروط نجاحه في هذه المهمة.

تتناول هذه الفقرة الشريفة من كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ محذورين مهمين، على الحاكم والمسؤول تجنبهما بشدة؛ لما فيهما من منازعة الله سبحانه وتعالى في سلطانه.

المحذورالأول: مساماة الله

يحذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكًا ومن ورائه كل حاكم ومسؤول أن ينافس الله سبحانه في عظمته. والمساماة هي المباراة في السمو والعلو، وهي منافسة الله سبحانه في العظمة، فيختار من الأدوات والسياقات في التعامل مع الآخرين ومع من هو مسؤول عنهم بطريقة فيها العلو والسمو والرفعة والعظمة، وهي لا تليق إلا بالله سبحانه وتعالى وحده.

وعلى المسؤول سواء كان مديرًا أو وزيرًا أو أميرًا أو رئيسًا أو ملكًا، أن يضع نصب عينيه أنه مجرد إنسان مخلوق أمام خالقه العظيم، فيجب ألا يصدر منه ما يعتبر منافسة له عز وجل.

المحذور الثاني: التشبه بالله في جبروته

يحذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكًا ومن ورائه كل حاكم ومسؤول من التشبه بالله سبحانه وتعالى في جبروته؛ لأن الجبروت لا تنبغي إلا لله وحده. هناك بعض المسؤولين ما إن يتسلموا مناصبهم حتى يعمدوا إلى تبديل كل الأثاث بأثاث مُذهّب يصل سعره إلى عشرات الملايين أو مئات الملايين، في حين أن هذه الأموال هي أموال الشعب وثروته وإمكانياته. لذا يجب على المسؤول ألا يضيع نفسه ويتشبه بالعظمة والجبروت، فهذا شأن الله سبحانه وحده، وليس شأن عباده.

ثم ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بيان مصير الجبارين والمتكبرين في الدنيا والآخرة، فيقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فإن الله يذل كل جبار، ويهين كل مختال». فقد أخذ الله سبحانه وتعالى على نفسه أن تكون نهاية كل من يتظاهر بالجبروت الذل والهوان.

وكم رأينا من رؤساء كان لهم من القصور ما لا يُقدر بثمن، وإذا به يجلس في زنزانة وفي قفص في المحكمة! فأين المليارات والقصور؟! وأين تلك القاعات الفارهة والأثاث الجميل؟!. وبعض الرؤساء مختف لا يعرف مكانه اليوم، بينما كان الناس بالأمس القريب يتدافعون لرؤيته، وإذا هم اليوم يهربون منه لئلا يُحسبون عليه!. وهكذا يذل الله عز وجل كل جبار ويهين كل مختال.

والمختال هو المعجب بنفسه، فكل إنسان يعجب بنفسه ويصاب بحالة العجب والنرجسية فإن الله سبحانه وتعالى أخذ على نفسه أن يهينة ويحط من قيمته؛ لكي تبقى هذه الحقيقة ناصعة أمام الناس جميعًا، وهي أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن الجبروت والعظمة لله وحده. وهذه هي سُنة الله سبحانه وتعالى في الحياة.

ونفهم من هذه العبارة القصيرة عدة أمور:

أولها: يجب تشخيص العوارض السلبية والأمراض التي تترتب على المنصب وتحمل المسؤولية. فينبغي للمسؤول قبل الجلوس على الكرسي أن يعرف الأمراض الأخلاقية التي من المحتمل أن يصاب بها ليحصن نفسه منها، لأن عدم استحضار هذه العوارض والأمراض سيوقعه في ما لا تُحمد عقباه.

فربما يصاب المسؤول بالنرجسية والاعتداد بالذات حتى تصل هذه أحيانًا إلى حالة ادعاء الربوبية كما حصل لفرعون، وقد حدثنا القرآن الكريم عن هذه الظاهرة: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[٢٣٧].

---

٢٣٧. سورة النازعات: الآية ٢٤.

وهكذا يؤدي الإعجاب بالنفس إلى الكفر. وهناك من الحكام والطواغيت من لا يقول مثل هذا الكلام ولا يدّعي مثل هذا الادعاء؛ لأنهم يعرفون أن لا أحد يقبل منهم ذلك، ولكن سلوكهم وعملهم ومنطقهم وتعاملهم، كلها تؤكد على أنهم يرون ويعتقدون بذلك، فسلوكهم سلوك مولى مع عبده، وسلوك مالك مع مملوكه، وسلوك حاكم متسلط مع محكوم أسير بيده.

وهذا السلوك في كثير من الأحيان - كما يشير علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- لكي يسوقه المسؤول ويقنع به الآخرين يعطيه شيئًا من القداسة ويربطه بالدين والقيم والسماء، ولإشباع أنانيته يحاول أن يكيف ويطوع الموقف الشرعي مع رغباته ونزواته، لا أن يعرض موقفه على الموقف الشرعي والحكم الشرعي.

كما أن الدين واسع في مفاهيمه، والقرآن الكريم تحدث عن كل شيء، فحينما يريد المسؤول أن يقتل، يستحضر كل آيات الجهاد وقتل المشركين ويطبقها على من يستهدف. وإذا أراد أن يصالح يأتي بآيات الصلح والتسامح لتبرير موقفه.

والواقع أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قاتل بشروط وضوابط معينة، وصالح بشروط وضوابط معينة أيضًا، ولم يقاتل ويصالح كيفما اتفق. ثم يأتي الحاكم الظالم ويُسقط هذه الآيات على مواقفه من غير محددات وضوابط. ولذلك نراه حينما يضغط ويصعّد الموقف ضد الآخرين ويزج بهم في السجون، يأتي بآيات من القرآن الكريم تتحدث عن الشدة والغلظة، وفي اليوم الآخر إذا اقتضت المصلحة المصالحة والتحالف، يذهب إلى آيات التسامح والسلام والمحبة ليبرر موقفه. إذن هو ينتقي من الآيات والنصوص ما يحلو له وما يشتهي ويطبقها على مواقفه دون الرجوع إلى ضوابطها وشروطها ومحدداتها.

ويحدثنا علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن هذا الأمر أيضًا في نص آخر رواه الشيخ الصدوق عن سليم بن قيس الهلالي، قال: سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول: «احذروا على دينكم ثلاثة (نترك الحديث عن الأول والثاني لأنهما خارج موضوعنا)، ورجلًا آتاه الله عز وجل سلطانًا فزعم أن طاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله، كذب؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

فكيف تكون طاعة من هو غارق في أنانيته ومصالحه هي طاعة لله عز وجل؟ وأين يكون قربه من الله تعالى لتكون طاعته من طاعة الله؟ «لا ينبغي للمخلوق أن يكون حبه لمعصية الله، فلا طاعة في معصية، ولا طاعة لمن عصى الله»، أي

أن الله تعالى هو الذي ينبغي أن يطاع وليس من يعصيه عز وجل. «إنما الطاعة لله ولرسوله ولولاة الأمر، وإنما أمر الله عز وجل بطاعة الرسول لأنه معصوم مطهر»، أي أن عصمة وطهارة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ هي التي تجعل ما ينطقه الرسول هو ما يريده الله عز وجل، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[٢٣٨]. «وإنما أمر بطاعة أولي الأمر لأنهم معصومون مطهرون لا يأمرون بمعصيته»[٢٣٩]، فالطاعة لله وحده، والطاعة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ والأئمة الأطهار عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لأنهم معصومون، فالطاعة لهم هي طاعة لله؛ لأنهم لا يأمرون بما فيه معصية لله سبحانه وتعالى.

ثانيها: على المسؤول بحكم مسؤوليته أن يهتم بتدبير الأمور وتدبير مسارات العمل في مساحة مسؤوليته، فإن من واجب المسؤول أن يضع الخطط والبرامج لإنجاح ما هو مسؤول عنه، فمن واجبه أن يحشد الإمكانات ويعبئ الطاقات لتحقيق الهدف المنشود.

إن على وزير الكهرباء مثلًا أن يضع الخطط والثوابت، وعليه أن يسخر كل الإمكانات المتاحة في هذه الوزارة لتوفير الكهرباء للناس، وعلى وزير التجارة أن يوفر البطاقة التموينية للناس، وعلى وزير الصحة أن يضع الخطط لمستشفيات تعمل بشكل صحيح لتوفير الرعاية الصحية للناس.. وهكذا جميع الوزارات.

إن من واجب المسؤول أن يمارس الإشراف والرقابة على سير العمل، ومن واجبه أن يوجه العاملين ليعرفوا واجباتهم ومهامهم حتى يعبئ الطاقات لتحقيق الهدف المرجو، ومن مسؤوليته أيضًا أن يخلق الدوافع ويوجِد المحفزات الذاتية التي تجعل الجميع يسعون من أجل تحقيق هذا الهدف، وكذلك من واجبه أن يوجِد وينظم علاقات وثيقة مع فريق العمل، فالعلاقة مع فريقه ينبغي ألا تكون علاقة حاكم ومحكوم، ولا علاقة متسلط ومتسلط عليه، بل علاقة راع ورعية، فالمسؤول خادم يخدم والناس هم الرعية، وهم من يستحق هذه الخدمة التي يقدمها المسؤول لهم.

---

٢٣٨. سورة النجم: الآيات ٣-٤.

٢٣٩. الخصال ١: ١٣٩. بحار الأنوار ٧٢: ٣٣٧ح٨.

العلاقة السليمة بين القائد والأمة

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبة خطبها في صفين في بيان ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الحاكم والمحكوم: «إن مِنْ حق مَنْ عَظُمَ جلَالُ اَللهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وجَل مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِه، أن يَصْغُرَ عِنْدَهُ كُل مَا سِوَاهُ، وَأن أَحق مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اَللهِ عَلَيْهِ وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اَللهِ عَلَى أَحَدٍ إِلا اِزْدَادَ حَق اَللهِ عَلَيْهِ عِظَمًا.

وَإِن مِنْ أَسْخَفِ حَالاَتِ اَلْوُلاَةِ عِنْدَ صَالِحِ اَلناسِ أن يُظَن بِهِمْ حُب اَلْفَخْرِ وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى اَلْكِبْرِ، وَقَدْ كَرِهْتُ أن يَكُونَ جَالَ فِي ظَنكُمْ أني أُحِب اَلْإِطْرَاءَ، وَاِسْتِمَاعَ اَلثنَاءِ، وَلَسْتُ بِحَمْدِ اَللهِ كَذَلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أُحِب أن يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ اِنْحِطَاطًا لله سُبْحَانَهُ، عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَق بِهِ مِنَ اَلْعَظَمَةِ وَاَلْكِبْرِيَاءِ، وَرُبمَا اِسْتَحْلَى اَلناسُ اَلثنَاءَ بَعْدَ اَلْبَلاَءِ، فَلاَ تُثْنُوا عَلَي بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلى اَللهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ اَلتقِيةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لا بُد مِنْ إِمْضَائِهَا، فَلاَ تُكَلمُونِي بِمَا تُكَلمُ بِهِ اَلْجَبَابِرَةُ، وَلاَ تَتَحَفظُوا مني بِمَا يُتَحَفظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ اَلْمبَادِرَةِ، وَلاَ تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلاَ تَظُنوا بِي اِسْتِثْقَالاً فِي حَق قِيلَ لِي، وَلاَ اِلْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي، فَإِنهُ مَنِ اِسْتَثْقَلَ اَلْحَق أن يُقَالَ لَهُ أو اَلْعَدْلَ أن يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ اَلْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ، فَلاَ تَكُفوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَق أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِني لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أن أُخْطِئَ، وَلاَ آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلا أن يَكْفِيَ اَللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِني، فَإِنمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَب لاَ رَب غَيْرُهُ، يَمْلِكُ منا مَا لاَ نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مما كُنا فِيهِ إِلى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ اَلضلاَلَةِ بِالْهُدَى، وَأَعْطَانَا اَلْبَصِيرَةَ بَعْدَ اَلْعَمَى»[٢٤٠].

يتناول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع المبارك شكل العلاقة السليمة بين القائد والأمة، ويبدأ بمقدمة يمهد فيها بيان هذا الموضوع.

يتعرض عَلَيْهِ السَّلَامُ في المقدمة إلى إيضاح حقيقة مهمة وهي أن من عظم الخالق في نظره صغر في عينه كل ما سواه، وأن أحق من يعظم الخالق في نظره هو من عظمت نعمة الله تعالى عليه. وعلى هذا الأساس فإن من يعظم شيئًا آخر، سواء كان مسؤولًا أو غيره، فهو دليل على صغر الخالق سبحانه في نظره.

---

٢٤٠. نهج البلاغة: الخطبة ٢١٦.

والأمة التي تنظر بتعظيم لحكامها ومسؤوليها قد أخطأت في مسارها، إذ كان ينبغي لها أن تعظم خالقها عز وجل، وحينئذ سيصغر هؤلاء الحكام في نظرها. ومن النتائج المترتبة على تعظيم الحاكم هو استخفافه بالناس واستصغارهم، ما يؤدي إلى عدم رعاية شؤونهم وعدم الاهتمام بخدمتهم، بل تحويلهم إلى خدم له.

كما أنه كلما كبرت نعمة الله على الإنسان، ينبغي له أن يشعر بالتصاغر أكثر أمام الله عز وجل ويستشعر عظمته سبحانه أكثر. ولذا فالحاكم والمسؤول الذي وصل إلى هذا المنصب بتوفيق الله تعالى، عليه أن يستشعر عظمة الله سبحانه أكثر من الآخرين.

ثم يتناول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بيان ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وقد أوضحها بمجموعة من الأمور كالتالي:

الأول: حب المديح

إن من أسخف حالات الحكام والمسؤولين أن يظن بهم صلحاء الأمة أنهم يحبون الفخر والمديح والإطراء، وأنهم من أهل التكبر. ولذا لا ينبغي أن يُشعر الناس بأنه يحب هذه الأمور، فإن ظن أنهم يظنون ذلك فعليه أن يبين لهم حقيقة شعوره من حب الثناء، كما فعل علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذلك حينما شعر من الناس أنهم يظنون ذلك فيه، فأنكر أن يوجد فيه وحمد الله تعالى على ذلك.

ثم أوضح أنه حتى لو كان يحب المديح لتركه تواضعًا لله عز وجل الذي هو أحق بالعظمة والكبرياء، وإن الناس بطبيعتهم يحبون أن يُحمدوا على ما يقومون به من أعمال، ولكن علي بن أبي طالب وهو في موقع الخلافة والمسؤولية لا يريد منكم هذا الثناء، وإنه ليعاقب نفسه على حقوق يشعر أنه مهما قدم فهو مقصر في أدائها، ويشعر أن هناك واجبات كثيرة لم يؤدها حتى الآن.

وهذا علي بن أبي طالب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي قدم الغالي والنفيس وبذل كل ما في وسعه من أجل الله ومن أجل الناس، يقول إني أرى نفسي مقصرًا في أداء كل الحقوق.

الثاني : عبارات التفخيم

جرت العادة أن يخاطَب الجبابرة والفراعنة بأسلوب خاص وعبارات خاصة تميزهم عن غيرهم، تتضمن الكثير من كلمات التمجيد والتعظيم والتفخيم. وهنا يطلب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ألا يخاطب بما تخاطب به الجبابرة. ولذا ينبغي على الحاكم والمسؤول أن ينبه من يستعمل هذا الأسلوب معه لتركه.

الثالث : التحفظ من الكلام

يحذر الناس من الحديث مع أصحاب المبادرة، وهم أهل الغضب، كما يتحدثون مع بعضهم. وهنا يطلب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ألا يتحفظوا من الكلام كما يتحفظ من أهل الغضب، وأن يسترسلوا بالحديث بحضرتهم وتبيان آرائهم ومشاكلهم.

الرابع : مخالطة المصانعة

يتصنع الناس عادة عند مخالطتهم الحكام الجبابرة ويستعملون معهم حركات معينة تدلل على الخضوع والتملق. ويطلب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ من الأمة ألا تتكلف معه في حديثها وسلوكها. وهكذا ينبغي أن يكون شأن من هو في مواقع المسؤولية.

الخامس : استثقال الحق

ويجب ألا تظن الأمة بالحاكم أنه يستثقل سماع الحق وإنْ كان مرًا، ويجب أيضًا ألا تشعر بأنه يطلب العظمة لنفسه، فيتوقفون في ما يريدون قوله؛ لأن الحاكم والمسؤول إذا استثقل من الحق أن يقال له، أو العدل أن يُعرض عليه، فإن العمل بهما يكون عليه أثقل. فمن لا يستطيع أن يصغي إلى الحق كيف يستطيع العمل به؟!. وإذا كان غير مستعد أن يسمع الانتقاد من معارضيه، فكيف يمكن له أن يأخذ بالنصيحة ويعمل على تصحيح المسار؟!. ومن لا يقدر على تحمل أن يُعرض عليه العدل والإنصاف، فكيف يتوقع منه أن يعمل بهما؟!.

السادس : قول الحق والمشورة بالعدل

يطلب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ باعتباره حاكمًا من الأمة ألا تكف عن قول الحق والمشورة بالعدل له، أي تقدم له الاستشارة، ولكن بنحو ليس فيه ظلم وإجحاف.

ويعلل ذلك بأنه في نفسه ليس فوق أن يخطئ، فهو كشخص وإن كان خليفة للمسليمن، فليس فوق القانون، والمسؤولية لا تعطيه حصانة من الخطأ، فمواقع التصدي لا تمنع الإنسان من أن يقع في الخطأ، وحينما يخطئ المسؤول فإن نتائج خطئه تكون كارثية ما لم يبادر إلى تصحيحها من خلال تنبيه الأمة له.

ثم يبين بأنه وإن كان حاكمًا فليس لديه حصانة عن صدور الخطأ. وقد بين أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا المطلب لئلا يتصور الناس بأن الحاكم والخليفة فوق أن يخطئ كما كان متصورًا آنذاك. ثم يستدرك بأنه معصوم في فعله وقوله عن الخطأ، وذلك بكفاية من الله تعالى له باعتباره مالكًا له، بل الله تعالى أكثر مالكية لأنفسنا من أنفسنا، يتصرف بها كيف يشاء، والله تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وإنما الناس جميعًا عبيد مملوكون لرب الأرباب الذي لا رب سواه، وهو الذي يخرجنا مما كنا فيه إلى ما فيه صلاحنا، وهو الذي أبدلنا بالهدى بعد الضلالة وبالبصيرة بعد العمى.

فكل من يفكر بشكل صحيح ويتحدث بشكل مؤثر ويخطو خطوات جريئة صحيحة، فإن كل ذلك إنما هو بتوفيق من الله تبارك وتعالى، وهو الذي جعل في ذلك البركة والتوفيق، فكل خير من الله، وكل شر مردود علينا وعلى أنفسنا نتيجة تقصيرنا.

ولو شاعت هذه الثقافة بين المسؤولين فإن البلد يصبح في خير وازدهار، فالمسؤول يتواضع ويسمع ويأخذ الكلام من الآخرين ويصحح مواقفه ويكون في خدمة الناس، وهذا هو الإسلام، وهذه هي النظرية الإسلاميّة في إدارة الدولة وتحمل أي مسؤولية من المسؤوليات. ولذلك إذا حصلت مشكلة فهي منا، وليس من ديننا وإسلامنا، ويجب ألاّ نحمل تبعات أخطائنا على الدين، بل الخطأ نتحمله نحن؛ لأن الخطأ حينما يحصل فهو يعني أننا ابتعدنا عن الإسلام وتعاليمه، ولو أخذنا بهذه التعاليم لكانت الأمور مختلفة.

ويشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى العوارض المترتبة على حالة النرجسية والتشبه بجبروت الله سبحانه في هذه العبارة: «فإن الله يذل كل جبار، ويهين كل مختال». والله سبحانه وتعالى يمهل، ولكنه في هذه القضية لا يمهل فيها، بل يذل الحاكم والمسؤول الجائر في الدنيا قبل الآخرة، ويريه نتائج الكبرياء أو التكبر الذي تلبس به.

يقول أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ في الخطبة القاصعة: «الْحَمْدُ لله الذِي لَبِسَ الْعِز وَالْكِبْرِيَاءَ، وَاخْتَارَهُمَا لنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ»، فهذه الأشياء لا يعطيها الله سبحانه لغيره، بل هي من شأنه وحده. «وَجَعَلَهُمَا حِمىً»، والحمى هو الحماية من وصول الآخرين إليه، «وَحَرَمًا عَلَى غَيْرِهِ»، أي حرمهما على الآخرين ومنع من الوصول إليهما. «وَاصْطَفَاهُمَا لِجلاَلِهِ وَجَعَلَ اللعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ»[٢٤١]، فكل من ينازع الله سبحانه وتعالى في الكبرياء والعز فإن الله سبحانه وتعالى ينتقم منه ويعاقبه، نستجير بالله من ذلك ونسأل الله أن يهدينا إلى سبيل الرشاد.

٢٤١-. نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.

المقطع السابع

إنصاف الحاكم وظلمه

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوىً مِنْ رَعِيَّتِكَ ،فَإِنَّكَ إلاَّ تَفْعَلْ تَظْلِمْ ، وَمَنْ ظَلَمَ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ ،وَكَانَ لله حَرْبًا حَتّى يَنْزِعَ أو يَتُوبَ . وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إلى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ ، فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِينَ ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ .» .

الدرس الخامس والعشرون

إنصاف الله وإنصاف الناس

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر: «أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوىً مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلاَّ تَفْعَلْ تَظْلِمْ،».

يبدأ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الفقرة في حديثه عن الإنصاف بإنصاف الله تبارك وتعالى، فهو الأولى بالإنصاف قبل غيره؛ لأنه الخالق والمنعم والذي بيده كل شيء. ويتحقق إنصاف الله تعالى بأداء حقوقه، وأهمها حق العبودية له سبحانه وتعالى، وحق شكره على نعمه التي لا تحصى، وحق الصبر على بلائه. ثم يتحدث في الفقرة الثانية عن إنصاف الناس، وعن المحسوبيات والمنسوبيات، وعن الظلم والإجحاف الذي يتعرض له المواطنون من المسؤول، وعن أهمية الإنصاف الذي ينبغي أن يتصف به الحاكم والمسؤول.

الملازمة بين إنصاف الله وإنصاف الناس

ويمكن استشفاف هذه الملازمة من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ»، وكأن هناك ملازمة بين الأمرين؛ إذ كيف يمكن إنصاف الناس دون أن يكون هناك إنصاف لله سبحانه وتعالى؟، وكيف يتحقق الإنصاف لله من دون مراعاة للناس وحل مشاكلهم ومعالجة همومهم؟، فهناك نوع من الترابط بينهما، فمن يريد رضا الله سبحانه يجب عليه مراعاة الناس.

إنصاف الناس من النفس

ويبدأ المسؤول بإنصاف الناس من نفسه أولًا، فيجب أن تكون امتيازاته ومخصصاته وحياته الخاصة وطريقة تعامله في أموره وشؤونه قريبة من حالة الناس. أن يكون

الإنسان مسؤولًا لا يعني تجاوز القانون في ما يلزم الآخرين بتطبيقه، فالأولى أن يلتزم هو بالقانون. وفي ما يريده ويتوقعه من المواطنين، يجب أن يرى نفسه أولًا؛ هل يطبق هذا الأمر لكي يتوقع من الآخرين العمل به؟.

إنصاف الناس من الأهل

لا يكفي أن يكون المسؤول منصفًا للناس من نفسه، بل يجب أن يكون منصفًا للناس أيضًا من أولاده وأقربائه وأرحامه، فلا يدعوه حب الأهل والعشيرة إلى الوقوف إلى جانبهم ضد الآخرين.

إنصاف الناس من الأصدقاء

قد يكون للمسؤول بعض الناس الذين له فيهم هوى، وهم من جماعته أو حزبه أو طائفته أو قوميته، فهؤلاء أيضًا يجب أن يكون منصفًا للناس منهم، فلا يميزهم في التعامل عن الآخرين.

فإن لم ينصف الناس من نفسه وأهله ومن له فيه هوى يكون قد وقع في الظلم، فليس هناك محسوبيات ومنسوبيات، بل هناك ضوابط ومعايير يجب أن تنطبق على الجميع من المسؤول وذويه وجماعته إلى عموم الناس.

وهذه هي رؤية الإسلام في الإدارة والقيادة، التي من أهم ميزاتها عدم التمييز بين المسؤول وسائر الناس.

ونستفيد من هذه الكلمات المعبرة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مجموعة من الإضاءات:

الإضاءة الأولى

أهمية الإنصاف في العلاقة بين المسؤول والناس

يجب على المسؤول عدم استغلال الموقع للوصول إلى مآرب خاصة وشخصية، وعدم التعدي على الآخرين؛ لأن المسؤول لديه وجاهة وتأثير ويستطيع تمييز نفسه عن الآخرين. وهذا هو منهج علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذه هي أهمية الإنصاف في نجاح العمليّة القياديّة والإدارية.

الإنصاف زينة الحكم

يقول علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في إحدى حكمه في تأييد هذا المعنى: «الإنصاف زين الأُمرة»[٢٤٢]، فزينة المسؤولية والأمرة هو الإنصاف في التعامل مع الآخرين، وهذا الإنصاف يخلق حالة من المحبة والمودة والتقارب بين المسؤول والناس. فالناس حينما ترى مسؤولا يخدم الجميع، وينصف الناس من نفسه ولا يفرق بينهم، فإنهم سيحترمونه ويحبونه ويتقربون منه، ولا تبقى فجوة بينه وبين عموم الناس.

الإنصاف يوجب المحبة والإلفة

يقول علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الإنصاف يؤلف القلوب»[٢٤٣]. ويقول عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «الإنصاف يستديم المحبة»[٢٤٤]، فالقلوب تتآلف وتتقارب من خلال الإنصاف. ويقول عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «الإنصاف يرفع الخلاف ويوجب الائتلاف»[٢٤٥]، وهذه هي فائدة الإنصاف العظيمة، فهو الذي يجمع أبناء الأمة ويوحدها رغم اختلاف آرائها وقومياتها ومذاهبها.

الإنصاف يوجب الثقة

الإنصاف يوجِد أيضًا حالة من الثقة بين المسؤول والناس، وكلما كان المسؤول أكثر إنصافًا، كانت ثقة الناس به أعظم وأشد. يقول علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أنصفوا الناس من أنفسكم يوثق بكم»[٢٤٦]، إذا أراد المسؤول أن يكسب ثقة الناس فعليه بإنصافهم؛ فالإنصاف هو طريق الثقة، وإن فُقدت فهذا يعني أن الإنصاف غير موجود؛ لأن الإنصاف أينما حل تحل الثقة معه.

الإنصاف حق المسؤولية

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مخاطبًا عماله على الخراج في رسالة طويلة، منها: «فأنصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم؛ فإنكم خزّان الرعية، ووكلاء الأمة، وسفراء الأئمة، ولا تحشموا أحدًا عن حاجته، ولا تحبسوه عن طلبته»[٢٤٧].

---

٢٤٢. غرر الحكم ١: ٢٣٠.
٢٤٣ غرر الحكم ١: ٢٩٤.
٢٤٤. غرر الحكم ١: ٢٦٩.
٢٤٥. غرر الحكم ٣: ٣٠.
٢٤٦. تحف العقول: ١٤٩.
٢٤٧. نهج البلاغة: الرسالة ٥١.

يتطرق أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الجملة الأولى من هذه الفقرة إلى أن المسؤولين هم خزان الرعية، أي أن هذه الأموال التي في أيدي الدولة هي أموال الشعب، والحاكم والمسؤول مؤتمن عليها من الشعب، وقد أعطاه مفاتيح الخزينة بعد أن وثق به، فلا يعني وجود المفتاح بيده أن يمد يده ويأخذ منها ما شاء، فهذه أموال الشعب، وما هو إلا مؤتمن عليها، ولا يعني أيضًا أن ينفق هذه الأموال بمزاجه؛ يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، بل هذه الأموال هي أموال الشعب ويجب أن تُصرف بعدل وإنصاف على الشعب نفسه.

ثم يصف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المسؤولين في الجملة الثانية بأنهم وكلاء الأمة، أي إنهم ممثلون عن الناس. يا عضو مجلس النواب ويا وزير ويا عضو مجلس المحافظة إنما أنتم وكلاء عن الناس تمثلونهم، فكل عضو في البرلمان هناك مائة ألف انتخبوه، يقفون له على الصراط يوم القيامة يطالبونه بحقوقهم.

ثم يصف المسؤولين في الجملة الثالثة بأنهم سفراء الأئمة، أي إنهم يمثلون الحاكم والمسؤول الأول في الدولة، وإن أي تصرف منهم سينعكس على هذا الحاكم سواء كان حسنًا أو سيئًا، ولذا ينبغي عليهم انطلاقًا من هذه السفارة أن يكونوا حريصين على تحقيق الإنصاف في تعاملهم مع الناس.

ثم يطلب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من موظفيه ألاّ يحشموا أحدًا عن حاجته، أي لا يغضبوا أحدًا، فهناك من الموظفين من يتفنن في كيفية إيجاد مشكلة بسيطة لعرقلة أمر الناس، وهناك من يتفنن في تمشية أمور الناس وحل مشاكلهم والبحث عن ثغرات قانونية لحل مشاكلهم ومعالجة قضاياهم وفق القانون، فالقانون واسع وفيه الكثيرمن الفرص.

ثم يطلب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منهم ألاّ يحبسوا أحدًا عن طلبته، أي إذا كان لديه مطلب فلا تضيقوا عليه، فأي مطلب مشروع للمواطنين يجب أن يُقضى، وأي حاجة صحيحة للمواطنين يجب أن تُلبّى، فقوة المسؤول ليست بتعطيل أمور الناس، بل قوته في كيفية تمشية أمور الناس وتسهيلها لهم وتخفيفها عليهم، وخاصة في مثل هذه الظروف الصعبة، ويجب ألاّ تتحول البيروقراطية الإدارية إلى معضلة تجعل المواطن يشعر بالعجز عن حل مشكلته.

الإضاءة الثانية

مساحة الإنصاف

لا تنحصر مساحة الإنصاف بالمسؤول نفسه، وإنما تمتد لذويه ولجماعته، فحينما يعتبر المسؤول نفسه غير معني بجماعته، لا تكفي نزاهته بذريعة أنه لا تزر وازرة وزر أخرى. كلا، بل هذا وزرك أيضًا، لأن هذا من جماعتك. فإن كان لا يدري فيجب عليه أن يدري، وإذا عرف المشكلة في جماعته فيجب عليه حلها، وينبغي أن يكون أقسى على القريبين منه من الآخرين، فنحن بحاجة اليوم إلى حزم وشدة من المسؤول تجاه جماعته خاصة قبل الآخرين، وحينما يرى الآخرون أن المسؤول قام بتوبيخ وعقوبة المقربين منه حينما أساؤوا وأخطؤوا، فإن الأمور تسير وتتعالج لوحدها.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في رسالة له لواليه على البصرة عثمان بن حنيف: «ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مُصفّى هذا العسل ولُباب هذا القمح ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمن من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطانًا وحولي بطون غرثى وأكباد حرى، أو أكون كما قال القائل:

وحسبُك داءً أنْ تبيتَ ببِطنةٍ وحولَكَ أكبادٌ تحنُّ إلى القَدِّ

أأقنع من نفسي أن يقال هذا أمير المؤمنين (فهل يقتنع الحاكم من نفسه بأن تضفى عليه الألقاب كفخامة الرئيس ودولة الرئيس ومعالي الوزير)، ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أُسوة لهم في جشوبة العيش؟!»[٢٤٨]. فالمسؤول لا يكون مسؤولًا إلا إذا اهتم بالناس وعاش ظروفهم وحينها يشعر الناس بالثقة.

ونلاحظ اليوم مراجعنا العظام تجبى لهم الحقوق الشرعيّة، وهي أموال طائلة ينفقونها على المصالح العامة، ولا يأخذون منها ألا القليل لمعيشتهم، وأغلب مراجعنا يعيشون في بيوت مستأجرة أو صغيرة وقديمة وأثاثها بسيط، هكذا هم يعيشون ويتعاملون، وحري بنا أن نطبق هذا المنهج العلوي في حياتنا.

وروى بكر بن عيسى قال: كان علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «يا أهل الكوفة إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي ورحلي وغلامي فأنا خائن». إذن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أول مسؤول قدم

---

٢٤٨. نهج البلاغة: الرسالة ٤٥.

لائحة بممتلكاته، وهي راحلة ورحل وغلام. «وكانت نفقته تأتيه من غلته في المدينة بينبع»، أي أن نفقاته الشخصية والبيتية لا يأخذها من بيت المال، بل كانت تأتيه من مزرعته بينبع. «وكان يطعم الناس الخبز واللحم، ويأكل هو الثريد بالزيت»[٢٤٩]، والثريد هو الخبز اليابس المبلل بالزيت. لقد كان الخبز اليابس قوت علي بن أبي طالب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، والخبز الجيد واللحم للمواطنين.

هذا هو منطق علي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهذا هو منهجه وعدالته، ولذلك أصبح أسطورة، نسأل الله أن يجعلنا من السائرين على نهجه ومنواله.

٢٤٩. بحار الأنوار ٤١: ١٣٧.

الدرس السادس والعشرون

ظلم الناس

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر: «وَمَنْ ظَلَمَ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ لله حَرْبًا حَتّى يَنْزِعَ أو يَتُوبَ».

يتحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الفقرة من عهده لمالك الأشتر عن طبيعة المحسوبيات والظلم الذي قد يمارس من المسؤول تجاه من هو مسؤول عنهم. وهنا يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مالكا بالإنصاف مع الناس، ويتمثل هذا الإنصاف بعدم توظيف الموقع الذي هو فيه لمصلحته الخاصة.

وقد يكون المسؤول نفسه نزيهًا، ولكن أولاده أو أقرباءه غير جيدين وغير نزيهين، فلا يكفي أن يكون الإنسان نزيهًا؛ لأنه مسؤول عن خاصة أهله، وممن له فيه هوى من رعيته. وقد لا تكون لأولاده وأقربائه مشكلة في هذا الإطار، ولكن المشكلة في حزبه وعشيرته والناس المحسوبين عليه، وهؤلاء قد يسيئون وقد يظلمون، وحينها يكون المسؤول ظالمًا أيضًا. فالمسؤول بحكم مسؤوليته ليس مسؤولًا عن نفسه وحدها، بل هو مسؤول عن نفسه وعن الناس الذين أتى بهم وجعلهم معه في المكان الذي يشغله. وإذا لم ينصف الناس فهذا هو الظلم بعينه.

ويتحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الجملة الأولى من هذه الفقرة عن أن الله تعالى لا يترك المظلوم حتى يأخذ له بحقه، وأنه تعالى شأنه ينتصر للمظلوم فيكون خصمًا لظالمه وينتقم منه.

ويبين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الجملة الثانية أن من كان خصمه الله دحض الله حجته وأبطلها واتضح زيف ما يحتج به لظلمه. ثم يكون هذا الظالم لله حربًا حتى يدركه الموت أو يتوب من ظلمه.

وهناك مجموعة من الإضاءات يمكن استفادتها من هذا الكلام المبارك.

الإضاءة الأولى

مكانة المسؤول الظالم وموقعه عند الله

إن من أصعب الأمور أن يكون الإنسان في موقع الظلم لعباد الله، وموقع الخصومة مع الله تعالى؛ لأنه عالم بكل شيء وحسابه عسير وعذابه أليم، ولذلك فإن أشد الخصومات هي الخصومة مع الله تعالى، حتى أن أُسرة الإنسان أو جماعته أو حزبه حينما يمارسون الظلم فإنه يكون ظالمًا أيضًا.

يقول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «يقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله، ولأنتقمن ممن رأى مظلومًا فقدر أن ينصره فلم ينصره»[٢٥٠].

أي إن للظالم عذابين: عذابا في الدنيا وعذابا في الآخرة، فالله تعالى ينتقم من الظالم في الدنيا والآخرة.

وكم رأينا من الطغاة وكثير من الناس ممن لهم مظالم بمستويات أقل، قد أذاقهم الله سبحانه ألوان العذاب والمصائب في الدنيا.

روى الشيخ الكليني قال: صعد أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المنبر في الكوفة فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس إن الذنوب ثلاثة، ثم أمسك. فقال له أحد الجالسين: يا أمير المؤمنين قلت الذنوب ثلاثة ثم أمسكت. فقال: ما ذكرتها إلا وأنا أريد أن أفسرها، ولكن عرض لي بغر حال بيني وبين الكلام. نعم، الذنوب ثلاثة: فذنب مغفور، وذنب غير مغفور، وذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه. قال: يا أمير المؤمنين بينها لنا. قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: نعم، أما الذنب المغفور فعبد عاقبه الله على ذنبه في الدنيا، فالله أحلم وأكرم من أن يعاقب عبده مرتين.

وأما الذنب الذي لا يغفره فمظالم العباد بعضهم لبعض، إن الله تبارك وتعالى إذا برز لخلقه أقسم قسمًا على نفسه فقال: وعزتي وجلالي لا يجوزني ظلم ظالم، ولو كفٌّ بكفّ، ولو مسحة بكف، ولو نطحة ما بين القرن إلى الجماء حتى لا تبقى لأحد على أحد مظلمة، ثم يبعثهم للحساب.

وأما الذنب الثالث فذنب ستره الله على خلقه ورزقه التوبة منه خائفًا من ذنبه راجيًا لربه، نحن (أهل البيت) له كما هو لنفسه نرجو له الرحمة ونخاف عليه من العذاب»[٢٥١].

---

٢٥٠. كنز العمال ٣: ٥٠٦ ح ٧٦٤١.

٢٥١. الكافي ٢: ٤٤٣.

والبغر : حالة انقطاع النفس من الإعياء والتعب ، فحينما يستذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الأقسام الثلاثة من الذنوب تحصل عنده حالة من الرعب والخوف من الله سبحانه وتعالى .

ثم ذكر عَلَيْهِ السَّلَامُ الأقسام الثلاثة ، أما الذنب الأول فهو الذنب المغفور ، وهو الذنب الذي ينال الإنسان عقوبته في دار الدنيا ، وإذا أراد الله تعالى أن يتفضل على عبد عاقبه في الدنيا على ذنوبه ، فمثلًا يصاب الإنسان أحيانًا بالمرض لتخفيف الذنوب ، وقد يصاب بالمرض أحيانًا لرفع الدرجات . فالبلاء والحزن والهم والمصيبة والعناء كلها وسائل لله تعالى يخفف بها عن عباده ، فيعاقبهم بها في الدنيا .

وأما الذنب الثاني فهو الذنب الذي لا يغفره الله سبحانه ، وهي مظالم العباد بعضهم لبعض ، ويقتص الله تعالى من أصحابها في الدار الآخرة . ثم يحكي عَلَيْهِ السَّلَامُ مشهدًا من مشاهد يوم القيامة ، وهي أن الله تعالى إذا برز الناس للحساب يقسم قسمًا على نفسه بأن يقتص لكل مظلمة وإن كانت صغيرة ، ولو كانت نطحة ما بين القرن إلى الجماء ، والجماء : هي الشاة التي ليس لها قرن ، في إشارة إلى الاعتداء على الإنسان البريء الذي لا يحمل السلاح .

وأما الذنب الثالث فهو الذنب الذي يُرجى لصاحبه الرحمة ، إنْ ستر الله تعالى عليه ورزقه التوبة منه ، أو يُخاف على صاحبه منه وهو الذنب الذي لم يُرزق التوبة منه . فقد يذنب الإنسان ثم يتكرم الله تعالى عليه ، ويلتفت ذلك الإنسان ويظهر الندم على ما أذنب ، وتدمع عينه وينكسر قلبه ويتوب إلى الله ، ويكون عنده رجاء أن يصفح الله تعالى عن خطيئته ، ولكنه في نفس الوقت يبقى خائفًا من ألاّ يغفر له الله تعالى ذنبه . وأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هذه طريقتهم ومنهجهم مع أوليائهم ومع الناس ، وهكذا يتعاملون .

ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا : «والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهدًا ، أو أُجرّ في الأغلال مصفدًا ، أحب إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالمًا لبعض العباد ، وغاصبًا لشيء من الحطام ، وكيف أظلم أحدًا لنفس يسرع إلى البلى أفولها ، ويطول في الثرى حلولها» .

« . . والله لو أُعطيت الأقاليم بما تحت أفلاكها ، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته ، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها ، ما لعلي ولنعيم يفنى ، ولذة لا تبقى ! نعوذ بالله من سبات العقل ، وقبح الزلل»[٢٥٢] .

٢٥٢ . نهج البلاغة : الخطبة ٢٢٤ .

لقد قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذه الكلمات في خطبة له وتعرض فيها لما جرى له مع أخيه عقيل عندما جاءه ملتمسًا بعض المال لكثرة عياله، وقد اعتذر له عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنه لا يملك مالا ليعطيه ولكن لينتظر إلى حين حلول العطاء من بيت المال فيعطيه حصته أيضًا، ولكن عقيلًا أراد شيئًا من بيت المال، فأحمى له علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حديدة وقربها من يده فأمسكها عقيل - وكان بصيرًا - ظنًا منه أنه مال، فأنّ من ألمها.

ومعنى الحسك أي الشوك، والسعدان نوع من الزهور ذات أشواك. والسُهاد وهو عدم النوم، والمُسهَّد هو الممنوع من النوم. والأغلال: القيود، ومصفدًا أي مقيدًا. والمعنى: لو أني نمت على الشوك وسُلبت الراحة مني، لهو أحب إلي من أن أقع في ظلم أحد من عباد الله، أو أغصب شيئًا من الحطام، فأمد يدي إلى أموال الناس والمال الحرام.

وكيف يمكن أن أظلم أحدًا من أجل نفسي التي تسرع إلى الهرم والشيخوخة، وأضحي بربي وبآخرتي من أجل نفس تسرع إلى الضعف والوهن والموت، ويطول في التراب بقاؤها؟! إذ يعمر الإنسان في الدنيا خمسين أو مئة عام، ولكن تبقى النفس في التراب آلاف السنين.

ثم يقسم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بلفظ الجلالة بأنه لو أعطي ملك الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن يعصي الله في نملة يسلبها حبة شعير لما فعل. ثم يبين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قيمة الدنيا عنده بأنها لا تساوي شيئًا أبدًا. ثم يقول ما له ولنعيم فانٍ ولذة زائلة. ثم يتعوذ بالله من نوم العقل وقبح الخطأ.

الإضاءة الثانية

سقوط الذرائع من يد المسؤول

إن المسؤول حينما يظلم لن يكون له أي تبرير أو حجة أو دليل، والسبب في ذلك أن المسؤول بحكم موقعه وهو يملك السلطة والنفوذ يستطيع أن يضغط على من هو دونه في مساحة مسؤوليته ويسيء إليه، كما أنه أقدر على الظلم من الإنسان العادي، بالإضافة إلى أن إمكان استغلاله لموقعه وتأثيره القيادي للضغط على الناس يكون أعظم، والطبع البشري يجعل الإنسان راغبًا دائمًا في أن يهيمن ويتسلط على الآخرين، ويريد أن تسير الناس وفقًا لما يفكر فيه وتقتدي بسلوكه.

وهذا الطبع الإنساني حينما يكون له سلطة ونفوذ ومسؤولية في أي مستوى قيادي معين، من الممكن أن يستغل هذا النفوذ وهذه السلطة لإرغام الناس على أن يتعاملوا بالطريقة التي يريدها هو، فيسلبهم حرياتهم، وهو يعتقد بأن ما يقوم به ويفكر به وما يقوله هو المصلحة لهؤلاء الناس دائمًا، وهو الأنسب والأنفع لهم، ويحاول أن يحول الناس كلهم إلى لون واحد وإلى طريقة واحدة في التفكير.

لذلك يصبح الظلم من المسؤول أخطر وأكثر ألمًا وتأثيرًا من الظلم الذي قد يصدر من غيره. وهذا ما يجعل الحجج والأدلة التي يقدمها المسؤول لتبرير سلوكيات معينة غير مقنعة في المنهج الإسلامي، وهذا ما يلاحظه الإنسان في حياته، حتى إن الطغاة والظالمين الذين صنعوا المقابر الجماعية وقتلوا آلاف الناس تراهم يبررون أعمالهم.

إن المسؤول في موقع المسؤولية يسعى دائمًا إلى أن يكيف سلوكه ومواقفه تكييفات قانونية، فالمظلوم يكون هو الظالم وهوخارج عن القانون والالتزامات والسياقات وما إلى ذلك في حكم ورأي هؤلاء الظلمة، وهنا يكمن الخطر من المسؤول، فإنه حينما يظلم فإن المظلوم يصبح مدانا وليس الظالم، ولذلك نجد التشدد الكبير والتحذير من قبل الله تعالى من ممارسة الظلم من قبل المسؤول، أيًا كان في مواقع القيادة.

يقول أمير المؤمنينعَلَيهِ‌السَّلَامُ: «ظالم الناس يوم القيامة منكوب في ظلمه، معذب محروم منكسر يطأطئ برأسه»[٢٥٣]، وذلك حينما تنكشف حقيقته أمام الناس، ففي يوم القيامة تظهر الأمور على واقعها، فالظالم يصبح مدانا ومكسورا ومحروما كما تعبر الرواية.

وجاء في الرواية: سئل أمير المؤمنينعَلَيهِ‌السَّلَامُ: أي ذنب أعجل عقوبة لصاحبه؟ فقال: «من ظلم من لا ناصر له إلا الله، وجاور النعمة بالتقصير، واستطال بالبغي على الفقير، »[٢٥٤]. يبين أمير المؤمنينعَلَيهِ‌السَّلَامُ في هذه الرواية الشريفة ثلاثة ذنوب تُعجّل العقوبة، هي:

الأول: ظلم من لا ناصر له إلا الله.

فالإنسان الذي ليس له حزب يدافع عنه ولا ظهر يحميه حينما يُظلم يتوجه مباشرة إلى الله تعالى بقلب منكسر، فينتقم الله له ممن ظلمه، وهذه معادلة السماء العجيبة،

٢٥٣. غرر الحكم ٤: ٢٨٠.
٢٥٤. بحار الأنوار ٧٥: ٣٢٠.

التي هي على عكس معادلة الأرض، ففيها أن كل من له مال ووجاهات وعلاقات، ومن له مكانة اجتماعية مرموقة، فإن له حصانات أكثر، ولكن في منطق السماء كلما كان الإنسان لا يمتلك هذه الوجاهات والمواقع التي تحميه، كان له حظوة أكبر في السماء ومكانة أعظم.

وهذه مسألة مرتبطة بالإنسان حينما يكون لدى الإنسان وسائل ضغط معينة نفكر بها أولًا، مثلًا حينما يريد الإنسان أن يستلف مبلغا من المال، فهو يتوجه إلى معارفه الأغنياء والميسورين، والحق أنّ أقلنا وجاهة أكثرنا منزلة عند الله تبارك وتعالى؛ لأنه أكثرنا انقطاعًا إلى الله تعالى، وأكثرنا إلحاحًا للطلب من الله تعالى.

الثاني: مجاورة النعمة بالتقصير

فيجب الإيفاء بواجبات النعمة ومسؤولياتها، أي نعمة كانت، ومنها نعمة المنصب وخدمة الناس وحل مشاكلهم. ويتحقق شكر النعمة بالوفاء بالتزاماتها، وأما الذي يحصل على النعمة ولا يشكر الله تعالى عليها، ولا يوظفها التوظيف الصحيح، كأنْ يُعطى المال والجمال مثلًا ولكنه يستخدمهما ويوظفهما في معصية الله، فإن الله سبحانه وتعالى يعجل له العقوبة.

الثالث: الاستطالة على الفقير بالبغي

على المسؤول ألاّ يبرز قوته وعضلاته على الفقير والمسكين، كمن يريد تطبيق القانون على المتجاوزين مثلًا، وكأنه ليس هناك مشكلة أخرى في العراق!، مع أنه بنى على أرض موات، وهو أحق بها شرعًا؛ لأنه ملكها بالإحياء.

وعن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «يوم العدل على الظالم أشد من يوم الجور على المظلوم»[٢٥٥]، فالمظلوم حينما يُظلم تظهر فئة من الناس تتعاطف معه وتدعو له وتنصره في السر أو العلن، كما إنه يدعو بقلب مكسور وهو متوجه إلى الله تعالى ويشعر أنه مضغوط عليه، فيمنحه الله تعالى صبرًا وكمالًا وقوة، فتراه وهو في الزنازين ولكنه يشعر بالقوة بسبب إخلاصه ومظلوميته وتعاطف الناس معه.

لكن الظالم يوم يلقى حسابه وتنكشف أوراقه، تجد الناس تتشفى به وتفرح بعد أن عرفت أن لهذا الظالم نهاية، كما رأينا في الأشهر الأخيرة الطغاة الذين نالوا جزاءهم في

---

٢٥٥. نهج البلاغة: الخطبة ٣٤١.

بلدان عربية عديدة، كيف أنه لا أحد يتعاطف معهم، وإنما العكس هو الصحيح، فالناس تتذكر اعتداءاتهم وظلاماتهم لهم، لذلك فإن يوم الظالم أشد من يوم المظلوم.

الإضاءة الثالثة

حقيقة الظلم من المسؤول

ظلم الحاكم والمسؤول هو في حقيقته حرب مع الله سبحانه وتعالى، كما بين ذلك أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله في الجملة الأخيرة من الفقرة أعلاه: «وكان لله حربًا»، ولم يقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: المسؤول الظالم محارب، بل استعمل المصدر فقال حربًا، لشدة التنكيل، فحينما يستعمل المصدر يعني أن هذه الصفة حقيقة ثابتة ودائمة عند هذا الإنسان، فالمسؤول الظالم ليس محاربًا لله عز وجل فقط، بل هو حرب ومجدد للعداء مع الله سبحانه ومع القيم والمبادئ حينما يسيء لعباد الله ويستغل موقعه لظلم الناس.

الإضاءة الرابعة

خلاص الظالم

لا خلاص للظالم إلا بأن يرعوي ويعود إلى رشده، ولا يكون ذلك إلا بأن ينسجم مع القيم والثوابت ويعيد للمظلوم حقه، وليس هناك حل آخر، كما بين ذلك علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: «وكان لله حربًا حتى ينزع أو يتوب»، فما لم ينزع عن الظلم ويتُب إلى الله تعالى، فحرب هذا المسؤول الظالم مع الله سبحانه مستمرة.

يقول علي عَلَيْهِ السَّلَامُ من خطبة له: «ألا وأن الظلم ثلاثة، فظلم لا يُغفر، وظلم لا يُترك، وظلم مغفور لا يُطلب. فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله»، كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[٢٥٦]، «وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد لنفسه عند بعض الهنات»، فقد يرتكب الإنسان بعض الهنات، كما لو فكر في شيء، أو نظر إلى شيء، أو قرر شيئًا ثم تراجع عنه، لأنه حرام.

٢٥٦. سورة النساء: الآية ٤٨

وهناك ذنوب صغيرة قد يرتكبها الإنسان، وكان ينبغي أن يتجنبها جهد الإمكان، ولكن الإنسان غير معصوم وتصدر منه أخطاء معينة، وهذه الأخطاء الصغيرة إذا تاب الإنسان منها، فالله تعالى يصفح عنها ويغفرها له.

«وأما الظلم الذي لا يُترك فظلم العباد بعضهم بعضًا». وهذا الظلم لا يُغفر حتى إذا تاب الإنسان منه، ما لم يعفُ صاحب المظلمة أو يقتص منه. «والقصاص هناك شديد، ليس هو جرحًا بالمدى»، أي ليس طعنا بسكين، «ولا ضربًا بالسياط، ولكنه ما يستصغر ذلك معه»[٢٥٧].

القصاص يوم القيامة لمن يظلم إنسانًا أعظم بكثير من الطعن بسكين أو الضرب بسوط، فقصاص الظالم أشد، والظالم يتمنى أن يُطعن بسكين أو يضرب بسوط حينما يرى العقوبة الإلهيّة على ظلمه. ومن هنا نجد تأكيد الإسلام على هذه القضية، وأن عدم الاعتداء والتجاوز على الآخر يمثل واحدة من السمات الأساسيّة والمهمة التي تنظم العلاقة الاجتماعيّة. فعلى المسؤول ألاّ يمتد بسلطته ونفوذه ليسيء إلى الآخرين ويسلب حقوقهم. نسأل الله تعالى أن يبعدنا عن الظلم، ويشيع بيننا التسامح والعدالة والإنصاف.

٢٥٧. نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦.

الدرس السابع والعشرون

الظلم وحلول العقوبة الإلهيّة

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر: «وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إلى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَة عَلَى ظُلْم، فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ».

لا يوجد شيء يبعد الإنسان عن النعمة ويقربه من النقمة بقدر الظلم، فهو أقصر الطرق إلى نقمة الله وعذابه، وأبعد الطرق إلى نعمة الله ولطفه، لأن الله سبحانه وتعالى يسمع دعوة المظلومين المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد، فهناك تأثيرات وعوارض دنيوية للظلم قبل العقوبة الأخرية. ولأنها من حق الناس فلا تكفي التوبة وحدها.

في منطق علي عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي هو منطق الإسلام، حينما يظلم المسؤول فإنه ينزع إنسانيته ويتحول إلى وحش كاسر، يعتدي على الآخرين ويسيء إليهم ويتجاوز عليهم، ولذلك يتخلى عن إنسانيته. وفي اللحظة التي يظلم فيها المسؤول سيكون على سكة الأُفول والزوال والسقوط، والمسألة مسألة وقت.

وهذه سُنة الله تعالى، وهو منطق الإسلام، فما دمت تظلم وتصر على الظلم فهذا مدعاة لتعجيل النقمة، ونزول البلاء يصبح قريبًا، وفي رؤية القرآن الكريم، فإن الظلم يؤدي إلى السقوط، ويؤدي إلى انهيار الأنظمة، والظالم سيتعرض للعقوبة الإلهيّة في الدنيا قبل الآخرة.

ولقد كنا نحتاج قبل أشهر إلى شرح لهذا الموضوع، ولكن اليوم وبعد تحولات الربيع العربي كما يسمونه أصبح الأمر واضحًا جدًا، فقد تحول الحاكم ـ الذي كان يتحكم ويسعى الجميع لتحقيق وتنفيذ أوامره ويمتلك الجيوش والهيبة والأدوات ـ خلال أسابيع في خبر كان بعد أن أصبح الشعب يريد إسقاط النظام بدون تحرك الجيوش، فقد تهاوت

كل القوى التي كان يُعتقد بأنها أذرع للدفاع عن هذا الحاكم. إذن، فالظلم له نهاية بالفعل، وإن الله عز وجل يمهل ولا يهمل، وإن النتيجة حتمية.

وفي منطق عليعَلَيهِ‌السَّلَامُ كل شيء في غير موضعه ظلم، ويقع في ضمن العوارض التي تحدثنا عنها.

فالموقف غير السديد، أو الذي لا حكمة فيه، أو المتسرع، أو الانفعالي، أو الذي في غير موضعه، فكل هذه من مصاديق الظلم. وعلى المسؤول أن يكون مستقرًا وهادئًا ويدرس الأمور بتروٍّ وتشاور ثم يتخذ القرار الصحيح.

وكذا النرجسيات والمزاجيات في إدارة الأمور من مصاديق الظلم، ويجب ألاّ يفرض المسؤول موقفه ورأيه ومزاجه على الآخرين.

وكذلك فإن التنصل عن أداء الحقوق والتخلف عن الإيفاء بالالتزامات والوعود والعهود يعرض الإنسان إلى هذه العوارض والتبعات.

كما إن وضع غير الكفوء في مواضع المسؤولية فيه ظلم للناس وظلم للموقع، ويؤدي إلى تراجع البلد وتبدد الثروات والإمكانات، وهذا ظلم خطير.

ومن مصاديق الظلم أيضًا الانحراف عن المعايير والقوانين والالتزامات التي يجب أن تتحكم في قرارات المسؤول، فكثيرًا ما نرى في نفس القضية موقفا متشددا مع فلان وموقفا متساهلا مع آخر، وهذا ظلم صارخ وابتعاد عن مسارات الدين والعقل.

والخلاصة أن أي شيء في غير موضعه ظلم، ويتعرض صاحبه إلى التبعات التي تحدثنا عنها.

الجور وزوال الدولة متلازمان

يقول أمير المؤمنينعَلَيهِ‌السَّلَامُ في بيان أسباب زوال الدول وهلاك الأمم: «الظلم يدمر الديار»[٢٥٨]، فحينما تكون لدينا العقول والإمكانات، ولا يوجد حصار، ولكن ليس هناك تقدم، فهذا معناه أن هناك ظلما، وحينما نرفع الظلم سوف تكون الأمور على السكة الصحيحة.

ويقولعَلَيهِ‌السَّلَامُ أيضًا: «سبب التدمير سوء التدبير»[٢٥٩]، فسوء التدبير، وعدم الحكمة، وعدم مراعاة الضوابط، والانفعالات والمواقف الارتجالية والمتسرعة، تؤدي كلها إلى مثل هذه المضاعفات الخطيرة.

---

٢٥٨. غرر الحكم ١: ٢٦٧.

٢٥٩. عيون المواعظ والحكم: ٢٨١.

ويقول عَلَيهِ‌السَّلَامُ أيضًا: «من جارت ولايته زالت دولته»[٢٦٠]، أي إذا كان هناك جور، فإنه يؤدي إلى زوال الدولة، فالجور وزوال الدولة متلازمان.

ويقول عَلَيهِ‌السَّلَامُ أيضًا: «تولي الأراذل والأحداث الدول دليل انحلالها وإدبارها»[٢٦١]، ومن علل زوال الدول والحكومات، تولي من لا ذمة له ولا ضمير ولا تأريخ ومن لا يعرف سوى مصلحته والحصول عليها بشتى الطرق غير اللائقة وغير الأخلاقية، وهؤلاء هم الأراذل.

وكذلك من علل زوال الدول والحكومات، تولي الأحداث لأمور البلاد، وهم من جاءت بهم الصدفة وجعلتهم في المقدمة. ونقرأ في تأريخ الطغاة والظالمين السابقين، أن فرصة معينة تأتي لأحدهم، ليكون الزعيم الأوحد والإمبراطور، ولكنه لا يستطيع إدارة الأمور بالشكل الصحيح؛ لأنه لا يملك الحصانة والحصافة الكاملة، وربما يفقد توازنه، وتكون مواقفه غير مدروسة وغير ناضجة.

وهنا يبين علي عَلَيهِ‌السَّلَامُ حقيقة مهمة وهي أن تولي الأراذل والأحداث مسؤولية الدولة دليل على انحلالها وإدبارها، وسوف يكون مثل هذا المسؤول غير قادر على تحقيق النتائج، وتكون النتيجة تراجع وانهيار الحكم وانحلاله.

وفي رواية أخرى لأمير المؤمنين عَلَيهِ‌السَّلَامُ يذكر فيها أربعة أسباب لزوال الحكومات والدول، يقول: «يستدل على إدبار الدول بأربع: تضييع الأصول، والتمسك بالفروع، وتقديم الأراذل، وتأخير الأفاضل»[٢٦٢].

إذا كانت هذه الدول لا توجد فيها استراتيجيات، ولا ضوابط ومعايير وأصول يُلتزم بها، ولا توجد رؤية واضحة، وقراراتها سريعة، وأصولها ضائعة؛ فهذه أول سمة لزوال الدولة.

كما إن تمسك المسؤولين بالفروع، وانشغالهم بالأمور الصغيرة والتافهة، وترك كبائر الأمور وعظائمها، تعتبر السمة الثانية لزوال الدولة.

كما إن تقديم الأراذل وتسليمهم السلطة، والأراذل هم أصحاب الرذائل الأخلاقية، يعد السمة الثالثة لسقوط الدولة.

وأما السمة الرابعة لزوال الدول فهي تأخير الأفاضل من الكفوئين والنزيهين عن مسؤوليات الدولة وإبعادهم عن تسلم المسؤولية بشتى الأساليب وأخبثها.

---

٢٦٠. غرر الحكم ٥: ٢٨٠.
٢٦١. غرر الحكم ٣: ٢٩٥.
٢٦٢. غرر الحكم ٦: ٤٥٠.

ويقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «من جار ملكه تمنى الناس هلاكه»[٢٦٣]، فإذا تمنى الناس هلاك الحاكم والمسؤول فهي البداية للانهيارات، لأن الناس أصبحوا يشكون من الظالم، وهذا الدعاء وهذه الشكوى تُسمع من الله تعالى فيكون فيها هلاك الظالم.

ويقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «من عامل رعيته بالظلم أزال الله ملكه وعجّل بواره وهلكه»[٢٦٤]، فالجور يؤدي إلى زوال الملك والهلاك.

ويقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «ما من سلطان آتاه الله قوة ونعمة فاستعان بها على ظلم عباده، إلا كان حقًا على الله أن ينزعها منه. ألم تر إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾»[٢٦٥]، فالمسؤولية أمانة، فإذا لم تؤد الأمانة بالشكل الصحيح سوف يسترجعها الله تعالى.

وأما إذا أحسن المسؤول الأداء فقد ضمن لنفسه الموقع، بل سيتولى الأدوار المتزايدة، ولكن إذا قصر المسؤول فإن المشكلة به ولا بد من أن يترقب زوال هذه المسؤولية.

ويقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا: «ولئن أمهل الله تعالى الظالم فإنه لن يفوته أخذه، وهو له بالمرصاد على مجاز طريقه، وموضع الشجى من مجاز ريقه»[٢٦٦]، ففي الوقت المناسب ينقض الله تعالى على الظالم، فهو تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد، ولا يمكن إخفاء الوثائق والحقائق إلى ما لا نهاية، بل ستنكشف بالتأكيد في يوم من الأيام، وهنا يوضح أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كيف أن الله تعالى يقف بالمرصاد للمسؤولين الظالمين، وأنهم سينالون جزاءهم العادل ولو بعد حين.

---

٢٦٣. غرر الحكم ٥: ٣٥٩.

٢٦٤. غرر الحكم ٥: ٣٥٨.

٢٦٥. إرشاد القلوب: ٦٨.

٢٦٦. نهج البلاغة: الخطبة ٩٧.

المقطع الثامن

محورية الأمة في القيادة والإدارة

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ

«وَلْيَكُنْ أَحَبّ الأمُور إلَيْكَ أوْسَطُهَا فِي الْحَقّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرّعِيّةِ، فَإِنّ سُخْطَ الْعَامّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصّةِ وَإِنّ سُخْطَ الْخَاصّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامّةِ.

وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرّعِيّةِ، أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرّخَاءِ، وَأَقَلّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلاَءِ، وَأَكْرَهَ لِلإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالإلْحَافِ وَأَقَلّ شُكْرًا عِنْدَ الإعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْرًا عِنْدَ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مُلِمّاتِ الدّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصّةِ، وَإِنّمَا عَمُودُ الدّينِ، وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدّةُ للأَعْدَاءِ، الْعَامّةُ مِنَ الأمّةِ، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ».

الدرس الثامن والعشرون

تغليب مصالح الأُمة على مصالح الطبقة الأرستقراطية

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر: «وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الأْمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ».

يتحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذا المقطع الشريف عن أهمية محورية الشعب ومحورية الأمة في القيادة والإدارة.

يجب ألاّ يكون رضا أو سخط النخبة السياسيّة الحاكمة والحالة الأرستقراطية لأصحاب المصالح الخاصة، هو محور أداء المسؤول، وإنما ينبغي أن يكون المحور هو ما يريده الشعب وما تريده الأمة.

مبادئ النجاح في الحكم

يبدأ أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذا المقطع بوضع المعايير الأساسيّة والمبادئ التي تحقق النجاح في الحكم، إذ يذكر ثلاثة مبادئ، وهي:

المبدأ الأول: حالة الاعتدال، ويتجسد في قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الأْمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ»، أي الركون إلى الحق والموقف الحق.

المبدأ الثاني: العدالة، ويتجلى في قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ»، وتعميمها في كل السلوكيات والمواقف التي يحتاج إليها في موقع المسؤولية.

المبدأ الثالث: رضا الناس، ويتضح في قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ»، أي يجب أن يكون هذا الموقف أقرب إلى رضا المجموع، وقطعًا، رضا الناس غاية لا تدرك، ولكن يتم ذلك من خلال مراعاة ظروف الناس ومن هو مسؤول عنهم حينما يصدر التعليمات.

ولا بُدَّ من أن نقف عند هذه المبادئ الثلاثة بشيء من التفصيل.

المبدأ الأول: الوسطية في الحق

القيادة الحكيمة والقيادة الواعية والقيادة الرشيدة هي القيادة التي تأخذ الوسطية في مجمل أدائها، وتقدر ظروف وقدرات الناس المسؤولة عنهم، ثم تصدر التوجيهات والتعليمات والقرارات والضوابط بالشكل الذي يتماشى مع الحالة الوسطية لهم.

فإن الإفراط والمبالغة في الضغط قد يؤديان إلى شعورهم بحالة من اليأس، كما إن التفريط والتضييع والسياقات والأطر والقواعد ستؤدي إلى حالة من الترهل وإلى الشعور بالرضا المبالغ به وغير الواقعي، حتى يصل إلى لحظة الصدمة، فيجد الإنسان نفسه في صورة ارتسمت له، وهذا ما يفعله الطغاة في أحلك الظروف وأصعب الأمور، فتسمعه حينما يتحدث وكأنما يتحدث عن جنة؛ هكذا حُلت المشاكل، وهكذا الإنجازات والمشاريع، وكأنه يتحدث عن غائب أو عن أمر مجهول.

فحالة الترهل وحالة التفريط وحالة الخروج عن الوسطية إفراطًا وتفريطًا ستؤدي إلى مضيعة في المنظومة القياديّة والإدارية وفي الخطط وفي السياسات وفي المشاريع وفي التصريحات وفي الإجراءات. ففي كل هذه المساحات يجب أن يُعتمد الحق، وأن يؤخذ طريق الاعتدال والوسطية، حتى تتحقق حالات المنظومة القياديّة. هذه رؤية الإسلام كما يذكرها علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

إن مستوى ومعيار النجاح لأي قيادي وأي مسؤول، بقدر التزامه بالوسطية والحق في مجمل سلوكه وأدائه والمواقف التي يتخذها.

يقول علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في إحدى حكمه في بيان هذا المعنى: «الفقيه كل الفقيه من لم يُقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله»[٢٦٧].

فجوهر الفقه ليس أن تذهب إلى الناس وتقول: هذا حرام وهذا لا يجوز وهذا مكروه وهذا ينبغي ألاّ يكون، وتجلب كل هذه المحددات وتضعها أمامهم، وتقتصر على ذكر هذا الجانب فقط.

وليس جوهر تفسير القرآن أن تقتصر على ذكر آيات النار والعذاب والنقمة والبلاء؛ تأتي بها وتشرحها، وكأن الحياة ليست إلا هذا الجانب، فيشعر الناس بالإحباط واليأس، والناس بطبيعتهم خطاؤون، بل حتى من لا يرتكب خطأ حينما تستحضر هذه الرؤية أمامه وهذا الجانب من الحقيقة فقط، يختل عنده التوازن ويشعر بالإحباط الكبير.

---

٢٦٧. نهج البلاغة: الحكمة ٩٠.

كما إن الفقيه الحقيقي هو الذي لا يلقي اليأس من رحمة الله في قلوب الناس، ولا يضع أمامهم صورة يستنتجون من خلالها أنهم من أهل النار قطعًا، فإذا شعروا بذلك فقدوا كل حالة للعبادة والحركة والإقدام.

ومن جانب آخر لم يؤمنهم من مكر الله، أي ألاّ يأتي فقط بكل ما هو إيجابي من رحمة وجنة، وتساهل وشريعة سمحة، تحت يافطة (الله غفور رحيم)، فيضعها أمامهم، فيظنون أنفسهم من أهل الجنة قطعًا.

فالإفراط والتفريط كلاهما يمثل جزءا من الحقيقة المتكاملة، وهي الحقيقة التي فيها تلك العقوبات والمخاوف والمحددات، وفيها هذه الآفاق والآمال والفرص أيضًا. ولذلك ينبغي أن يكون الطرح بشكل متوازن، هذا في الجانب الفقهي الشرعي.

والمنظومة القياديّة تمثل أنموذجًا من نماذج إدارة هذه الحياة التي تعتمد على حالة الوسطية. يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في إحدى خطبه: «من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه»[٢٦٨]، فالذي يأخذ الاعتدال ويمسك العصا من الوسط ويعمل بالحق بوسطية وموضوعية وواقعية يحظى بالحمد والشكر من قبل الناس، ويقبلون منهجه، ويعتمدون هذا المنهج، ويسيرون معه فيه، ويبشرونه بالنجاة، وتنجح المنظومة القياديّة حينما تأخذ الحق ولكن بوسطية ومراعاة الظروف.

وأما من أخذ يمينًا وشمالًا وذهب خارج الطريق، فهنا سيأتيه التحذير من الناس، ويذمون الطريق الذي هو سائر فيه، ويحذرونه من الهلكة، مثل سائق السيارة حينما يغفل وينزل من الشارع إلى خارج الطريق، فإذا كان هناك شخص في السيارة سيصيح به: هل ستأخذنا إلى المهالك؟ فالخروج عن الاعتدال هو ذهاب إلى الهلكة، وهو تعريض المنظومة القياديّة والناس المسؤول عنهم إلى مطبات كبيرة، ولا أحد يسلم إلا بالاعتدال والذهاب إلى الحق الذي يراعي الظروف الموضوعية للناس الذين نتحمل المسؤولية تجاههم.

المبدأ الثاني: عمومية العدل

لا يكفي أن يكون المسؤول عادلًا مع البعض، بل لا بد من أن يكون عادلًا مع الجميع، ولا يجوز أن يستثني أهله وحزبه وجماعته، فهذا مخل بعمومية العدل، كما يقول أمير

---

٢٦٨. نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٢.

المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وأعمها في العدل»، فيجب أن تكون في العدل عمومية، ويجب أن تكون مواقف المسؤول ومشاريعه وخطواته عادلة، ويجب أن يكون العدل في كل شيء.

فالحريات العادلة لا يكون فيها ضيق على البعض وفسحة للبعض الآخر، فهذا ليس عدلًا، ولا يمكن أن يحقق نجاحًا في المنظومة القياديّة، بل يجب أن يكون العدل حاضرًا في فهم الحريات، وفي تعريف هذه الحريات، وفي تمكين الناس من حقهم في الحرية، ولكن بعدالة وضوابط تسري على الجميع دون استثناء.

ويجب أن تكون في الالتزام بالقانون عمومية العدل أيضًا، فيكون لعموم المواطنين ولا يستثنى منه أكابر المسؤولين والخواص من الناس ومن لديه وساطة، وعدم العمومية في العدل لا يحقق نجاح المنظومة القياديّة.

ويجب أن تكون الحقوق عادلة للجميع، لا أن نأخذ كل الحقوق ونعطيها للصديق، ونسلب من البعيد حقوقه بقدر ما نستطيع. وكل منظومة قياديّة تمارس عملها بهذه الطريقة مآلها إلى السقوط. فالأب مثلًا حينما لا يوزع ماله بين أبنائه بشكل عادل تسقط هيبته أمام عائلته، وهكذا في كل منظومة قياديّة.

وكذا أن تكون العدالة في الامتيازات، فلا تستأثر بها طبقة دون أخرى، ويجب أن تردم الفجوة بين الناس، ويجب أن يحظى الجميع ضمن قدراتهم ومواقعهم بفرص متساوية، فيعطى كل إنسان بحسب قدرته وكفاءته الدور الذي يقوم به، والمهام المناطة به.

ويجب أن تكون هناك عدالة في الممتلكات، فلا يعطى الوزير ستمائة متر على نهر دجلة، بينما لا يملك المواطن العادي قطعة أرض صغيرة يمكن أن يشيد عليها دارًا، أو يُمنح الموظف قطعة أرض في الصحراء، بينما يُعطى المدير قطعة أرض في مكان تجاري!، هذا ليس عدلًا في توزيع الفرص. والعدل في الامتيازات وفي الممتلكات هو المدخل الصحيح لإنجاح المنظومة القياديّة.

وقد يتساءل البعض: لماذا واقعنا بهذه الصورة؟، لماذا لا تُرتب أمورنا؟. والجواب هو لأننا لا نسلك الطريق الصحيح، ولا نأخذ النتائج الصحيحة، فالمقدمات الخاطئة لا توصل إلى نتائج صحيحة؛ لذلك إذا أردنا إصلاح أمورنا يجب أن نعود إلى هذه الرؤية الإسلاميّة في القيادة كما يذكرها علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وينبغي أن تتحقق العدالة في المهام والمسؤوليات، فيعين الكفوء والقدير والخبير بالمهمة والمسؤولية اللائقة به، ومن كان أكفأ وأقدر هو الذي يجب أن يتمتع بالفرصة الأكبر.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في حكمة له: «سئل عَلَيْهِ السَّلَامُ: أيهما أفضل، العدل أو الجود؟ فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: العدل يضع الأمور في مواضعها» أي كل واحد تعطيه ما يناسبه، «والجود يخرجها من جهتها» أي تضيف عليه أكثر من حقه وأكثر مما يستحق لسبب من الاسباب، «والعدل سائس عام» أي يجب أن يشمل العدل الجميع، فعندما يحدث توزيع عادل يحصل الجميع على حصة وفرصة. «والجود عارض خاص» وأما الجود فلا يشمل الجميع، بل يختص بالشخص الذي تجود عليه، «فالعدل أشرفهما وأفضلهما»[٢٦٩].

أي إذا قسنا العدل بالجود يكون الجود خاصًا ببعض الناس؛ فيعيش البعض تخمة بينما يبقى البعض الآخر محرومًا، فالعدل أولى لأنه يعم الجميع. ومحل الجود بعد العدل، فعندما يطبق العدل، ويبقى واحد كان قد عمل أكثر وقدم أكثر، فهنا يأتي الجود ليكافئه، ولكن لا على حساب الآخرين، أي لا أن تقطع من أحد وتعطيه إلى آخر.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في حكمة له: «من كمال السعادة السعي في صلاح الجمهور»[٢٧٠]. كيف نستطيع أن نبني أمة صالحة؟ وكيف نستطيع أن نوجد حقوق المواطنة الصالحة؟. إن السعادة هي نجاح المنظومة القياديّة، أي حينما يشعر الجميع بالراحة والاطمئنان، ولا يشعر أحد أنه مظلوم، فإن الشعور بالمظلومية يؤدي إلى ردة فعل، وردة الفعل تواجه بفعل معاكس. إن الذي يحقق الاستقرار هو شعور الجميع بالحصول على فرصته واطمئنانه، وبالتالي النجاح في المنظومة القياديّة.

إن العدالة في رؤية الإسلام هي حقيقة واحدة لا تقبل التجزئة، فلا يمكن تحقيق العدالة الاجتماعيّة من غير تحقيق العدالة الاقتصاديّة؛ إذ كيف يمكن تحقيق عدالة اجتماعية من دون أن توزع الثروة بشكل عادل على الشعب؟!.

وكذا لا يمكن تحقيق العدالة الاجتماعيّة والعدالة الاقتصاديّة من غير تحقيق العدالة السياسيّة؛ إذ لا يمكن وجود عدالة في الجانب السياسيّ وتوزيع الأدوار بشكل صحيح ما لم تتحقق العدالة الاجتماعيّة والاقتصاديّة. وكذلك لا يمكن تحقيق العدالة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة ما لم تتحقق العدالة القضائية، فهذه جميعًا حقيقة واحدة متكاملة، وأما إذا انخرم أحد هذه الجوانب فستنخرم العدالة برمتها؛ لأن العدالة هي وضع الشيء في موضعه.

٢٦٩. نهج البلاغة: الحكمة ٤٣٠.

٢٧٠. غرر الحكم ٦: ٣٠.

المبدأ الثالث : رضا الناس

يجب أن يستطيع الموقف والقرار والسياسات والخطط والمشاريع استيعاب المساحة الأوسع من رضا الناس. ولا يتحدث علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن رضا الجميع ؛ لأن رضا الناس غاية لا تُدرك ، حتى الأنبياء والأوصياء والمصلحون حينما توفرت لهم الفرص للإصلاح لم يستطيعوا أن يحققوا رضا عامة الناس على الإطلاق ، فدائمًا كان هناك من يعترض ، وهذه حالة طبيعية ؛ لأن الناس على أصناف ، فبعضهم انتهازيون ، وبعضهم لهم مطامع ، وبعضهم لهم نظرة أحادية للأمور ولا يقتنع إلا إذا حصل على شيء. ولذلك يهدف المبدأ الإسلامي إلى تحقيق رضا المساحة الأوسع من الناس، وليس من الضرورة تحقيق الإجماع الكامل على موقف القيادة والمسؤول .

إذن ، في نهج علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي يمثل فكر الإسلام الأصيل ، يكون الشعب هو مالك الدولة ، والدولة يجب أن تكون في خدمة الشعب ، وملبية لمطاليبه ، ومعالجة لمشاكله وأزماته ، وواقفة عند همومه . والدولة التي تخدم شعبها وتحقق الرضا لعموم مواطنيها هي الدولة التي يمكن أن تحظى بالنجاح ، ولكن الدولة التي لم يرض الناس عنها لا يمكنها تحقيق النجاح ، وهي تتلكأ وتقع في الظلم ، كما أشرنا في مقاطع سابقة في هذا العهد الشريف .

الشعب هو الحاكم والمالك ومن بيده القرار ، وهذا هو منهج علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في التصدي والمسؤولية .

وقد روى الشيخ المجلسي أنه لما قُتل عثمان أقبل الناس على الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتكاثروا عليه يطلبون مبايعته ، وهو يأبى ذلك ويقول : «دعوني والتمسوا غيري»[٢٧١] ، فهل كان رفضه هذا لزهد في خدمة الناس ، أو لزهد في التصدي لمواقع المسؤولية ، أو فرارا من الزحف ، أو تلكؤا في الأداء؟ ، حاشا أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن تنطبق عليه هذه الصفات .

فهؤلاء أكابر الصحابة اليوم يقولون يا علي أنت لها ، وعلي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يأبى ذلك ؛ لأنه لا يجد شروط النجاح متوفرة ، فالأمة تتقاسمها تيارات لها مصالح ومآرب خاصة ، وكل منها يريد خلافة علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمصلحة ومطمع في نفسها .

وهنا لا نتحدث عن الجميع ، وإنما عن الذين كانوا يريدون توليه الخلافة بعد عثمان ، وأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يعرف أن هؤلاء الانتهازيين لا يدعونه يعمل بجد وبشكل

٢٧١ . بحار الأنوار ٣٢ : ٧ .

صحيح يرتضيه الله تعالى، لئلا ينجح، وكان حينما يجد الجد ويتخذ القرارات الصحيحة تبدأ الإشكالات والتشويشات من قبل هؤلاء. فالحكم ليس مغنمًا ووجاهات وامتيازات، بل الحكم مسؤولية وأمانة كما ذكرها علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مقاطع سابقة.

وهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما يقول «دعوني والتمسوا غيري» يعني أنه لا يريد هذه الخلافة بهذه الشروط التي لا تؤدي إلى النجاح في المهمة المقدسة.

ثم يبين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ السبب الذي دعاه إلى رفض تولي المسؤولية، يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «فإنا مستقبلون أمرًا له وجوه»، أي نحن داخلون في معترك والتباسات، وسوف تختلف اجتهاداتكم، ولا تستطيعون التماشي مع الرؤية الحقة للمشروع، فابحثوا عن الشخص الذي تسيّرونه كما تريدون.

ثم يوضح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الصفة الأولى لهذا الأمر بأنه: «لا تثبت عليه العقول». فعلي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتحرك وفق ثوابت ومبادئ، وأما الآخرون فإنهم يتحركون وفقًا لمبادئ ترتبط بمصالحهم، ولذلك سوف تختلف تقديراتهم لهذه المصالح من حالة إلى أخرى.

ثم يوضح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الصفة الثانية لهذا الأمر فيقول: «ولا تكن له القلوب»، أي أن المشاعر والعواطف لا تنسجم تمامًا مع النهج الذي يقدمه علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو منهج الحق، فالحق ينصف المظلوم من الظالم، والحق يعطي الفرصة لهذا مرة ولذاك مرة أخرى. فالقلوب تختلف حينما تكون المعايير حقة.

فرفض الناس ما يقوله علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقالوا: «ننشدك الله ألا ترى ما حدث في الإسلام!»، أي لقد تشوهت صورة الإسلام، والناس لا يعرفون الحق والقانون والصحيح والخطأ، وكل يطلب الحق لنفسه.

ثم قالوا: «ألا تخاف الله!». يا علي أنت أمير المؤمنين ألا تخاف الله حين تتركنا في هذه الظروف الصعبة؟!، فهؤلاء يظنون أن عليًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتحجج ويستغل الموقف وغياب البديل حتى يرفع من سقف شروطه ويحصل على المزيد من الامتيازات!.

«فقال: قد أجبتكم»، أي لم أكن متنصلًا عن الواجب الديني، وإنما ما أراه فيكم يجعلني أعتقد بأن طريقي في الإدارة لن يكون مجديًا معكم، وأعلم أنكم لن تلتزموا به وربما نختلف.

ثم يواصل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كلامه معهم فيقول: «واعلموا أني إنْ أجبتكم ركبت بكم ما أعلم»، فلن استطيع أن أسير بكم وفقًا لشهواتكم ورغباتكم، وحينما أصبح خليفة للمسلمين سوف أطبق المعايير والضوابط والشروط الإسلاميّة فيكم، فدعوني جالسا

في بيتي وسوف أعطي النصائح للخليفة الجديد كما أعطيت النصائح والإرشادات للخلفاء السابقين؛ لأني لا أعمل إلا بالمبادئ الإسلاميّة الصحيحة، وقد لا تنسجم مع طموحاتكم ورغباتكم، فأنا علي أعمل بالحق والعدل، ولا أخاف في الله لومة لائم.

ثم يقول لهم: «وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم»، وسوف لن أتآمر عليكم، وأترك المجال لكم، لا أريد أن أضعفكم أو أكون حجر عثرة، فلا تحملوني المسؤولية، فأنا كواحد منكم لا أكثر.

فعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس عنده مساومة أو مجاملة، حكم المسلمين بالنسبة لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ بقدر ما يستطيع أن يحل مشكلة ويعيد الأمور إلى نصابها، فهو كمنهج ومبدأ وعقيدة وإطار، يبحث عن دوره في خدمة الناس شريطة الالتزام بالمعايير الإسلاميّة الحقة، فليس عند علي عَلَيْهِ السَّلَامُ خصوصية لأحد إلا بالحق، وإذا سلمتم الراية له فلديه ثوابت لا يتخطاها، فالتكليف والمواقف الشرعيّة هي التي تحرك علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم يبين موقفه في ظل الحكم الجديد: «بل أنا أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم». فرفضوا ذلك وأصروا على مبايعته خليفة للمسلمين. «فقالوا: ما نحن بمفارقيك حتى نبايعك»، بعد أن قال لهم كل هذه الشروط ووضعهم تحت الأمر الواقع وتفحص أمرهم، قالوا له إننا نقبل بكل ما تقوله ونبايعك يا علي. وهنا اكتملت الحجة بعد أن صارحهم بمنهجه وطريقته في الإدارة والقيادة.

فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن كان لا بد من ذلك ففي المسجد». أي أنتم أيها النخب والمفاوضون والكتل السياسيّة قبلتم، ولكن المهم كلمة الشعب في المسجد، وليس خلف الأبواب المغلقة، لنرى الناس ماذا تقول في المسجد، وما رأي الجمهور والشعب والمواطن.

معللًا ذلك بقوله: «فإن بيعتي لا تكون خفية، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين وفي مرأى وفي جماعة». وقَبِل بتولي الخلافة بشرط وجود رأي عام مساند، لأنه إذا لم يكن هناك رأي جامع لا يكون هناك نجاح.

«فقام والناس حوله فدخل المسجد، وانهال عليه المسلمون فبايعوه». وهذا هو منهج علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذه هي السياقات والضوابط التي يضعها لإنجاح المنظومة القياديّة. فمنذ اليوم الأول أشعر الناس أنهم هم الأساس والقاعدة، وأن الشعب هو الحاكم وهو المالك وهو من بيده القرار. هذا هو المنهج الذي وضعه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في التصدي للعمل السياسيّ.

ويقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في موضع آخر: «إن هذا أمركم (أي الحكم، لأن حكم الشعب للشعب وهو المالك وهو الحاكم) ليس لأحد فيه حق إلا ما أمرتم». وفي منهج المرجعية نرى أنها دعمت الانتخابات، ثم بعد انتظام الأمور، كانت أول من نادى بالقائمة المفتوحة؛ لأن القائمة المغلقة تجعل كل حزب يأتي بجماعته بغض النظر عن رأي الناس، فيصوت الناس ولا يدرون لمن تذهب أصواتهم، أما القائمة المفتوحة فيكون التصويت لمن يريدهم الناس، وهم يتحملون المسؤولية في خيارهم.

بالإضافة إلى أن القائمة إذا كانت مفتوحة لا يستطيع أحد من المنصفين أن يلوم المرجعية؛ لأن الاختيار كان للناس ولأن المرجعية لم توجه إلا للانتخابات. إذ الانتخابات تعني تحمل المسؤولية، وتعني أن يأخذ المواطن حقه، وأما لمن يعطي صوته، فإن المرجعية لا توجه بذلك، ويعود الأمر إلى اختياره، بل لعل البعض استغرب وقوف المرجعية على مسافة واحدة من الجميع حتى تبرئ ذمتها أمام الله تعالى وأمام التاريخ وأمام الشعب.

وقد يكون في نظرها من هو أقرب ومن هو أبعد، فهذا ممكن، وكل إنسان لديه تقييمات، والمرجع ليس استثناء عن هذا المبدأ، والمرجع الذي عنده مبادئ وقيم تكون تقييماته مبدئية على ضوء القيم والمبادئ والثوابت، ولكنها كانت على مسافة واحدة، حتى يتحمل الجميع مسؤولياتهم.

واليوم لا يستطيع أحد أن يعتب على المرجعية في أي شيء، فإن تحقق إنجاز فهو لنا وللمرجعية؛ لأنها نادت بالانتخابات وشجعتنا عليها، وهي مشكورة على كل إنجاز، وأما إذا أخطأنا الاختيار، فإن حسن المشاركة للمرجعية وسوء الاختيار مردود علينا، ولا تتحمل المرجعية ذلك. وعلى كل حال، فهذا هو المبدأ الذي يضعه علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في التعامل وفي التصدي لموقع المسؤولية.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا حول هذا الموضوع: «فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلي، ينثالون علي من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان، وشق عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢٧٢]، بلى والله لقد سمعوها ووعوها ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها. أما والذي فلق الحبة وبرأ

---

٢٧٢. سورة القصص: الآية ٨٣

النسمة لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»[٢٧٣].

يتحدث امير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا النص المبارك عن موضوع بيعة المسلمين له خليفة، ويستعمل عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا مفردة الروع في قوله «وما راعني»، وهو الرهبة والخوف. و«عرف الضبع» العرف هو الشعر الكثيف في رقبة الضبع، كناية عن شدة الزحام. أي حصلت له حالة من الرهبة من كثرة التدافع عليه في يوم البيعة.

و«ينثالون علي» أي يتقاطرون علي من كل جانب، فالناس كلها ملتفة حول علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وجاءت تريد مبايعته خليفة عليها. «حتى لقد وطىء الحسنان» أي سحق الحسن والحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بأقدام الناس، إذ كانا آنذاك صغيرين في السن. «وشق عطفاي» أي مزق ثوبه من جانبيه نتيجة الزحام. «مجتمعين حولي كربيضة الغنم»، أي اجتمعوا حوله كما تجتمع الغنم على الماء، إشارة إلى استفتاء شعبي كاسح.

ثم يتحدث عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الخيانة التي حصلت بعد إتمام البيعة والنهوض بالأمر: «فلما نهضت بالأمر» أي عندما أصبح الكلام حقيقة وبدأ تطبيق منهج الإسلام الأصيل في إرساء قواعد العدالة والإنصاف وعدم التمييز، «نكثت طائفة» والناكثون هم الذين خرجوا ونقضوا البيعة، في إشارة إلى أصحاب الجمل طلحة والزبير. «ومرقت أخرى» والمارقون هم الخوارج، في إشارة إلى حرب النهروان. «وقسط أخرون» أي جاروا، في إشارة إلى معاوية وحرب صفين.

وكأن الناكثين والقاسطين والمارقين لم يسمعوا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢٧٤]، فهؤلاء كلهم خرجوا يريدون الاستكبار والفساد في الأرض، فحرموا بسبب ذلك من نعيم الآخرة التي جعلها الله تبارك وتعالى للذين يسيرون على الطريق الصحيح ويقبلون بالعدل والإنصاف، وكأنهم لم يقرؤوا هذه الآية الشريفة.

ثم يستدرك علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ويقول: «بلى والله لقد سمعوها ووعوها» أي عرفوها، وعندما يريدون شرحها يشرحونها أفضل من الآخرين، ولديهم قدرة عالية على الإقناع وإيضاح هذه

---

٢٧٣. نهج البلاغة: الخطبة ٣.

٢٧٤. سورة القصص: الآية ٨٣.

المبادئ، وليس لديهم مشكلة نظرية، فالرؤية واضحة جدًا. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يسيروا مع علي عَلَيْهِٱلسَّلَامُ؟.

وهنا يبين عَلَيْهِٱلسَّلَامُ السبب فيقول: «ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم»، أي رأوا الدنيا جميلة فآثروها على الآخرة. «وراق لهم زبرجها» أي أعجبتهم زينة الدنيا، التي تتمثل في أيامنا هذه بالسيارات الحديثة والخدم والحشم والإمكانات والمكاتب اللطيفة والمرفهة والقصور والخدمات والامتيازات والإيفادات، فاستأنسوا بها وارتاحوا لها. فليست المشكلة أنهم لا يعرفون، بل هم يعرفون جيدًا، ولكن الدنيا لا تدعهم يسيرون على طريق الصواب والصلاح.

ثم يبين عَلَيْهِٱلسَّلَامُ الأسباب التي دعته إلى تحمل المسؤولية، فيقول: «أما والذي فلق الحبة» يُقسم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بالله الذي فلق الحبة فأخرج منها الزروع والثمار. «وبرأ النسمة» أي خلق البشر. «لولا حضور الحاضر» أي لولا هذه البيعة الشعبية، ولولا الناس المساكين، ولولا المواطنون الذين جعلوا أملهم في علي بن أبي ليعمل لهم شيئًا، «وقيام الحجة بوجود الناصر» أي، لولا وجود أناس مخلصين طيبين مستعدين للتضحية، ولا يريدون مصلحة ولا يبحثون عن الدنيا، بل يريدون الآخرة، ويريدون الحق والعدل، ولا يطلبون من علي شيئًا، وهم مستعدون لنصرة المشروع، وليس لديهم حسابات ضيقة ولا حسابات مادية، لولا وجود هؤلاء. «وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقاروا على كظة ظالم»، أي، لولا العهد الذي قطعه الله سبحانه مع العلماء ألاّ يقبلوا على تخمة ظالم، والتخمة إشارة إلى البطر والاستئثار. «ولا سغب مظلوم» السغب: شدة الجوع، وجوع المظلوم يعني هدر الحقوق، أي أن حقوقه مهدورة، فقد أخذ الله تعالى على العلماء أن يقفوا مع المظلوم لاسترجاع حقه من الظالم.

إذن، فالأسباب التي دعت أمير المؤمنين عَلَيْهِٱلسَّلَامُ للتصدي وتحمل المسؤولية هي: قيام الحجة الشرعيّة، ووجود الناس الشجعان والمخلصين، وإرادة الشعب والاستفتاء العارم للناس، وما أخذه الله على العلماء أن يقفوا لنصرة المظلوم. «لألقيت حبلها على غاربها»، استعار أمير المؤمنين عَلَيْهِٱلسَّلَامُ هنا صورة نزول الفارس من صهوة جواده وإلقائه الحبل على الفرس، لتركه الأمة وشأنها، أي، أن يترك القضية كلها، فهو ليس طالب دنيا ولا ساعيا وراء شيء من حطامها، وإنما التكليف الشرعي هو الذي جاء به ليكون في موقع التصدي والمسؤولية.

«ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»، فالدنيا عند علي عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ليس لها قيمة، وإن الأساس رضا الناس وتحقيق العدل والإنصاف. وهذه هي النظرية التي طرحها الإمام علي عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في الحكم و الإدارة.

ويقول عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «دخلت على أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بذي قار وهو يخصف نعله ـ أي يصلحها ـ فقال لي: ما قيمة هذه النعل يا ابن عباس؟ فقلت: لا قيمة لها. فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: والله لهي أحب إلي من أمرتكم، إلا أن أُقيم حقًا أو أدفع باطلًا».

وهذا ما جعل الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اسطورة، لقد قالها وكان يؤمن بها، وليس هذا كلام سياسي يقول بلسانه خلاف ما يضمر في قلبه، فعلي بن أبي طالب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صريح وواضح، وهذه الدنيا في منطق علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهذا الحكم والكرسي ليس لها قيمة نعل بالية، إلا أن يقيم عدلًا ويدافع عن حق أو يوقف ظالما عند حده ويدفع باطلًا.

«ثم خرج وخطب الناس، فقال: ما لي ولقريش!» فأنا من قريش، وأنا ابن قريش، وليس لدي مشكلة مع قريش، ولست حاسدا لقريش، فأنا ليس لدي عُقدة حقارة لكي أحقد على قريش وتأريخها وأصالتها، فمالي ولقريش. «والله لقد قاتلتهم كافرين» حينما حملت السيف بوجه قريش؛ لأني أردت أن أصلح الانحراف، لقد كانوا كفارًا لا يؤمنون بالحق والعدل. «ولأقاتلنهم مفتونين» واليوم إذ أقف بوجوههم فلأن لديهم تطلعات ومطامع ورغبات ما أنزل الله بها من سلطان.

لقد أصبح لديهم طموحات في أخذ الحكم، فإن القضية مبدئية، وفي اليوم الذي يقف فيه علي بن أبي طالب ويعترض، فهذا الاعتراض لم يكن لأحقاد أو لقضايا شخصية، بل هذه قضية مبدئية. «وإني لصاحبهم بالأمس» فأنا ابن قريش بالأمس. «كما أنا صاحبهم اليوم» وأنا اليوم ليس لدي مشكلة شخصية معهم، فهم إخوتي وأجلس وأتحدث معهم، وإذا اعترضت عليهم فالاعتراض ليس لقضية شخصية، بل على خلفية ابتعادهم عن المنهج القويم وعن العدالة والإنصاف الذي طلبه الله سبحانه وتعالى من المسؤول والمتصدي، وهذه مشكلتي معهم.

«والله ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم» فمشكلة قريش معنا حسدهم لعلي بن أبي طالب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأهل البيت عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ؛ لأن الله اختارهم وجعل فيهم الوجاهة والمنطق والعلم والإنصاف وجعل فيهم محبة الناس، ولذلك هم يحقدون علينا. «فأدخلناهم في حيزنا»[٢٧٥] يوم جاءنا الناس فتحنا أبوابنا، وقلنا يا قريش تفضلوا، لا نريدها لنا وحدنا، فحقدوا علينا.

---

٢٧٥. نهج البلاغة: الخطبة ٣٣.

المقطع التاسع

المبعدون

يقول أمير المؤمنين عَلَيهِالسَّلامُ

«وَلْيَكُـنْ أَبْعَـدَ رَعِيّتِـكَ مِنْـكَ ، وَأشْـنَأَهُمْ عِنْـدَكَ ، أَطْلَبُهُـمْ لِمَعَائِـبِ النّـاسِ ، فـإنّ فـي النّـاسِ عُيُوبًـا ، الْوَالِـي أَحَـقُّ مَـنْ سَـتَرَهَا ، فَـلاَ تَكْشِـفَنّ عمّـا غَـابَ عَنْـكَ مِنْهَـا ، فَإنّمَـا عَلَيْـكَ تَطْهِيـرُ مَـا ظَهَـرَ لَـكَ ، وَاللهُ يَحْكُـمُ عَلَـى مَـا غَـابَ عَنْـكَ ، فَاسْـتُرِ الْعَـوْرَةَ مَـا اسْـتَطَعْتَ ، يَسْـتُرِ اللهُ مِنْـكَ مـا تُحِـبُّ سَـتْرَهُ مِـنْ رَعِيّتِـكَ .

أَطْلِـقْ عَـنِ النّـاسِ عُقْـدَةَ كُلِّ حِقْـدٍ وَاقْطَـعْ عَنْـكَ سَـبَبَ كُلِّ وِتْـرٍ وَتَغَـابَ عَـنْ كلِّ مَـا لاَ يَضِـحُ لَـكَ ، وَلاَ تَعْجَلَـنّ إلـى تَصْدِيـقِ سَـاعٍ ، فَـإِنّ السّـاعِيَ غَـاشٌ ، وَإِنْ تَشَـبّهَ بِالنّاصِحِيـنَ» .

الدرس التاسع والعشرون

صفات وسمات المبعدين

(طلاب العيوب)

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر: «وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ، وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَائِبِ النَّاسِ، فإِنَّ في النَّاسِ عُيُوبًا، الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلاَ تَكْشِفَنَّ عَمّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ، يَسْتُرِ اللهُ مِنْكَ ما تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ».

يتحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع الشريف من عهده لمالك الأشتر عن أولى الصفات السلبية التي يجب ألاّ توجد في المستشار، وهي تتبع عيوب الآخرين. ويجب على الحاكم والمسؤول أن يترك الإصغاء إلى ما ينقله البعض ممن يتتبع عثرات الناس، ويحذره من تقريب مثل هؤلاء، بل يقول له ليكن هؤلاء أبعد الناس منك وأبغضهم إليك، وهم مجموعة من مرضى النفوس التي تسخر طاقتها لتتبع عثرات الآخرين والتفتيش عن عيوبهم، ويكتبون بها التقارير ويرفعونها إلى السلطات للوشاية بهم وليقطعوا بها الرقاب والأرزاق.

ومثل هذه الفئة مقربة عند حكام الجور، بل هم عماد سلطانهم. ولكن في مدرسة الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يوجد لهؤلاء مكان في دولته، بل يوصي عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يكونوا أبعد الناس وأبغضهم عند ولاة العدل، وكلما أُبعدوا سلمت إدارة الدولة وقيادتها.

إن أصحاب التقارير الكيدية ونقلة أخبار السوء إلى الحكام والمسؤولين، ليحرضوهم على الناس، ويكشفوا عن عثراتهم إليهم، هم في الحقيقة يعزلون المسؤولين عن الناس، ويبنون بينهما جدارًا من الشكوك والشبهات وسوء الظن، وسيشعر المسؤول في لحظة أنه معزول عن الشعب، كدودة القز التي تلف نفسها في شرنقة من عملها فتعزل نفسها عن محيطها الذي تعيش فيه. ولهذا يجب إبعاد هذه الشرذمة وطردها لأنها الخطر الحقيقي.

أولوية المسؤول في ستر العيوب

ثم يبين أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أولوية الحاكم والمسؤول في ستر عيوب الناس: «فإن في الناس عيوبًا الوالي أحق من سترها»، فالناس خطاؤون وليسوا بمعصومين، وكل واحد منا لديه عثرة وعيب وكبوة، ولا يخلو منها بشر إلا من عصم الله، فإن الله سبحانه يبتلي عباده بشتى أنواع البلاء، وما هذه الدنيا إلا دار بلاء وامتحان، فالله جل جلاله يبتلي الإنسان بنفسه وأولاده وشؤونه الخاصة، وهذه سُنة الحياة.

والحاكم والمسؤول والمتصدي أولى بستر هذه العيوب، حتى لا تخرج هذه الرائحة النتنة، وحتى لا تبين إلى الناس، وحتى لا ينكسر صاحبها في المجتمع. لا أن تنكشف في الأخبار العاجلة وعبر الفضائيات والوثائق التي لا نعرف الحقيقية فيها من الكاذبة، والتي تطول الناس وأعراضهم.

والوالي والمسؤول هو أحق الناس وأولاهم بستر هذه الأخطاء والعثرات. والكلام هنا ليس عن الكيدية والتلفيق، بل عن حدث حقيقي ومشكلة، وكيف يغطيها المسؤول.

نهي المسؤول عن تتبع العيوب

ثم ينهى أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الحاكم والمسؤول من تتبع عثرات الناس وعيوبهم، فيقول: «فلا تكشفن عما غاب عنك منه»، أي لا ينبغي للمسؤول البحث عن العيوب الخفية للناس، وعدم كشف ما هو مغطى ومستور منها، فليس من حق المسؤول أن يضع جهاز تنصّت ليراقب الاتصالات الهاتفية للناس، أو ينصب كاميرات خفية في منازلهم ليطلع على خفايا حياتهم الشخصية. فلا يجوز البحث عن أسرار الناس وكشف حياتهم الخاصة.

وظيفة الحاكم تطهير العيوب الظاهرة

ثم يبين علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الموقف الصحيح للحاكم إزاء العيوب، ويقول إن وظيفة الحاكم هي تطهير المجتمع من العيوب الظاهرة فقط، وأما العيوب المستورة والخفية عن أنظار المجتمع فيترك أمرها إلى الله سبحانه. يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «فإنما عليك تطهير ما ظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك». إذن، هناك سيئة وموبقة والعياذ بالله تظهر بنفسها، ويجاهر صاحبها بها أمام أعين الناس بلا خجل وحياء، وانكشفت للناس وعرفوا بها

وتداولتها ألسنهم، فهنا يجب على الحاكم أن يتخذ موقفًا صارمًا للحد منها وتطهير المجتمع من آثامها.

القاعدة العامة في تعامل الحاكم مع العيوب

يقرر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله: «فاستر العورة ما استطعت» القاعدة العامة في التعامل مع العيوب، فالأساس هو الستر وليس الكشف. ويجب على المسؤول لو اطلع على عيب شخصي بحكم مسؤوليته أن يستره ولا يتعرف عليه الناس، وأما إذا انكشفت العيوب من نفسها وعُرفت في المجتمع أو كان صاحبها من المتجاهرين بها، فحينئذ على المسؤول محاسبة مرتكبها والتقليل من أضرارها الاجتماعيّة. وهذا هو الأساس في التعاطي مع العيوب والذنوب في المجتمع.

ثم يوضح عَلَيْهِ السَّلَامُ العاقبة الجميلة للستر فيقول: «يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك»، فيجب على المسؤول حينما يرى إنسانا تحت مسؤوليته في وزارة أو في شركة أو ما شابه قد ارتكب خطأ، وكان مستورًا وتعرف عليه بحكم موقعه، أن يتعامل مع صاحبه كما يحب أن يتعامل الله تعالى مع ذنوبه التي عملها خفية، فلا شك في أنه يحب أن يستر عليه، وسيجازيه الله تعالى بالستر على ذنوبه بالفعل لو ستر هو على ذنوب الآخرين التي ارتكبوها في السر.

وليعلم المسؤول أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل، وليتق الله سبحانه في خلقه، فإنه له بالمرصاد، ولو كشف اليوم ذنبًا لشخص وهو في موقع القدرة والمسؤولية فإن الله تبارك وتعالى يسلط عليه من يكشف عيوبه وذنوبه، إذ هو ليس أقل خطأ وخطيئة من الآخرين، وليعلم أن موقع المسؤولية الذي هو حافظه اليوم لا يبقى له للأبد، فلو دامت لغيره ما وصلت إليه، وحتى لو بقيت فإن الله عز وجل يقيض لك أناسًا يشيعون ويشهرون بأخطائك في الأمصار وعلى رؤوس الأشهاد.

إذن، فكيفما تريد أن يتعامل معك الله تعالى تعامل أنت بنفس الطريقة مع من هو دونك في مساحة مسؤوليتك، ارحم تُرحم، وأستر تُستر، واهتك ستر غيرك يُهتك سترك. وهذه هي السنة الإلهيّة، كما تدين تُدان. فعلى المسؤول ألاّ يبحث عن مستشارين يبحثون عن أسرار الناس وينقلونها إليه ويحرضونه على الآخرين. وهذا درس بليغ في صفة مهمة من صفات المستشار الذي يحتاج إليه المسؤول إلى جانبه.

وهنا مجموعة الإضاءات التي يمكن استفادتها من هذه الكلمات القيمة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

الإضاءة الأولى

رفض مبدأ تتبع الأخطاء

لا يحق للمسؤول أن يبحث عن المستور من حياة الناس أو يتجسس ويتنصت ويتلصص ليكتشف أسرارهم، فإن لكل شخص أسراره وأخطاءه ومشاكله، وليس من حق أحد أن يبحث عنها. ومعيار المنظومة القياديّة المبنية على أساس الاستقامة والثبات هو المودة والمحبة، فكشف الأسرار وفتح ملف الفضائح وإبراز الأخطاء تتقاطع مع هذا المبدأ، وسوف لا يقفون صامتين ومكتوفي الأيدي، بل سيدافعون عن أنفسهم؛ إذ لا يقبل أحد بأن تنكسر شخصيته وتشوه سمعته.

وهذا سيربك صفو العلاقة في المجتمع، وهو يعني المزيد من التراشقات والأزمات، وهكذا تستمر وتتسع مساحتها يومًا بعد يوم حتى توصل المجتمع إلى الهاوية.

ويخطئ من يظن أنه يقوى بفضح أسرار الناس، بل يُضعف نفسه ويعزلها، فحينما يُخرج ملفًا عن هذا أو ذاك ويكشف عن أسرار الناس فإن الروابط القلبية والعلاقة الإنسانيّة تتصدع وترتبك.

وعندما يبدأ المسؤول بكسر الحواجز والدخول إلى عالم المحظور ويكشف عن نقاط ضعف الآخرين، يتشجع من حوله بالبحث عن أخطاء الناس، ويتحول همهم إلى الحصول على معلومة أو خطيئة أو مخالفة عن الناس.

والذي لا يملك معلومة يوظف أناسا حتى يأتوا بمعلومة، فتشيع ثقافة كشف الأسرار والفضائح، وهذه قضية تؤدي إلى عزل المسؤول عمن سواه وإشاعة حالة من سوء الظن، فلا يعود المسؤول يثق بأحد، ويخاف حتى من أقرب الناس إليه، فيعيش نظرية المؤامرة؛ يلتفت يمينًا فيشعر بالخطر، ويلتفت شمالاً فيشعر بالخطر، فتؤدي هذه إلى إشكالية كبيرة وخوف ورعب من حيث لا يعرف؛ لأنه قطع الجسور والصلات التي تبنى بشكل طبيعي بينه وبين الناس.

وفي تأييد هذا المعنى يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من تتبع خفيات العيوب حرمه الله سبحانه مودات القلوب»[٢٧٦]، فمن يبحث عن عيوب الناس يحرمه الله سبحانه في المقابل من مودتهم، وعندما يفقد الإنسان العواطف والمشاعر والمودة يتحول قلبه إلى حجر، ويكون قلبه قاسيًا ويحرمه الله تعالى من الأحاسيس الإنسانيّة. وهذا أثر وضعي من آثار تتبع عيوب الناس وهفواتهم.

ولذا على المسؤول إذا أراد النجاح في مهمته أن يُبعد عنه الواشين والنمامين، وألاّ يسمح لأحد أن ينقل له فضائح الناس وأسرارهم. ولو حاسب المسؤول واحدًا من هؤلاء فسوف لا يجرؤ أحد على أن يتكلم بمثل هذا الكلام، وسيقضى على هذه الحالة المرضية الخطيرة. والأخطر منها إذا تحولت إلى ثقافة في المجتمع، فيتكلم كل شخص عن سيئات الآخر.

ونلاحظ أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يستعمل في هذه العبارات الكريمة (أفعل التفضيل)، فيقول: «أبعد رعيتك» أي ليس البعيد بل الأبعد، «وأشنأهم» أي ليس البغيض بل الأبغض. وما نفهم من (أفعل التفضيل) هذه أن أبغض المستشارين وأسوأهم هو الذي ينقل أسرار الناس إلى الحكام والمسؤولين.

وفيها إشارة إلى خطورة هذه الثقافة وتأثيراتها المدمرة في المجتمع، وأنها إذا نمت في داخل المنظومة القياديّة فستكون بمثابة الغدة السرطانية التي تنتشر بسرعة، وملؤها القيح والنتن، ورائحتها الكريهة ستشمل كل مكان وستملأ الأجواء، وسيشعر الإنسان بعجزه عن معالجة هذه الظاهرة.

وإذا أمكن اكتشاف هذه الغدد منذ البدء، نستطيع السيطرة عليها، وإذا تأخر انتهت المنظومة القياديّة، حين زرعت فيها مثل هذه الغدد السرطانية من إشاعة عثرات الناس وأخطائهم، وستكون سببًا في القضاء على هذه المنظومة من حيث لا يشعر المسؤول.

وهنا لا يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ للمسؤول: أبعد من ينتقدك من الناس أو يعترض عليك، بل يقول له: أبعد هؤلاء الملتصقين بك ممن يظهر لك مساوئ الناس. إذن الاعتراض يمكن أن يُقبل، والنقد يمكن أن يُسمع، ومن يعترض يُحسن الظن به، وقد يكون هذا الاعتراض ناشئًا من الحرص على المساحة التي يتصدى المسؤول لها، وقد تكون هناك أسباب أخرى تدعو الإنسان للاعتراض والانتقاد.

وما اكثر أن يكون المعترضون والمنتقدون من الأصدقاء والأحباء، وليس كل من ينتقد خصما ومنافسا، وأحيانًا هناك من ينتقد وهو يريد الخير لمن ينتقده والنجاح للمنظومة

---

٢٧٦. غرر الحكم ٥: ٣٧١.

القياديّة. فالنقد ليس دليل البُعد، وإنما إشاعة الأخطاء هي دليل البُعد، كما ورد في كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ويشير فيه أيضًا إلى حقيقة أخرى وهي التحذير من الاقتراب من هؤلاء الذي يتعلمون ويتعودون على ذكر عثرات الناس، فهؤلاء لا يستطيعون ترك الانتقاد، ولا بد من أن تشمل نارهم من يقترب منهم. فإذا كان اليوم بقرب المسؤول الفلاني تراه ينتقد الآخرين، وحينما يذهب إليهم ينتقد ذلك المسؤول ويظهر عثراته ويكشف عن أخطائه.

والإنسان في مواقع المسؤولية قد تكون أخطاؤه أكبر من أخطاء المواطن البسيط؛ لأن المساحة التي يتحرك فيها أكبر من المساحة التي يتحرك فيها المواطن البسيط، كما إن قدرته أقل فتكون أخطاؤه أقل، ومن تكون قدراته أكبر تكون أخطاؤه أكبر.

إذن، فهؤلاء الناس يمكن أن يروا في أي لحظة في الخندق الآخر، حيث يكشفون كل أخطاء من كانوا معه. وحينما قرأت الرواية التالية، ومن خلال مراجعة الكثير من التقارير الإعلامية والتقارير التي نطلع عليها، رأيت أن الكثير من ثغرات المسؤولين كُشفت من خلال أقرب الناس إليهم، ولعل هؤلاء في الأمس القريب هم من كانوا يكشفون عن عثرات الناس لهؤلاء المسؤولين، فانقلبوا عليهم وتقاطعوا معهم في قضية معينة فارتدوا ليكشفوا عن كل أسرارهم وعثراتهم.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في التحذير من مصاحبة هؤلاء: «إياك ومعاشرة متتبع عيوب الناس، فإنه لا يسلم مصاحبهم منهم»[٢٧٧]، فلا تقرب ولا تتعايش مع من عملهم تتبع عيوب الناس؛ فإنه لا يسلم من صاحبهم منهم، فهو صديقك اليوم وعدوك غدًا، واليوم ينقل لك أخطاء الآخرين وغدًا ينقل أخطاءك إلى الآخرين، وهذه من الإشكاليات الكبيرة التي يقع بها الإنسان.

الإضاءة الثانية

ضرورة ستر العيوب من الحاكم والمتصدي

إن الحاكم والمسؤول بحسب موقعه يستطيع الاطلاع على الكثير من خفايا الآخرين وأسرارهم، ولكن موقف الإسلام من هذا العمل يمكن إجماله بما يلي:

---

٢٧٧. غرر الحكم ٢: ٢٩١.

أولًا: ليس للمسؤول الحق في الاطلاع على عيوب الآخرين. ومن يأتيه بالعيوب ينبغي ألاّ يسمح له بنقل مثل ذلك له مرة أخرى.

ثانيًا: عندما تصل العيوب إلى المسؤول ويطلع عليها يجب عليه سترها وألا يلوح بها ويبقى يشير إلى هذا التلويح بمناسبة أو بغير مناسبة. فإن لم يفعل المسؤول ذلك فإنه سيفقد كل علاقاته مع الناس، وحينئذ لا يستطيع أن يبني حكمه في أي مساحة أخرى للمسؤولية والتصدي.

لقد قرأت في التقارير أن آلات التصوير الدقيقة والصغيرة أصبحت في متناول أيدي الناس جميعًا لتوفرها في الأسواق، وأن الزوجة لكي تنظر إلى زوجها أين يذهب تضع له واحدة منها، والزوج حتى يتأكد من زوجته يضع لها واحدة أيضًا، وهكذا يفعل الصديق مع أصدقائه. وتبدأ المشاكل والعورات والفضائح، وهذا كله من المحرمات، ومما يؤدي إلى انهيارات كبيرة في المجتمع، وهو خلاف ما أراده الله سبحانه وتعالى.

إننا نرى التقنيات في هذه الأيام تستخدم بشكل خاطئ في تهديد الناس، وفضح أحدهم الآخر، وفي قطع هذه العلاقة التي يجب أن تستمر بالرغم من وجود بعض الأخطاء والخروقات هنا أو هناك.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مهما كانت هذه السيئة التي تأتي بها إلى المسؤول كبيرة، لكن سيئة الاستماع لها أعظم، فلا ينبغي له أن يتفاعل مع نقل مثل هذا الخبر؛ لأن تتبع العثرات هو من أقبح العيوب كما عبر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ. والمسؤول أولى بأن يلتزم بهذا الموضوع؛ لأن المسؤول لديه فرص أكبر للاطلاع على عورات الناس. فإذا أراد أن يفتح هذا الباب على نفسه وأن يكشف عن هذه العورات، فسيكون معزولًا ولا يستطيع أن يتصدى لأي مسؤولية بعدها.

الإضاءة الثالثة

ضرورة إصلاح ما ظهر من الأخطاء والعيوب

إذا انكشفت العيوب والرذائل للحاكم والمسؤول من غير تتبع منه، أو إن صاحبها هو الذي كشفها، فيجب عليه أن يطهره منها لكي يبقى المجتمع يتحسس من الخطأ والرذيلة والسلوك الخاطئ.

إن أخطر شيء على المجتمع هو عندما يفقد مناعته ضد الأمراض الاجتماعيّة الفتاكة، فالفايروس يأتي ويأخذ مأخذه والناس لا تتحسس به، فلا يهمهم أمر الحلال والحرام والقيم والعيب، ويضعونها تحت تسميات مثل الحرية، وتحت لافتة الحرية يتنكرون لها، وحينئذ يفقد المجتمع محدداته وكوابحه، فيكون كسيارة يصادفها منعطف خطير وهي في حال النزول، وليس فيها مكابح، فتؤدي بصاحبها إلى الهلاك.

وكذا المجتمع الذي ليس له كوابح ومصدات وحصانات، هو مجتمع خطير يسير نحو الهاوية. ونلاحظ اليوم في مجتمعات صناعية في دول كبرى تعتبر الأولى في العالم اقتصاديًا، التفكك الأسري وارتفاع نسب الطلاق والجريمة والرذيلة وتعاطي الكحول والمواد المخدرة و. . . ، ونلاحظ أيضًا انخفاض مؤشرات الرحمة والشفقة والإنسانيّة، وارتفاع المؤشرات السلبية، وأصبح الزواج في مثل هذه المجتمعات حالة إضافية، فيعيش مع امرأة عشرين سنة بعنوان صديقته والأولاد من رجال شتى!.

وربما يشاهد البعض مثل هذه الحالات في المسلسلات الأجنبية وتصبح لديه الحالة طبيعية. فلا تستبعدوا أن يذهب المجتمع الذي ليس له حصانات إلى الهاوية. ولذلك إذا ظهر الخطأ فعلى المسؤول أن يعالجه ويتخذ موقفًا تجاهه لتبقى حرمة للمعصية.

ومن الممكن أن يخطئ البعض في الخفاء، ولكن تبقى حرمة للمجتمع. وليس من مهام المسؤول أن يتجسس على الناس، بل لا يجوز له ذلك. إن مشكلة المسؤول أحيانًا أنه يتقمص ثوب الألوهية والعياذ بالله، ويريد أن يعرف كل شيء مثل الله سبحانه وتعالى العالم بالنوايا والخبايا والأسرار!.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبة له في بيان صفات الله سبحانه وتعالى: «قد علم السرائر، وخبر الضمائر»[٢٧٨]، أي إن الله يعلم ما يخفى، ويعلم بماذا يفكر ضمير الناس؟، ولماذا تكلم هكذا؟، ولماذا فعل الحركة الفلانية؟. . وهكذا. والذي يبرر علم الله سبحانه بالضمائر أن له الإحاطة بكل شيء، فهو العالم بكل شيء، والغالب على كل شيء، وله القدرة على كل شيء، ولكن هل سأل المسؤول الذي يتقمص ثوب رب العالمين، عن جواز ذلك له؟، ومن أعطاه هذا التخويل، وهو مجرد مدير قسم أو مدير دائرة أو وزير، ليس أكثر من هذا؟. فلا يجوز له أن يبحث عن عثرات الناس وعيوبهم.

---

٢٧٨. نهج البلاغة: الخطبة ٨٦.

الإضاءة الرابعة

الآثار الوضعية للكشف عن أخطاء الناس

هناك آثار وضعية للكشف عن أخطاء الناس وعيوبهم وعثراتهم. منها أن الله سبحانه وتعالى يبتليه بنفس الابتلاء. وكلما كان الإنسان أقدر بإمكاناته كانت قدرته على المعصية والعياذ بالله أكبر، فالإنسان البسيط يخاف من العقوبة المترتبة على ارتكاب الخطأ، ولكن الحاكم والمسؤول آمن من العقوبة إذا ارتكب خطأ، بل تصفق له الناس، وإن أمكن أن يتهامسوا بينهم ولكن لا يجرؤون على أن يقولوا هذا في وجهه، أي تكون جرأة المسؤول على المعصية أكبر.

وكلما كثرت أمواله أو ازداد نفوذه، زادت مقدرته على المعصية. فعلى المسؤول أن يحذر؛ لأن احتمال وقوعه في الخطأ والمعصية والفضيحة أكبر، فهو يستطيع أن يكشف ويفضح ويفتح الملفات، بينما لا يستطيع الناس أن يبحثوا عن ملفاته ويفضحوا أسراره.

ولكن ليعلم أن الناس العاديين، إذا كانت ملفاتهم تفتح، وتفضح أسرارهم ويسجنون، أو يظهر خبر في موقع إلكتروني أو في فضائية معينة، فإن فضائح الحاكم والمسؤول تُسجل في التأريخ، وتدخل في وثائق ويكليكس، حتى لو بعد مائة سنة تُذكر وتعاد، وادخلوا الآن على كثير من المواقع، مثل اليوتيوب واكتبوا اسم أي قيادي أو زعيم فسيظهر لكم كل تأريخه.

فعلى المسؤول إذا أراد أن يحافظ على أسراره، أن يحافظ أولًا على أسرار الناس، وإذا أراد ألاّ تظهر فضائحه فعليه ألاّ يظهر فضائح الآخرين، فكما تدين تُدان، ومن حفر بئرًا لأخيه وقع فيها، وهذه هي سُنة الحياة. وهذا هو الدرس البليغ للإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله: «فاستر العورة ما استطعت يستر الله ما تحب ستره من رعيتك».

إذا رغب المسؤول في إخفاء شيء عن الناس، عليه أن يبادر أولًا إلى ستر عيوب الناس لكي يستر الله سبحانه وتعالى عيوبه. ولذلك يجب على المسؤول ملاحظة هذه الآثار الوضعية للمعصية وكشف أسرار وعيوب الآخرين، فالإنسن لا يخلو من الأخطاء، وكل بني آدم خطاؤون إلا من عصم الله سبحانه وتعالى، وتبدأ هذه العيوب بالظهور على الرغم من الكتمان الشديد؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يريد ظهورها.

يقول أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ في تأييد هذا المعنى: «لا تتبعن عيوب الناس فإن لك من عيوبك إن عقلت ما يشغلك»[٢٧٩]، أي لن تعيب أحدًا إذا كانت لديك القدرة على التفكير وتوظيف عقلك؛ لأنك سوف تعرف أن الانشغال بعيبك أولى من الانشغال بعيوب الناس. وعلى المسؤول أن يهتم بنفسه وأخطائه ويراجع حساباته وينظر كيف عمله وماذا قال، ويبادر إلى معالجة هذه الأخطاء، فهو أفضل من البحث عن زلات وأخطاء الآخرين.

وفي رواية أخرى عن علي عَلَيهِ السَّلَامُ يقول: «من أبصر عيب نفسه لم يعب أحدًا»[٢٨٠]، أي من يرى عيوب نفسه لا يعيب الآخرين.

وورد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»[٢٨١]، أي هنيئًا لمن ينشغل بعيوبه ونواقصه ولا ينشغل في البحث عن عيوب الناس. هذا أيضًا درس كبير من دروس أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ.

الإضاءة الخامسة

ضرورة اتصاف المسؤول بسعة الصدر

إن أهم ما ينبغي توفره في الحاكم والمسؤول هو سعة الصدر، أي يجب أن يكون لديه التسامح والصفح عن الآخرين، ويجب أن يكون حليمًا، فإن الحلم مسألة ضرورية ومهمة للمسؤول الذي يريد النجاح، فلا يمكن أن يكون حقودًا أو شامتًا، فعندما يصبح الإنسان مسؤولًا ويتحمل هذه الأمانة يجب أن يفتح صفحة جديدة مع الناس، والذي ينقل له الخبر يوقفه عند حده ويوبخه على فعله، ويحذره من العودة إلى هذا العمل ثانيًا.

فإن فعل ذلك مرة أو مرتين، فلا يجرؤ أحد بعدها على نقل عيوب الناس، ويقضي على هذه الظاهرة، وتشيع روح المحبة في المحيط الذي هو مسؤول عنه، وتتعزز الثقة وتطيب الخواطر وتهدأ النفوس. وسيتخلص المسؤول من كثير من المشاكل والإزعاجات التي تسببها هذه الأخبار والمعلومات.

---

٢٧٩. غرر الحكم ٦: ٢٩٢.

٢٨٠. بحار الأنوار ٧١: ٤٧ح٣.

٢٨١. بحار الأنوار١: ٢٠٥ح٣١.

إن النظرة الضيقة عند المسؤول لا تساعده على نجاح مهمته القياديّة، فإن من يكون في مواقع التصدي يجب أن تكون نظرته واسعة، وقلبه كبيرا، وصدره رحبا؛ لكي يستطيع أن يتحمل كل هذه الأمور ولا يعيش الحقد والكراهية.

وقد مدح الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بسعة الصدر وعدها من النعم التي تفضّل بها عليه، فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[282]، فالصدر الرحب مكرمة من الله سبحانه وتعالى لأعظم إنسان في عالم الوجود، منذ أن خلق الخلق إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

وقد تحمل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ من قومه أصناف العذاب حتى قال: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت»[283]، وكان يكفي أن يرفع يديه بالدعاء عليهم حتى ينزل العذاب، ولكنه لم يفعل، بل كان يدعو لهم ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[284]. وهذه هي سمات القيادة الناجحة؛ أن يكون الإنسان كبيرًا.

سُئل أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن وصف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فقال: «كان أوسع الناس صدرًا»[285]، أي كلما كان الإنسان أكبر مسؤولية يجب أن يكون أوسع صدرًا.

ويروي الإمام الحسين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في وصف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «ترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدًا، ولا يذكره في شيء مضى يكرهه، ولا يطلب عثرته»[286]، فرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كان لا يعمل ثلاثا:

الأولى: كان لا يذم أحدًا، فإذا أراد أن ينصح أحدًا كلمه من غير أن يجرح مشاعره، إما بالإشارة أو الكناية أو عن طريق شخص آخر وبأسلوب) إياك أعني واسمعي ياجارة)؛ لأن الناس تكره النصح المباشر.

الثانية: كان لا يذكر أحدًا في شيء مضى يكرهه، فلم يكن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يعيّر أحدًا بشيء قد ارتكبه سابقًا، أو أن يذكّره به، أو يذكره أمامه.

الثالثة: كان لا يطلب عثرة أحد أو عورته، فلم يكن من أخلاق رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ تتبع عثرات الناس وعيوبهم، وكان ينهى عن ذلك ويقول: «استروا على إخوانكم»[287].

---

٢٨٢. سورة الشرح: الآية ١.
٢٨٣. بحار الأنوار ٣٩: ٥٦.
٢٨٤. بحار الأنوار ٩٥: ١٦٧.
٢٨٥. بحار الأنوار ٦٤: ٣١٠ح ٤٥.
٢٨٦. بحار الأنوار ١٦: ١٥٣ح٤.
٢٨٧. مستدرك الوسائل ١٢: ٤٢٦ح ٧.

وقال صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أيضًا: «اسكتوا عما سكت الله عنه»[٢٨٨]، ولم يكن يسمح بذلك لكي تبقى الأخوّة والتسامح والمودة سالمة بين الناس.

وهذه حقيقة ودرس بليغ في الحياة أن نرى النصف الممتلئ من الكأس لا النصف الخالي. فالحقيقة واحدة ويجب أن نكون إيجابيين في الحياة، وننظر إلى الإيجابيات ونبني عليها، ونغض النظر عن السلبيات، فهذه الأمور تعطي لُحمة للمجتمع وتجعلنا أكثر تماسكًا. وهذه دروس الحياة ودروس التصدي يعلمنا إياها الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو ينقل القراءة الصحيحة لرسالة الإسلام.

٢٨٨. السرائر ١: ١٢٦، المهذب البارع ٢: ٢١٠.

الدرس الثلاثون

سمات مهمة للمسؤول

(السعاة بالناس عند السلاطين)

وهناك سمة أخرى من سمات المستشارين وردت في العهد الشريف لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حيث يقول: «وَتَغَابَ عَنْ كلِّ مَا لاَ يَضِحُ لَكَ، وَلاَ تَعْجَلَنَّ إلى تَصْدِيقِ سَاعٍ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ».

يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه الفقرة المباركة سمتين مهمتين من السمات التي ينبغي أن تتوافر في المسؤول، هما:

الأولى: تغافل المسؤول عن الصغائر والتفاصيل الجزئية

«وَتَغَابَ عَنْ كلِّ مَا لاَ يَضِحُ لَكَ»، أي عن كل ما لا يظهر لك. يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مالكا الأشتر ومن ورائه كل مسؤول بالتغافل عن الأمر الذي لا يظهر أمامه ولا يراه بنفسه من أخطاء جزئية أو قضايا هامشية، وما يصدر من البعض من إساءات بسيطة بحق الدولة أو بحق المسؤول نفسه، وهذه الأخطاء في التفاصيل والجزئيات التي لا تتضح أو تتبين قد يقع فيها كثير من الناس، ولذا يجب التغاضي عنها وترك المحاسبة عليها.

ولكن لو حدثت مخالفة قانونية أو جرم مشهود من أحدهم أمام المسؤول، أو تحدث علنًا وعلى رؤوس الأشهاد وأمام الناس فهذا بحث آخر، فالحديث عن الأمور غير الواضحة التي يجب على المسؤول أن يتغافل عنها.

الثانية : التصديق بالنمامين يؤدي إلى ضياع المسؤولية

«وَلاَ تَعْجَلَنَّ إلى تَصْدِيقِ سَاعٍ» ، والساعي هو النمام. يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه الكلمة الحاكم والمسؤول بعدم الاستعجال بتصديق ما ينقله النمامون والوشاة وحملة التقارير ، فربما كان ما ينقلونه كذبًا وتقارير كيدية قد يثبت بعد ذلك بأنها غير صحيحة ، وحينئذ يتوجب عليه الاعتذار .

ثم يبين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ العلة التي من أجلها ترك تصديق النمامين ، يقول : «فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌ ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ» ، فالنمام من طبيعته الغش ، وأصحاب التقارير ديدنهم الغش وإنْ ظهروا للمسؤول بمظهر الناصح والحريص . ولذا عليه ألاّ يرتب الأثر على تقارير هؤلاء ؛ لأن ذلك سوف يؤدي إلى ضياع المسؤولية والفرصة في قيادة المهمة التي هو مسؤول عنها . وهذه العبارات على قصرها تعطي دروسا مهمة للحياة . ونستعرض هاتين الخصلتين بشيء من التفصيل فنقول :

الأولى: الاهتمام بالأمور الأساسيّة والتغافل عن التفاصيل.

يجب على المسؤول أن يتحلى بسعة الصدر ، فلا يقف عند صغائر الأمور ، وأن يكون ذا أفق واسع ، وأن يكون كبيرًا ، ينظر للأمور بعين ثاقبة ويتجاوز التفاصيل الصغيرة والجزئيات .

وعلى المسؤول أن ينظر للاتجاهات والبوصلة بالاتجاه الصحيح ، وأما باقي التفاصيل الجزئية والقيل والقال ، فيجب عدم الوقوف عندها حتى تنجح المهمة القياديّة ويحصل التطور والتقدم في الواجبات القياديّة .

إن إحدى الخصال المهمة التي ينبغي توافرها في المسؤول هي سعة الصدر والتعامل بعقلانية وحلم وضبط النفس وعدم الذهاب وراء الانفعالات الشخصية وتغليب المصلحة العامة في المهمة القياديّة . . . وهذا درس كبير من دروس علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ .

وأما الانغماس في التفاصيل ، فسوف يترك أثرًا سلبيًا في نفس المسؤول ، وبالتالي سيرى نفسه معزولًا عن مجتمعه . فإن الاهتمام بالصغائر ـ وهي تصدر من الجميع ـ يوصل المسؤول إلى أن يكون معزولًا حتى عن أقرب الناس إليه ، كما أن متابعة التفاصيل سوف تفشل المهمة القياديّة للمسؤول وتحوله إلى إنسان عادي يهتم بصغائر الأمور .

فعلى المسؤول أن يستحضر الأهداف الكبرى ويغض الطرف عن الجزئيات والصغائر . .

يقول علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا تداقوا الناس وزنا بوزن، وعظموا أقداركم بالتغافل عن الدني من الأمور»[٢٨٩]، أي لا تتعاملوا مع الناس بالمثاقيل، ولا تقفوا عند اللقطات العابرة. وارفعوا من شأنكم وقيمتكم، واتركوا الأمور الدنيئة والبسيطة والجزئية وتغافلوا عنها.

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «إن العاقل نصفه احتمال ونصفه تغافل»[٢٩٠]، أي إن العاقل لا يكون عاقلًا إلا بأمرين، الأول: التحمل وسعة الصدر، والثاني: غض الطرف عن الجزئيات والصغائر. ومن هنا ينبغي على المسؤول أن يستحضر الأهداف الكبرى والمسائل المصيرية في مهمته القياديّة من أجل تحقيقها.

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «لا حلم كالتغافل، ولا عقل كالتجاهل»[٢٩١]، فحلم الحليم في تغافله عن الجزئيات، وعقل العاقل في تجاهل الجزئيات والأخطاء التفصيلية.

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «من لم يتغافل ولا يغض عن كثير من الأمور تنغصت عيشته»[٢٩٢]. يجب على المسؤول عدم الاهتمام بالقيل والقال ومتابعة التفاصيل، فإن ذلك يؤرقه ويحول حياته إلى نكد، ويفقد معها الاستقرار والطمأنينة، وينشغل عن المهمة الأساسيّة له في خدمة من هو مسؤول عنهم.

إذن، فالتغافل والتجاهل عن الصغائر دليل الاستقامة في السلوك، ودليل القوة في المهمة القياديّة، ودليل التشخيص الدقيق لفقه الأولويات في المسارات..

ومما ورد في تأييد ذلك قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من أشرف أعمال الكريم غفلته عما يعلم»[٢٩٣]. يجب على المسؤول التغافل عن الأخطاء والسلبيات الصغيرة، وهذا هو المنهج والطريق الصحيح في الإدارة والقيادة.

وهنا أوجّه ندائي للأب والأم وهما المسؤولان عن الأسرة: لا تحاسبوا أبناءكم على صغائر الأمور ما داموا سائرين في الطريق الصحيح.

وصغائر الأمور لها عدة معان ومفاهيم؛ فهي في الأسرة ليست كما في مؤسسات الدولة الكبيرة، ولذا يجب أن ننظر للأمور بحسب ماهيتها. فالبعض يرى أن التجاهل والتغافل عن الجزئيات دليل ضعف، وقد يقول المسؤول: كيف أكون مسؤولًا إذا لم

٢٨٩. بحار لأنوار ٧٥: ٦٤ ح ١٥٧.
٢٩٠. عيون الحكم والمواعظ: ٩٤.
٢٩١. غرر الحكم ٦: ٣٥٦.
٢٩٢. غرر الحكم ٥: ٤٥٥.
٢٩٣. نهج البلاغة: الحكمة٢٢٢.

أعرف وأدرك ما يحصل في دائرتي، واذا لم أنشر العيون لمراقبة الناس في كل مكان؟، وما الدليل على أن التغافل دليل قوة؟، وما الدليل على أنه مؤشر على الضعف؟.

إن التغافل والتجاهل عن الصغائر دليل استقامة في السلوك، ودليل قوة في المهمة القياديّة، ودليل التشخيص الدقيق لفقه الأولويات والأسبقيات في المسارات القياديّة، ودليل على أن المسؤول عارف أين هو اتجاه البوصلة، وحينئذ لا يدع الآخرين يتحكمون به، ويدرك أن لديه مهمة كبيرة عليه السير بها في الاتجاه الصحيح. إذن، فالتغافل والتجاهل دليل قوة وليسا دليل ضعف.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا: «أشرف خصال الكرم غفلتك عما تعلم»[٢٩٤]، أي إن أشرف خصال الكريم هي التغافل عما يعلم، وهو دليل قوة؛ لأنه لا يبذل جهده حينئذ في ما لا يستحق، ولا يهتم بالترهات والتفاصيل الجزئية.

ولكن يجب ألاّ يُفهم أن التجاهل والتغافل عن الصغائر وعن التفاصيل الجزئية هو تجاهل عن الأخطاء وخرق القانون والاعتداء على حقوق المواطنين وانتهاك الحرمات، فالظلم الذي يقع على المواطنين، والتعامل السيئ معهم يجب ألاّ يُتهاون بهما ولا يُسكت عنهما. ويجب الوقوف عند الأخطاء والمخالفات القانونية والتجاوز على الحقوق، ويجب معالجتها وعدم السماح بأن تأخذ مسارات ومديات بالشكل المفتوح، ويصبح المواطن خائفًا على نفسه وعلى أمنه وعلى حقوقه، فهذه الأمور ليست جزئية يتغافل عنها، بل هي مسائل يجب الوقوف عندها؛ لأنها ترتبط بصميم المهمة القياديّة.

وكذلك يجب الوقوف في موارد الشبهة وعدم الاندفاع معها ومحاسبة المقصرين، لا محاسبة الإنسان النزيه والشريف الذي لا يساوم، ويدافع عن حقوق الناس، فهناك أناس انتهازيون لا يعجبهم العمل الصحيح، ولذلك يتآمرون على الصالحين والنزيهين بشتى السبل.

إن الاعتداء على القانون ومخالفته وكسر هيبة الدولة تتطلب موقفًا حازمًا، في حين تتطلب التفاصيل والجزئيات والتقارير الكيدية والمشاغبات تريثًا وحكمة..

فقد ورد عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «أدرؤوا الحدود بالشبهات»[٢٩٥] حتى لا تقعوا في ظلم الناس، فإنه لا يمكن اتخاذ الإجراءات وفقًا للاتهامات والظنون والأقاويل،

---

٢٩٤. جامع أحاديث الشيعة ١٥ : ٥٦٤.

٢٩٥. وسائل الشيعة ٢٨ : ٤٧، باب ٢٤من كتاب الحدود، ح٤.

فقد يسجن إنسان مظلوم ويفقد عمله ثم يطلق سراحه بعد عدة أشهر، وهذا عمل غير صحيح، فمن يتحمل المعاناة الماديّة والمعنوية لهذا الإنسان؟.

إن الأخذ بالظنون والاتهامات والتساهل في اتهام الناس قضية خطيرة جدًا، وتُعد اعتداء ومخالفة للقانون وكسرًا لهيبة الدولة، وتحتاج إلى موقف حازم. فالتفاصيل والجزئيات والتقارير الكيدية والمشاغبات تحتاج إلى تريث وتوقف وحكمة في التعاطي مع هذا الموضوع.

الثانية: التصديق بالنمامين يؤدي إلى ضياع المسؤولية.

يجب إبعاد النمامين والواشين وأصحاب التقارير الكيدية؛ لأنهم يسيئون للمسؤول، ويحرجونه في مواقفه، ويجعلونه غاضبًا دائمًا على الآخرين، ويعيش أزمة الثقة مع الآخرين، يقول الله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[٢٩٦] رغم أنه يحلف بأغلظ الأيمان فلا تطعه ولا تسمعه؛ لأنه يحاول إبعادك عن المجتمع الذي أنت فيه، فلا تقربه لكي تنجح.

وورد عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «إياكم والنميمة»[٢٩٧]، فإن من ينمّ لك سوف ينمّ عليك في يوم آخر، والنمام فايروس خطير، ولذا «لا يدخل الجنة نمام»[٢٩٨]. فلا تتبعوا عثرات الناس ولا توقعوا الناس بعضهم ببعض، فالجنة تحرم على النمام، هذا ما يقوله رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.

وذكر الشيخ المفيد في كتابه الاختصار أنه جاء رجل إلى أمير المؤمنين عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ يخبره أن هناك من يتكلم ويتهجم عليه فأجابه علي عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: «يا هذا إن كنت صادقا مقتناك»، أي إذا كان كلامك صحيحا فإنني أمقتك، لأن عليًا عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ لا يسمح لأحد بأن ينقل كلام الآخرين وأخطاءهم الشخصية إليه وإن كانت صحيحة، فإنه مدعاة للضغينة والأحقاد، «وإن كنت كاذبًا عاقبناك، وإن أحببت أن نقيلك أقلناك».

وهكذا يضع علي عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ الخيارات أمام الرجل، فإن أراد سحب تقريره فإن العفو ينتظره، فهذا الرجل كان يأمل في أن يكافئه علي عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ على نقله لأخطاء الناس بحقه

٢٩٦. سورة القلم: الآيات ١٠-١١.
٢٩٧. كنز العمال ٣: ٦٥٥ ح٨٢٥٤.
٢٩٨. بحار الأنوار ٧٢: ٢٦٨.

الشخصي ويحصل على امتيازات، إلا أنه رأى عكس ما أراد. «فقال: أقلني يا أمير المؤمنين»[٢٩٩]، فطلب العفو والصفح وسحب تقريره ووشايته.

إن النميمة لا تؤدي إلا إلى الكراهية والعداء والأحقاد، وعلى المسؤول ألاّ يقف عند الصغائر والأخطاء الجزئية للرعية، وهذه تربية علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في عدم قبوله للنميمة، فيجب التريث وعدم الإسراع بقبول النميمة وترتيب الأثر عليها.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة وتبعد عن الله وعن الناس»[٣٠٠]، أي إن البغضاء والشحناء والخصومة هي من آثار النميمة، وهي تبعد الإنسان عن الله سبحانه؛ لأنه يتخذ مواقف لا يرضى بها الله تعالى، كما تبعد عن الناس؛ لأنها تحدث النزاعات بين الناس.

وعن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله أيضًا: «إياكم والنمائم فإنها تورث الضغائن»[٣٠١]..

نسأل الله تعالى أن نتجنب ذلك، وأن يجعلنا ممن يقرب الناس ويتشاور معهم، وأن يقدموا لنا النصح في ما هو خير، ويقربونا من الآخرين ولا يبعدونا عنهم.

---

٢٩٩. بحار الأنوار ٧٢: ٢٦٦ح١٣.

٣٠٠. عيون الحكم والمواعظ: ٩٦.

٣٠١. بحار الأنوار ٦٨: ٢٩٣ح ٦٣.

المقطع العاشر

المستشارون والوزراء

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ :

«وَلاَ تُدْخِلَنّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ وَلاَ جَبَانًا يُضعِّفُكَ عَنِ الأمُورِ ، وَلاَ حَرِيصًا يُزَيّنُ لَكَ الشّرَهَ بِالْجَوْرِ ، فَإِنّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظّنّ بِاللهِ .

ثُمّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرّ الْحَقِّ لَكَ ، وأَقَلّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمّا كَرِهَ اللهُ لأوْلِيَائِهِ ، وَاقِعًا ذلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ» .

يتحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر أيضًا عن المستشارين والوزراء وسماتهم، وأنه يجب على المسؤول حينما يختار مستشاريه أن يلاحظ مجموعة من الصفات والسمات في هؤلاء المستشارين، حتى يمكن للمشروع أن ينجح، ويحرص على ألاّ يكون بين هؤلاء المستشارين من يحمل صفات وسمات سلبية، تحولهم من أداة وسند وقوة للمسؤول إلى سبب في إحباط المهمة القياديّة، وفي إفشال جهود المسؤول في الوصول إلى النتيجة المرجوة.

الدرس الحادي والثلاثون

سمات وصفات المستشارين

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر في ذكر باقي الصفات السلبية التي يجب ألاّ توجد في المستشار: «وَلاَ تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ وَلاَ جَبَانًا يُضعِّفُكَ عَنِ الأمُورِ، وَلاَ حَرِيصًا يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ».

يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ كل من يتصدى للحكم والمسؤولية أن يختار مستشاريه بشكل دقيق، وقد حذر عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الفقرة من اختيار ثلاثة أصناف من الناس ممن توجد فيهم إحدى الخصال المذمومة: البخل، والجبن، والحرص.

الصنف الأول: البخيل

ينبغي للحاكم والمسؤول ألاّ يضع في طاقم مستشاريه بخيلًا، لأنه في موقع قيادي وإداري مهم ويريد أن يقود شعبًا بأكمله؛ ولدى الناس مطالب واستحقاقات وتوقعات يجب تلبيتها. والمستشار إذا كان شخصًا بخيلًا سوف لا يدع المسؤول يقدم شيئًا للناس، ويمنعه من كل إحسان.

وكلما حاول أن يعمل شيئًا، منعه المستشار بسبب بخله، من تقديم أي إحسان إلى الناس، ويفتعل لذلك المبررات؛ فيقول إن المادة الفلانية من القانون تمنع ذلك مثلًا، ويبقى يبحث عن ثغرات لتثبيط المسؤول ومنعه من تقديم الإحسان إلى الناس، ولهذا لا ينبغي للمسؤول أن يضع بخيلًا ضمن مستشاريه؛ لأنه لا يعطيه المجال للخدمة، ويخلق له الأجواء المكفهرة والآثار الوخيمة لكل عمل إيجابي. في حين أن مجال المسؤولية يعني الخدمة والعطاء وتقديم الإحسان للآخرين، وبدون العطاء لا يستطيع أن يحسن إدارة العمليّة القياديّة.

كما إنه سيعده الفقر لو أنفق شيئًا على الناس، بذريعة أن الميزانية ستفرغ مثلًا، ولا يعطيه مجالا للخدمة وتقديم شيء للناس.

الصنف الثاني: الجبان

ويحذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا من وضع الجبان في طاقم المستشارين، لأنه يلقي الرعب في روع المسؤول ويمنعه من الإقدام على ممارسة أي عمل لمصلحة الناس، بينما تحتاج الإدارة إلى قرارات حاسمة وجرأة وإقدام مع حكمة، وتحتاج إلى شجاعة بلا تهور.

وعندما يريد المسؤول أن يتخذ قرارًا جريئًا فإنه قد يرضي الكثيرين، ولكنه في نفس الوقت قد لا يرضي البعض. فمثلًا إذا أراد المسؤول اتخاذ قرار جريء يقلل من امتيازات الطبقة المرفهة والمسؤولين وذوي الدرجات الخاصة ويعطي للفقراء والمساكين، فإن ذلك لن يرضي المستشار، وسيقول إننا سنهيج الآراء ضدنا، وسيظهرون على الفضائيات ويتكلمون عن أمور أخرى تربك الوضع السياسيّ، وأمثال هذا الكلام، إلى أن يثبط من عزيمته، حتى يثنيه عن طرح المشروع، أو التراجع عنه.

الصنف الثالث: الحريص

ويحذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا من وضع الحريص في طاقم المستشارين؛ لأنه يبحث عن مداخل في كيفية الاستحواذ على أي شيء بدون حق، فيقترح على المسؤول أن يضع يده على حق ويسترجعه ولكن بالجور، أو يأتي له بمائة صياغة قانونية تبرر له وجود مائة امتياز يخصه ويمتاز به عن الآخرين، أو يوجِد له مائة ثغرة قانونية لكي يتمدد ويضع يده على كل شيء على حساب الآخرين.

وقطعًا، فإن حرص هذا المستشار ليس حرصًا إيجابيًا، لأن الحرص الإيجابي على المال العام ومصالح العباد والبلاد والالتزام ورعاية القانون شيء حسن، ولكنه يأمره بالحرص السلبي ويفتح شهيته على الظلم والتعدي والتمدد وبسط اليد على حقوق الآخرين، وإنسان كهذا لا ينفع في شيء.

الخصال الثلاث وسوء الظن بالله

وهذه الخصال الثلاث - البخل والجبن والحرص - يجمعها سوء الظن بالله سبحانه وتعالى، لأنها غرائز شتى وطبائع مختلفة مصدرها ومنشؤها واحد، فالبخيل أو الجبان أو الحريص يريد أن يستحوذ على كل شيء ويأخذه ولا يعطي شيئًا للآخرين، وكلها ناتجة من سوء الظن بالله سبحانه وتعالى.

فالبخيل يخاف من نفاد الأموال، ويتجاهل أن الله تبارك وتعالى الذي أرسلها سيرسل غيرها. والحكمة في الإنفاق أمر جيد، ولكن إذا كان يعتقد بأن حياته ستسير بالأرقام فهو متوهم؛ لأن الله تعالى هو من رتبها وقدرها، فعلى الإنسان أن يستعمل الحكمة ويتوكل على رب العالمين.

وأما الجبان فهو يخاف من ثورة الناس عليه، والموقف الصحيح أن يواصل المسؤول مسيرته إذا كانت حقًا، ويمضي على بركة الله، ويشرح ويوضح ويدافع عن موقفه ومشروعه، وأهل الخير كثيرون، ودعاة الحق كثيرون، والحق يخدم المساحة الأوسع من الأمة، وسيرحب به من كانت المصلحة له وهم الأكثرية، ولا يبالي باعتراض من لا مصلحة له فيه، أو من ضُربت مصلحته لأنّهم الأقلية. فالجبن سوء ظن بالله تعالى.

وكذلك الشره والحريص؛ فهو يحرض المسؤول على أن يأخذ بالجور كل شيء، ولا يعطي دورًا لأحد، ولا يسمح لأحد بالتنفس. وإذا كان مسؤولًا عن أسرة لا يعطي المجال للمرأة والأطفال، وإذا كان رئيسًا لشركة يجعل الجميع يخشون سطوته، وهكذا مدير الدائرة.

وهذا الشره ووضع اليد على كل شيء وأخذ كل شيء دليل واضح على سوء الظن بالله تعالى، وهو لا يملك ثقة بنفسه ولا بربه الذي يمنحه الفرص بدون الاعتداء على الآخرين.

وهناك مجموعة من الإضاءات يمكن استفادتها من هذه العبارة الوجيزة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الإضاءة الأولى

أهمية المشورة

المشورة مهمة جدًا، ولا ينبغي أن يظن أحد أنه قادر على الاستغناء عن مشورة الآخرين، أو يعتقد بأنه يفهم كل شيء. فالإنسان مهما كان عالمًا وخبيرًا في مجال ما، قد يلتفت إلى جهات وتغيب عنه جهات أخرى، ولذا يجب عليه استشارة الآخرين ليشاركهم عقولهم وتجاربهم وأفكارهم ورؤاهم، فعقول وتجارب ورؤى وأفكار الآخرين تصبح في خدمته وتقلب له الأمور والمسائل من زوايا مختلفة، وتصبح لديه ثقة بالموقف الصحيح. والخطوة التي ليس فيها مشورة ليس فيها بركة، والبركة تأتي عند التشاور مع الآخرين، ومشاركتهم عقولهم وطاقاتهم وقدراتهم.

إن المسؤول لا يخسر شيئًا من المشاورة، بل ستمحص قراراته ويصبح القرار مطبوخًا وناضجًا وحكيمًا وفيه مراعاة لكل الجوانب، وليس من الصحيح أن يصدر المسؤول قرارًا مستعجلًا ثم يأتي شخص بعد ساعتين ليقول له إن هذا القرار يخالف المادة الفلانية من القانون، فيضطر إلى نقض القرار، ثم يأتي شخص آخر ليبين له العواقب المترتبة على نقض القرار.. وهكذا.

وسيعيش في حالة فوضى من تضارب القرارات مع بعضها، ولن تبقى هيبة للدولة بعدها. ولهذا يجب على المسؤول أن يعتمد المشورة بشكل أساسي في جميع قراراته ومواقفه لكي يستطيع اتخاذ القرار الصحيح، وكلما ظهرت ثغرة في القرار يرى أنه قد التفت إليها ووضع لها العلاج المناسب. وحينئذ سوف لا يندم ولا يتراجع عن قراراته، ليس من باب العزة بالإثم، ولكن لأن القرار أخذ بنظر الاعتبار كل الأمور التي تُطرح كعوائق ومصدات أمام هذا الموقف والقرار.

ولذلك نجد التأكيد الكبير على مبدأ المشورة في الرؤية الإسلاميّة، والآية الشريفة التي تتحدث عن الشورى والمشورة تجعل المشورة واحدة من أهم الفرائض والواجبات الإسلاميّة؛ يقول الله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[٣٠٢]، فقد جاءت الاستجابة لله والصلاة والإنفاق والشورى في سياق واحد، وهذا يعني، بمقتضى السياق، أن هناك تقاربا بينها.

---

٣٠٢. سورة الشورى: الآية ٣٨.

وإذا كان هذا هو موقع الشورى في الرؤية الإسلاميّة فيجب أن تتحول إلى سلوك عملي. والآية لا تقول وبعض أمرهم شورى، وإنما قالت أمرهم شورى في كل شيء. ولذا يجب أن نتشاور في جميع أمورنا، لا أن تكون في بعض الأوقات، كما لو مر الإنسان بأزمة، فيأتي إلى أصحابه يستشيرهم، بل ينبغي أن تكون المشورة في كل حين، سواء كانت هناك أزمة أو لم تكن. ومن المفضل أن يتشاور المسؤول مع الجميع ليتأكد من صحة الموقف والقرار الذي يريد اتخاذه.

وينبغي أن تكون المشورة حقيقية لا شكلية، بأن يعطي المستشار رأيه الواقعي في الموضوع، ولا يفصّل المشورة وفقًا لما يرغب به المستشير. وينبغي أن يكون المستشير صادقًا أيضًا في طلب المشورة، لكي يقال إنه استشار.

ويؤسفني أن أقول إنه في بعض مؤسسات الدولة العراقية لا تكون مهمة المستشار تقديم المشورة، بل لتكييف القانون مع قناعات المسؤول، لا أن يقول له إن هذا صحيح أو خاطئ. ويتم ذلك بعد أن يتخذ المسؤول قراره بمفرده ثم يأتي إلى مستشاره القانوني ويطلب منه أن يبحث عن تخريجات قانونية لهذا القرار، ثم يحدث أمر معاكس في اليوم الآخر ويبحث عن مادة قانونية أخرى لتبرير قرار آخر. . وهكذا.

وهذه ليست استشارة، بل هي استخدام لخبراء في تكييف الواقع على ضوء أمزجة المسؤول. فعلى المسؤول إذا أراد أن يستشير ألاّ يتكلم برأيه، بل يطلب من المستشارين أن يعطوه رأيهم ليأخذ المشورة الصحيحة بحرية، ثم ينظر إلى رأيه هل هو صحيح وينسجم مع هذه الرؤية ويخرج بنتيجة أو لا؟.

ومما يؤيد أهمية المشورة أن الرسول الأكرم صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بالرغم من عصمته وعلمه الغزير وخبرته الواسعة والعالية بين من عاش معهم، كان يتشاور مع أصحابه، مع أنهم أناس بسطاء، لا يملكون شيئًا من علم رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ولا من خبرته وتجربته في الحياة وحنكته وحكمته وعمقه، بالإضافة إلى عصمته، وماذا يمكن أن يستفيد من مثل هؤلاء حين يستشيرهم؟!. ولكن، كانت سيرته صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أن يتشاور مع أصحابه قبل أن يتخذ القرار.

لاحظوا هذه الرواية عن الإمام الرضا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول: «إن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كان يستشير أصحابه ثم يعزم على ما يريد»[٣٠٣]. فكان يستشيرهم دائمًا قبل أن يتخذ القرار ويسمع منهم جميعًا ثم يتخذ القرار المناسب.

---

٣٠٣. بحار الأنوار ٧٢: ١٠١ ح ٢٣.

فإذا لم يكن القرار منسجمًا مع قناعاتهم كان يوضح لهم ويناقشهم، بالرغم من أنهم يعلمون أن الله ورسوله أعلم. وكم لدينا من روايات عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يسأل أصحابه، فإن كان لديهم جواب أخذ به إن كان صحيحًا، وإلا ناقشهم فيه. وإن قالوا: الله ورسوله أعلم، أعطاهم الموقف.

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يوصي أصحابه باستعمال المشورة أيضًا، فقد أوصى علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو الرجل العالم العملاق حينما أرسله إلى اليمن قائلًا: «ياعلي ولا ندم من استشار»[٣٠٤].

وأما إذا كان رأي المستشار خاطئًا فيجب على المسؤول أن يبين له وجه الخطأ فيه، ويوضح له الرأي الصحيح، فيكون قد نبهه إلى أمر كان غائبًا عنه، وفي نفس الوقت أشرك الآخرين معه في القرار، وحينئذ سيقفون معه ويدعمونه، ولا سيَّما إذا كان في القرارات مصدات ومشاكل.

وعن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا يستغني العاقل عن المشاورة»[٣٠٥]، وهذه رواية في الموضوع، فالعاقل إذا رأى نفسه غير محتاج إلى المشورة فمعناه أن هناك شكا في عقله، فالانسان لا بد له من الاستشارة، ولا يمكن أن يستغني عنها في أي حال من الأحوال.

وعن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم»[٣٠٦]، أي إذا اعتمد أي قوم المشورة فإنهم يسلكون أقصر الطرق إلى تحقيق غاياتهم ومبتغاهم وأهدافهم، وستتحقق لهم أفضل النتائج من خلال المشورة، فمن يستشير يصل إلى أفضل الطرق في حل المشاكل والتعقيدات المحيطة به.

الإضاءة الثانية

تأثير المواصفات الذاتية للمستشار

تتحكم بالمشورة طبيعة المواصفات الذاتية والمعايير التي يجب أن تتوافر في المستشار، فكلما كان المستشار صادقًا ومخلصًا وشجاعًا وكريمًا ومن أهل العقل والدراية والتجربة والاختصاص، كانت مشورته أنفع.

٣٠٤. بحار الأنوار ٧٢: ١٠٠ح ١٣.
٣٠٥. غرر الحكم ٦: ٣٨٩.
٣٠٦. بحار الأنوار ٧٥: ١٠٥ح ١.

ولا تعني الطبقة الاجتماعيّة شيئًا في المشورة، كالسن والغنى والفقر والجاه، فالمشورة تتحكم بها طبيعة المواصفات الذاتية والمعايير التي يجب أن تتوافر في المستشار، كالعلم والحكمة والخبرة والرؤية والشجاعة والإنصاف والموضوعية والصدقية وبعد النظر وتغليب المصالح العامة والبعد عن العواطف والمشاعر والأمزجة والانفعالات.

ولا فرق في المستشار، بين أن يكون كبيرًا في السن أو صغيرًا، أو يكون من طبقة الفقراء أو الأغنياء، فالمشورة ترتبط بأوصاف المستشار؛ إذ قيمة الإنسان ليست بما يملك من الأموال، وإنما قيمته بأمور ذاتية في شخصيته ولا يمكن أن تسلب منه، كالعلم والمعرفة والخبرة والصدقية.

الإضاءة الثالثة

المواصفات السلبية للمستشار

يستعرض أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الأوصاف السلبية للمستشار التي تمنعه من تقديم المشورة الصحيحة، وقد ذكر ثلاثة منها في هذا العهد، لا على سبيل الحصر، وهي البخل والجبن والحرص، ولكن هناك أوصاف سلبية أخرى يمكن تلمسها من نصوص أخرى لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كالكذب وقلة الخبرة والتهور وضيق الأفق وغيرها من أوصاف المستشار الفاشل.

فالمستشار الكاذب يقلب الأمور، ويبعد القريب، ويقرب البعيد. وتعد مشاورته والأخذ بها هلاكًا للأمة.

وأما المستشار المتهور فإنه يدخل المسؤول في أمور هو في غنى عنها، ويخلق له أجواء متشنجة مع الآخرين. وهناك فرق بين الشجاعة والتهور، فالشجاعة هي الحد الوسط بين الجبن والتهور.

وأما المستشار الجاهل فسكوته خير من نطقه. والمشكلة الأكبر اليوم هي أن يتخذ المسؤول مستشارًا جاهلًا من أقاربه أو حزبه، ويأخذ بمشورته ويصدق أنه مستشار، وحينئذ ستدفع الأمة ضريبة باهظة ويقع الشعب في مهالك عظيمة.

وقلة الخبرة وضيق الأفق وتغليب العواطف والمشاعر على حساب العقل والمنطق، كلها سمات وصفات سلبية تمنع من تقديم المشورة الصحيحة. ونجد كل هذه في روايات واردة عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا تستشر الكذاب فإنه كالسراب، يقرب إليك البعيد، ويبعد عليك القريب»[٣٠٧].

ويقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا تشاور الأحمق يجهد لك نفسه ولا يبلغ ما يريد»[٣٠٨]. فالجاهل حتى لو كان مخلصًا لا يمكن أن يأتي بالمشورة الصحيحة، والمسؤول يحتاج إلى أناس من ذوي العقل والحكمة ليعطوه الرأي السديد.

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «لا تشاورن في أمرك من يجهل»[٣٠٩].

الإضاءة الرابعة

المواصفات الإيجابية للمستشار

وأما السمات التي تساعد المستشار على المشورة، فمنها خشية الله. فعلى المسؤول والمتصدي أن يبحث عن مستشارين يخافون الله تعالى، من أهل التقوى والتدين والحكمة، ليعطوه الرأي السديد.

وقد ورد عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: «شاور في أمورك الذين يخشون الله»[٣١٠].

ولذا ينبغي مشاورة المتقين الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا، ويؤثرون على أنفسهم في أمور الأمة، فهم يقدمون المشورة الصحيحة وإن خسروا وظيفتهم كمستشارين، ولكنهم يربحون الآخرة، ويقدمون مصالح الآخرين على مصلحتهم.

ويمر بلدنا اليوم في ظروف ليست سهلة، فالوزير الذي بين يديه المليارات كم يراعي مصالح البلد ويغلّب المصلحة العامة على مصلحته الخاصة؟ فمثلًا، إذا كان لديه مشروع، وهناك شركة عالمية مهمة وكبيرة، لا تعطي الأموال تحت الطاولة ولا تعطي عمولات لأنها تخشى على سمعتها، وهناك شركة أخرى بائسة ولكنها تعطي عمولة جيدة، فلمن يوقّع العقد؟، لتلك الشركة الجيدة التي لا تعطي العمولة، أم للشركة البائسة

٣٠٧. غرر الحكم ٦: ٣١٠.
٣٠٨. بحار الأنوار ٧٥: ٢٣٠ح ١٣.
٣٠٩. غرر الحكم٦: ٢٧٠.
٣١٠. غرر الحكم ٤: ١٧٩.

التي يكسب منها عمولة جيدة، وإن كان الناس سيعانون من سوء الخدمات المقدمة ومن المنشآت التي تنفذها هذه الشركة؟.

لقد كنت مرة في زيارة رسمية لألمانيا، وزرت غرفة التجارة الألمانية، فقال لي التجار: إن الناس تشتري البضاعة الألمانية لجودتها، وأسعارنا عالية لأننا ننجز لكم مشروعا حقيقيا. لقد أنجزنا لكم سكك حديد في الماضي ما زالت حتى الآن موجودة بالرغم من الحروب والمشاكل التي مررتم بها.

واليوم هناك شركات بائسة لا تمتلك حتى موقع إنترنيت، وتربح في المناقصة وتأخذ المشروع بمبلغ أقل، بالرغم من الخدمات الرديئة التي تقدمها هذه الشركة.

لاحظوا كم ابتعدنا عن قيم الإسلام ومفاهيمه الصحيحة، يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «استرشدوا العاقل ولا تعصوه فتندموا»[٣١١]، وربما يكون الندم بعد فترة من الزمن وليس سريعًا.

---

٣١١. بحار الأنوار ٧٢: ١٠٠ح ١٤.

الدرس الثاني والثلاثون

الاستعانة بالوزراء السابقين

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر: «إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الْآثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَآثَامِهِمْ مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ وَلَا آثِماً عَلَى إِثْمِهِ أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ».

يتناول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده المبارك لمالك الأشتر الحديث عن الوزراء، والخصال التي ينبغي أن تتوافر فيهم.

والوزير هو المساعد، ومن يكون ضمن فريق العمل الذي يختاره الحاكم لإدارة البلاد ويعتمد عليه. وقد تطرق أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى من يجب أن يُستوزر ويُستعان به، ومن لا يكون كذلك، وإلى بيان الشروط والمواصفات والسمات المطلوبة في من يستعان بهم لمواقع الخدمة..

ويحذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الفقرة الكريمة الحاكم والمسؤول الجديد من اختيار وزراء له ممن كانوا وزراء لمن سبقه من الحكام الأشرار، يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً»، أي أن أسوأ أناس تعتمد عليهم في إدارة المهمة المناطة بك من كان قبلك عونًا للظالم، وكانوا ضمن البلاط وجهاز الديكتاتور، فهؤلاء يجب ألاّ يكونوا ضمن فريق عمل الحاكم والمسؤول الجديد، فإن هذا أسوأ شيء له ولنجاح مهمته، وإذا كان يريد النجاح فعليه أن يبعد من كان يضع يده بيد الأشرار من قبله.

فهؤلاء ممن اشترك مع الحكام الظلمة السابقين في الآثام، وكان هؤلاء الأشرار لا يقربون أحدًا إذا لم يلطخوه بسوء سمعتهم وسوء مواقعهم وسلوكهم، ويورطوه بالآثام

والمعاصي والجرائم؛ لأنهم لا يضمنون ولاءه إذا لم يكن متلطخًا بالآثام معهم، ليصبح شريكًا لهم في الإثم والجريمة، فلا ينبغي أن يكون أمثال هؤلاء بطانة للحاكم والمسؤول الجديد.

والبطانة هي القسم المستور من الثوب، والمسؤول أيضًا عنده بطانة لا يظهرون على الشاشات، ولكنهم مصنع القرار، وهم أذرعه في تحقيق مشروعه وأهدافه.

فلا تجعل بطانتك ممن كانوا للأشرار قبلك عونًا؛ لأنهم أعوان الحكام الظالمين الآثمين المجرمين المسيئين المذنبين، وهم أخوان الظلمة؛ لأن الطيور على أشكالها تقع، فمن يضع يده بيد الظالم ويتعامل مع الأشرار، يصبح من أخوان الظلمة.

يقول علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا مالك لا تجعل هؤلاء معك؛ لأنهم يظلمون الناس، وسوف لا تفرق الناس بينك وبين من كان قبلك من الظلمة حينما يكون هؤلاء معك، إذ ليس بالضرورة أن تلتقي أنت بالناس دائما، وإنما فريقك ومساعدوك هم من يحتك بالناس أيضًا، وسوف ترى أخلاقهم وسلوكهم. فعليك أن تختار الناس الصالحين بطانة لك ووزراء وأعوانا.

ولكن هناك إشكال كبير، لا أعرف هل أن مالكا الأشتر طرحه على أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يجيبه، أو أن عليًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أعطى الجواب بدون سؤال. والإشكال هو أن الناس تقول: إن أعوان النظام السابق هم من أصحاب الكفاءة وأهل خبرة بالحكم، وإن من كان في صفوف المعارضة لا يعرف إدارة البلاد ولا يستطيع ذلك.

وعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ يجيب عن هذه الإشكالية قائلًا: «وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ»، أي إنك تستطيع أن تجد خيرًا منهم وأكثر كفاءة وقدرة وفهمًا ومعرفة، فما أكثر المخلصين والوطنيين والشرفاء والذين لديهم كفاءة وفهم صحيح، بل هؤلاء أكثر كفاءة من أعوان الظلمة، ولكن يجب أن تجدهم، «مِّمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ» أي تجد من المخلصين والوطنيين من يمتلك نفس الرؤية والقدرة والفهم والنفاذ بالرأي والمشورة، فهؤلاء المخلصون والوطنيون سوف تجد بينهم من يملك نفس الرؤية، بل أفضل مما يملكه أعوان الظلمة.

فإنْ كنت تريد مواقف ومشاريع وحركة على الأرض، فسوف تجد أناسًا ميدانيين ويعملون أفضل من أعوان الظلمة. ويطلق في زماننا على هؤلاء اسم (اللوبي)، وأعوان الظلمة مستولون على مفاتيح المشاريع والمؤسسات في الدولة، فإذا كان من جماعتهم يسهلون له الطريق ويقفون معه ويسدون ثغراته ويدعمونه ويظهرون هذا الرجل كأنه يعرف

الكثير، وأما إذا لم يكن من جماعتهم فيضيقون عليه ويؤذونه ويصورون للناس أنه لا يعرف ولا يفقه شيئًا من عمله، ويبحثون عن زلاته.

فلذلك هم يعملون بهذه الطريقة، حتى يوحوا للمسؤول أنه لا يمكن أن يستغني عنهم، ولا يستطيع أن يحصل على من هو أفضل منهم، وهم الذين يعرفون فن الحكم وإدارة البلاد فقط، ويستطيعون تسيير الأمور بالشكل الصحيح، وهم على استعداد لمساعدته على النجاح، ويحذرونه أنه إذا وضع يده بيد غيرهم فسوف ينكسر!. وإنه لمن العجيب حقًا أن يتطرق أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى هذه الحقائق قبل ألف وأربعمائة سنة، وهي تتجدد في كل زمان ومكان.

واليوم عندما نقرأ هذا العهد كأننا نحاكي المنظومة الإدارية في بلادنا أو أي بلد آخر، وعندما نقول هذه قواعد ووثيقة تأريخية، فلأنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وضع اليد على الجرح.

ثم يبين أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ميزة الوزراء والخبراء الجدد على الوزراء والخبراء القدماء فيقول: «وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ»، وآصار جمع إصر، ومعناها زلاتهم وذنوبهم، وهذا يعرف مثلهم وأحسن منهم، ويعمل مثلهم وأحسن منهم، مع فارق جوهري؛ هو أنه حسن الصيت والسمعة، وتأريخه نظيف، وليس له أوزار السابقين، بينما ذاك يجب أن يشمله استثناء ويخفي أمره، ثم تعج الرائحة عندما تنكشف أوراقه ويأتي من يخبر عنه أنه عمل كذا وكذا، ويضطر الحاكم الجديد إلى تجاوزها، فيؤثر ذلك فيه سلبًا، وتضعف ثقة الأمة به. وكل ذلك لا يُحتاج إليه مع الكادر الجديد؛ لأنه نظيف الأصل وذو سمعة طيبة، ولا يحتاج إلى هذه الكلف المعنوية أن تدفع عنه.

السمات المطلوبة لمن يستعان به في مواقع الخدمة

هناك سمتان مهمتان يذكرهما أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ينبغي توافرهما في الوزراء والخبراء ممن يراد الاستعانة بهم في مواقع الخدمة، هما:

الأولى: أصحاب الماضي السياسيّ النظيف

وتتجلى هذه السمة من قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «مَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ». فأول شيء يجب أن يبحث عنه الحاكم والمسؤول لاختيار من يتصدى لمواقع المسؤولية، هو الشخص الذي لم يضع يده بيد الظالم ولم يعاون الظالم؛ لأن هناك أثرًا وضعيًا يترتب

على الاستعانة بأعوان النظام السابق، فمثلًا، أنا لا أنوي أن أذهب إلى مكان موبوء، لأني مهتم بصحتي، ولكني لم أكن أعرف أن من سلمت عليه مصاب بالإنفلونزا، وعندما عطس دخل الفايروس في بدني، ثم أتساءل عن علّة المرض، وسواء علمتُ أو لم أعلم، فإن الفايروس له مضاعفات، ولكن الإنسان تارة يمرض نفسه، وتارة أخرى يأتيه المرض، وبكل الأحوال هو يمرض.

وتارة يرمي الإنسان السيارة بالوادي فيسمونه انتحارا، وتارة تأخذه غفوة فيسقط ويموت، ولكن لا يدخل النار لأنه ليس انتحارًا؛ إذ الانتحار بإرادة الإنسان هو المحرّم، وأما إذا كان السبب غلطة فسيموت أيضًا، ولكنه ليس مذنبًا. فكذلك الذي يسير مع الظالم، يترتب عليه أثر وضعي يؤثر في سمعته، سواء كان مضطرًا أو لا، ولكن لا يُحاسب الجميع على حد سواء، ومن اضطر أن يتماشى مع الظالم وقلبه ليس معه، ولم يساعده ولم يسهل أموره، وانتصر للمظلوم، فهذا مكانه محفوظ، فقد كان علي بن يقطين رئيسًا للوزراء مع الحاكم الظالم، لكن الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ طلب منه أن يبقى في المنصب ليساعد الناس المظلومين.

الثانية: أصحاب الماضي الأخلاقي النظيف

وتتضح هذه السمة من قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَلَا آثِماً عَلَى إِثْمِهِ»، أي لم يُعن عاصيًا على معصيته. فهناك إنسان يرتكب الذنب، ولكن هناك شخص آخر يساعد الآخرين على ارتكاب الذنوب بالإضافة إلى ارتكابه الذنوب بنفسه. ومثل هذا لا تصلح الاستعانة به على إدارة أمور الدولة وترشيحه للتصدي للمسؤولية.

إيجابيات الوزراء الجدد

ثم يبين أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إيجابيات هذا الصنف من الناس، من الذين لم تتلطخ سمعتهم سياسيًا وأخلاقيًا، وما يمتازون به عن الوزراء السابقين، ويذكر ذلك في ضمن أربع إيجابيات:

الأولى: أخفّ مؤونة

فيقول: «أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤونةً»، ليس لديهم توقعات كثيرة، ولا يريدون امتيازات كثيرة، وعيونهم على الخدمة والعمل، فهم كما قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ

في وصف المؤمن: «قليل المؤونة، كثير المعونة»[٣١٢]، لا يريد الكثير ولكن يساعد كثيرًا، بينما ذاك يعطيك منذ البداية قائمة طويلة يجب أن توقع عليها، ويريد حمايات وامتيازات ليعمل معك.

الثانية: أحسن معونة

ثم يصفهم عَلَيهِ‌السَّلَامُ بوصف آخر فيقول: «وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً»، أي إن هذا الشخص يساعدك بالعمل ولا يتوانى فيه ويوصل الليل بالنهار، وليست عينه على الراتب، ولا ساعة الدوام، ولا الامتيازات، بل يريد أن يخدم، فهو صاحب قضية ومشروع، فهؤلاء عندما يأتي بهم المسؤول سوف يستفيد منهم، ويسير عمله بصورة صحيحة.

الثالثة: أفضل ولاءً

ثم يصفهمعَلَيهِ‌السَّلَامُ بوصف ثالث فيقول: «وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً»، فهذا الشخص الجديد الذي جئت به ونصبته مديرًا عامًا أو مسؤولًا، سيقول إن هذا ذكرني وعرفني ووقف معي وأراد أن يستفيد من طاقتي، ولم يغرّه وهج الآخرين وأعطاني فرصة وعطف علي، فيرتبط بك ويقف معك.

واليوم نحن بحاجة إلى الوفاء والالتحام والحس الوطني، ونريد أناسًا قلبهم يحترق على الوطن والمواطن، ونريد حرقة قلب ووفاء بحق إنسانية الإنسان، والمبادرة إلى حل مشكلته؛ فلا تتعبه أيها المسؤول وسهل أمره وساعده وأوص زملاءك بتسهيل أمره، واعلم أن الله تبارك وتعالى سيدفع عنك ألوان البلاء، وحاشى لله أن يضيع إنسانية أحد ومواقفه النبيلة والشريفة.

الرابعة: قلة ولائهم للغير

ثم يصفهمعَلَيهِ‌السَّلَامُ بوصف رابع فيقول: «وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً»، فإن الوزراء السابقين باعتبارهم كانوا من أعوان الظلمة الماضين، لديهم منظومة أصدقاء وشبكة من علاقات وأناس يعملون لهم كخط مائل، وبذلك يشكلون خطرًا مستمرًا على النظام الجديد، ومصدر قلق دائم يمتلك النفوذ والصلاحيات والعلاقات الواسعة والخبرة والتجربة.

---

٣١٢. مستدرك الوسائل ١١: ١٨٠ح٢٢.

وهؤلاء، مادام الحاكم والمسؤول الجديد بخير وعافية وأموال وإمكانات وامتيازات فهم معه، ولكن إذا انفجرت الأوضاع تجدهم بالجهة الأخرى أو بالصف الأخير على أحسن تقدير يطلبون العافية، وعندما تقف مشكلة بوجهه، تجدهم يغطون رؤوسهم ويخفونها تحت الرمال، لكي لا يصيبهم مكروه، وهم غير مستعدين لأن يدافعوا عن النظام الجديد، وإنما جاؤوا لكي يحلبوه ويأخذوا منه، وقلوبهم في مكان آخر. ولكن هذه الأمور لا تجدها عند الإنسان النظيف الذي لا يملك علاقات سابقة مع الظلمة، ويبقى وفيا للنظام الجديد.

وكم نحن بحاجة إلى مثل هؤلاء، من الذين لا يوالون الأعداء، ويحبون وطنهم وأهلهم، ولا يُشترون ويُباعون في سوق النخاسة والعمالة للأجنبي. وهؤلاء هم الوطنيون الشرفاء النبلاء.

ثم يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الحاكم الجديد بأن ينتخب هؤلاء خاصة لخلواته وحفلاته. وخلواته تعني أوقات المشورة خلف الأبواب المغلقة، وحفلاته تعني أوقات حضوره بين الناس، فيعرفهم الناس عندما ينظرون إليهم بتأريخهم الجهادي والسياسيّ العريق وبأخلاقهم الفاضلة وبمواقفهم الوطنية النزيهة، وسيقولون حينئذ: الحمد لله، إن أمورنا بخير إن شاء الله تعالى، وأما إذا رأوا غيرهم فسيقولون: عجبًا، ما الخبر؟!، فهذه نفس الوجوه القديمة.

الدرس الثالث والثلاثون

سمات الوزير الناجح

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر في بيان سمات الوزراء الناجحين: «ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ».

يذكر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذا المقطع خصلتين مهمتين ينبغي أن تتوافرا بالوزير، وهما: النصيحة، وعدم الإعانة على الإثم.

الخصلة الأولى: النصيحة

يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الحاكم والمسؤول أن يكون أقرب الناس إليه وأكثرهم منزلة هو الأكثر نصحًا. ويتضح ذلك من قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ»، فكلام الحق مُرّ، والنصيحة الصحيحة مزعجة، فمن الصعب أن يقف شخص في وجه مسؤوله ويصارحه بأخطائه، ويقول له: أنت مخطئ وإجراؤك هذا خلاف القانون؛ فالمسؤول عندما يعترض عليه أحد الموظفين يقوم بإبعاده.

إن البعض من المسؤولين يحب أن يسمع من المحيطين به المديح والثناء، حتى يتحول ذلك إلى ثقافة لدى هذا الفريق؛ من أجل أن يحافظ على امتيازاته، فيتعرف على ميول المسؤول ويعمل على إرضائها، وعندما تسأله عن هذا الموقف أو القرار، يجيبك بأنه غير صحيح ولكن المسؤول يرغب فيه ويحبه، وإن كان يؤدي إلى فشل هذه المؤسسة، فالمهم إرضاء المسؤول.

وفي منظومة تحاسب من يقول الحق، يبتعد أهل الحق ويتقرب الناس الذين يعملون على إرضاء المسؤول. والسؤال: من أين يبدأ الحل؟. إنه يبدأ من المسؤول نفسه، وهنا علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا يخاطب أهل مصر، بل يخاطب مالكا ويقول له: «ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ

أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ» . فالوزير مثل الطبيب الحاذق، عندما يكتشف مرضا في المريض يصارحه بالحقيقة، وإن كان المرض خطرًا يصارح ذويه ويخبرهم الحقيقة، والمريض يشكر الطبيب على إعطاء المعلومة الحقيقية من أجل الإسراع في معالجة الخطر.

وأما إذا كان المرضى يرفضون كلام الطبيب ويهددونه، فهنا إما أن يترك هذا الطبيب المهنة، وإما أن يتستر على الحقيقة. وفي الواقع الاجتماعي والسياسيّ، يقال الكلام نفسه.

فعلى القائد والمسؤول أن يقرّب من هو أكثر الناس صراحة وصدقًا معه في قول الحقيقة وفي بيان أخطائه، لأن الصراحة هي المدخل لنجاح فريق العمل، ولا يمكن للفريق أن يكون صريحًا إلا إذا كان المسؤول يشجعهم على الصراحة، ويتقبل منهم النصح، ويفتح لهم الأبواب، حتى يقولوا ما في نفوسهم وما يعتقدون بأنه الحق، فإن كان صحيحًا أخذ به، وإن لم يكن صحيحًا أقنعهم بوجهة نظره في هذه المسألة.

الخصلة الثانية: عدم الإعانة على الإثم

كما يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الحاكم والمسؤول أن يقرب منه أقل الناس إعانة له على الإثم، ويتجلى ذلك من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ»، أي عندما يرتكب المسؤول الخطأ أو عندما يسير في طريق غير صحيح، ينظر إلى من لا يسير معه من فريقه، ومن يتثاقل ومن يمتنع عن الاستجابة لطلباته الخاطئة ومواقفه غير الصحيحة، فيقربه إليه ويكون آثر عنده من غيره، لأنه لم يجامله على الباطل.

فعلى المسؤول ألاّ يُقدِم على الأعمال الخاطئة، لأن المسؤولية مُغرية، وعندما يجلس المسؤول على كرسي المسؤولية ويمتلك القرارات والإمكانات قد يقع في الهاوية والزلات، وقد تصيبه حالة من النرجسية، وقد تعلو في داخله حالة من الكبرياء والاعتداد الخاطئ بالذات.

وهذه المسائل تحتاج إلى معالجة، ويجب عليه أن يضع في منظومته الكوابح التي توقفه عن الذهاب والاندفاع في الاتجاه الخطأ، ويجب أن يختار لنفسه منظومة لا تسايره على المضي في المسار الخاطئ.

إذن، هناك خصوصيتان أساسيتان يجب أن تُلحظا في الوزير وفي الفريق المساعد له، وهما الصراحة وعدم التماشي في الموقف الخاطئ.

ومن النصوص المؤيدة لهذا المعنى والداعمة لهذه الرؤية ما ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: «إنما يحبك من لا يتملقك، ويثني عليك من لا يسمعك»[٣١٣]، فالمحبة الصادقة ليست بالتملق، وإنما هي بقول الحقائق للمسؤول.

واسمحوا لي أن أقول إن شعوبنا هي التي تساعد على صناعة الديكتاتور، فالإنسان لا يُولد ديكتاتورًا، بل يصبح كذلك بسبب سماع المديح والكلام المعسول والثناء حتى يصدق ذلك في نفسه، وهؤلاء أنفسهم الذين يمدحون المسؤول في مجلسه، ربما يذمونه من خلفه.

فعلى المسؤول أن يحذر ممن يكثر التملق له، إذ ليس من المعلوم أنه يحبه بالفعل، فالتملق ليس دليل المحبة، بل هو دليل الانتهازية، كما يقول علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن الممكن أن يعبر المحب عن محبته، من غير أن يصل إلى حد التملق، فهذا ليس الاتجاه الصحيح، وإنما هو من يخبرك بالحقيقة والخطأ والصحيح.

وأما قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ويثني عليك من لا يسمعك»، أي إذا كنت تريد من يمدحك مدحًا حقيقيًا، فهو من لا يُسمعك ما ترضاه، وإنما يُسمعك الحقيقة، فإذا كانت الحقيقة طيبة يسمعك الكلام الطيب، والعكس صحيح. فعلى المسؤول أن يمنح الفرصة المناسبة لكي يكون فريقه صريحًا معه، والصراحة غير الوقاحة، فالصراحة تعني بيان الحقيقة، ولكن بدون جرح كرامة المسؤول، وبدون كسر هيبته، وبدون التشهير به، فالتشهير ليس صراحة بل وقاحة، فينبغي إخباره أن هذا الموقف خاطئ بدون الحط من شأنه أمام الآخرين.

ولهذا يجب على المسؤول تقريب من يتكلم معه بالصدق؛ لأنه الصديق الحقيقي. ففي رواية عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «إنما سمي العدو عدوًا لأنه يعدو عليك» أي يتجاوز عليك، «فمن داهنك في معايبك» في حين أن كل الناس تعرف أنها عيوب وأخطاء وهو يجاملك ويعتبرها أعمالا صحيحة، «فهو العدو العادي عليك»[٣١٤] أي هو العدو الذي يتجاوز عليك حينما لا يخبرك بالحقيقة ويُسمعك كلامًا طيبًا فيما أن الموقف ليس موقفًا طيبًا، وهذا معناه أنه يعتدي عليك من حيث لا يقصد ولا يشعر، وأنت سعيد بهذا، فلا تقرّب العقارب والأعداء المتملقين الذين يُسمعونك الكلام الطيب، فهؤلاء يرمون بك في الهاوية.

---

٣١٣. عيون الحكم والمواعظ: ١٧٧.

٣١٤. عيون الحكم والمواعظ: ١٧٨.

وعن الإمام الجواد عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «قد عاداك من ستر عنك الرشد اتباعًا لما تهواه»[٣١٥]، أي حجب عنك الموقف السديد الصحيح وتماشى مع هواك ومع رغباتك، وهذا هو العدو الذي يجب أن تبعده، فهذه طاعة عمياء لا تنفع شيئًا، والمطلوب هو الطاعة الصحيحة عن بينة وعن موقف نستدل على صحته بالدليل، وهكذا يمكن إعانة المسؤول والقيادة بالموقف السديد.

وعن الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ليكن أوثق الناس لديك أنطقهم بالصدق»[٣١٦]، أي ينبغي أن يكون أقرب الناس منك وأخصهم بك أصدقهم معك، فمن يتكلم معك بالصدق يجب أن تقربه، وهو الصديق الحقيقي الذي يدافع عنك من خلفك ويشاورك أمامك ويخبرك بالحقيقة ويدلك على الخطأ.

وعن الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «ليكن أحب الناس إليك المشفق الناصح»[٣١٧]، أي إن من ينصحك ويعطيك الكلام الصحيح فهو أقرب الناس منك وأحبهم إليك.

وعن الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «إنما سمي الصديق صديقًا لأنه يصدقك في نفسك ومعايبك، فمن فعل ذلك فاستنم إليه فهو الصديق»[٣١٨]، فمقتضى الصدق أن يكون صادقا معك ويقول لك الحقيقة حتى لو لم ترضها، ومثل هذا الإنسان يجب أن تتقرب منه وتعمق صداقتك معه، فهو الصديق الصدوق.

وورد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «من أمر بسوء أو دل عليه أو أشار به فهو شريك»[٣١٩]، أي يقول إن هناك طريقًا معينًا أو مخرجًا قانونيًا لهذه القضية لينحرف بها من الحق إلى الباطل، أو يفسر المادة القانونية تفسيرًا خاطئًا أو ما شابه ليبرر بها الظلم أو موقفا خاطئا أنت تريده، فهذه مرحلة أقل ولكنها أيضًا سيئة. أو أشار به، أي يعطي علامات يكتشف من خلالها الموقف الذي يخرج به من الحق.

وفي كل هذه المراتب؛ يأمر أو يدل أو حتى يشير، يكون شريكًا في الجريمة وشريكًا في كل اعتداء على حقوق المواطنين؛ لأنك أمرته أو دللته أو أشرت إليه، بأي مستوى من المستويات. إذن من يتماشى مع الظالم ومع الموقف الخاطئ، فهو يتحمل وزره يوم القيامة.

---

٣١٥. بحار الأنوار ٧٥: ٣٦٤، ح٥.
٣١٦. عيون الحكم والمواعظ: ٤٠٤.
٣١٧. ميزان الحكمة ٤: ٣٢٨١. غرر الحكم: ح٢٤٩٤.
٣١٨. عيون الحكم والمواعظ: ١٧٨.
٣١٩. بحار الأنوار ٢: ٢٤، ح٧٦.

وفي ثقافتنا الاجتماعيّة يقال كثيرًا المأمور معذور، ولا أدري من أين جاؤوا بهذا؟!!. بل المأمور غير معذور إذا خالف طاعة الله تعالى. ويجب على الإنسان الحفاظ على سمعته وتأريخه، فإن المواقع والمناصب تأتي وتذهب، ولكن السمعة حينما تذهب فلن تعود. وفي أي ظاهرة سلبية لا نستطيع أن نضع كل اللائمة على شخص واحد، فكل من يشارك بأي مستوى من المستويات هو شريك.

فعلى المسؤول أن يختار من يكون صريحًا معه ومن لا يتماشى معه في الخطأ ومخالفة الشرع. ويجب على الشخص الذي يعمل تحت إمرة المسؤول أن يكون صريحًا مع مسؤوله، ولكن الصراحة يجب ألا تصل إلى حد الوقاحة، بحيث تكسر هيبة المسؤول. ويجب عليه أيضًا إذا طلب منه أمرًا خلاف القانون، ألا يطيعه حتى لو بلغ الأمر أن يقيله من منصبه، فالمهم هو البقاء على الحق والدفاع عن القانون والالتزام بالسياقات.

المقطع الحادي عشر

المقربون

يقول أمير المؤمنين عَلَيهِ‌السَّلَامُ :

«وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ ، ثُمّ رُضْهُمْ عَلَى أَلاّ يُطْرُوكَ وَلاَ يُبَجِّحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ ، فَإِنّ كَثْرَةَ الإطْرَاءِ تُحْدِثُ الزّهْوَ مِنَ الْعِزَّةِ . وَلاَ يَكُونَنّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ ، فَإِنّ فِي ذلِكَ تَزْهِيدًا لأَهْلِ الإِحْسَانِ فِي الإحْسَانِ ، تَدْرِيبًا لأَهْلِ الإِسَاءَةِ عَلَى الإسَاءَةِ ، وَأَلْزِمْ كُلًّا مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ» .

الدرس الرابع والثلاثون

حاشية المتصدي وبطانته والفريق الذي يلتصق به

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر: «وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَلَّا يُطْرُوكَ وَلَا يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ».

يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الحاكم والمسؤول عند اختيار من يجعل نفسه لصيقًا بهم، من حاشيته وأخلائه وأصدقائه والمقربين إليه، أن تتوفر فيهم صفتان أساسيتان، هما: الورع والصدق.

ثم يطلب عَلَيْهِ السَّلَامُ من الحاكم أن يعوّد هذه البطانة ويروضهم على ألا يطروه ويمدحوه كثيرًا، فحينما تكون البطانة متملقة مادحة، سيصفقون له ويمدحونه كلما تصدى لعمل ما، صحيحًا كان أو خطأ، عاديًا أو متميزًا، وهذا يُوقعه في الغرور وفي إشكاليات كبيرة أخرى.

فلا ينبغي للمسؤول أن يقبل لنفسه أن يكون في معرض المديح والإطراء المستمر لهؤلاء. ولا أن يبجحوه بباطل لم يفعله، فهؤلاء يريدون أن يدخلوا السرور عليه بتصوير باطل لم يصدر منه، وهذه البطانة المادحة سوف تجعله يعيش في أجواء من الفرح والبهجة والسرور بمعزل عن العالم الخارجي، ليعيش العالم الوهمي، ويصورون له أشياء لم يفكر بها ولم يقلها ولم يفعلها، ويوهمونه حتى يصدق.

فلا ينبغي للمسؤول أن يسمح لبطانته بأن يجعلوه يعيش في هذه الصورة الوهمية الباطلة؛ لأن كثرة الإطراء والإعجاب والمديح والثناء توجب حالة من الزهو والعُجب لدى الإنسان، فيرى نفسه أحسن من الآخرين، وتقربه من حالة العزة والكبر، فيشعر أنه أكبر من الآخرين، فتأخذه النشوة الكاذبة، وما أخطرها!، وما أخطر الشعور لدى

المسؤول أنه مسدد ومؤيد، وأن كل ما يقوله ويفعله ويفكر به هو عين الصواب!، ويتناسى أن العصمة للأنبياء والأوصياء!.

فعلى المسؤول أن يدرك أنه ليس معصومًا، وإذا كانت البطانة توحي له بذلك، فعليه ألاّ يسمح لهم بأن يغروه ويأخذوه إلى العالم الوهمي.

وهناك من يقول إن الشعوب هي من تصنع الطواغيت، وثقافتنا هي التي تصنع الديكتاتور حينما يكثر المديح والإطراء، وحينما تتحول كل كلمة وموقف منه إلى شيء كبير، في حين أنه قد لا يكون كذلك. وحينما نسلب من المسؤول إنسانيته ونجعله في مقام الملائكة والأنبياء والأوصياء وفي مقامات عالية هو ليس منها، نقع حينذاك نحن في الفخ، ونوقع المسؤول في الفخ عندما يصدق بما نقول، وهذه بداية الانحراف وبداية الخروج عن المسار الصحيح.

ولذلك، فالبطانة من الأصدقاء والأقرباء الذين يقربهم المسؤول ويقتربون منه ويلتصق بهم لا تعتبر قضية شخصية.

فعلى المسؤول أن يكون دقيقًا في اختيار أصدقائه والمحيطين به، فهو ليس إنسانًا عاديًا حتى تكون له علاقات خاصة، بل هو رجل خدمة عامة، ويجب أن تخضع علاقاته لمعايير دقيقة تنسجم مع الموقع الذي هو فيه. فالإنسان في موقع المسؤولية يجب أن يكون دقيقًا في من يختار من الأصدقاء، وإذا لم يستطع فليقدم استقالته ليصبح إنسانًا عاديًا، ولكنه مادام في مواقع التصدي والمسؤولية، فكل شيء يجب أن يخضع لحساب دقيق ومنها اختيار البطانة والحاشية ومن هو لصيق به.

ولنأتِ على بيان الخصلتين الأساسيتين اللتين ينبغي توفرهما في الأشخاص المحيطين بالمسؤول بحسب المعايير التي وضعها أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ في هذا المقطع، وهما الورع والصدق، كما ذكرها في هذا العهد الكريم: «وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ».

الصفة الأولى: الورع

الورع حالة أكثر من التقوى، فالتقوى ألاّ يرتكب الإنسان معصية، وأما الورع فهو أن يتجنب الشبهات.

يقول أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ: «أصل الورع تجنب الآثام، والتنزه عن الحرام»[٣٢٠]. فالورع يعني عدم الاقتراب من مظان الشبهات ومن مظان المعاصي والآثام والمحرمات.

---

٣٢٠. غرر الحكم ٢: ٤١٧.

فيجب أن يكون عند هؤلاء الناس المحيطين بالحاكم والمسؤول طهارة قلب عالية، ونظافة العين واللسان، ونظافة الفكر، ومثل هؤلاء الناس النظيفين ينبغي للحاكم والمسؤول أن يقربهم منه؛ لأن النظيف لا تصدر منه قاذورة، وكل مكيدة قاذورة، وكل كذب وفكرة مسمومة قاذورة، وكل شحناء وبغضاء تلقيها في قلب المسؤول تجاه شعبه ومن هو مسؤول عنهم قاذورة.

والإنسان الورع، وهو الإنسان النظيف والطاهر، لا تصدر منه هذه القاذورات. فإذا أراد المسؤول أن تكون بيئته النفسية والمعنوية نظيفة فعليه أن يختار بطانة وجماعة قريبة منه يشيعون الاطمئنان وحب الخير، ويشيعون السلام والوئام، ويشيعون حب الآخر في قلبه.

ويقول عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «إنما الورع التطهر عن المعاصي»[٣٢١]، فيرى الإنسان نفسه غريبًا عن المعصية والبيئة الملوثة. والكبير كبير بعظم النفس وسعة النفس، وعلى المسؤول أن يحاول جعل بطانته والمحيطين به من ذوي النفوس الكبيرة والطاهرة.

ويقول عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «عليك بالورع فإنه خير صيانة»[٣٢٢]، فالورع أفضل درع وأفضل صيانة للإنسان، فهو الدرع الواقي الذي يجنب الإنسان الوقوع في الحرام والمعصية.

ويقول عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «لا معقل أحسن من الورع»[٣٢٣]، والورع هو الملجأ الصحيح الذي من خلاله نحافظ على أنفسنا من مخاطر الذنوب والآثام والمعاصي والسوء، التي قد تطولنا وتصيبنا.

ومن هنا يتضح أن أهم الصفات والسمات التي يجب أن يتصف بها من يحيط بالمسؤول، هو الورع عن محارم الله سبحانه وتعالى.

الصفة الثانية: الصدق

والصفة الأخرى التي ذكرها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مما ينبغي أن يتصف بها المقربون من الحاكم والمسؤول هي صفة الصدق، ولذا عليه أن يختار أخلّاء وأصدقاء صادقين، يُصدِقونه القول، ولا يقولون له شيئًا خلاف الواقع، ولا يفسرون له الأمور تفسيرات خاطئة، ولا يغرونه؛ لأن من شأن ذلك فقدان ثقة الشعب به.

---

٣٢١. عيون الحكم والمواعظ: ١٧٨.
٣٢٢. غرر الحكم ٤: ٢٩٠.
٣٢٣. نهج البلاغة: الحكمة ٣٧١.

وإذا فُقدت الثقة بين المسؤول والشعب تحولت العلاقة بينهما إلى علاقة عدائية، لتتسع الفجوة مع الزمن إلى الحد الذي لا يمكن تداركه، وحينئذ ستحل الكارثة به وبمن يحيطون به.

وهذه الثقة يحتاجها المسؤول عن شعب أو أمة من الناس، أو عمن هو مسؤول عنهم في مصنع أو دائرة أو أي مستوى من مستويات التصدي؛ لأن منظومة الإدارة والقيادة في الإسلام لا تختص بالزعماء والأمراء والوزراء فقط، بل هي تمتد لكل من يتحمل المسؤولية وصولاً إلى رب الأسرة، حينما يكون مسؤولاً عن أسرته.

فيجب أن تتوافر هذه الصفات بحجم مسؤولية كل إنسان، وكلما توسعت المسؤولية لزم توافر هذه المعايير بشكل أكبر وأوضح.

وقد وردت النصوص الكثيرة عن المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في أهمية الصدق، وأنه مسألة أساسية وضرورية. منها قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الصدق صلاح كل شيء، والكذب فساد كل شيء»[٣٢٤]، فمفتاح الصلاح في كل الأمور هو الصدق، وإذا بدأ الإنسان يقول خلاف الواقع في مسألة معينة، فمن يضمن أنه سيكون صادقًا في المسألة الثانية؟، وإذا كذب في شيء قد يكذب في كل شيء، وتزعزعت الثقة به، وإذا زالت الثقة به، فلا يمكن الاعتماد عليه والتفاهم معه، ويصبح التواصل معه عملية معقدة جدًا.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الصادق على شفا منجاة وكرامة، والكاذب على شفا مهواة ومهانة»[٣٢٥]، فالصادق في محطة انطلاق نحو النجاة والرفعة والكرامة، وإذا تكلم بكلام فالناس تثق به، ولا يعطي الكلمة بسهولة، ولكن إذا أعطاها التزم بها.

وأما الكاذب فكأنه يرمي نفسه إلى الهاوية ويعرض نفسه للمهانة والإذلال؛ لأن حبل الكذب قصير، ومن يكذب سيعتاد الكذب، وسوف ينسى ماذا قال قبل قليل، وأما الصادق فهو ينطلق من الحقيقة، والحقيقة لا تتغير وجوابه وكلامه اليوم وبعد عشر سنوات واحد؛ لأنه صادق ويتحدث عن الحقيقة. فمن يبني على الصدق تكون كلمته واحدة، ومن يبني على الكذب يتكلم بكلام متناقض ولن تعرف الصدق منه، ويعرّض نفسه إلى المهانة والهاوية.

٣٢٤. غرر الحكم ١: ٢٨١.

٣٢٥. نهج البلاغة: الخطبة ٨٦.

وعن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم وكثرة الحج والمعروف وطنطنتهم بالليل، ولكن انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة»[٣٢٦].

يعطي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مقياسًا دقيقًا لتقييم الناس، لا يكفي فيه الاقتصار في النظر على أداء الفرائض العبادية من الصلاة والصيام والحج والزكاة، ولا حتى أعمال المعروف التي يأتي بها المسلم تطوعًا، إذ ربما كانت هذه الأعمال لا يقصد بها وجه الله تعالى، بل لا حتى قيام الليل وأداء النوافل وتلاوة القرآن، يسميها الرسول الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بالطنطنة، أي مجرد لقلقة لسان؛ لأنها لو لم تكن كذلك لتركت أثرها في السلوك، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[٣٢٧].

ثم يعطي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ المقياس الصحيح في تقييم المسلم، وهو صدق الحديث وأداء الأمانة، فهما المحك والمعيار، وهنا يكمن الاختبار العسير، فيقول الصدق حتى لو كان على خلاف مصالحه، ويؤدي الأمانة حتى لو لم تكن هناك وثيقة عليه.

ولكن نرى الناس حتى وقتنا الحاضر، ما زالت تعتمد في تقييم المسلمين على ما نهى عنه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فتنظر إلى المظاهر الخارجية وتتناسى المعيار الواقعي، وهو صدق الحديث وأداء الأمانة. ومن هنا ينبغي على الحاكم عند اختيار المقربين منه، أن يتأكد من وجود هاتين الخصلتين فيهم، لكي يتمكن من الثقة بهم والاعتماد عليهم.

وعن الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال تأكيدًا لما قاله رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «لا تغتروا بصلاتهم ولا بصيامهم، فإن الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة»[٣٢٨]، فإن الإنسان يتعود على الصلاة والصيام، حتى أنه إذا لم يصل يوما واحدا أو ترك صوم يوم واحد من شهر رمضان استوحش وكأنه فقد شيئًا، ويتحول عنده أداء الصلاة والصيام إلى عادة مستحكمة، فالعادة شيء، والملكة الأخلاقية التي ترفع من مكان الإنسان شيء آخر.

ثم يبين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المعيار الصحيح في التقييم، وهو الاختبار عند صدق الحديث وأداء الأمانة، فهناك ما لا يُحصى كثرة ممن يؤدون الصلاة ويصومون شهر رمضان، ولكنهم

٣٢٦. بحار الأنوار ٦٨: ٩ح ١٣.
٣٢٧. سورة العنكبوت: الآية ٤٥.
٣٢٨. الكافي ٢: ١٠٤.

يكذبون ولا يؤدون الأمانات إلى أهلها، ولا سيَّما إذا تعارض ذلك مع مصالحهم. ولذا يجب على المسؤول إجراء هذا الاختبار على من يريد اختياره ليكون من المقربين إليه.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبته بعد أن بايعه الناس خليفة للمسلمين مؤكدًا على أهمية أن يكون المتصدي للمسؤولية إنسانًا صادقًا: «ذمتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم»، أي إنه مسؤول عن كل كلمة سيقولها، وهو ضامن لما سيذكره.

وذكر أشياء كثيرة ثم قال: «والله ما كتمت وشمة، ولا كذبت كذبة»[٣٢٩]، يقسم عَلَيْهِ السَّلَامُ بشأن ما يريد أن يبينه للناس في أول خطبة له، وهو الصادق المصدق، بيانًا لأهمية ما يريد أن يقوله لهم. والوشمة: كلمة الحقيقة، مأخوذة من الوشم على الجلد، فالأُبرة حينما تُغرس فهذه وشمة، وبتعددها تصبح وشما. أي أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكتم عليهم حقيقة بقدر رأس الأبرة، وأنه ليس عنده وجهان، ظاهري وباطني، فهو ليس من أهل المكر والخداع والالتفاف، وإنه لم يكذب كذبة واحدة في حياته، ولم يقل شيئًا خلاف الحقيقة.

وعن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قوله في بيان رذيلة الكذب ومنشئها النفسي: «لا يكذب الكاذب إلا من مهانة نفسه عليه»[٣٣٠]، أي إن الكاذب لا يكذب إلا حينما يكون عنده شعور بالمهانة والانحطاط النفسي الداخلي، وهذا تحليل نفسي عميق يبينه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ للكذب.

فعلى الإنسان أن يعترف بالخطأ، والاعتراف بالخطأ فضيلة، وإذا كان كلامه صوابًا فهو مدعاة للفخر أن يكون ما قاله في محله. فالكذب دليل على انحطاط خلقي ومهانة نفسية. ولذا ينبغي على الإنسان الشريف تجنب الكذب وإنْ لم يكن مسلمًا.

في رواية أخرى عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار»[٣٣١]، فمن يكذب مرة سيكررها مرتين وثلاثًا إلى أن تتحول إلى سجية في حياته، ولذلك يقول الإمام العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ: «جُعلت الخبائث في بيت وجُعل مفتاحه الكذب»[٣٣٢]، أي إن الكذاب يفتح باب الخبائث كلها على نفسه. إذن، فالورع والصدق صفتان أساسيتان يجب توافرهما في من يريد أن يختاره المسؤول بطانة له.

---

٣٢٩. نهج البلاغة: الخطبة ١٦.
٣٣٠. بحار الأنوار ٦٩: ٢٦٢ح ٤٥.
٣٣١. بحار الأنوار ٦٩: ٢٥٩ح ٢٤.
٣٣٢. بحار الأنوار ٧٨: ٣٧٧.

أخطار مدح الحكام والمسؤولين

إن كثرة إطراء الحكام والمسؤولين تُحدث الزهو والعجب لديهم، وفي هذا خطر فادح عليهم وعلى الأمة. ولهذا يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المسؤول أن يحذر المقربين منه من الثناء عليه ومدحه؛ لأنهم أول من يبادر إلى المدح والإطراء، فيكونون أُسوة سيئة لعامة الناس لسلوك هذا الطريق.

ويستعمل أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كلمة الترويض هنا إشارة إلى حاجة البطانة إلى التدريب الشاق والتذكير المستمر لترك هذه العادة السيئة. فيطلب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من المسؤول أن يروض حاشيته على ترك مديحه والثناء عليه مطلقًا، وإن كان يستحق هذا الإطراء واقعًا.

ويطلب منه أيضًا ترك تبجيحه بباطل لم يفعله، ليسعدوه بأمور لم تحدث ولم تحصل منه، ويحذرهم حتى لا يقوموا بهذا المديح والإطراء بطريقة توحي له أنه يفهم كل شيء وأفكاره مهمة جدًا، في حين إنه كأحدهم وإنسان منهم يعرف أشياء ويجهل أخرى، ويُوفَّق في مجالات ويخفق في مجالات أخرى، وهو بشر وحينما يصبح وزيرًا أو مديرًا أو رئيسًا في أي موقع من مواقع المسؤولية لم يتغير ولم ينزل الوحي عليه.

ثم يبين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الآثار الوخيمة لمدح الحكام والمسؤولين، وهي:

أولًا: إن كثرة الإطراء تحدث الزهو عند المسؤول، وتحصل لديه حالة من العجب بنفسه وآرائه ومواقفه.

ثانيًا: حصول حالة من العزة عند المسؤول تقربه من حالة التكبر، فيتعالى على الآخرين ولا يقبل منهم رأيًا أو نصيحة، فيعتبر رأيه هو الرأي الصائب فقط، وما عداه خطأ.

ومن هنا يحذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مالكًا من تقريب مثل هؤلاء الذين لا يجيدون غير التصفيق والتطبيل للحاكم والمسؤول، ويوصيه بأنه إذا أراد النجاح فعليه أن يختار بطانته من غير هذا النوع، وأن يروضهم ويربيهم على ألاّ يكثروا الإطراء والمديح.

يقول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في تأييد هذا المعنى: «إياك وحب الإطراء والمدح فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان»[٣٣٣]، حينما يصبح المسؤول راغبًا

---

٣٣٣. نهج البلاغة: الرسالة ٥١.

بالمديح والإطراء، وإن لم يُظهر ذلك للناس بلسانه، لكن سلوكه يدل على ذلك، فحينما يمدحه شخص يقربه، وحينما ينتقده يُبعده، وهذا يعطي إيحاء لمن يريد أن يحصل على الامتيازات وتُناط به المهام أن يُكثر من المديح والإطراء، وأن من ينتقد ويشفق على حال المسؤول ويحرص على إيصال المعلومة الصحيحة لئلا يقع في الفخ ويضيع، ويضيع المشروع معه، فإنه يُبعد.

ومن هنا يُحجِم من له حرص على المشروع والوطن عن الانتقاد وإبداء النصح حينما لا يجد آذانًا مصغية، ويجد الصدود بوجه من يبدي النقد المشفق ومن يذكر الملاحظات الحريصة على المشروع، ومن يضع اليد على نقاط الضعف حتى تصحح، وحينما يرى أن أمثال هؤلاء الناس إما يُبعدون أو يُمسِكون عن إبداء النصيحة، ويصبح المسؤول لا يسمع غير أصداء سلوكه وأقواله.

وحينما يقول المسؤول شيئًا، فهناك من يصفق وهناك من يسكت، ولا يسمع صوتًا لمعترض سوى صوت المديح والإطراء، فيصاب بحالة العجب أو الكبر، ويتولد من هذا الشعور أن ما يقوم به هو أفضل الأفعال.

وبالنتيجة سوف تختفي نقاط الضعف عليه وعلى الآخرين القريبين منه أو ربما يخفونها عنه، فلا يسمع إلا المديح والإطراء والثناء على المواقف والسلوك والآراء، وتغيب نقاط الضعف والإخفاقات في أداء المسؤول، كائنًا من كان، وقد مر أن المسؤولية لا تنحصر بمستوى واحد، بل هي تبدأ من رب الأسرة إلى مدير الشركة أو المصنع أو كابتن الفريق الرياضي أو رئيس العشيرة وغيرهم.

فالبعض منا مثلًا في البيت، لا يسمح لأولاده أو لزوجته أن يوجهوا نقدًا أو ملاحظة على سلوكه أو أدائه أو طريقة تعامله، ويريد فقط أن يأمر فيُطاع، وهذا أمر نفسي، وكلما كانت دائرة المسؤولية أكبر تبينت مضاعفات هذه الحالة بشكل أكبر.

إذن، غياب نقاط الضعف عن نظر المسؤول يمثل إحدى المشاكل، فحينما لا يعترض أحد ولا يسمع المسؤول سوى أصوات المديح فإن هذا يدعوه إلى أن يقصر بأداء الواجبات أو يغفل عن أداء جزء منها، وقد يقصر في أداء الحقوق لأصحابها من دون أن ينبهه ويلفت نظره أحد، ومن عنده حاجة يخشى أن يطالبه بها.

وهذا هو شأن الطواغيت، إذ تبدأ عملية تجاهل الحقوق بشكل مضطرد، وتتسع هذه الرقعة يومًا بعد آخر، والمسؤول يرى أن كل شيء جيد ويسير على ما يرام، ففي

قصره كل شيء متوافر، وما يريده يكون متوافرا في أماكن وجوده، فلا يستطيع أن يفهم ما يواجهه الآخرون.

وروي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أمر أن يُحثى في وجوه المداحين التراب(٣٣٤)، فكان يربي أصحابه على مكافحة المديح والنهي عنه، وأمرهم إذا وجدوا من يقوم بالمدح والإطراء أن يرموا التراب في وجهه حتى يكف عن ذلك؛ لأن هذا المديح لا يصلح، بل يفسد ويعقد المهمة.

وفي رواية أخرى عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أيضًا: «إياكم والمدح فإنه الذبح»(٣٣٥)، فالمديح يعني ذبح الإبداع، وذبح التألق، وتغييب كل مكارم الأخلاق من التواضع والاستماع إلى الآخر والاعتناء به ورعايته.

التوازن الدقيق بين الواجبات والحقوق

وفي خطبة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ خطبها في صفين يتحدث فيها عن العلاقة بين المسؤول والرعية، يقول في أولها: «أما بعد، فقد جعل الله تعالى لي عليكم حقًا بولاية أمركم، ومنزلتي التي أنزلني الله عز ذكره بها منكم، ولكم عليّ من الحق مثل الذي عليكم، والحق أجمل الأشياء في التواصف وأوسعها في التناصف»(٣٣٦).

يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قضية مهمة وأساسية، وهي كما أن للأمة حقوقا وواجبات تجاه الحاكم والمسؤول، فكذلك للمسؤول حق على الأمة يجب أن يُرعى، وعليه واجبات تجاه الأمة يجب أن يؤديها، فهي معادلة متوازنة الطرفين، فالأمة عليها واجبات ولها حقوق، والحاكم والمسؤول له حقوق وعليه واجبات أيضًا.

وهذا التوازن الدقيق بين الواجبات والحقوق هو الذي يضمن سلامة المجتمع ورقيه وتطوره. وحينما تختل المعادلة فتُطالب الأمة بواجباتها فقط، ويستحضر الحاكم حقوقه فقط، تحدث المشكلة. وربما تختل المعادلة باتجاه معاكس فتطالب الأمة بحقوقها فقط ولا تنظر إلى واجباتها، ويطالب الحاكم بحقوقه فقط ولا ينظر إلى واجباته، فتحصل مشاكل كبيرة ومعقدة.

---

٣٣٤. بحار الأنوار ٧٠: ٢٩٤ح١.

٣٣٥. كنز العمال ٣: ٦٥١ح ٨٣٣١.

٣٣٦. الكافي ٨: ٣٥٢ح ٥٥٠.

وعلينا إذا أردنا أن نطالب بحق أن نسأل أنفسنا؛ هل عملنا بواجباتنا التي هي حقوق للآخرين أو لم نعمل؟، وهذه المعادلة لو أخذ بها المسؤول وأخذ بها الشعب فنحن في نعمة عظيمة. وإن أفضل بوابة للإنصاف هي الحقوق المتبادلة، فحق الطرف الآخر هو واجب على هذا الطرف، وحق الطرف الثاني هو واجب على الطرف الأول، وهذا هو أوسع أبواب التناصف.

وفي العراق اليوم هناك احتجاجات يقوم بها المواطنون يريدون حقوقهم، وهذا شيء جيد، ونقول لهم: أيها المحتجون لكم حقوق ما دامت ضمن القانون والدستور فنحن معها، ولكن اعلموا أن هذا الدستور أعطى حقوقًا للمسؤول أيضًا، التي هي واجباتكم، فالتزموا بواجباتكم وطالبوا بحقوقكم.

ونقول للمسؤول: تطالب بالتزام الناس بالقانون، وتعني تحديد حركة الناس بما هو حق لك، أي تذكيرهم بواجباتهم تجاه الدولة والحكومة، وهذا شيء جيد، ولكن أيضًا عليك واجبات والتزامات تجاه الشعب، وهي حقوقهم، وهذا يوجب المعادلة الصحيحة التي تطمئن الجميع وتحل مشاكل الجميع.

ولا يجوز أن تطالب بحقك وتنسى واجباتك، سواء كنت مسؤولًا أو مواطنًا، فالكل يقع تحت دائرة مسؤولية الآخرين، وهذه هي المعادلة الصحيحة.

العلاقة بين نعمة المسؤولية والشكر

عندما أنهى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ حديثه القيّم في العلاقة المتبادلة بين المسؤول والرعية، شرع في بيان العلاقة بين نعمة التصدي للمسؤولية والشكر.

وهنا ملاحظة جديرة بالبيان وهي أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ خطب هذه الخطبة في صفين وهو في الحرب، ولكن هذه الظروف الاستثنائية والطارئة لا تلغي حقوق الأمة ولا تلغي الواجبات التي عليها، كما لا تلغي الواجبات التي على المسؤول ولا تلغي حقوقه.

«فأجابه رجل من عسكره»، فقام هذا الجندي، فخطب خطبة بليغة حمد فيها الله تعالى وأثنى عليه بما أعطاهم من واجب حقه عليهم والإقرار بكل ما ذكر من تصرف الحالات به وبهم، وأيد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بكل ما قال، ثم قال (الجندي): «أنت أميرنا ونحن رعيتك، بك أخرجنا الله عز وجل من الذل، وبإعزازك أطلق عباده من الغل ليضع إصرهم».

بك كسرالله تعالى هذه الأغلال وجعلنا أسيادًا على أنفسنا ولسنا أذلاء لغيرنا.

«فاختر علينا وأمض اختيارك، وائتمر فامض ائتمارك، فإنك القائل المصدق، والحاكم الموفق، والملك المخول، لا نستحل في شيء معصيتك، ولا نقيس علمًا بعلمك، يعظم عندنا في ذلك خطرك، ويجل عنه في أنفسنا فضلك»، أي قدّم المشورة، وكلامك مصدق؛ لأنه يطابق الواقع والمصالح، والله تعالى قد خوّلك فأنت الإمام المعصوم، ولا نخالفك في شيء، ولا نقيس علمًا بعلمك، فإن منزلتك عظيمة وفضلك واسع وعميم. وكلام هذا الجندي قد أصاب كبد الحقيقة، ووصف عليًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بما هو أهله.

«فقال ـ أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: إن من حق من عظم جلال الله في نفسه، وجل موضعه من قلبه، أن يصغر عنده لعظم ذلك كل ما سواه»، فمن يعرف عظمة رب العالمين تبارك وتعالى يصغر في عينه كل ما سوى الله، كائنًا من يكون، حتى لو كان علي بن أبي طالب، أي أن عليًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يريد أن يقول: من أنا أمام الله تعالى؟! وليس هناك من له قيمة ووزن بين يدي الله تعالى.

ثم يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وإن أحق من كان كذلك لمن عظمت نعمة الله عليه، ولطف إحسانه عليه، فإنه لم تعظم نعمة الله على أحد إلا زاد حق الله عليه عظمًا»، فمن أين لعلي بن أبي طالب هذا العلم والتسديد في القول والفعل وهذه المواقف الصائبة التي تنسجم مع الحقيقة، أليس من الله تعالى؟، أليس كل فضل لعلي نعمة من الله أنعمها عليه؟.

وكلما زادت النعمة، زادت الحاجة للشكر والامتنان على هذه النعمة، وهكذا كلما كانت النعمة أكبر كان الشعور بالامتنان أعظم، فكلٌ ما هو فضل لعلي هو نعمة مضاعفة تقتضي أن يكون أكثر تواضعًا لشكر هذه النعمة.

لاحظوا كيف ينظر علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لهذه الأمور؟، وكيف يرى الحقيقة؟، وهذا درس عظيم من علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

أسخف الحكام والمسؤولين

ثم يبين أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أتفه الحكام من وجهة نظر أهل الدين والصلاح، فيقول: «وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفخر،

ويوضع أمرهم على الكبر». إن أسخف حاكم في عيون الناس الصلحاء، هو الحاكم الذي يحب المديح والإطراء، ويرونه مجرد شخص متكبر يحب الكرسي.

لقد كنت مرة جالسا في محضر السيد السيستاني، فقال: أنا أرى في نشرات الأخبار مسؤولين جالسين على كراسي مذهبة وعالية وفخمة، فأعجب لهؤلاء!، في حين يجب عليهم أن يضعوا عيونهم على الناس، فماذا سيكون شعور المواطن البسيط تجاه هؤلاء المسؤولين عندما يراهم بهذه الفخفخة؟!.

ثم يبين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كراهيته للمديح والإطراء فيقول: «وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أحب الإطراء، واستماع الثناء، ولست بحمد الله كذلك»، أي لا يخطر في بال أحدكم أن علي بن أبي طالب يحب استماع الإطراء والثناء، ثم يحمد الله تعالى أنه ليس كذلك؛ لأنه قد روّض نفسه ألاّ يحب المديح والإطراء ولا تصيبه حالة من النشوة لذلك.

ثم يتنزل ويفترض وجود مثل هذه الحالة في نفسه، وهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إنما يقول ذلك مداراة لمشاعرنا التي لا تخلو من هذه الصفة، «ولو كنت أحب أن يقال ذلك لتركته انحطاطًا لله تعالى عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء»، أي لو كنت أحب أن يمدحني أحد لتركته تواضعًا بين يدي الله تعالى؛ لأنه أحق به لما هو فيه من العظمة والكبرياء، فالله سبحانه وتعالى أحق بعبارات التبجيل والتكريم والمديح من عباده.

ثم يبين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن حب الناس للثناء والمدح والتكريم أمر طبيعي بعد أن ينجزوا عملًا جيدًا، فيقول: «وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء فلا تثنوا عليّ بجميل ثناء لإخراج نفسي إلى الله وإليكم من البقية في حقوق لم أفرغ من أدائها»، فالإنسان يشعر بحلاوة المدح عندما يقوم بعمل جيد، فحب الكمال حالة فطرية عند الإنسان، وهي ليست حالة سيئة، ولكن السيئ أن تنفلت وتأخذ مديات تصل بالإنسان إلى حالة العجب والكبر.

ثم يطلب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الناس ترك الثناء الجميل عليه؛ لأنه قد أخرج نفسه إلى الله تعالى وإلى الناس في باقي حقوق الناس التي لم يفرغ من أدائها بعد. وإذا كان الناس يرتاحون لمثل هذا المديح إذا قاموا بعمل جيد، وهو أمر مقبول، ولكن علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا يريد هذا المديح؛ لأنه اعتبر نفسه فاتورة الحقوق العظيمة، وهي تثقل كاهله، وعليه أن يؤدي حقوق الله تعالى وحقوق الناس، فعلي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذائب في ذات الله تعالى.

وأخيرًا يطلب أمير المؤمنينعَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الناس أن يتعاملوا معه معاملة عادية، فيقول: «فلا تكلموني بما تُكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ عند أهل البادرة»، أي لا تلقبوني بألقاب الجبابرة، ولا تتعاملوا معي كما تتعاملون معهم. وطلب منهم أن ينبسطوا معه في التكلم والمعاملة، وألاّ يتحفظوا منه كما يتحفظ عند أهل البادرة. والبادرة هي حالة الحدية، وسُمي الملوك بالبادرة لأنهم ينزعجون لأتفه الأسباب.

ثم يقول عليعَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالًا في حق قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي لما لا يصلح لي، فلا تكفوا عني مقالة بحق أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي فوق ما أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني، فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره، يملك منا ما لا نملك من أنفسنا، وأخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلحنا عليه، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى»[٣٣٧].

يطلب أمير المؤمنينعَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الناس في هذه الفقرة ألاّ يتصنعوا أمامه في تعاملهم معه، ولا يظنوا أنه يستثقل كلامًا يقال له، ولا يعظموه تعظيمًا لا يصلح له، ولا يخبّئوا عنه حقيقة، بل يجب عليهم بيانها له، ولا يمنعوا عنه مشورة بعدل، فعلى المقربين والمستشارين أن ينبهوا المسؤول على الأخطاء وغيرها، وعلى المسؤول أن يتقبل هذه الملاحظات.

ثم يبين عليعَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه في نفسه ليس فوق أن يخطئ، ولا ينبغي أن يُفهم من هذه الجملة أنهعَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ينفي العصمة عن نفسه، بل هو في مقام التربية والتعليم لأجيال الحكام والمسؤولين الذين سيأتون من بعده.

ولذا يستدرك في الجملة التالية ليثبت ما منحه الله من العصمة عن الخطأ، فيقولعَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «ولا آمن ذلك من فعلي إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني»، أي إلا أن يحفظني الله تعالى من الخطأ، وذلك بإرشاده إلى الطريق الصحيح.

فعلى المسؤول أن يتوكل على الله سبحانه، ويحرص على أن تكون علاقته بالله تعالى علاقة قوية، والله تعالى سيلقي في روعه ويساعده ويرشده إلى الطريق الصحيح، والرعاية الإلهيّة تشمل المسؤول أيضًا؛ لأن مسؤوليته أكبر، فإذا كان من الصالحين كانت الرعاية الإلهيّة له أكبر.

---

٣٣٧. الكافي ٨: ٣٦٥ح٥٥٠.

ثم يوضح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن الناس جميعًا عبيد مملوكون لرب العالمين، الذي لا رب سواه، وهو يملك منا ما لا نملكه من أنفسنا، فيستطيع أن يمنعنا من أمور قد عقدنا العزم على إتيانها، وهو الذي أخرجنا من ظلمات العدم إلى نور الوجود، وأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى.

وهذا هو المنهج الذي رسمه لنا علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكان هو أول من طبق ما يقول، وهنا تكمن قوة علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فالمسؤول الذي يقدم نصائح للآخرين ولكنه لا يعمل بها يفقد مصداقيته بين الناس، ولكن عليًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول شيئًا والناس ترى في سلوكه وفعله صدقية هذه الأقوال، لذلك أصبح رمزًا إنسانيًا، وليس رمزًا لأتباع أهل البيت عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أو للمسلمين وحدهم.

الدرس الخامس والثلاثون

تكريم المحسن

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر: «وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ وَأَلْزِمْ كُلًّا مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ».

يوصي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من يتصدى للمسؤولية وخدمة الناس أن يميز ويفكك ويقيم أداء الناس، فليسوا بأجمعهم سواء، فمنهم المسيء ومنهم المحسن، ولا بد من التمييز بينهما، ولا ينبغي أن يكون المحسن والمسيء عنده بمنزلة سواء، ولا ينبغي أيضًا أن يتعامل بنفس الطريقة معهما، ويجب عليه أن يكون عادلًا في التصدي للمسؤولية، والعدل هو وضع الشيء في موضعه، فيتعامل مع المحسن بما ينسجم مع إحسانه، ويتعامل مع المسيء بما ينسجم مع إساءته.

فإن لم يفعل ذلك وعامل الجميع على حد سواء بنفس الطريقة، فإن المحسن سوف يسأل نفسه: لماذا أعمل الإحسان وأُتعب نفسي وأصرف كل هذه الطاقة في تمشية الأمور، والذي يتغيب ولا يخدم الناس له نفس الامتيازات والاحترام والتكريم؟. وحينئذ سيزهد المحسن في قيمة إحسانه ويترك هذا العمل. وأما المسيء فيقول: مع كل الذي أفعله، فلا أحد يحاسبني، ومن أمن العقوبة أساء الأدب، وحينئذ يتجرأ المسيء أكثر في إساءته.

والمسؤول الناجح هو من يميز في التعامل بين المحسن والمسيء، بما ينسجم مع إحسانه وإساءته. ومن هنا تظهر أهمية العدالة في تعامل المسؤول مع من هو تحت إدارته وقيادته.

وهنا مجموعة من الجوانب المهمة في البحث ينبغي الإشارة إليها:

الجانب الأول: أهمية ايجاد أدوات تقييم للعاملين

ويتناول هذا الجانب بيان أهمية التقييم والتمييز والفرز ووجود أدوات تقيم العاملين تحت دائرة المسؤولية.

فهناك أدوات رقابية تميز لنا العاملين في شركة أو في مصنع أو في دائرة أو في وزارة أو في أي مكان، ومما لا شك فيه أن هناك تفاوتًا في أداء العاملين، ولذا يجب أن تكون لدينا أدوات تراقب وتقيم، ثم تصنف هؤلاء العاملين على أساس مدى التزامهم بالقانون والضوابط وتحقيق الأهداف إلى غير ذلك.

وحينما ننظر إلى الناس، نجد فيهم المحسن والمسيء، والعالم والجاهل، والكفوء وغير الكفوء، ومن يحب الخير ويسعى إليه ومن هو ليس كذلك، والعاقل الذي يملك حكمة وعقلا في تعامله، والأحمق الذي يحبك ولا يستطيع أن يخدمك، بل يسيء إليك من حيث لا يقصد، والنشيط والكسول.

وكل هذا يرتبط بمقدرات الناس وقدراتهم، وقسم منها يرتبط بالثقافة والتنمية والتنشئة والطاقة الذاتية. فترى من العاملين من هو نشيط يركض ولا يتعب ولا يعتب على أحد وليس له مطاليب ولا يشتكي، وترى منهم الكسول الذي لا تحركه العواصف، فهذان صنفان مختلفان، ولذلك يجب أن يوضع الكسول في المكان الذي يتناسب مع طاقته، ولا يُحمّل أكثر من طاقته لئلا يسيء المسؤول إلى نفسه والعمل والمشروع من خلال الاعتماد على أمثال هؤلاء.

ونجد في الناس أيضًا من هو ذكي ومن هو غبي، وهناك من الأعمال ما يرتبط بالقدرات الشخصية التي تحتاج إلى ذكاء لاتخاذ موقف صحيح وقراءة بين السطور فيستنهض إليها الذكي، وحينما تكون القضية واضحة يُبعث إليها الشخص الأقل ذكاء.

وفي الناس أيضًا من هو حسن النية ومن هو سيئ النية، وفيهم من تملأ قلبه الشكوك والظنون وينظر إلى كل شيء بعين المؤامرة، وفيهم من يمتلك حسن ظن فينفتح ويستوعب ويتعامل ويخترق ويتجاوز الكثير من الحدود والقيود والإشكاليات. فيجب على المسؤول أن يميز بين هؤلاء جميعًا حتى يستطيع تكليف الشخص بالمهمة التي تنسجم مع طاقاته وظروفه.

وهناك المتقي الذي يخاف الله سبحانه وتعالى ويتقيد بالضوابط الشرعيّة، وغير الملتزم الذي ينظر إلى العمل على أنه فرصة للتلاعب والاستحواذ على المزيد. وهنا

يجب على المسؤول أن يبقي العمل بيد المتقي وبيد من يخاف الله سبحانه، لأن العمل يحتاج إلى أيد أمينة لا تمتد إلى الحرام.

وهناك المنظم ومن ليس بمنظم، فترى أنسانا شخصيته وحركته وملبسه وفكره وحديثه وسلوكه وتعامله وكل شيء فيه خاضع للنظام، فكل شيء عنده يجب أن يكون في مكانه. وهناك من هو غير منظم، فتراه مشتتًا في فكره وبيانه وعمله، وغير منظم في ملبسه وسلوكه وتعامله ومواعيده. وهذا يختلف عن ذاك، ويجب على المسؤول التمييز بينهما حتى يستطيع أن يستفيد الاستفادة الصحيحة من الطاقات المتاحة.

وهناك المبدع، والتقليدي الذي لا يعرف إلا أن يقوم بالعمل الذي تعلمه بنفس الطريقة، حتى لو بقي عشرين سنة، فهو لا يملك الاستعداد لأن يفكر بشيء جديد ويبدع ويطور فكره، وهناك آخر يبحث دائمًا عما هو جديد وصبغة جديدة وأفكار جديدة.

وهناك العادل والظالم، وهناك المتسامح والمتشدد، وهذه أمور ترتبط بسلوك الناس وتركيبة شخصيتهم. ولذلك إذا لم يميز المسؤول بين هؤلاء الناس لا يستطيع أن يتعامل معهم، ومن الممكن أن يتحول العمل إلى فوضى ويتعطل المشروع، كما إن فيه إساءة للمسؤول والمنظومة القياديّة التي يقودها.

وبعبارة موجزة، هناك النافع وهناك الضار في كل مهمة وقضية، فلا ننظر إلى الشخص ونبحث له عن دور وموقع، بل ننظر إلى الموقع واستحقاقه ونبحث عن الشخص المناسب لهذا الموقع، وشتان بين هذه النظرة وتلك.

هناك من ينظر إلى أفراد حزبه وقوميته وطائفته وجماعته وعشيرته ويعينهم في مواقع معينة، وهناك من يملك مواقع شاغرة وينظر إلى طبيعة التحدي في هذه المواقع ويبحث عن الشخوص المناسبين، فهنا نظريتان مختلفتان، تؤكد إحداهما أهمية التقييم والفرز وتصنيف الناس الذين يعملون ضمن المنظومة الإدارية والقياديّة للشخص المسؤول، في أي منظومة كانت، دولة أو مصنعًا أو شركة أو دائرة أو أسرة، فأي منظومة، مهما كانت، تتميز بفرص في المواد والإمكانيات والقدرات والموقع الاستراتيجي وحاجة الناس إلى هذا الموقع وإلى هذه المنظومة.

ولا تستطيع هذه المنظومة أن تتحرك مهما كانت الفرص كبيرة إذا لم تراع هذه المسألة، كما نرى ذلك في البلدان ذات الميزانيات الضخمة التي لا تتقدم، وهو يكشف عن وجود مشكلة في العدالة وتقييم العاملين والأدوات في هذه المنظومة ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

حينما لا يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب لا تتحقق النتائج المرجوة في المكان المرغوب، مهما كانت النيات طيبة؛ لأن المشكلة الأساسيّة عدم وجود تقييم صحيح ووضع الشخص المناسب في المكان المناسب، وهذه ثغرة كبيرة كما أشار إليها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الجانب الثاني: تطوير المنظومة القياديّة

يتناول هذا الجانب المواصفات والقيود المطلوبة لإيجاد الحركة والتطور في المنظومة القياديّة (الدولة مثالًا).

إن أهم المحددات والمواصفات المطلوبة لمسؤولي الدولة لكي يتطور البلد هي الإخلاص والجدية والاندفاع والحس الوطني والخبرة والانسجام، فهذه الضوابط العامة كفيلة في حال توافرها بتحويل هؤلاء إلى فريق واحد، يعملون كخلية نحل وكمجموعة من النمل.

ودائمًا ما تكون المنظومة التي تعمل بشكل كثيف نشيطة جدًا، وتمثل بالنحل والنمل لأنهما منظومتان فاعلتان جدًا، فخلية النحل منسجمة، تعمل ليل نهار حتى تصنع لنا العسل، وهي منظومة معقدة ومنسجمة ومتكاملة وكفوءة ودؤوبة في العمل ليلًا ونهارًا، والنمل يعمل ليلًا ونهارًا، حتى يجلب الحب ويوصله إلى مكان الخزن. وكذلك المنظومة البشرية حينما تكون فاعلة وقديرة وتعمل بجد ومثابرة، فإنها تستطيع تحقيق أهدافها المجتمعية.

وهذا الجانب يحظى باهتمام كل المنظومات القياديّة في العالم، سواء كانت دولا أو شركات عملاقة أو مصانع كبيرة، فكلها تعمل لتحقيق هذه الحركة الدؤوبة والمحترفة والمختصة والمنسجمة من أجل الحصول على أكبر الأرباح، لأنه حينما تقل الأرباح يعطل المشروع. وهذه الجوانب تحظى بأهمية كبيرة.

ولكن هناك جانب آخر مهم جدًا يرتبط بتطوير الإنسان وتكامله، فحينما نتحدث عن التقوى وعن حسن النية وعن حسن الظن وعن كسر الأغلال والأحقاد والانفتاح على الآخر وعن الأبعاد القيمية في رقي الإنسان، فإن ذلك كله يسهم في إيجاد الإنسان المتكامل الذي يؤدي إلى المجتمع المتكامل السائر نحو الله تعالى. وهذا الجانب لا يحظى بالأهمية.

إذن، في الكثير من الدول المتطورة والبلدان العملاقة والدول الصناعية الكبيرة لا ينظرون إلى القيم المعنوية والالتزام الأخلاقي التي يجب أن يتحلى بها المدير والمسؤول، ولم تدخل في حساباتهم، وما هو موضع اهتمامهم هو شهادته وخبرته ومقدار ونوعية عمله وحرصه على العمل.

ولذلك نجد منظومات عملية كبيرة تحقق نتائج مادية كبيرة، ولكن تعيش حالة من الفراغ المعنوي والأخلاقي، الذي يؤدي إلى يأس وحزن مجتمعات تتقدم بسرعة، رغم ارتفاع ناتجها القومي وكبر ميزانياتها وعلو رواتبها، ولكنها لا تملك روحًا وعلاقات ومشاعر، مع أن ما يجعل الإنسان إنسانًا هي هذه المشاعر والعواطف والأحاسيس.

وهذا هو الهدف الكبير، فالحياة ليست مجرد طعام وشراب، فالحيوانات تأكل وتشرب أيضًا، والحياة ليست فقط أن يعمل الإنسان كالآلة ليلًا ونهارًا، وإنسانية الإنسان ليست فقط في عمل مادي وحركة ميكانيكية، وإنما هي في غايات مشروعة وقيم حقيقية وتوجه نحو الله في قلب يشع بذكر الله سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٣٣٨].

وهذا التطور المادي الكبير مع التخلف والتراجع المعنوي الفظيع، يخلق حالة من عدم التوازن، فيؤدي أحيانا إلى تراجعات خطيرة وارتدادات كبيرة. فهناك منظومة إنسانية تتحرك بسرعة وتنتج نتاجات مالية، ولكنها جوفاء وفارغة في مضمونها، وهي تشعر بحالة من الإحباط واليأس.

إن رقة القلب وتأنيب الضمير والتوجه نحو الله تعالى مفاهيم تعطي للحياة طعمًا وقيمة، وتعطي للإنسان إنسانيته. وحينما يفقد الإنسان إنسانيته يضيع كل شيء، حتى لو حظي بكل شيء بالمقاسات الماديّة. وهذا جانب مهم يجب أن نلتفت إليه، وقد أشارت إليه هذه الكلمات الكريمة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

مكافأة المحسن ومحاسبة المسيء

على المسؤول تكريم المحسن وشكره وتقديره ومكافأته، ومحاسبة ومعاقبة المسيء، وذلك إلزاما بما ألزموا به أنفسهم من الإحسان أو الإساءة. وهذا الإجراء من شأنه تشجيع المحسن على إحسانه ليزداد منه، وتوبيخ المسيء على إساءته لينتهي عنها.

وما أجمل أن يمنحه المدير شهادة تقدير أيضًا ليعلقها في داره أو في غرفة عمله مثلًا، وتوضع نسخة منها في إضبارته الإدارية ليستفيد منها يومًا ما، أو يأتي المسؤول ويشكره

---

٣٣٨. سورة الرعد: الآية: ٢٨.

أمام باقي الموظفين والمراجعين على حسن أدائه، وهذا من شأنه أن يحفز الموظفين والعاملين على مواصلة العمل بعزيمة أقوى.

ومن الشواهد المؤيدة لفكرة تشجيع العاملين قول الله تبارك وتعالى لشيخ الأنبياء نوح على نبينا وعَلَيهِالسَّلَامُ: ﴿وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[٣٣٩]، يا نوح نحن نرى ونشكر ونقدر جهدك، وفي زماننا عندما يلعب فريق كرة القدم في ساحة الخصم يحسب له الهدف هدفين، لأن البيئة مشجعة للآخر، فالتشجيع له دور مهم في الوصول إلى النتيجة المرجوة.

وحينما يفقد الإنسان التشجيع يكون ضعيفًا، وحينما يكون في بيئة تشجع الإنجاز يكون مبدعا. إذن مكافأة من يقوم بعمل جيد أمر مهم، ومحاسبة من يسيء أمر مهم أيضًا، فالتوازن مطلوب.

لقد كان أمير المؤمنين عَلَيهِالسَّلَامُ لا يقول إلا ما يعمل، ففي وصيته لمالك الأشتر كان في دوره وممارسته لمهامه القياديّة يلتزم تمامًا بهذا المبدأ.

ويقول عَلَيهِالسَّلَامُ مخاطبًا الصالحين من أصحابه، تثمينًا لمواقفهم وتشجيعًا لهم: «أنتم الأنصار على الحق، والجنن يوم البأس، والبطانة دون الناس، بكم أضرب المدبر، وأرجو طاعة المقدم، فأعينوني بمناصحة خلية من الغش سليمة من الريب، فوالله إني أولى الناس بالناس»[٣٤٠].

تضمنت هذه الكلمة جملا مهمة في مدح هذه المجموعة المجاهدة من أصحابه، الأولى: نصرتهم للحق، والثانية: أنهم دروع في أيام البأس، والثالثة: أنهم البطانة.

فأما بالنسبة للجملة الأولى، فبالرغم من أن هؤلاء الأصحاب من الصالحين، وبالرغم من أنه هو علي عَلَيهِالسَّلَامُ، مع ذلك، ليس هناك نصرة عمياء. وربما يقول قائل: إن طاعتنا لقيادتنا هي طاعة عمياء! من قال لكم أن تطيعوا طاعة عمياء؟!.

فالمطلوب هو الطاعة الواعية، والدليل على ذلك هو قول أمير المؤمنين عَلَيهِالسَّلَامُ لأصحابه: «أنتم الأنصار على الحق» بالرغم أن عليًا عَلَيهِالسَّلَامُ لا يصدر منه إلا الحق، ولكنه لا يقبل لنفسه أن يناصروه على غير الحق، وإن تقدم لهم قول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ فيه: «علي مع الحق، والحق مع علي، يدور معه حيثما دار»[٣٤١]، وكل ما يطلب منهم فهو الحق، ولكن هذه رسالة لنا جميعًا، وهي أن نطيع في ما هو حق.

---

٣٣٩. سورة المؤمنون: الآية ٢٧.

٣٤٠. نهج البلاغة: الخطبة ١١٨.

٣٤١. بحار الأنوار ٣٨: ٢٨-٢٩.

والأُخوّة في الدين خاضعة لموازين ومعايير، ولا يمكن للمؤمن أن يعمل بعمل أهل الجاهلية فيؤيد أخاه ظالمًا أو مظلومًا، وإن كان البعض ينطلق من هذا المنطلق الجاهلي، ليقف مع ابن عشيرته من غير أن ينظر إلى القضية، فربما يكون ظالمًا ومسيئًا، وحينئذ يجب عليه أن يكون خصمه قبل الآخرين، لكي لا يسيء إلى سمعة العشيرة.

والأُخوّة الحقيقية هي الأُخوّة في الدين، وليست الأُخوّة عامة كيفما كان وكيفما اتفق، فإذا كان الظرف سيئًا يكون حاله كحال مسلم بن عقيل يتلفت يمينًا وشمالًا فلا يجد أحدا، ويقول: ما لنا وللدخول بين السلاطين؟!. وفي حادثة حصار قصر الإمارة، عندما رأى الناس أن القضية فيها سيف وذبح، جاءت كل امرأة وأخذت ابنها أو زوجها وتركوا ابن عقيل وحيدًا.

وكذا في قولهم: مالنا وللدخول بين السلاطين؟، أصبح الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ سلطانًا في نظرهم كما كان يزيد سلطانًا، وأصبحت معركة الطف معركة بين السلاطين على الكراسي!. وعندما يقال لهم: هذا ابن بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وهو على الحق ويزيد على الباطل، يقولون: عمائم تتقاتل بينها وليس لنا علاقة بها، صراعات سياسيّة وكل واحد يريد أن يخطفها لنفسه!، فينعزل الجميع وهم يقولون ليس لنا علاقة. إنه منطق أبي موسى الأشعري عندما قال: هذه فتن.

وأما بالنسبة للجملة الثانية فإنه عَلَيْهِ السَّلَامُ يصف أصحابه هؤلاء بأنهم الجُنَن يوم البأس، فهم ليسوا من القائلين لا ناقة لنا فيها ولا جمل، وليسوا من القائلين إنها فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الراكب، وهكذا أشاعوا بين الناس ثقافة التثبيط عن النصرة وقعدوا عن نصرة علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا من أولئك القائلين بأنها حرب بين المسلمين من أجل الزعامة والإمارة، وليست حربًا بين الحق والباطل.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في حق هذه المجموعة من أصحابه: هم الجُنَن يوم البأس، أي هم الدروع في يوم البأس والشدة لا في يوم الرخاء، فهم واقفون يدافعون ويذبون عن الحق الذي يدافع عنه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وأما في الجملة الثالثة، فإنه يقول فيهم بأنهم البطانة دون الناس، أي إنهم الخواص دون بقية الناس، والذين يعتمد عليهم في إدارة أمور الدولة.

هكذا كان علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول بحق أصحابه ويمدحهم ويعطيهم العزيمة ويبعث فيهم الأمل ويشعرهم بالانتماء ويشدهم له. وعلى خطى علي عَلَيْهِ السَّلَامُ سار شهيد المحراب، فكان يجلس ويخاطب المخلصين الذين التحموا معه ويقول لهم: أنتم أهلي وعشيرتي،

وكان يعتقد بأعماقه بأنهم أهله وعشيرته، وكان يستشعر في أعماق وجوده هذا القرب مع المخلصين المحيطين به. وهذه الحالة ذات جذور إسلامية «وأنتم البطانة دون الناس»، فالناس نجاملهم ولكن أنتم الخواص.

ثم يبين أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما يرجوه من أصحابه المقربين هؤلاء، وهما أمران، الأول: إنهم القوة الضاربة التي ينقضّ بها على المُدبرين عن طريق الحق، قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «بكم أضرب المدبر»، أي أقاتل بكم من يدبر عن الالتزام ويشذ عن الطاعة، فأنتم المدافعون عن الحق وتقويم الانحراف.

والثاني: إنهم المجموعة التي يرجو بها طاعة المقبلين على الحق، قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وأرجو طاعة المقدم»، فهناك عدد من الناس يريدون القوي ليلتحقوا به، وأنتم تعطون هذه الصورة للناس، وهؤلاء أناس مبدئيون ولكنهم يريدون جهة قوية ينتمون لها. وهذه القوة هي التي تجمع الآخرين وتكون بمثابة المغناطيس الذي يجذب الأشياء إلى نفسه.

وأخيرًا يطلب أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من هذه المجموعة أن تعينه بالمناصحة، قال: «فأعينوني بمناصحة خلية من الغش». علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يريد النصح الذي لا غش فيه ولا مراوغة ولا تمجيد في غير محله، وعلي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يطالب الصالحين من أصحابه أن يكونوا صادقين معه ولا يغشوه. فعلى المسؤول أن يعتمد على أناس يصارحونه بالحقيقة، ولا توجد عندهم مشكلة معه.

ثم يطلب منهم أن تكون هذه النصيحة «سليمة من الريب»، أي نصيحة ليس فيها ظنون، بل نصيحة واضحة ليس فيها تردد، وهذا أمر مهم.

«فوالله إني أولى الناس بالناس»، وهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يستحق مثل هذه النصيحة؛ لأنه أولى بالناس، إشارة إلى قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يوم غدير خم حينما قال: «ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه»[٣٤٢]، فعلي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أولى الناس بالناس، أي إنه أولى بهم من أنفسهم؛ لأنه الإمام بالحق، فهو الإمام ويريد منهم نصيحة واضحة بأن يقولوا له ما الحقيقة، وكيف هي مسارات الأمور.

وقال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في رسالة وجهها لأصحابه حين فتح البصرة وبعد حرب الجمل، جاء فيها: «وجزاكم الله من أهل مصر عن أهل بيت نبيكم أحسن ما يجزي

٣٤٢. مسند أحمد ٤: ١١٩، ٣٧٢. سنن ابن ماجه ١: ٤٣.

العاملين بطاعته، فقد سمعتم وأطعتم، ودُعيتم إلى القتال فأجبتم»[٣٤٣]، وهذه رسالة شكر وتقدير موجهة إلى أصحابه الذين أعانوه في حرب الجمل.

فالإنسان المسؤول حينما يدخل إلى منازلة ويمر بأزمة ويواجه معتركا معينا ويقدم توصيات، ويلتزم الأتباع بهذه التوصيات، يجب عليه ألا يعتبر ذلك واجبهم وانتهت القضية، بل عليه أن يشكرهم ويقدرهم. وجيش عليعَلَيهِ‌السَّلَامُ حينما وقف وقاتل إلى جانب عليعَلَيهِ‌السَّلَامُ وحقق فتح البصرة في حرب الجمل، عاد عليعَلَيهِ‌السَّلَامُ في كتابه ليشكرهم ويدعو لهم بأفضل الجزاء.

والله تعالى يتفنن في تشجيع وتحفيز ومكافأة العاملين بطاعته، وعليعَلَيهِ‌السَّلَامُ يسأل الله تعالى أن يعطي أولئك الأنصار ما يعطي عباده المخلصين والمطيعين. وقد استحقوا هذا الشكر والدعاء؛ لأنهم سمعوا وأطاعوا، فحينما أصدر التعليمات في هذه المعركة أخذوا بها.

وفرق كبير بين من يسمع ولا يكترث، ومن يستمع ويتعرف على طبيعة التوجيه ثم يلتزم ويطيع، لقد أطاعوا ما سمعوه من توجيهات. ولقد دُعوا إلى القتال وتقديم الغالي والنفيس وبذل الأنفس في هذه المعركة من أجل الله ونصرة الحق فأجابوا، فاستحقوا بذلك دعاء عليعَلَيهِ‌السَّلَامُ لهم بأن يشملهم الله تعالى بأفضل الجزاء، هذا في جانب المكافأة والمجازاة للفعل الصالح والطيب.

وفي الجانب الآخر، هناك موازنة دقيقة إذا اختلت تختل الأمور كلها، وهي أن من يسيء ويتعدى الحدود ويتجاوز على الناس فستكون العقوبة والموقف الصارم في انتظاره.

وعن عليعَلَيهِ‌السَّلَامُ أيضًا قال: «من لم يصلحه حسن المداراة يصلحه حسن المكافاة»[٣٤٤]، فالذي لم يصلحه التعامل بالمحبة والتوقير فلا بد من اعتماد حسن المكافاة والتقريع والعقوبة. ونفهم من هذا أن الأساس هو المداراة، ومن لم تصلحه المداراة يصار إلى المكافاة أي العقوبة.

فالأساس هو المرونة بالكلام الحسن والتشجيع، ولكن هناك أناس لا تحسن قراءة هذه الرسائل، وعندما تتعامل معه بالمرونة يحملها على الضعف، وحينما تتحمل منه بعض الأمور يحملها على البلادة.

---

٣٤٣. نهج البلاغة: الرسالة ٢.

٣٤٤. عيون الحكم والمواعظ: ٤٤٤.

وهكذا كانوا يتعاملون مع رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكانوا يسيئون له ثم يأتون بعد ذلك ويقولون إنهم لم يقصدوا ذلك والرسول يسامحهم، وهم قاصدون، ويسامحهم مرة ثانية وثالثة، وحينما كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يتسامح معهم يخرجون في كل مرة ويقولون هو أُذن، وكل ما نقول له يصدقنا، وليس عنده قابلية فرز وتمييز!. هم يظنون ذلك ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان يعرف كل شيء. فرد عليهم الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾[٣٤٥]، والسماء تقرع هؤلاء؛ لأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يريد أن يتسامح معهم ويتعامل تعاملًا مرنًا لصلاحهم وخيرهم، ولكن حينما لا ينفع ذلك يصل الأمر للعقوبة والمكافاة، ويكون التعامل بحسن المكافاة، وحتى في العقوبة توجد مراتب، وآخر الدواء الكي.

فالعقوبة لا يؤتى بها بمستوياتها العالية من أول وهلة، فأحيانًا يربي الأب ابنه المسيء بتجاهله فتعتبر عقوبة، وكذلك عدم الابتسامة وقلة الاهتمام تعتبر عقوبة أحيانًا، فحسن المكافاة درس عظيم يجب أن نتعلمه.

ونفهم أيضًا من هذه التراتبية أن العقوبة حتى حينما تحصل ويتطلب الأمر اتخاذ موقف صارم فهو ليس للتشفي والانتقام، وإنما هو خطوة تربوية، ولذلك تقدر الضرورات بقدرها للتربية، كالدواء لا يستعمل إلا عند الحاجة. فالأساس هو المداراة، والعقوبة استثناء.

وفي العقوبة الأساس حسن المكافاة التي هي أدنى مراتب العقوبة، ثم يتصاعد الموقف. وعموم الناس أحرار في أبدانهم وفي عقولهم، والناس مشاعر وعواطف تؤثر فيهم الكلمة والإحسان. ولو تعاملنا بهذه الطريقة فإن الكثير من واقعنا التربوي سيتغير، لأن جزءا كبيرًا من مشاكلنا ناتجة من أننا نستخدم وسائل التقريع بمستويات عالية، بحيث يحدث رد فعل لدى الإنسان الضعيف والبسيط وغيرهما، فالضابط أو المدير مثلًا، كلما ارتفع منصبه وموقعه تعامل بشدة وقسوة وإهانة مع من دونه من المراتب، لكي يثبت أنه مدير أو ضابط ناجح.

وهذا عمل غير صحيح، ويخطئ من يظن أن النجاح مقرون بالشتيمة والسباب والإساءة إلى الآخرين، فالأمور يجب أن تُقدر بقدرها، وهذا أساس مهم يشير إليه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

٣٤٥. سورة التوبة: الآية ٦١.

وفي نفس السياق ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «من لم تصلحه الكرامة أصلحته الإهانة»[٣٤٦]. ويقول الشاعر:

إِذا أَنتَ أَكرَمتَ الكَريمَ مَلَكتَهُ   وَإِن أَنتَ أَكرَمتَ اللَئيمَ تَمَرَّدا

فالكريم تملكه بالكرامة، وأما اللئيم فكلما أعطيته فرصة إضافية تمرد أكثر وتنصل أكثر من واجباته، ولا يفيده غير التقريع، فالعقوبة نافعة في مكانها وموضعها الصحيح وليس أكثر من ذلك.

إن عقوبة المسؤول المفسد هي أفضل تزكية للحاكم، وسيعلم الناس أنه لا يهادن في ما هو الحق والقانون والنزاهة؛ لأن فساد الناس وصلاحهم يرتبطان بأخلاقهم وتربيتهم، وكم من إنسان ظاهره الصلاح جلس على الكرسي الدوار فتغيرت أخلاقة بعد أن كان إنسانًا نزيهًا، ولا علاقة له بصلاح الحاكم، وإن كان له تأثير في سلوك الآخرين.

فالحاكم حتى لو كان معصومًا فهذا لا يعني أن المؤسسة كلها تصبح مؤسسة معصومة؛ فقد يكون هناك فساد في الوزارة رغم نزاهة الوزير، ولكن المشكلة في الوزير أنه لا يتابع جماعته أو لا يتخذ إجراء ضد الفاسدين في وزارته، ويتحمل بذلك المسؤولية، وهناك قاعدة عامة تقول إن القانون لا يحمي المغفلين.

فيجب أن يكون المسؤول متابعًا ومتحريًا عن الأخطاء وعن الفاسدين من موظفيه وعن سلامة مفاصل منظومته.

حينما بلغ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أن بعض المسؤولين من ذوي الدرجات الخاصة في منظومته القياديّة يرتكبون الفساد المالي وتمتد أيديهم إلى المال الحرام قرعهم ووبخهم، ولم يقل كيف أسجل ملاحظة عليه وأنا الذي عينته؟.

يقول علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لهذا الرجل المسؤول: «أما بعد، فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك، وعصيت إمامك، وأخزيت أمانتك. بلغني أنك جردت الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك، فارفع إلي حسابك، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس»[٣٤٧].

يبدأ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ كتابه مع هذا المسؤول بأدب رفيع فيقول له: «بلغني عنك أمر» ولم يقل له فساد أو سرقة. ثم يجعل له خط رجعة خوفا من أن يكون التقرير كيديًا، فيقول: «إن كنت فعلته»؛ إذ لا يمكن إصدار الأحكام قبل التحري والتدقيق. «فقد

٣٤٦. عيون الحكم والمواعظ: ٤٢٦.
٣٤٧. نهج البلاغة: ٤٠.

أسخطت ربك»، وهنا يبرز الجانب المعنوي والأخلاقي في التوبيخ والتقريع؛ لأن في ذلك إذكاء لروح المسؤولية الشرعيّة في الناس، فيجب أن يبنى الوازع الديني في العاملين، لأنه القادر على ضمان سلامة المسيرة.

ثم يبين له أنه جمع بين عصيان الله سبحانه، وعصيان إمامه الذي نصبه في هذا المنصب، وخيانة الأمانة التي استودعه إياها وهي المسؤولية، فقال: «وعصيت إمامك، وأخزيت أمانتك»، ولهذا يجب علينا في حياتنا اليومية التركيز على الوازع الديني في الإدارة.

وعلى المسؤول أن يدرك أن الكرسي الذي يجلس عليه ليس ملكًا لأحد، وكل من يجلس عليه يمضي، ولا يبقى في النظام الديمقراطي لأكثر من دورة أو دورتين. وهذا هو المدخل الأخلاقي في ضبط الإيقاعات وتصحيح المسارات وتأديب الناس في العمل الإداري، فهناك ملفات يجب توضيحها للناس.

ثم يخبره عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما بلغه في التقرير؛ فبعد أن يحدد الموقف، يخبره بما في هذه الملفات وهذا التقرير حتى يعطيه حق الرد والدفاع عن نفسه، فقد بلغه أنه جرد الأرض وعمل المسوحات في الدائرة العقارية وأخذ ما تحت قدميه، أي أنه صادر الأراضي لنفسه، وهو استغلال لمواقع المسؤولية للمنفعة الخاصة، واستغلال الوجاهة لمآرب شخصية ومصالح خاصة.

وليعلم المسؤول أن هذه الحمايات التي وضعتها الدولة له وتنفق عليها من أموال الشعب هي لحمايته وليست لإخراجهم في عمليات استعراضية في مكان ما وهم يلوحون بالسلاح لترهيب الناس حتى يبيعوا عقاراتهم وأملاكهم ويأخذها بثمن بخس لنفسه.

ثم يقول له إنك أكلت ما تحت يديك من الأراضي التي صادرتها وأموال بيت المال التي تحت يدك، ثم يطلب منه أن يرفع حسابه إليه ويكشف عن مدخراته وممتلكاته ليدقق فيها. ثم يعظه بأن حساب الله أعظم من حساب الناس، ولا يظن أن القضية انتهت بالعقوبة الدنيوية من الإعفاء أو الإقالة، بل حساب الله أعظم. وهذا منهج فريد في أثر الوازع الديني في التقريع لتصحيح المسارات.

ومن كتاب لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا لأحد ولاته وكان ابن عمه: «فلما أمكنتك الشدة، أسرعت الكرة، وعاجلت الوثبة، واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم، اختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الكسيرة، فحملته إلى الحجاز رحيب الصدر بحمله، غير متأثم، كأنك - لا أبا لغيرك - حدرت إلى أهلك تراثك من

أبيك وأمك! فسبحان الله أما تؤمن بالمعاد؟! أوما تخاف نقاش الحساب؟! فاتق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرن إلى الله فيك، ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحدًا إلا ودخل النار. ووالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوادة، ولا ظفرا مني بإرادة، حتى آخذ الحق منهما، وأزيح الباطل عن مظلمتهما»(٣٤٨).

رأيتنا أيها الوالي والمسؤول مشغولين بالحروب، والبلد يمر في أزمات، فاغتنمت الفرصة للانقضاض على أموال المسلمين. هناك أناس يعتاشون على الأزمات ويبحثون عن مصالحهم ويستغلون الظروف الصعبة التي تمر بها الأمة لخيانتها، فيمد يده الآثمة إلى المال الحرام ويتجاوز صلاحياته ويتعدى على أموال الناس.

رأيتنا مشغولين فذهبت مسرعًا ووضعت يدك على أموال بيت المال التي نحتفظ بها لأراملهم وأيتامهم!. إن هذه الأموال يجب أن تعوض بها عوائل شهداء الإرهاب وأسر سجناء وشهداء وضحايا النظام البائد الذين يجب أن يعيشوا برغد ونعيم، لا أن يتنعم بها المسؤولون!.

إن المواطن المسكين ما زال يعاني من شظف العيش وأنت يامسؤول تبتزه مع كل هذا الراتب الكبير الذي تتقاضاه من غير حق!. فلم هذا الجشع الذي نراه من بعض المسؤولين؟!.. وقطعًا هناك أناس شرفاء في المنظومة الإدارية، ولكن هناك من يمد يده إلى المال الحرام ويبتز ويستغل حاجة الناس إليه.

ويشبه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أخذ المال هنا بالاختطاف، وهو أشد من السرقة، كما يختطف الذئب المسرع المعزى الكسيرة التي لا تستطيع الفرار منه، وهكذا يأخذ المسؤول أموال الفقراء مسرعًا، ولا أحد يقدر على التخلص منه، وهم يخافونه على أنفسهم، ولكنهم يشتكونه عند الله تعالى، الذي هو له بالمرصاد حيث ساعة الانتقام في الدنيا قبل الآخرة.

«فحملته إلى الحجاز»، وكذلك اليوم تُنقل الأموال من بغداد وتُهرَّب إلى خارج العراق لتُشترى بها القصور والعمارات أو تُودع في المصارف الأجنبية، وبعضهم يشتري بها البيوت الفخمة والأراضي الزراعية والعقارات داخل العراق أيضًا.

«رحيب الصدر بحمله غير متأثم»، أي وهو فرحان بسرقة أموال الشعب، ولم تتحرك غيرته بعدما أخذ قوت الفقراء والمساكين، ولا يشعر حتى بالذنب تجاه فعلته الشنيعة،

---

٣٤٨. نهج البلاغة: الرسالة ٤١.

ثم أسرع لأهله يبشرهم بما صار عنده من الأموال والمشاريع والممتلكات، وكأنه إرث من أمه وأبيه، وليس أموال الفقراء التي أخذها بهذه الطريقة.

فسبحان الله، تفعل هذا وكأنك لا تؤمن بالمعاد ولا تخاف الحساب في يوم القيامة؟! فاتق الله عز وجل ورددْ إلى هؤلاء الناس أموالهم، فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرن إلى الله فيك وانتقم منك بما يرضي الله تعالى، ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحدًا إلا ودخل النار؛ لأن عليا مع الحق والحق مع علي، وعلي لا يضرب بسيفه إلا من هو من أهل الباطل.

ثم يقسم أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالله تبارك وتعالى لو أن الحسن والحسين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فعلا مثل ما فعل هذا الوالي الذي سرق مال بيت المسلمين، ما كان لهما عنده عذر وتغاض، ولا ظفرا منه برحمة وشفقة، حتى يأخذ الحق منهما، ويزيح الباطل عن مظلمتهما، فلا توجد استثناءات في منهج علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فهو يتعامل بإنصاف وعدالة مع الجميع، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

المقطع الثاني عشر

تعامل الحاكم مع الأمة

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ :

«وَاعْلَمْ أَنّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إلى حُسْنِ ظَنّ وَالٍ بِرَعِيّتِهِ مِنْ إحْسَانِهِ إلَيْهِمْ ، وَتَخْفِيفِهِ الْمؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إيّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ ، فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظّن حُسْنَ الظّنّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَبًا طَوِيلًا ، وَإنّ أَحَقّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلاَؤُكَ عِنْدَهُ ، وَإنّ أَحَقّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلاَؤُكَ عِنْدَهُ» .

الدرس السادس والثلاثون

ثقة الحاكم بالأمة

يتحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع الشريف من هذه الوثيقة الإسلاميّة والتأريخية عن مسألة حسن ظن الحاكم بالشعب، والوسائل التي من خلالها يمكن تحقيق هذا الهدف، ويذكّر الحاكم والمسؤول بأنه لا توجد مسألة في مسؤوليته وفي إدارته أهم من تحقيق حسن الظن بالمواطنين ومن هو مسؤول عنهم، وذلك من خلال بناء علاقة المودة والمحبة والثقة بينه وبين الناس المسؤول عنهم.

وهذا يتطلب القيام بالعديد من الخطوات لكي تتحقق هذه الثقة وحسن الظن، ولا بد له من اعتماد سياسات حكيمة ورشيدة حتى يستطيع أن يكسب ثقة الناس. وهذه الخطوات والسياسات الكفيلة ببناء علاقة رصينة وواضحة بين الحكومة والشعب هي:

الأولى: الإحسان للشعب

إن طموح الشعوب والأمم اليوم إلى العدالة، والإحسان فوق العدالة وأعلى رتبة منها. ولا يمكن بناء هذه العلاقة بالقهر والقوة والسطوة والأوامر والنواهي، وبالتالي لا يستطيع المسؤول أن يدير شؤونه ومنظومته القياديّة ولا يستطيع النجاح، إلا بالإحسان إلى هؤلاء الناس والتقرب من قلوبهم، وهذه هي المداخل الصحيحة التي يمكن أن توجد علاقة ثقة حقيقية بينه وبين أولئك الناس.

إن على الحاكم والمسؤول ومن يتصدى لأي موقع من مواقع المسؤولية أن يحسن للفريق والمجموعة التي يتحمل المسؤولية تجاهها.

قد ذكرنا مرارًا أن نظرية الإدارة والقيادة لا تختص بالملوك والرؤساء والقادة الكبار، وإنما هي نظرية تشمل كل المنظومات القياديّة، بدءًا من الأسرة أو المشروع

الصغير أو الشركة أو المصنع، وصولًا إلى المستويات العالية والرفيعة التي تكلف بها إدارة شعب وأمة بأسرها. وهذه السمات القياديّة التي تذكرها هذه النظرية ينبغي أن تتوافر في جميع المتصدين وكل من يتحمل مسؤولية بأي مستوى من المستويات.

الثانية: تخفيف المؤونة

كما يستطيع الحاكم والمسؤول تحقيق علاقة الثقة المتبادلة وحسن الظن بالشعب من خلال تخفيفه المؤونات عليهم، وعدم تحميلهم أعباء كبيرة، وذلك بتخفيض الضرائب وأجور الخدمات العامة في الماء والكهرباء والتعليم والصحة والنقل وغيرها، وأسعار بعض السلع الضرورية.

وحينما يرسل أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مالكا الأشتر كأنه يستحضر تأريخ مصر، وطبيعة التعاطي الذي عمل به الحكام قبل الإسلام من الفراعنة ومن بعدهم من الطغاة والظالمين، وكيف كانوا يبتزون هؤلاء الناس، وكيف يفرضون عليهم الضرائب الكبيرة، التي كانت أحيانًا تفوق كل إيراداتهم فيضطرون لأن يبيعوا بعض ممتلكاتهم ليسددوها إلى السلطان.

فعلى المسؤول الذي يريد النجاح في منظومته الإدارية أن يطالب بما هو ممكن ومنطقي، ولا يحمّل الناس أعباء أكثر من طاقتهم، ولا يطلب منهم إنفاقات وإمكانات مادية أكثر مما هو مستطاع لهم.

الثالثة: عدم إكراه الناس على أعمال السخرة

وتتضح هذه الخطوة في بناء علاقة رصينة بين الحاكم والأمة من قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ»، أي على المسؤول ألاّ يطلب من الناس أن يقوموا بأعمال ومهام خارج حدود مسؤولياتهم وواجباتهم، كما كان متعارفًا في المجتمع المصري أيام حكم الفراعنة، حيث كانوا يأخذون الناس بالقهر والقوة ويضطرونهم للعمل في شتى المجالات من دون أن يعطوهم أجرًا، حتى أن البعض كان يقتل أو يموت في أثناء العمل بسبب المشقة الكبيرة التي يتعرضون لها في هذه الأعمال.

ويسمى هذا العمل بالسُّخْرَة، وهي تسخير الناس وإجبارهم على أعمال شاقة لا طاقة لهم بها، وقد كان هذا الأسلوب متبعًا إلى عهد قريب في بعض الدول؛ مثل روسيا والصين، بما يسمى بمعسكرات العمل.

فالحكومة التي تريد بناء علاقة رصينة بينها وبين الشعب، عليها ألاّ تطلب منهم ما هو خارج حدود مسؤولياتهم وواجباتهم ولا تحمّلهم أكثر مما يطيقون.

ثم يبين أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ نتيجة اتّباع هذه الخطوات في بناء علاقة الثقة المتبادلة بين الحاكم والمواطنين فيقول: «فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ»، فإذا قامت الحكومة بهذه الخطوات الثلاث: الإحسان وتخفيف الأعباء الماليّة وعدم إناطة المهام والواجبات الخارجة عن اختصاص هؤلاء الناس، فإنها تستطيع أن تحقق حالة حسن الظن والثقة المتبادلة بينها وبين عموم المواطنين.

ثمرة ثقة الحاكم بالأمة

تتضح ثمرة ثقة الحاكم والمسؤول بالأمة من قوله عَلَيهِ السَّلَامُ: «فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلًا»، أي أن حسن الظن وثقة المسؤول بشعبه يخففان عنه كثيرًا من المتاعب والآلام والهواجس والمحن. والمسؤول الذي ليس لديه ثقة بمن هو مسؤول عنهم، ورب البيت الذي ليس له ثقة بأسرته، ورئيس الشركة أو المصنع الذي ليس لديه ثقة بعماله وموظفيه، والوزير الذي ليس لديه ثقة بالعاملين معه، والزعيم الذي ليس لديه ثقة بجمهوره، يعيش دائمًا حالة الهواجس والمخاوف من هؤلاء الناس، ولا يعرف متى ينقلبون عليه، ومتى سيسحبون الامتيازات والوجاهات والموقع الذي يحتله أو الكرسي الذي يجلس عليه، فيكون في حالة من التعب النفسي والروحي. فعلى المسؤول أن يُحسن الظن بمن هو مسؤول عنهم، ويبني جسور الثقة معهم حتى يشعر بالراحة والثقة.

أولى الناس بثقة الحاكم

من الطبيعي ألاّ ينال جميع الناس ثقة الحاكم بدرجة واحدة، فقد يحظى بعضهم بدرجة عالية من الثقة، بينما لا يحصل البعض الآخر إلا على درجات أضعف. والسؤال: من هو الأولى بنيل الدرجة العليا من هذه الثقة؟. وهنا يقدم أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ المعيار الذي على ضوئه يستطيع الحاكم أن يمنح الثقة لمن حوله

والمقربين منه، يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ»، أي إن أولى الناس بالثقة هم الذين تمت تجربتهم وامتحانهم وعرفت نجاحهم، وكلما كان اختبارهم أكبر وأكثر كانت درجة نجاحهم أعلى.

فإذا حسن بلاؤهم ونجحوا في الاختبار، فلا ينبغي للحاكم أن يبقى يعيش هواجس المؤامرات، ولا يمكن أن يبقى دائمًا في علاقته مع هؤلاء الناس ينطلق من منطلقات الخوف من الكيد له، لأنه سيبقى قلقًا باستمرار ولا يجد من يثق به ويطمئن إليه. وماذا على هؤلاء الناس أن يقدموا ليثبتوا حبهم لهذا الوطن وليثبتوا وطنيتهم؟، وإلى متى يبقى موضوع وطنية هؤلاء الناس مشكوكا به؟. ينبغي أن يُختبروا مرة أو مرتين، ولكن يجب أن يوضع حد لعدم الثقة.

إن على الحاكم والمسؤول أن يثق بشعبه وجمهوره ومن هو مسؤول عنهم لكي تمضي عجلة الحياة بسعادة وهناء ويشعر الجميع بالراحة والطمأنينة، ولكي يستطيع أن يبني علاقة صحيحة مع هؤلاء الناس.

وأما الصنف الآخر الذي يفشل في الاختبار فهو جدير بأن يُسيء الحاكم الظن به، يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ»، أي الذي تختبره ولا ينجح، والذي تحمله المسؤولية ويفشل فيها، والذي تأمنه على شيء ويخون الأمانة، فهذا الإنسان من حقك أن تسيء الظن به.

الأصل في الناس الثقة

لا نقول إن الجميع سواسية في الثقة، ولكن العدد الأكبر من الناس والأصل في الجمهور أنه موضع ثقة، والأصل في المجموعة التي تحت مسؤولية المتصدي أنهم أناس طيبون، إلا ما يخرج بالدليل.

وحينما يختبر المسؤول من هم تحت مسؤوليته ويتبين له أن فلانًا من الناس ليس أهلًا للثقة، فهذا هو الاستثناء، ووجود استثناءات لا ينبغي أن يكون مبررًا لأن يُنظر إلى الناس كلهم على أنهم متآمرون ويكيدون له؛ لأن هذا سوف يجعله في مناخ لا يساعده على النجاح في إدارة منظومته القياديّة.

الثقة الواعية والثقة العمياء

على المسؤول أن يثق بالناس ولكن ليس الثقة العمياء، بل عليه أن يفتح عينيه ويختبر ويعطي الفرصة للجميع بأن يعبّروا عن مكنونهم، ليرى أن أغلب الناس سينجحون في الاختبار؛ فإن الأصل في الناس أن يكونوا أهلًا للثقة، ومن لا ينجح يمكن أن يكون معه موقف آخر.

وهذه الرؤية موضوعية ومتوازنة وواقعية، فيها ثقة، وفيها حسن الظن، وفيها علاقات إنسانية حميمة، وفيها أيضًا حذر من النتوءات والاستثناءات والشواذ الذين لا يستحقون الثقة.

نتائج حسن الظن

أولًا: بناء علاقة صحيحة بين الحاكم والشعب

والدروس التي يمكن أن نستفيدها من هذه الكلمات الكريمة، هي موقع حسن الظن ودوره في بناء العلاقة الصحيحة بين المسؤول والمنظومة القياديّة التي يتحمل مسؤوليتها، صغيرة كانت أم كبيرة.

وقد تبين أن من أهم أدوات النجاح في العمل وفي المنظومة القياديّة وفي الأداء القيادي هي وجود جسور المودة والثقة بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم، التي هي من أهم مفاتيح تحقيق النجاح.

وهنا تكمن مشكلتنا، فإننا نقضي وقتًا طويلًا في تشريع الضوابط والإجراءات الإدارية، ولوضع تصور عن التوبيخ والعقوبات الاحترازية التي تجعل الجميع يخشى ويرتجف من المسؤول، ولا نعطي القليل من الوقت لبناء العلاقات الإنسانيّة بين المسؤول ومنظومته القياديّة، بأن يجلس معهم ويصغي إليهم ويتحدث معهم؛ ليحبهم ويحبوه وليعالج الكثير من الأمور ضمن هذا الإطار، فحب الموظف للمسؤول واحترامه له يجعلانه يسرع ليكون منذ أول ساعات الدوام في موقعه ويقدم الخدمة للناس، لا أن يكون الدافع هو القلق من قطع الراتب أو الخشية من الإجراءات والعقوبات الإدارية.

وهذا هو طريق نجاح المسؤول في محيط مسؤوليته؛ لأن العلاقة الإنسانيّة الصحيحة هي التي تستطيع أن تنجح العمل، في قبال تلك التجربة الخاطئة في الأنظمة الفاسدة والأنظمة التي لم تُبن على أسس صحيحة.

وفي مقابل ذلك لا يمكن أن يُكتب النجاح للمسؤول الذي يعيش حالة سوء الظن وأزمة ثقة بينه وبين العاملين معه، إذ يتربص كل بالآخر ويسجل نقاط ضعفه للتنكيل به. وفي ظل منظومة كهذه لا أحد يريد النجاح للآخر، وكل يريد أن يفتك بالآخر لكي يثبت أنه ليس أهلًا للمسؤولية، وتتحول العلاقة إلى علاقة خصومة وجدل وصراع، ومثل هذه العلاقة وهذه الأجواء لا تستطيع أن تُنجح أي منظومة قياديّة؛ لأن الحاكم يرى الناس كلهم يتآمرون عليه، والناس يرون الحاكم يعيش في عالم آخر بعيد تمامًا عن أجوائهم ومناخاتهم، وتشتد عزلة الحاكم، ويشتد الاصطفاف من الناس تجاه الحاكم والمسؤول في أي مستوى من المستويات.

وحينما نراقب شاشات التلفاز نرى موظفين من دائرة معينة خرجوا مسيرة احتجاجية، يرفعون لافتات ويهتفون بشعارات تطالب بإقالة مدير دائرتهم. وبالأمس كنت أتابع تقريرًا في إحدى الفضائيات حول هذا الموضوع؛ إذ يقولون جاءنا المدير العام يزور الناحية أو القضاء الفلاني، وعندما دخل ورأى المكان قال: أنتم لستم بشرًا، ولا تستحقون زيارتي لكم، وخرج بعدها.

إذن، كيف يستطيع مسؤول بهذا المنطق أن يقود هؤلاء الناس؟، ولو أنهم قدموا شكوى ضد هذا المسؤول إلى المحكمة وحكمت لصالحهم فهل ستحل المشكلة؟، لا أعتقد بذلك؛ لأنها خلقت أزمة حقيقية نتيجة كلمة كسرت قلوب هؤلاء الناس ونتيجة سلوك غير موفق.

فلذلك تكون العلاقة بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم في مثل هذه المنظومة القياديّة مرتبكة؛ لأنها لا تعتمد على الأسس الصحيحة، فحينما لا يعتمد على مبدأ الثقة، يكون هناك دائمًا شك بين المسؤول وهؤلاء العاملين، وسيصرف هذا المسؤول جزءًا كبيرًا من الوقت والجهد في المهاترات والمشاكل الداخلية، ويُبعد هذه المنظومة عن أهدافها المتوخاة.

إن إخافة الناس ورصد تحركاتهم والاستماع لمكالماتهم لا يمكن أن يوجد منظومة صحيحة للحكم والإدارة، مهما تطورت هذه المنظومات الاستخبارية، واستعملت أساليب التنصت والملاحقات وزرع العيون وما إلى ذلك، وقد عشنا

هذه الحالة في الأنظمة الدكتاتورية قبل (٢٠٠٣)، وأصبح الإنسان لا يثق بأقرب الناس إليه، بل يخاف أن يتكلم حتى لو كان وحده؛ لأنه لا يعرف أين مكان العين المزروعة التي يمكن أن تنقل الكلام ويحصل ما يحصل.

إن هذه الأمور يمكن أن تزيد من عمر المنظومة الإدارية القياديّة يوما أو يومين أو شهرا أو شهرين أو سنة أو سنتين، ولكنها ستنهار بالكامل بعد ذلك. وهذا ليس هو الأساس الصحيح الذي يمكن أن يوجد منظومة قياديّة ناجحة.

ثانيًا: اكتساب المحبة

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من حسن ظنه بالناس حاز منهم المحبة»[٣٤٩]، وكيف يمكن أن يتحقق الحب إذا انعدمت الثقة؟!. ولكن يمكن ذلك إذا رأى الناس الحاكم والمسؤول منفتحًا عليهم، ورأوه واثقًا ومعتمدًا على سلوكهم وأدائهم، فحينئذ يمكن أن يجد منهم المحبة ويبادلوه بها، فهذه قضية فيها طرفان، ولا يمكن أن تكون من طرف واحد.

والمسؤول الذي يريد أن يحبه الفريق الذي هو مسؤول عنه، فليراجع نفسه وينظر هل يحترمهم ويقدرهم ويثق بهم، أو أنه خائف منهم؟. وإذا كان يريد لقلبه أن يرتاح ويكون أمره نافذًا فعليه بغرس حسن الظن تجاه من هو مسؤول عنهم. فإن بناء هذه العلاقة الصحيحة سيبعث الارتياح في النفوس، وحالة الثقة وعدم الغدر؛ لأنه وثق بهم وبادلهم المحبة بعد الاختبار كما ذكرنا، وشخّص أن الغالبية منهم يستحقون الثقة فأعطاهم إياها، وستزول كل المخاوف وتُنفذ أوامره.

ثالثًا: اكتشاف الطاقات والمواهب

إن حسن ظن الحاكم بالشعب يساعد على اكتشاف الطاقات والمواهب، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإعطاء الكفاءات فرصتها ودورها في البناء. وعندما يكون المسؤول خائفًا من الناس فإنه لا يستعين إلا بالمقربين منه. ولكن ليس بالضرورة أن يكون الذي يحمل الولاء الخاص للمسؤول هو أكفأ الناس، وحينئذ يصبح بين خيارين، إما أن يستعين بالأكفأ أو يستعين بالأقرب، وقطعًا، سيختار الأقرب إذا كان خائفًا من الناس.

---

٣٤٩. غرر الحكم ٥: ٣٧٩.

ولكن إذا كان المسؤول حسن الظن بالناس، فإنه سيستعين بالأكفاء، وحينئذ ستتوفر فرص أكبر لنجاح العمل، ولا سيَّما إذا كان المسؤول مخلصًا في عمله ومنح الآخرين الثقة، فإنهم سيرتبطون به ويحترمون اختياره لهم.

وأقول للقوى السياسيّة الكريمة، لاحظوا المستقلين الذين وضعتم فيهم الثقة وجعلتموهم في مجلس النواب أو في وزارة أو في دائرة أو... الخ، وراجعوا أنفسكم وانظروا كم من هؤلاء كانوا جديرين بالثقة؟، وكم منهم لم يكونوا كذلك؟، فإنه سيتبين لكم أن الغالبية العظمى من هؤلاء كانوا جديرين بالثقة، وقد حققوا نجاحات باهرة وقدموا لكم عملًا وأداء رائعًا وحسّنوا صورتكم أمام الناس.

وهذا هو المنهج الإسلامي، منهج الثقة، منهج احترام الآخر، منهج اختبار الناس، ومن ينجح في الاختبار، ومن يثبت أنه قادر على الأداء، يُولَّى الثقة ويُحمَّل المسؤولية. وهذا منهج يجعل المسؤول ينفتح على الناس ويستثمر ما لديهم من الطاقات والكفاءات الكبيرة، ولا يبقى منحصرًا في دائرة ضيقة.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ في تأييد هذا المعنى قوله: «الرجل السوء لا يظن بأحد خيرًا»[٣٥٠]، أي حينما يكون الإنسان سيئًا فإنه يسيء الظن بالآخرين؛ لأنه لا يراهم إلا بوصف نفسه، فهو سيئ ويعرف سريرته ويظن أن كل الناس هكذا. فمثلًا إذا نجح شخص بالاختبار عندما كلف بعمل وأداه بأفضل ما يكون يقول عنه:

يُعطيكَ من طَرَفِ اللِّسانِ حلاوةً.... ويَروغُ منكَ كما يروغُ الثّعلبُ

مع أنه ليس بهذه الشاكلة، ولكنه لا يستطيع أن يرى إلا نفسه، وتراه يجامل الآخرين ويبتسم في وجوههم ويبادلهم الكلمات اللطيفة، لكنه في الواقع يضمر شيئًا آخر، فلا يستطيع أن يصدق أن هناك شخصًا يتكلم بهذه الكلمات ويعنيها ويقصدها؛ لأن المشكلة فيه، فهو يعيش في وجوده وفي نفسيته الحالة الظلامية ولا يستطيع أن يرى النور في قلوب الآخرين ونفوسهم ونواياهم.

انظروا إلى تحليل أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ السابق، فالشرير لا يظن بأحد خيرًا؛ لأنه لا يراه إلا بطبع نفسه، فهو شرير لا يستطيع النظر للآخرين بنيّة الصلاح وبالنيّة الصادقة في العمل. ولذلك يتحمل المسؤول المسؤولية الأكبر في خلق هذه الأجواء، ففي المنطق الإسلامي أينما وجدت المنظومة مرتبكة حمّل المسؤول المسؤولية أولًا؛ لأن هذا الفشل كان بفعله، ولو أنه تعامل تعاملًا صحيحًا بحكم مسؤوليته لاستطاع

---

٣٥٠. درر الحكم ٢: ١٥٠.

أن يوجد فضاءً جديدًا ومناخًا جديدًا تسود فيه الثقة والمحبة والنخوة والتسارع للخدمة واستثمار الطاقات وتوظيف الكفاءات إلى غير ذلك.

ولكن إذا لم يتم ذلك فالمشكلة في المسؤول؛ لأنه خائف ومرعوب ولا يستطيع الانفتاح وإعطاء الثقة للآخرين، ولا يستطيع التجربة، وإذا جرب، فمهما كانت نتائج التجربة إيجابية، تراه يبحث عن مبررات أخرى لعدم منح الثقة، فيبقى دائمًا منغلقًا على نفسه، ومحجما بدائرة ضيقة من الناس المحيطين به.

وهنالك إضاءات عديدة يمكن استفادتها من هذه الكلمات الكريمة:

الإضاءة الأولى

كيفية تحقق الثقة المتبادلة بين الحاكم والمواطنين

يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ثلاثة طرق لتعزيز الثقة بين المسؤول وبين من هو مسؤول عنهم، هي:

أولًا: الإحسان والشفقة واللين.

ويتضح ذلك من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إلى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ».

ذكر البعض أنّ أجهزتنا الأمنية تقوم بعملية سموها (ثأر الشهداء)، وهو أمر جيد أن نثأر لشهدائنا، ولكن لو قلنا شيئًا ليس فيه لفظ ثأر وأمثال ذلك لكان أفضل، ولكانت الرسالة أكثر إيجابية لغير الأشرار؛ إذ يجب علينا أن نُشعر المواطن أنّنا لا نشمت به ولا ننتقم منه، بل ننتصر له حتى لو كانت الإجراءات مزعجة، وعلى المسؤول أن يقنع المواطن أنّ الإجراءات لمصلحته وليس للتنكيل به. وهذا الإحسان في العلاقة أمر في غاية الأهمية.

ثانيًا: تقليل الضرائب.

ويستفاد ذلك من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَتَخْفِيفِهِ الْمَئُونَاتِ عَلَيْهِمْ»، فلا ينبغي أن تؤخذ من الناس أموال وضرائب تثقل كاهلهم وتضغط عليهم من خلالها بافتعال مبررات واهية، فمثلًا عندما كنت في سفر إلى إحدى الدول العربية جاءني مؤمنون من تلك

الدولة طالبين المساعدة في تقليل ضريبة الحصول على تأشيرة لدفن أمواتهم في مقبرة وادي السلام إلى جوار أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في النجف الأشرف، والتي تصل إلى مبلغ ثلاثة آلاف دولار، في حين أنّ الحكومة تأخذ من الإنسان الحي (٦٠) أو (٨٠) دولارًا كتأشيرة لدخول العراق! لماذا هذه الإجراءات؟ وما هي الحكمة منها في هذه القضية والكثير من القضايا الأخرى من الضرائب التي لا داعي لها؟ لقد كان النظام السابق يمارس سياسات طائفية بغيضة، ولكن اليوم وبعد عشر سنوات في العراق الجديد هنالك مشروع وطني ينبغي أن لا يوجد فيه ظلم لأي من الطوائف، فلماذا يُظلم الناس من طائفة معينة إذا كانت لديهم رغبة في أن يدفنوا موتاهم إلى جوار أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ. ؟ ومنه يتضح أنّه كلما قلّت الأعباء على الناس تنشدّ الناس وتندفع أكثر نحو المسؤول.

ثالثًا :عدم إكراه الناس على ما لا يطيقون.

ويتجلى ذلك من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ»، بأن لا يضغط عليهم ولا يطلب منهم أمورا هي ليست من واجباتهم، فإنّ امتلاك المسؤول للسلطة والسطوة والقدرة لا يعني أن يمارس ضغطًا على الناس كما يحلو له.

ونتطرق بشيء من التفصيل إلى هذه الطرق الثلاثة.

الطريق الأول: الإحسان

هنالك أنواع كثيرة من إحسان المسؤول إلى من هو مسؤول عنهم تتمثل في:

- الإحسان في تيسير اللقاء، فالناس تريد الوصول إلى المسؤول أو من ينوب عنه حتى تطمئن أن هذه الشكوى وهذه الكلمة وصلت إلى المسؤول.

- البشاشة في التعاطي والتعامل، فقد يتصور البعض نفسه أحسن من بقية الناس، فيرفع صوته ويذل الناس!

- الإحسان بتقديم الخدمة إلى الناس، فمثلًا كان أحد أعضاء مجلس المحافظة من كتلة المواطن يتحرك في منطقته الانتخابية ويطرق الأبواب للبحث عن رجل مُسن أو مُقعد يحتاج خدمة معينة كإصدار هوية أو جواز ويقوم بأخذه بنفسه أو يكلف آخرين لإنجاز عمله. وهكذا ينبغي أن يكون منهجنا فنشعر الناس أنّهم مخدومون وليسوا خادمين.

- الإحسان بالتعامل المهني الصحيح، فالمسؤول يحسن حينما يضع الشخص الكفوء في موقعه الصحيح، وحينما يضع معايير يتعامل بها مع الجميع دون تمييز، أي التساوي أمام القانون.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «الإحسان محبة»[٣٥١]، أي حينما تحسن إلى الآخر بابتسامة أو بكلمة طيبة أو بقيام حينما يدخل إلى المجلس فإنّه تكريم وتقدير يوجب المحبة، والناس عبيد الإحسان، فحينما تحسن إلى إنسان فإنّك تدخل محبتك في قلبه.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا: «أحق الناس بالإحسان من أحسن الله إليه وبسط بالقدرة يديه»[٣٥٢]، أي حينما يكون الإنسان ميسور الحال بفضل من الله عليه أن يُحسن إلى خلق الله كما أحسن الله تعالى إليه. فإذا ما حصل على مسؤولية فهي من الله تعالى، وكذلك المال والوجاهة والتأثير هي نعم من الله تعالى، وعليه أن يقابل إحسان الله إليه بإحسانه إلى الناس، فإنّ الناس تقصده لأنّه مسؤول أو ميسور الحال أو وجيه، فتكون عنده مكانة خاصة لهذه الأسباب، وعليه أن يكون أكثر من الآخرين في تعامله وإحسانه إلى الناس.

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «من كثر إحسانه كثر خدمه وأعوانه»[٣٥٣]، أي يصبح عنده أصحاب كثيرون، فهناك بعض الناس يكون رجل علاقات ومحبوبًا في المنطقة، يتفقد الناس ويسأل عن أحوالهم ولكنّه لا يستطيع أن يدير مسؤولية أخرى، فالإحسان يكثر من الأعوان الذين يحيطون بالإنسان حينما يحسن إليهم.

وعن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا: «الإحسان ذخر»[٣٥٤]، أي إنّ الإحسان هو رأسمال الإنسان، وبقدر ما يحسن للآخرين يكبر رأسماله أو يصغر.

وقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا: «إنّ إحسانك إلى من كادك من الأضداد والحساد لأغيظ عليهم من مواقع إساءتك منهم، وهو داع لصلاحهم»[٣٥٥]، أي إنّ إحسانك إلى من يتهجم عليك ويسبّك ويشتمك سوف يغيظه أكثر، فإن كان مخطئًا غافلًا فسوف

---

٣٥١. غرر الحكم ١: ٣٨.

٣٥٢. عيون الحكم والمواعظ: ١٢٧.

٣٥٣. عيون الحكم والمواعظ: ٤٦٠.

٣٥٤. عيون الحكم والمواعظ: ٤٥.

٣٥٥. عيون الحكم والمواعظ: ١٥٦.

ينتبه ويرجع يعتذر، وإن كان مغرضًا جاهلًا ويريد أن يسيء إليك بسبب عقد نفسية وأمراض أخلاقية فإنّك حينما تحسن إليه سوف يتألم أكثر، وهذا طريق للتقريع أشد مما لو واجهته بمثل ما هو يتعامل معك، وحينما يرى أن تعاملك معه مخجل له سوف ينصلح. وأما إذا كان التعامل عنيفًا وشديدًا، فإذا كان مخطئًا وأنت تهينه عن عمد فسوف يصعب عليه التراجع وتأخذه العزّة بالإثم، وإذا كان مغرضًا فسوف يزداد لجاجًا وخصومة، وأنت تشفي غليله بهذه الطريقة.

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أحسن إلى المسيء تملكه»[٣٥٦]، أي إنّك تملك المسيء بالإحسان إليه وتجعله ينتبه إلى خطئه، وسوف يقول: أنا أسيء إليه وهو يحسن إليّ، أنا أسبّه وهو يصبر على إيذائي! وهذا منهج في البناء والتربية والتزكية الاجتماعيّة.

الطريق الثاني: تخفيف الأعباء والضرائب

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «علامة رضا الله تعالى في خلقه: عدل سلطانهم» حينما يكون الحاكم عادلًا مع الناس، فهذا معناه أن الله راض عن هؤلاء الناس، وإذا لم يكن راضيًا عنهم يسلط عليهم من لا يرحمهم «ورخّص أسعارهم». وعلامة غضب الله تعالى على خلقه: جور سلطانهم وغلاء أسعارهم»[٣٥٧]. فإذا كانت الأسعار غالية، والناس في عناء وليس بمقدورها شراء المواد التي تحتاجها، فيجب أن نراجع أنفسنا خوفًا من عدم رضا الله تعالى علينا حتى نعالج أخطاءنا.

الطريق الثالث: عدم تحميل الناس ما لا يطيقون

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ»، أي لا يُستكرهون ويُطلب منهم واجبات خارج حدود واجباتهم والتزاماتهم. قال الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لجنده في حرب صفين: «وقد أحببتم البقاء، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون»[٣٥٨]، فقد دعا عَلَيْهِ السَّلَامُ جيشه للخروج إلى الحرب في جولة أخيرة ليقاتل الأعداء، ووعدهم النصر، ولكنهم رفضوا، وأكّد لهم أنّها الجولة الأخيرة

---

٣٥٦. عيون الحكم والمواعظ: ٨٣.
٣٥٧. الكافي ج٥ ص١٦٢
٣٥٨. نهج البلاغة: الخطبة ٢٠٨.

وأنّه لم يبق من الحرب إلا القليل، وأنّ العدو قد انهار، ولكنهم رفضوا بحجة رفع المصاحف، وقال لهم: أنا الكتاب الناطق، أنا علي أقول لكم هذه دسيسة وخديعة ومكر، ولا تنخدعوا برفع المصاحف، ولكنهم رفضوا، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم: «وقد احببتم البقاء»، أي لم يكن بيدي سوى النصح لكم. وكان التحكيم ولبسوا ثوب الذل والهوان، ورجع الخوارج يقولون: يا علي لماذا قبلت بهذا التحكيم ولم تكمل المعركة؟ فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم: سبحان الله تقولون هذا الكلام بعد أن نصحتكم ووضحت لكم؟! ولكن لا تحبون الناصحين ولم تسمعوا كلامي.

وعن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «وليس أرى أن أجبر أحدًا على عمل يكرهه»[٣٥٩]؛ لأنّ هذا الإكراه ليس من السمات التي يستطيع من خلالها المسؤول أن يوطد العلاقة مع المواطنين.

الإضاءة الثانية

نتائج ومعطيات حسن الظن بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بِرَعِيَّتِكَ فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصباً طَوِيلًا»، أي أنّ حسن الظن يخلصك من متاعب طويلة وعريضة أنت في غنى عنها، وهذا هو المعطى الكبير والنتيجة العظيمة لحسن الظن.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: «حسن الظن من أحسن الشيم وأفضل القسم»[٣٦٠]، أي إنّ أفضل شيم الإنسان هي أن لا يكون رجلًا مرعوبًا من الناس، بل يحسن الظن بهم ويتعامل بإيجابية مع الآخرين، فإنّ الأساس في الناس أنّهم طيبون شرفاء وطنيون، وأنّهم يستحقون الثقة، إلا من يخرج بالدليل، فيتبين أنّ فلانًا غير مؤهل وغير جدير بالثقة. فأفضل الشيم هي التعامل بحسن الظن مع الآخرين. وأفضل القسم يعني أنّ أفضل نصيب للإنسان هي أن تكون طريقته ومنهجه حسن الظن بالآخرين واحترامهم.

إذن حسن الظن يوفر أرضية النجاح؛ لأنّه يمثل أفضل الشيم والمسالك، وإذا سلكت هذه المسالك سوف يتحقق على يدك النجاح.

---

٣٥٩. نهج السعادة ٥: ٣٥٩.

٣٦٠. عيون الحكم والمواعظ: ٢٢٨.

في رواية أخرى عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «حسن الظن راحة القلب وسلامة الدين»[٣٦١]، فمن يريد أن يكون قلبه مرتاحًا ويريد دينه مستقيمًا فليحسن الظن بالناس ويتعامل معهم على أساس صحيح، وهذا سيوفر الراحة والاطمئنان القلبي، ويضع الإنسان في موضع الاستقرار النفسي ويحافظ على دينه؛ لأنّ سوء الظن سوف يدفعه إلى التجسس والتدخل في شؤون الناس ومحاولة التعرف على أسرارهم، وهو محرم عليه، فليس له حق أن يتجسس ويتفحص عن الناس، وليس هذا واجبه ولا يجوز له. فمن عنده سوء ظن يبدأ يتجسس، ولكن من لديه حسن ظن لا يحتاج إلى ذلك، فيحافظ على دينه ويقوى دينه.

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «حسن الظن يخفف الهم، وينجي من تقلد الإثم»[٣٦٢]، أي يخلص الإنسان من الذنوب ويقلل الهم. وهذه فوائد عظيمة لحسن الظن.

وعنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «من حسن ظنه بالناس حاز منهم المحبة»[٣٦٣]، أي إذا كنت تريد من الناس أن يحبوك فعليك أن تحسن الظن بهم، انظر إلى الناس نظرة صحيحة يحبك الناس، وإذا وجدت الناس لا تحبك فاعرف أنّ عندك مشكلة معهم، ويجب أن تعالج المشكلة وتتأكد من محبتك لهم، وحينئذ يبادلونك المحبة.

وعن الإمام أبي جعفر الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «سُئل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: كم بين الحق والباطل؟ فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: أربع أصابع. ووضع أمير المؤمنين يده على أذنه وعينه»، إذ الفاصل بين العين والأذن أربع أصابع، فالفاصل بين ما تراه وما تسمعه أربع أصابع. وللإشارة إلى أنّ كثيرًا من الأخبار التي نسمعها غير صحيحة ومصادرها غير معروفة، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما رأته عيناك فهو الحق، وما سمعته أذناك فأكثره باطل»[٣٦٤]. وكان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قد قال منذ البدء إنّ أكثر المسموعات باطلة وقليل منها صحيحة. ولذا يجب عدم التشهير بإنسان مؤمن بمجرد خبر نسمعه، وعلينا أن نتأكد مما نسمعه؛ لأنّ أكثره باطل، فإنّ الناس بطبيعتها لا تتأكد مما تسمع، والكلمة غير الجيدة تأخذ مساحاتها السريعة في الآفاق.

٣٦١. عيون الحكم والمواعظ: ٢٩٠.
٣٦٢. عيون الحكم والمواعظ: ٢٢٩.
٣٦٣. عيون الحكم والمواعظ: ٤٣٥.
٣٦٤. بحار الأنوار ٧٢: ١٩٦ ح ٩.

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «من كذّب سوء الظن بأخيه كان ذا عقل صحيح وقلب مستريح»[٣٦٥]، فمن يريد أن يكون عقله مرتاحًا وغير مشوش وقلبه في حالة من الراحة فعليه أن يكذّب سوء ظنّه بالآخرين.

«سوء الظن بمن لا يخون من اللؤم»[٣٦٦]، فإذا أسأنا الظن بالذي يستحق حسن الظن، ولم نثق بمن يستحق الثقة فإنّ ذلك دليل على لؤم النفس وخباثتها.

إذن هناك أخطاء إذا لم نحسن الظن ولم نتعامل بشكل صحيح مع من يستحق، فالله تعالى يبتلينا فنتعامل مع من لا يستحق الثقة وحينئذ نتحمل الكثير من الإشكاليات والمتاعب.

وهذا درس آخر من معطيات حسن الظن، حيث يخلّص الإنسان نفسه من كثير من العناء، ويستقر نفسيًا ويحقق النجاح في المهمة المناطة به.

وفي رواية عن الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «خذ من حسن الظن بطرف تروّح به قلبك، ويروح به أمرك»[٣٦٧]، أي اعتمد حسن الظن ليرتاح قلبك وتستقر مشاعرك وتتحسن نفسيتك، وينجز به أمرك، وسوف توزع المهام وأمرك وعملك ينجز ومهمتك تتحقق. وأما إذا كان لديك سوء ظن فإنّك لا تستطيع أن تكلف أحدًا وستكون مهامك شاقة، فحسن الظن يعني الثقة بالآخرين وإعطاءهم الفرص. والقيادي الناجح ليس هو من يركض ليل نهار، بل هو من يركّض الآخرين ليل نهار ويركض معهم حتى تتحقق النتائج الباهرة. وهذا هو منهج علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو منهج رسول الله.

الإضاءة الثالثة

المعيار في حسن الظن وسوء الظن

نتحدث في هذه الإضاءة عن الشخص الذي يجب أن نحسن الظن به والشخص الذي يجب أن نسيء الظن به.

---

٣٦٥. عيون الحكم والمواعظ: ٤٦١.

٣٦٦. عيون الحكم والمواعظ: ٢٨٤.

٣٦٧. بحار الأنوار ٧٥: ٢٠٩ ح ٨٤.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع من عهده الشريف لمالك الأشتر: «وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ»، إنّ حسن الظن لا يعني أن يتحول الإنسان إلى مُغفّل، وحسن الظن لا يعني أن يغمض الإنسان عينيه عن الغادرين والمفسدين والفاشلين والمتآمرين وإن كانوا هؤلاء قلة قليلة، فالأساس أنّ الناس طيبون إلا من تبين أنّه متآمر، وأنّه غير منسجم وخائن وما إلى ذلك. وهذا التوازن عميق جدًا، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «المؤمن كيّس»[٣٦٨]، فالمؤمن حسن الظن ولكن دون أن يتحول إلى مغفل.

وفي رواية عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لضباط ومراتب جيشه، يقول: «ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى» أنت الضابط والقيادي العسكري افتح عينك وقيّم رجالك، وأعطِ كل واحد قيمته، ماذا قدّم؟، وماذا حقّق من انتصارات؟. وفي زماننا يبذل الجنود المجهود ويحققون الانتصار، ولكن الوسام يأخذه كبار الضباط! لماذا لا تُقدّر جهود هؤلاء الجنود والمراتب؟! وهكذا يصابون بالإحباط، فالسمة القياديّة تتطلب أن ينظر المسؤول إلى من هو مسؤول عنهم، ليرى من يعمل أكثر، ومن هو أقل كفاءة، ومن هو يبذل من وقته وجهده، ومن هو المخلص، فيجب عليه أن يميّز بين هؤلاء.

ثم يواصل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ كلامه فيقول: «ولا تضمنّ بلاء امرئ إلى غيره»، أي لا تسجل أيها المسؤول إنجاز أي منهم إلى الآخر فيغبن حقه، ولا تصادر أعمال الآخرين، وأعطِ حقَّ كل واحد له. ولكننا نرى في واقعنا أمرًا معاكسًا حيث يأخذ المدير العام كل الإنجازات ويسجلها باسمه، ويتناسى حقوق الآخرين الذين ساعدوه وحققوا الإنجازات! ونراه في حالة الفشل يلقي اللائمة على الآخرين! هذا لا يجوز، والقاعدة الفقهية تقول: «من له الغُنْم فعليه الغُرْم»، أي من له الفائدة فإنّ عليه التبعات، فأنت مسؤول الإنجاز ومسؤول الفشل أيضًا، وكما أنّهم معنيون بالفشل فإنّهم معنيون أيضًا بالإنجاز.

ثم يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولا تقصّرن به دون غاية بلائه»، أي لا تقصّر ولا تقلل من قيمة العمل والإنجاز الذي يقوم به الآخرون، بل قيّم العمل كما هو، فإنّ التقليل من قيمة العمل لا يكون أساسًا في واقعنا، ولكنه مع الأسف موجود، فالرجل يدخل

---

٣٦٨. عيون الحكم والمواعظ: ٣٠.

إلى البيت ويرى زوجته متعبة فيقوم بالتقليل والاستهانة من عملها، بسبب أنّه يخرج إلى الشارع ويواجه مخاطر الطريق والانفجارات، ولكنه حينما ينظر نظرة واقعية إلى عمل المرأة في البيت سيجده صعبًا جدًا، ولهذا يجب علينا أن لا نقلل من عمل الآخرين.

ثم يحذر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المسؤول من التمييز في التعامل بين الناس، قال: «ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تُعظّم من بلائه ما كان صغيرًا»، فهذا ابن معالي الوزير ويشار له بالبنان والاحترام، وأبسط قضية تعتبر له إنجازًا عظيمًا، بينما المواطن البسيط حتى وإن كان مجتهدًا ومتفوقًا فلا يشار له بذلك التقدير؛ لأنّه لا يملك تلك الوجاهة التي يمتلكها أبناء المسؤولين. ولهذا لا ينبغي للمسؤول أن يعظّم بلاء من له جاه ومرتبة اجتماعية، وعليه أن لا يرى عمله أكبر من واقعه، وليعطه حقه فقط، فإن كان عمله صغيرًا فلا تكبّره لأنّه من الكتلة الفلانية أو عنده مال أو جاه أو مكانة.

وفي مقابل ذلك يجب على المسؤول أن لا يحجّم من عمل إنسان من عامة الناس، يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «ولا ضعة امرئ إلى أن تصغر من بلائه ما كان عظيمًا»، أي ولا تدعوك المنزلة الاجتماعيّة المتواضعة لإنسان بسيط ولكنه ذو إنجاز كبير إلى إهمال إبداعاته، لأنّ المبدع المخترع المبتكر كان إنسانًا من عامة الناس! وكم نرى من إبداعات بسيطة أخذت صدى كبيرًا في وسائل الإعلام لأنّ المبدع كان ذا وجاهة؟!. وهذه كلها كوابح تعيق الناس عن التقدم والعمل والتطور وأن يقدّموا لمجتمعهم جهودهم وإنجازاتهم. وهذه النقاط مؤثرة ومهمة في المنظومة القياديّة.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قوله: «إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله، ثم أساء رجل الظن برجل لم تظهر منه حوبة، فقد ظلم»، أي حينما يكون الجو العام جوًا إيمانيًا ولكن هناك رجل أساء الظن برجل دون أن يصدر منه ما يستحق سوء الظن، ففي هذه الحالة سوف تظلم نفسك وتظلم الآخرين. وفي مقابل ذلك: «وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله فأحسن رجل الظن برجل فقد غرر»[٣٦٩]، أي غرّر بنفسه، فكما أنّ حسن الظن أساس البيئة التي تستحق حسن الظن، فإنّ البيئة الملوثة يكون الحذر والاحتياط مطلوبين فيها لئلا يقع في الغرر، وهذا أيضًا تأكيد لهذا المنهج.

---

٣٦٩. نهج البلاغة: الحكمة ١١٤.

في رواية أخرى عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «إذا كان الزمان زمان جور وأهله أهل غدر فالطمأنينة إلى كل أحد عجز»[٣٧٠]، ففي زمان الغدر حيث لا يرحم أحد أحدًا، إذا اعتمد الإنسان على الآخرين ووثق بهم في مثل هذه الظروف فهذا عجز، بل يجب عليه أن يفتح عينيه لأنّ الوضع لا يتحمل حسن الظن.

وورد عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا قوله: «من عرّض نفسه للتهمة به فلا يلومن من أساء الظن به»[٣٧١]، فالإنسان إذا عمل عملًا يُتهم بسببه فلا ينبغي له أن ينزعج إذا أساءت الناس الظن به؛ لأنّ الناس تسيء الظن عادة بأناس تصدر منهم مؤشرات غير طيبة وغير صحيحة، ولذلك قيل: «اتقوا مواضع التهم»، فمثلًا لا يجوز الدخول إلى أمكنة ينظر إليها أنّها أمكنة فجور وإنْ كانت نيته طيبة، ويجب عليه العزوف عن مثل هذه الأمكنة، فالشيء الذي يسبب توجه الأنظار إليه ويصعب تبريره للآخرين عليه أن يبتعد عنها؛ لأنّه إذا صدر منه ما يثير الناس فلا ينبغي له أن ينزعج فإنّه من حق الناس أن تسيء الظن بمن يصدر منه ما يستحق أن يساء الظن به.

---

٣٧٠. تحف العقول: ٣٥٧.

٣٧١. عيون الحكم والمواعظ: ٤٥٨.

المقطع الثالث عشر

التعاطي مع السنن الصالحة

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«وَلاَ تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هٰذِهِ الأمّةِ ، وَاجْتَمَعت بِهَا الأُلْفَةُ ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرّعِيّةُ ، لاَ تُحْدِثَنّ سُنّةً تَضُرُّ بِشَيءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ ، فَيَكُونَ الأَجْرُ لِمَنْ سَنّهَا ، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا .»

الدرس السابع والثلاثون

الإبقاء على العمل الناجح

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ»، يا مالك، اليوم ستكون مسؤولًا جديدًا في بلاد مصر، وحينما تصل إلى مصر وتأخذ موقع المسؤولية، لا تنظر إلى أفعال السابقين لك على أنها كلها أفعال خاطئة، لعلك أحسن منهم، ولكن أن يكون الحاكم مستبدا أو ظالمًا أو ديكتاتورًا، فهذا لا يعني أن كل ما يقوم به هو خاطئ، فحتى الديكتاتور من أجل أن يستتب حكمه عليه أن يبني مؤسسات ويقدم خدمات، وقد ينجح في أفكار معينة وقد يبتكر أمورًا، فاذا تغير الحاكم الديكتاتور أو الظالم وجاء البديل، فهذا لا يعني أن كل الأعمال كانت خاطئة وسيئة، ولعل هناك خطوات صحيحة وإجراءات ناجعة أو نجاحات في ميادين معينة، فلا تشطب على كل عمل كان في المرحلة السابقة.

حينما تذهب إلى مصر قد تجد أعرافًا وتقاليد وسياقات عمل وإجراءات وضوابط ومقررات وقوانين، منسجمة مع الإطار الصحيح، فلماذا تنقضها؟ قد تجد سياقات عمل بها صدور وخبراء وعقلاء هذه الأمة فلا تنقضها، لأنها كانت معتمدة ومعمولًا بها في المرحلة السابقة.

نحن في العراق كان نظامنا الديكتاتوري السابق يستخدم اسم (فلسطين) استخداما خاطئا، والجيش الذي يريد أن يقمع به شعبه يسميه (جيش القدس) وأساء الاستخدام، ولكن قضية القدس وفلسطين قضية حقة، فإن استخدام الظالم لهذا الاسم استخداما خاطئا لا يعني أن الموضوع خاطئ.

المحافظة على ما يعزز الألفة

«وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ»، السياقات التي تعزز اللحمة والتعايش والسلام والوئام، هذه الأمور حافظ عليها ولا تنقضها، لتبقى الأمة متماسكة وموحدة.

«وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ»، تلك الإجراءات التي تقدم حلولا للمواطنين وتعالج مشاكل المواطنين وتنتظم بها حياة الناس، هذه الأمور لا تنقضها. لعل الديكتاتور الظالم كان ناجحا في توزيع البطاقة التموينية ولم تكن تتأخر عن المواطنين، فما الضير في أن نرى كيف كان الأسلوب لنعمل به، لأن هذا أمر كانت أمور الناس تنتظم به، فليس كل ما يصدر من السيئ والظالم فعلًا خاطئًا بالضرورة.

«وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ، لا يصبح عندك هوس استحداث تشريعات وسياقات جديدة؛ فكل شيء فيه بصمة السابقين لا نريده، وكل شيء عليه اسم السابقين علينا أن نمحوه حتى لو كان أفضل المشاريع، فنهدمه ونبني واحدا آخر، هذا خطأ، فلا تحدث قوانين أو تشريعات ضارة بتلك السياقات إذا كانت صحيحة، ولا تستبدلها بتشريعات أو سياقات أخرى وبثقافة أخرى تكون مضرة بتلك السياقات الصحيحة.

«فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا»، فيبقى الأجر لمن سن تلك السنن والسياقات الصحيحة، وتتحمل الوزر والذنب على هدمها، والإتيان بأمور وسياقات غير صحيحة وغير مجدية وغير ناجحة تشق على المواطنين.

التغيير على وفق معيار المصلحة

إذن، لا يوجد شيء مطلق في الرؤية الإسلاميّة، فليس كل شيء حسنًا في الدنيا، والقول إن كل شيء سيئ غير صحيح أيضًا؛ فحتى في عهد الظلمة والطغاة هناك أشياء وإجراءات صحيحة يجب ألاّ ننتفض عليها، فحينما نثور يجب أن تكون ثورتنا ثورة واعية، وحينما ننقض ننقض بوعي، وحينما نختلف نختلف بوعي وعلى خلفية وقواعد ومنطق ورؤية، ويجب أن يكون العقل هو سيد الموقف وليس العواطف.

في زماننا وليس في بلادنا وحدها، بل في بلدان العالم المختلفة، طبعا البلدان التي ليست فيها تجربة ديمقراطية عميقة وكاملة، حينما يأتي وزير جديد يقوم مباشرة بتغيير الطاقم كله، وقد يكون في الفريق أناس جيدون، حتى إنه يغير الغرفة التي يجلس فيها والأثاث، وهذا غير صحيح؛ بناية جديدة وفريق جديد، وحتى موظف الخدمة يتغير، والزي يتغير، وكل شيء يتغير، لماذا؟.. لكي لا يبقى أثر للسابق وكل شيء تكون عليه بصمات الوزير الجديد، ولكن أين المصلحة العامة؟ وأين

الانتصار لمصالح المواطنين؟ وأين حفظ المال العام؟ هذه كلها غير محسوبة في هذه المواقف الانفعالية، وهذه شهوة سلطة ونزوة.

يأتي فريق جديد لمجالس المحافظات، وفي المقابلة الإعلاميّة يُخطِّئ كل شيء، البعض منهم طبعا، وهذا غير صحيح، فأنت البديل ومن يأتي بعدك سوف يخطئك أيضًا في كل شيء، وهذه ثقافة لا تقف عند حد، ولو دامت لغيرك لما وصلت إليك، وموقع المسؤولية ككرسي الحلاق؛ حينما تنتهي يأتي غيرك، فكرسي المسؤولية كذلك، فإذا خطّأت من قبلك، سيأتي من بعدك ويخطئك، وهذه قضية لا تنتهي.

هذا هو الأساس الذي يضعه علي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ويمثل الرؤية الإسلاميّة في أحد معالمها في الإدارة والقيادة؛ أن يكون هناك تقييم موضوعي، عمّا هو فعل صحيح لنستمر فيه، ومن كان كفوءًا نبقيه ونستعين به، وما كان خاطئًا نصححه، والأعوج نقوّمه وهكذا، ولكن ليس هناك شيء مطلق، ولا بُدَّ من الحفاظ على الحالة الصحيحة، لكي تكون هناك حالة تراكميّة، لذا يقال إن البناء المؤسسي مهم، لأن من إيجابيّاته هذه الحالة التراكميّة، فبعد أربع سنوات من التجارب يأتي الثاني ويبدأ من حيث انتهى السابق، ولا يهدم ولا ينقض ويبني من جديد، والثاني اليوم عنده تجربة أربع سنوات ويوم، والثالث عنده تجربة ثماني سنوات ويوم، وهكذا تتراكم الخبرة والتجربة والسياقات والعمل، وكلٌ يأتي ليأخذ المشروع خطوة إلى الأمام، والبلد يتكامل والمنظومة تتكامل، هذا هو السياق.

ماذا نستفيد من هذه الكلمات العميقة لأمير المؤمنين عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، من هذه الرؤية الإسلاميّة في التعاطي مع المنظومة الإداريّة والقياديّة؟.

الإضاءة الأولى

ماذا تعني السُنّة؟

«وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً»، القرآن الكريم استخدم كثيرًا مفردة السُنَّة في الإشارة إلى القوانين الإلهيّة الثابتة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[٣٧٢]، من حفر بئرًا لأخيه وقع فيها، الفعل وردّ الفعل، فأنت تحصد ما زرعت، إن تزرع حنطة تحصد حنطة، وإن تزرع شيئًا آخر تحصد شيئًا آخر، وحين تتعامل مع الناس بخير

٣٧٢. سورة فاطر: الآية ٤٣.

يتعاملون معك بخير، وحين تتعامل بسوء يتعاملون معك بسوء، وإن ترفع صوتك على أبيك والعياذ بالله، فسوف يرفع ابنك صوته عليك وهكذا؛ ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، هذا قانون إلهي ثابت في الفعل ورد الفعل.

ثبات السنن الإلهيّة

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾، ألم يروا ما جرى على الأمم السابقة؟ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[٣٧٣]، السُنَّة الإلهيّة ثابتة لا تتغير ولا تتحول، فهذا قانون إلهيّ. يتغير الزمان والمكان ولكن القانون يبقى ثابتًا، الأسماء تتغير وكذلك الظروف، كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء، الصراع بين الحق والباطل يتجدد في كل زمان ومكان.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾[٣٧٤]، هؤلاء الكفار والمشركون والمجرمون لا يؤمنون به، أي لا يؤمنون بالرسالات الإلهيّة ولا يأخذون بها، والقرآن يقول لهم: «وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ»، لاحظوا الأقوام السابقة حينما استهزؤوا بأنبيائهم ورسلهم ورسالاتهم ماذا حصل لهم، لتعرفوا ماذا سيجري عليكم؛ لأن هذا قانون ثابت؛ فالذي لا يسير في طريق السماء ومع إرادة الله تعالى، ومن لا يخضع للسنن الإلهيّة والرسالات الإلهيّة ولا يعتمد منهج السماء، سيقع في الهاوية، وهذه من السنن الثابتة التي لا تتغير، وهذا استخدام قرآني للسُّنة، والقوانين القرآنية الثابتة، وهو خارج موضوع حديثنا.

السُنن الاجتماعيّة

إن القرآن الكريم يستخدم لفظ السُنَّة، فما هي السُنَّة الاجتماعيّة في الأعراف والتقاليد والأمور الراسخة في المجتمع، التي يتحرك من خلالها المجتمع؟ وهي مورد البحث، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٣٧٥]، هذه الظواهر الاجتماعيّة التي جاءت وترسخت، ثم أعطت موقعها لسنن وظواهر وأعراف جديدة، فانظروا إلى السابقين حينما

---

٣٧٣. سورة فاطر: الآية ٤٣.

٣٧٤. سورة الحجر: الآية ١٣.

٣٧٥. سورة آل عمران: الآية ١٣٧.

كذبوها ووقفوا بوجه المجتمع، وبوجه المنظومة الأخلاقيّة والاجتماعيّة والنفسيّة لمجتمعاتهم، ولم يتماشوا مع القوانين والسياقات المعمول بها في مجتمعاتهم، لاحظوا ماذا حلّ بهم، لتعرفوا ماذا سيحل بكم لاحقًا إذا ما خرجتم عن سياق هذه السُنن والقوانين والظواهر الصالحة، التي تحرك المجتمع وتمثل ركائز في البنية الاجتماعيّة.

السُنن الاجتماعيّة بطيئة في متغيراتها

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٣٧٦]، الله تعالى يريد أن يهديكم لتبيان هذه السنن الاجتماعيّة التي فيها نجاحكم وتقدمكم وازدهاركم ووصولكم إلى ما تتمنون وما تريدون، ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، إذن، هذه السُنن اجتماعيّة راسخة في المجتمع، وحركة المجتمع ترتبط بهذه السنن، وهذه غير القوانين الإلهيّة الثابتة التي لا تتغير؛ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾، فهذه أمور قابلة للتغير، ولكن فيها بناءً اجتماعيًا، وعمليّة التغير فيها عمليّة بطيئة، وعلماء الاجتماع يتحدثون ويضعون نظرياتهم على هذا الأساس.

لذلك فإن التحول المجتمعيّ تحول بطيء؛ لأن هذا التحول يرتبط بهذه الظواهر والسُنن الاجتماعيّة وهي بطيئة في متغيراتها، فهو يختلف عن التحولات السياسيّة مثلًا، إذ يمكن أن يحدث انقلاب في ليلة ظلماء، أو انتخابات تأتي بفريق جديد، فسواء كان تحولًا سياسيًا ديمقراطيًا أو بطرق أخرى، فهو تحول سريع، ولكن التحول المجتمعي بطيء لأنه يرتبط بهذه المرتكزات، وهي لا تتغير بسرعة.

عوامل رسوخ السُنن الاجتماعيّة وتغيّرها

كلما كانت هذه السنن الاجتماعيّة منبثقة من المنظومة الأخلاقيّة للمجتمع، كانت أكثر رسوخًا؛ لاحظوا مثلًا أعرافنا العشائريّة، فهناك سلسلة طويلة من الأعراف لها جذورها الإسلاميّة المأخوذة من ثقافتنا الإسلاميّة، مثل النخوة والكرم والضيافة والتسامح وغيرها الكثير من القيم الإسلاميّة، لذلك تجدها راسخة لا تتغير بسهولة.

---

٣٧٦. سورة النساء: الآية ٢٦.

ولكن قد تكون بعض الأعراف العشائريّة ليست ذات جذور إسلاميّة، بل من ابتكارات حالة معينة حدثت، كقيام شيخ عشيرة بفعل ما، والشيخ الثاني نحا نفس المنحى، أو توفي شيخ عشيرة له محبون فجلسوا ثلاثة أيام وأطعموا الطعام، وحين يتوفى شيخ العشيرة الثاني سوف يجلس محبوه ثلاثة أيام أيضًا في مجلس عزاء، وشيخ آخر له إمكانيّات يجلس أربعة أيام في مجلس العزاء، وهكذا يبدأ التنافس ويصبح عرفا اجتماعيا، والفقير المسكين إذا مات له أحد، عليه أن يقيم مجلس عزاء ثلاثة أيام، وهذا أمر شاق عليه، فبالرغم من مصابه بفقدانه لعزيزه، يضاف لذلك إرهاقه بإقامة مجلس العزاء وإطعام المعزين، وبدلًا من أن نساعده ونشفق عليه أرهقناه فوق طاقته، وهذا غير صحيح.

أين يوجد مثل هذا الشيء في الإسلام؟، ومن أين أتيتم بمثل هذه الأمور؟ وحينما ننظر إلى جذورها، نجد أن شيخًا من الشيوخ الأكارم فقد عزيزًا له، فأقام مجلس عزاء ثلاثة أيام، وهذه يمكن أن تتحول إلى ظاهرة، ولكن يمكن التخلي عنها أيضًا، ويمكن استبدالها بسلوكيات مختلفة لا تكون عبئًا على المجتمع وتسهل على الناس أُمورهم، وكما أن هذه الظواهر سُنّت على أيدي أكابر ولا يقدر الفقير على تحمل أعبائها، يمكن للشيخ الكبير أن يستبدل إطعام الطعام بالتصدق على الفقراء، ويعطي أضعافًا مضاعفة من الطعام، وبهذا سوف لا يُتهم بالبخل؛ لأن الجميع يعرفون أنه غير بخيل وميسور الحال، فإذا وقف وقال: أنا وأمثالي قادرون على ذلك، ولكن الفقراء لا يستطيعون ذلك، فما ذنبهم؟ ولكي أخفف من كاهل الفقراء والمساكين والضعفاء، فأنا أبدأ هذا الأمر، وإذا أقام الشيخ فلان فاتحة يومًا واحدًا أو بلا طعام، والشيخ الثاني عمل ذلك أيضًا، فهكذا تتغير أيضًا باتجاه آخر، وهذا مثال بسيط وعمليّ من واقعنا المُعاش، فكلما كانت السُنن الاجتماعيّة ذات جذور في المنظومة الأخلاقيّة، ولها جذور وأصالة في الثقافة الدينيّة، كانت أكثر استحكامًا في مجتمعنا وكان زوالها وتغيرها أصعب.

قد تكون السُنّة حسنة وقد تكون سيئة، وكما ذكرنا؛ يأتي شخص ويستبدل سنة حسنة بضدها لكي يترك بصماته، فيقال إن السيد الوزير الفلاني حينما تسلّم الوزارة غيّرها، إذ كانت الوزارة مرتبة ولكن الوزير الجديد غيّر كل شيء، وضرب بعرض الحائط جميع السياقات والسنن الصحيحة.. يجب احترام البناء المؤسسي.. هذه

السُنن قد تكون صالحة يجب الحفاظ عليها، وقد تكون سيئة يجب العمل على تغييرها واستبدالها بسنن صالحة.

التغيير للإصلاح وليس للتشفي

تعرض أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع من مقاطع هذا العهد، إلى واحدة من الظواهر السلبيّة للمتصدين إلى مواقع المسؤولية، وهي عملية التغيير الشامل الذي يقومون به؛ فما إن يأتي مسؤول حتى يُخطّئ السابق عليه، فيغير جميع المسؤولين وفريق العمل، ويغير الكثير من المسارات والضوابط والقوانين والاجراءات، ويلغي المشاريع السابقة ويستحدث مشاريع جديدة، فأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بحسب الرؤية الإسلاميّة يؤكد أن التغيير أمر مهم، ولكن يجب أن يكون تغييرًا إصلاحيًّا لتطوير الأمور وإصلاحها، وليس تغييرًا للتشفي والانتقام من المسؤول السابق وتخطئته بكل شيء، فإذا كان للمسؤول السابق حسنات وقام بمواقف صحيحة، فلماذا لا يؤخذ بها وتُطور ويبنى عليها؟ وإذا كان بعض الناس الذين يعتمدهم غير مؤهلين فيمكن استبدالهم، فالنظرة يجب أن تكون موضوعية.

وإذا استمرت العمليّة بهذه الطريقة، وكلما أتى وزير خطّأ الوزير السابق، وغيّر فريق العمل والوكلاء والمدراء وغيّر المشاريع والإجراءات، فحتى يتعرف على شؤون وزارته ويبدأ العمل، تكون السنوات الأربع قد انتهت، ويأتي الوزير الثاني ويخطّئ سابقه ويغير كل شيء، وهكذا نبقى نراوح في مكاننا، فيما أن المسألة يجب أن تكون تراكمية، فالمسؤول يأتي ليبدأ من حيث انتهى السابق، لكي يستطيع أن يطور العمل ويأخذ به إلى الأمام.

لاحظوا هذه الكلمة العميقة لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ»، هناك أعراف وسياقات وإجراءات عمل بها عظماء هذه الأمة وأكابرها، فإذا كانت معمولًا بها في المنظومة الإدارية والقياديّة التي أنت مسؤول عنها فلا تنقضها، ولا تعادِ كل ما يرتبط بالوضع السابق وإن كان سيئًا، فقد تكون فيه حسنات، وقد تكون فيه إيجابيات، ولعل النظام السابق استخدم وسائل صحيحة.

«وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ»، كل ما يحقق حالة الألفة والمحبة واللحمة بين الناس، أبقِ عليه، وكل ما يحقق الصلاح والتنمية والإعمار والازدهار من سياقات سابقة، أبقِ عليها ولا تغيرها.

«وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ»، كل إجراء صحيح سابق لا تأت بإجراء آخر ينقضه، ليكون الإجراء البديل إجراء خاطئًا مضرًا بتلك الإجراءات الصحيحة السابقة، «فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا»، الأجر لأولئك السابقين لما سنوه من سنن صحيحة، والوزر والوبال عليك لما نقضت من تلك السنة الصحيحة وجئت بسنن بديلة غير نافعة.

وقد تحدثنا في الإضاءة الأولى عن هذه المقولة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأوضحنا معنى السنة، واستعرضنا الاستخدام القرآني للسنة، والمعاني العديدة للسنن بحسب الاستخدام والتعامل القرآني الكريم، والمقصود من السنة هنا هي السنن الاجتماعيّة؛ تلك الأمور الكلية الراسخة الثابتة في المجتمع، التي تقاس بها حركة الناس ومساراتهم، من أعراف وتقاليد وأمور يتعاهد الناس ويتعاقدون عليها، بأن يعملوا على وفقها ولا يتجاوزوها.

مناشئ التغيير الخاطئ

الإضاءة الثانية: ما هي المناشئ والأسباب التي تدعو مسؤولًا إلى أن ينقض وينفي كل ما مضى من سياقات، ويخطّئ كل شيء ويغير فريق العمل كله؟ ما هي المناشئ الواقعية التي تجعل الإنسان يطمح إلى تغيير كل شيء، والمجيء بأشياء جديدة تختلف عن السابقة؟.

أولًا: ضيق الأفق

يأتي مسؤول جديد غير ملّم بالمهمة المناطة به، ولا يعرف حيثيات القضية، وفي دوائر الدولة مئات الدهاليز والاعتبارات، وكان المسؤول السابق أخطأ وجرّب حتى تعلّم كيف يعمل، وأنت في اليوم الأول ولا تعرف كثيرًا من الأشياء، قد تجد بعض الأشياء خاطئة، لكن قد يكون لها ما يبررها، فيجب أن تسمع من المسؤول السابق وفريقه سبب الإجراءات والخطوات، فضيق الأفق والرؤية الضيقة أحيانًا يؤديان إلى تخطئة المواقف والأعمال السابقة، مهما كانت وأيًا كان فاعلها.

ثانيًا : سوء التقدير

تدفع الرؤية الضيقة والتقديرات الخاطئة والسيئة المسؤول أحيانًا إلى اتخاذ قرار خاطئ، فليس هناك مسؤول يريد أن يفشل، وكلهم يبغون النجاح، سواء كان المسؤول عادلًا أو ظالمًا، لكي يبقى في مسؤوليته، ولكن المشكلة حينما تغيب الرؤية، وتكون التقديرات خاطئة، وحين يورط المستشارون والمساعدون السيئون المسؤول ويجرونه إلى اتخاذ المواقف الخاطئة.

ثالثًا : سياسة الإقصاء

المسؤول الذي يريد أن يتفرد برأيه ويقصي الآخرين، ولا يتحمل الآخر، الآخر كفرد أو كرؤية، أي فكرة أو رؤية تخالف رؤيته الشخصية لا يستطيع أن يتحملها فيقمعها باستبدالها، وبدلًا من أن يجلس ويسمع الرأي الآخر وينضج الأمور، يريد أن يفرض رأيه في كل شيء، فهذا ينتهج سياسة إقصائية ولا يتحمل رأيًا آخر ولا فكرًا آخر أو فريقًا آخر، وما إن يسمع أن هذا الشخص من لون سياسي آخر، حتى يأمر فورًا بنقله، لماذا؟ ربما يستطيع أن يُنجحك أكثر من جماعتك، وقد يكون نجاحك من خلال أناس لديهم خبرة وكفاءة، ويكونون مستقلين أو من توجهات سياسيّة أخرى، ولكنهم يعرفون العمل ويستطيعون إنجاحك وإنجاح العمل، ولكن أن تأتي بشخص من حزبك يحبك ويواليك ولكنه لا يعرف العمل، فبالتالي سيفشل ويفشلك معه، وهذا ما لا تستفيد منه. إذن منهج الإقصاء وثقافة الإقصاء، واحد من المناشئ التي تدفع إلى تغيير الطواقم والمشاريع.

رابعًا : الحسد

قد يدفع الحسد للتغيير؛ فالبعض لا يريد إبقاء الشخص الناجح في منظومته الإدارية، خشية من ألاّ ينظر الناس إليه! وهو يخشى من الكفوء ويخاف من الطاقات والكفاءات وأصحاب العقول، بدلًا من الاستفادة من الأكفاء ليعوضوا قلة كفاءته، وبدلًا من أن يحذو حذو الأكفاء ليتعلم ويتطور ويقرأ ويدرس ليرتفع ويكون بمقدارهم وأكثر منهم كفاءة، يحاول أن يقلل من قيمة الآخرين ويقصيهم لكي يبرز، وليست عنده الهمة في أن يطور من قابلياته، فيغيظه أن يجد في منظومته أو دائرته من هو أكفأ منه، وهذا يمكن أن تحدث في جميع القيادات الإدارية؛ من الأسرة التي قد يجد فيها

الزوج قابليات في الزوجة لا يمتلكها، فيحسدها ويحاول أن يقمعها حينما يراها تفكر أفضل منه، أو لأنها متعلمة أكثر منه، أو ناجحة في مجال عملها أكثر منه، وبدلا من أن يفرح ويشكر الله على ما رزقه من زوجة ناجحة ومتعلمة تراه يقمعها، كما أن هناك أبًا لا يتحمل التألق في ابنه، وإذا كان عنده فكر ورؤية وقدرات يحسده ويبعده ويقمعه لكي يبقى هو متألقًا، وهذا مرض لا ينحصر في موقع قيادي معين، كشيخ عشيرة أو رئيس شركة.

إذن، أحد المناشئ هو الحسد الذي يُعمي العين والقلب، ولا يسمح للإنسان بأن يتعامل مع الشخص الآخر أو الفكرة الأخرى، فيقمع ويغير كل شيء؛ لكي لا يبقى أثر لمواقف الآخرين.

خامسًا: حب الذات والأنانية

هو منشأ آخر من المناشئ التي تدفع لمثل هذا التغيير الثأري والعشوائي لكل شيء، فمنذ البداية يريد أن يجعل كل مَعْلَم في الوزارة باسمه، وكل شيء للآخرين يجب أن يُنقض ويتوقف ويتعطل، وكل شيء له يجب أن يُبرّز، فلا يتحمل الآخر ويريد كل شيء باسمه! وهذه هي الأنانية، وهذا هو الهوى والنرجسية التي يقع فيها المسؤول، فلا يريد أن يسجل إنجازًا للآخرين.

سادسًا: العداء والتشفي من الآخر

البعض عنده خصم وجاء بديلًا لخصمه، فكيف يعمل بسياقات الخصم؟ صدام عدونا وهو رجل أساء للشعب والشعب رفضه، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أن كل ما قاله وفعله صدام والوزارات والدوائر التي عملت في زمنه، هو خاطئ وليس فيه إنجاز؛ فهناك الكثير من الإنجازات والأعمال تحققت من أناس مخلصين وطنيين، خدموا البلاد ليس حبًا لصدام، ولكن حبًا للعراق وانتصارًا لوطنيتهم، فإذا كان هناك شخص ديكتاتور، فهل هذا يعني أن نشطب على مرحلة استمرت ثلاثين عامًا؟ ونشطب على جميع الطاقات والكفاءات والناس الذين خدموا في هذا البلد على مدار ثلاثة عقود؟.

لاحظ حكمة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما يقول: «لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال»[٣٧٧]، إذا قال رجل صالح كلمة خاطئة فلا تأخذ بها، وإذا قال ظالم كلمة صحيحة فخذ بها؛ انظر إلى ما قال ولا تنظر إلى من قال، وعلينا أن لا نبقى أسرى الأسماء، وإذا قال اسم لامع كلمة لكنه أخطأ بها لا نأخذ بها، فالأنبياء والأئمة فقط هم المعصومون، وقد يجري الله تعالى على لسان حاكم جائر حكمة أو كلمة صحيحة، فأي ضير في ذلك؟ وقد يقيّض للظالم أدوات تقوم بمشاريع صحيحة نستفيد منها، فأي ضير في ذلك؟ فحالة العداء والتشفي يجب أن لا تكون في المسؤول، بل النظرة الموضوعية، وكل ما هو صحيح يجب أن يؤخذ به ويبنى عليه ويُعوَّل عليه، وكل ما هو خاطئ يُغير، وهذا هو المنهج الذي يجب اعتماده.

سابعًا: الشهرة

هناك مسؤول يحرص على افتتاح أي مشروع لدائرته ووزارته في العراق، فيقص الشريط بنفسه، لماذا لا تعطي الفرصة للمسؤول المحلي بهذا العمل، خصوصًا أنك تسرق الأضواء باستمرار؟! أعطِ فرصة للوكيل أو النائب أو الآخرين، اسمح بأن يُعرف الآخرون، لكي تكون هناك حالة من الشعور بأن الجهود لا تصادر ولا تضيع.

في بلادنا تصادر الجهود للمسؤول الأول، مع أن المسؤول الأول يوجه العمل، ولكن الآخرين يصرفون الوقت ويعملون ويذهبون ويأتون وتتحقق الإنجازات، دع مسؤول القرية يُعرف بين الناس، وهو من امتداداتك، ليُعرف أنه قام بعمل صحيح، وهكذا في الأقضية والنواحي. إن حب الشهرة أحيانًا يجعل المسؤول في موقف الرفض لكل شيء سابق، فيأتي بشيء جديد ليكون هو من تسلط عليه الأضواء.

الإضاءة الثالثة

المعيار في ما نرفضه من خطوات

يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ثلاثة معايير للتغيير المرفوض:

١. «وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ»، صحيح أن الطريق السريع بين بغداد والبصرة قد أُنجز في زمن صدام، ولكن ليس صدام من أنجزه، بل

---

٣٧٧. عيون الحكم والمواعظ. ٢٤١.

شركة أجنبية رصينة، فسارت عليه الدبابات والشاحنات واستخدم في الحروب وما زال في أحسن أحواله، فكانت وراء هذا المشروع كفاءة.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، إن أي إجراء وأي مشروع عمل به صدور هذه الأمة، عقول هذه الأمة وكفاءاتها، وكان العمل رصينًا لأنّ هناك متخصصين عملوا به، وليس من إبداعات القائد الضرورة، بل شركات رصينة وكفاءات، فهذه الأعمال يجب الأخذ بها والإبقاء عليها. فمثلًا القانون الفلاني دُرس دراسة مستفيضة من عقول عراقية كفوءة، وحتى لو كتب في العهود السابقة، فما دام نتاج عقول فذة وعملًا متقنًا يجب الأخذ به.

٢. «وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ»، أي خطوة تقرب بين الناس وتؤلف القلوب، وتعزز اللحمة وتحقق الانسجام والوئام، فهذه حافظ عليها، أما الخطوة التي تمزق وتشتت الناس فيجب تغييرها.

٣. «وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ»، أي قانون أو إجراء أو مشروع صالح للناس، ينظم حياتهم ويحل مشاكلهم ويعينهم في تفاصيل حياتهم اليومية، وكل شيء إيجابي في حياة الناس، أبقِ عليه، ونحن خصومتنا مع الظالم وليست مع الناس، فأي شيء لصالح الناس نبقي عليه حتى لو جاء من الظالم، فإذا كان فيه الإعمار ومصالح الأمة، فهذا نبقي عليه ونأخذ به.

إذا أردنا أن نقف ونحلل من الناحية النفسية؛ لماذا تنقض الناس القانون ولا تلتزم به؟ ولماذا تحدث حالة التمرد لدى الشعب؟ لاحظوا ظاهرة النهب والسلب التي تعرضت لها البلاد، ليسوا جميعًا أناسًا سيئين، فالبعض منهم طيبون، ولكنْ لديهم فهم مغلوط، وهناك مشاكل أدت إلى تحوّل أي شيء حكومي إلى عُقدة، ولذلك ما إن أفتى المراجع بحرمة التعامل مع هذه الممتلكات العامة، امتلأت المساجد منها وسُلمت إلى الدولة، وهذا لأن هؤلاء الناس متدينون، ولو أنه يدري أن هذا الأمر خاطئ وحرام لما عمله.

أسباب حالة العداء لما ينتمي للدولة

لماذا تحصل حالة العداء لأي شيء ينتمي للدولة؟ يجب أن نكون حريصين على المال العام أكثر من حرصنا على أموالنا الشخصية، المال العام ليس مالك، بل هو

مال الشعب كله ، فيجب أن نكون دقيقين في استخدامنا للمال العام ، أما أسباب هذا العداء فهي :

أولا - عدم اهتمام المسؤولين بحاجة الناس وقضاياهم الضرورية ، فالمواطن يحتاج إلى أشياء ولكنه لا يحصل عليها ، في وقت هناك ميزانيات نجومية لدى الدولة ! فيحقد على الدولة وممتلكاتها فيندفع إلى حالة رد الفعل ، فيخالف القانون ويسيء استخدام المال العام ؛ لأنه لا يرى المسؤول الذي وضع الثقة فيه حريصًا على حل مشاكله وتلبية احتياجاته ، ولذا تحدث عنده حالة التمرد تجاه كل ما هو حكومي .

ثانيًا - ضعف الوازع الأخلاقي وانخفاض منسوب الحس الوطني لدى الناس ، فالوازع الأخلاقي والحس الوطني أمر مهم في الحفاظ على مصالح البلاد والعباد ، فحينما يكون هناك حس وطني يقدم الإنسان مصالح الناس والوطن على مصالحه الشخصية ، ولكن حينما يكون الحس الوطني ضعيفًا ، يتحجج الشخص بذريعة عدم استجابة الوطن لمطالب الناس ، وهذا غير صحيح ؛ لأن الوطن عزيز ، إن أعطانا قبلنا منه ، وإن لم يعطنا عرفنا أن ذلك نتيجة سوء اختيارنا ؛ إذ منحنا الثقة لأناس لم يستطيعوا أن يوزعوا ثروات الشعب بشكل عادل بين أبناء الشعب ، ولم يستطيعوا أن يخدموا الناس ، وهذا ليس ذنب الوطن بل هو ذنبنا ، لأننا لم نحسن الاختيار ، وعلينا أن نغير الخيارات ونختار من يستطيع أن يخدمنا .

لذلك نرى أنه حينما تكون هناك أدوات رقابية عالية ، فالناس تدفع ضرائب وغرامات وفواتير ، ولكن حين لا تكون هناك رقابة ، فالكثير من الناس لا يدفعون ، وهذا الوازع يجب أن يقوى ونشعر بأن فاتورة الكهرباء ليست للوزير بل للدولة العراقية وللشعب العراقي ، هذه ثقافة مهمة جدًا يجب أن نعمقها في وجودنا ؛ لأن انخفاضها يؤدي إلى هذه المشاكل والمخالفة للقوانين .

ثالثًا - خرق القانون من قبل المسؤولين ، فالناس ترى المسؤول مع كل امتيازاته ووجاهته يخرق القانون ، ويراد منهم أن يطبقوا القانون ، فالقانون يُطبق فقط على الضعفاء ! وحينما يكون المسؤول غير منضبط ويخرق القانون ، يتجرأ المواطن البسيط على القانون ، وإذا أردنا أن نمنع ذلك فعلينا أن نبدأ من المسؤول وليس من المواطن البسيط ، ونقول يا مسؤول عليك أن تلتزم بالقانون ، وإذا التزمت طبقة المسؤولين بالقانون ، فسيلتزم الناس بالقانون بكل تأكيد .

رابعًا- حالة التمايز الطبقي والتفاوت في الامتيازات ، فالمسؤول راتبه وامتيازاته

وسياراته ومكاتبه وحماياته كبيرة، ولكن المواطن البسيط لا يمتلك أيًا من هذه الأمور، وفي هذه الأيام نتحدث عن الرواتب التقاعدية، فالمواطن البسيط يعمل ثلاثين سنة ليأخذ راتبًا تقاعديًا بسيطًا، ولكن مسؤولًا يدخل أربع سنوات في وزارة أو نيابة أو مجلس محافظة وغيرها، فيأخذ راتبا تقاعديا يمثل (٨٠٪) من راتبه العمر كله، والمواطن حينما يرى هذا الفرق والتمييز في العطاء والامتيازات والفرص، تصبح عنده ردة فعل ويبدأ بالتمرد على القانون.

خامسًا - إسقاط هيبة القانون من قبل المسؤولين، فالمسؤول والوزير يخرج في مؤتمر صحفي ينتقد ويطعن بالدستور، فكيف يحترم المواطن البسيط الدستور، والمسؤول إذا تعارضت مصالحه مع القانون يلوم القانون بدلًا من أن يلوم نفسه؟ فإذا كان المسؤول لا يحترم القانون، فكيف يحترمه المواطن؟ فهذه الخطوات في إسقاط هيبة الدستور وهيبة القانون وهيبة الإجراءات والتخطئة لكل شيء، تجرّئ المواطن على أن يخالف ويتجاوز على هذه الشؤون.

المقطع الرابع عشر

الاستعانة بالعلماء وأهل الخبرة

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ ، وَمُنَافَثَةَ الْحُكَمَاءِ ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ» .

الدرس الثامن والثلاثون

مدارسة العلماء والحكماء

قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : «وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ» ، أكثر من التواصل والتدارس مع العلماء ، اجلس وتباحث وتدارس معهم في ما يجب أن تقوم به لإنجاح هذا المشروع أو الخطوة أو الإجراء .

«وَمُنَافَثَةَ الْحُكَمَاءِ» ، المنافثة هي المحادثة والتواصل والالتصاق بالشخص ، التصق وتحدث مع الحكماء وجالسهم .

«فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ» ، نتدارس مع العلماء ونجالس الحكماء ، لكي نحقق الإصلاح والإعمار والتنمية والازدهار والبناء ، فإصلاح شؤون البلاد إنما يكون حينما تعمر وتزدهر ، ومن أجل إعمار البلاد عليك أن ترجع إلى المختص والعالم والحكيم والكفوء ، وتأخذ منهم النصح والمشورة .

«وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ» ، لكي تستفيد من هؤلاء العلماء والحكماء ، ليخبروك بالتجارب الناجحة فتطبقها وتنفذها ولا تبدأ من الصفر ، بل تبدأ من حيث انتهى السابقون ، واستثمر تراكم الخبرة والتجربة ، وكلما كانت هناك خطوة صحيحة ، أو إجراء صحيح ، أدى ذلك إلى ثبات واستقامة وصلاح هذه الأمة ، فهؤلاء الخبراء يضعونه بين يديك ، فتطلع عليه وتسير في اتجاهاته الصحيحة .

الإضاءات من هذه الكلمات العظيمة

الإضاءة الأولى :

أهمية اتخاذ القرارات المدروسة الناضجة ، والناتجة من الرجوع للمختص والخبير

يا أيها المسؤول ، مهما كانت مسؤوليتك ، حينما يُشتكى إليك أو تلحظ ثغرة ، لا تتخذ قرارًا سريعًا ، فربما تكون الخطوة التي تتخذها أسوأ من الواقع الفعلي الإداري والقيادي ،

وارجع للمختص في حل المسألة، لتعرف ما هي الإجراءات الصحيحة، فالمواقف الارتجالية والعشوائية والانفعالية غير صحيحة، ومقتضى الحكمة أن تعرف ما هي المشكلة، وترجع إلى الخبير والعالم بهذا الاختصاص وتسأله وتأخذ منه الموقف الصحيح لمعالجة الاشكالية. إذن، يجب اتخاذ القرارات المدروسة والناضجة بعد المشورة مع العلماء والحكماء.

ماذا نفهم من هذه الكلمات؟

الملاحظة الأولى: يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ»، الإكثار يعني أن المشورة ليست في الحالات الطارئة وفي ظروف الأزمات فقط، والمشورة ليست مرحلية أو فصلية أو زمنية، بل المشورة يومية، سواء كانت هناك مشكلة أو لا، فتشاورك مع العلماء وذوي الاختصاص، ربما يوفر لك اقتراحات ليخرج الأمر من الحسن إلى الأحسن، وعدم وجود مشكلة لا يعني أننا نعيش أفضل الحالات، والمشورة تخرجك من الأزمة إلى الأقل سوءا، ثم إلى الحسن ثم إلى الأحسن.

أكثر من التشاور مع المختص والخبير في اتخاذ القرارات الإدارية والقياديّة، ويجب أن يتحول هذا الأمر إلى ثقافة وسياق ومنهج وسلوك إداري وقيادي، فعليك دائمًا أن تتشاور، وليس عند المشكلة فقط.

الملاحظة الثانية: يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مدارسة العلماء ومنافثة الحكماء، فما الفرق بين العلماء والحكماء؟ العالم هو المختص والخبير في حقل من الحقول؛ فهذا عالم بالهندسة وذاك عالم بالميكانيك أو الكيمياء وهكذا، فهو مختص في مجال ما، فإذا كانت لديك قضية في المجال النفطي مثلا، فعليك أن تأتي بالخبير النفطي، ليعطيك النصيحة المناسبة للمشكلة، ولكن هذا لا يكفي؛ فأخذ مشورة الخبير والعالم باختصاص ما لا يكفي؛ لأن هناك اعتبارات أخرى ليست لها علاقة بهذا الاختصاص، ولكن المجتمع يهتم بها.

نعطي مثالًا بسيطًا؛ فحين تريد بناء مجمع سكني وتأتي بخبير ألماني أو ياباني، وهؤلاء بنوا مجمعات سكنية عظمية ويمكن أن نستفيد منهم، هذا صحيح، ولكن هذا وحده لا يكفي؛ لأنهم سوف يضعون تصاميم على ضوء ثقافتهم الأجنبية، في حين أن عوائلنا محافظة ويجب أن تُراعى في عمل المجمع السكني هذه الخصوصية وعدم الإشراف على بيوت الآخرين، وهذا الأمر لا يأتي في عقل المهندس واعتباراته، فالمهندس يبني بيوتًا لا تحركها الزلازل، ولكن الاعتبارات الأخرى المتمثلة بأعرافنا الإسلاميّة والعربية الملتزمة خارجة عن اختصاصه

الهندسي، فالمهندس لا يقدر هذه الظروف، ولكن من يعرف المجتمع وطبيعته ويعرف الاستحقاقات هو من يقدرها، ويمكن أن يعطي مجموعة من الملاحظات التي تُنجح المشروع.

إن البيت الناجح ليس المحكم من الناحية الهندسية فقط، بل البيت الذي ينسجم مع ثقافتنا وظروفنا وعلاقاتنا الإنسانيّة وأعرافنا إلى غير ذلك، وهكذا في كل قضية من القضايا تأتي هذه الاعتبارات، فالمشروع الجيد يجب أن ينسجم مع مشروع ثان وثالث يليه، ويجب أن تكون متوائمة مع بعضها، وكذلك من غير الصحيح تنفيذ مشروع سكني ممتاز، ولكنه بجوار مجمع صناعي يضر بالبيئة، والمهندس لا يعرف هذه الأمور، ولكن الحكيم عنده استشراف ورؤية شاملة، ويستطيع أن يربط الأمور بعضها مع بعض، ويعطيك المحصلة النهائية كيف تكون، فالحكيم له القدرة على ربط الحقائق والأشياء بعضها مع بعض وتكوين صورة أوسع، وأنت تحتاج لكي تحقق إنجازًا صحيحًا إلى الأمرين معا وليس لأحدهما فقط.

يمكن أن تطلب من الخبير أن يعالج مشكلة الاختناقات المرورية الكبيرة في بغداد، ويمكن أن يقترح عليك تطبيق نظام الفرديّ والزوجيّ، وهذه نظرة خبير بالفعل، فنصف السيارات ستقف وعندها يخفّ زحام الشوارع، ولكن ما مضاعفات الفرديّ والزوجيّ؟، وكيف يصل المواطن إلى محل عمله؟، وكيف يصل الطالب إلى المدرسة؟، وكيف ينهي الناس أعمالهم؟ لا سيَّما مع عدم توفر شبكة نقل واسعة ومناسبة وصحيحة كما هو موجود في العالم، فليست لدينا باصات وقطارات ومنشآت ونقل انسيابيّ صحيح، وليست لدينا طرقات للنقل العام، وحينما أوقفنا السيارة ولم نضع البديل، فإن مشكلة النقل التي سُئل عنها الخبير حُلّت والشوارع خفّ زحامها إلى حدٍ ما، ولكن ظهرت مئة مشكلة أخرى ولم تُحل، لأننا لم نسأل الحكيم، فالقرار القياديّ والإداريّ الصحيح يجب أن يُعرض على الخبير والحكيم، فالخبير يعطيك المواصفات الداخليّة للمشروع، أما الحكيم فيوائم المشروع مع البيئة والاستحقاقات الخارجيّة؛ هل يصلح أو لا.

الملاحظة الثالثة: حينما تجلس مع العلماء والحكماء، يجب أن يكون الاجتماع هادفًا ويجب أن تستفيد من اختصاصاتهم، فلا تجلس مع الخبير فقط، بل يجب أن تكون الجلسة هادفة، وحينما تعقد مؤتمرًا للعقول العراقية في الخارج وتستقدمهم وتصرف عليهم الأموال الطائلة، وربما تقول إننا استفدنا من الخبراء، والحقيقة أننا استقدمنا الخبير ولكن لم نستفد منه، فأنت تحدثت طويلًا ولم تسمع منه، فما الفائدة من إعطائه الخطابات بدون نتيجة؟ أنت لم تجالس العلماء، بل التقيت لقاءً عابرًا مع أناس وتكلمت ولم تسمع منهم، ولذلك يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إن عليك عندما تجالس العلماء والحكماء أن تجعل هذه الجلسة هادفة.

أهداف مجالسة العلماء والحكماء

الهدف الأول: «فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ».

أن تسأل هذا الخبير أسئلة محددة تساعدك على تطوير عملية التنمية والإعمار، فأي أمر فيه صلاح وتنمية وتطور حاول أن تستفيد منه، فالمجالسة لتحقيق التنمية.

الهدف الثاني: «إِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ»

تطلب من الخبير والحكيم أن يضعا دراسة تاريخيّة لبلدنا أو للبلدان الأخرى، مثلًا مجمع بسماية كيف ننجحه؟ هل العدد صحيح والمكان صحيح؟ وهل الطريقة صحيحة والهندسة صحيحة؟ وهل ينجح مجمع كهذا في الوطن العربي، في بلدان بمثل ثقافتنا؟ مئة ألف وحدة سكنية بمواصفات يمكن أن تنجح في اليابان، حيث يعيش رجل وزوجته، وربما لديهم طفل واحد، أما عندنا فالعدد قد يصل إلى خمسة أو عشرة، ومن الممكن ألاّ تستوعب الشوارع والأزقة والبيوت هذا العدد الكبير من الناس، فهل وضعت دراسة أو لا؟ وهذه مهمة الحكيم، فالمهمة الأولى مهمة العالم الخبير، والمهمة الثانية مهمة الحكيم؛ «إِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ»، في بيئتنا العربية الإسلاميّة، هل نجحت مثل هذه المجمعات السكنيّة؟.

إذن، الهدف الثاني هو استحضار التجارب السابقة، ومشكلتنا أننا لا نقرأ التأريخ ولا نعتبر من التأريخ، فنصبح نحن عبرة من عبره، لا نقرأ ولا نطلع ولا نضع دراسات ولا نهتم، فالمشورة لا تتقاطع مع التوكل، والتفكير في الأمور لا يتقاطع مع التوكل، ولذلك يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إن المجالسة مع العلماء، والمحادثة مع الحكماء، يجب أن تكون لهذه الهدفية الواضحة، فحين تلتقي العالم دون الحكيم، وتأخذ خبرة ورؤية تخصصية من دون ملاحظة العوارض الجانبية، فذلك لا يحقق النجاح، بل يجب أن يجتمع الأمران لكي تستطيع أن تحقق النجاح وتتأكد أن هذا القرار صحيح.

إن الدول اليوم تخطط لخمسين سنة قادمة، لأن المسارات واضحة ومخطط لها، ولذا فإن كل شيء يحدث في وقته وليس هناك عجلة، أما عندنا، فحينما يحل وقت الأمطار، يقوم المسؤولون والبلديات بفحص المجاري على وجه السرعة، وتقوم وسائل الإعلام بنقل هذه الصورة، والأمطار في كل مكان، وهي لا تحتاج لمثل هذه الحالة، بل إلى عمل مؤسسي صحيح، وهذه الأمور يجب أن تكون في سياقها الصحيح، وكل شيء في وقته، مع حكومة كاملة تتحرك وتكون الأمور في موضعها الصحيح.

نحن نعالج الأمور دائمًا في وقت حدوثها، لذلك فنحن دائمًا في استنفار، ودائمًا لدينا ميزانية طوارئ، لأن الأشياء تحدث ونحن لم نحسب لها حسابًا فنفاجأ بها كثيرًا، وتُنفق

مليارات الدنانير على هذه القضايا، وكل قضية تتحول إلى أزمة، لأننا لم نحسب لها حسابًا، فهل هذا من الإسلام في شيء؟ كلا، هذا ليس سلوكًا إسلاميًا، فسلوك الإسلام يتحدث عنه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أن عليك الاستعانة بالعالم الخبير، والحكيم الذي عنده رؤية استشرافية شاملة تستحضر التجارب العالمية السابقة، استحضر الخبرات واتخذ القرار الصحيح قبل أن تحتاج إليه، وابدأ بالتنفيذ بشكل هادئ، وحينما تحتاج إليه يكون المشروع جاهزًا بلا تخبط أو قلق أو مشكلة، هذا ما يجب أن تكون عليه الأمور، كما في هذه العبارات المؤثرة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الإضاءة الثانية

إن الإدارة يجب أن تعتمد المنهج العلميّ على أساس الكفاءة والخبرة، وليس على أساس المحسوبيات والمنسوبيات؛ هذا من مدينتي أو من جماعتي، مهما كانت هذه الاعتبارات التي تجعل المسؤول يعتمد ويثق ويأخذ بكلام هذا أو ذاك من الناس، فهذه الاعتبارات ليست لها قيمة؛ لأن مثل هذا الشخص لا يساعدك، بل يفشلك ويعرقل عملك، والمهم أن تنجح وتلاحظ الناس النجاحات على يدك، وبعكسه سوف تتراجع وتفشل، وبالتالي سوف يفشل المشروع وستتراجع سمعتك، فالأهداف المرسومة لهذا الموقع لم تستطع أن تنجزها، بل عينت عددًا من جماعتك فقط!.

أما حينما تعتمد الكفوء، الذي قد لا يتملق لك، ولكنه يعطيك الرؤية الصحيحة، فسوف يحذرك حينما يستحق الأمر التحذير، وينبهك حينما يستحق التنبيه، ويرشدك إلى اتخاذ المواقف الصحيحة، فتتحرك دائرتك وتنجز أعمالك وتكون مرضيًا عند الناس، والمسؤول الأعلى يمنحك الترقيات، وما إلى ذلك من أُمور وشؤون، وهذا أفضل للبلد وللمصالح العامة، فمن المؤكد أن محورية العلم والمعرفة والكفاءة يجب أن تكون هي الأساس، وهناك تأكيد كبير على ذلك في تراثنا وفي الآيات والروايات.

الاهتمام بمجالسة العلماء وفوائدها

من وصايا لقمان لابنه: «يا بُنيَّ، جالِسِ العُلَماءَ»، جالس الخبير والعالم في قضية معينة واستفد منه، «وزاحِمْهُم برُكْبَتَيْكَ»، التصق بهم لكي تستفيد منهم، بمعنى التركيز والتواضع، فتقرب من العالم وركز على ما يقول وسجل الملاحظات، «فإنّ اللهَ عزّ وجلّ يُحْيي القُلوبَ

بنُورِ الحِكمَةِ كما يُحْيي الأرضَ بِوابِلِ السّماءِ»[٣٧٨]، القلوب تحيا بالمعرفة، حينما تكتشف الرؤية الصحيحة والمعلومات الحقيقية.

وعن أمير المؤمنين عَلَيهِالسَّلَامُ: «جالِسِ العُلَماءَ تَسعَدْ»[٣٧٩]، إذا أردت الراحة والاطمئنان، ووضع رجلك على أرض صلبة، واتخاذ قرارات لا تندم عليها، فيجب عليك مجالسة العلماء والاستعانة بالعقلاء والخبراء، واسمع رأيهم ثم انطلق لما تريد.

وعن أمير المؤمنين عَلَيهِالسَّلَامُ: «جالِسِ العُلَماءَ يَزدَدْ علمُكَ، ويَحسُنْ أدبُكَ»، العلم تأخذه من العلماء، أما الأدب وطريقة التعامل وطريقة إدارة الملف وإنجاح المهمة، فتستطيع أن تأخذها من الخبير المختص، فالمختص لا يعطيك معرفة وعلمًا فقط، بل يعطيك العلم والعمل في أي مجال، فالطبيب لا يقول لك كيف تجري العمليّة، بل يعطيك السلوك الصحيح لتنجح عمليّة التطبيق أو الممارسة الطبيّة مثلًا، وهكذا في مجالات الاختصاص، «وتَزكُ نَفْسُكَ»[٣٨٠]، الإنسان يشعر بالثقة والاطمئنان والوضوح والثبات، والتطبيق الأوضح لمثل هذه النصوص هو العالم بالله تعالى، فيعطي الإنسان هذه السمات في علاقته بالله، ولكن إذا أردنا تطبيقها في مجالات الاختصاص على الخبير والعالم، فلها مثل هذا التأثير في مساحة الاختصاص.

في حكمة أُخرى لأمير المؤمنين عَلَيهِالسَّلَامُ: «جالِسِ الحُكَماءَ يَكمُلْ عَقلُكَ»، كمال العقل وكمال التدبير بالمعرفة الصحيحة لما تسأل عنه ولما تعمل به، «وتَشرُفْ نفسُكَ»، النفس الإنسانيّة تسمو وتَشرف حينما يكون الإنسان قادرًا على تشخيص المشكلة بشكل صحيح، واعتماد الوسائل الصحيحة لمعالجة المشاكل العالقة، «ويَنْتَفِ عنكَ جَهلُكَ»[٣٨١]، بالعلم ينتفي الجهل وبالنور تنتفي الظلمة، وكم هو عظيم أن نعيش في النور والمعرفة، وأن تكون لدينا قدرة على التشخيص الصحيح، واعتماد الوسائل المنتجة حينما نكلف بمهام معينة، فنحقق النتائج المرجوة.

ومن حكمه عَلَيهِالسَّلَامُ في هذا المضمار أيضًا: «مجالَسةُ الحُكَماءِ حياةُ العُقولِ، وشِفاءُ النُّفوسِ»[٣٨٢]، العقل يحيا وينمو ويتكامل، والنفس أيضًا تشفى وتسعد وتنمو نماءً صحيحًا وتتألق وتشعر بالثقة، حينما تتخذ الموقف الناتج من القرار الصحيح.

---

٣٧٨. مشكاة الأنوار. ٤٤٧.

٣٧٩. عيون الحكم والمواعظ. ٢٢١.

٣٨٠. عيون الحكم والمواعظ. ٢٢٣.

٣٨١. ميزان الحكمة ١. ٤٠٢.

٣٨٢. ميزان الحكمة ١. ٤٠٢.

ومنها أيضًا: «جالِسْ أهلَ الوَرَعِ والحِكمةِ، وَأَكْثِرْ مُنافَثَتَهُمْ»، لا تجلس فقط أمام العالم المختص، بل حاول أن تسأله وتأخذ المعلومات منه، فإذا تحدّث فاسمع، وحينما يسكت اسأله عن كل الأمور، وقلنا إن مجالسة العالم لا تعني أن تقضي وقتًا معه، بل استفد منه في اختصاصه، فمجالسة العالم تعني أن يكون اللقاء هادفًا، الغرض منه الاستفادة من علمه واختصاصه، وما أكثر المستشارين والخبراء في الدولة، إلا أن المستشار يقول لم يرسل أحد من الخبراء والعلماء إليّ.

إن المجالسة الهادفة هي التي تستفيد فيها من علم العالم، وأنت تسأل وهو يجيب، هي ما يُقصد بالمجالسة، «أَكْثِرْ مُنافَثَتَهُمْ، فإنّكَ إنْ كُنتَ جاهِلًا عَلَّموكَ، وإنْ كنتَ عالِمًا ازْدَدْتَ عِلمًا»[٣٨٣]، سؤال العالم يختلف عن سؤال الجاهل، فالإجراء يكون أسرع، والسؤال يكون فيه تخصص أكثر، إذا كانت الإدارة مبنية على أساس الكفاءة والخبرة، والرجوع إلى أهل الخبرة والاختصاص قبل اتخاذ القرار من المبادئ الأساسيّة في نجاح المهمة الإداريّة والقياديّة.

الإضاءة الثالثة:

أهميّة غرفة الفكر

نسمي مجالسة العلماء والحكماء، والبحث معهم في أُمور البلاد والعباد في زماننا وفي اصطلاحاتنا «غرفة الفكر»، وهو منهج إسلاميّ؛ جالس العلماء، واعقد ورشات فكريّة، واجلب خبراء وعلماء مختصين، وكوّن غرفة فكر.

اجلب الأساتذة من الجامعات، وهم غير محتاجين للمال، بل يحتاجون لمن يسألهم ليخدموا البلاد من خلال أفكارهم، وسوف يأتي العالم أو الخبير أو الأستاذ الجامعيّ مسرعًا لخدمة الناس وخدمة الوطن، إذا وجّهت الوزارة له الدعوة ليخصص جزءًا من وقته للإجابة عن بعض الأسئلة.

المشكلة اليوم في العراق وفي الكثير من مناطق العالم، وفي المنظومات الإداريّة في الكثير من المواقع، أنه لا توجد أُذنٌ مصغية للخبير المختص.

غرف الفكر تؤدي إلى استثمار الطاقات الفكريّة الهائلة في بلادنا، فهل يوجد قانون نريد أن نقرّه وراجعنا الجامعة المختصة ليدرسوه وينضجوه ويعطوا الأفكار والمعطيات التخصصية في هذا المجال؟ والعديد من قوانيننا تتأخر وتدخل في عملية الصراع والشد السياسيّ، وأحيانًا لا

---

٣٨٣. عيون الحكم والمواعظ: ٢٢٣.

تكون المشكلة سياسيّة، ولكنها ترتبط بالاختصاص، فمن سنّ القانون فصّله على نفسه؛ لأن لديه مصلحة معينة، وصاغ قانونًا لمصلحته، وليس من الضرورة أن يكون قد لاحظ المصلحة العامة، فيجب عرض القضية على الخبير الذي ليست له مصلحة فيها، فالعلّامة الحليّ عرضوا عليه استفتاء عن كيفية تطهير ماء البئر إذا سقط فيه كلب، وفي هذه الأثناء أخبروه أن كلبًا سقط في بئره، فقال: ما دام الكلب في بئري فإن عيني على بئري، فأول تعليمات أصدرها هي أن يغلقوا البئر، من أجل أن يتفرغ لتفحص الأدلة الشرعيّة، ويعرف الحكم الشرعيّ في المسألة.

إن البعض منا صاحب مصلحة، ولا يستطيع أن يعطي الرأي الصحيح والسديد، ويتأثر بمصلحته، ولكن حينما تأتي بالخبير، فسوف تستفيد من عقله وخبرته، وفي الوقت نفسه تصل إلى ما يحقق المصلحة العامة. إن غرفة الفكر هي استثمار للطاقات، وتؤدي إلى تحويل المعارف النظريّة إلى إنجازات عمليّة، فهناك أناس ملؤهم فكر ورؤية، وهناك أناس ليس عندهم هذا العلم والفهم، وفي غرفة الفكر تنقل هذا العلم إلى من بيده التنفيذ، لكي يتطور الأداء وتنجز المهام بشكل صحيح.

هذه الفجوة بين النظريّة والتطبيق التي نعيشها في مجتمعاتنا مفارقات غريبة، فهناك طالب يدرس مناهج معينة في الجامعة، وبعد ذلك حينما يدخل ساحة الحياة ويُعيّن ضمن اختصاصه، يرى التطبيقات في عالم والمناهج في عالم آخر، فهناك فجوة وشرخ كبير بين النظريّة والتطبيقات، وغرف الفكر تساعد على سدّ هذه الفجوة، والتقريب بين النظريّة الصحيحة والرؤية الصحيحة والتطبيقات، لتكون هي أيضًا صحيحة، وتوجِد حالة من التوازن بين النظريات العلميّة والهياكل الإداريّة، فأحيانًا تقول نظرياتنا في الإدارة شيئًا، وهياكلنا والانشطارات تقول شيئًا آخر، وما أكثر الدوائر والمفاصل التي تُستحدث، لكي نحل فيها مشكلة فلان ومشكلة الحزب الفلانيّ وغيرها، وحينما نأتي بغرف الفكر، فسنطبق نظريات الإدارة، وتصبح لدينا هياكل رشيقة وفاعلة وكفوءة وقادرة على العطاء، بعيدًا عن المصالح الخاصة.

إذن، فهذه هي الإضاءات التي يمكن أن نستخلصها من هذه العبارة المهمة، والمبدأ الإسلاميّ المهم في الإدارة والقيادة، وهي الرجوع إلى الكفوء والخبير المختص، والاستفادة من رؤيته التخصصية قبل اتخاذ القرار الإداري والقيادي.

المقطع الخامس عشر

الطبقيّة الاجتماعيّة في الإسلام

قال أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ :

«وَاعْلَمْ أَنّ الرّعِيّةَ طَبَقَاتٌ لاَ يَصْلُحُ بَعْضُهَا إلاّ بِبَعْض ، وَلاَ غِنَىً بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْض : فَمِنْهَا جُنُودُ اللهِ ، ومِنْهَا كُتّابُ الْعَامّةِ وَالْخَاصّةِ ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ ، وَمِنهَا عُمّالُ الإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَراجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمّةِ وَمُسْلِمَةِ النّاسِ ، وَمِنْهَا التُّجّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ ، وَمِنهَا الطّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ ؛ وَكُلٌّ قَدْ سَمّى اللهُ سَهْمَهُ وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وَفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنّةِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظًا» .

الدرس التاسع والثلاثون

الرؤية الإسلاميّة في طبقات المجتمع

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لاَ يَصْلُحُ بَعْضُهَا إلاَّ بِبَعْضٍ، وَلاَ غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ»، هنا يطرح أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مفهومًا إسلاميًا مهمّا؛ هو مفهوم الطبقيّة الاجتماعيّة، فماذا تعني هذه الطبقيّة؟، وهل يعترف الإسلام بالطبقيّة الاجتماعيّة؟.

لا شكَّ في أن المدارس الماديّة في جميع توجهاتها لها فهم خاص عن الطبقيّة، وهي تنظر إلى الطبقة الاجتماعيّة من زاوية اقتصاديّة؛ فالناس الذين ينتمون إلى مستوى اقتصاديّ معين يصنفون على أنهم من طبقة اجتماعيّة معينة، فطبقة الفقراء غير طبقة الأغنياء، وطبقة المسؤولين وأصحاب الوجاهات غير طبقة من سواهم في المواقع وفي الأدوار الاجتماعيّة، فتصّنف الطبقات الاجتماعيّة على ضوء الوفرة والإمكانات الماليّة والوضع الاقتصاديّ وما إلى ذلك، فهل ينظر الإسلام إلى الطبقات الاجتماعيّة بهذا المعنى، ويصّنف الناس على ضوء إمكاناتهم الماديّة، فمن يمتلك مالًا ينتقل إلى طبقة أخرى، ومن يفقد ذلك المال ينتمي إلى طبقة ثانية وثالثة؟ الجواب كلا؛ فالإسلام لا ينظر إلى الطبقيّة على أساس المُعطى الاقتصاديّ، بل ينظر نظرة إنسانيّة لموضوع الطبقيّة، فالطبقيّة في الإسلام هي تنوّع أصناف وليست تنوّع مستويات معيشيّة.

المجتمع بحاجة إلى مهامٍ عديدة؛ فنحن نحتاج إلى نجارة وحدادة وصناعة وتجارة وزراعة، ونحتاج إلى سياسيين وإعلاميين وفنانين، ونحتاج إلى مهام مختلفة في المجتمع، والناس الذين ينتمون أو يلبون حاجة محددة من احتياجات المجتمع، هؤلاء صنف واحد؛ مثلًا صنف المحامين أو الفنانين أو الإعلاميين وهكذا، كلهم يمارسون دورًا محددًا ويلبون حاجة محددة في المجتمع، وهذه يسميها الإسلام طبقات، فالطبقيّة في الإسلام هي صنفية وليست تمايزًا بين الناس، وحقوق المواطنة واحدة بين الجميع، والناس مشتركون في الإنسانيّة وحقوق المواطنة ولكن يختلفون بعضهم عن بعض بطبيعة

المهام التي يمارسونها في المجتمع، فكل مجموعة من الناس تلبي حاجة محددة من احتياجات المجتمع تسمى صنفًا وتسمى طبقة في المجتمع، لذلك فالطبقيّة في الرؤية الماديّة منشؤها اقتصاديّ، أما في الرؤية الإسلاميّة فإن منشأها إنسانيّ وليس اقتصاديًا.

إن هذه الطبقيّة المستندة إلى تعدد المهن في المجتمع، تجعل الإسلام يرى ويحترم هذا التنوع والتعدد في المهام الموكلة إلى الناس بعضهم تجاه بعض، ويوجد حالة من التعاون والتكامل بين هؤلاء، فعندنا صناعيون ولكن المجتمع لا يُدار بهم وحدهم، والزراعة وحدها والصحة وغيرها لا تلبي جميع مطالب المجتمع وتحل مشاكله، فهذه القطاعات بعضها بحاجة إلى البعض الآخر، وبوجودها معًا تتحقق اللحمة الاجتماعيّة وتتكامل الأدوار المجتمعيّة.

الطبقيّة بين الخلفيّة الإنسانيّة والخلفيّة الاقتصاديّة

من يرى الطبقيّة بخلفيّة اقتصاديّة يفرق بين الناس، ويوجِد حالة من التنافس والصراع والاختلاف والتدافع والتحزب، حالة من التقسيم والتشظي في المجتمع، فتحدث الفرقة في داخل المجتمع، ولكن الخلفية الإنسانيّة للطبقية الاجتماعيّة تعني أني أستطيع أن أمارس مهمة، ولكنني أحتاج إليك لأنك تمارس مهمة أخرى، وأن كلينا نحتاج للثالث، ونحن الثلاثة محتاجون للرابع والخامس، فالطبقيّة الإنسانيّة والتنوع المهني يجعلان الجميع مرتبطين ببعضهم ومتكاملين مع الآخر ومتعاونين معه، ولكن الطبقيّة الاقتصاديّة تجعل الناس متخاصمين بعضهم مع بعض، فلاحظوا هذا الفارق الكبير.

بحسب نصوصنا الإسلاميّة، فإن أول من طرح الطبقية بوضوح وبهذا المفهوم هو أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده لمالك الأشتر، بقوله: «وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ»، أي أصناف، وتفسير هذه الطبقية هو: «لاَ يَصْلُحُ بَعْضُهَا إلاَّ بِبَعْضٍ»، من له خبرة في مهنة ما، أو المحترف في مجال ما، لا يستطيع أن يعيش من دون وجود الآخر، ولا تتكامل منظومة الحياة لأي أحد؛ «لاَ يَصْلُحُ بَعْضُهَا إلاَّ بِبَعْضٍ»، إلاّ حينما تتكامل، «وَلاَ غِنَىً بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ»، وجود أي قطاع من القطاعات أو مهنة من المهن أو شريحة من المهنيين في مجال ما، لا يغني عن وجود الشرائح الأخرى؛ لأن المجتمع بحاجة إلى هذا التنوع.

إذن، فالطبقية في الإسلام عبارة عن أصناف مهنية، ولا تفاضل بين الناس بحال من الأحوال، لأن منشأ التفاضل أُمور أُخرى؛ منها التقوى، كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٣٨٤]، فمعيار التفاضل هنا هو التقوى، ومنها الجهاد وتحمّل المسؤولية، كما في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣٨٥]، فالجهاد وتحمل المسؤولية معيار من معايير التفاضل بين الناس، ومنها العلم، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣٨٦]، فالعلم معيار من معايير التفاضل والتمايز بين البشر، ومنها الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾[٣٨٧]، فالإيمان معيار من معايير التفاضل، ولكن المال والجاه والشهرة والمكانة الاجتماعيّة والامتيازات الطبقيّة والسياسيّة، لا تعني شيئًا في رؤية الإسلام، ولا يفضل الناس بعضهم على بعض من خلال أُمور اعتباريّة.

إن الطبقية في المدرسة الماديّة تُبنى على أساس المكنة الماليّة والواقع الاقتصاديّ، ولذلك فالطبقة بحسب النظريّة الماديّة هي تشكيل اقتصاديّ، ولمّا كان اختلاف الناس في الطبقات والدرجات على أساس المال والمكنة الماليّة، فإن هذا الأمر يجعل الإنسان غير مستقر الحال ويعيش حالة من التخبط؛ إذ تسود المجتمع عمليّة تنافس كبير بين الناس، وكلٌّ يريد أن يستحوذ على مزيد من المال، لكي يصل إلى طبقة أعلى من الطبقة التي هو فيها، والمال يأتي ويذهب، فكم من تاجر كبير يمكن أن ينكسر بمعاملة غير موفقة، أو اختلالات في السوق، أو ارتفاع أو انخفاض في الأسعار، إلى غير ذلك، فيتحول من طبقة إلى طبقة دُنيا، وكم من إنسان يمكن أن يحصل على شيء من المال بطريقةٍ ما، فينتقل إلى طبقة أُخرى، فالمجتمع في تناحر وصراع وخصومة بشكل دائم، وكلٌّ يريد أن يحصل على مزيد من المال ليرقى إلى مستويات وطبقات اجتماعيّة أعلى.

أما بناءً على الطبقيّة الإسلاميّة وتنوع الأصناف والمهام، فستكون مكانة الإنسان محفوظة مهما تغيّرت الظروف والأحوال، فهذه الطبقات تمايز في المهن والمهام، يكمل بعضها بعضًا، ويحتاج بعضها إلى البعض الآخر، ولا يستغني بعضها عن بعض، هذه هي الرؤية التي يحملها الإسلام في موضوعة الطبقية الاجتماعيّة، ولذلك فإن أهمية طبقة عن طبقة لا ترتبط بالشخوص بقدر ارتباطها بالمهنة، فهناك مهنة أهم وهناك مهنة أقل أهمية، وكلما كانت المهنة أهم كانت تلك الطبقة أهم لأهمية المهنة، ولشرف الخبرة والعمل

---

٣٨٤. سورة ق: الآية ١٣.

٣٨٥. سورة النساء: الآية ٩٥.

٣٨٦. سورة الزمر: الآية ٩.

٣٨٧. سورة السجدة: الآية ١٨.

والكفاءة وليس لخصوصية الفرد، والناس سواسية إلاّ بالتقوى والعلم والجهاد وغيرها من معايير التفاضل الحقيقي، وما سواها لا تفاضل فيها إلا إذا كانت لديه خبرة وكفاءة.

إذا كانت الطبقيّة أصنافًا ومهنًا، والناس بحاجة إلى جميع هذه المهن، فهذه الطريقة تشد الناس بعضهم إلى بعض، وتربط الناس بعضهم إلى بعض، ويتكامل الناس بعضهم مع بعض، ولذلك يقول أمير المؤمنين: «لاَ يَصْلُحُ بَعْضُهَا إلاَّ بِبَعْض، وَلاَ غِنَىً بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْض»، فانظروا إلى الفرق الكبير بين النظريّة الماديّة والنظريّة الإسلاميّة؛ بين نظريّة توجِد خصومة وعداء ومشاكل وتنافسًا محمومًا بين الناس، ونظريّة توجِد تعاونًا وتكاملًا وتجسيرًا للعلاقة ورصّ الصفوف في المجتمع.

هذه الطبقيّة ضرورة اجتماعيّة لا يمكن أن نتخلى عنها، ولا يمكن أن نعيش بدون أن يكون بيننا أطباء ومهندسون وعلماء وأناس في مختلف الاختصاصات التي نحتاج إليها في المجتمع، فتصبح ضرورة اجتماعيّة كبيرة لا يمكن تجاوزها.

وبناءً على ذلك، فالطبقات تختلف من زمان إلى آخر؛ بحسب تطور المجتمع وتعقيده، وتُستحدث مهام جديدة؛ ففي يومٍ ما، لم تكن هناك فضائيات ولا صحف ولا وسائل إعلام بهذا المعنى، بل يوجد شعراءٌ، ومن خلال الشعر يوصلون رسائل معينة، وفي الصدر الأول من الإسلام، كان الأذان في غير وقته ينبه الناس على أن هناك شيئًا معينًا، أما اليوم، بهذا التنوع الكبير في وسائل الإعلام المرئيّة والمسموعة والمقروءة والإلكترونيّة، فأصبحت لدينا طبقة كبيرة ومؤثرة ومهمة نسميها السلطة الرابعة، هي طبقة الإعلاميين، ولم تكن الصناعة في المجتمعات البدائيّة بهذا المعنى، بل كانت الزراعة والتجارة هي المعتمدة فقط، والصناعة والدول الصناعيّة والدور التكنولوجيّ، كلها أشياء حديثة، لذلك حينما نقارن الطبقات الاجتماعيّة بحسب الرؤية الإسلاميّة، أي المهن والمهام في زماننا، مع أزمنة سابقة، نجد أن هناك اختلافًا؛ فهناك طبقات مستحدثة وأخرى زائلة، فقد تطورت الأمور واختلفت، وبعد مائة أو مئتي عام ستستحدث طبقات جديدة، فالمجتمع يحتاج لأناس يتصدون لمعالجة أزمة أو قضية معينة، وحينئذ تصبح هذه المهمة جديدة، وتنشأ طبقة جديدة في المجتمع، هذه إحدى الإضاءات من كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الطبقية.

قبول التنوع وضرورة المشاركة

نفهم من تبني مفهوم الطبقيّة الاجتماعيّة احترام التعدد والتنوع، والقبول بتنوع المهام المجتمعيّة والأصناف والشرائح الاجتماعيّة التي تعمل في هذه المهمة أو تلك. إن ثقافة تقبّل الآخر، وتقبّل التنوع والتعدد واحترامه، والتعاطي معه واستثماره وتوظيفه بشكل صحيح لصالح المشروع والمجتمع، ولصالح اللحمة والبناء الاجتماعيّ، هذه أيضًا من القضايا الأساسيّة التي ننشدها في هذه الرؤية.

وقد ورد في بحار الأنوار رواية عن عبد العظيم الحسنيّ المدفون في الري، قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي الجواد عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ حَدِّثْنِي بِحَدِيثٍ عَنْ آبَائِكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لاَ يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا تَفَاوَتُوا فَإِذَا اسْتَوَوْا هَلَكُوا»[388]، ما دام هذا التنوع موجودًا وهذه المهام المختلفة موجودة في المجتمع، وكل منا له اهتماماته ويغطي مساحة من المساحات، فالمجتمع قائم، أما إذا استوى الناس كلهم بمهمة واحدة، فسيصبح هناك خلل في توزيع الأدوار والمهام؛ فمثلًا، لدينا شحة هائلة في العراق في مجال التخدير، ونجلب أخصائيين من الهند، في حين نملك وفرة هائلة في اختصاصات أُخرى، وليست هناك فرص عمل لاختصاصهم.

إن المنظومة القياديّة الناجحة، هي المنظومة التي تشرك الجميع ضمن اختصاصهم وتنوع اهتماماتهم، وضمن خبراتهم المتنوعة وكفاءاتهم المتعددة، وكلما أمكن إشراك الجميع، تحقق النجاح في المنظومة القياديّة، وكلما احتكرنا الأدوار بالرجل الواحد والفريق الصغير وأهملنا الآخرين، فقدنا فرص النجاح، فالطبقيّة والتنوّع أساس النجاح في المنظومة القياديّة، وسعة المشاركة وإشراك الجميع ضمن اختصاصهم ومهامهم، شرط أساسي في نجاح الإدارة والقيادة.

طبقات المجتمع في تصنيف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ

ثم يحدد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد ذلك هذه الطبقات على النحو التالي:

أولًا/ جنود الله: يعني القوات المسلحة؛ الجيش والشرطة في معايير اليوم، فالقوة العسكريّة صنف.

٣٨٨. بحار الأنوار ٧٤. ٣٨٣ ح١٠.

ثانيًا/ كتّاب العامة والخاصة: ما نسميهم اليوم الوزراء وذوي الدرجات الخاصة، ومن يبرم الاتفاقات والعقود، ومن يراجعه الناس لتوثيق قضاياهم ومصالحهم وممتلكاتهم، وهم صنف ثانٍ.

ثالثًا/ قضاة العدل: شريحة القضاة صنف وطبقة اجتماعية، بهم يُستعاد الحق وبهم تنتظم الأمور، وبهم يشعر الجميع بالاطمئنان والعدالة.

رابعًا/ عمّال الإنصاف والرفق: ونسميهم اليوم موظفي الدولة، والجهاز الإداريّ والهياكل الإداريّة، ومن يقومون بالخدمة وحل مشاكل الناس والتواصل معهم في تفاصيل حياتهم.

خامسًا/ أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس: وهم دافعو الضرائب في ذاك الزمان، فلا يوجد نفط ولا توزع الرواتب بين الناس، مثل الدول الكثيرة التي لا تملك نفطًا، فتعيش وتدير أمورها بالضرائب، لذلك فإن دافعي الضريبة في الدول التي يتكل اقتصادها على الضريبة شريحة مهمة، وطبقة من ميسوري الحال وتدفع الضرائب للدولة ومن خلالها تمارس الدولة شؤونها، فهم روافد ميزانية الدولة.

سادسًا/ التجار وأصحاب الصناعات: القطاع الاقتصادي من الصناعة والتجارة، ويمثلون شريحة مهمة في المجتمع.

سابعًا/ الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة: الطبقة السفلى هم عموم المواطنين، وليسوا ضمن هذه العناوين المذكورة، ونسميهم ذوي الدخل المحدود، وإن كان هذا الوصف اليوم يشمل موظفي الدولة والقوات المسلحة ومن يتسلم مُرتبًا ثابتًا ولكنه محدود، وهؤلاء لا يملكون مرتبات محددة.

إن أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ ينظر إلى المجتمع من خلال التصنيف والطبقات الاجتماعيّة السبع، ولكن اللافت أنه حينما ذكر كل طبقة من هذه الطبقات وضع لها صفات وسمات، وحدد مهامها وبوصلتها، فلم يقل القوة العسكريّة ولم يقل الجنود، بل قال جنود الله، وهكذا في الأصناف الأخرى، فيتطلب أن نقف عند هذه الأوصاف؛ لنجد كيف يجب أن تكون كل طبقة من هذه الطبقات وصنف من هذه الأصناف الاجتماعيّة؛ ما هي السمات لكي تتمكن هذه الطبقة من أداء واجبها وتنتظم أُمور المجتمع؟ فإذا كانت الطبقة صنفًا أو مهنة، فلا بُدَّ من أن تلتزم بمواصفات وسمات محددة لكي تستطيع أن تفي بواجباتها.

وقد ذكرنا أن الطبقات من وجهة نظر الإسلام التي يطرحها أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ، هي مهن وأصناف، وبالتالي كلما تطور المجتمع استحدثت مهام جديدة، أي تشكلت طبقات

اجتماعية جديدة، لذلك فإننا اليوم في زماننا قد لا نختزل كل المجتمع بهذه الطبقات، وهذه تمثل الهيكل العام، ولكن هناك مهام جديدة وطبقات جديدة؛ فاليوم هناك طبقة الإعلاميين ومؤسسات إعلاميّة تسمى بالسلطة الرابعة، لها دور كبير ومؤثر، وقد تكون طبقة مستقلة، وهناك طبقة الفنانين على اختلاف التزاماتهم واهتماماتهم واختصاصاتهم، وهم طبقة واسعة، وأصبحت الكليات تدرّس هذا الاختصاص، وهناك جيش من المختصين بهذا المجال، يمارسون مهام أساسيّة ومؤثرة، ولهم دور أساسي في الثقافة المجتمعيّة والسلم الاجتماعيّ، وتشجيع الناس وتحفيزهم نحو اتجاهات ما، إلى غير ذلك، وهكذا يمكن أن نسرد العديد من الطبقات الجديدة بحسب المهام والواجبات الاجتماعيّة الجديدة التي اُستحدثت، بحكم تطور المجتمع وطبيعة التعقيد الاجتماعي.

سمات الطبقات الاجتماعيّة

الطبقة الأولى: طبقة الجند

الطبقة الأولى في نظر علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هم جند الله، وكلمة جند تعني قوة عسكريّة، والعسكريّة تعني السلاح والقوة، ومن بيده القوة يُخشى منه، فمن بيده القوة قد يشذ وقد يسيء، والضامن لهذه القوة العسكريّة أن تسير بالاتجاه الصحيح، هو أن تؤطر بقيود أخلاقيّة والتزامات شرعيّة؛ بأن تمثل تعاليم الله في الأرض وتعمل ضمن ما أراده الله تعالى، فيجب أن يكون هناك الوازع الأخلاقيّ والإطار الشرعيّ؛ نصرة المظلوم والانتصار للمواطن والدفاع عن الوطن والانتصار للمصلحة العامة.

إنهم جند الله، وليسوا جند حزب أو شخص أو حاكم أو طاغوت أو دكتاتور، ولاحظنا في العهود السابقة في بلادنا وفي بلدان أخرى، أن الجيوش تقمع الشعوب، وهذه ليست من جند الله، وابتعدت عن السمة المطلوبة فما باتت طبقة اجتماعيّة مكملة ومطورة للمجتمع، بل أصبحت هدامة.

هناك جيوش تهرب الناس منها وتخاف، وهذا ليس عنصر إثراء للمجتمع، بل عنصر تخريب ودمار، والدبابة التي قصفت قبة سيد الشهداء الإمام الحسين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا تتحرك بمنظومة أخلاقيّة، بل تتحرك بنزوات السلطة، ونزوات وضع اليد على مقدرات الشعوب، وهكذا نجدها في كثير من الدول والشعوب الأخرى.

جند الله يعني القوات المسلحة التي تتحرك ضمن الإطار الأخلاقيّ والشرعيّ، أي الإطار الصحيح، فالجيش لا يواجه الناس، ولا يهتك الأعراض، ولا يريق الدماء البريئة، ولا يستغل قوته لمآرب سيئة وسياسية وينحاز لهذا وذاك، بل الجيش للشعب والوطن والأمة، والجيش للحفاظ على المصلحة العامة.

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾، من يقاتلكم قاتلوه، فتنظيم داعش إرهابي تجب مقاتلته، ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وليس في سبيل مآرب أخرى شخصية، بل مآرب عامة، ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾، ولكن حين تقاتلون العدو، يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾، يجب ألاّ تعتدي حتى على العدو، فهناك ضوابط في القتال حتى مع العدو؛ فالمُثلة محرمة حتى بالكلب العقور، وحتى بأشرس الخصوم، ومهما كان عدوك سيئا فهناك معايير وضوابط، فإذا سلم نفسه فلا يجوز أن تقتله إلى غير ذلك.

الإسلام قبل (١٤٠٠) سنة تحدث بهذه الأمور وذكرها، ثم بعد مئات السنين جاءت لوائح الأمم المتحدة لتحدد اتفاقيات جنيف وأمثالها كيف يتعاملون مع الأسرى، إلى غير ذلك من تقييدات في الحروب.

حين أوفد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن قدامة إلى قتال القاسطين قال له: «اتق الله الذي إليه تصير»، يا ابن قدامة اتق الله، فالجيش بيدك تأمره بالقتل فيقتل، لذلك يجب أن تكون الأوامر منضبطة، وقد تكسب معركة ولكنك تتورط بدماء بريئة ومواقف سيئة أو غير ضرورية، وأنت ذاهب إلى الله تعالى وسوف تُسأل، «اتق الله الذي إليه تصير ولا تحتقر مسلمًا ولا معاهدًا»، المسلم لا تحتقره، فكونك قويًا والناس تهابك، ليس معناه أن تذلهم وتسيء إليهم، وليس المسلم فقط، بل المعاهد وأهل الذمة من غير المسلمين لا تسئ إليهم، فأنت عنصر خير ولست عنصر شر، وتحفظ الأمن ولا تتشفى وتنتقم من هذا وذاك.

«ولا تنصبن مالاً»، حينما تدخل إلى بيوت الناس والمدن والأماكن، لا تمد يدك على أموال الناس، فلا تعتدوا على الناس وتأخذوا من أموالهم.

«ولا ولدًا»، لا تأخذ أبناء الناس بالقوة إلى الحروب، وإنما يأتون بمحض أرادتهم.

«ولا دابة»، لا تأخذ دواب الناس وتستخدمها، فلا يجوز ذلك.

«وإن حفيت وترجلت»[٣٨٩]، وإن فقدت الدابة التي تستخدمها، أو ضاع الحذاء منك، واحتفيت في الميدان، فليس لك حق بأن تستخدم وتستغل قوتك لأخذ ممتلكات الناس بالقوة، فلا يجوز لك ذلك.

---

٣٨٩. الغارات ٢: ٦٢٤، بحار الأنوار ٣٤: ١٣.

هذه المنظومة الأخلاقية، هي أخلاقية القتال في الرؤية الإسلاميّة، فلاحظوا الضوابط والمعايير في المعارك حتى مع الخصم والعدو.

الطبقة الثانية: كتّاب العامة والخاصة

هؤلاء هم المعنيون بإدارة شؤون البلاد والعباد؛ اتفاقيات مع دول وعقود استثمارية وعقود تشغيلية وبناء وإعمار وتنمية، الوزراء وذوو الدرجات الخاصة والحكام، هؤلاء يعبّر عنهم أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ باسم «كتّاب العامة والخاصة»، وعملهم أن يكتبوا ويقيّدوا ويحفظوا الحق لأهله، وينتصروا للمواطنين ويضمنوا حقوق الناس، وليس استغلال مواقعهم للاعتداء على الناس، وهؤلاء هم السبب في تحقيق النظام، وفي إشاعة العدل والإنصاف وضمان الحقوق.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾، حتى على المستوى الشخصي يجب عمل ذلك، والتكاتب عند اقتراض مبلغ معين من المال لكي لا يحدث الاختلاف، سواء في التعاملات الشخصية بين الأفراد، أو تعاقدات فيها مصالح عامة وشؤون دولة، فالدولة تحتاج إلى وثائق ومعايير صحيحة لكي يُعتمد عليها، ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾، كاتب مسؤول، يوثق التعاهدات والتعاقدات ويعدل بينكم ويعطي الحق لأهله، ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾، فليكتب الذي عنده القدرة ويعرف كيف يضمن الحقوق، فإن الله تكرم عليه بهذا، وعليه ألاّ يقصر في خدمة الناس، بل يقدم هذه الخدمة لهم.

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾، أي المَدين، ويجب أن يرجع الحق لأهله، وليقل للكاتب الحقيقة؛ أنه اقترض مبلغا من المال من الشخص الآخر، أو باع هذه الأرض إلى غير ذلك، لكي تُكتب بشكل كامل من دون نقيصة، ويقر بالتزامه تجاه الطرف الآخر.

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾، ليكن الله تعالى حكمًا بينكم، ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾[٣٩٠]، لا يقلل من حقه شيئًا، بل يذكر حقوقه ويدرجها في هذه اللائحة بالكمال والتمام.

الطبقة الثالثة: قضاة العدل

حينما يجري الحديث عن القضاة، يردف بالسمة التي يجب أن تتوافر في القاضي، فالقضاء هو حجر الزاوية في بناء المجتمع، فالناس يصطدم بعضها ببعض، ويحتك

٣٩٠. سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

بعضها بالبعض الآخر، وتتقاطع مصالحها وتختلف في ما بينها، وعند الاختلاف يرجعون إلى القضاء، لكي يعالج مشاكلهم ويبتّ في ما اختلفوا فيه، لذلك فالقضاء يجب أن يكون عادلًا ومنصفًا، ليأخذ من الظالم حق المظلوم ويعيده إليه.

حين يمارس القضاء دوره الحيادي والمهني العادل، فإن ذلك مبعث استقرار وطمأنينة للمجتمع، والكثير من الأزمات والإشكالات مردها إلى الشعور بالغبن والظلم وعدم تكافؤ الفرص والإقصاء والتهميش، وقضاء عادل يعني تطمينًا للمواطن بأن حقه لن يضيع، سواء كان وراءه حزب أو عنده جماعة تدافع عنه، أو ليس كذلك، وحينما جلس علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بين يدي القاضي اعترض عليه قائلًا إنك تطيل النظر إليّ ولا تنظر إلى خصمي اليهودي، فقال سيدي يا أمير المؤمنين، أنت الخليفة، فقال وإن كنت الخليفة، فأنا الآن لست خليفة، بل بصفتي علي بن أبي طالب، أنا مواطن بين يديك، وفي بلاد الإسلام يجب ألاّ يشعر هذا اليهودي بأنك منحاز إليّ ولو بالنظر، فنظراتك يجب أن تساوي فيها بيني وبين الآخر، لكي يشعر اليهودي بأن بإمكانه أن ينتزع حقه من علي، إنْ كان الحق معه، وهذه العدالة في المؤسسة القضائية نحن بأمس الحاجة إليها، لتحقيق الاستقرار النفسيّ والطمأنينة المجتمعيّة، وعدم شعور الناس بالظلم والغبن.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، العدالة في الحكم وفي القضاء، ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[٣٩١]، وورد في غرر الحكم، عن علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «أفضل الخلق أقضاهم بالحق»، دائمًا تحدد الفضيلة والمرتبة العالية والمستويات الرفيعة والمكافأة الكبرى بحسب المهام، والمنزلقات التي يتعرض لها الإنسان بحسب مهامه.

أيها القاضي لأن مهمتك خطيرة، ولأنك تفصل بين الناس، ولأن مهمتك حجر الزاوية، ولأنك إذا صلحت صلح المجتمع، ولأنك إذا عدلت استقر المجتمع واطمأن، لذلك فإن دورك هو الأعظم والأفضل بين الخلق، كما في هذه الرواية عن علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «أفضل الخلق أقضاهم بالحق، وأحبهم إلى الله سبحانه أقولهم للصدق»[٣٩٢]، إذا كنت تريد أن يحبك الله، فعليك بالصدق في الكلام، وإذا كنت تريد أن تكون من أفضل الخلائق، فكن عادلًا حينما تحكم بين الناس.

---

٣٩١. : الآية النساء: الآية ٥٨.

٣٩٢. الكافي ١. ٤٥٠ ح٣٤.

وإذا غابت العدالة كانت بداية الانحراف، ليس في المؤسسة القضائية، بل الانحراف في المجتمع، فلا يبقى حجر على حجر، وإذا كان القضاء غير قادر على أن يستعيد الحق لصاحبه، فإن الإنسان سيبحث عن وسائل أخرى لينتزع حقه ويحصل على فرصه وحقوقه، وإذا أراد كل واحد أن ينتزع حقه بطريقته وعقله وأسلوبه، فهذه هي الفوضى بعينها، ولذلك ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا في غرر الحكم قوله: «أفظع شيء ظلم القضاة»[٣٩٣]، القاضي حينما يظلم ويسيس، وحينما يكون صاحب أجندة، وحينما لا ينتصر للحقيقة كما هي، فهذا أفظع شيء وأخطر شيء، لأنه يخاطر بالسلم المجتمعي والاستقرار النفسي المطلوب لأبناء المجتمع.

الطبقة الرابعة: عمّال الإنصاف والرفق

المنتسبون للدولة، ونسميهم الموظفين في عصرنا، الهيكلة الإداريّة للدولة، والعاملون في مؤسسات الدولة، هؤلاء أيضًا لا يقول إنهم العمال في مؤسسات الدولة، بل يقول عمال الإنصاف والرفق، سمتان وصفتان يجب أن تتوافرا فيهم؛ الإنصاف، بعيدًا عن المحسوبية والمنسوبية وتغليب المصالح الحزبية والفئوية، وبعيدًا عن ابتزاز الناس لأنهم يراجعون هذا الموظف وعملهم مرتبط به، فيقول لهم انتهى وقت الدوام، أو تبقّى نصف ساعة وينتهى الوقت، أتعلم كم ساعة مرت حتى وصل هذا المواطن؟، وكم مفخخة عبر لكي يصل إليك؟، وكم ساعة قضاها في الاستعلامات والتفتيش إلى أن وصل إليك؟.

عليك أن تنجز عملك أيها الموظف، وهنيئًا لك لأنك في موقع خدمة عامة، والناس يراجعونك في قضاياهم، لكنك تصرفهم لأبسط نقص في المعاملة الإداريّة، بدلًا من أن تساعدهم وتعلمهم، فأنجز معاملات الناس، فالإنصاف مسألة مهمة.

وكذلك الرفق، فالمواطن جاء محتاجًا ومعاملته لديك، فلا تظن نفسك إمبراطورًا لأن قضايا الناس بين يديك، ولا تظلم الناس، ولا تُسمعهم الكلام الغليظ، وكل من جاء تحمّله وساعده، لكي لا يخرج وقلبه مليء بالألم والحسرة، فيرفع يده ويحرقك بدعائه، فاحذر من ذلك أيها الموظف، وعليك بالرفق والابتسامة والكلام الطيب، وقد ينجز شخص عملًا لمواطن، ولكنه يتعامل معه بقسوة، فيخرج المواطن متألمًا غاضبًا، وشخص آخر يأتيه مواطن بمعاملة لا يمكن إنجازها، ولكنه يستقبله بابتسامة وكلمات

---

٣٩٣. عيون الحكم والمواعظ. ١١٩.

لطيفة، ويشرح له لماذا لا يمكن إنجازها، فيخرج راضيًا، فالإنسان يبحث عن كرامة وعزة، ويريد أن يرى نفسه في وطنه، وخصوصًا شعبنا العراقي، فالمواطن العراقي مغدور ومجروح بسبب الأنظمة الدكتاتوريّة المتعاقبة، ومن شدة إلى شدة ومن حرب إلى حرب ومن مشكلة إلى مشكلة، هو شخصية مجروحة، لدينا نقص في العواطف والمشاعر كعراقيين، ونحتاج إلى جرعة إضافية، هذا هو الإسلام، فالله الله أن يسبقكم بالعمل به غيركم.

اليوم عندما نذهب إلى الغرب، نجدهم يدرسون في كليات الإدارة علم التسويق، وواحدة من المسائل التي يدرسونها كيف تبتسم؟، فالموظف في محل تجاري يجب أن يبتسم، والحق مع الزبون (١٠٠٪) في جميع الأحوال، حقًا كان أو باطلًا، هكذا يعلمّونهم، وأي مشاجرة بين العامل في متجر والزبون يكون الحق مع الزبون، ويطردون الموظف حتى لو كان هو المظلوم، ويقال هنا يجب عليك أن تجلب رأس المال وتأتي بالأرباح والفوائد، وتميل على نفسك وتتحمل بعض المنغصات، هذا علم التسويق، ولكي يربح ألف دينار أو ألفين أو مئة ألف أو مليون دينار، يضع ضوابط صارمة، ونحن لكي نربح الوطن، ونشعر المواطن بأنه عزيز، ونقول له ارفع رأسك، فأنت على أرضك وفي وطنك، ومحترم ومقدر، فكم يجب أن ندفع من أجل أن نصل إلى هذه النتيجة؟.

علينا أن نعلّم موظفينا الإنصاف والرفق بشكل كامل، ونلزمهم بذلك ونتخذ إجراءات قاسية بحق من يتطاول على مواطن، ومن لا ينفذ أعمال المواطنين بسرعة، ومن يؤجل، وكلما راجعه المواطن قال له تعال غدًا، وأيام الغد لا تنتهي!.

الطبقة الخامسة: أهل الجزية والخراج

هؤلاء دافعو الضرائب، وهم الذين يقوّمون اقتصاد الدولة، سواء كانوا من أهل الذمة ويدفعون الجزية، أو من عموم المواطنين ويدفعون الضرائب للدولة. في يوم ما، لم يكن النفط في العراق يستخدم في ميزانيات تشغيلية، ولم يكن يدخل في موازنة الدولة، وهناك صندوق خاص يضعون فيه أموال النفط لقضايا تنموية وبنى تحتية وسكن إلى غير ذلك، وميزانية الدولة من الضرائب، واليوم هناك دول موازناتها (٥٠٠٠) مليار دولار تعيش على الضرائب، وتمتلك خزينًا من النفط يأتي بالمرتبة الأولى أو الثانية في العالم، ومع ذلك تعتمد على الضرائب وليس على النفط، ولكننا نخرج النفط ونحوله إلى مال ونشتته في المجتمع، ولا نخلق مجتمعًا فاعلًا وكفوءًا وقديرًا ومنتجًا، ليستفيد المجتمع

ويقوى، وتتحرك الدولة من خلال مصالح الناس وليس من خلال المال؛ مال النفط الذي يتحول إلى صدقات ومكرمات وهبات، ويُستغل للضغط على الناس باتجاهات محددة.

هؤلاء طبقة دافعي الضرائب، وهم قوام الاقتصاد في المجتمع، فالمجتمع يقف على دفوعاتهم وضرائبهم، فيجب أن يكرموا ويعززوا، ويجب أن يشعروا بالاحترام والتوقير، لكي يرتبطوا بوطنهم ويقدموا له المزيد.

الطبقة السادسة: التجار وأهل الصناعات

القطاع الاقتصاديّ من تجارة وصناعة إلى غير ذلك، هؤلاء طبقة في المجتمع، وهي طبقة منتجة ومؤثرة، طبقة داعمة وساندة للاقتصاد في الدولة، فيجب أن يقدر عملهم ومهامهم وتسهل الإجراءات والضوابط لهم، واليوم يحتاج فتح اعتماد إلى أسابيع إذا لم يكن إلى أشهر، وترخيص بضاعة استوردها مواطن يعمل في الصناعة أو التجارة أو ما شابه ذلك، قد يحتاج ترخيصها من ميناء أو من حدود إلى وقت طويل، وإلى دفع مبالغ غير رسميّة إلى غير ذلك، وهذا خلاف الرؤية الصحيحة في تسهيل الأمور للقطاعات الاقتصاديّة من التجارة والصناعة وأمثال ذلك.

الطبقة السابعة: الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة

هي طبقة المواطنين البسطاء الفقراء، الذين ليسوا من أقطاب الاقتصاد، ولا ينتمون إلى الطبقات السابقة، وهذه الطبقة، طبقة هؤلاء الناس الفقراء وعموم المواطنين، يجب احترامها وتوقيرها، ففي زماننا هناك قوانين تحمي العسكريّ وتعطيه قطعة أرض، والموظف نعطيه قطعة أرض، وكذلك الإعلاميّ وعوائل الشهداء، وجميع المضحين يجب أن نعطيهم، وكلنا نطالب بذلك وهو حق، ولكن المواطن الذي لم يخدم في دوائر الدولة، وليس في القوات المسلحة، من أين يحصل على قطعة الأرض؟ لماذا تُهمل هذه الطبقة التي لم تدخل في العناوين المعينة التي تستحق الدعم والإسناد المباشر؟.

يجب أن نعطي جميع أبناء الشعب العراقيّ، بمن فيهم المواطن الذي لا يعمل موظفًا في الدولة، فالدولة عليها أن تخدمه لأنه مواطن ويستحق ذلك، وهذا العدل والإنصاف في توزيع الثروة والإمكانات، وإشعار المواطنين بتكافؤ الفرص، وعنصر المساواة في حقوق المواطنة، من القضايا الأساسيّة التي علينا أن نلتفت إليها في هذا السياق.

إن هذه الطبقات تتكامل مع بعضها، ويحتاج بعضها إلى بعض، ولا يستغني بعضها عن بعض، فهي حقيقة وواقع، وهي تتكامل بحسب الرؤية الإسلاميّة.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اَللَّهُ لَهُ سَهْمَهُ»، الله تعالى قدّر لكل طبقة من هذه الطبقات سهمها وحقها في هذا البلد، «وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ»، وحدد هذا الحق من خلال القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة أو سنة أهل البيت، وحددت الحقوق الواضحة لكل طبقة من هذه الطبقات، وهذا نظام عادل وسياق مقنع، لا يُشعر أحدًا بظلم أو بتجاهل لأي سبب من الأسباب.

«عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظًا»، كل طبقة لها حقوق وعليها التزامات تجاه الطبقات الأخرى، فتتعشق العلاقة بين الطبقات وتتكامل العلاقة بين الناس، مهما كانت مهامهم وواجباتهم، والله تعالى ضَمِن حقهم، فلا أحد يُظلم في المجتمع الإسلاميّ الذي يسير ضمن السياقات والأطر الإسلاميّة الصحيحة.

نسأل الله أن يعيننا على تطبيق هذه الرؤية المتطورة العصرية في بناء مجتمعنا، ونحن نحمل شعار بناء الدولة العصرية العادلة.

المقطع السادس عشر

التكامل الطبقي بين الحقوق والواجبات

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ :

«فَالْجُنُودُ ، بِإِذْنِ الله ، حُصُونُ الرّعِيّةِ ، وَزَيْنُ الْوُلاَةِ ، وعِزُّ الدّينِ ، وَسُبُلُ الأَمْنِ ، وَلَيْسَ تَقُومُ الرّعِيّةُ إلاّ بِهِمْ . ثُمّ لاَ قِوَامَ لِلْجُنُودِ إلاّ بِمَا يُخْرِجُ الله لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الّذي يَقْوَوْنَ بِهِ فِي جِهَادِ عَدُوّهِمْ ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا أَصْلَحَهُمْ ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ .

ثُمّ لاَ قِوَامَ لِهذَيْنِ الصّنْفَيْنِ إلاّ بِالصّنْفِ الثّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمّالِ وَالْكُتّابِ ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ وَيَجْمَعُونَ مِنْ الْمَنَافِعِ ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصّ الأُمُورِ وَعَوَامّهَا .

وَلاَ قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعًا إلاّ بِالتُّجّارِ وَذَوِي الصّنَاعَاتِ ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التّرَفّقِ بِأَيْدِيهِمْ ممّا لاَ يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ» .

الدرس الأربعون

الطبقية بين رؤيتين

بيّنا في الفصل السابق الطبقية في الإسلام كما يطرحها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكرنا أن الطبقية في رؤية الإسلام تختلف عنها في الفكر الماديّ؛ فالطبقية في الفكر الماديّ هي تشكيل اقتصاديّ، والناس على طبقات حسب إمكانياتهم الاقتصاديّة، وكلما زادت إمكانياتهم وزاد مال المرء، علت رتبته وطبقته الاجتماعيّة؛ فهناك طبقة أغنياء وطبقة برجوازيّة وطبقة فقراء، وهكذا تتعدد الطبقات على أساس المكنة الماليّة، وهذا ما يخلق حالة من التنافس والصراع الشديد بين الناس، وكلٌ يريد أن يحصل على المال لكي يصل إلى طبقة أعلى.

ولكن الطبقية في الفهم الإسلاميّ لها تفسير مختلف ورؤية مختلفة تمامًا؛ فهي تشكيل مهنيّ وإنسانيّ، والطبقة تمثل أصحاب مهنة محددة، فالأطباء يمارسون مهمة محددة في المجتمع، فهؤلاء طبقة الأطباء، وكذلك الحال في المهندسين؛ فلهم مهمة أُخرى، لذلك هم طبقة المهندسين، وكذلك طبقة المحامين، وهكذا كل مهمة من المهام الاجتماعيّة، والناس الذين يتصدون لمهمة محددة، سواء كانت أموالهم وفيرة أو قليلة، فليس هناك علاقة بالمال، بل العلاقة بالمسؤولية الاجتماعيّة والمهمة التي يتصدون لها في المجتمع، فالطبقية بهذا المعنى تدفع الناس للتكامل بعضهم مع بعض؛ فهذا طبيب ولكنه يحتاج إلى المهندس وإلى المحامي وإلى المعلم، وإلى جميع المهن الأُخرى، وحينما تكون الطبقية عبارة عن أصناف ومهن، فالناس سوف ترتبط بعضها ببعض، والمجتمع يتكامل بعضه مع بعض، ويحدث التراص بين الصفوف، بخلاف التفسير الآخر للطبقية.

وقلنا لمّا كانت الطبقة مهمة، فإن المجتمع كلما تعقد وتركب وتطور، استحدث مهام جديدة لم تكن موجودة من قبل؛ فاليوم لدينا طبقة واسعة هي طبقة الإعلاميين، وكذلك

طبقة الفنانين، ولم تكونا مَهمّتين مبلورتين في الأزمنة السابقة بهذا الشكل الذي نجده اليوم، وكذلك عشرات المهام التي يمكن أن تُستحدث في المجتمع، لذلك فالطبقات الاجتماعيّة ليست محددة بعدد ما، ويمكن أن تزيد أو تنقص بحسب حاجة المجتمع وإفرازاته الطبيعيّة.

العلاقة بين الطبقات الاجتماعيّة

بعد أن تحدث أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن الطبقات السبع، انتقل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للحديث عن العلاقة بين هذه الطبقات؛ ما هي العلاقة بين طبقة وأُخرى؟ وما الذي تقدمه كل طبقة للآخرين؟، وما الذي تتوقعه من الآخرين؟ في توازن دقيق بين الحقوق والواجبات.

طبقة الجند.. أمانة إلهيّة وواجبات عظيمة

الطبقة الأولى في تصنيف أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، هي طبقة الجنود، أي القوات العسكريّة، فما هي واجبات الجيش تجاه الطبقات الأخرى، أي تجاه المجتمع؟.

يقول علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللهِ»، هذا جانب مهم يحدد موقع القوة العسكريّة في المجتمع، والقوة العسكريّة تعني سلطة ونفوذًا، وتعني وجود السلاح وأدوات الهيمنة، إذن، هذه القوة يمكن أن تتحول إلى حالة خطيرة في المجتمع، حين تستخدم كل وسائل النفوذ والتأثير والسلطة والهيمنة والسطوة في مجالاتها الخاطئة، لتبطش وتفتك بالشعب، ولاحظنا ما جرى في عهود الدكتاتوريّة في هذا البلد؛ كيف وُظفت الأجهزة الأمنيّة والقوات المسلحة للفتك بالشعب وليس للدفاع عنه وحمايته، لذلك فهذه القوة يجب أن تكون منضبطة ومؤطرة بإطار، وتخضع لمنظومة أخلاقيّة تحصن هذه القوة من الوقوع في الاعتداء والتجاوز على الآخرين، لتكون أداة أمن واستقرار وحماية وصيانة ودفاع عن الوطن والمواطن، ولا تتخذ جانبًا آخر.

لذلك فالحديث عن أن هذه القوة التي منحت للجيش هي بإذن الله وبإرادة الله، يجعلها أمانة إلهيّة، فالقوات المسلحة مؤتمنة على أمانة عظيمة من الله تعالى، فأفراد القوات المسلحة جند بإذن الله، ومن يتحرك بمنطق حفظ الأمانة، وبمنطق أنه مؤتمن على قضية أساسيّة، سيقيّم كل أداء وممارسة وسلوك، لأن الناس تهاب الجيش وتحترم القوة، فهل هذا يعني أن تستخدم هذه القوة لإرعاب الناس وإخافتهم وإيذائهم وانتهاك حرماتهم والإساءة لهم أو تستخدم هذه القوة بإذن الله تعالى وهي أمانة الله؟، وهذا

ما لاحظناه من قبل؛ أن من يرى القوة المسلحة يشعر بالرعب لأنها قوة تقتل الناس، وفي يوم آخر، حينما يرى الناس القوة العسكريّة في النظام الديمقراطيّ يشعرون بالأمان والطمأنينة؛ لأنها قوة تحمي الشعب وتدافع عن مصالحه، وتقف بوجه الأعداء وتواجه الأخطار لتحمي الوطن والمواطن.

لذلك فإن قوله: «بِإِذْنِ اللهِ»، يحدد الموقع؛ أيها الجندي، موقعك أن تتحرك على أنك مؤتمن على أمانة إلهية عظيمة عليك أن ترعاها، وعليك أن تهتم بها وتعطيها حقها، فالنزوة أو الرغبة بالوصول إلى المصالح الخاصة، لا تحرك القوة العسكريّة المنضبطة والملتزمة، بل القيمة المبدئية واستحضار المصالح العامة للوطن وأمن المواطنين وسلامتهم، هذه هي الدوافع الحقيقية التي تحرك القوات المسلحة ورجال الجيش والشرطة.

علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يعطينا أروع الأمثلة، وهو القائد العسكريّ في حينه، ويعطينا الصورة الناصعة للحركة المنضبطة، للحركة الخاضعة لإرادة الله، والتعامل بمنطق المؤتمن على مصالح المواطنين، وليس المتشفي حتى بالأعداء والخصوم؛ وحينما دُعي إلى البراز في واقعة الخندق المعروفة، وحينما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»[٣٩٤]، لمواجهة عمرو بن عبد ود العامريّ، وضربه وأسقطه على الأرض وجلس على صدره ليحز رأسه في سبيل الله، ويقتله لعدائه للإنسانيّة، في تلك اللحظة ارتكب عمرو بن عبد ود حماقة وبصق في وجه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فماذا فعل علي؟ نهض من على صدره، وتجول في الميدان وأخذ عدة دقائق، ثم عاد وجلس على صدره ليقتله، فاستغرب عمرو بن عبد ود من هذه الحركة، وقال: يا علي، لماذا لم تذبحني أوّل مرة؟ لماذا لم تنهِ المهمة منذ الوهلة الأُولى؟ فأجابه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: حينما بصقت في وجهي - وأنا بشر - أخذني الغضب، فلو قتلتك في تلك اللحظة، لكنت قتلتك ثأرًا لنفسي، وتنفيسًا للغضب الذي ألمَّ بي، فقد أسأت لي وأهنتني فتحركت مشاعري، ولم أضمن أن هذا القتل في سبيل الله، وانتصار لحرمة الله ودفاع عن عباد الله، فلم أكن مطمئنًا لهذا الشيء، فأخذت جولة حتى استقرت مشاعري وهدأت نفسي وسيطرت على مشاعري، والآن أنا قادم لأقتلك في سبيل الله[٣٩٥]، فانظروا إلى هذه الصورة الرائعة من العمل في سبيل الله.

٣٩٤. بحار الأنوار ٢٠. ٢١٥ ح٢.

٣٩٥. انظر. مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب ١. ٣٨١.

إن قواتنا المسلحة يجب أن تعمل انتصارا لمبادئها وقيمها ووطنيتها، ولا تتشفى حتى بالمجرمين، فلا ثأر حتى من الظالمين، وفي هذه الأيام يتم تداول صور لبعض عناصر الجيش تقتل إرهابيًا داعشيًا، ثم تظهر بعض الصور، لا أعرف مدى صدقيتها، ولكن لو صحت، فهي ظاهرة غير صحيحة أن يحرق جثمان، حتى لو كان لمجرم سفاح، لأنّ المُثْلَة ممنوعة حتى بالكلب العقور، كما عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ[٣٩٦]، وهذا يضع بسطاله على قتيل، ماذا يعني البسطال على رأس قتيل؟ هذا البسطال لا يعني إلاّ التشفي، ولا تشفي في رؤية الإسلام، فالجنود بإذن الله، فحركتهم حركة إلهيّة رساليّة ولديهم هدف، ولا ينجرون إلى الثأر أو التشفي أو قضايا شخصية أو انتقام وما شابه ذلك، وإنما يمارسون مهامهم بمهنية عالية بعيدًا عن المشاعر والعواطف، وهذه قمة التميز والتألق في النظرية الإسلاميّة للقوات المسلحة.

الجيش والموازين الشرعيّة

حينما يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «الْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللهِ»، يعني أن هناك حدودًا إلهيّة، وأن هناك موازين شرعيّة تجاه من يجب قتله لأنَه عدو للإنسان والحياة، ومن يجب الحفاظ عليه ولا يجوز قتله حتى لو كان مجرمًا؛ لأن جريمته لم تصل إلى حد استهداف الإنسان، فهو بمثابة جرثومة لكنها ليست فتاكة، فيجب أن يقدم إلى القضاء، ونعرف أن القضاء في الإسلام يبدأ من التعزير وصولًا إلى الإعدام، وما بينهما الكثير من المحددات.

القوة المسلحة تحركها الموازين الشرعيّة، وهذه تصبح ثقافة وموازين أخلاقيّة ووطنيّة، وحينذاك فان القائد المباشر حتى لو أصدر تعليمات على خلاف الواقع، كما لو أمر دكتاتور مجرم وطاغوت، الجيشَ بقتل الناس كما حصل في الانتفاضة سنة (١٩٩١)، وكما حصل في الأنفال، وكما حصل في حلبجة؛ إذ أُعطيت التعليمات لقادة وضباط وطيارين أن اذهبوا واقصفوا المدن الفلانية بالكيمياويّ، فهذا الجندي إذا كان قد تربّى تربية صحيحة، ويعرف أنه جندي بإذن الله ومؤتمن، وهناك إطار شرعي يتحكم به، فهو غير مستعد لأن يقتل ويرتكب مجازر كهذه ويقتل آلاف الناس من دون وجه حق.

لذلك، فهذه الأخلاقيّة توجِد حصانة، حتى لو كان لدى ضابط أو مسؤول نَفَسٌ سلطويّ وإجراميّ واعتدى وأساء، فإن جنده لا يطيعونه في ما هو خلاف الضوابط الإنسانيّة والشرعيّة، وحينها سينكسر، فلا أحد يطيعه ويأخذ كلامه، وحينما تصدر أية

---

٣٩٦. انظر: نهج البلاغة ٣٣: ٧٧ الكتاب ٤٧.

قيادة عسكريّة أوامر بقتل الأبرياء، والقوة لا تنفذ لأن تربيتها تربية صحيحة، فهذه هي المبدئيّة في العقيدة العسكريّة، وتربية هؤلاء على أنهم جند بإذن الله، وأنهم مؤتمنون، وهذا يحقق حالة من الانضباط.

اليوم نحن في بلادنا نتحدث عن مليون ومئتي ألف عنصر أمني، فهل نعرفهم كلهم؟ أنستطيع أن نطمئن لسلوكهم؟ وقد تكون الأوامر التي تأتي من القيادات العليا لتنفيذ مهام محددة فيها مصالح الوطن والمواطن، ولكن كيف يتم التنفيذ؟ وهذه القوة عندما تدخل إلى حي سكني كيف تتعامل مع الناس؟ والقائد الأعلى ربما لا يعرف كيف تتعامل، ولعلها تسيء وتتجاوز وتعتدي، ولعلها ترتكب أخطاء، ولعلها حينما تدخل إلى مكان تنتهك حرمات، في بلادنا أو في أي بلد من بلدان العالم، لذلك فإن هذه التربية الصحيحة، على أنهم جند بإذن الله، تحقق الحصانات الكافية في هذا الموضوع.

التركيز على البعد المعنويّ

البعد الآخر المهم في هذه التربية المبدئيّة والرساليّة، هو التأكيد على الحالة المعنويّة، فإذا كانوا جندًا بإذن الله، فالمهم أن تحقق هذه القوة العسكريّة مهامها المبدئيّة وواجباتها الصحيحة، وقد لا تنتصر في المعركة، والله لم يكتب النصر دائمًا في جميع الجولات، نعم، النصر في نهاية المطاف أمر حتمي، فقد يخسر الإنسان جولات ولكنه يكسب المعركة، ومعركة أهل الحق مع أهل الباطل محسومة لصالح أهل الحق على الأمد الطويل، ولكن على الأمد القصير قد تحصل في هذه الجولة أو تلك خسائر، ويمكن أن تحدث انكسارات وتراجعات، وهذه قضية طبيعية؛ فإن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ حقق الإنجاز والانتصار العظيم في (بدر)، وفي (أُحُد) كانت تلك الكبوة المعروفة والتراجع الذي حصل، وكذلك في (حُنَيْن)، كما يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[٣٩٧]، وكان عدد المسلمين عشرة آلاف مقاتل في حنين ولكنهم انكسروا، لذلك فإن هذه الانكسارات متصورة، ومن يعمل لله ومن يكن جندًا بإذن الله، فإنه لا يهتم لهذا الانكسار، ولا يصاب بالإحباط أو اليأس ولا يتراجع، بل يبقى قويًا ما دام العمل لله وفي سبيل الله، ولو أدى ذلك إلى أن يُستشهد، فهو يعتبر نفسه منتصرًا.

٣٩٧. سورة التوبة: الآية ٢٥.

لقد قتل الحسين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو وأصحابه وأهل بيته، جميع الرجال قُتلوا وبعض النساء أيضًا، ولكنه كان القتيل المنتصر، كان الشهيد المنتصر، ومعايير النصر أن تسير هذه القوة العسكريّة ضمن أهدافها الرساليّة الصحيحة، أما هل يتحقق انتصار مادي أو لا يتحقق، فهذا لا علاقة له بمفهوم النصر، والقوة التي تؤدي واجبها برسالية كبيرة وتعمل بمسؤولياتها وتدافع عن الوطن والمواطن، فهي قوة منتصرة سواء قُتلت أو حققت انتصارًا على الأرض، والقوة التي تسير ضمن نزوات وشهوات وأدوات سلطوية وتريد أن تحقق انتصارًا لنفسها، فهي مثل جنكيز خان أو المغول والتتار وغيرهم من الطغاة، فهؤلاء حتى لو حققوا انتصارات عسكريّة على الأرض وفتحوا بلدانا، لكنهم منهزمون وخاسرون؛ لأنها ليست معركة رساليّة، وليست معركة قيم ومبادئ، بل معركة سلطة ونفوذ وجاه وشهوات وميول وأخذ أدوار وفرض هيمنة على الناس من دون وجه حق، لذلك فإن معايير الانتصار والهزيمة في هذه الرؤية الإسلاميّة، تختلف عن معايير الانتصار والهزيمة في الرؤية الماديّة؛ فإذا كانت نيتك صحيحة وسلوكك صحيحًا، فإنْ قُتلت فأنت منتصر، وإنْ حققت إنجازًا عسكريًا على الأرض فأنت منتصر أيضًا، لذلك يقال: إحدى الحسنيين «النصر أو الشهادة»، فكلاهما حُسنى وكلاهما انتصار، ما دام الإنسان يسير في طريق المبدئيّة.

أدوار طبقة جند الله

الجانب الآخر الذي يشير إليه أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه العبارة الكريمة، بعد بيان موقع الجند بين الطبقات الاجتماعيّة وأنهم جند بإذن الله ومؤتمنون، هو دور الجند بين الطبقات الاجتماعيّة الأخرى، وفي هذا الأمر يشير إلى عدة أوصاف في دور القوات المسلحة.

أولًا: حُصُونُ الرَّعِيّةِ

(الْجُنُودُ حُصُونُ الرَّعِيّةِ): هم حصون وحماة الرعيّة، فمهمة القوات المسلحة أن يحموا الوطن والمواطنين، والهدف الأساسي لهم هو الأمن والاستقرار الذي يوجِدونه في مجتمعاتهم. إذن هدفهم دفاعي وليس عدوانيًا، وهو حماية الوطن والمواطن والدفاع عنهما، وليس اعتداءً وهجومًا وتسلطًا وهيمنةً وتمددًا واعتداءً على البلدان الأخرى إلى غير ذلك، هذا هو التعريف؛ حصون الرعيّة، دفاع وحماية للوطن والمواطن،

والجيش للشعب وليس على الشعب، وقد كانت الجيوش في عهود الظالمين جيوشًا على الشعب، واليوم يجب أن تكون الجيوش للشعب ولصالحه ودفاعًا عنه، ويجب أن تكون هوية الجيش إنسانيّة وأهدافه رساليّة، لكي يسير في الاتجاه الصحيح.

ثانيًا: زَيْنُ الْوُلاَةِ

(وَزَيْنُ الْوُلاَةِ): الولاة تعني الحكّام، والجيش زين للحاكم، أي هذه القوات المسلحة التي تدرب تدريبًا صحيحًا، والتي تُربى تربية صحيحة، ويكون أداؤها أداءً مميزًا، وتحقق الأمن والاستقرار وتحمي الوطن والمواطن، وتشعر الناس بالطمأنينة والارتياح، وترهب الأعداء لكي لا يتجرؤوا ولا يسيؤوا للوطن ولا يعتدوا عليه، عندما تكون القوة العسكريّة بهذه المواصفات، فإن الناس ستدعو بالخير للحاكم الذي ربى هذا الجيش وسيطر عليه، ونظم إيقاعات سلوكه ووجهه توجيهًا صحيحًا، فجعله قوة مفيدة لصالح المجتمع، وليس قوة مضرة بحق المجتمع، فتتحول القوات المسلحة إلى زين للولاة ومصدر ثقة بين الشعب والمسؤول، والناس تثق بالمسؤول وتحترمه وتقدره عندما تراه ربى الجيش تربية صحيحة ووظفه توظيفًا صحيحًا.

ثالثًا: عِزُّ الدِّينِ

(وعِزُّ الدِّينِ): الجيش فيه عزّة للدين، فماذا يعني أن الجيش عزّة للدين؟ هل يكون الدين عزيزًا بالسلاح والقوة؟ هل يكون الدين عزيزًا بالسطوة والفرض؟ والحق أنه ليس كذلك، فالدين عزّته بذاته، وعزّته بقوانينه وتشريعاته، عزّته بأحكامه وأُصوله، وقوة الدين وعزّته من نفسه، بما يحمله من برنامج للناس، ولا يحتاج إلى فرض عزّته بالسلاح، ولكن عزّة الدين تعني عزّة المتدينين، فإن عزّ المتدينين بهذا الجيش؛ الجيش الرساليّ الذي يدافع عن الناس ويحميهم، والذي يوفر فرصًا لحريات المواطنين ويدفع الأعداء عنهم، ويتحرك ضمن أسس رساليّة بإذن الله، وكما أشرنا، فهذا الجيش يتنفس المؤمنون الصعداء في رحابه، وهو عزّة للمتدينين وعزّة للتدين، وعزّة للقيم والمبادئ؛ لأنها تنطلق في مثل هذه الأجواء وتؤثر في الشعوب والأمم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، لولا وجود قوة عسكريّة توقف البعض عند حدودهم ولا تسمح لهم بالتعدي، ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، لولا القوات المسلحة التي تحمي الناس وتدافع عن

الشعائر وتوفر فرصة الحريات الدينيّة، لقام الطغاة والظالمون والمستبدون والمنحرفون بهدم دور العبادة، ومنع الناس من إقامة صلواتهم وإحياء شعائرهم، ولاحظنا في عهود الظالمين كيف كانت الشعائر مستهدفة، وكيف كان الناس يطارَدون لأنهم يمشون على الأقدام لزيارة سيد الشهداء، وكيف كان يمنع الناس حتى من طبخ الطعام وإقامة مجالس العزاء على أهل البيت (سلام الله عليهم) في هذه الديار، لذلك فالقوات المسلحة توفر المناخات الصحيحة لكي ينتشر التدين من دون ضغوط، ومن دون موانع وكوابح، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٣٩٨].

رابعًا: سُبُلُ الأَمْنِ

(وَسُبُلُ الأَمْنِ): المهمة الرابعة من مهام القوات المسلحة هي حفظ الأمن وتأمين سلامة المواطنين، فالناس بطبيعتها ـ كظاهرة مجتمعية وليس كأفراد ـ إذا لم ترَ قوة تنفلت، واليوم نرى في الدول المستقرة المنضبطة الآمنة، إذا اختلت أوضاعها الأمنيّة وحدث انهيار في الجيش، يظهر فجأة سُراق ومعتدون، ويظهر أناس يهجمون على المحال التجاريّة إلى غير ذلك، فالقوات المسلحة هي التي تحفظ الأمن وتنظم المجتمع، وحين يشعر الجميع بهيبتها فلا أحد يستطيع أن يسيء أو يعتدي، ففي جميع المجتمعات والشعوب هناك نسبة من الناس غير منضبطين ولا تحكمهم أخلاق، ويحتاجون إلى أن يروا القوة لينضبطوا، وإذا زالت القوة تظهر ظواهر النشل والسرقة والاعتداء والتجاوز على الآخرين إلى غير ذلك، لذلك فالقوات المسلحة هي الآليّة الطبيعيّة لتحقيق الأمن والسلم في المجتمع، وإذا ضعفت تظهر النتوءات والشواذ والعصابات والمافيات والمجموعات المسلحة التي تبطش بالناس.

الحرب الاستباقية من وسائل الدفاع

نلاحظ على نحو المثال، أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن عاد من قتال الخوارج في النهروان، كان يرى أن الفتنة قادمة من جيش معاوية، فطلب من الناس أن يهبوا لقتال القاسطين ويستعدوا للمنازلة ويقطعوا الطريق على الاعتداءات، لكن الناس لم تكن مهيأة لهذه الحرب ولم تستجب، فحصل ضعف ووهن، ووصل

٣٩٨. سورة الحج: الآية ٤٠.

الخبر إلى جيش الشام أن جيش العراق غير مستعد للقتال في هذه المرحلة، فوجدوا فيها فرصة وثغرة لينهالوا على المحافظات الغربية من العراق.

فبدأت عمليّة الغارات، وبدأت المجموعات المسلحة تغير على الأنبار، وما أشبة اليوم بالبارحة، فقد كان جيش الشام يغير على أبناء الأنبار وعلى العشائر الكريمة في الأنبار في تلك المرحلة، والقوة القتالية كانت محدودة، فالجيش يتمركز في المركز والأطراف تكون فيها قوات قليلة، والخطة التي وضعها علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لحرب استباقية يحصن فيها البلاد، ويضع حدًا لعدوان المتجاوزين والمعتدين، لم تلق صدى لدى الجيش ولم تحظ بالاستجابة، والناس لم تخرج لتدافع، فكان أن بدأ جيش الشام بالإغارة على الأنبار والاعتداء عليها.

وكان يقود هذه الفلول والمجموعات سفيان بن عوف الغامدي، وكان قائد الجيش بالأنبار حسان بن حسان البكري، فقتله سفيان مع عدد من أفراد القوات المسلحة الحاضرة في الأنبار آنذاك، وبدأ يتعرض إلى العوائل والأسر من المسلمين وغير المسلمين، ووصل الخبر إلى علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن مجموعات مسلحة تغير على الأنبار وتعتدي على الناس وتسيء إليهم، وتعتدي على النساء وتسرق ذهبهن بالقوة؛ القلادة وغيرها مما تلبسه وتتزين به النساء، فأصيب الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بألم شديد، حتى يقال إنه لم يستطع أن يقف على رجليه من شدة الألم، فكتب خطبة وسلمها لمولاه سعد حتى يلقيها، لأن عليًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن قادرًا على أن يقف على رجليه من شدة الحزن والألم؛ كيف يمكن أن تكون أُمور البلاد بهذه الطريقة؟ مجموعات مسلحة تعتدي على الناس وتفتك بهم.

ما غُزي قوم في عقر دارهم إلاّ ذلّوا

لاحظوا هذه المقتطفات من قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في نهج البلاغة: «أَلَا وإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ»، لا تقولوا لماذا حصلت الغارات؟، فأنا طلبت منكم حربًا استباقية، وطلبت منكم أنَ نخرج لنواجههم في مقارهم، لنضربهم في الصحراء حيث معسكراتهم، وإلاّ سيغيرون ويدخلون إلى مدننا.. إذا لم تقاتل الإرهابيين في الصحاري وفي مقارهم وفي معسكراتهم، فيجب أن تستعد لأن تقاتلهم في الأزقة والأحياء وفي كل مكان، هذه هي المعادلة.

«لَيْلًا ونَهَارًا وسِرًّا وإِعْلَانًا»، بذلت كل جهدي لإقناعكم بقتالهم في مقارهم ومراكزهم حيثما يتواجدون، لكي لا يمتدوا إلى المدن ولا يسيؤوا إلى المواطنين.

«وقُلْتُ لَكُمُ اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ»، قوموا بمبادرة استباقية.

«فَوَ اللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا»، عندما تكون المبادرة بيد الإرهاب وبيد المسلحين والمعتدين، فإنهم سيسيئون إلى الناس في الأحياء والأزقة والشوارع، وفي كل مكان، وهذا يؤدي إلى الشعور بالضعف والذل والمهانة أمام هؤلاء، وتكون المبادرة بأيديهم وليست بأيدي الناس، فتصبح المناطق غير آمنة.

«فَتَوَاكَلْتُمْ»، كل واحد يرميها على الآخر ويقول ليخرج غيري.

«وتَخَاذَلْتُمْ، حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ»، حتى وصل الأمر إلى أن يتجرأ المعتدي ويغير على مدنكم، ويسيء إليكم ويعتدي على نسائكم وأطفالكم وبيوتكم.

«وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطَانُ»، الوطن أصبح غير آمن ومعتدى عليه.

«وَهَذَا أَخُو غَامِدٍ»، في إشارة إلى الغامدي الذي كان يقود هذه الغارات من جيش الشام.

«وَقَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ»، دخل بخيله، (وسياراته ومجاميعه)، إلى الأنبار.

«وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ»، قائد الجيش في الأنبار الذي وضعه علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وسبحان الله، عندما كنت أقرأ هذه الخطبة رأيت قدر الشبه الكبير؛ فداعش أتت من الشام إلى الأنبار، وقتلت قائد الجيش في الأنبار الشهيد (محمد الكرويّ)، واعتدت على الناس، فما أشبه اليوم بالبارحة، إذ تتكرر نفس الصورة ونفس المشهد.

«وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا»، احتلوا منافذ الطرق وأزالوكم عنها وصارت الطرق بأيديهم، وصارت المنافذ الحدوديّة بأيديهم، وصار عددهم أكبر وأكثر تأثيرا، فأصبحوا يدخلون ويخرجون ولا تستطيعون أن تقفوا أمامهم وتحدّوا من حركتهم.

«وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ (من المعتدين) كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ والْأُخْرَى الْمُعَاهِدَةِ»، أمير المؤمنين يتألم من الاعتداء على المرأة المعاهدة الذمية، أي غير المسلمة، كما يتألم من الاعتداء على المرأة المسلمة، فيحزن لما يصيب الإنسان مهما كان دينه.

«فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا (خلخالها) وقُلُبَهَا (سوارها) وقَلَائِدَهَا ورُعَاثَهَا (أقراطها)».

يا علي؛ هذا ما سمعت به ولم تستطع أن تقف على رجليك، فماذا تفعل لو كنت في زماننا وسمعت بجهاد المناكحة الذي يُعتدى فيه على أعراض المسلمين، وتؤخذ بنات

الناس ويُعتدى عليهن تحت هذه العناوين الضالة المضلة؟ ولو رأيت كيف تُقطّع أشلاء الناس في قارعة الطريق، كبارًا وصغارًا، نساء ورجالًا وأطفالًا، ولو رأيت ما يجري اليوم في الأنبار وفي المحافظات العراقيّة الأخرى، فماذا سيكون حالك يا علي؟.

يدخل الجنود المسلحون المعتدون ويأخذون الحجل وينتزعون السوار والأقراط من النساء، وعلي عَلَيهِ السَّلَامُ لم يستطع أن يقف على رجليه من شدة الحزن والألم، إنا لله وإنا إليه راجعون.

«مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجَاعِ والِاسْتِرْحَامِ»، هذه المرأة ليست لديها طريقة لاستعادة حقها، إلاّ أن تبكي وترجو هؤلاء المجرمين أن يعيدوا لها خلخالها وسوارها وما إلى ذلك.

«ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ»، سرقوا ونهبوا ورجعوا وافرين بكامل العدد، من غير أن يواجهوا أي دفاع من الناس.

«مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمٌ»، لم ينل أحدًا منهم جرح.

«ولَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَو أَنَّ امْرَأً مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفًا مَا كَانَ بِهِ مَلُومًا»، لو أن الإنسان الذي يُعتدى على مواطنيه وتُنتزع الحلي من نسائه بالقوة، ثم يعود المعتدي إلى أهله سالمًا، لو أن هذا الإنسان مات أسفا بعد هذا، لم يكن ملومًا على ذلك، فما الحال اليوم والصورة الموجودة أسوأ ألف مرة من السابق؟ ولو كان الإنسان غير ملوم على موته في السابق، فكيف الحال اليوم؟.

«بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا»[٣٩٩]، إذ يقال إنّ هذا كان شريفًا نبيلًا، لم يتحمل هذه الظلامة وهذا الاعتداء على شعبه فمات من الألم.

إذن، فالقوات المسلحة توفر سبل الأمن، والمناخ الآمن الذي يحقق للناس جميعًا الطمأنينة والسكينة، ويوفر لهم فرص العيش الكريم والرغيد.

«وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلاّ بِهِمْ»، وبذلك يتبين أن الرعيّة لا تستقر ولا تهدأ ولا تهنأ ولا تعيش حياتها، إلاّ بوجود قوة عسكريّة مسلحة منضبطة، حامية للوطن والمواطن، مدافعة عن المواطنين غير معتدية عليهم، تكون شوكة في عيون الأعداء، ولكنها بلسم على جراح المواطنين ومبعث اطمئنان وراحة لهم، هذه هي السمة التي يرسمها علي عَلَيهِ السَّلَامُ، وهذا هو الدور الذي تفي به القوات المسلحة، ولا تقوم الرعيّة إلاّ بهم.

---

٣٩٩. نهج البلاغة ١. ٦٨ الخطبة ٢٧.

نسأل الله أن يجعل قواتنا المسلحة بهذا الانضباط والمبدئية، وهذا الاستحضار لمصلحة الوطن والمواطن، بكل ما يبذلونه من جهد كريم في هذا السياق.

طبقة دافعي الضرائب.. مصادر تمويل الجنود

ثم ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى موضوع مهم آخر؛ يتمثل بمصدر تمويل القوات المسلحة، فيقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ثُمَّ لاَ قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلاَّ بِمَا يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ»، المصادر الماليّة للقوات المسلحة هي الخراج، أي الضرائب التي يدفعها المواطنون للدولة، ومن هذه الضرائب يجب أن تُموّل القوات المسلحة، ثم يشير إلى الموضوع الآخر المهم؛ وهو موارد الصرف للقوات المسلحة، فهذه الأموال ليست للسطوة وفرض الهيمنة، وليست للانتهازية أو الاستغلال، أو لبناء محاور استقطاب ومرتكزات قوة داخل المجتمع.

أولًا: مصادر التمويل

حينما يكون مصدر التمويل هو الضرائب التي يدفعها المواطنون، فإن في هذا فائدة للمجتمع والجيش؛ فالجيش مصدر تمويله الشعب، ولذلك ينظر الجيش إلى المواطنين على أنهم أولياء نعمته، فيتحمل مسؤولية جهاده ويشعر بخفض الجناح تجاه الشعب، ولا يسلط قوته وسلاحه وتأثيره على الشعب، بل لحمايتهم ودفع الأعداء عنهم، وهذه لها أبعاد معنويّة وتأثيرات نفسيّة كبيرة لدى الجيش، حينما ينظر للمواطنين على أنهم مصدر تمويله ورزقه، فيشعر بوجوب أن يعمل جاهدًا كالموظف والعامل والأجير، لحماية الشعب وطمأنته وكسب رضاه، وبعث الاستقرار النفسي بين أفراده.

وهذه فائدة مهمة وعظيمة، لكي لا يتجبر الجيش ولا يستعلي ولا يسيء، فالنظرية الإسلاميّة لا تطلب من الجيش أن يتحمل توفير موارده الماليّة؛ لأنه قد يسيء استخدام القوة ويضغط على الناس ليحصل على الأموال، وقد يقطع الطريق، وقد يأخذ الرشاوى من ذوي الأموال وما إلى ذلك، وقد ينتهج نهجًا آخر في الوصول إلى المال، وتصبح لديه إمبراطوريّة اقتصاديّة مع السطوة بحكم السلاح والقوة، فيتحول إلى غول كبير لا يمكن السيطرة عليه، وحين يوفر مصادر تمويله، فماذا ستكون علاقته بالشعب؟ سينعزل وينفصل عن الشعب ويشعر بالاستقلاليّة والاستعلاء، بخلاف ما إذا كان تمويله من الشعب؛ فسيشعر بالمنة والفضل للشعب عليه.

إن هذه الآليّة والوسيلة في التمويل، باعتبار الشعب هو مصدر التمويل، توفر ضمانًا حقيقيًا لسلامة الأداء، والالتزام بالواجبات المحددة، وتساعد القوات المسلحة على تحقيق الأهداف المرجوة، وأن لا يخرجوا عن الطريق، فمصلحة الجيش تبقى مع الشعب وإلى الشعب.

نجاح العمل مرتبط بتحقيق الأمن

ومن الجانب الآخر، إذا أردنا أن ننظر إلى القضية من زاوية الشعب، وما تعود عليه من فائدة بوصفه الممول للجيش، فإن الفائدة هي إيجاد الحالة التكاملية؛ فالمواطن إذا أراد أن ينشئ مشروعًا زراعيًا أو صناعيًا أو تجاريًا، وسواء كان يمارس أعمالًا حرة أو يعمل في الدولة، فإن نجاحه في العمل مرتبط بتحقيق الأمن والاستقرار لكي يستطيع أن يعمل، وإذا لم توجد بيئة آمنة فستتوقف الصناعة والزراعة ومجمل القضايا الاقتصاديّة، وجميع مرافق الحياة، فالحركة والنشاط والعمل جميعها بحاجة إلى بيئة آمنة ومستقرة، والقوات المسلحة هي التي تصنع الأمن والاستقرار.

إذن، فالقوات المسلحة توفر الأمن لكي أستطيع أنا المواطن أن أعمل، وحينما أعمل عليَّ أن أعطي ضرائب وأموّل القوات المسلحة، ليستمر الأمن واستطيع الاستمرار في العمل، والقوات المسلحة لديها دوافع كافية لتحقيق الأمن؛ لأن فقدان الأمن يعني توقف مصالح الناس، وهذا يعني عدم وجود ضرائب ومصدر تمويل للجنود وعوائلهم، وعليه يصبح نشاط القوات المسلحة قويًا، ويجدّون في تحقيق واجباتهم، وكلما أصبح الأمن أكثر زاد النشاط، وأنتج المجتمع أموالًا إضافيّة وقدم ضرائب أكثر، وهذه علاقة تكامليّة؛ الأمن مقابل العمل، والضرائب مقابل تحقيق الأمن والاستقرار، وهذه تجعل الطبقات الاجتماعيّة جميعها متماسكة ومتراصة ويحتاج بعضها إلى الآخر، هذا في مصدر التمويل وخلفيته وفلسفته بحسب الرؤية الإسلاميّة.

ثانيًا: موارد الصرف

المورد الأول: «يَقْوَوْنَ بِهِ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ»، المال يجب أن يصرف ليس بطريقة عشوائيّة، وليس بطريقة ارتجاليّة، وليس بطريقة مزاجيّة، بل يجب أن يُصرف في المهمة المحددة، وهي تحقيق الأمن والاستقرار والوقوف بوجه الأعداء، فأي صرف وأي إنفاق يبتعد عن الهدف يكون في غير محله، وتكون هناك مساءلة ومؤاخذة عليه.

وترون في مؤسسات الدولة، عندما يوضع رقم معين في الموازنة لبناء مشروع، فالمسؤول في الحكومة ليس له الحق في أن يرفع هذه الأموال ويبني مشروعًا غيره، فهذا المال أقرّه مجلس النواب ليصرف في المكان الفلاني، وأبواب الصرف والمناقلة لها ضوابطها، والإسلام حدد مواضع الصرف في الواجب القتالي والأمنيّ وما يتطلبه ذلك، ويجب أن ينفق المال في تحقيقه، وتقوية بنية القوات المسلحة في مواجهة الأعداء؛ «يَقْوَوْنَ بِهِ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ»، ولذلك فهذا المال لا يذهب إلى كبار الضباط، ولا يذهب إلى قضايا ثانوية ويبقى الجندي في ساحة المعركة متحيرًا، فهذا المال يبعث العزيمة ويحقق الاستقرار النفسيّ لرجال الأمن في جميع مستوياتهم ومراتبهم، فالمال الأكبر يذهب إلى ساحة المعركة والتصدّي، ولمن يقف بوجه الأعداء، فهذا الذي يخدم وليس من يقف في الساحات الخلفية يبني القصور.

إذن، يجب أن يُنفق المال بما يقوي البنية الأمنيّة والدفاعية للقوات المسلحة، وهذا المال يوفر متطلبات المعركة، فلا يجد الجندي نفسه في ساحة المعركة بلا عتاد ولا دعم لوجستي ولا طعام، فيجب أن تحدد موارد الإنفاق بما يصبّ بشكل مباشر في الأهداف المرجوة للقوات المسلحة، وتقوية الجندي في مواجهة العدو.

المورد الثاني: «وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا أَصْلَحَهُمْ»، ما يحتاجون إليه من طعام وميرة، ومن عتاد وسلاح، جميع هذا الدعم اللوجستيّ يجب أن يكون موردًا مباشرًا للإنفاق، بحسب المبالغ المرصودة للقوات المسلحة.

المورد الثالث: «وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ»، لا يجوز أن نغفل ونتناسى الحاجة الطبيعية لعنصر الأمن؛ من مرتباته واحتياجاته ورعايته النفسيّة ورعاية عائلته، وهذا الذي جرح يجب أن نرعاه، ومن استشهد يجب أن نرعى عائلته، وفي اليوم الذي يشعر فيه أبناؤنا في القوات المسلحة بالدعم الماديّ لهم ولعوائلهم، فسيذهبون إلى ساحة المعركة مطمئنين، ولا يقول أحدهم عندما أسقط في ساحة القتال ستبقى عائلتي بلا معيل، وسيمدون أيديهم للناس.

ووفقًا للنظرية الإسلاميّة يجب أن يُنفق المال لتوفير الاحتياجات الحقيقية والضرورية لأبناء القوات المسلحة. إذن، فالتمويل لأصل المعركة، وأدوات النجاح في هذه المعركة، ولأبناء القوات المسلحة في احتياجاتهم الخاصة، هذه هي موارد الصرف للأموال التي تحصل عليها القوات المسلحة من الضرائب التي يدفعها المواطنون.

طبقة موظفي الدولة

«ثُمَّ لاَ قِوَامَ لِهذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ»، صنف القوات المسلحة، وصنف المواطنين الذين يدفعون الضرائب.

«إلاَّ بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ»، لا يستطيع هذان الصنفان وحدهما أن ينجحا في مهامهما، إلاّ بوجود الصنف الثالث، وهو طبقة موظفي الدولة.

«مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَّالِ وَالْكُتَّابِ»، ثلاث شرائح وثلاث مهام، ودورهم مكمل، فوجود قوات مسلحة، ومواطنين يعملون ويوفرون مصالح لأنفسهم ويدفعون الضرائب، لا يكفي لكي تنتظم العمليّة، بل يحتاجون إلى هذه المهام الثلاث والأساسيّة.

«لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ»، فالحاجة للقضاة لكي يضبطوا العقود، ويفصلوا في الاختلافات، وحينما تكون هناك التزامات بين المواطنين، أو بين المواطن والدولة، أو بين الدولة ودولة أُخرى، فإلى من نحتكم؟ الجواب: بين الدول هناك محكمة لاهاي، وبين الموظف والدولة هناك المحكمة الإداريّة، وهكذا المحكمة الجنائية، فالقضاء هو الذي يحكم على أساس التعاقد الموجود بين الأطراف، فدور القضاة هو ما يحكمون من المعاقد؛ أي العقود والالتزامات بين الناس، أو بين حكومة وحكومة أخرى، أو بين الناس والحكومة، إلى غير ذلك.

«وَيَجْمَعُونَ مِنْ الْمَنَافِعِ»، دور الموظفين العاملين في مؤسسة الجباية الحكوميّة، أن يتسلموا الضرائب ويجمعوا المنافع.

السياسة النقديّة والسياسة الماليّة والسياسة الاقتصاديّة، ثلاثة أشياء يجب أن تتكامل لكي تنتظم الأُمور العامة في المجتمع؛ كيف تجبى الأموال؟، وأين تصرف؟، وما هي السياسات والآليّات التي تكفل وتضمن صحة الصرف والإنفاق في هذه المجالات؟.

«وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الأُمُورِ وَعَوَامِّهَا»، يؤتمن الكتّاب لتسجيل هذه الخواص؛ المفاصل الخاصة، لتوثيق العقود والمواثيق والالتزامات البينية بين المواطنين، فإذا أراد مواطن أن يتكاتب مع مواطن آخر، فهذا الكتاب بلا قيمة إلاّ إذا ذهب إلى دائرة تشرف على هذا التعاقد، وتضعه ضمن سياقات صحيحة. إذن، صلاح القوات المسلحة وتحقيق أهدافها منوطان بوجود هذه الضمانات، لكي تتكامل المفاصل المطلوبة في أداء الواجبات.

دور القضاء وصفاته

الجهاز القضائي العادل القوي النزيه المستقل، هو الذي يستطيع أن يحمي القوات المسلحة، ويحمي دافعي الضرائب والمواطنين في مهامهم، ويحمي جميع مرافق الحياة؛ لأن الاختلاف أمر طبيعي، وهناك دوما من ينقض العهود والمواثيق، ولا بُدَّ من جهة محايدة مستقلة قوية نزيهة مؤتمنة يعود إليها الناس حينما يختلفون، فهي تنظر في القضايا وتتخذ الاحكام والمواقف وتصدر القرارات العادلة التي تضمن حقوق الجميع، وهذه توفر مناخ الاستقرار المعنويّ في المجتمع، فالاستقرار الأمنيّ واجب القوات المسلحة، والاستقرار النفسي المعنويّ يصنعه الجهاز القضائي العادل، فيرفع المواطن رأسه حتى لو لم ينتمِ إلى جهة معينة، ويدخل مرفوع الرأس بقوة الحق الذي معه، فإذا كان الجهاز القضائيَ عادلًا، فلا أحد يخاف مهما كان غريمه قويًا، طالما كان على حق، فهو قوي بقوة الحق، ويستطيع أن يغلب الآخر بالحق الذي يمتلكه، ولذلك نجد التأكيد الكبير في ثقافتنا الإسلاميّة على موضوعة القضاء ودور القاضي وحياديته وعدم تسييس القضاء إلى غير ذلك، فهناك تأكيد كبير في هذا المجال.

لاحظوا هذه الرواية الشريفة، عن أنس بن مالك، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «لسان القاضي بين جمرتين من نار حتى يقضي بين الناس، فإمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار»[٤٠٠]، أي إنّ الحُكم الذي ينطق به القاضي في قضيةٍ ما بين خصمين، إما أن يؤدي به إلى الجنة إذا كان عادلًا ومحايدًا وحقانيًا، ولا يتأثر ولا ينحاز لأسباب سياسيّة أو ضغوط مالية، أو لأي اعتبارات اجتماعية أو ما شابه ذلك، وينتصر للحق، وإما أن يؤدي به إلى النار إذا غلّب الاعتبارات الأُخرى، بحجة أن عليه ضغوطًا؛ لأن هذا ليس عذرًا يعتذر به أمام الله سبحانه وتعالى الذي أمره بالعدل عند الحكم بين الناس.

ويقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أفضل الخلق أقضاهم بالحق»[٤٠١]، القاضي لا يحتمل أنصاف الصفات؛ فإمّا مَلَكٌ مقرب أو شيطان مريد، وإما في أعلى عليين أو أسفل السافلين في قعر جهنم، وليس هناك حل وسط، فالقاضي حينما يقضي بالعدل والإنصاف وينتصر للمظلوم ويحق الحق، فهو أفضل الخلائق.

يا قُضاتنا الكرام، إذا كنتم على قدر المسؤولية وتقضون بالحق فهنيئًا لكم، ففي الدنيا، ولله الحمد، لديكم رواتب جيدة؛ أيها القاضي إمّا أن تقضي بالحق أو تقدم

٤٠٠. تهذيب الأحكام ٦. ٢٩٢ ح١٥.
٤٠١. عيون الحكم والمواعظ. ١١٩.

استقالتك وتخرج، وإذا كانت هناك ضغوط قد سُلطت عليك فاستقل واحفظ دنياك وآخرتك، ولا توقع نفسك في ورطة كبيرة، فالضغوط ليست عذرًا يوم القيامة ولا تشفع لك على الصراط.

تكافؤ حقوق المواطنة

عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «قال أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لعمر بن الخطاب: ثلاث إن حفظتهن وعملت بهن كفينك ما سواهن، وإن تركتهن لم ينفعك شيء سواهن، فقال عمر: وما هنّ يا أبا الحسن؟ قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: إقامة الحدود على القريب والبعيد، والحكم بكتاب الله في الرضا والسخط، والقسم بالعدل بين الأحمر والأسود، فقال عمر: لعمري لقد أوجزت وأبلغت يا أبا الحسن»[٤٠٢].

يبين الإمام علي بن أبي طالب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لعمر عند تصدّيه للحكم، وجود ثلاثة أشياء إذا عمل بها الحاكم فلا يحتاج إلى شيء آخر غيرها، وهي الوظائف الرئيسة لكل حاكم، وإن عجز عنها لم ينفعه غيرها، وهذه الوظائف هي: إقامة الحدود على الناس بلا فرق بين القريب والبعيد، فالعقوبة ليست على المواطن البسيط فقط، بل يجب أن تقام على أصحاب الجاه والنفوذ من المقربين للحاكم أيضًا إذا اقترفوا ما يستحقون به العقوبة، فالقانون يجب أن يطبق على الجميع.

الوظيفة الثانية هي الحكم بكتاب الله عز وجل على كل حال؛ في الرضا والسخط، لا أن يعمل بكتاب الله تعالى كما يحلو له، فيلتزم به في حال الرضا ويتركه في حال السخط، وقد حذر الله تبارك وتعالى من هذه الحالة في قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[٤٠٣]، فلا يجوز للحاكم أن يعمل بأحكام الله وفقًا لهواه ومزاجه؛ فإن رضي عن شخص عطّل العقوبة عنه، وإن غضب على شخص أقام عليه الحد، ولهذا يجب الالتزام بالقانون جميعه وتطبيقه على الجميع من غير استثناء.

الوظيفة الثالثة: هي القسم بالعدل بين الأحمر والأسود، فلا يجوز للحاكم أن يفرّق بين الناس في العطاء، بل يجب أن يكون الجميع أمام فرص متكافئة، ليحصل تكافؤ في حقوق المواطنة، فلا ينبغي أن يكون هناك تمييز على أساس اللون أو العرق أو الانتماء

٤٠٢. بحار الأنوار ٧٢. ٣٤٩ ح٥٣.
٤٠٣. سورة البقرة: الآية ٨٥.

القبلي أو الحزبي أو المناطقي أو أي اعتبارات أخرى، دينيّة أو مذهبيّة أو سياسيّة، لا دخل لها في حق المواطنة.

إن كنت تريد أن تدفع مساعدة من جيبك، والأقربون أولى بالمعروف، فأعطها لجارك ولعشيرتك، أما حقوق المواطنة فهي تشمل الشعب كله، وهذه ليست حقوقًا للبعض دون البعض الآخر، وليس من الصحيح التمييز؛ أنت من الجماعة الفلانية فالتعيين من حقك، أو إن انتخبتني فهذه استمارة التعيين، وإذا لم تنتخبني فليس لك تعيين، فهذه إمكانات الدولة، ويجب أن توزع بشكل متكافئ بين المواطنين، وحقوق المواطنة يجب أن تكون متساوية.

فيا أيها المسؤول؛ ليس لك الحق في أن تسأل المواطن أهو شيعيّ أم سُنيّ؟، مسلم أم مسيحيّ؟، عربيّ أم كُرديّ؟، صابئيّ أم إيزيديّ؟.. فهذا مواطن يحمل جنسية العراق، وله حق كامل في أن تلبي متطلبات حياته التي كفلها الدستور.

هذا هو منهج الإسلام؛ عدل ومساواة وإنصاف، ثلاثة أشياء تنظم العلاقة، وتطيب الخواطر وتقوي النفوس، وتمنح الثقة وتشعر الجميع بالإنصاف.

لاحظوا أي مشكلة في مجتمعاتنا، فسوف تجدونها ناتجة من عدم الأخذ بإحدى هذه التوصيات الثلاث؛ أن يحكم الإنسان بالعدل، وأن يقسم الحقوق بالعدل، وأن يقيم الحدود بالعدل، هذا هو المدخل الصحيح.

شريحة العمال.. التعريف والوظيفة

أما العنوان الآخر في هذا الصنف فهم العمال، ويراد بالعمال شبكة الموظفين والمنتسبين الذين يقومون بجباية المال، ويشمل ذلك المنظومة التي تضع السياسات الماليّة، والشبكة التي تضع السياسات النقديّة، كما يشمل الشبكة التي تضع السياسات الاقتصاديّة والتجاريّة؛ أي ملف الاقتصاد والمال، وهؤلاء يطلق عليهم العمال.

ونجد اليوم شريحة العمال في العديد من الوزارات؛ كوزارة الماليّة والتخطيط والبنك المركزي وديوان الرقابة الماليّة، جميع هذه المهام تتكامل في منظومة نطلق عليها العمال، وتحدد واجباتهم بشكل واضح، فلا شك في أن دافع الضريبة مستعد لأن يدفع، وله دوره المهم المؤثر في توفير الإيرادات المطلوبة للخزانة، لكي تستطيع الحكومة أداء واجباتها، ولكن من الذي يضع السياسات؟، ومن الذي يجبي هذه الأموال

من المواطن؟، وما هي المعايير العادلة في جباية الضرائب من الناس؟، وكيف يشعر الجميع بالعدالة في هذه العمليّة؟ هذا ما يقوم به العمال في هذا السياق.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في تحديد مسار هؤلاء: «يجمعون من المنافع»، هؤلاء يقومون بعملية الجمع ووضع المعايير والسياسات والإشراف والرقابة الماليّة، فتنتظم السياسة الماليّة والسياسة النقدية عبر هذه الشبكة من العمال الذين يقومون بواجباتهم.

شريحة الكتّاب.. المؤتمنون على الحقوق

العنوان الثالث في هذا الصنف هم الكتّاب، وهم من يوثّق ويدوّن الاتفاقات والعقود، سواء بين أبناء المجتمع كشخوص أو شركات أو مقاولين ومجموعات تعمل بعضها مع بعض، أو بين المواطنين والدولة، أو بين الدول بعضها مع بعض، وهنا نجد أن هذه القضية ستشمل العديد من الوزارات في تركيبتها الفعلية، فوزارة الخارجية مكلفة بالعديد من العقود والاتفاقات الدولية، فهي التي تبرمها، ووزارة العدل تقوم بتوثيق الكثير من العقود والالتزامات بين المواطنين، وهكذا العديد من الالتزامات الأخرى، بحسب طبيعة تعاقداتها مع المواطنين أو مع أطراف خارجية أو ما شابه ذلك، والغرض الأساسي من هذه العمليّة.

«وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الأُمُورِ وَعَوَامِّهَا»، هؤلاء مؤتمنون في أن يكتبوا بالعدل ويوثقوا هذه الالتزامات ويحددوا الحقوق لكل طرف، فالمؤسسة القضائية تعتمد على هذه الوثائق التي يبرمها هؤلاء الكتاب في الحكم بين الناس والقضاء لهم أو عليهم، وهكذا تنتظم أمور المجتمع وعلاقات الناس بعضهم مع بعض، وعلاقات المواطنين مع الحكومة، وعلاقات الجهات الحكومية بعضها مع بعض، من خلال هذه العمليّة الدقيقة في توثيق الالتزامات.

إن هذا نهج إسلامي أصيل؛ فإذا أردت أن تدخل في اتفاق مع طرف آخر، فإن الكلام وحده لا يكفي، حتى لو كان مصدرا للثقة وموردًا للاعتماد؛ قال تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾[٤٠٤]، إذ تجب كتابة الالتزامات من ديون وتعاقدات وتعاهدات وتفاهمات ومصالح مشتركة وشراكات؛ أن تدوّن الحقوق وتبين بشكل واضح للطرفين، والالتزامات والواجبات على الطرفين، فالقضية حينما تكون واضحة ضمن وثيقة لا يمكن الاختلاف عليها، وإنْ اختلفنا فسنعود إلى النص ونعالج المشكلة،

٤٠٤. سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

من دون أن تحصل مضاعفات معينة، فإن التفاهمات الشفهية يمكن أن تتبدل أو تُفهم خطأ أو تُفسر وتُؤوّل بشكل أو بآخر، فيضيع الحق على أهله.

إن طبقة الكتّاب لها دور أساسي، ويعتبرها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طبقة مهمة، وهم القضاة والعمال والكتاب، وإنما جمع بعضهم مع بعض، لأنهم يمثلون حلقات متواصلة لإيجاد المناخ المستقر في المجتمع، والبيئة الآمنة التي تسمح بالحركة والتفاهمات بين الناس بتبادل المصالح، من دون أن يشعر أحد بأنه قد يتعرض إلى الغبن أو المظالم.

طبقة التجار والصناعيين أساس حركة المجتمع

ننتقل إلى الطبقة الرابعة التي أشار إليها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: «وَلاَ قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعًا»، أي طبقة القوات المسلحة، وطبقة دافعي الضرائب، وطبقة القضاة والعمال والكتاب، هؤلاء لا يستقيم أمرهم إلاّ بطبقة رابعة؛ «إِلاَّ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ»، لاحظوا أهمية رجال الأعمال والصناعيين في البناء الاجتماعي في رؤية الإسلام.

«فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ»، أي ما يجتمع عليه رجال الأعمال والصناعيون من منافعهم، وهؤلاء هم الطبقة المنتجة التي تحرك عجلة الاقتصاد، وتنتج فرص عمل ووظائف للناس، وهي الطبقة التي تؤدي إلى استحكام الاقتصاد، ودافع الضريبة لا يستطيع دفعها إذا لم يكن هناك اقتصاد قوي وإيرادات، فيجب أن تصله الإيرادات ليدفع، وعندما يدفع الضريبة يجب أن يكون لدينا نظام قادر على أن يأخذ هذه الأموال بعدالة منه، لكي يمنحها للقوات المسلحة فيتحقق الأمن، فترون أن هذه العجلة وهذه الحلقات المترابطة في المجتمع، ترتبط بعملية الإنتاج المجتمعي، وهو ما يقوم به رجال الأعمال والصناعيون.

«وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ»، هم من يوجدون الأسواق ويحركونها، ويجلبون البضائع ويحركون الاقتصاد، فينتجون فرص عمل ومهام جديدة، ويبنون المصانع، وكل مصنع يراد له آلاف العاملين، وهذا المصنع لينتج يحتاج إلى مواد أولية، والمواد الأولية ستحرك عددًا كبيرًا من الناس، وهكذا تمثل الصناعة والتجارة الروافد الأساسيّة في البناء المجتمعي في الرؤية الإسلاميّة.

«وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ»، يوفرون فرصًا ومنافع للطبقات الأخرى.

«ممّا لاَ يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ»، غيرهم لا يستطيع أن ينتج هذا القدر من الفرص والمهن والأعمال والحركة الاقتصاديّة والإنتاج المجتمعي، ويحوّل المجتمع من مجتمع مستهلك إلى مجتمع منتج، وإلى مجتمع قوي ورصين قادر على أن يقدم الكثير.

إذن، هذا النص يتحدث عن موقع رجال الأعمال والصناعيين ودورهم، وفي ما يرتبط بالموقع، نجد أنه يختصر هذا الموقع بقوله: «وَلاَ قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعًا»، يعني القوات المسلحة ودافعي الضرائب، المساحة الواسعة من الناس والطبقة الوسطى في المجتمع كما عبرنا وشرحناها سابقًا، والقضاة والكتاب والعمال، بمعنى الموظفين في تعبيرنا اليوم، جميع هؤلاء لا قوام لهم إلا برجال الأعمال والصناعة والحرفة، لذلك فهؤلاء لهم موقع كبير ومهمّ ومؤثر.

صفات التاجر والصناعي في الرؤية الإسلاميّة

ورد في كتاب الكافي الشريف عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال: «إن الله عز وجل يحب المحترف الأمين»[٤٠٥]، المحترف هو صاحب الحرفة والمهنة، كالفلاح والعامل والكاسب والتاجر والمعلم والطبيب والمهندس وأمثالهم، ممن كانت له صنعة يرتزق منها، والأمين هو الذي لا يخون في ما أؤتمن عليه من خلال مهنته التي يمارسها، والمراد بحب الله سبحانه وتعالى للمحترف الأمين، هو تأييده وتوفيقه لما فيه صلاحه في الدنيا والآخرة، والتأكيد على شرط الأمانة للمحترف، سببه أن الأمانة تجلب الجودة؛ فالأمين يعطي للصناعة حقها، فينتج صنائع جيدة، ومع الأسف الشديد؛ فنحن اليوم في بلداننا حين نريد أن نشتري حاجة معينة، نسأل أين صُنعت؟ فإذا كانت صناعة اليابان أو ألمانيا أو بريطانيا أو أمريكا نسارع إلى شرائها، ولكن إذا كانت صناعة سورية أو مصرية أو غيرهما من البلدان يمكن أن نتردد ونتأكد قبل الشراء، ولا نندفع لشرائها.

الأمانة تعني الاكتفاء بأرباح معقولة وعدم رفع الأسعار بشكل كبير، والأمانة تعني عدم احتكار السلع لتؤثر في الدخل الاقتصادي للمواطنين، والأمانة جودة، وهذا ما يساعد على تحريك العجلة الاقتصاديّة إلى حد كبير، فالله سبحانه وتعالى يحب المحترف الأمين، وهذا شرط أساسي.

والأمانة تعني الشركات الواقعية والرصينة وليست الشركات الوهمية، والأمانة تعني العقود التي توفر مصالح حقيقية للطرفين، وليست العقود الشكلية التي تبنى على أساس

---

٤٠٥. الكافي ٥. ١١٣ ح١.

الانتهازية واستغلال المال العام والسرقة وما إلى ذلك، فالأمانة إنصاف، والأمانة تقدير للموقف، والأمانة استثمار للإمكانات، والواقع التجاري والصناعي يحتاج إلى هذه السمات؛ لكي يكون واقعًا رصينًا ينهض بالعجلة الاقتصاديّة لأي بلد من البلدان.

وفي كتاب «من لا يحضره الفقيه» - وهو من الكتب الأربعة المعتبرة للشيخ الصدوق - مجموعة من الروايات التي تتحدث عن هذا الموضوع الحيوي والحساس؛ منها ما روي عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «ويل لتجار أمتي من (لا والله) و(بلى والله)، وويل لصنّاع أمتي من اليوم والغد»[٤٠٦]، يحذر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ التجار من الحلف لترويج بضاعتهم، وهذا التعبير (لا والله وبلى والله) ما زال شائعًا على ألسنة التجار والكسبة منذ ألف وأربعمئة سنة إلى اليوم، كما يحذر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أصحاب المهن والحرف من المماطلة والتسويف والتعطيل للعقود والالتزامات، الذين يعِدون بإنجاز العمل ثم يؤخرونه إلى وقت آخر.. وهكذا، في حين يجب أن تكون العمليّة التجارية والصناعية خاضعة للأسقف الزمنية والالتزامات، واليوم نرى كثيرًا من المشاريع تعطل؛ لأنها تبنى على عقود والتزامات أُخرى، وتلك الالتزامات تتأخر وتؤثر في ما بعدها، وتتوقف الكثير من الأنشطة المجتمعية.

فضيلة العمل في الوطن والتواصل الاجتماعي

في رواية أخرى عن عليّ بن الحسين السجاد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «إن من سعادة المرء أن يكون متجره في بلاده، ويكون خلطاؤه صالحين، ويكون خلفاؤه صالحين»[٤٠٧]، يتحدث الإمام زين العابدين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه الرواية الكريمة عن ثلاثة عوامل تسهم في سعادة الإنسان؛ هي أن يكون مصدر رزقه في وطنه، وفي بيئته التي يعيش فيها وتربى في ربوعها، فهناك من يذهب إلى مكان بعيد أو يهاجر إلى دولة أخرى من أجل لقمة العيش له ولعائلته.

وهنا أود أن أوجه الخطاب إلى العراقيين في المهجر، الذين اضطرتهم سياسة البطش والقمع في حكومة حزب البعث إلى ترك العراق واللجوء إلى دول العالم المختلفة، وهم نحو أربعة ملايين مواطن عراقي في الخارج: تقول التقارير إن رؤوس أموالكم تُعد بعشرات مليارات الدولارات، والعراق اليوم بحاجة لكم ولرؤوس أموالكم، فاخدموا

---

٤٠٦. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٦٠ح٣٥٨٤.

٤٠٧. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٦٤ ح٣٥٩٨.

شعبكم وأبناءِ بلدكم، وشاركوا في إنقاذ العراق من هذه الظروف الصعبة، ولا تقولوا سنأتي إن شاء الله عندما تتحسن الأوضاع، فهذا ما سيقوله الياباني والكوري أيضًا، فمن سيقف للوطن إذا لم أقف أنا وأنت في هذا الظرف الصعب؟.

يجب أن لا يقول العراقيون ما يقوله الآخرون؛ لأن الآخرين يفكرون بمصالحهم فقط، ولا تهمهم مصالح الشعب العراقي، أما العراقي فيفكر بوطنه وشعبه، فلا بُدَّ من أن تعود العقول العراقية والأموال العراقية إلى الوطن، ولا ينبغي أن يقال إن الضوابط لا تسمح والإجراءات معطلة، إذ يجب أن نأتي ونقف ونعالج ونصحح ونصرخ، ولكن علينا أن نعود؛ لأن الاستقرار النفسيّ شرط في ازدهار التجارة والصناعة والزراعة وجميع مرافق الحياة الأخرى، وحين يتاجر الإنسان أو يبني صناعته وحرفته على أرضه وفي وطنه وبين أهله وعشيرته، فهذه تولد استقرارًا نفسيًّا للتاجر والصناعيّ والناس، واستقرارًا للاقتصاد، إلى غير ذلك.

والعامل الثاني الذي يسهم في سعادة الإنسان، هو أن يكون خلطاؤه صالحين، أي يتعامل مع أناس عند كلمتهم، وأناس نظيفين، وليسوا من أبناء الصدفة، وليسوا ممن امتلكوا الإمكانات على حين غرة، وليسوا من تجار الحروب، وحصلوا على فرص وثروات نتيجة الدماء ومعاناة المواطنين، وليسوا من تجار الحواسم ومبيّضي الأموال الذين توسعت ثرواتهم في ظروف غامضة.

والعامل الثالث الذي يسهم في سعادة المرء، هو أن يكون خلفاؤه صالحين، أي يكون له أولاد يستعين بهم في مكسبه وعمله الذي يعتاش منه.. فيا رجال الأعمال، أيها الصناعيون؛ لا تسمحوا بأن تهتموا بهذا الجانب وأولادكم يذهبون إلى جوانب أخرى، فقوام المجتمع التجارة والصناعة، ويجب على رجال الأعمال والصناعيين أن ينقلوا هذه الحرفة إلى أبنائهم وأقاربهم، فهؤلاء مضمونو الأمانة، وسيستمرون في هذه العمليّة ويتوارثون هذه الخبرة والتجربة جيلًا بعد جيل، وبالتالي تتكون شرائح اجتماعية ذات اختصاص وذات تجارب عريقة، وذات أصالة في الجانب التجاري وفي الجانب الصناعي، وهذا ما كان عليه الحال سابقا؛ البو فلان تجّار والبو فلان صناعيون، أناس معروفون وسمعتهم طيبة وخبرتهم كبيرة، أما في الواقع الذي نراه والتغيرات الكبيرة التي تحصل، فكل من امتلك دينارًا صار تاجرًا، الأمر الذي يؤدي إلى ضياع المصالح وارتباك الأمور، وهذا ليس أمرًا صحيحًا.

وعن عبد الحميد بن عواض الطائي قال: قلت لأبي عبد الله (الصادق) عَلَيهِ السَّلَامُ: «إني اتخذت رحي (للطحن) فيها مجلسي (مع العمل هناك ديوان أجلس فيه) ويجلس إليّ فيها أصحابي من المؤمنين، قال: ذاك رفق الله عز وجل»[٤٠٨]، أي من لطف الله تبارك وتعالى بك.

أيها التاجر، أيها الصناعي؛ أنت سعيد بنقودك، ونسيت الصداقة والعلاقات الاجتماعيّة، ولا يراك أحدهم إلاّ في الشهر مرة بسبب الانشغال بالتجارة، اعمل وتواصل مع الناس، وعش حياتك وواقعك الاجتماعي وابنِ علاقات، فهذه الحياة عواطف واتصالات وعلاقات، ويجب ألاّ تضعف لكي لا يتحول مجتمعنا إلى مجتمع صناعي على الطريقة الغربية؛ مجتمعات تنظر إلى الإنسان كأنه ماكنة؛ فيضغط الزر في الصباح ويطفئه في الليل، ولا شيء غير العمل، وآخر الأسبوع لديه يوم أو يومان، ولكنه سيكون منهكًا وليس له مزاج ليرى أحدًا، لذلك يعيش أناس في مكان واحد ولكن لا أحد يعرف الثاني، والجار لا يعرف اسم جاره الذي يجاوره منذ خمس عشرة سنة، ولا يعرف ماذا يعمل، وليس له علاقة بوضعه، فهو لا يعرفه ولا يهمه أمره من قريب أو بعيد، فلا أحد له علاقة بالآخر، والمجتمع مفكك، وهذا ليس هو الحل المثالي.

إن المجتمع علاقات واتصالات وتفاهمات وجلسات إلى آخره، كما ورد في الرواية الشريفة عن الإمام الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ في سؤال وجهه إلى وفد شيعته: «تجلسون وتتحدثون؟ قالوا: بلى يا ابن رسول الله، قال: إي والله، إني أحب هذه المجالس، أحيوا أمرنا، رحم الله من أحيا أمرنا»[٤٠٩]، وهذا توفيق من الله للتجار والصناعيين إذا استطاعوا إلى جانب عملهم أن يوفروا فرص التواصل الاجتماعي مع جلسائهم وخلفائهم.

إن الحفاظ على الروح المعنوية والواقع الاجتماعي قضية أساسية، وهناك العديد من النصوص الأُخرى التي تتحدث عن موقع التجارة والصناعة في الرؤية الإسلاميّة.

النشاط التجاري والصناعي ضمانة الاستقرار

معلوم أنه لا اقتصاد بلا رجال أعمال، ولا اقتصاد حقيقيًا بلا صناعة، أما الدول التي تعتاش على النفط، فإن صعدت أسعار النفط كانت في رخاء، وإن هبطت هذه الأسعار فلا يكون لديها نقود لتصرف رواتب الموظفين.

---

٤٠٨. من لا يحضره الفقيه ٣. ١٦٤ ح٣٥٩٨.

٤٠٩. ثواب الأعمال للصدوق. ١٨٧.

اليوم مرت خمسة أشهر، والحكومة الاتحاديّة لم تصرف رواتب الموظفين في إقليم كردستان، وهم مواطنون عراقيون، لهم من الحقوق ما لغيرهم من أبناء شعبنا، والحديث أن حجم الإشكالات الماليّة قد لا يوفر ضمانات كافية لصرف الرواتب لجميع الموظفين حتى في المناطق العربية، إذا استمرت الأوضاع في المناطق الأخرى من العراق بهذه الطريقة، وهذا الخلل الكبير حينما يكون اقتصاد البلد اقتصادًا أحاديًا مرتبطًا بالنفط أو معدن آخر، يمكن أن يصعد سعره أو يهبط.

أما البلدان التي تعتمد على بنية اقتصادية وصناعية قوية، فإن أوضاعهم لا تتغير بحدوث الحروب والأزمات؛ لأنهم يعتمدون على هذه البنية الحقيقية، وفي رؤية الإسلام يكون الاقتصاد منفتحًا، يعتمد على القطاعات الواسعة لرجال الأعمال والتجار والصناعات والمصانع الكبيرة، ونحن ـ للأسف الشديد ـ جعلنا وزارة الصناعة من الوزارات الهامشية، إذ تبقى آخر الوزارات في عملية المحاصصة وتوزيع الحقائب الوزارية، عسى أن يقبلها طرف من الأطراف، والحال أنها هي صلب وعمق الواقع المجتمعي والتنمية الحقيقية بحسب الرؤية الإسلاميّة، وهذه الطبقة من رجال الأعمال والصناعيين توفر الجزء الأساسي من الاحتياجات الاقتصاديّة للدول والمجتمعات بشكل عام، كما إنّها توفر الاستقرار في الحياة والمجتمع، حينما تكون في المجتمع بنية اقتصادية وصناعية قوية وفذة.

صفات الشريك الصالح

عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «لا تخالطوا ولا تعاملوا إلاّ من نشأ في الخير»[410]، إذا كنت تريد أن تعقد صفقة اقتصادية أو تتاجر مع أحد، فعليك أن تبحث عن أصحاب النعمة وأهل الخير الذين تملأ النعمة أعينهم؛ فأولئك لا يضعفون أمام المال، لأنّهم أبناء نعمة وأبناء حمولة، كما نعبّر في زماننا، فلا يغدرون بك مقابل مبلغ من المال ولا يكيدون لك، ولا يسرقون من أموال الآخر، فالصفقة الناجحة هي الصفقة مع الشريك المطمئن وأهل الخير.

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا، قال: «إيّاكم ومخالطة السفلة فإنه لا يؤول إلى خير»[411]، وقد قيل في تعريف السافل: «هو الذي لا يبالي ما قال ولا

---

٤١٠. الكافي ٥. ١٥٨ ح٥.
٤١١. الكافي ٥. ١٥٨ ح٧.

ما قيل له»[٤١٢]؛ فينكر ما قاله بالأمس، لأن كلامه لا يساوي شيئًا، ولا يكترث لقول ولا عهد ولا وعد، فيتكلم الآن وبعد دقيقتين ينكر ما قال، ومن ناحية أخرى لا يهتم بما يقال عنه ولا يكترث له، إذ ليست لديه كرامة تضيع بكلمة من هنا أو هناك، والبعض من هؤلاء تراهم في السوق منغمسين في السباب والشتيمة والفحش، ويمازح بعضهم بعضًا بالسباب والفحش وشتم الأعراض، وعندما ينادي أحدهم الآخر يناديه بشتيمة، فيضحك ولا يهتم ولا تتحرك له شعرة، وهذا هو السافل؛ ليست لديه حرمة ولا كرامة ولا عرض، وليست لديه هيبة ولا قيمة لنفسه.

وورد له معنى آخر أيضًا؛ هو أن «السافل من لا يسره الإحسان، ولا تسوؤه الإساءة»[٤١٣]، فهو من لا يذكر لأحد إحسانًا أو كرمًا، وقد قال الشاعر فيه:

إذا أنتَ أكْرَمتَ الكَريمَ مَلَكْتَهُ ... وَإنْ أنْتَ أكْرَمتَ اللّئيمَ تَمَرّدَا[٤١٤]

هذا اللئيم هو السافل، وكلما أكرمته أكثر تمرد أكثر، ولا يؤثر فيه ذلك أبدًا، كما أنه لا تسوؤه الإساءة، أي لا تهمه إساءة الناس له ولا يكترث لها، فليست عنده حرمة لتسقط، ومثل هذا الشخص لا يمكن الوثوق به.

إذن، هذا تحذير من التعامل مع السفلة، ومنهم أمراء الحروب وتجار الحواسم وتجار الصدفة؛ فبالأمس لم يكن يملك شيئًا، واليوم أصبح مليارديرًا، فمن أين أصبحت هكذا؟ وفي أي تجارة أو عمل نزيه استطعت أن تحقق تلك الثروة خلال فترة وجيزة؟.. بعض الناس تصبح عنده طفرة في المال بدون وجود تفسير منطقي لما حصل، وأمر هؤلاء لا يؤول إلى خير أبدًا، فإنك لا تحصل على الخير من خلال التعاطي والتعامل مع مثل هؤلاء الناس، وإذا ربحت في لحظة ستخسر في لحظات قادمة.

الترغيب في طلب الرزق

في رواية عن الفضيل بن اليسار قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إني قد تركت التجارة، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا تفعل، افتح بابك وابسط بساطك واسترزق الله ربك»[٤١٥]، تبيّن هذه الرواية المباركة أهمية طلب الرزق الحلال حتى لمن يملك مالًا يكفيه، فربما ترك الرجل طلب التكسب زهدًا أو تعبًا أو تثاقلًا أو انشغالًا بأمور أخرى،

٤١٢. من لا يحضره الفقيه ٣. ١٦٥ ذيل ح٣٦٠٥.
٤١٣. من لا يحضره الفقيه ٣. ١٦٥ ذيل ح٣٦٠٥.
٤١٤. ديوان المتنبي ١. ٢٨٨.
٤١٥. وسائل الشيعة ١٧. ١٧ باب ٢ ح١١.

أو لأن عنده بعض المال ولا يحتاج إلى العمل كما يقول بعض الناس، أو لأنه رتّب لنفسه مشروعًا اقتصاديًا معينًا يدر عليه ما يغنيه عن التكسب، ليتفرغ للتواصل الاجتماعي أو الأمور الدينية والزيارات وغيرها، ولكن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا يأمر من فعل ذلك بأن لا يتوقف عن العمل، ولو بأبسط وجوهه، بأن يبسط بساطه في عتبة داره ويسترزق الله ربه، والاسترزاق هو طلب الرزق من الله عز وجل والعمل وبذل الجهد، لئلا يكون الإنسان عالة على المجتمع، ولئلا يكون مستهلكًا فقط، بل يكون منتجًا ويؤدي دوره في تحريك العجلة الاقتصاديّة، وهذا شيء حسن ومطلوب، وهذه هي فلسفة النهي عن ترك العمل والاسترزاق، بصرف النظر عن الاستغناء وعدم الحاجة.

التشجيع على العمل الحر

في رواية أخرى عن الإمام الصادق (سلام الله عليه): «إن الله تبارك وتعالى جعل أرزاق المؤمنين من حيث لا يحتسبون، وذلك أن العبد إذا لم يعرف وجه رزقه كثر دعاؤه»[٤١٦]، من معطيات هذه الرواية المباركة التأكيد أن الرزق يجب أن يكون رزقًا حرًا وغير محدود.

يقول بعضهم ابحثوا لي عن تعيين، وهو شاب بعمر الورد متخرج توًا ومليء بالطاقة والإبداع، ويستطيع أن يحفر في الصخر، ولكنه يريد وظيفة لينزوي في دائرة من الدوائر بـ (٥٠٠) ألف دينار أو أكثر، فيأتي في الساعة الثامنة صباحًا ويخرج في الساعة الثالثة، وبعد شهر أو شهرين تموت تلك المواهب والملكات والطاقات الكامنة، وعينه على الساعة متى ينتهي الوقت؟، وعلى رأس الشهر متى يأتي الراتب؟ إنها مكننة الناس؛ أي جعلهم مثل الماكنة، يدخلون ويخرجون في الوقت الفلاني، وغير ذلك، والجميع يبحث عن تعيين، وليس هناك إبداع ونشاط وحركة. أيها الشاب؛ انزل إلى المجتمع وتحدَّ الصعاب، وتوكل على الله واسترزقه، وابحث عن فرص العيش الكريم في بلد مليء بالثروات والفرص.

هذه الثقافة مع الأسف موجودة في مجتمعنا العراقي، وهناك مجتمعات تبحث الحكومة فيها عن مواطن لتوظفه، وتضع سياسات لاجتذابه، ولكنه لا يريد الوظيفة الحكومية؛ لأن دخلها محدود، ويريد عملًا حرًا، وأن يكون قراره بيده؛ يخرج في أي ساعة يشاء، ويتاجر بما يشاء متى يشاء، ويستطيع توسيع عمله وتطوير مشروعه ليدر

٤١٦. الكافي ٥. ٨٢ ح١.

عليه أرباحًا أكبر، أما الموظف المنزوي في غرفة وتأتيه تعليمات؛ افعل كذا ولا تفعل كذا، فليس له إلاّ كلمة نعم سيدي، ويقضي (٢٥) سنة جالسًا في الغرفة، وبالتأكيد ليس هذا هو المنهج.

ثم يبين الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ الوجه في جعل رزق المؤمن مختلفًا عن غيره من الناس، بقوله: «وذلك أن العبد إذا لم يعرف وجه رزقه كثر دعاؤه»، ولكن البعض يأبى إلاّ أن يقيد نفسه براتب محدود في وظيفة حكومية، وحتى هذا لا ينبغي أن يكون مانعًا من السعي في طلب الرزق خارج حدود الوظيفة في أوقات الفراغ، وبالنسبة للموظف فهو يتقاضى راتبه الشهري على كل حال في رأس الشهر، سواء كان يعمل أو لا يعمل، أما إذا كان هناك مجال مفتوح، فقد يحصل على (١٠) ملايين، وقد لا يحصل على شيء، وتبقى يده ممدودة بالدعاء وطاقاته مسخرة ومجندة وحركته نشيطة، ويفكر ويخطط ويعمل ويطور مشروعه التجاري والمهني والحرفي إلى آخره، ويمكن أن يتوسع الإنسان بشكل غير محدود في هذه الخطوة.

الغنى مع الالتزام خير من الفقر

في رواية أخرى عن الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ أيضًا: «غنى يحجزك عن الظلم خير من فقر يحملك عليه»[٤١٧]، من قال لا تصبح ثريًا؟، ومن قال إن الثراء شيء مرفوض؟ فمن الجيد أن تكون من ذوي الإمكانات والثروات، وأن تتحرك وتحصل على فرصة كبيرة في الحياة، وأن يكون لك طموح، وأن تصبح إنسانًا ميسور الحال، هذا شيء جيد وليس من ضرر في ذلك، فالثروة مضرة إذا أسيء استخدامها، وإذا أوقعت الإنسان في الحرام ودفعته للانحراف، أما الثروة مع الالتزام ودفع الحق الشرعي والالتزامات تجاه الفقراء والمساكين، فلا مشكلة في أن تعيش بشكل جيد.

إن المشكلة في الفقر الذي يوقع الإنسان في الانحراف، وكان علي عَلَيْهِ‌السَّلَامُ يقول: «لو كان الفقر رجلا لقتلته»[٤١٨]، فالفقر هو الذي يدفع الإنسان إلى الهاوية والتعدي والتجاوز أحيانًا، ويشعر الإنسان بالغبن وعدم العدالة الاجتماعيّة، فيتحول أحيانًا إلى مجرم يعتدي على الآخرين، ومن قال إن المؤمن يجب أن يموت جوعًا؟ بل لأنك مؤمن استمتع بحياتك، ولكن ضمن الحدود الشرعيّة؛ فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ

---

٤١٧. الكافي ٥. ٧٢ ح١.

٤١٨. انظر. علي إمام المتقين لعبد الرحمن الشرقاوي ٢. ٢٣، نقلاً عن هامش إحقاق الحق ٣٢. ٢١٢.

اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، يا رسول الله، يُسر الحال هو المتعة والحياة الطيبة، ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٤١٩]، لذلك فالثروة المنضبطة والغنى ضمن الحدود الشرعيّة أمر مطلوب وجيد.

في رواية أخرى عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا خير في من لا يحب جمع المال من حلال، فيكف به وجهه، ويقضي به دينه، ويصل به رحمه»[٤٢٠]..

البعض لديه عقدة نفسية تجاه المال، فحين يأتيه المال يرفضه، لماذا لا تريد الحلال؟ فإذا كنت لا تريد الحرام فهذا إيمانك وتدينك، ولكن كيف لا تريد الحلال؟.. هذه ظاهرة سلبية، يجب أن نعمل ونطلب الحلال.

«فيكف به وجهه»، إذا أصبح عندك مال فلن تحتاج إلى الآخرين، وستكف بالمال وجهك.

«ويقضي به دينه»، يدفع ديونه، ويعيش مرفوع الرأس لا يطالبه أحد بشيء في المجتمع.

«ويصل به رحمه»، سدّ رمقك وحل مشكلتك أولًا، وسدد ديون الآخرين ثانيًا، وعندما يكون لديك فائض أعط الآخرين؛ الأرحام والفقراء والنازحين والمجاهدين.

قدم ما يفضل عن حاجتك في حياتك اليومية، ولا تبق جامعًا للأموال من الملايين إلى المليارات؛ بل اصرف ما في الجيب بحكمة يأتك ما في الغيب، وكلما أعطيت أكثر في موضعه وبحكمة، فإن الله سيعوضك ويوفر لك الفرص، وتكون في راحة، وتحبك الناس، وما نراه من الحقد ضد ميسوري الحال متوجه للبخلاء منهم فقط؛ الذي يعيش في قصر ويملك الكثير، ولكنه لا يعطي دينارًا لأحد، والناس تنظر إلى الثروات وتسأل من أين أتت؟، والإمكانات والثروات ملك المجتمع ونحن شركاء فيها، لكنه لا يعطي أحدًا، فيولد الحقد تجاه هذا الغني، أما الغني الذي يعيش برفاه ولكنه يساعد الآخرين، فالناس تتمنى له الخير وتدعو الله أن يديم الخير عليه ليصل إليهم شيء، فانظروا إلى التوازن الاقتصادي في الرؤية الإسلاميّة.

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «من المروءة استصلاح المال»[٤٢١]، إذا كانت لديك عشرة ملايين في المصرف أو في البيت، فلا تبقها بل نمّها بالتجارة أو بمشروع، وتحرك

---

٤١٩. سورة الأعراف: الآية ٣٢.
٤٢٠. الكافي ٥. ٧٢ ح٥.
٤٢١. بحار الأنوار ٧٣. ٣١٣ ح٧.

بها وطورها، فحينما يُستثمر المال في المجتمع ينمو ويكبر فيستفيد صاحبه، ويحرك الاقتصاد للآخرين، فعشرة ملايين في القاصة تبدأ بالتناقص، وقيمة العشرة ملايين اليوم أقل من مثيلتها قبل عشر سنوات، ويتناقص سعر العملة بشكل مستمر، ولكنه لو كان قد اشترى بهذا المبلغ قبل عشر سنوات قطعة أرض، لربح عشرة أضعاف، فلا تدّخر العملة وإنما استصلحها.

وعن الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ قال: «إصلاح المال من الإيمان»[٤٢٢]، من إيمان المرء أن ينمي أمواله ويصلحها ويستعملها في التجارة وما شابه.

الإنفاق بين التقدير والتقتير

وعن الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ أيضًا قال: «لا يصلح المرء المسلم إلاّ بثلاث: التفقه بالدين، والتقدير في المعيشة، والصبر على النائبة»[٤٢٣]، صلاح الإنسان المؤمن بثلاث خصال:

الأولى: التفقه بالدين، أي يعرف أمور دينه؛ هذا حلال وذاك حرام، وهذا يجوز وذلك لا يجوز، وهذا يستحب وذلك مكروه، فالطاعة والانقياد لله شيء مهم.

الثانية: التقدير في المعيشة، وهي تعني تجارة ناجحة، وتعني أن تعرف أين تضع مالك، والبعض يبعثر المال، ويضع أمواله في مشاريع وهمية غير ناجحة، فتقدير المعيشة أن تتخذ الوسائل والخطوات الصحيحة في التجارة، وتقدير المعيشة أن تقدر كيف وأين تنفق مالك، فهناك شخص يتقاضى راتبًا قدره (٥٠٠) ألف دينار، ويعيش الشهر كله وراتبه يكفي، وحينما تدخل بيته تجد أثاثه وأولاده بحال جيد، وهناك من يتقاضى مليوني دينار وراتبه لا يكفي، وترى ملابسه وبيته بحال سيئ، وعائلته متعبة، وهذا يحصل من حسن تقدير المعيشة بالنسبة للأول، ومن سوء التقدير للثاني.

إن تقدير المعيشة يوفر الكثير من المال؛ أين تنفق؟ وكيف وعلى ماذا تنفق؟ وكم تنفق؟ فتحتاج إلى تقدير للأمور، وفرق كبير بين تقدير المعيشة والتقتير في المعيشة؛ فتقتير المعيشة بخل، أما تقدير المعيشة فهو حكمة، والتقتير يعني البخل، فحاول أن توسّع على عائلتك، فإنّ الله عز وجل يحب أن يرى آثار نعمته على عبده، كما هو من

---

٤٢٢. الكافي ٥. ٨٧ ح٣.
٤٢٣. الكافي ٥. ٨٧ ح٤.

معاني قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[٤٢٤]، فيظهر الخير على مظهرك ومظهر أولادك وبيتك، وهذا أمر مطلوب، فتقدير المعيشة إذن قضية أساسية ومطلوبة.

الثالثة: الصبر على النائبة، الدنيا دار البلاء والابتلاء، ويجب أن تصبر وتتحمل ولا ترتبك، وهناك قول معتاد نقوله للمُعزّى إذا توفي له أحد، إذ نقول له: إن شاء الله خاتمة السوء، وهذا غير صحيح؛ فهذا يعني أن الموت سيئ، والموت قادم لا محالة، فهذا يعني أنك أول من سيموت بعد الميت، والصحيح أن نقول له: أحسن الله لك العزاء، وأعظم الله لك العزاء، فهذا القرآن الكريم ناطق بين ظهرانينا، وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[٤٢٥]، يا محمد، الموت والبلاء حق، صحيح أن الإنسان يتمنى ألاّ يموت قبل أن يتجاوز عمره ثمانين سنة، ولكن الشاب الذي يستشهد وعمره في العشرينيات هنيئًا له، وهذا شرف وعزة وكرامة، وما الحياة سوى موقف في الدنيا وسعادة في الآخرة، لذلك فالصبر على البلاء (النائبة) أمر مهم ومطلوب.

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «إن النفس إذا أحرزت قوتها استقرت»[٤٢٦]، حينما يكون في جيبك مبلغ جيد من المال تستقر وتهدأ نفسك، ولكن إذا كان العكس فسوف تكون قلقًا، فالاستقرار الاقتصادي ينتج استقرارًا نفسيًا، والمجتمع المستقر اقتصاديًا مستقر نفسيًا، والفوضى الاقتصاديّة والفساد، إرباك نفسي ومشاكل كبيرة يمكن أن تواجه المجتمع، فلاحظوا هذه القواعد الإسلاميّة في إدارة المجتمع.

وعن الإمام الكاظم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «ضمنت لمن اقتصد إلاّ يفتقر»[٤٢٧]، الاقتصاد في الصرف وليس البخل والتقتير، بل الاقتصاد بحكمة في ما ينفق، وهذا الإنسان لا يفتقر.

التحذير من الإسراف

روى الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «للمسرف ثلاث علامات؛ يأكل ما ليس له، ويشتري ما ليس له، ويلبس ما ليس له»[٤٢٨]، يأكل في المطاعم الراقية ويضطر إلى أن يقترض المال ليأكل في المطعم الفلاني، أو يركب سيارة حديثة الطراز

---

٤٢٤. سورة الضحى: الآية ١١.
٤٢٥. سورة الزمر: الآية ٣٠.
٤٢٦. الكافي ٥. ٨٩ ح٢.
٤٢٧. الكافي ٤. ٥٣ ح٦.
٤٢٨. بحار الأنوار ٧٢. ٣٠٤ ح١.

بأموال اقترضها من المصارف أو يشتري أثاثا بالدين، فهو لا يملك ما يأكله وما يلبسه وما يتمتع به، بل من الاقتراض، وهذا هو الإسراف.

وبالطبع، ما ليس له يعني أكثر من حاجته، فهو يأكل أكثر مما يحتاج إليه ولا يتوقف عن الأكل، «كم من أكلة منعت أكلات»[٤٢٩]، والبعض يتسابق في الأكل، وهذا شيء غير صحيح لأنه يولد الأمراض والعلل، ويجب أن يكون هناك اعتدال في مقابل الإسراف، ويلبس ما ليس له بهذا المعنى أيضًا، ويجب لبس الملابس الخاصة بالعمل في العمل، واستخدام الملبس المناسب في المكان المناسب، وكذلك استخدام الطعام المناسب بالقدر المطلوب في الحياة اليومية، وهذا كله اعتدال ووسطية في المنهج، وهو أمر مطلوب.

وفي رواية أخرى عن الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «من الفساد قطع الدرهم والدينار، وطرح النوى»[٤٣٠]. يوضح الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الرواية الكريمة بعض مصاديق الإسراف والفساد الشائعة إلى اليوم، وهي تقطيع الدينار والدرهم، لأنه يحتاج إلى سبك جديد بالرغم من احتفاظه بقيمته السوقية المتمثلة بالذهب والفضة، وأما اليوم فإن مصداق الفساد هو طريقة تداول العملة الورقية بإهمال وعدم مبالاة، وإن كان هذا الأمر يتفاوت من مكان إلى آخر؛ ففي الغرب تبقى العملة الورقية متداولة بأيدي الناس عشر سنين وهي سليمة وبحالة جيدة، ولكن عندنا لا تبقى أكثر من عشرة أشهر، إذ نعبث بها ونطويها ونكتب عليها إلى غير ذلك، وهذا غير صحيح، فهذه ثروة وطنية، وفي زمن هذه الرواية لم تكن العملة ورقية بل معدنية؛ درهم ودينار، ومع ذلك نجد التوصية بها، فكيف بالعملة الورقية؟. يحتاج الإنسان إلى أن يضع العملة في المحفظة ليحافظ على هذه الأموال؛ لأن الورقة ملك المجتمع وثروة وطنية، وندفع الأموال لكي نطبعها.

والمصداق الثاني الذي أشار إليه الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ هو ظاهرة طرح النوى عند أكل التمر، فلا ترم النوى بل ازرعها لتخرج نخلة، فإن استثمار الطاقات المتاحة منهج اقتصادي مهم، وعدم الإسراف مسألة أساسية.

سئل الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أدنى الإسراف فقال: «ثوب صونك تبتذله، وفضل الإناء تريقه»[٤٣١]. يشير الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الرواية الشريفة إلى اثنين من مصاديق الإسراف؛ هما: (ثوب صونك)، أي ثوب تجمّلك، فهذه الملابس لا ينبغي

---

٤٢٩. نهج البلاغة ٤. ٤٢ الحكمة ١٧١.

٤٣٠. من لا يحضره الفقيه ٣. ١٦٧ ح٣٦٢٥.

٤٣١. من لا يحضره الفقيه ٣. ١٦٧ ح٣٦٢٦.

ارتداؤها عند العمل أو عند النوم مثلًا ، فتكون حينئذ غير لائقة للظهور بها أمام الناس ، والمصداق الثاني هو (فضل الإناء تريقه) ، فحين تشرب الماء وترمي الباقي فهذا شيء غير صحيح ، وإذا كان هذا المقدار القليل من الماء لا يسمح الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ برميه ، فما حال الماء الكثير الذي نهدره هذه الأيام؟ ، فإذا أردنا أن نتوضأ نستعمل ماء يعادل وضوء شهر كامل ، ونهدر الماء الكثير في غسل السيارة ، وهذا غير صحيح ، فهذا ماء للشرب فقط ، وقد صُرفت أموال كثيرة في تصفيته وتحليته وتطهيره من الميكروبات وما شابه ، وكذلك ما يفيض من الطعام ، وهذه من العادات الرائجة وغير الصحيحة ؛ إذ نرمي كميات هائلة من فائض الطعام ، وقد قرأت تقريرا يقول إن الفائض من الطعام في النفايات في بغداد يكفي لإطعام ثلث أهل بغداد ، وهذا الموضوع يمكن تداركه من خلال الاقتصاد والطبخ بحسب الحاجة ، والفائض يمكن توزيعه بين الفقراء وسوف لا يبقى فقير في بغداد .

هذه ثقافة ، وهي ليست بخلًا أو تقتيرًا ، وإنما هي تقدير في الإنفاق ، وفي التعامل مع القضايا التي تجعل الإنسان يقع في الإسراف من دون أن يعي ذلك .

آثار الكسل والضجر وتضييع الحقوق

في رواية عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول : «ملعون ملعون من ضيّع من يعول»[٤٣٢] ، هي الشريحة التي تحتاج إلى الإعالة والرعاية ، شريحة المظلومين ، عوائل الشهداء ، الأرامل والأيتام وفاقدو المعيل ، أولئك الذين ليس لهم من يرعاهم ، ويتحمل المجتمع مسؤولية رعايتهم ، وإذا قصر المجتمع في أداء الأمانة ، وترك عوائل الشهداء أو تخلى عن الأرامل والأيتام وفاقدي المعيل ، فهذا المجتمع تصيبه اللعنة ، ولا سيَّما في مجتمعنا ؛ إذ هناك جيوش من الأرامل والأيتام والمغيبين ، مجتمع يحتاج إلى رعاية واهتمام ، ورجال الأعمال وميسورو الحال ومن له القدرة على الإعانة ، إذا قصروا في أداء واجبهم ، فسوف يكونون مشمولين بهذا اللعن الإلهيّ الذي يتحدث عنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .

وفي رواية عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قال : «إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل سوء»[٤٣٣] ، الكسل حالة تحصل في الإنسان وتمنعه من أداء واجباته ،

---

٤٣٢ . من لا يحضره الفقيه ٣ . ١٦٨ ح٣٦٣٠ .

٤٣٣ . من لا يحضره الفقيه ٣ . ١٦٨ ح٣٦٣٤ .

والإنسان الكسول لا يعمل ولا يتحرك ولا يقوم بواجبه بالشكل الصحيح، أو يتخلف عن أداء الواجب.

ولفظ (إياك) كلمة تحذير من أن يكون الإنسان كسولًا، فالإنسان يجب أن يكون نشيطًا، ويجب أن يتحمس في حسن أداء واجباته، ويجب أن يكون على قدر المسؤولية في المهام التي تناط به.

أيها الموظفون الكرام؛ حوائج الناس أمانة في أعناقكم، فلا تؤذوا الناس ولا تؤخروا مصالحهم بعبارة تعال بعد أسبوع أو بعد يوم، أتعلم أيها الموظف كم صرف المواطن من وقت، وكم تحمل من معاناة، وكم سيطرة عبر ليصل إلى الدائرة ليحل مشكلته؟ وبكل سهولة تقول له تعال غدًا. . يجب أن يُحترم وقته، فحلوا مشاكل الناس، ولا تعقّدوا معاملاتهم ولا تبتزوهم، وهكذا في المهام الأخرى، أينما كان الإنسان؛ في مهمة من الأعمال الحرة أو مهمة حكومية أو في حياته الشخصية، يجب أن يكون جادًا ونشيطًا، وقد رُوي عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه»[٤٣٤]، فالمطلوب هو الاتقان في العمل وحسن الأداء والنشاط والحيوية.

ذهبت إلى كوريا الجنوبية في زيارة رسمية قبل عدة سنوات، وكتابتهم تشبه الكتابة الصينية، أشكال لا تُفهم، وقد رأيت شكلا معينا موجودا بمساحة من الشوارع، وموكبنا يذهب ويأتي في زيارات ولقاءات، ومن مكان إلى آخر يتكرر الشكل نفسه في كل مكان، فسألت المترجم الذي معنا عن معنى هذه الأشكال والكتابات التي تتكرر، فكانت ترجمتها «ابتسم أنت في سيئول»، يذهب المواطن يمينا وشمالا، ويدخل في هذا الشارع ويخرج من ذاك الحي، وأينما يذهب يجد «ابتسم أنت في سيئول»، فتبتسم الناس، والدنيا لا تساوي شيئا، ونصف التعب يزول، ونصف المشاكل تحل، والتوتر والعصبية والانفعالات الشديدة تنهيها ابتسامة واحدة.

هل رأيت مثل هذه العبارة الذكية على قصرها، التي تغير أحوال الناس الذين يركضون من أول الصبح إلى منتصف الليل؟، كان لدينا جدول مزدحم، ونتحرك من الصباح إلى المساء من مكان إلى آخر، في لقاءات وبرامج، وفي جميع هذه الأماكن نجد النشاط والحركة، الأمر الذي يُذكرنا بوصية أمير المؤمنين عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ التي يقول فيها: «الله الله أن يسبقكم بالعمل بها غيركم»، لا يأخذ الآخر تعاليم الإسلام ويعمل بها ويتطور ويتقدم، وأنت المسلم ترميها وراء ظهرك فتتأخر.

---

٤٣٤. ميزان الحكمة ٣: ٢١٣.

«إياك والكسل والضجر»، الضجر هو حالة الاضطراب والملل التي تصيب الإنسان، فيغضب ويصبح عصبيًا ويغلق المحل ويذهب، أتريد أن تنتقم من نفسك والمجتمع؟ أو موظف يغضب ويغلق الباب ويقرر ألاّ ينجز المعاملات، أتعاقب الناس لأنك غاضب؟ هذا ليس منطقا صحيحًا، فالضجر يضيّع المصالح ويعقد الأمور، وكذلك الشيخ إذا غضب من أي بادرة وأغلق الديوان، فأين سيذهب الناس؟، وأين ستُحل مشاكلهم ونزاعاتهم؟، وأين يستفيدون ويسمعون كلمة طيبة؟ وما دمت قد أصبحت شيخًا فيجب إلاّ تغضب، وما دمت أصبحت مديرًا فليس من حقك الغضب، وما دمت أصبحت وزيرًا فيجب إلاّ تستقيل، والحمد لله، في بلدنا لا توجد استقالة، ولكن في الأماكن الأخرى هناك أحيانًا استقالة ناتجة عن شعور واعتراف بالتقصير، وهذه خطوة جيدة؛ حين يقول قصرت ولا أستطيع، ليأتِ غيري، ومرة (يزعل)، وهذا لا يجوز، فأنت مؤتمن في المهمة، سواء في عمل معين في مكان ما، أو في مهمة سياسيّة أو تنظيمية أو حكومية وهكذا، فلا الكسل مقبول ولا الضجر مقبول، فانظروا إلى منهج الإسلام في التصدي.

عندما تذهب إلى الشورجة في الساعة التاسعة صباحًا لا تجد الكثير لأنّهم نيام، فيا أيها التاجر لا تكن كسولًا، إذ يجب أن يكون الإنسان في العمل مبكرًا، والناس لديهم مصالح ويأتون من المحافظات ليتسوقوا، فالكسل ظاهرة غير صحيحة والضجر أيضًا.

«فإنهما مفتاح كل سوء»، الكسل والضجر مفتاح كل مشكلة وبليّة، «إنه من كسل لم يؤدِّ حقًا»، يضيّع الحق ولا يؤدي مهامه، وفي بلداننا يقال إن نسبة الوقت المفيد للمواطن في بعض البلدان (٣) دقائق، وهذا يعني أن هناك أناسا، وما أكثرهم، يمر عليهم أسبوع وليس لديهم دقيقة مفيدة، وليس هناك عمل إنتاجي حقيقي، بل كلام فارغ وتضييع للوقت فقط، والوقت ليس له حرمة؛ إذ تتفق معه على موعد واجتماع في الساعة الرابعة، فيصل في الرابعة والنصف، أي هناك (٣٠) دقيقة ضائعة، وفي هذا الاجتماع يجب أن يحضر (٢٠) شخصًا، فإذا ضربت عددهم بمدة التأخير تكون النتيجة خمسمئة دقيقة ضائعة، أليس للوقت حرمة وقيمة؟.

وقت الإنسان من ذهب ويجب إلاّ يضيع، وهذه مشكلة كبيرة، فالكسول لا يؤدي الحقوق، «ومن ضجر لم يصبر على حق»، الحقوق تؤخذ وتُنتزع ولا تُمنح، وإذا غضبت وذهبت فسوف يضيع الحق، فالحق يضيع بالضجر والغضب.

مواجهة الإرهاب بالعلم والمعرفة

في رواية أخرى، عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونحن في ضيافته وجواره: «إن الله تعالى ليبغض العبد النوّام، وإن الله تعالى ليبغض العبد الفارغ»(٤٣٥)، النوام يستيقظ في الساعة العاشرة أو فوق ذلك، وأن نكون أمة نائمة فهذا شيء خطير.

في الساعة الخامسة أو السادسة صباحا تعج الشوارع بالحركة، والناس تذهب إلى عملها، وفي بعض شعوبنا العربية، مع الأسف، النوم من الإشكاليات التي نواجهها، والإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ يحذر من ذلك بقوله: «إن الله تعالى ليبغض العبد النوّام»، وقال كذلك: «إن الله تعالى ليبغض العبد الفارغ»، ليس لديه علم أو معرفة، وحين تسأله متى أمسك كتابًا آخر مرة، تكتشف أن ذلك كان منذ عشرين سنة، لم يفتح خلالها كتابًا ولم يقرأ صفحة، فأين المنطق في هذا، ومن أين تأتي المعرفة؟.

الشعب العراقي كان شعبا قارئا بين الدول العربية، ويقال إن الكتاب يكتب في مصر ويطبع في بيروت ويقرأ في العراق، وفي بداية بناء عملية الديمقراطية بعد سقوط الدكتاتور، أصبح الناس يتراكضون إلى معارض الكتاب، وقلنا عاد الشعب للقراءة، ولكن مرت أربع سنوات الآن ومعرض الكتاب السنوي عندما يقام، مع الأسف، تراه خاليا من الناس وقلما يذهب أحد ويشتري كتابا، فإذا كان هذا بسبب الإرهاب، فإن القضاء على الإرهاب يكون بالعلم والمعرفة والفكر والثقافة الصحيحة، فإن الثقافة الخاطئة التي تُزرق لعدد من شبابنا هي التي تدفعهم إلى أن يقتلوا الآخرين متقربين بذلك إلى الله، والإرهاب وليد الفراغ المعرفي، ويجب أن نعالج ونواجه الإرهاب ليس بالسلاح فقط، بل بالعلم والمعرفة أيضًا.

نحتاج إلى المعلومات العامة، ويجب أن تكون قوية، وكذلك المعرفة الفقهية والتاريخية والاجتماعيّة، والثقافة العامة لا تتكون إلا بالقراءة والمتابعة، والتلفزيون الذي هو رافد معرفي مهم، لا يتابع البعض فيه غير الرياضة أو المسلسلات، ولست ضد الرياضة كما تعلمون، فأنا منحاز للرياضة والرياضيين، أما الأفلام والمسلسلات فأغلبها من أولها لآخرها لا يخرج منها شيء مفيد، وليس فيها معرفة وعلم، وقد لا تكون لدى البعض رغبة بالقراءة، ولكن، والحمد لله، أصبح لدينا عشرات القنوات المفيدة، ويستطيع الإنسان أن يتابعها، وفيها برامج يستفيد منها في مجالات مختلفة، ويجب أن يخرج الإنسان من حالة الفراغ.

٤٣٥. الكافي ٥. ٨٤ ح٢.

باشر أمورك المهمة بنفسك

في رواية أخرى تشير إلى قاعدة اقتصادية مهمة، عن الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال: «باشر كبار أمورك بنفسك، وكِلْ ما صغر منها إلى غيرك، فقيل: ضرب أي شيء؟ فقال: ضرب أشرية العقار»[٤٣٦]، أي تولَّ بنفسك القضايا المهمة الكبيرة، ولا توكلها إلى غيرك، كشراء دار أو بستان أو متجر وما إلى ذلك، وأما الأمور الصغيرة فعلى العكس من ذلك؛ لا تباشرها بنفسك وأوكل أمرها إلى غيرك؛ لأنها مما يتسامح في فواتها عند عدم المرغوبية فيها، وأما الأمور الكبيرة فهي مما لا يُتسامح في فواتها عادة عند العقلاء.

في إحدى المحافظات خصصت الحكومة المحليّة مبلغا كبيرا؛ مليارات من الدنانير لبناء مركز كبير لاختبار الأدوية للفرات الأوسط، ولا يوجد مركز لاختبار الأدوية إلاّ في بغداد وأربيل، وتم بناؤه في مكان كبير وأنفقت عليه المليارات، وقلنا الحمد لله، وذهبوا ليقصوا الشريط، وإذا به في الحي الصناعي قرب الميكانيكيين والمصلحين، والأدوية تحتاج إلى بيئة نظيفة ولا يكون ذلك حيث الدهون والزيوت، وليس من المعقول بناء بناية بمليارات الدنانير بلا فائدة؛ لأن المسؤول أوكل المهمة إلى موظف، وبحث عن قطعة أرض من دون أن يراها، ولا يعلم إن كانت تنفع أم لا تنفع.

إن مثل هذه القضايا الكبيرة يجب على الإنسان أن يباشرها بنفسه، ولا يتكل على الآخرين؛ «ما حك جلدك مثل ظفرك»[٤٣٧]، فلا توكل العمل إلى هذا وذاك، وعلينا أن نتحمل مسؤولياتنا ونشمر عن سواعدنا، لأنها قضايا تخصنا، فلنتابعها بأنفسنا.

المدير الناجح هو الذي يتابع تفاصيل مهمته بنفسه، وقد ضاع عدد كبير من المشاريع وبُددت المليارات نتيجة عدم الدخول في التفاصيل والمتابعة، بل وقع وذهب؛ لأنه يعتقد أنها ستنتهي بالتوقيع. ليست المسؤولية امتيازات ومواكب ومليارات وإيفادات، بل المسؤولية في الميدان؛ لترى المشروع الذي وقّعت عليه أين وصل، ونسبة التنفيذ والجداول الزمنية، وإذا لم تنزل وتتابع فلن تبنى الدولة ولن تسير الأمور.

---

٤٣٦. الكافي ٥. ٩٠ ح١.

٤٣٧. انظر. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨. ٣٨٢.

تجنب خزن المال

عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «ما يخلف الرجل بعده شيئًا أشد عليه من المال الصامت، قلت: كيف يصنع بأمواله؟ قال: يضعها في الحائط والبستان والدار»[٤٣٨]. المال الصامت هو السيولة النقدية؛ أي يخزن نقوده في البيت، فماذا تفعل بها هناك؟ فسواء كانت عشرة ملايين أو عشرين مليونًا أو مئة مليون، فاليوم تستطيع أن تشتري بها قطعة أرض أو بيتًا أو بستانًا، وغدًا لا يمكنك أن تشتري بها نصف قطعة، فالمال الصامت هو السيولة النقدية، وهي خسارة فلا تبقها مخزونة، فإن تضخم اقتصاد الدولة يعني أن تقل قيمة العملة، وهذه تصبح كلها خسارة، والصحيح أن تشتري بهاِ عقارًا، أو تتاجر بها، وحينئذ ستحرك الاقتصاد وتوفر فرص عمل، وكذلك تنمو أموالك، فحين تشتري اليوم قطعة أرض بمئة مليون، ثم يرتفع سعرها بعد عشر سنوات فتكون بمليار، فستكون أنت الرابح، والناس تستفيد والاقتصاد يتحرك، ولذلك فالمال الصامت بأن نجمع المال ونضعه في البيت، هذه ظاهرة هدامة للاقتصاد العام، وهدامة حتى للإنسان نفسه، وتربك الوضع الاقتصادي للإنسان، وتقلل من فرص الاستثمار والأرباح المطلوبة لهذا الإنسان.

طبقة الفقراء.. مسؤولية الدولة والمجتمع

الطبقة الخامسة التي أشار اليها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في إطار حديثه عن تكامل الأدوار بين طبقات المجتمع، هي طبقة الفقراء والمساكين، الذين لا تتوافر لديهم موارد مالية أو فرص عمل محددة، وهذه الطبقة لها حق الرعاية، فالمجتمع يجب أن يرعى ويساعد هذه الطبقة ويعالج مشاكلها؛ لأن المجتمع وحدة"متكاملة"لا تقبل التجزئة، فلا يمكن لجزء من المجتمع أن يعيش في رخاء ووئام واستقرار، فيما يعيش الجانب الآخر تحت وطأة الفقر والحاجة الماديّة، وإذا أردنا استقرارًا اجتماعيًا فلا بُدَّ من أن تُرعى جميع أجزاء المجتمع وطبقاته، بما فيها طبقة المحرومين.

اليوم حين نذهب إلى الغرب نجد أن هناك رعاية اجتماعيّة لمن لا تتوافر لديه فرصة عمل؛ فالحكومة تصرف له راتبًا شهريًا، وهذا هو ما يتحدث عنه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في رؤية الإسلام قبل ألف وأربعمئة سنة، فإن هؤلاء لهم حق في أن يتم رفدهم ومعونتهم ورعايتهم وتكريمهم، هذا حق الفقراء والمستضعفين على المجتمع؛ الرعاية والرفد

---

٤٣٨. الكافي ٥. ٩١ ح٢.

والاهتمام، والمجتمع الذي يرعى فقراءه يعيش حالة الاستقرار والوئام، وتتحقق المآلات المطلوبة لذلك المجتمع.

لاحظوا هذه الرواية عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، يقول: «مَثَل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمَثَل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٤٣٩]، في هذه الرواية الشريفة يمثل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ المجتمع بالجسد، وقد يقول الإنسان الحمد لله، فأنا لا أشكو من شيء، إلا أسناني التي تؤلمني، ووجود ضرس واحد ملتهب يصل الألم إلى جذوره يسلب راحة جسدك كلها، وهذا الضرس جزء من أجزاء هذا الجسد، وإذا تعرض إلى مشكلة يستنفر الجسد كله، ويجب أن يكون المجتمع كذلك.

شروط استقرار المجتمع

لا يمكن أن يعيش البعض في الراحة والدعة والاستقرار والوفرة في الإمكانات، فيما يسحق البعض الآخر، وإذا حصل مثل هذا التمييز فسيكون له عواقب وخيمة وردود أفعال معينة؛ إذ تحصل حالة من الشد والشعور بالغُبن وغياب العدالة لدى أوساط المجتمع، فتثأر لنفسها وتنقض على الجزء الآخر وتربك الاستقرار في ذلك المجتمع. إن الشعور بالعدالة الاجتماعيّة، والفرص الملائمة، والرعاية للطبقة المظلومة والمسحوقة والاهتمام بها، شروط أساسية في تحقق الاستقرار للأغنياء أيضًا، لمن لا يواجهون مشاكل من هذا النوع.

وقد ورد في كتاب الكافي، عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أنه قال: «ما آمن بي شبعان وجاره جائع، وما من أهل قرية يبيت فيهم جائع ينظر الله إليهم يوم القيامة»[٤٤٠]، فلا يزعُمَنَّ أحدٌ أنه من أتباع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وهو شبعان وجاره جائع، فهو ليس مؤمنًا به، لأن الإيمان برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يعني الرعاية للجار، ومنه يتضح أن تحمل المسؤولية والاهتمام بأبناء المجتمع والتكافل والتضامن الاجتماعي، شروط أساسية وعناوين للإيمان.

ثم ينتقل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ إلى بيان حقيقة من حقائق يوم القيامة تتعلق بنفس الموضوع؛ هي أن الله عز وجل لا ينظر إلى أهل بلد أو قرية أو منطقة أو حي أو جماعة،

---

٤٣٩. بحار الأنوار ٥٨. ١٥٠ ح٢٨.
٤٤٠. الكافي ٢. ٦٦٨ ح١٤.

ينامون وفيهم جائع أو محتاج إلى رعاية ولا يرعاه أحد، فإن الرحمة الإلهيّة ستُسلب منهم، وهو معنى أن لا ينظر الله سبحانه وتعالى إليهم يوم القيامة.

انظروا إلى هذه الروايات بكل ما تحمله من شدة وقسوة على من يفرط ويضيع حقوق الفقراء والمعوزين والمساكين، فهذه الطبقة هي الطبقة المدللة؛ فطبقة المستضعفين هي الطبقة المدللة والمرعية من الطبقات الأربع الأخرى، فمن تتوافر لديهم الإمكانات والأموال عليهم أن يتحملوا المسؤولية تجاه أبناء مجتمعهم.

موقع الفقراء في رؤية الإسلام

سنذكر تحت هذا العنوان بعض الروايات التي تبين أهمية الفقراء وموقعهم في رؤية الإسلام، ففي (بحار الأنوار)، عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «إن الله عز وجل يلتفت يوم القيامة إلى فقراء المؤمنين شبيهًا بالمعتذر إليهم»، نظرة اعتذار؛ لأنّهم تعرضوا إلى نكبة ومحنة، فالفقر يعصر الإنسان عصرًا، «فيقول: وعزتي وجلالي ما أفقرتكم في الدنيا من هوان بكم عليّ»، لم يكن استصغارًا لكم وتقليلًا من قيمتكم أو إساءة لكم، «ولتروُنّ ما أصنع بكم اليوم»، انظروا كيف سأجازيكم يوم القيامة أيها الفقراء، «فمن زود أحدًا منكم في دار الدنيا معروفًا فخذوا بيده وأدخلوه الجنة»، اخرجوا أيها الفقراء يوم المحشر، وكلّ من سلّم عليكم واحترمكم وتفقدكم وذكركم بشيء وساعدكم بقضية، فخذوا بيده وادخلوه الجنة، أنتم تحكمون يوم القيامة، فارفعوا رؤوسكم أمام الآخرين.

قال: «فيقول رجل منهم: يا ربي إن أهل الدنيا تنافسوا في دنياهم»، أهل الدنيا لديهم الأموال وتنافسوا، «فنكحوا النساء»، ولم يقتنعوا بالزوجة والزوجتين.. ما شاء الله، أموال الدرجات الخاصة والملايين التي تدر عليهم.. «ولبسوا الثياب اللينة»، ننظر إليهم وقلوبنا تتقطع، فلا نستطيع أن نلبس مثلهم.

«وأكلوا الطعام وسكنوا الدور وركبوا المشهور من الدواب»، سيارات من أحدث الطُرُز، حتى أصبحنا لا نحفظ أسماءها، وقد امتلأت بها الشوارع، «فأعطني مثل ما أعطيتهم»، إلهي؛ قضيت عمري وأنا أنظر إليهم يأكلون ويخرجون بملابسهم وسياراتهم وإمكاناتهم، وأنظر إلى فنادقهم ومطاعمهم وأتحسر، فأعطني يا إلهي مثلهم يوم القيامة، هذا ما يشتهيه الفقير، «فيقول تبارك وتعالى: لك ولكل عبد منكم»، كل شريحة الفقراء،

«مثل ما أعطيت أهل الدنيا منذ كانت الدنيا إلى أن انقضت الدنيا سبعين ضعفًا»[٤٤١]، هذه رحمة الله تعالى واهتمامه بهم.

ثواب الصبر على الفقر

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «جاء رجل موسر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نقي الثوب فجلس إلى رسول الله، فجاء رجل معسر درن الثوب فجلس إلى جنب الموسر، فقبض الموسر ثيابه من تحت فخذيه، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: أخفت أن يمسّك من فقره شيء؟ قال: لا. قال: فخفت أن يصيبه من غناك شيء؟ قال: لا. قال: فخفت أن يوسخ ثيابك؟ قال: لا. قال: فما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله إن لي قرينًا يزين لي كل قبيح»، هذه الطبقية الماديّة المبنية على أساس المال؛ فهذا مليونير وهذا فقير، فكيف يحترمه ويسلم عليه؟.

هناك بعض الموسرين ينظرون إلى الفقراء كأنهم عبيد في هذا المجتمع، بل ليسوا بشرًا، وهذا الرجل كان من هذا النوع، لكن تقريع الرسول له أثّر به، فقال: «إن لي قرينًا يزين لي كل قبيح ويقبح لي كل حسن، وقد جعلت له نصف مالي»، وهبت نصف ممتلكاتي لهذا الفقير لأكفّر عن هذا الخطأ وهذه الإهانة التي أهنته بها، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ للمعسر: «أتقبل؟ قال: لا، فقال له الرجل الموسر: لمَ؟ قال: أخاف أن يدخلني ما دخلك»[٤٤٢]، أخشى إن أخذت نصف أموالك ولبست الحرير، أن أشعر بأنني أحسن من الآخرين، وهذا ما لا أريده.

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا، قال: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: يا معشر المساكين طيبوا نفسًا»، لا تتعبوا من الفقر، «وارضوا بالقضاء والقدر»، وتكيّفوا مع الواقع، «وأعطوا الله الرضا من قلوبكم»، استقروا واطمئنوا واقبلوا بما قدر الله تعالى، «يثبكم الله عز وجل على فقركم».

هناك مليونير حينما يُسأل عن حاله يقول: إن السوق كاسد، والاقتصاد منهار، ويتباكى ويتشكى وهو يملك المليارات، وهناك فقير حينما يُسأل عن حاله يقول: الحمد لله، ويشكر الله على الخلاص من المقابر الجماعية والديكتاتور وكسب الحرية، وعجيبٌ

---

٤٤١. بحار الأنوار ٧: ٢٠٠ ح٧٦.
٤٤٢. الكافي ٢: ٢٦٢ ح١١.

هذا الفرق بين النظرتين؛ بين الفقير الشاكر لله، والمليونير المتشكي وغير الراضي بنعمة الله الوفيرة، مع أنّ الشكر فيه أجر عظيم.

«يثبكم الله عز وجل على فقركم، فإن لم تفعلوا فلا ثواب لكم»، إن التشكي لا يغير حالة الفقر، ويحرم صاحبه من الأجر والثواب، فالأحرى بالإنسان الرضا بما قدره الله تعالى، وأن يبقى طامحًا ويعمل ويحسن من حياته وإمكاناته الماديّة، كما وردت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٤٤٣]، ابذل الجهد واترك الكسل والضجر، واعمل لتكون لك إمكانات من المال الحلال وبالطرق الصحيحة.

وعن أبي جعفر الباقر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «إذا كان يوم القيامة أمر الله تبارك وتعالى مناديًا ينادي بين يديه: أين الفقراء؟ فيقوم عَنَقٌ من الناس كثير، فيقول الله: عبادي! فيقولون: لبيك ربنا، فيقول: إني لم أفقركم لهوان بكم عليّ، ولكني إنما اخترتكم لمثل هذا اليوم»، إذن فالفقر ابتلاء واختبار، ورفعة وسموٌّ بين يدي الله تعالى.

«تصفحوا وجوه الناس، فمن صنع إليكم معروفًا لم يصنعه إلاّ فيّ»، كان معروفه لله، حتى لو كان مبلغًا قليلًا في سبيل الله، فهو له قيمة لأنه لله تعالى، فاصنعوا المعروف لله، سواء عرف من صنعتم له المعروف أو لم يعرف، قدّر أو لم يقدّر، فليست هناك مشكلة، فالأجر تحصل عليه لأنك تعمل لله تعالى وأنفقت في سبيله، «فكافئوه عني بالجنة»، الله يقول للفقراء: كل من قدم لكم معروفًا في الله فكافئوه بالجنة.

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «إذا كان يوم القيامة قام عنق من الناس حتى يأتوا باب الجنة، فيضربوا باب الجنة»، الفقراء يأتون مباشرة إلى باب الجنة، والملائكة ينظرون اليهم وهم يدقون باب الجنة قبل الحساب، «فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن الفقراء، فيقال لهم: أقبل الحساب؟ فيقولون: ما أعطيتمونا شيئًا تحاسبوننا عليه»، لم تعطونا في الدنيا إمكانات وجئنا بخفي حنين، «فيقول الله عز وجل: صدقوا، ادخلوا الجنة»[٤٤٤]، افتحوا الباب؛ فهم فقراء تحملوا في الدنيا ما تحملوا، فليدخلوا الجنة، هذه قيمة الفقراء والمنزلة المعنوية لهم، وحاشا لله أن يأخذ شيئًا من الإنسان ثم لا يعطيه شيئًا في قباله.

---

٤٤٣. الكافي ٢: ٢٦٣ ح١٤.

٤٤٤. الكافي ٢. ٢٦٤ ح٩.

وسنرى في روايات أخرى قادمة، كيف هو حال الفقير والغني المؤمنَين المتدينَين المطيعَين لله ولرسوله حينما يقفان في المحشر، ونقصد بالمؤمن من دفع الأخماس والزكوات وقام بواجبه وارتزق من المال الحلال ولم يسرق، هذا الغني كيف يكون حاله يوم القيامة؟ وكيف يكون حال الفقير يوم القيامة؟ حيث يؤتيه الله تعالى أجرًا عظيمًا.

مبدأ الرعاية الإلهيّة

ثم انتقل الأمير عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذه الفقرة المهمة، وهي قوله: «وَفِي اللَّهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ»، فالله سبحانه وتعالى جعل فرصة وسعة ومجالًا للرزق لكل إنسان، وتكفل بالأرزاق لعباده، وهذه من الأمور التي نجدها في عدد من الآيات القرآنية؛ كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأرض إنه لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[٤٤٥]، أي الرزق، فكما أن النطق صفة بشرية تلازم الإنسان، بل هي جزء من هوية الإنسان، والنطق لا نعني به القدرة على الكلام؛ لأن الإنسان قد يكون قادرًا على الكلام، وقد يكون محرومًا منه كالأخرس وأمثاله، لكن المراد بالنطق الفكر والرؤية والمنطق، وهذه هي السمة التي تُميز الإنسان؛ فهو حيوان ناطق كما يعرّفه المناطقة، إذن فالنطق جزء ملازم لهوية الإنسان، وفي هذه الآية الشريفة يذكر القرآن الكريم أن الرزق لا ينفك أيضًا عن الإنسان، فالله سبحانه وتعالى كتب أرزاق عباده أجمعين.

حق المواطن ومسؤولية الحاكم

«وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ»، لكل مواطن حقٌ على الوالي (الحاكم) أو الحكومة، «بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ»، بقدر ما يكفيه في معيشته، أي في تحقيق كفاف العيش له، إذن فإن كفاف العيش ومقدار الصلاح في إدارة الحياة، حق لكل مواطن على الحاكم وعلى الحكومة.

«وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ»، ولا يوجد حاكم يستطيع أن يتنصل مما ألزمه الله وأوجب عليه، من توفير العيش الكريم والرفاه الاجتماعي للمواطنين الذين يحكمهم، فهذه مهمة الحاكم ومسؤوليته؛ أن يوفر الكفاف في المعيشة للمواطنين، ويحرص على توفير الرفاه والعيش الكريم لهم، ولا يستطيع الوالي أن يقوم بذلك «إِلَّا بِالِاهْتِمَامِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ»، ببذل الجهد والتوكل على الله سبحانه، «وَتَوْطِينِ

---

٤٤٥. سورة الذاريات: الآية ٢٣.

نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ»، وأن يوطن نفسه على القيام بهذا الحق والالتزام به ويسخرها لذلك، وهو خدمة الوطن والمواطن.

«وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ»، إن خدمة المواطنين قد تكون بوسائل متاحة وبسيطة وميسورة، وقد تكون بوسائل صعبة، فقد يأتي يوم تتحقق فيه وفرة مالية، فتكون الخدمة سهلة، وقد يأتي يوم تنخفض فيه أسعار النفط، فتكون الخدمة أصعب، ولكن مهمة الخدمة لا تسقط في جميع الأحوال، بل يبقى هذا المبدأ، سواء كانت هذه المهمة خفيفة أو ثقيلة، فإن على الحاكم أن يقوم بها ويوفر العيش الكريم للمواطنين.

إضاءات مهمة

ينطوي قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الآنف الذكر على إضاءات مهمة هي:

الإضاءة الأولى

التكامل بين الحقوق والواجبات

يشير هذا المقطع إلى مبدأ إسلامي مهم، هو أن التضامن الاجتماعي مسؤولية مجتمعية عامة، لا يتحمل وزرها وتبعاتها ومحنتها الفقير وحده، وإنما يجب أن يتحمل الجميع مسؤولياتهم، والحياة الكريمة والعيش الكريم وكفاف العيش، هي مسؤولية الحاكم في رؤية الإسلام، فالحاكم أو المسؤول عليه أن يوفر الخدمة للمواطنين، ومن لا يخدم لا يمكن أن يكون حاكمًا، فهو مقصر في أداء واجباته في الرؤية الإسلاميّة، والمواطن عليه التزامات؛ إذ يجب عليه أن يلتزم بالكثير من المحددات والقوانين، كدفع الضرائب للدولة مثلًا، فيجب عليه أن يقوم بالكثير من الواجبات في مقابل حقوقه، فهناك تكاملية بين الحقوق والواجبات؛ فما دام المواطن مكلفًا بواجبات، فيجب أن يحظى بحقوق، والحق هو العيش الكريم في رؤية الإسلام، وهذه هي الحالة التكاملية والتوازن الدقيق بين الحقوق والواجبات، فطالما عليك واجب فلك حق، وما دام الواجب مسجلًا عليك، فالحق مسجل لك، وعليك أن تطالب به وتحصل عليه.

حين يشعر الجميع في المجتمع بأنهم مكفولون، وأن مستوى الكفاف والحاجة الضرورية لحياتهم قد تحقق، فإنهم سيشعرون بالأمن والاستقرار النفسي، وهذا الأمن

النفسي يولد أمنًا واستقرارًا مجتمعيًا، الأمر الذي يولد فرصًا جيدة للعمل والنشاط والتنافس في الخير، وتطوير القدرات والمهارات والإمكانات إلى غير ذلك.

الإضاءة الثانية

خدمة الناس واجب شرعي

تحقيق الرفاه الاجتماعي وكفاف العيش واجب شرعي على الحاكم والوالي، وليس الأمر أن هذا مسؤول جيد لأنه يخدم الناس، فهذا واجبه وليس فقط مسؤوليته الوطنية والأخلاقية، بل مسؤوليته الشرعيّة أن يخدم الناس ويوفر العيش الكريم لهم.

لاحظوا تعبير الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللّٰهُ مِنْ ذَلِكَ»، فهناك حالة إلزام من الله تعالى في هذا الأمر، فالأمر مسألة شرعية وإلزام ووجوب شرعي في تحقيق العيش الكريم للمواطنين من قبل المسؤول، إذن فالمسؤولية والتصدي للإدارة والحكم والقيادة، تأخذ أبعادًا شرعية ترتبط بالآخرة، ففي منطق الإسلام على الحاكم واجبات، وهذه الواجبات شرعية بحكم موقعه.

الإضاءة الثالثة

خريطة النجاح

لقد وضع أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مستلزمات النجاح في هذه الوظيفة الشرعيّة، إذ رسم خريطة الطريق للنجاح، فيا أيها الحكام والمسؤولون في مختلف المستويات، إذا أردتم أن تحققوا الخدمة للمواطنين فعليكم أن تنتهجوا خريطة الطريق التي يطرحها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي في أربعة أمور:

الأمر الأول: الهمة العالية

أيها المسؤول، إذا أردت أن تخدم وتبني دولة وتنجح، فأنت بحاجة إلى همة عالية، وإلى بذل الجهد في تقديم الخدمة للمواطنين، وإذا أردت أن تكون في موقع المسؤولية الحقيقية التي وضعك الله فيها وألزمك شرعًا بخدمة الناس، فعليك أن تلتزم بالدوام، فالمسؤول الذي يقضي وقته في الإيفادات والسفرات، والبعيد عن هموم الناس،

والمسؤول الذي يفكر بظروفه الشخصية وامتيازاته أكثر من تفكيره بأوضاع الناس وتحدياتهم ومشاكلهم، هذا المسؤول لا يستطيع أن يبني دولة، ولا يستطيع أن يفي بالالتزام الشرعي في خدمة المواطنين، فالهمة العالية مطلوبة في المسؤول، وعليه أن يبذل جهدًا كبيرًا من أجل أن يحقق هذه الخدمة للناس.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في بيان هذا المعنى قوله: «من بذل جهد طاقته بلغ كنه إرادته»[٤٤٦]، أيها المسؤول، أيها الإنسان الذي تريد أن تكون ناجحًا، قد تكون مسؤولًا حكوميا أو في شركة أو في تنظيم، في أي مكان وفي أي مستوى، إذا أردت أن تكون ناجحًا، فيجب أن تبذل جهد طاقتك، كل طاقتك، وأن تعطي وجودك كله للعمل لكي تبلغ وتحقق كامل أهدافك، فمن أراد أن يحقق هدفه فعليه أن يبذل كل طاقته في طريق تحقيق هذا الهدف، إذن فالهمم العالية والجهد والنشاط والحماسة والحيوية في المهمة التي يكلف بها الإنسان وتناط به، هي السبيل لتحقيق النجاح.

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «أشرف الهمم رعاية الذمام»[٤٤٧]، أي الالتزام بالعهود والمواثيق التي قطعها الإنسان على نفسه، فصاحب الهمة العالية لا يقبل بأقل من أن يؤدي حق المسؤولية الملقاة على عاتقه، وأن يحقق الأهداف التي رسمها لنفسه، ويؤدي الواجبات التي كلف بها بشكل كامل، من دون مبررات وتسويف أو تضييع للوقت وما شابه ذلك، هذا صاحب الهمة العالية الشريفة.

وفي رواية أخرى عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: «أحسن الهمم إنجاز الوعد»[٤٤٨]، فصاحب الهمة العالية إذا وعد وفى، وإذا رفع شعارًا في الانتخابات وقال سنعمل على أن نحقق لكم تطلعاتكم، فعليه أن يعمل عليها ويحققها، ويفي بوعده ويلتزم بما قطعه مع شعبه.

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «ذمتي في ما أقول رهينة وأنا به زعيم»[٤٤٩]، أتحمل كامل المسؤولية عن كل ما قلته لكم، وأنا له ضامن، فالهمة العالية هي تعبير عن الصدقية في الالتزام بالعهود التي قطعها الإنسان مع ربه ومع شعبه.

أيها المسؤول؛ إذا أردت أن تكون ناجحًا في خدمة الناس، فعليك أن تكون ذا همة عالية في تقديم الخدمة للمواطنين.

---

٤٤٦. عيون الحكم والمواعظ. ٤٢٦.

٤٤٧. عيون الحكم والمواعظ. ١٢٤.

٤٤٨. عيون الحكم والمواعظ. ١١٤.

٤٤٩. نهج البلاغة ١. ٤٦ من كلام له ١٦.

الأمر الثاني : الاستعانة بالله

التوكل على الله تعالى وأن تجعله نصب عينيك ، لا أن تضع الله جانبًا ؛ لأن الإنسان لا يساوي شيئًا من دون المدد الإلهيّ ، فالله تعالى هو الذي يجعل الأسباب مؤثرة في تحقيق النتائج ، وأي عمل من دون توكل يضيع ، ونفس العمل إذا قام به إنسان آخر مع التوكل يكون مثمرًا ، وكذلك الكلام وجميع الخطوات تكون منتجة ومثمرة بالتوكل على الله ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾[٤٥٠] ، وقوله سبحانه : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[٤٥١] ، أي إنّ الله تبارك وتعالى يتكفل بأمره ويحقق له النتائج .

وفي سورة الحشر : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُم أُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٤٥٢] ، هناك مسؤول لا يعرف ماذا يعمل ، فهو حائر فاقد لخريطة الطريق ولا يعرف أين يضع قدمه ، ويرى المشاكل قد تراكمت عليه ؛ لأنه منقطع عن الله تعالى ، إذن فالاستعانة بالله من شروط النجاح .

الأمر الثالث : يوطن نفسه على هذا العمل

يصرف كل وقته وجهده من أجل خدمة المواطن ، فهو يسخّر نفسه لهذه الخدمة ، فوجوده مسخر لذلك . إذن يجب أن يكون همّ المسؤول خدمة المواطنين ، ويجب أن تعيش المسؤولية والمهمات المناطة به معه ليل نهار ، ويصرف وقته ويبذل جهده كله من أجل تحقيق هذا الهدف ، كما قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ : «وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ» ، فهذا الحق هو حق الناس عليه بخدمتهم وتوفير العيش الكريم لهم .

الأمر الرابع : الثبات والصبر والاستقامة

على المسؤول الثبات والصبر والاستقامة في طريق الحق وتحمّل المنغصات ، لتحقيق الإنجاز وخدمة المواطن ، فيا أيها المسؤول ، عليك تحقيق الإنجاز ، وهو طريق فيه صعوبات ومشاكل ومنغصات ومعرقلات ومطبات ، وفيه إغراءات ومنزلقات ، فكيف تتعامل مع جميع هذه التحديات؟ .

---

٤٥٠ . سورة هود : الآية ٨٨ .

٤٥١ . سورة الطلاق : الآية ٣ .

٤٥٢ . سورة التوبة : الآية ٦٧ .

إذا كنت على قدر المسؤولية فهنيئا لك وسوف تنجح، ولكن إذا شعرت بالضعف والانكسار أمام البيروقراطية والتحديات والمشاكل والنيات غير السليمة للعاملين معك في إدارتك، فلن تستطيع تحقيق التقدم، فإنه «من لجّ ولج ومن جدّ وجد»، والأمور لا تأتي على حين غرة وبالصدفة، ولا تأتي بيسر وسهولة، «ومن طلب العلى سهر الليالي»، ومن أراد تحقيق الإنجازات الكبرى فعليه أن يتحمل التحديات الكبرى، وقال علي عَلَيهِ السَّلَامُ: «من ركب مركب الصبر اهتدى إلى مضمار النصر»[٤٥٣]، بالصبر والثبات يهتدي إلى طريق النصر ويصل إلى النتائج الكبيرة والباهرة.

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ قال: «اصبر تظفر»[٤٥٤]، إذا أردت الظفر والانتصار فعليك بالصبر.

هذه هي الأمور الأربعة التي يشير إليها أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ، ويعتبرها أسبابا أساسية في تحقيق النجاح للمسؤول في أداء واجبه في خدمة المواطن.

---

٤٥٣. بحار الأنوار ٧٥. ٧٩ ح٥٦.

٤٥٤. عيون الحكم والمواعظ. ٧٦.

المقطع السابع عشر

معايير اختيار القادة العسكريين

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ :

«فَـوَلِّ مِـنْ جُنُـودِكَ أَنْصَحَهُـمْ فِـي نَفْسِـكَ للهِ وَلِرَسُـولِهِ ولإِمَامِـكَ ، وَأَنْقَاهُـمْ جَيْبًـا ، وَأَفْضَلَهُـمْ حِلْمًـا مِمَّـنْ يُبْطِـئُ عَـنِ الْغَضَـبِ ، وَيَسْـتَرِيحُ إِلَـى الْعُـذْرِ وَيَـرْأَفُ بِالضُّعَفَـاءِ ، وَيَنْبُـو عَلَـى الأَقْوِيَـاءِ ، وَمِمَّـنْ لاَ يُثِيـرُهُ الْعُنْـفُ ، وَلاَ يَقْعُـدُ بِهِـا لضَّعْـفُ .

ثُـمَّ الْصَـقْ بِـذَوِي الْمُـرُوءَاتِ وَالأَحْسَـابِ ، وَأَهْـلِ الْبُيُوتَـاتِ الصَّالِحَـةِ ، وَالسَّـوَابِقِ الْحَسَـنَةِ ، ثُـمَّ أَهْلِ النَّجْـدَةِ وَالشَّـجَاعَةِ ، وَالسَّـخَاءِ وَالسَّـماحَةِ ، فَإِنَّهُـمْ جِمَـاعٌ مِـنَ الْكَـرَمِ وَشُـعَبٌ مِـنَ الْعُـرْفِ» .

الدرس الحادي والأربعون

معايير اختيار القادة العسكريين

يتناول المقطع السابع عشر في عهد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لمالك الأشتر، معايير اختيار القادة العسكريين، فإذا كان الجند يشكلون طبقة من الطبقات الاجتماعيّة، كما شرحنا في الفصول السابقة، فلا بُدَّ لهؤلاء الجند من قادة عسكريين يقودونهم، فكيف يتم اختيار هؤلاء القادة؟ وما المعايير والسمات والأوصاف التي يجب أن توجد في هذا العسكري لكي يتم اختياره قائدًا للجند؟ كأنْ يكون قائد فرقة أو قائد فيلق أو آمر لواء، وغير ذلك.

أولًا: الصلاح والاستقامة

لاحظوا هذه العبارات ذات المغزى العميق: «فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ»، يا مالك، اختر قائدًا لجندك، وليكن أكثرهم نصحًا، وأكثرهم خيرًا في نفسك. اختر من هو أكثر استقامة وارتباطًا بالله، وأكثر نصحًا في الالتزام بالحدود الشرعيّة، وتطبيقًا للمعايير الشرعيّة في أدائه ومهماته العسكريّة. اختر من يخاف الله تعالى في أوامره العسكريّة التي يأمر بها أولئك الجنود، ويبحث عن الخير والصلاح، ولا تأتِ بإنسان لا تحكمه موازين شرعية وأخلاقية، بل يريد أن يثأر ويتشفى وينكل بالخصم، ولا يكفي أن يبحث عن الصلاح، بل يجب أن يكون أصلحهم وأنصحهم، وأن يطلب الخير بدوافع إلهية؛ «لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ»، فدوافعه دوافع إلهية، ودوافع إنسانية ومعنوية، تحمله على طلب الخير من أجل الحفاظ على المصلحة العامة، وليس المصلحة الشخصية، أو النزوات الذاتية السلطوية، أو إشباع حب الأنا.

اختر من يجعل المعيار والأساس هو الارتباط بالله وحب الله، والقيود والموازين الشرعيّة التي أرادها الله سبحانه وتعالى، أما ذاك الذي يبحث عن مصالح شخصية

وأنانية وسلطوية وغرائز شهوانية، ويتلذذ بالتشفي والثأر من الآخرين وإراقة الدماء، فهذا إنسان ما إن يحصل له انتصار ويتحقق له إنجاز، حتى يخرج عن طوره وانضباطه ويقتل ببشاعة ويسيء إلى الناس بدون حدود، ونجد اليوم في هؤلاء البربريين الدواعش مثل هذه النزوات والسلوكيات السادية؛ حب الدماء والرغبة في القتل، وعدم وجود حرمة لشيء، وما إن يختلف أحد معهم حتى يفتكوا به ويقتلوه.

اذا كان الأساس هو المصلحة الخاصة، فمن يحقق له هذه المصلحة يصطف معه، فهذا القائد فاقد للمبدئية وليس له موقف وطني كما نُعبّر، ولعل عدوًا من الداخل أو آخر من الخارج يستغل هذا الإنسان نتيجة لأنانيته، فيصبح عنصرا دخيلا من موقع القيادة في المؤسسة العسكريّة، فيفشي الإسرار ويوصل الخطط العسكريّة إلى الأعداء، ويعبث داخل هذه المؤسسة العسكريّة، ويوظف الناس بالرشاوى ويفعل ما يفعل، وهذه كلها مشاكل كبيرة يمكن أن يتعرض لها الإنسان حينما لا يكون ولاؤه لله ولرسوله ولإمامه، بل يكون ولاؤه للمصلحة وهي متغيرة؛ فحين تعطيه الدولة مليونين ويعطيه العدو خمسة ملايين، يكون ولاؤه لمصلحته، فإما أن ينتقل إلى جبهة العدو كليًا، أو يمارس دور الاختراق في المؤسسة، فيكون صوتًا وعينًا لأولئك الأعداء، وهذا هو الأخطر، وهذا نتيجة اختيار قيادات عسكرية لا تمتلك أخلاقية العمل العسكري ولا أخلاقية السلوك القيادي، فتقع في هذه المطبات الكبيرة.

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في حكمة له: «لا يقيم أمر الله سبحانه إلاّ من لا يصانع ولا يضارع»[٤٥٥]، أي لا يقوم بأمر الله عز وجل إلاّ من توفرت فيه صفتان؛ الأولى: أنه لا يهادن في الحق، فلا يقيم أمر الله المهادن الذي يبحث عن مصلحته وليس عن المصلحة العامة، ويبحث عن دوره وليس عن الأدوار المطلوبة لتحقيق المصالح العليا، والصفة الثانية أنّه لا يضارع، أي لا يتشبّه بأهل الباطل في طرقهم ووسائلهم، لأنهم لا يملكون أي قيود ويسيئون بلا حدود؛ فيقتلون المرأة والطفل والرجل، ويغتصبون النساء، وأنت قائد عسكري على وفق الرؤية الإسلاميّة، وتتحرك من منطلقات إسلامية ووطنية، وعليك أن تنظر إلى هذه الاعتبارات والمعايير ولا تتبع المطامع.

على القائد أن لا يتبع مطامعه، ولا يبحث عن مصلحته بقدر ما يهتم بمصالح الجندي الذي يقوده، ومصالح المشروع الذي يحمله على أكتافه، ومصالح الأمة التي وضعت ثقتها فيه، ومصالح الوطن الذي كلفه بمهمة حمايته.

---

٤٥٥. نهج البلاغة ٤. ٢٦ الحكمة ١١٠.

ثانيًا : طهارة القلب

يظهر ذلك من قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : «وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً» ، الجيب كان في الصدر ، ويرمز إلى القلب نفسه ، وهي إشارة إلى طهارة القلب والنفس ، والعفة والأمانة والطهارة سمات قياديّة مهمة يجب أن توجد في من يرشح لقيادة قوة عسكرية ، وهي سمات لجميع المستويات ، ولكن أهميتها تبرز بشكل أعظم في من يكون في موقع القيادة ؛ فالانتصار يشعر القائد العسكري بالزهو والغرور إذا لم يكن يملك هذه السمات ، فلا يستطيع أن يضبط انفعالاته ، ويندفع ليعبر عن زهوه بالفتك بالناس والإساءة غير المبررة والقوة المفرطة التي لا يحتاج إليها في تحقيق أهدافه العسكريّة ، ويقع في حالة التشفي والثأر ، وهذه سمات غير مقبولة ، وحينما يكون القائد عفيفًا أمينًا طاهرًا نقيًا ، فإن «القطعة بآمرها» كما يقولون ، وعيون الجنود على قائدهم ، وحينما يتشفى القائد ويبيح لنفسه قتل الناس ، فإنه يعطي الفرصة لجميع الجنود بأن يقتلوا ويخربوا ويتجرؤوا على أعمال غير مقبولة .

لذلك فإن دور القائد يختلف عن دور الجنود ؛ فالجندي قد يخطئ ، ولكن سلوك القائد إما أن يدفع الجنود بالاتجاه الخاطئ ، أو يدفعهم باتجاه الانضباط والموقف المبدئي والخطوات المحسوبة المدروسة ، وشتان بين هذا وذاك .

إن اختلال عنصر الأمانة والطهارة لدى الجندي يكون بمقداره ؛ مثل الوساخة الظاهرية التي قد تصيب أيًا منا ، فهي واضحة ومن السهولة غسلها ، ولكن انحراف القائد العسكري مثل الالتهاب الداخلي الذي يحتاج إلى علاج ومضادات حيوية ، فهذه الوساخة الباطنية أعظم وأصعب ، حينما يكون القائد العسكري بهذه السمات .

ثالثًا : الحلم

وهو قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : «وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا» ، اختر يا مالك من يكون الأفضل في حلمه ، أي يكون حليمًا ، فالحلم والانضباط ضمانة النجاح ، لذلك على القائد العسكري أن يحكّم العقل ويتعامل بحلم ، فلا يمكن تحقيق الأهداف وإنجاح المهمة إلاّ بالحلم وسعة الصدر ، وبدون الحلم سوف تشتد الأزمات وتتعقد الأمور وتتفاقم المشاكل ، وترتبك العلاقة بين الناس ؛ فهناك الحلم من جهة ، وهناك حالات الانفعال والاستعجال والخطوات المرتجلة من جهة أخرى ، فمثلا حين تسقط قذيفة ويستشهد بعض الجنود ، على القائد أن لا يتسرع بالهجوم ، فقد تقتل هذه الخطوة المتسرعة عشرين أو ثلاثين من الأبرياء وتجرّ خطوات غير صحيحة ، فلا داعي للاستعجال والانفعال ، يجب التريث

والتعامل بحلم، ودراسة القضايا والنظر أين المصلحة، واتخاذ القرارات على أساس المصلحة، وليس بناءً على النظرة الضيقة والميول الشخصية والنزوات السلطوية.

الاستعجال يفسد جميع شؤون الحياة، وفي الشؤون العسكريّة يكون إفساده أكبر، وفي الأدوار القياديّة يكون إفساده أعظم، لذلك يجب التحلي بالحلم، فإن سرعة استخدام السلاح، واستخدام القوة المفرطة في غير مواقعها، قد تأتي بمردودات عكسية؛ فمثلا، حين يخرج الناس بتظاهرات، دعهم يعبروا عن أنفسهم واطلب منهم الالتزام بالقانون، فإن إطلاق النار المتعجل والمنفعل على جمهور متظاهر في قضية مدنية وبسيطة، مثل إطلاق رواتب أو مطلب معين، قد يؤجج الشارع ويؤدي إلى مضاعفات كبيرة، وقد لاحظنا في الثورة التونسية التي بدأت من شاب أُهين فأحرق نفسه، أحرق نفسه اعتراضًا على إهانته، واستخدام القوة من أطراف عسكرية في غير محلها، أججت الشارع التونسي كله وتم قلب النظام، لذلك فإن السلوك المنضبط والتعامل بحلم مع الأمور، من المسائل الأساسيّة المطلوبة.

ما أكثر المواقف المعارضة التي كان من الممكن أن تتفكك، بموقف هادئ وتطييب خواطر وبمعالجة معينة، ولكن استخدام القوة المفرطة أنتج ردود أفعال شديدة أخذتنا إلى مراحل جديدة، وليس بالإمكان العودة إلى المربعات السابقة، وخرجت الأمور عن سياقاتها، فالحلم قضية أساسية في الإدارة والقيادة، ولا بُـدَّ من السيطرة على حالات الغضب والهيجان النفسي والمشاعري التي يستشعرها القائد العسكري وقطعاته العسكريّة، وحينما تحصل انتصارات فلا بُـدَّ من ضبط النفس، وحينما يصدر الاعتذار من الآخرين فلا بُـدَّ من قبول العذر، إذا كان هناك مجال لقبول العذر وتهدئة النفوس، وعدم الولوج في تفاصيل قد تؤدي إلى مضاعفات تتعمق يوما بعد يوم لتخرج الأمور عن السيطرة، وكان بالإمكان السيطرة عليها.

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الحلم سجية فاضلة»[٤٥٦]، خصلة فاضلة، وقال: «الحلم تمام العقل»[٤٥٧]، حين يكون الإنسان حليمًا يبلغ قمة العقل وتمامه، وقال: «الحلم رأس السياسة»[٤٥٨]، عماد السياسة والإدارة، وقال: «من حلم عن عدوه ظفر به»[٤٥٩] انتصر عليه، فحينما تحلم عن العدو وهو يحاول أن يدفعك إلى الانفعال، ولكنك تنتظر وتقلّب

٤٥٦. عيون الحكم والمواعظ. ٦٩.
٤٥٧. ميزان الحكمة ١. ٦٨٦.
٤٥٨. عيون الحكم والمواعظ. ٢٤.
٤٥٩. كنز الفوائد. ١٤٨.

الأمور وتدعه يعاني الحيرة لا يعلم بماذا سترد، وفي أي لحظة ستباغته، ثم تتخذ الموقف بعد الدراسة، تنتصر عليه.

في رواية أخرى عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «السلم ثمرة الحلم»[٤٦٠]، إذا كنت تريد السلام والصلح، وتريد المصالحة الوطنية والتعايش بين الناس، فإن مدخل ذلك هو التعامل بحلم، فحينما تتعامل بحلم تكون قادرًا على تهدئة النفوس والوصول إلى الحلول الوسط. نسأل الله العلي العظيم أن يوفقنا إلى أن نكون من هذا الصنف.

رابعًا: الإبطاء عن الغضب

من سمات القائد العسكري التي ذكرها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه «مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ»، أي لا تستخفه حالة الغضب، فهو بطيء في انفعالاته ويسيطر على غضبه، فالعملَ العسكري يحتاج إلى رباطة جأش وسكينة، ويحتاج إلى رؤية وتقدير دقيقين للمصلحة، وهذا لا يتم بالانفعالات، لذلك يجب أن لا يكون القائد العسكري سريع الغضب والانفعال، ما إن يرى مشهدا مروعًا وهو في ساحة المعركة، كأنْ يجد أحد جنوده مقطع الأوصال على يد الإرهاب والعدو الذي ذمة له ولا ضمير، ينفعل ويتخذ قرارات ويصدر تعليمات وهو في حالة الانفعال الشديد، ويستعمل قوة مفرطة قد لا يذهب ضحيتها العدو وحده، بل تطول أناسًا أبرياء في المنطقة التي يتواجد فيها العدو، فسرعة الغضب والانفعال إشكالية كبيرة.

إن القرار المنفعل قرار لا يتسم بالحكمة الكافية؛ لأن الإنسان في لحظات الانفعال غير قادر على أن يحكّم عقله ودرايته ويتخذ القرارات الصحيحة، لذلك يجب أن يبطئ عن الغضب وأن يكون قادرا على لجم مشاعره، وان يحكّم عقله في قراراته العسكريّة وليس انفعالاته التي تحصل نتيجة لموقف يراه أو كلمة نابية يسمعها من العدو، وأحيانا يستفز العدو خصومه ليسحبهم إلى لحظات الانفعال، لكي يصدر منهم ما يسيء اليهم.

ذمُّ الغضب.. بحث روائي

عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الغضب شر إن أطعته دمّر»[٤٦١]، طاعة الغضب والانسياق وراء الانفعالات يؤديان إلى التدمير، لان الغضب يدفع الانسان لقرارات مرتجلة انفعالية،

---

٤٦٠. عيون الحكم والمواعظ. ٣١.

٤٦١. عيون الحكم والمواعظ. ٤٦.

وهذه القرارات لا يمكن أن تتفق مع العقل والحكمة والمصلحة، وأي قرار بعيد عن المصلحة من قائد عسكري له امتدادات في جنوده، وله تأثير في إطلاق النار والصواريخ واستخدام السلاح والقوة، هذا القرار ستكون له آثار مدمرة.

عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنكم إن أطعتم ثورة الغضب أوردتكم نهاية العطب»[٤٦٢]، العطب هو الفشل والانهيار والانكسار، فإذا أخذتكم حالة الغضب والانفعال، فهذا الغضب سيأخذ بكم إلى أشد حالات الانكسار، وسوف تُهزمون نتيجة تعاطيكم بطريقة غاضبة.

عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أشرف المروءة ملك الغضب وإماطة الشهوة»[٤٦٣]، أشرف حالات المروءة للإنسان، أن يكون مهيمنا ومسيطرا على غضبه، فهو يتحكم بالغضب وليس العكس، وإماطة الشهوة، أي القضاء على النزوات المحرمة، فيترك النظرة المحرمة حتى لو كان فيها لذة، ويترك سماع ما هو محرم سماعه، حتى لو كان في الاستماع إليه لذة، فيمسك نفسه ويسيطر على النزوات والغرائز المحرمة.

الغضب من جند إبليس

ورد في رسالة من أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الحارث الهمداني ينصحه فيها: «واكظم الغيظ»، يا حارث اكظم غيظك، «وتجاوز عند المقدرة»، حينما تكون مسؤولا وتقدر على أن تقتص من هذا الانسان، وأن تحرّك الوسائل المتاحة للاقتصاص منه، مع هذه القدرة تقول له عفوت عنك، كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لمشركي قريش بعد فتح مكة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[٤٦٤] وقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[٤٦٥]، فلم يقلها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حينما كان في المهاجر والمنافي، بل قالها حينما عاد إلى مكة فاتحًا ودخلها بجيش جرار، حتى أن أبا سفيان قال للعباس بن عبد المطلب: «إن ملك ابن أخيك صار عظيمًا»[٤٦٦]، وبالطبع هو لم يعرف الأبعاد الرسالية لرسول الله، بل يراه ملكًا وحكمًا وسطوة، وفي أشد حالات الاقتدار قال رسول الله لأعدائه: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

---

٤٦٢. عيون الحكم والمواعظ. ١٧٥.

٤٦٣. عيون الحكم والمواعظ. ١١٢.

٤٦٤. الكافي ٣: ٥١٣ ح٢.

٤٦٥. بحار الأنوار ٢١: ١١٧ ح٢.

٤٦٦. بحار الأنوار ٢١: ١٠٤.

«واحلم عن الغضب»، تجاوز حالة الغضب، «واصفح مع الدولة» وحينما تأتيك الدنيا وتكون في مواضع الاقتدار، في هذه الحالات اصفح وتجاوز. بالتأكيد ليس هناك قصة نجاح تخلو من المنغصات، فالناجح علميًا وعسكريًا وسياسيًا، والناجح مهنيًا وعشائريًا، أي نجاح، تقف بوجهه الكثير من المنغصات، ولكن هناك من يصل ويحمل معه جميع عُقد الماضي. . كن كبيرا واصفح وتجاوز، «تكن لك العاقبة»، هذه السمات إذا وفرتها يا حارث فإن عاقبتك ستكون حسنة وستنجح وتتفوق وتتميز وتحقق ما تريد.

«واحذر الغضب»، هنا الشاهد، «فإنه جند عظيم من جند إبليس»[٤٦٧]، احذر الغضب لأنه من أهم أدوات إبليس، فلا تقع في هذا الفخ، ولا تحكّم انفعالاتك.

وجاء في وصية أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لعبد الله بن العباس حين ولاه البصرة: «وإياك والغضب»، احذر الغضب، «فإنه طيرة من الشيطان»[٤٦٨]، الغضب خفة يوقعها الشيطان فيك، والإنسان المتزن مسيطر على انفعالاته، أما من يسيطر عليه الغضب، فهو يعاني هشاشة في الشخصية، وفتوة في التجربة.

هناك مرحلة في عمر الإنسان تسمى المراهقة، ما بين الطفولة والشباب، حين ينتقل من الطفولة إلى المراهقة فيقال أصبح مراهقًا، فلا هو شاب نتعامل معه بنضج الشباب، ولا هو طفل فنقول إنه طفل معذور، لذلك فإن أصعب مرحلة عمرية هي فترة المراهقة؛ إذ يرى نفسه كبيرا وهو في الواقع ليس كذلك، فسلوكه سلوك الأطفال ولكنه يتقمص شخصية الكبار، وهذه المراهقة ليست بالعمر فقط، فأحيانا يبلغ عمر الإنسان (٥٠) سنة، ولكنه حين يدخل معترك السياسة يُعد مراهقا سياسيا، أو يدخل المؤسسة العسكريّة وهو مراهق في الشؤون العسكريّة، ويظن أنه يفهم الكثير وهو لا يفقه شيئا، فهناك مراهق اجتماعيا، ومراهق في المهمة وفي المسؤولية التي يمارسها، فهو غير ناضج ولكنه يرى نفسه شيئا كبيرا، فقد يحصل أحدهم على ورقة توصية بتعيينه في المكان الفلاني، ويصدر الأمر الديواني بذلك، فيعتقد أنه عبقري لأنه حصل على هذه الورقة ويفقد اتزانه، والواقع أن هذه الورقة لم تزد في علمه وخبرته شيئا، وبعضهم يحتاج إلى بضعة أشهر ليفهم ماذا يعني الموقع الذي يشغله، فهذا مراهق في المهمة الموكلة إليه.

---

٤٦٧. نهج البلاغة ٣: ٣٩ الكتاب ٦٩.

٤٦٨. نهج البلاغة ٣. ١٣٦ الوصية ٧٦.

يعبّر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن حالة الغضب بالطيرة، وأنها طيرة وخفة من الشيطان تصيب الإنسان فيفقد اتزانه.

خامسًا: التسامح والتساهل

«وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ»، أي يكون متسامحًا ويقبل أدنى العذر، فهو يريد أن يحل مشكلة، ويفرض سلطة القانون وهيبته، ولا تأخذه العزة والتكبر حين يرى بيده السلاح وتحت إمرته الجنود، فهذه القوة والسطوة رهن إشارة القائد، وعليه أن يبحث عن عذر للإصلاح، فإذا كان الإصلاح يتحقق بالتلويح بالقوة دون استخدامها، فعليه أن يكتفي بالتلويح دون استخدام السلاح، وأحيانًا يتطلب الإصلاح استخدام القوة بمستوى معين دون استخدام القوة المفرطة، بل بقدر الضرورة، وما إن يرضخ الخصم ويستسلم ينبغي التوقف عن القتال.

إن قيادة الجنود والقوات المسلحة موقع حساس وخطير، ولأنه خطير يجب أن تكون صفات القائد نوعية، وجزء من هذه الصفات يرتبط بالقدرات الذاتية للشخص لكي يكون قائدا عسكريًا؛ كاللياقة البدنية، والخبرة العسكريّة في القتال، والشجاعة والبسالة والإرادة القوية لتحقيق الانتصارات في الظروف الصعبة، وحسن التدبير والقدرة على وضع الخطط العسكريّة، إلى غير ذلك من المؤهلات المطلوبة، ولكن هل نكتفي بها؟.

في جيوش العالم يكتفون بهذه المؤهلات، أما في الرؤية الإسلاميّة، فبعد إحراز الكفاءة والقدرة على قيادة المجموعة والقطعة العسكريّة، هناك سمات وشروط ترتبط بالجانب الأخلاقي؛ أي أن يمتلك الأخلاقية القياديّة والسلوك الإداري الأخلاقي، إذ يجب أن تكون لديه أخلاق في الإدارة والقيادة، وهذا شيء يختلف عن المواصفات الذاتية التي تمكّنه من قيادة العسكر مهنيًا.

إذن، يجب أن يكون القائد العسكري متساهلًا متسامحًا، يبحث عن العذر، وينتظر في أي لحظة يصل الخصم إلى الإعياء فيرفع الراية البيضاء، ليقبلها مباشرة، فليس هدفه أن يزيد عدد القتلى، بل هدفه أن يحقق العدل والإنجاز، فمن أراد العودة إلى الصواب يفتح له الباب، ليرجع من غُرّر به حين يرى فرصة وخط رجعة، أما إذا لم تترك خط رجعة، فإن أي إنسان مهما كان جبانًا ومهما كان على باطل وفاقدا للإرادة والهمة، إذا شعر بأنه ليس هناك خط رجعة فسوف يستبسل، فلا تعطه شرف القتال بشجاعة، بل افتح له الطريق وأعطه مجالًا للتراجع وتساهل وتسامح معه.

الصفح سمة الكرام

الكريم هو الذي يقبل العذر ويصفح، كما قيل: (والعذر عند كرام الناس مقبول)، فإذا كان بين جنود القائد العسكري جندي يتغيب ويتأخر، وليس هناك إنسان كامل، فسبحان من لا نقص فيه، فيجب أن يقبل عذره ويعطيه فرصة لينطلق ويأخذ موقعه، ففي مواقع الإدارة والقيادة يجب أن يكون التسامح بالشكل الذي يجعل الجميع يعيد حساباته وينضم إلى المشروع ويندفع نحوه، وهذا منهج إيجابي صحيح، وهو الحفاظ على الطاقات، فإن إنسانًا تبنيه خلال سنين، يجب إلاّ تخرجه لأنه أخطأ وتأتي ببديل، ومن هو الكامل، ومن يستطيع أن يحقق كل ما تريد؟ فكل إنسان جعل الله فيه عناصر قوة وعناصر ضعف، فلنساعد الآخرين على أن يوسعوا من عناصر القوة في شخصيتهم، ويضيقوا من عناصر الضعف.

إذا اعتذر أحدهم فاقبل عذره وأعطه فرصة، لكي تستطيع أن تنفتح على مساحة واسعة من الناس، فالعمل لا يتقدم إلاّ بالجمع بين الحزم واللين، بين التساهل والتسامح من ناحية، والشدة في الأخطاء الأساسيّة وتجاوز الخطوط الحمر من ناحية أخرى، وليس من الصحيح أن تصله العقوبة فورا ما إن يرتكب خطأ، فبهذه الحالة سوف تأخذه العزة بالخطأ ويصر عليه، ويرى نفسه على صواب، فتفقده بذلك فرصة أن يرتب أوراقه ويعيد الانطلاق من جديد.

في «بحار الأنوار» عن الإمام الحسن المجتبى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «لا تعاجل الذنب بالعقوبة، واجعل بينهما للاعتذار طريقًا»[٤٦٩]، ليس من الصحيح أن تعاقب المذنب فورًا عند ارتكاب الذنب، بل أعطه فرصة لترى ما يفعل بشأن هذا الخطأ؛ هل أصبح مدمنًا على الخطأ؟ وهل أصبح غير مكترث للخطأ والمعصية؟ وهل هناك حاجة لعقوبته؟ فإذا لم يندم ويتراجع ويعتذر فعاقبه، أما إذا أخطأ بشيء ويريد أن يرجع ويصحح، فأعطه فرصة للتصحيح.

التسامح أساس البناء الاجتماعي

إذا أردنا بناء علاقات مجتمعية وإنسانية صحيحة، فعلينا أن نبقي باب التسامح مفتوحا دائما، لأن الإنسان يخطئ ويتوهم، وتحركه انطباعات معينة في لحظة ما، فيندفع باتجاهات غير صحيحة، فهذا بشر وفي تاريخ الإنسانيّة الشيء الكثير، ولا تتوهم أن الناس يرون من حقك ما تراه أنت، فتقبّل اختلاف الناس معك، فهم بحاجة إلى وقت ليعرفوا حقك، وتجد أحدهم أحيانًا يهمس في أذنك ويقول لك: (أبرئني الذمة)، فما معنى هذا؟ إن هذا شخص

---

٤٦٩. بحار الأنوار ٧٥. ١١٢ ح٧.

أخطأ بحقك، وكانت لديه صورة خاطئة عنك في لحظة ما، وتبين له أنه كان مخطئا فتراجع عن موقفه.

أنا شخصيا كثيرا ما تحدث عندي هذه الحالة، إذ يهمسون في أذني ويقولون لي أبرئنا الذمة، ومن المؤكد أن كلًا منّا مرت عليه حالات من هذا النوع، وهذا يعني أن الكثير ممن يقفون موقفا تجاهك ليسوا مغرضين، بل مغرر بهم وحصل لديهم انطباع معين، فقدم له صورة تصحح انطباعاته عنك، وليس من الصحيح أن كل من اختلف معي فهو امبريالي وعدو للإنسانية، فربما قد التبست عليه الأمور، وفي هذه القضية محق وفي تلك غير محق، ولكن لم تصل إليه الصورة، وبدل أن أتهمه وأخوّنه أوصل إليه الصورة الصحيحة ليرى الواقع كما هو، وعند ذلك إن كان مغرضا وجاحدًا، فلن ينفع معه شيء، كما يقول تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[470]، فهذا الشخص (قافل) كما نعبر بلغتنا الدارجة، أما الأساس فإن الناس ليسوا كذلك، وليسوا متصلبين بل يبحثون عن الحقيقة، وعليك أن توصلهم إلى هذه الحقيقة.

عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أعظم الوزر منع قبول العذر»[471]، يعني أن أعظم ذنب يرتكبه الانسان أن يقطع الطريق على الاعتذار، فإن لم تعذره فاعلم أن خطأك أكبر من خطئه، لأن أعظم الوزر حينما لا تقبل عذر الآخر، فتجعله مصرًا على الخطأ ومندفعًا نحوه، أعطه فرصة وتسامح وتساهل معه.

سادسًا: الرأفة بالضعفاء

وتتجلى هذه السمة في قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ»، أن يكون ليّنا رؤوفا مع الضعيف، الذي لا يملك واسطة ولا يملك حزبا وجماعة تحميه، وليس لديه معارف أو مال يغري به أولئك الذين لديهم صوت مسموع وقوي.

رحمة الناس تستنزل الرحمة الإلهيّة

القائد الناجح بحسب الرؤية الإسلاميّة هو من يحمي هؤلاء ويهتم بهم، فهذا الاهتمام بالضعفاء وهموم الناس من قبل القائد والمسؤول في أي موقع، يوجِد حالة من التقارب والتكامل والثقة المتبادلة بينه وبين المواطنين، وستثق به الناس وتحبه وتقدره وتتمسك

٤٧٠. سورة التوبة: الآية ٨٠.

٤٧١. عيون الحكم والمواعظ. ١١٣.

به، فتبنى علاقة فيها وئام ومحبة وثقة بين المسؤول والرعية، وبين القائد العسكري والجنود الذين يقعون تحت إمرته، وهذه العلاقة تحرّك الأمور وتدعوهم إلى الانضباط أكثر بألف مرة من علاقة السطوة والخوف والرعب والقلق.

اجعل الناس تحبك يا مسؤول لتلتزم بتعليماتك وتفديك بأرواحها، لأنها وجدت فيك المصداقية والرأفة، ووجدت فيك التسامح والحرص على معالجة همومهم وقضاياهم، فالناس تبادل المسؤول المشاعر، فحين يحب ناسه ومن يقع تحت مسؤوليته ويحترمهم ويقدرهم، فإن أولئك الناس سيبادلونه المشاعر بنفس الاتجاه، فتُخلق علاقة محبة ووئام وتسامح وتساهل وثقة، وليست علاقة تسلط وهيمنة.

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في حكمة له: «رحمة الضعفاء تستنزل الرحمة»[٤٧٢]، الرحمة الإلهيّة تُستنزل حينما ترحم الرعية وتهتم بهم.

وفي حكمة أخرى له عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أبلغ ما تستدر به الرحمة أن تضمر لجميع الناس الرحمة»[٤٧٣]، أفضل طريقة تستنزل بها الرحمة الإلهيّة، أن تضمر في قرارة نفسك الرحمة والشفقة تجاه الآخرين، وتتعاطى معهم من الناحية الواقعية على أساس ذلك، وإذا تعاملت بهذه الطريقة فإن الله سبحانه وتعالى هو العليم بما في الصدور، ويعلم نيتك وقناعاتك، فإذا وجد منك الرحمة تجاه الناس، فإنه سينزل رحمته عليك أيضًا.

وقال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبة له، يشير فيها إلى الحدث المعروف الذي وقع في حينها؛ وهو هجوم الغامدي على محافظة الأنبار:

«ولقد بلغني»، يصف ما بلغه مما جرى في هذه الغارة التي نفذها الغامدي وجيشه المعتدي على أهل الأنبار، «ولقد بلغني أن الرجل منهم (جيش الغامدي) كان يدخل على المرأة المسلمة (يفتح الباب ويدخل على النساء) والأخرى المعاهدة (غير المسلمات من أهل الذمة، اللاتي يتعايشن مع المسلمين)، فينتزع حجلها (يأخذ حجلها من رجلها)، وقلبها (سوارها من يدها) وقلائدها وَرعاثَهَا (الأقراط)، ما تمتنع منه إلاّ بالاسترجاع والاسترحام»، ماذا تفعل المرأة الضعيفة أمام الجنود الذين يأخذون زينتها بالقوة والقهر، فليس لها طريق إلاّ الاسترجاع، أي أن تقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، والاسترحام، أي تطلب منهم الرحمة عسى أن يرحموها.

---

٤٧٢. عيون الحكم والمواعظ. ٢٧٠.

٤٧٣. ميزان الحكمة ٢. ١٠٥.

بعد أن يصف ما جرى في هذه الواقعة على أهل الأنبار، يقول علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فلو أن امرأ مسلمًا مات من بعد هذا أسفًا ما كان به ملومًا»، لو أن أحدًا مات بعد ما حدث أسفًا لم يكن ملومًا، فهو يرى العدو يدخل على المسلمة أو المعاهدة وينتزع حجلها أو سوارها بالقوة، وهي تسترحم من لا يرحمون، «بل كان به عندي جديرًا»[٤٧٤]، لا أكتفي بعدم لومه، بل أعذره، لأن ذلك معناه أن عنده مشاعر ويحمل هموم الناس، ولا يصبر على هذه المحنة.

سيدي يا أمير المؤمنين، إذا كان الرجل يدخل فينتزع سوارا أو حجلا أو ما إلى ذلك من زينة المرأة المسلمة أو غير المسلمة، وحريٌّ بنا أن نموت أسفا على ذلك، فأين أنت يا أمير المؤمنين ممن يعتدون على حرائرنا في مناطق من البلاد، ويسبون نساءنا ويعتدون عليهن، ويقتلون أطفالنا ويذبحون رجالنا كما يذبح الكبش بالسكين، ويفجرون بيوت أهلنا في هذه المناطق؟، ماذا علينا أن نصنع إزاء ما يحدث الآن، إذا كان حريًا بالإنسان أن يموت أسفًا على انتزاع الزينة؟.

إن علاقة الشفقة والرحمة والشعور بالمسؤولية والحرص على الناس، هي العلاقة الإسلاميّة بين المسؤول أو القائد والرعية.

سابعًا: إنصاف الضعيف من القوي

ويتبين ذلك من قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَيَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ».

بقدر ما يتواضع المسؤول للضعفاء ويرحمهم ويرأف بهم ويحل مشاكلهم ويحمل همومهم، عليه أن يكون شديدا على الأقوياء، أولئك الذين يستقوون بالمال أو السلطة أو الوجاهة أو حزب أو جماعة، ويخرقون القانون ويعتدون على الناس استنادا إلى قوة مسؤولهم، وعلى القائد أن يردعهم، فهم من يستغل السلطة والنفوذ لمآربه ومصالحه الخاصة على حساب مصالح الناس، فالمسؤول أو القائد عليه أن يكون شديدا ولا يرضخ لابتزازهم وأن يواجههم. هذا هو التوازن في الشخصية القياديّة على وفق رؤية الإسلام.

عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «ما قدست أمة لم يؤخذ لضعيفها من قويها بحقه غير متعتع»[٤٧٥]، أي غير منقوص، والأمة التي يضيع فيها حق الفقير وتعجز عن أن تأخذ له حقه كاملا من دون نقص، هذه الأمة لا تستحق القداسة، فالأمة المقدسة هي تلك

---

٤٧٤. نهج البلاغة ١. ٦٨ الخطبة ٢٧.

٤٧٥. الكافي ٥. ٥٦ ح٢.

الأمة القادرة على أن تأخذ حق الضعيف بالكمال والتمام من القوي وتعيده للضعيف، فالضعيف لا يسير مطأطئ الرأس، بل هو مرفوع الرأس وقوي بقوة الحق الذي معه، وليس قوة السطوة والقدرة والهيمنة، فهو قوي لأنه صاحب حق، والأمة التي تستخلص حق الضعيف من القوي، هذه الأمة تستحق القداسة.

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في إحدى خطبه: «الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه»[٤٧٦]، هذا هو المنهج والسمات القياديّة في رؤية الإسلام، فحينما تكون في مواقع القيادة وتتسم بهذه السمة المهمة، فلا أحد يطمع أو يسمح لنفسه بتجاوز الحدود، ومهما كانت له من وجاهة لا يجرؤ على الإساءة إلى الناس والاعتداء على ممتلكاتهم.

ثامنًا: سعة الصدر

وتتضح هذه السمة في قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَمِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ الْعُنْفُ».

ينبغي للقائد العسكري أن لا يندفع إلى المواقف المتشددة، فأحيانا يسعى الخصم لجرّك إلى الانفعال، فيشتمك ويخرج في الفضائيات وينال منك، ويريدك أن تتكلم أيضا وترد عليه بنفس النبرة، ليحدث «عراك ديكة» ويضيع الحق في الصراخ والضجيج، فهذا يصرخ وذاك يصرخ، فيقال تعبنا من السياسيّين وعراكهم المستمر، وتكثر الأقوال من هنا وهناك، حتى تنتهي إلى ظهور انطباع أنهم جميعا (حرامية) ولا يخجلون، وهذه الـ (كلهم) هي هدفه، فهو ليس طامعا بثقة الناس، بل يريد أن يسقط الثقة بالصلحاء ومن يستحق الثقة، وإذا أسقط ثقتهم بالناس وثقة الناس بهم فقد حقق ما يريد، والناس تسبه على كل حال وتعرف أنه عدو، فهو لا يخسر شيئا، ولكنه يعمل على اختلاق المشاكل والشجار.

إن إجابة المتشددين بصوت متشدد، والرد على الشتيمة بالشتيمة، أمرٌ قد يدفع الناس في لحظتها إلى التصفيق له ووصفه بأنه قوي، وتجد البعض يقول: لماذا الانبطاح؟ نحن لسنا ضعافًا، ويجب الرد عليهم.. وهكذا يجرون المسؤول إلى الرد، ولكن الحصيلة أن الذين شجعوه أنفسهم يرون أن الصورة العامة مليئة بالضجيج، وتخوين كل طرف للطرف الثاني، فتهتز الثقة بالجميع، وحينها يربح العدو، ويكون الخاسر هو القوى الوطنية التي تحمل همّ الوطن، ويخسر صاحب المشروع الذي يخدم الناس

٤٧٦. نهج البلاغة ١. ٨٩ الخطبة ٣٧.

حينما تحصل أزمة الثقة والفجوة بينه وبين الناس، فالمطلوب هو سعة الصدر والقدرة على تحمل المنغصات وإساءات الأعداء.

لاحظوا كيف كان علي عَلَيهِ السَّلَامُ يتعامل مع الكلمات الجارحة في النهروان، حيث قاتل الخوارج، والخوارج هم (داعش) ذلك الزمان ويحملون نفس سمات الدواعش، فهؤلاء خارجيون تماما، فإن ظاهرهم حق وعبادة وبكاء ودفاع عن الدين والمبادئ، وهذا الظاهر مغرٍ جدا، ولكن واقعهم قراءة مغلوطة للدين وفهم خاطئ ونظرة ظلامية، فيسيئون للدين ولأنفسهم بهذا التعنت وهذا الفهم المعوج، وهذه هي ظاهرة الخوارج، فحينما قاتلهم جاءت نساء أولئك المقتولين وأخذن يشتمن عليًا عَلَيهِ السَّلَامُ فلم يرد عليهن، بل أوصى أصحابه بألاّ يخرجوا من طورهم وان يضبطوا أنفسهم ولا يردوا عليهن، حتى لو كانت هذه زوجة عدو قاتلناه للتو، هكذا تعاطى علي عَلَيهِ السَّلَامُ معهن.

أحيانا يتطلب الأمر الإهمال وأحيانا يتطلب التأجيل، فهي لحظة انفعال ولا يجب الرد عليها، فأنت إذا أجبته بمثله فقد استدرجك إلى صراع لا أحد يستفيد منه، وإذا أردت أن تفهّمه شيئا فإن الصخب سيمنعك، فدع الأمور تبرد قليلا حتى يأتي وقتها واصبر وتحمل، وبهذه الطريقة تفكك الموقف، وتحافظ على تماسك الأمة بالاتجاه الصحيح، فلا تضيع البوصلة واتجاهها، فكم تحمل أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ من أولئك الخوارج، إذ كانوا يسيئون إليه ويشتمونه ويقاطعونه في خطبه وصلاته، فيتحمل ويصبر ولا يرد عليهم.

في إحدى المرات كان أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ يخطب، فقام أحدهم وقال كلمة الخوارج الشهيرة: (لا حكم إلا لله) ـ ومن قال إن الحكم ليس لله؟ إنها كلمة حق يراد بها باطل، وهل كان علي يحكم بغير حكم الله؟ ـ فسكت علي عَلَيهِ السَّلَامُ احترامًا، وحين أراد أن يواصل قام شخص آخر وقال: «لا حكم إلا لله»، فسكت أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ، ولمّا أراد أن يبدأ قام آخر وآخر، إذ كانوا متوزعين في المسجد، وكلٌ يقوم من مكانه ويقول: «لا حكم إلاّ لله»، ليقاطعوا عليًا عَلَيهِ السَّلَامُ ولا يسمحوا له بالتركيز ويشتتوا أنظار الناس، ولكنه لم يقل أمسكوهم وضعوهم في السجن، بل قال: «حكمَ الله أنتظر فيكم»، أنا قادر على أن أفعل ما أفعل بكم، ولكني انتظر حكم الله، فإن قولكم هو «كلمة حق يلتمس بها باطل»، هذه لقلقة لسان لا تعرفون معناها، وتوظفونها توظيفا خاطئا وتستخدمونها في غير محلها.

«أما إن لكم عندنا يا معشر الخوارج ثلاثًا»، لكم علينا ثلاثة حقوق، «لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه»، لن نمنعكم من دخول المساجد، «ولا نمنعكم الفيء»، إيرادات الدولة، «ما دامت أيديكم مع أيدينا»، ما دمتم تقاتلون معنا عدوّنا المشترَك، فبحكم هذا

القتال المشترك تحظون بحقوق المواطنة، «ولن نقاتلكم حتى تبدؤونا»[٤٧٧]، لا نبدؤكم بقتال حتى تقطعوا الطريق وتشهروا السلاح، فحينها سنقاتلكم، وهذا ما حصل، فقد تحملهم طويلا إلى معركة النهروان، حينما قطعوا الطريق وحملوا السلاح وأربكوا الأمن، حينئذ جيّش علي عَلَيْهِ السَّلَامُ الجيوش وقاتلهم وهو يقول: «لا تقاتلوا الخوارج من بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه»[٤٧٨]، هم يفهمون الأمور فهمًا مغلوطًا ومغرر بهم، وقاتلناهم لأنهم حملوا السلاح، فلا تقاتلوهم بعدي إذا رموا السلاح.

وفي حادثة أخرى، كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يصلي صلاة الصبح في المسجد، وإذا بابن الكواء، وهو من الخوارج، يقاطعه من الخلف في أثناء الصلاة ويقرأ بصوت عالٍ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إليك وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٤٧٩]، وكان يحاول أن يطبق الآية على علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ويتهمه بالشرك، وبأنه من الخاسرين، وحين كان يقرأ الآية بصوت مرتفع من الخلف، كان علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يصمت احترامًا لتلاوة القرآن، وحين ينتهي يواصل الصلاة، فيعيد الكرة فيسكت أمير المؤمنين احترامًا، مرة بعد أخرى، حتى أجابه أمير المؤمنين في أثناء الصلاة بتلاوته الآية الشريفة من سورة الروم، ونعرف أن تلاوة القرآن لا تبطل الصلاة، : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[٤٨٠]، يعني لست أنا المشرك بل الصابر، وسيأتي وعد الله قريبًا، فصمت ابن الكواء واستمر علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في أداء صلاته[٤٨١].

تاسعًا: حزمٌ في لين

ويظهر ذلك من قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ».

يجب أن يكون القائد العسكري مرنًا متساهلًا متسامحًا، ولكن ليس على حساب الأهداف التي وضعت للمعركة، فهذا التسامح ليس تساهلا في تحقيق الأهداف أو في الوصول إلى المصالح العليا التي دعت إلى المعركة، فيجب ألا تحول المرونة دون تحقيق الأهداف، فالمرونة والخلق الكريم مدخل حقيقي لبناء قاعدة شعبية واسعة داعمة للقوات المسلحة في أداء واجباتها، والمرونة ناتجة من المنظومة الأخلاقية التي

٤٧٧. الإيضاح لابن شاذان. ٤٧٤.
٤٧٨. نهج البلاغة ١. ١٠٨ الخطبة ٦١.
٤٧٩. سورة الزمر: الآية ٦٥.
٤٨٠. سورة الروم: الآية ٦٠.
٤٨١. بحار الأنوار ٣٣. ٣٤٤ ح٥٨٧.

تمنع استخدام العنف والقوة المفرطة إلاّ عند الضرورة القصوى، وبدونها لا حاجة لهذا الأمر.

المرونة لتقليل الخسائر المعنوية في المعركة، وتحقيق الإنجازات بأقل التبعات والخسائر والغضب الشعبي أو ما إلى ذلك في المناطق التي تدور فيها المعارك، إذن فالهدف من المرونة يتعلق بأبعاد أخلاقية وسلوكية وأهداف ترتبط بالتواصل مع الناس، ولكنها لا تعني بحال من الأحوال التساهل في تحقيق الأهداف والغايات، والدفاع عن المصالح العليا التي أوجبت هذه المعارك، فيجب ألاّ تستغل الشفقة واللين والرأفة لدى القوات المسلحة لفرض أمر واقع على خلاف المصالح، وهذا ما يعبر عنه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في مواقع أخرى: «حزم في لين»[٤٨٢]، فهناك لين ومرونة، ولكن مرونة الحازم ومن يفكك الملفات ويفرز بين الأمور؛ ففي ما يرتبط بالناس فهو متساهل ورحيم وودود معهم، وفي ما يرتبط بالأهداف فهو صلب في تحقيقها.

يجب ألاّ تتحول حالة المرونة والشفقة إلى ذريعة للتقليل من قيمة الحدث والتساهل في تحقيق الأهداف، فيضيع العمل العسكري، فهناك قتال وهناك أهداف نبيلة، هي إقصاء العدو وتمكين الناس وإعادة الأمن والاستقرار اليهم، والعمل العسكري يحتاج إلى شدة وحزم، ولكن حزم المتسامح؛ حزم اللين مع الناس، والحازم مع العدو، كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[٤٨٣]، وهذه ليست ازدواجية، بل عين التوازن أن يفكك الإنسان الأمور، فيكون ليّنًا مع من يستحق اللين، وهم المواطنون الأبرياء الذين ليس لهم ذنب في هذه الأمور، وشديدا وصلبًا مع من يستحق ذلك، وهم الأعداء والخصوم.

شجاعة في حكمة

لاحظوا هذه الكلمات من كتاب وجهه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى كل من زياد بن نظر وشريح بن هاني، وهما من القيادات الوسطية في مقدمة الجيش، وبعدها أراد إرسال القائد إلى المعركة، وهو مالك الأشتر، فأرسل لهما أمرًا عسكريا جاء فيه: «وقد أمّرت عليكما وعلى من في حيزكما مالك بن الحارث الأشتر»، أي القوات التابعة لكما، «فاسمعا له وأطيعا»، في سلسلة المراتب، كل قائد أعلى يجب أن يُطاع ويُسمع له من قبل المراتب

---

٤٨٢. بحار الأنوار ٧٥. ٢٥ ح ٨٩.

٤٨٣. سورة الفتح: الآية ٢٩.

الدنيا، فاسمعوا له وأطيعوا أوامره التي يصدرها والتزموا بها، «واجعلاه درعًا ومجنًّا»، أي وقاية، ويعني التفوا حوله وتمسكوا به، فهو القائد ويجب أن يطاع من قبل الآخرين، «فإنّه ممن لا يُخاف وهنُه»، مالك الأشتر، قائد قوي شجاع مقدام ليس به ضعف، فالقائد الضعيف لا يفيدنا في ساحة المعركة، «ولا سقطتُه»، لا يُخشى من سقطاته وأخطائه، فهذا رجل مخضرم لا يرتكب أخطاء ستراتيجية، والقائد المحنك هو الذي يستطيع أن يضع خططًا صحيحة في الحرب ويحقق الانتصارات.

«ولا بطؤُه عمّا الإسراع إليه أحزم»، لا يبطئ ولا يتساهل ولا يضعف في موقع يتطلب الحزم، «ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أنبل»[٤٨٤]، المسألة ليست في السرعة، بل كيف تحقق الانتصار بأقل الخسائر، فإذا كنّا نستطيع أن نحقق الهدف بوقت أطول بأقل الخسائر، فليس من الشجاعة أن يلقي الانسان بنفسه إلى التهلكة، بل الشجاعة أن يضحي حينما يتطلب الأمر التضحية، وفي المقابل يكون هادئا ومحتاطًا ويحافظ على الأرواح.

عاشرًا: الالتصاق بذوي المروءات والأحساب وأهل البيوتات الصالحة

من السمات المهمة في اختيار القادة العسكريين، هي اختيارهم من أهل المروءات، أو من أهل الحسب والنسب، أو من أبناء البيوتات الصالحة، وهو قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ».

إذا ما توفرت في مجموعة من العسكريين السمات التي ذكرناها سابقًا، فاختر منهم من كان صاحب مروءة ونخوة وشهامة، أو من كان منهم من أبناء العوائل ذات الحسب والنسب التي تحافظ على سمعتها وشرفها، وتسعى لتعزيز ذلك من خلال تسجيل المواقف المشرفة، أو من أهل البيوتات الصالحة المعروفة بالتدين والصلاح، فإن مثل هؤلاء الأشخاص هم القادرون على الصمود والتصدي للأعداء وإلحاق الهزيمة بهم.

دور الوراثة والتنشئة الأسرية

يأمر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الوالي والحاكم أن يلتصق - والتعبير بالالتصاق لا يفوقه تعبير في شدة القرب - بأهل الفئات الثلاث الذين ذكرهم لمالك الأشتر، وهم ذوو المروءات وأهل الحسب والنسب وأهل البيوتات الصالحة، فالقيادة موقع حساس، ولا

٤٨٤. نهج البلاغة ٣. ١٤ الكتاب رقم ١٣.

سيَّما القيادة العسكريّة، فإن أرواح الناس بيد هذا القائد، وقد يدفع بهم إلى التهلكة، أو يحافظ على أرواحهم، فمن يكون في موقع القيادة يجب أن يتسم بسمات استثنائيّة على المستوى الشخصي والتربوي، ويجب أن يكون كفوءًا وقديرًا في تحمل هذه المسؤوليات الجسام.

لقد أثبتت التجارب الإنسانيّة أن الوراثة والتربية والتنشئة الأسريّة لها دور كبير ومهم في الإعداد النفسي للإنسان، وهذا لا يعني أن جميع أبناء البيوتات والأسر والعشائر الكريمة هم أصحاب شأن وشجاعة وإقدام، وكذلك لا يعني أن الشخص إذا لم يكن ينتمي إلى أسرة أو عشيرة كبيرة ومرموقة، فهذا لا يمكن أن يكون من ذوي السمات المميزة، ولكن في الأعم الأغلب يمكن التعويل على أبناء الأسر الشريفة والمعروفة والعشائر الكبيرة، ويمكن الاعتماد عليهم في إناطة المهمات والواجبات الكبرى بهم. إذن من كان من أبناء (الحمولة)، وكانت عينه مملوءة، كما نعبّر، ورأى الحياة واختبر الأمور، مثل هؤلاء الناس يمكن الاعتماد والتعويل عليهم، فانتخب من القادة العسكريين من يكونون بهذه السمات.

أحد عشر: التأريخ المشرِّف

ويتجلى ذلك في قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ».

يجب أن يكون القائد من ذوي السوابق الحسنة والتأريخ الناصع، يعني ألاّ يكون ذا سابقة سيئة وفي تاريخه انحرافات ونقاط سوداء، وليس صحيحًا أن نقول: «عفا الله عما سلف ويجب إرجاعهم»، فإنّ (عفا الله عما سلف)، تعني أن تعطيه فرصة للحياة، أما أن تعطيه قيادة الجيش بالرغم من تأريخه السيئ فهذا لا يصح، ويؤدي بنا إلى ما وصلنا إليه من الانهيارات التي نراها اليوم، لأن الراية سُلمت لمن لا يستحق؛ إذ إن عددًا من القيادات العسكريّة لم يكونوا من ذوي السوابق الحسنة، فكانت هذه النتائج والمعطيات الكارثية.

ولا يكفي ألاّ يكون ذا سابقة سيئة، ولا يكون تاريخه سيئا، بل يجب أن يكون له تاريخ ناصع وحافل بالإنجازات، فهو ليس مقاتلا عاديا، بل ضابط تريد أن تؤمره على قطعات عسكرية وتسلم أرواح المقاتلين بيده، فمن يؤتمن وتسلم له الراية يجب أن يكون صاحب تأريخ مشرف، وقام بأدوار كبيرة وسجل مواقف خالدة، وحقق إبداعًا وتكتيكات عسكريّة فذة في ظروف سابقة.

اختر المجرب وضعه في موقع القيادة والإدارة، أي صاحب التدبير والإبداع وبُعد النظر والحكمة والشجاعة والبسالة والقدرة على التخطيط والإدارة، هذه هي المؤهلات التي يجب أن تختار على أساسها.

اثنا عشر: النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة

وهو صريح قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ».

أي اختر أهل النخوة والشجاعة والكرم وسماحة الطباع، «فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ»، هؤلاء مجموع من الكرم، «وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ»، أي من المعروف.

إن السمات الأخلاقية شرط أساسي في القائد العسكري، فإذا أردت نجاحا مضمونا وإقداما في المعارك وانتصارات متلاحقة، فعليك أن تختار أهل النخوة والشجعان الأبطال، وليس من يكون أول الفارين والجندي يرجوه ليبقى، ولكنه يركب سيارته ويهرب خائفًا مرتجفًا كالسعفة. العار والشنار لمثل هؤلاء الضباط، وكلّ قطرة دم نريقها اليوم لاستعادة شبر من الأرض وقع تحت هيمنة الدواعش، نتيجة جُبن بعض القادة العسكريين، فهؤلاء يتحملون مسؤولية هذه الدماء.

إن الشجاعة والنخوة والسماحة والكرم والإقدام، هذه السمات الأخلاقية، تعبر عن ملمح مهم من ملامح الشخصية القياديّة، وعندما نضع شخصًا في موقع القيادة العسكريّة، فعلينا أن نحرص على أنه (جِماعٌ من الكرم)، فهذه السمات الأخلاقية تمثل مجمع الكرم، والإنسان الشجاع المقدام والكريم وصاحب النخوة والسماحة، هو الذي يمكن الاعتماد عليه في قيادة المعركة.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في إحدى خطبه: (ثم إياكم وتهزيع الأخلاق)، احذروا الانكسار والانهيار الخلقي في أثناء المعركة، بأن تجد الجنود يقاتلون ويستشهدون، بينما الضابط متفرغ لليالية الحمراء، أو يرتكب انحرافات أخلاقية أو يقوم بأفعال مشينة، ولا يهمه أن يُقتَل الشباب الشجعان المنتسبون للقوات المسلحة وتُراق دماؤهم، وبالطبع نحن لا نعمم، وليست هذه السمة العامة، فهذه الانتصارات التي تتحقق اليوم دليل على وجود قادة بارعين، ولكن هناك من فيه مثل هذه السمات، وكان سببًا في انتكاسات كبيرة حصلت في الأشهر الماضية.

«وتصريفها»[٤٨٥]، حالة التلون والنفاق والازدواجية، فيظهر أمام الآخرين بمظهر البسالة والشجاعة، وفي المعركة تجده أجبن من الجبان، ولا يتخذ موقفًا ويهرب من ساحة المعركة ويتخلف عن أداء الواجب، وشتان بين هذا وبين هؤلاء الذين نحتاج إليهم، ممن يحملون سمات القادة الأبطال الذين يقاتلون بشجاعة دفاعًا عن الوطن.

هذه هي السمات الاثنتا عشرة التي ذكرها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ للقيادات العسكريّة الوسطية، ولا بُدَّ من أن تكون محط اهتمامنا ونحن نعيد بناء جيشنا ونستعد لبناء قوات مسلحة متنوعة، من الحشد الشعبي والشرطة الاتحاديّة والعشائر الأصيلة إلى غير ذلك من المسميات، وجميعهم مورد الإشادة والتقدير لما يبذلونه من جهود، فهذه السمات تضمن لنا قادة عسكريين يحققون انتصارات متلاحقة.

٤٨٥ . نهج البلاغة ٢ . ٩٣ الخطبة ١٧٦ .

المقطع الثامن عشر

مسؤوليات القادة العسكريين تجاه المستويات الدنيا

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«ثُمّ تَفَقّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقّدُهُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا ، وَلاَ يَتَفَاقَمَنّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوّيْتَهُمْ بِهِ ، وَلاَ تَحْقِرَنّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلّ ، فَإِنّهُ داعِيَةٌ لَهُمْ إلى بَذْلِ النّصِيحَةِ لَكَ ، وَحُسْنِ الظّنّ بِكَ ، وَلاَ تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتّكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا ، فَإِنّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعًا لاَ يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ ، وَلْيَكُنْ آثَرُ رُؤوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ بِمَا يَسَعُهُمُ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِم حتى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمًّا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعَدُوّ ، فَإِنّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ ، وَإِنّ أَفْضَلَ قُرّةِ عَيْنِ الْوُلاَةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلاَدِ ، وَظُهُورُ مَوَدّةِ الرّعِيّةِ ، وَإِنّهُ لاَ تَظْهَرُ مَوَدّتُهُمْ إلاّ بِسَلاَمَةِ صُدُورِهِمْ ، وَلاَ تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إلاّ بِحِيطَتِهِمْ عَلَى وُلاَةِ أُمُورِهِمْ ، وَقِلّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدّتِهِمْ ، فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثّنَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلاَءِ مِنْهُمْ ، فَإِنّ كَثْرَةَ الذّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشّجَاعَ ، وَتُحَرّضُ النّاكِلَ ، إنْ شَاءَ الله ، ثُمّ اعْرِفْ لِكُلّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى ، وَلاَ تَضُمّنّ بَلاَءَ امْرِئٍ إلى غَيْرِهِ ، وَلاَ تُقَصِرَنّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلاَئِهِ ، وَلاَ يَدْعُوَنّكَ شَرَفُ امْرِئٍ إلى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلاَئِهِ مَا كَانَ صَغِيرًا ، وَلاَ ضَعَةُ امْرِئٍ إلى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلاَئِهِ مَا كَانَ عَظِيمًا ، وَارْدُدْ إلى الله وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الأُمُورِ ، فَقَدْ قَالَ الله سبحانه لِقَوْمٍ أَحَبّ إرْشَادَهُمْ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ، فَالرّدُّ إلى اللهِ : الأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ ، وَالرّدُّ إلى الرّسُولِ : الأخْذُ بِسُنّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرّقَةِ» .

الدرس الثاني والأربعون

مسؤوليات القادة العسكريين تجاه المستويات الدنيا

يستعرض أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في المقطع الثامن عشر من عهده لمالك الأشتر حين ولاه مصر، مسؤوليات القيادات العليا تجاه القادة الأدنى في المؤسسة العسكريّة؛ كمسؤوليات القائد العام تجاه قادة الفرق الذين يرعاهم بشكل مباشر، ومسؤوليات قائد الفرقة تجاه أمراء الألوية، ومسؤوليات آمر اللواء تجاه أمراء الأفواج والسرايا، وما إلى ذلك، ونبدأ بشرح نبذة من هذه العبارات العميقة، ثم نستخلص هذه المسؤوليات وآثارها في نقاط محددة.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا»، لقد أرسلناك قائدًا أعلى للقوات المسلحة في مصر، فأنت ستكون والي مصر وحاكمها، وهناك القادة العسكريون الذين يتوجب عليك أن تتفقد أمورهم وتطمئن على أحوالهم، وتتأكد من توفر احتياجاتهم، بالطريقة التي يتفقد بها الوالدان ولدهما، فالقيادات العسكريّة أبناء الدولة، وعلى القائد الأعلى أن يرعاهم كما يرعى الأب والأم أولادهما.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ»، لا تستكثر أن تقدم لهم العون، ولا تقل هذا كثير عليهم. لا تستكثر توفير الخدمة الملائمة لهم.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ»، وفي الجانب الآخر، لا تقلل من قيمة أي رعاية أو اهتمام أو تفقد أو إشارة اهتمام تخص هؤلاء، وحاول أن تشعرهم بالاهتمام، وقد يقول البعض إن هذه القضايا بسيطة، وهذا يقلل من قيمة الجوانب الروحية والمعنوية، مع أنها شيء مهم.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ»، هذا التفقد في كبائر الأمور، كالتجهيز والتسليح والتدريب وتوفير الاحتياجات الحياتية إلى غير ذلك، أو في صغائر الأمور الجزئية التفصيلية، يدفعهم إلى أن ينصحوك ويقفوا معك.

لا تستطيع أن تقاتل وتنتصر من دون هؤلاء، فأنت تنتصر بهم، وعلاقة المحبة والمودة والتفقد والرعاية والاهتمام، تجعلهم يرتبطون بك ويقدمون النصيحة الصحيحة لك.

قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ»، يحبونك ويحسنون الظن بك ويتعلقون بك.

قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وَلَا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتِّكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا»، لا تترك صغائر ولطائف الأمور والاهتمامات الخاصة، ككتاب شكر أو اتصال أو رعاية أو تفقد مريض أو ما شابه. أي لا تترك شؤونهم الشخصية، متكلًا على كبائر الأمور والقضايا الأساسيّة.

قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ»، هذه القضايا البسيطة التفصيلية لها مكانة في نفوسهم، وتنفعهم وتشد من عزيمتهم وتدفعهم لمزيد من الإصرار والحماسة لأداء واجباتهم.

قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ»، ومعالجاتك المهمة في القضايا الأساسيّة لها موقع لا يمكن الاستغناء عنه، فلا تترك صغائر الأمور لكبائرها، ولا تترك كبائر الأمور باهتمامك بالتفاصيل، فهؤلاء القادة يحتاجون لكلتا الحالتين والاهتمامين.

مسؤوليات القائد الأعلى تجاه القادة الأدنى

تشير العبارات الكريمة السابقة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى ثلاث مسؤوليات للقائد الأعلى:

المسؤولية الأولى: التفقد والرعاية والاهتمام

في قوله: «تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا»، وتفقد الوالدين لولدهما فيه جانبان؛ جانب محبة وشفقة وتعبير عن الاهتمام والاحترام والتقدير والرعاية، والجانب الآخر هو الرصد والتدقيق والتأكد من سلامة السلوك والأخلاق، أي كيف يتصرف وكيف يتعامل، هذه مسؤولية الآباء والأمهات؛ أن يرعوا أبناءهم بالرصد والتدقيق من دون التدخل في شؤونهم وإشعارهم بأنهم تحت مجهر الرقابة، فهذا التدقيق في أفكارهم وسلوكهم وتعاملهم وأقوالهم، شيء مطلوب وضمن الحرص من الأب والأم؛ ألاّ يهملا ويتركا أبناءهما يتصرفون كيفما يشاؤون، بل يهتمان بهم، وكذلك القائد الأعلى عليه أن يرعى قادته الميدانيين، أي يرعى المستويات الأدنى؛ كيف يفكرون؟، وماذا يعتقدون؟، وما هي انطباعاتهم؟، وما هو سلوكهم؟، وكيف يتعاطون مع الجند؟، وهناك تفقد في البُعد المشاعري، يخص العواطف والمحبة والعلاقة الإيمانية القائمة

على أساس الرحمة والشفقة واللين إلى غير ذلك، فلا بُدَّ من الاهتمام بكلا الأمرين، وهي مسؤولية أساسية من القيادة العليا تجاه القيادات الأدنى.

المسؤولية الثانية: الدعم في القضايا الأساسيّة

في قوله: «وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ»، فالمسؤولية الثانية أن يقوم بدعمهم في القضايا الأساسيّة التي يحتاجون اليها.

إن الأمن شريان الحياة في أي بلد، وإذا أردنا عملية سياسيّة مستقرة، فيجب أن نوفر بيئة آمنة، وإذا أردنا اقتصادا منتعشا، فعلينا توفير الأمن، ليعمل رجال الأعمال والمقاولون في بيئة آمنة، وإذا أردنا بيئة ثقافية نامية ومؤثرة في مجتمعها، فعلينا توفير الأمن، ليستطيع المحاضر أن يحاضر، ويمكن للدورات أن تُعقد، والمدارس والجامعات والمعاهد أن تمارس مهماتها ومسؤولياتها، وكذلك المساجد والكنائس ودور العبادة إلى غير ذلك، فكل المهمات والمسؤوليات مرتبطة بالجانب الأمني، لذلك علينا أن نهتم بالأمن، والاهتمام بالأمن يبدأ من الاهتمام برجال الأمن وبالقيادات العسكريّة والأمنية، فلا تستكثر عليهم الرعاية لأحوالهم الخاصة؛ رواتبهم وسكنهم واحتياجاتهم، وفي متطلبات نجاح مهمتهم العسكريّة، من السلاح والعتاد والمؤن وتجهيز المواد الغذائية إلى غير ذلك مما يحتاجون إليه. لا تستكثر على القوات المسلحة أن يُنفق عليها بما يحقق احتياجاتها، وبما يجعل أبناءها قادرين على أداء واجباتهم، ليمارسوا هذا الدور براحة نفس وطيب خاطر إلى غير ذلك.

المسؤولية الثالثة: الاهتمام بالقضايا التفصيلية

في قوله: «وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ»، إن الاهتمام بالقضايا الكبيرة لا يمنع من الاهتمام بالقضايا التفصيلية؛ كوقفة اهتمام واحترام لآمر سرية أو آمر فوج أمام جنوده ومقاتليه، أو تقدير الموقف البطولي والشجاع، فالإنسان بطبعه يحب أن يُشكر ويُقدر، فحينما يكون لأي من القادة إنجاز حققه، ثم يأتي القائد الأعلى ويكرم ويكافئ ويشكر ويقدر ذلك الإنجاز، فهذا له تبعات وتأثيرات نفسية إيجابية وطيبة في نفس هذا القائد العسكري.

هناك جناحان يجب أن نطير بهما في الرعاية؛ هما تلبية الاحتياجات الكبيرة، وعدم التغافل عن القضايا النفسية البسيطة، فقد ينكسر القائد نفسيًا في شيء يمكن أن يؤثر في

أدائه في ساحة المعركة وحماسه في القتال، فيجب أن تعالج هذه التصدعات والجروح النفسية مهما كانت بسيطة، وهذا مكمل لذلك الاهتمام والرعاية في القضايا الكبيرة والأساسيّة.

آثار القيام بهذه المسؤوليات

إن القيام بهذه المسؤوليات الثلاث له آثار وتبعات، هي:

أولًا: «فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ»، من آثار رعاية القائد الأعلى للقيادات الأدنى، أن يخلق ذلك عندهم حسن الظن بالقائد الأعلى فيتمسكون به، ويلتفون حوله ويطيعونه وينصحونه ولا يجاملونه على حساب الحقائق، ولكن إذا لم يكن هناك حسن ظن بالقائد الأعلى من قبل قادته الأدنى، وهو لا يعلم ظروفهم وأحوالهم ومشاق المعركة العسكريّة، بل يكتفي بإصدار التعليمات والعقوبات، وليس عنده غير ثقافة العقوبة وتحميلهم المسؤولية، وهو (النبي المعصوم) الذي لا يتحمل أي تبعات، إذا كان ذلك، فلن يكاشفوه بالحقائق، وسوف يُسمعونه ما يعجبه من تقارير كاذبة عن نتائج المعارك، خوفًا من أن يسيء إليهم أو يحمّلهم المسؤولية، فالقسوة والشدة والفجوة بين القائد الأعلى والقيادات الأدنى توجِد مثل هذه الحالات، فليس هناك حسن ظن وانفتاح وجرأة في بيان الحقائق، وبالتالي تكون نتيجة هذه التقارير غير الصحيحة والعلاقة غير الودية هي الهزيمة والانكسار في المعركة، بخلاف نتائج وجود هذه الرعاية؛ إذ سيحسنون الظن به ويحبونه ويصارحونه ويعتبرونه كأخيهم الكبير، ويقولون له الحقائق ويطرحون له المعوقات كما هي، ولا يجاملونه على حساب المعركة والانتصار فيها، وتتعمق الثقة والعلاقة فتكون علاقة مودة ومحبة وأُخوّة تجاه أخيهم الكبير. هذه هي العلاقة التي ينظر إليها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتمثل الرؤية الإسلاميّة.

ثانيًا: «وَلَا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتِّكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ»، هذا هو التكامل، إذ يجب ألاّ يقول لقد أعطيتك راتبًا ووفرت لك العتاد، فماذا تريد مني أكثر من هذا؟.. يريد منك عطفًا واحترامًا ومودة واهتمامًا، وهي لا تغني عن تلك، فالراتب بمكانه، والسلاح والعتاد والتجهيز والتدريب بمكانها، والمشاعر والعواطف وعلاقة المحبة والتراحم بمكانها أيضا، وهذا لا يغني عن ذاك، بل تتكامل الأدوار حينما يجتمع الأمران مع بعضهما.

المسؤولية الرابعة : المفاضلة بين القادة

ويظهر ذلك في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ : «وَلْيَكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ» ، أيها القائد الأعلى ، فاضل وميّز بين قادة الجنود ، وبين أمرائك الذين تحت إمرتك ، على أساس مواساتهم لمقاتليهم وجنودهم ومساعدتهم وإعانتهم لهم ، هذا هو الأساس ؛ يجب أن تميّز أكثرهم التصاقا بمقاتليه وأكثرهم معونة وإسنادا لجنده ، فمن كان كذلك فميّزه واشكره أمام الآخرين وفضله على باقي الأمراء .

حين يأتي آمر لواء أو قائد فرقة ويرى آمر فوج مهتمًا بجنوده جدا ، ومتواضعًا وميدانيًا يعيش مع مقاتليه ويخدمهم ويساعدهم ويرعاهم ، فعليه أن يفضله على أمراء الأفواج الآخرين ويشكره ويقدره ، ليخلق حافزا ودافعا لأمراء الأفواج أن يلتصقوا بجنودهم ويواسوهم لكي يحظوا أيضا بالتفضيل والرعاية من القائد الأعلى .

«وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ» ، يواسيهم ويساعدهم ويعينهم بماذا؟ بأن يفيض عليهم من جِدَتِه ، أي مما يوجد عنده ، فحين يكون عنده مال يعطيهم منه ، وحين تكون عنده صلاحيات يستخدمها لتوفير متطلباتهم واحتياجاتهم ، وإذا تطلبت هذه الاحتياجات متابعة ، يهتم بها ويسعى في قضائها ، فيتابع أمور مقاتليه ومشاكلهم وكأنّها مشكلته هو . إذن على الآمر أن يتابع ويحل مشاكل جنوده ويستخدم صلاحياته لمعالجة أمورهم ، ويعطيهم بحسب ما يتوفر لديه من إمكانات .

«بِمَا يَسَعُهُمْ» ، بما يلبي حاجتهم ويوسع عليهم ، «وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ» ، فهذا المقاتل وراءه أهل ؛ زوجته وأولاده أو أمه وأبوه ، بحسب طبيعة الناس المسؤول عنهم ، فعلى الآمر أن يوظف صلاحياته لحل مشكلة المقاتل ، وحل مشكلة أهل المقاتل الذين خلّفهم وراءه ؛ لأن المقاتل عندما تكون أموره محلولة وعائلته مستقرة يقاتل بشراسة ، إذ ليس عنده شيء يؤخره ويأخذ اهتمامه ويشغله عن القتال ، فأموره مؤمنة وكذلك أمور عائلته ، إذن يتفرغ للقتال ، فواجب الآمر أن يرعى حتى عوائل المقاتلين بحسب إمكاناته وصلاحياته .

«حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ» ، يصبح همهم واحدا هو قتال الأعداء ، وبقدر ما تعطف أيها الآمر على مقاتليك سيعطفون عليك ، فتوجد العلاقة التكاملية والفريق المنسجم المستعد لدخول ساحات الوغى ، وقتال الأعداء بشراسة وتحقيق الانتصارات تلو الانتصارات ، لأن الانتصار في

المعركة يتطلب معنويات قوية، وهذه العلاقة البينية؛ علاقة الشفقة والمودة والمحبة، توجِد مثل هذه المعنويات العالية التي تحقق الانتصارات المتلاحقة.

إذن، فإن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه المسؤولية الرابعة، يشير إلى مبدأ مهم من مبادئ الاسلام، يتمثل بنظرية القيادة والإدارة المواساتية، ومفادها أن على المسؤول سواء كان في قيادة عسكرية أو في قيادة إدارية مدنية، ألاّ يجلس في برجه العاجي ويبتعد عن جمهوره.

على القائد العسكري ألاّ يبتعد عن مقاتليه، وأن يكون معهم وإلى جانبهم، وأن يقترب منهم ويتعرف على مشاكلهم ويواسيهم ويشعرهم بالاهتمام ويحل مشاكلهم بقدر ما يستطيع، فالقيادة المواساتية هي التي يشير إليها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي التي تخلق المعنويات العالية، وهذه الإدارة المواساتية تشمل المقاتلين في السلك العسكري، والعاملين في الجانب المدني، وتشمل العاملين وعوائلهم، كما قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بِمَا يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ».

في رواية عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أحسن الإحسان مواساة الإخوان»[٤٨٦]، تواسيه وتشاركه محنته، وهذا أعظم الاحسان اليه.

إن الأثر المترتب على هذه القيادة والإدارة المواساتية، هو: «حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ»، يصبح همهم همًّا واحدًا، واندفاعهم وتحملهم للمسؤولية بمستوى واحد، «فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ»، هذه العلاقة العاطفية القلبية المتبادلة تحقق الانسجام، وتبني الفريق القوي المنسجم، وتوجِد الانتصارات والإنجازات الكبرى.

عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما حفظت الأخوّة بمثل المواساة»[٤٨٧]، لا تحفظ الأخوّة بشيء كما بالمواساة.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن يواسي من يعمل معه وفريق عمله، وأن نكون ممن يعين بعضهم بعضًا، وأن نبني إدارة وقيادة على أساس الرحمة والشفقة والمحبة والتراحم بيننا. وهناك مسؤوليات أخرى يأتي الحديث عنها لاحقا.

العدل أساس الملك

نجد أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، قبل أن ينتقل إلى المسؤولية الخامسة في مجال استعراض المسؤوليات والواجبات، يقف عند موضوع مهم، ثم يعود إلى الواجبات

---

٤٨٦. جامع أحاديث الشيعة ٨. ٣٩٦ ح١٠٥٩٩.

٤٨٧. عيون الحكم والمواعظ. ٤٧٧.

والمسؤوليات، وهذا الموضوع هو أهمية العدل وإشاعته في المجتمع الإسلامي، وأنه الركيزة الأساسيّة والدعامة المهمة التي يجب أن يستند اليها المتصدي للإدارة والحكم في المجتمع الإسلامي.

لاحظوا هذه العبارات الكريمة عن أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ: «وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ»، قرة العين وأفضل الإنجازات وأهم دعامة للحاكم والمسؤول وأهم منتج يمكن أن يفخر به المسؤول، أن يشيع العدل والإنصاف بين الناس، «وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ»، وحينما يكون منصفًا عادلًا، لا يميز بين أحد وآخر، ويعطي الفرص الحقيقية للناس، فإن الشعب سيتعلق بهذا المسؤول ويمنحه الثقة ويلتف حوله ويحيطه بالعواطف والمشاعر.

«وإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ»، كيف يمكن أن يحظى الانسان بثقة شعبه؟ فالشعب لا يعطي المحبة بالمجان، وإنما يعطيها لمن يزرع فيه الثقة، ومن يجد فيه الصدق والوفاء والصراحة والاندفاع في خدمته، ولمن يستطيع أن يعزز الثقة بقلوب شعبه، فلذلك حينما يكون الحاكم مهتمًا بإشاعة العدل والإنصاف، فالشعب يبادله أيضا النصيحة والمحبة والمودة ويلتف حوله بسلامة الصدور، حينما تكون قلوب المواطنين بعيدة عن الضغينة والحقد وعن أزمة الثقة بالمسؤول، وحينما يشعر المواطن براحة من المسؤول ويجد أنه قد قام بواجباته، فعندها ستجد فيه سلامة القلب والانشراح القلبي تجاه المسؤول، وبالتالي ستجد المودة والمحبة للمسؤول.

«وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ عَلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ»، وحينذاك ينصح المواطنون المسؤول ويلتفون ويتمحورون حوله ويتمسكون به ويدافعون عنه، «وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ»، وحينئذ لا يجدون هذا الحاكم ثقيلًا عليهم يتمنون أن تأتي الانتخابات لكي يتخلصوا منه.

«وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ»، لا يجدون حكمه طويل الأمد، ولا تمضي أيام هذه الحكومة ببطء شديد، بل تبدو قصيرة الأمد وتمضي سريعًا، لأن فيها مودة وثقة واحتراما متبادلًا بين المسؤول والمواطنين إلى غير ذلك.

إن السؤال المطروح هنا: لماذا اختار أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ هذا المقطع ليشير إلى قضية العدل، وهو يستعرض واجبات ومسؤوليات القائد العسكري الأعلى تجاه قياداته الدنيا؟ وما علاقة العدل بالقيادات العسكريّة؟ مع أن العدل ظاهرة مجتمعية يحتاج اليها الإنسان والمسؤول في جميع مستوياته، سواء كان مسؤولًا عسكريًا أو مدنيًا، وسواء

كان في مستويات عالية من المسؤولية أو في مستويات دنيا، ففي جميع الأحوال يجب أن يكون عادلًا ويشيع العدل، فلماذا ذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذا الأمر في إطار مهمات القيادات العسكريّة؟.

قد يكون السبب في ذلك هو أن الدولة ما لم تتخلص من الأعداء في الداخل والخارج، لا يمكن أن تعيش الاستقرار وتفشي الإنصاف بين الناس، فالعدل يحتاج إلى بيئة مستقرة، وما دام الأعداء في الداخل والخارج يعبثون بالبلاد، فإن فرص إشاعة العدل أضعف من الفرص في الظروف العادية، ومن يقف بوجه العدو الداخلي والخارجي ويعالجه ويخلص العباد والبلاد منه هم منتسبو القوات العسكريّة، ولذلك فإن تنويه أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأهمية آثار العدل في المجتمع في طيات حديثه عن مسؤوليات ومهمات القادة العسكريين، قد يكون لهذا الاعتبار.

إضاءات من كلام أمير المؤمنين في العدل

الإضاءة الأولى

أهمية العدل في الإدارة والقيادة والحكم، فالذي يريد أن ينجح في مواقع التصدي، عليه أن يوفر معايير الإدارة والقيادة في نفسه، وبالطبع كلّما كانت المهمة أعظم، لزم تحقيق هذه الصفات بشكل أكبر وأوضح. إن إشاعة العدل والإنصاف بين الناس من الصفات المهمة في القيادة والإدارة من وجهة نظر الاسلام، وكما ذكرنا فإن هذه القواعد لا تخص الحكام وحدهم، بل تشمل جميع حالات التصدي والمنظومات القياديّة، كأنْ يكون مسؤول شركة أو جماعة من الناس أو رئيس عشيرة أو مسؤول حزب أو كيان أو فريق رياضي وغير ذلك.

إذن فالركيزة الأساسيّة لنجاح المتصدي هي أن يكون عادلا، فالعدل هو المعيار وهو المسطرة التي يقاس بها مستوى النجاح، فإذا أردنا أن نقيس مدى نجاح المسؤول، فعلينا أن نرى مدى عدله في دائرة مسؤوليته، بين الناس الذين يقعون تحت مسؤوليته.

في رواية عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «ملاك السياسة العدل»[٤٨٨]، فالمعيار والملاك في السياسة والإدارة والقيادة هو العدل، وبقدر تحقق العدل يتحقق النجاح في المهمة.

---

٤٨٨. عيون الحكم والمواعظ. ٤٨٦.

معنى العدل في الحكم والإدارة

أولا / أن تكون هناك إمكانات وفرص متكافئة لجميع من هو مسؤول عنهم، بأن يتكاملوا ويتعلموا ويأخذوا فرصهم بشكل متكافئ، فلا يشعر البعض بأنه بمحسوبياته ومحاباة المسؤول أقرب للوصول إلى المواقع والامتيازات من الآخر، فليس من العدل أن يحصل من كان قريبا من المسؤول والمتزلّف له على العطايا والمواقع والامتيازات، ومن كان بعيدا لا يحصل على فرصة مهما كان كفوءًا، فتوفير الفرص المتكافئة من واجبات المسؤول.

ثانيا / حصول الجميع على استحقاقاتهم من غير نقيصة، وكل من يقوم بعمل يحصل على استحقاقه جزاء هذا العمل، فلا يجوز عدم ترفيع الضابط الذي يعمل بجد، والآخر المتكاسل يتم ترفيعه مرة بعد أخرى، لأنّ لديه قرابة أو جسورًا مع المسؤول فيحظى بالترقيات، فالعدل أن يحصل الإنسان على استحقاقاته الكاملة دون أن يضطر إلى تملق أو مواقف مشبوهة، بل تشفع له كفاءته وأداؤه فيحظى بالامتيازات المستحقة.

ثالثا / شمول الجميع بالقانون وتطبيقه على الجميع من دون مواربة، فالعدل أن تكون هناك قاعدة واحدة ومعايير وضوابط تمشي على الجميع من دون استثناء.

رابعا / أن يكون هناك تمايز في الامتيازات والفرص مبني على أساس الكفاءات وليس أكثر من ذلك، فيتقاضى فلان راتبًا أكثر مني، لأن عنده اختصاصًا وخبرة وعطاء أكثر مني، فيحصل نتيجة لذلك على امتيازات أكثر، وليس لأنه يعمل في الدائرة الفلانية، فقد تجد موظفًا بسيطًا في الرئاسات أو في مواقع أخرى يتقاضى راتبًا لا يتقاضاه مدير عام في وزارة! وهنا التمايز ليس على أساس الكفاءة والقدرة، وإنما على أساس اعتبارات أخرى، فالناس تتدافع لتحصل على وظيفة في وزارات محددة ومواقع معينة، لأن الرواتب والمخصصات في هذه المواقع أكثر من المواقع الأخرى، وهذه فرصة لكي ندعو فيها لتوحيد سلم الرواتب، ليكون عادلا ويُبنى على أساس الاحتراف والاختصاص والخبرة، وليس على أسس أخرى بعيدة عن العدل والإنصاف.

خامسا / العدل في الحكم والإدارة والسياسة يعني عدم التبعيض والتمييز على جميع الأصعدة، فيجب عدم التمييز على مستوى الأفراد والأسرة والعشيرة وما شابه، وعدم التمييز على المستوى الاجتماعي، فلا يطأطئ أحد رأسه لأنه من عرق أو مذهب أو قومية أو جماعة أو عنوان معين، والناس لا تتعامل معه كما تتعامل مع الآخرين، فحقوق المواطنة يجب أن تكون متكافئة، وكذلك عدم التمييز على المستوى السياسيّ، بأن يحظى الجميع بشكل متساو ومتكافئ بالاحترام والتعاطي والتعامل، وعدم التمييز في الإدارة، أي ألاّ تكون

إدارة تمييزية فيتعامل الموظف مع البعض بطريقة مهينة، فهذا لا يصح، ويجب أن يكون التعامل باحترام مع من يعرف ومن لا يعرف، مع الغني والفقير، فكرامة الإنسان ليست بالمال الذي يملكه، وليست بالانتماء الحزبي أو السياسيّ، وليست بقرابته من هذا المدير أو ذلك الموظف، بل الإنسان كريم بحد ذاته، سواء كان فقيرا أو غنيا، وسواء كان منتميًا لحزب أو ليس كذلك، هذه هي العدالة في التعاطي الإداري.

وكذلك العدالة في التعاطي الاقتصادي على مستوى الفرص الاقتصاديّة، والعدالة على مستوى الفرص الثقافية، والعدالة القضائية، فإن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو خليفة المسلمين، لم يقبل من القاضي أن ينظر إليه أكثر من ذلك اليهودي الذي تخاصم معه أمام القاضي في ملكية سيف؛ فالإمام يقول هو ملكي، واليهودي يزعم أن السيف ملكه، وبما أن عليًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يدّعي ذلك والسيف بيد الآخر، ولم يكن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يملك وصل شراء ذلك السيف، فقد حكم القاضي لمصلحة اليهودي، وحينما خرجا من المحكمة جاء اليهودي وقال: أريد أن أسلم، قيل له: لماذا؟ فقال متعجبًا: هذا خليفة المسلمين والسيف له، وأنا في بلاد الإسلام والقاضي مسلم وأقاضي خليفة المسلمين، ثم أكسب الدعوى بالباطل؟! فأعاد السيف إلى علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، هذه هي العدالة في القضاء، وهناك العدالة في التعامل الأمني مع الجميع على حد سواء، فالإجراءات الأمنية يجب أن تطبق على الجميع بصورة متساوية إلى غير ذلك، إذن يجب أن تكون هناك عدالة وإنصاف في التعاطي مع جميع هذه الشؤون.

هذه هي السمات الخمس للعدل في الإدارة والقيادة والحكم، وبهذا يتبين أن العدل هو الذي يحقق النظام في أي مجتمع من المجتمعات، وهو ما يعبر عنه أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «العدل نظام الإمرة»[٤٨٩]، فالنظام يتحقق بالعدل، والحكومة التي ليس فيها عدل لا تستطيع أن تحقق وتنجز عملها بشكل صحيح.

الإضاءة الثانية

العلاقة الصحيحة بين المواطنين والحاكم

كما أن الحاكم يجب أن يكون عادلا، فالمواطن يجب أن تكون له علاقة وثيقة مع الحاكم والمسؤول والمتصدي، بأن يحمل المودة وحسن الظن تجاه المسؤول، فكما

---

٤٨٩. عيون الحكم والمواعظ: ٤٢.

أن المسؤول مطالب بالعدل والإنصاف، فكذلك المواطن مطالب بأن يثق بالمسؤول ويدافع عنه وينصره، لكي تُبنى هذه العلاقة الصحيحة بالشكل الوثيق: «و إِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ»، يجب أن تكون القلوب نظيفة وطاهرة وبعيدة عن أيّ تصدعات وضغائن تجاه المسؤول، فالرؤية الإسلاميّة تحمل المسؤول مسؤولية مضاعفة في إشاعة العدل، وأن يغرس الثقة ويحكم القلوب وليس الأجساد بقوة السلاح والنار، وتطلب من المواطن إذا وفى المسؤول بواجباته، وكان عادلًا، أن يطهر قلبه تجاه هذا المسؤول.

المواطن الذي يشعر بالظلم والغبن يدخل إلى دائرة، وهو على حق، ولكنه يدخل خائفًا لا يعرف إن كان سيُحكم لصالحه أو ستُنجز معاملته، وتكون العلاقة بينه وبين المسؤول علاقة خوف وارتشاء وعلاقة انتهازية، وليست علاقة ثقة ومحبة، فالثقة تولد حينما يشيع العدل والإنصاف، وبدون ذلك لا قيمة للحكم والإدارة، وسيكون حكمًا يكره فيه الناس حاكمهم ويدعون عليه بالزوال.

ما قيمة الحكم إذا لم تكن هناك إشاعة للعدل؟ وما قيمة التصدي للمسؤولية إذا لم تقترن بإشاعة العدل والإنصاف بين الناس؟ وهذا ما يشير اليه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبة له بقوله: «أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ»، لولا وقوف هؤلاء الناس في بيعتهم لي، «وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ»، ولولا وجود الأمة الواعية المتصدية التي تدافع عن المشروع، «وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا» ألاّ يوافقوا «عَلَى كِظَّةِ ظَالِم»، الكظة هي الثقل الذي يصيب الانسان حينما يكثر من الأكل، و«كِظَّةِ ظَالِم» إشارة إلى استئثار الظالم بحقوق الناس، وقد أخذ الله على العلماء ألاّ يوافقوا على استئثار الظالمين بحقوق الناس ولا يقروا ذلك ولا يقبلوا به، «وَلا سَغَبِ مَظْلُوم»، السغب هو شدة الجوع، ويعني ألاّ يقبلوا بأن تهضم حقوق المظلومين، فلولا ما أخذه الله علينا من الوقوف بوجه الظالم والدفاع عن المظلوم وإعادة حقه اليه، لولا ذلك، «لأَلقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا»، لتركت الأمر وتخليت عنه، ولما كنت تصديت للمسؤولية، فالمسؤولية ليست تشريفًا وإنما تكليف، «ولَسَقَيْتُ آخِرَها بكأسِ أَوَّلِها ولألفَيتُم دُنياكُم هذه أزهَدُ عِنْدِي مِنْ عَفطَةِ عَنْز»[٤٩٠]، ما قيمة هذه الدنيا إذا لم يستطع الإنسان أن يفشي فيها العدل والإنصاف بين الناس؟.

---

٤٩٠. نهج البلاغة ١: ٣٦ الخطبة ٣.

سمات العلاقة بين المسؤول والمواطن

إن السمات الأساسيّة للعلاقة بين المسؤول والمواطن كما ذكرها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هي :

السمة الأولى : (وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ عَلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ) :

لا يكون المواطن ناصحًا للمسؤول، واثقا منه، محبًا له، ملتفًا حوله، مدافعا عنه، إلاّ حينما يكون المسؤول قد قام بواجبه في خدمة هذا المواطن ورعايته وإزالة الظلم والغبن عنه، حتى يتحقق ركنا وجناحا العلاقة بين المسؤول تجاه المواطن، والمواطن تجاه المسؤول. هناك حكام منبوذون من شعوبهم، وهناك حكام تفديهم شعوبهم بالروح والدم، حقيقة وليس شعارًا، فالحاكم العادل يكون محبوب شعبه، والمسؤول والمتصدي الذي يرعى مرؤوسيه، يتمسكون به ويحبونه ويدعمونه ويصدون الأعداء والشبهات عنه إلى غير ذلك، بل كلما زادت الشبهات والاتهامات، ازدادوا تصلبا في الدفاع عنه وشعروا بمظلومية هذا المسؤول أو المتصدي الذي يتعرض إلى الاستهداف والتشويش والتشويه، هذه هي السمة الأولى؛ ثقة واحترام ورعاية واهتمام وحلّ مشاكل من قبل المسؤول تجاه الناس، ومن الناس النصيحة والتقدير والالتفاف والإحاطة بالمسؤول.

السمة الثانية : (وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ) :

حينما يؤدي الحاكم واجباته تجاه الأمة، ويكون ليّنًا لطيفًا منصفًا عادلًا مع شعبه، فإن الأمة لا تجد هذا الحاكم ثقيلا عليها، وهذا يشمل جميع المسؤولين في علاقتهم مع مرؤوسيهم والمواطنين.

أحيانا يأتي ضيف غير مرغوب فيه كثيرًا، أو يكون البيت غير مستعد لاستقباله، أو يكون التوقيت غير ملائم للزيارة، أو يكون لدى صاحب البيت التزام آخر ويداهمه الوقت، فيكون هذا الضيف ثقيلًا عليه، وأحيانا يكون عليك أن تؤدي واجبا اجتماعيا مرهقا ولا تريد أن تذهب، ولكن الواجب الاجتماعي يتطلب أن تذهب حتى لو كنت متعبا، فيكون هذا الواجب الاجتماعي ثقيلا عليك، فتخرج وأنت غير مرتاح، وأحيانا أخرى يزورك صديق عزيز، ولديك الوقت الكافي وليس عندك التزام، فتمر الساعات من غير أن تشعر ولا يكون ثقيلًا، أو يكون هناك واجب اجتماعي في مجلس فيه أصدقاء

وأخلّاء وأنس ومحبة إلى غير ذلك، فلا يشعر الإنسان بالملل أو التعب، بل يكون الواجب مريحا، وأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يمثل بهذا المثال، فحين يكون الحاكم غير مرغوب فيه من الناس، سيشعرون بثقل أيامه ويتمنون الخلاص منه، ومثال ذلك، أن يبغض الناس مسؤولًا في مكانٍ ما، فلا يفكرون إلاّ بانقضاء الوقت ليتخلصوا منه.

إذن فالسمة الثانية في العلاقة بين الحكام والمواطنين هي «وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ»، أي لا يستثقل الناس فترة حكمهم ومسؤوليتهم وتصديهم، بل يتمنون بقاءهم، وكذلك أي مسؤول، فتجد - مثلًا - أن المسؤول المنصف يتمنى الموظفون بقاءه، ويتألمون كثيرًا حين ينتقل إلى دائرة أخرى، بخلاف لو كان هذا المسؤول متعنتا يُضيّق على الناس ويلاحقهم في حرياتهم ويضغط عليهم، فمن المؤكد أن مثل هذا المسؤول بهذه الممارسات والأزمات والمشاكل، وابتعاده عن الناس وجلوسه في قصره وبرجه العاجي، وعدم اهتمامه بمشاكلهم، مثل هذا المسؤول يكون ثقيلا ويتمنى الناس الخلاص منه.

السمة الثالثة: (وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ):

هناك حاكم تبدو مدته بطيئة، فالأسبوع في أثناء حكمه كأنه سنة، وكذلك أي مسؤول، سواء كان رئيسًا أو وزيرا أو مديرا أو في أي موقع من مواقع التصدي، لا يعامل الناس بالعدل والإنصاف، ستكون فترة حضوره ليست ثقيلة فقط، بل بطيئة أيضًا، فيومه كأنه سنة، والناس تحسب أيام هذا المسؤول لكي تعرف متى تتخلص منه، وهناك فضائيات تضع صورة المسؤول الفلاني وتضع عدادًا لزمن بقائه، بينما لا تستثقل الناس مدة المسؤول الذي يحسن أداءه، بل العكس؛ تكون السنة معه بيوم، وتنتهي أربع سنوات من غير أن تشعر الناس بالوقت، وذلك لحسن تعامله وعدالته.

إذن فالعلاقة المتوازنة بين المسؤول والمواطنين، القائمة على إشاعة العدل من قبل المسؤول، وحسن الظن من قبل المواطن تجاه المسؤول، هذه العلاقة تتصف بهذه السمات الثلاث التي ذكرناها.

بعد أن ذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سمات العلاقة المتوازنة بين المسؤول والمواطنين، عاد إلى ذكر مسؤوليات القيادات العسكريّة العليا تجاه القيادات الدنيا.

المسؤولية الخامسة : منحهم الفرصة لإظهار قدراتهم

وتتبين هذه المسؤولية في قوله : «فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ» ، أيها القائد ، امنح الضباط الذين تحت إمرتك دورًا وأعطهم الفرصة وافسح في آمالهم ، أي افتح المجال أمام طموحاتهم ، ولكن هل ندعهم يفعلون ما يشتهون؟ ، فالآمال الواسعة والامتيازات الكبيرة تؤدي إلى الاسترخاء وقلة الحماسة والاندفاع ، وتؤدي إلى النرجسيات والوقوع في الأوهام ، وهناك طلبات غير معقولة ، ومن المؤكد أنها غير مقصودة في كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ، بل المراد هو ما كان ضمن استحقاقات هؤلاء ، والسياق القانوني كما نعبر اليوم ، فإذا استحق أحد ضباطك الترفيع فرفعه ولا تبقه (١٠) أو (١٥) سنة بلا ترفيع ، بل أعطه حقه ولا تشعره بالغبن وأطلق آماله ، وإذا كان يستحق امتيازات فلا تحرمه منها ، أو مخصصات فلا تقتطعها وتأخذها لك يا مسؤول ، لأنه سيعرف أين ذهب المبلغ ، حين يوقع على رقم ويتسلم رقمًا آخر ، فلا تأكل من أموالهم ولا تحجز من مخصصاتهم المشروعة المخصصة لهم ، بل امنحها لهم بالكمال والتمام .

الجانب الآخر هو الصلاحيات ؛ فإذا كنت تريد أن تخوض معركة فاستشره وأعطه دورا ، وقل له نريد أن نحقق هذا الهدف ، فماذا تقول؟ وما هي الخطة المناسبة؟ وأعطه المجال ليبدع ويفكر ، وقد يعطيك فكرة لم تفكر بها وإن كنت قائدًا أعلى ، فيجب إعطاء الصلاحيات والدور ضمن الاستراتيجيات والأهداف المحددة .

أعطه مساحة ليعبر عن نفسه ويفجر طاقاته ، ودعه يشعر بأنه شريك في وضع الخطط وفي تنفيذ المعارك ، أما المبدأ المعروف : «نفذ ثم ناقش» ، أي لا تفتح فمك وخذ التعليمات والأوامر ونفذ وليس من حقك النقاش ، فهذا غير صحيح ، فاسمع منه وافتح قلبك له لعله يمتلك فكرة صحيحة وإستراتيجية نافعة إلى غير ذلك ، أما إطلاق العنان للهوى والتمنيات والطموحات غير المشروعة ، فهذا ما رفضه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما قال : «إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان ؛ اتباع الهوى وطول الأمل»[٤٩١] ، هذا ما أخاف عليكم منه ، فكيف يمكن أن يوصي القائد العسكري الأعلى بأن يمارس مثل هذا الدور التخريبي للقيادات الدنيا؟ فمن المؤكد أن هذا ليس مقصودًا ، بل المقصود هو ضمن الإطارين ؛ إطار المخصصات وإطار الصلاحيات وتفجير الطاقات والفرص للتعبير عن النفس ، والوصول إلى القيادة الخلاقة ، وليس القيادة المغلقة المحتكرة للقرار والأنانية التي لا تلتفت لأحد ولا تسمع لأحد ولا تريد أن تشرك أحدًا ، وتريد أن

٤٩١ . نهج البلاغة ١ . ٧٢ الخطبة ٢٨ .

تحتكر الأدوار لنفسها وبمفردها، وهذا ما يرفضه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأن ذلك يسبب إحباطًا للقيادات وعدم شعور بالمسؤولية، ويسبب انكسارًا وعدم اندفاع نحو المعركة وتحقيق الأهداف، وسوف يتعلل القائد الأدنى بأنه غير مسؤول لأن القائد لم يستشره، فالمطلوب هو القيادة التضامنية والجماعية والتشاورية والتشاركية، فهذه القيادة تشرك المراتب والضباط وتشعرهم بالحماسة، وبأنهم جميعًا جزء من الانتصار، وجزء من المسؤولية الملقاة على عواتق هؤلاء، وهذا ما يرفع الروح المعنويّة بين القيادات الدنيا.

المسؤولية السادسة : الثناء على الإنجاز والبطولات :

وقد أشار إليها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله: «وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ»، لتصدر منك الإشادة والتقدير لما يسطرونه من مواقف في ساحة المعركة، من خلال إبراز النقاط الوضاءة والإنجازات الكبيرة التي يحققونها، ولا تستحوذ على انتصاراتهم وإنجازاتهم وتنسبها لنفسك، بل عليك أن تشيد بهم وتحترمهم وتحفزهم وترغبهم، وتتفاخر أمام الآخرين بشجاعتهم وبطولاتهم. كرموا القادة الشجعان وتحدثوا ببطولاتهم، وألّفوا الكتب، وأنتجوا المسلسلات والأفلام عن بطولات القادة، إذ يجب تقدير الإنجاز والإشادة به وشكره، ليس بذكره مرّة أو مرتين، بل واصل حسن الثناء عليهم باستمرار، وامدح واشكر وقدر وثمن بطولاتهم دائمًا.

«وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ»، وعدّد واستعرض واشرح بطولات هؤلاء ومواقفهم بالتفصيل، وكلّم الناس عنهم، واخرج أيها القائد في الإعلام وقل إن القائد أو الآمر الفلاني وقف هذا الموقف، وفعل هذا الفعل، ليعرف الناس من هم القادة الذين يصنعون الإنجازات والانتصارات الكبرى، «فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ»، كثرة مدحهم والإشادة ببطولاتهم، «تَهُزُّ الشُّجَاعَ»، يهتز القائد الشجاع فيتفاعل معها ويندفع ويحقق بطولات أعظم وأكبر، «وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ»، والخائف المتردد والمتقاعس والمتخاذل عندما يسمع المديح والإطراء للأبطال، سيتحرك الدم في عروقه وتُبعث فيه الجرأة على أن يكون شجاعا وبطلًا كأقرانه من الضباط الاخرين، فهذا المديح يفيد الشجاع ويزيده شجاعة وإقدامًا، ويفيد المتخاذل بأن يبعث فيه الحماسة ليكون شجاعا ومقداما في أداء واجباته القتالية.

مبدأ التشجيع والتحفيز

تشير هذه المسؤولية التي وضعها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى مبدأ التشجيع والتحفيز، وهو مبدأ مهم وأساسي لأن العلاقة فيها بُعدٌ نفسي، وعندما تشجعه ستدفعه وسيشعر بأن إنجازه منظور، وهذا شيء طبيعي؛ لأن الإنسان عندما يرى الآخرين يصفقون له ويشيدون به ويقدرون مواقفه يشعر بحماسة واندفاع أكبر، وفي خطاب الله سبحانه وتعالى إلى نوح شيخ الأنبياء عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حينما أمره أن يبني السفينة، قال تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[٤٩٢]، يا نوح اصنع السفينة ونحن نراك ونشجعك، ونوح شيخ الأنبياء يحتاج إلى التشجيع أيضًا ويأنس بالتشجيع، ونرى في القانون الرياضي أن أي فريق يلعب في أرضه وبين جمهوره فإن الهدف يحسب هدفًا واحدًا، ولكنه حين يلعب على أرض الخصم، فإن الهدف يحسب هدفين، لماذا؟ لأن هذا بين جمهوره والناس تصفق له فيصبح التأثير مضاعفًا، وهذا مبدأ إنسانيّ طبيعي، فالتشجيع والتحفيز يفجران الطاقات.

إننا، مع الأسف، لا نكترث كثيرًا لهذا المبدأ، وتتحقق الإنجازات الكبرى ولا أحد يفكر بمن فعلها، أو يحتكرها أحد ما، أما من أعطى الدماء وقدم وأبدع فلا نقف عندها، ونحن أمة لا نشجع أبطالنا ولا نساعد على بروز هذه الشخصيات الشجاعة، ونحن أمة نحتفي بأبطالنا بعد موتهم؛ إذ نبدأ حينها بمدح هذا البطل الصنديد الذي قام بكذا وكذا، وحين كان حيًا لم نذكره ولم نمتدحه، وكذلك الأمر مع العلماء؛ فبعد استشهاد هذا العالم، يصبح عالمًا ربانيًا عظيمًا، وعندما كان موجودًا بيننا لم يسمع غير الشائعات والاتهامات والسُباب، ولا نعرف قيمة الشجعان والأبطال وذوي المواقف الكريمة ولا نقدرهم ما داموا فينا، وعندما نفقدهم نعرف ذلك ونؤبنهم.

إن خلفية هذا المبدأ واضحة؛ فالإنسان بفطرته يعشق الكمال ويريد دائمًا أن يطور نفسه، والتشجيع يفتح له مثل هذه الآفاق ويساعده على أن يكون إيجابيًا، وأن يندفع أكثر لتحقيق المزيد من الإنجازات والانتصارات، لأن أي إخفاق يبعده عن الكمال وعمّا يندفع نحوه فطريًا.

إذن هناك نظريتان في التعاطي مع الناس؛ نظرية ترى أنك إذا أرت أن يسير الناس باستقامة فأشهر سيفك، وهي «نظرية العقوبة»، فهذا اقطع راتبه وهذا عاقبه.. وهكذا تسير الناس بقوة السيف، وهناك نظرية أخرى هي النظرية الإسلاميّة، وهي أن المبدأ الأساسي هو التحفيز والتشجيع والترغيب، وما دام التشجيع مؤثرا فلا تذهب إلى

---

٤٩٢. سورة هود: الآية ٣٧.

خيارات أخرى. شجع الناس على ايجابيّاتهم وعاقب الكسول بتشجيعك للكفوء والنشيط وتكريمه وشكره وتقديره، وهذه الحالة تجعل الخامل يبدأ بالتحرك والتساؤل؛ لماذا يُكرم ذاك ولم يكرم هو؟ فيقوم بالعمل الصحيح، وبذلك يصبح المبدأ هو التحفيز والتشجيع وليس العقوبة، أما العقوبة فتُستخدم عندما لا يكون التشجيع مفيدا، فهناك من قلبه ميت ولا يتحرك وليس منه فائدة، وفي هذه الحالات نستخدم مبدأ العقوبة لكي نحفزه ونحركه، فهو مبدأ استثنائي وطارئ وليس هو الأساس في هذه العمليّة.

آثار مبدأ التحفيز والتشجيع

يبين أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الأثر المترتب على التشجيع بقوله: «فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ»، الأثر المترتب على التشجيع هو أن الفاعل يزداد فاعلية، والخامل يفعل وينشط ويتحرك ويتحمس إلى غير ذلك، وقد قال أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في غرر الحكم: «من اشتاق أدلج»، إذا اشتاق شخص إلى شيء فسوف يبكر ويخرج أول الناس، ويكفي أن تجعل حافز محبة الهدف والإيمان به محركًا للإنسان، فحين يفهم الهدف ويقتنع به، تراه هو شخصيًا يركض ويبكر «أدلج»، وهو الذي يبادر اشتياقا إلى الهدف، فأقنعه بالمشروع وأوضح له الأسباب؛ يا مواطن، نريد أن نتخذ هذا الإجراء الحكوميّ لهذه الأسباب لمصلحتك، واشرح ووضّح للناس أيها المسؤول لماذا اتخذت هذا الإجراء؟، ولماذا اتخذت هذه المحددات أو التسعيرة؟ أقنعهم بالمنطق، فإذا اقتنعوا فسوف يسرعون نحو الموقف الصحيح ويتبنونه ويلتزمون به.

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في حكمة له: «ازجر المسيء بثواب المحسن»[٤٩٣]، إذا أساء شخص فإن عقابه وزجره يكونان بأن تثيب المحسن وتكافئه وتحترمه وتقدره، وهذا مبدأ مهم جدا، ففي التربية إذا كان أحد أولادك مشاغبًا لا ينفع معه الضرب مرّة أو مرتين، والضرب ليس مبدأ صحيحًا في التربية؛ لأنه يولّد عقدا ومشاكل، والحل هو أن تشكر الابن الآخر الملتزم، وعندها سيتساءل المشاغب عن سبب عدم إعطائه هدية مثل أخيه، فأجبه بأن هذا التزم وحقق درجات عالية في دروسه ونام في وقته.. إلى آخره، وعندما تفعل مثله سأجلب لك هدية، أي عاقب المسيء بمكافأة المحسن، فانظر إلى المنهج الاسلامي الرصين لخلق المنافسة وتحقيق مبدأ ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[٤٩٤].

٤٩٣. نهج البلاغة ٤٢, ٤ الخطبة ١٧٧.

٤٩٤. سورة البقرة: الآية ١٤٨.

وفي رواية أخرى عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «عادوا الشر بالخير»[٤٩٥]، عادوا الشر بفعل الخير، فإذا أساء إليك أحد وسبّك فاتبع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[٤٩٦]، أي عاقبه بفعل الخير، ومن أساء إليك وصفعك لا قدر الله، فإذا صفعته فهو يريد أن يجرك إلى ذلك، وأكبر عقوبة له عندما تكون أكبر من الإساءة وتقابل الإساءة بالإحسان، فتحرج موقفه بشكل كبير، فيقول لك لماذا تفعل ذلك؟ فأنا سببتك فسبّني، محاولًا جرك إلى هذه الساحة، ضادوا القسوة بالرقة، ومن يتعامل بقسوة تعاملوا معه تعاملًا لطيفًا، ليرى تأثير الرقة واللطف في التعامل ويخجل من نفسه ومن القسوة التي استخدمها، فمن أساء إليك فبادره بالإحسان، وهذا منهج إسلاميّ رصين وعظيم، يعتمد على مبدأ التحفيز والتشجيع والترغيب لتحقيق الأهداف والغايات.

المسؤولية السابعة: عدم تضييع الإنجازات

وتتضح هذه المسؤولية في قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى»، لا تضيّع الإنجازات بين الناس، بل افرز من فعل؛ من اتخذ الموقف الشجاع والصحيح، ومن ثبت وثبّت الآخرين.

«ثُمَّ اعْرِفْ» بيّن، وضّح.

«لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى»، ليعرف أنها وصلت إليك، وقيمة العمل الذي قام به.

«وَلَا تَضُمَّنَّ بَلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ»، ما أنجزه أحدهم لا تضمّه إلى غيره.

«وَلَا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ»، انظر إلى عمله كله، ولا تنظر إلى جزء من عمله وتبينه، فحين تبيّن بيّن كامل الفعل، ولا تقصر في بيان إنجازاته الكاملة، ولا تقتصر على بيان جزء من إنجازه، فلا تكن بخيلًا في وصف إنجاز فريقك.

«وَلَا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيراً»، إذا كان هناك شخص متنفذ له مكانة اجتماعيّة، وتأثير معين، فلا يكن هذا سببًا يدعوك إلى أن تنفخ في الإنجاز الذي فعله وتكبره أكثر من حجمه، بل كن عادلًا وإن كان ابن فلان، فإن كان إنجازه كبيرًا امتدحه، وإن كان صغيرًا تكلم عن حجم الإنجاز ولا تُعطه أكثر مما يستحق، ولا تُظهر عمله القليل الصغير على أنه عمل كبير، وكن واقعيًا في تقييم الأمور وفي وصفها.

---

٤٩٥. عيون الحكم والمواعظ. ٣٠٩.

٤٩٦. سورة الفرقان: الآية ٦٣.

«وَلَا ضَعَةُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيماً»، كن موضوعيًا ولا تنظر إلى الأشخاص؛ فإن كان الإنجاز كبيرًا اطرحه بحجمه، حتى لو لم يكن لصاحبه ظهر، وإن كان الإنجاز صغيرًا اطرحه بحجمه حتى لو كان صاحبه مهمًا، فقيّم الفعل نفسه، ولا تقيّم الفعل من خلال الفاعل، وهذه المسؤولية التي يشير إليها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ تتعرض إلى حاجة إنسانيّة في أن يوصف فعل الشخص ويُمدح.

معنى الرجوع إلى الله ورسوله

ثم ينتقل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن بيّن هذه المسؤوليات السبع، لإعطاء توجيه عام للمسؤول، فحينما يكون المرء في موقع المسؤولية يواجه تحديات، وقضايا ملتبسة وحساسة وخطيرة، وعليه أن يتخذ القرار الصحيح في لحظات حرجة فيها شبهات، وقضايا حساسة وخطيرة، فكيف يتخذ القرار؟ هذا ما يشير إليه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَارْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ» يضلع: يثقل، من الضلع، لأن الضلع إذا كان عليه ضغط فسوف يشعر الإنسان بضيق، «يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ»، من القضايا الحساسة والجسيمة الخطيرة، فإذا واجهت، أيها المسؤول، مشكلة كبيرة أو اشتبهت عليك الأمور في لحظة ما، فمن أجل أن تتخذ القرار ارجع إلى الله ورسوله.

لماذا قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَارْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ»؟ يجيب الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بشاهد من كتاب الله؛ إذ يقول: «فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ﴾[٤٩٧]، ثم يفسر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الآية»، بقوله: «فَالرَّدُّ إِلَى اللَّهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ»، فهل عند الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ سنّة جامعة غير مفرقة، وسنة غير جامعة ومفرقة بين الناس؟.

حاشى لرسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أن يكون في سنته ما يفرق الناس، ولكن السُنة النبويّة معرضة للدس، أو التحريف، أو الاختلاق، أو الوضع، فقد وُضع الكثير من النصوص على لسان رسول الله كذبًا وزورًا ونُسبت إليه وهو لم يقلها، فما يجمع فهو قول رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وما يفرق بين الناس أو ما يختلف الناس في تفسيره فهذا دعه جانبًا، وتمسك بالروايات والنصوص النبوية الواضحة البينة التي تجمع بين الناس،

---

٤٩٧. سورة النساء: الآية ٥٩.

ولذلك نجد العديد من الروايات الأخرى والنصوص الواردة عن أمير المؤمنين في تطبيق هذه القاعدة.

حينما أرسل أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حكيم العرب ابن عباس لحوار الخوارج، قال له: «لا تخاصمهم بالقرآن، فإن القرآن حمالٌ ذو وجوه»، فهناك من يغطي موقفه وجريمته بفهم معوج لآية من آيات الذكر الحكيم، لذلك يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إن هذه الطريقة غير ملائمة للاحتجاج على هؤلاء، «تقول ويقولون»، فأيّ آية تطرحها سيطرحون لك آية بالمقابل بما يدعم ويعضد وجهة نظرهم وقراءتهم، «ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصًا»[٤٩٨]، فالنصوص النبوية واضحة.

كان الخوارج يعتقدون بأن كل من يرتكب الذنوب الكبيرة ولا يتوب منها فهو كافر، وحين قبل علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالتحكيم اعتبروا ذلك ذنبًا كبيرًا، لذلك كفروه وكفروا أتباعه أيضًا، وعندما أراد أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يحاججهم احتج عليهم بأقوال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وبفعله؛ وقد ورد في نهج البلاغة هذا الحوار لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع الخوارج، إذ قال لهم: «فإن أبيتم إلاّ أن تزعموا أني أخطأت وضللت، فَلِمَ تضللون عامة أمة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بضلالي وتكفرونهم بذنوبي، سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب، وقد علمتم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رجم الزاني المحصن ثم ورثه أهله، وقتل القاتل وورث ميراثه أهله، فذنبه لا يسري إلى غيره، وقطع السارق وجلد الزاني غير المحصن، ثم قسم عليهما من الفيء ونكحا المسلمات، فأخذهم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بذنبهم وأقام حق الله فيهم، ولم يمنع سهمهم من الإسلام ولم يخرج أسماءهم من بين أهله، ثم أنتم شرار الناس ومن رمى به الشيطان مراميه وضرب به تيهه»[٤٩٩]، هذه هي سمات الخوارج، ونجد أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يستشهد في حواره معهم بما صدر عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وهذا أمر مهم، إذ يجب أن يرجع الإنسان في الشبهات والأمور الخطيرة إلى كتاب الله وسنة نبيه؛ أي المحكم من الكتاب والسنة الواضحة البينة المتفق عليها التي تجمع ولا تفرق.

---

٤٩٨. نهج البلاغة ٣. ١٣٦ الوصية ٧٧.

٤٩٩. نهج البلاغة ٢. ٧ الكلام ١٢٧.

المقطع التاسع عشر

طبقة القضاة

يقول أمير المؤمنين عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ :

(ثُمّ اخْتَرْ لِلْحُكْم بَيْنَ النّاسِ أَفْضَلَ رَعِيّتِكَ فِي نَفْسِكَ ، مِمّنْ لاَ تَضِيقُ بِهِ الأمُورُ ، وَلاَ تُمَحّكُهُ الْخُصُومُ وَلاَ يَتَمادَى فِي الزّلّةِ وَلاَ يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ ، إِلَى الْحَقّ إِذَا عَرَفَهُ ، وَلاَ تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ ، ولا يكتفي بأدنى فَهْمٍ دُونَ أَقصَاهُ ، وأوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ ، وَأَقَلّهُمْ تبَرُّمًا بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الأمُورِ ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتّضَاحِ الْحُكْمِ ، مِمّنْ لاَ يَزْدَهِيهِ إطْرَاءٌ وَلاَ يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ ، وأُولئِكَ قَلِيلٌ) .

نتحدث في هذا المقطع في طبقة أخرى من الطبقات التي ذكرها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي طبقة القضاة، إذ يذكر الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع من العهد هذه الطبقة، ويحدد الصفات المطلوبة في القضاة.

الدرس الثالث والأربعون

صفات القاضي المؤهل

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ»: اختر أفضل الناس الذين تراهم في المجتمع، أي خيرة المجتمع، وضعهم على القضاء والحكم بين الناس.

«مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ»: عنده سعة صدر، ولا يخرج من طوره ولا يضيق صدره نتيجة ترافع المتخاصمين أمامه، ومن الطبيعي أن صاحب الحاجة أعمى، وكل طرف حينما يأتي إلى القاضي يعتقد بأنه على حق، فيسرد الأدلة ويلح في طلب الحكم له، وعلى القاضي أن لا يضيق صدره من عملية الترافع وما يُذكر.

«وَلَا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ»: لا تغضبه الخصومة بين المتخاصمين، أي لا يكون لجوجًا مصرًا على رأيه، فعلى القاضي ألاّ يتحول إلى طرف في الدعوى، ولا يتصلب في رأيه، ولا ينفعل، لا يُستدرج إلى حيث يريده الخصوم في هذه الدعوى.

«وَلَا يَتَمَادَى فِي الزَّلَّةِ»: التمادي هو الاسترسال والاستمرار، أي لا يستمر في الخطأ، فإذا كان له توجه خاطئ أو حكم خاطئ في القضية، فعليه أن لا يتمادى في ذلك.

«وَلَا يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ»: لا يضيق صدره من أن يعود إلى الحق إذا عرف الحق لاحقًا.

«وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ»: الإشراف هو حالة النظر من فوق، والطمع حالة خسيسة دنيّة، فأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يرى أن الإنسان أعلى من أن يطمع، فالإنسان حينما ينظر إلى الطمع فكأنه ينظر من مكان أعلى إلى الأسفل.

«وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ»: أيها القاضي، اصرف وقتًا في دراسة الملف، فإذا كنت تريد أن تبحث عن الحق وتحكم على أساس الحق، فلا تكن سطحيًا وتعمّق واقرأ ما بين السطور، حتى تكتشف الحقيقة وتحكم على أساسها.

«وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ»: حينما تطرح قضية غير منصوص عليها في شرع أو قانون أو غير ذلك، فيجب على القاضي أن يكون متريثًا بالشبهات.

«وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ»: نحن أصحاب الدليل، أينما مال نميل، فيجب أن نبحث عن الأدلة والبراهين والحجج التي تكشف عن الحقيقة.

«وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ»: الخصم يراجع المحكمة بشكل مستمر، ويجب أن تختار قاضيًا لا ينزعج من كثرة المراجعة، ويتحمل الناس حينما يراجعونه بشكل مستمر.

«وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الْأُمُورِ»: يكون صبورا حتى تنكشف الحقيقة ولا يتعجل في القرار، بل يبحث في جميع الحيثيات، والشواهد، والقرائن، لكي يحكم بالحق.

«وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ»: عندما تتبين له الأمور ويكتشف الحقيقة، ويعرف أين هو الحق، يكون صارمًا عازمًا مقدامًا شجاعًا، فتريثه لا عن جبن، وإنما بحثًا عن حقيقة المجهول.

«مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ»: لا يغرّه المدح، ولا يُغرى بمال أو وعد، أو أي شيء، فيجب أن لا يدخل أي طارئ في عملية الحكم، وإنما يحكم على أساس المعطيات والحقيقة بعيدًا عن كل شيء، وفي أي بلد من البلدان يشعر الإنسان بالثقة وهو يذهب إلى القاضي، حين يعرف أن هذا القاضي لا يميز بين أحد وآخر، ولا يحتاج إلى وسيط أو شفيع، فأنا قوي بالحق الذي معي، والآخر لو وقفت الدنيا معه فهو ضعيف لأنه سالب حق، هكذا يجب أن تكون الأمور، ولكن حاملي هذه الصفات قليلون، وأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعي هذا، لذلك يقول: «وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ»، لن تجد الكثيرين فيهم هذه السمات وهذه الأوصاف.

هنا علينا أن نقف عند كل صفة من هذه الصفات التي يذكرها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وندقق فيها ونتعرف على مدلولها:

السمة الأولى : (اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ) :

اختر الأفضل علمًا وخلقًا وإيمانًا وتقوى ، هذه الأفضلية في العلم ، والسلوك ، والأخلاق ، والإيمان والتقوى ، لكي لا يزل ولا ينحرف ، ويكون عالما عارفًا ليحقق النتائج المطلوبة ، إذن فالقاضي يجب أن يكون الأفضل ، وأخطر شيء في أي قضية هو اختيار القضاة ؛ فقد تدخل المحاصصات الحزبية والمنسوبيات والمحسوبيات ، فيجب أن تكون المعايير حازمة ودقيقة لكي تحقق النتائج .

صفات القاضي غير المؤهل

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الصدد ، كما ورد في نهج البلاغة : «إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان . . » ، ويذكر صنفين ، والشاهد هنا هو الصنف الثاني ، إذ يقول :

«ورجلٌ قمش جهلًا» ، يعني جمع جهلًا ، فأصبح مجمعا للجهل ، لا يبحث عن علم ، «موضِعٌ في جهال الأمة» ، مسرع إلى الغش والتزوير ، «عادٍ في أغباش الفتنة» ، أغباش جمع غبش ، وهي الظلمات ، وهذا عادٍ في ظلمات الفتنة ، وعادٍ : أي راكض ، فهو يركض حيثما كانت مشكلة وفتنة بين الناس ، «بكّر فاستكثر من جمع» ، يركض ويحرق المراحل ، ليصل إلى مبتغاه بأي ثمن ، وما إن يلتئم حوله عدد قليل من الناس حتى تنقلب الدنيا ، «ما قلَّ منه خيرٌ مما كثر» ، هذا الإنسان حثالة وعالة على المجتمع .

«حتى إذا ارتوى من آجن» ، الماء الذي يتغير طعمه ولونه يسمى ماءً آجنًا ، فهو يشرب ماءً آجنًا ، أي أن بضاعته فاسدة ، «واكتنز من غير طائل» ، يستكثر من كل شيء خسيس غير ذي قيمة ، «جلس بين الناس قاضيًا ضامنًا لتخليص ما التبس على غيره» ، تخليص : أي تبيين ، يقول : أنا أبيّن لكم ما خفي على الآخرين ، «فإن نزلت به إحدى المبهمات» ، إذا جاءه سؤال غامض غريب ، فليس عنده معلومة ، «هيأ لها حشوًا» ، يرتب كلامًا ، فيقول كل شيء إلاّ جواب السؤال ، «حشوًا رثًا من رأيه» ، الملابس الرثة : الملابس المندرسة ، فكلماته لا يوجد فيها شيء جديد ، (ثم قطع به) ، ثم يعتبر هذا هو النظرية الأوفر والأحسن ، وهذا هو الجواب لكل مشاكل الناس .

«فهو من لَبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت» ، في معالجة الشبهات ، حاله كحال العنكبوت ، والله تعالى يقول : ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾[٥٠٠] .

---

٥٠٠ . سورة العنكبوت : الآية ٤١

«لا يدري أصاب أم أخطأ»، يقول كلمة ولا يعلم هل هي صحيحة أو ليست كذلك، فالمهم عنده أن يفحم الآخر، «فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب»، عندما يصيب لا يعلم هل هو مصيب أو مخطئ، وعندما يخطئ لا يعلم هل هو مخطئ أو مصيب؛ لأنه يرجم بالغيب من دون أن تكون عنده بينه أو رؤية واضحة في هذه المسألة، «جاهلٌ خبّاط جهالات»، جاهل لا علم عنده، و«خبّاط» صيغة مبالغة من «خبط»، وهو الذي يسير في الظلمات على غير هدى، فهو يتعاطى بالجهل وليس بالعلم.

«عاشٍ ركّاب عشوات»، عاشٍ، أي خابط في الظلام، يعني دخل إلى المجهول، ركاب عشوات: جميع أعماله ارتجالية، «لم يعض على العلم بضرس قاطع، يذرو الروايات ذرو الريح الهشيم»، يذرو: ينثر، فكلماته كالنباتات اليابسة التي تنثرها الريح في الخريف، «لا مليء والله بإصدار ما ورد عليه»، يعني لا يحسن ما يتكلم به، «ولا أهل لما قرض به»، ولا هو أهل للمديح والإطراء الذي ينسب إليه.

«لا يحسب العلم في شيء مما أنكره»، يعني ما رفضه، «ولا يرى أن من وراء ما بلغه مذهبًا لغيره»، لا يعترف برأي آخر غير رأيه، «وإن أظلم عليه أمرٌ اكتتم به»، حين يواجه شيئا لا يعرفه يخفيه بدلا من أن يستفسر عنه، «لما يعلم من جهل نفسه»، لأنه يعرف أنه لا يعلم، لذلك يتظاهر بالعلم وهو ليس عالمًا، «تصرخ من جور قضائه الدماء»، الدماء التي تذهب بسبب حكم الإعدام بغير وجه حق، هذه الدماء تصرخ من جور قضائه، «وتعج منه المواريث»، الورثة تعج منه، أي ترتفع أصواتها، مواريث: يعني نتائج قراراته، فالمتضررون من قراره يعجون.

«إلى الله أشكو من معشرٍ يعيشون جهالًا»، أمير المؤمنين يشكو إلى الله من مثل هؤلاء الجهلة، «ويموتون ضلالًا، ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تُلي حقَّ تلاوته»، القرآن بفهمه الصحيح سلعة بائرة لا يشترونها، فالفهم الصحيح للقرآن يؤدي إلى نتائج ومعطيات لا تفيدهم بشيء، لذلك أصبحت الآيات القرآنية بفهمها الصحيح بضاعة بائرة عندهم، «ولا سلعة أنفق بيعًا»، أنفق بيعًا، أي أكثر بيعًا، «ولا أغلى ثمنًا من الكتاب إذا حُرِّف عن مواضعه»، بضاعتهم الرائجة هي القرآن إذا فُهم بطريقتهم المعوجة، فكثيرًا ما يستخدمون القرآن، ولكن بطريقتهم المعوجة، أما الفهم الصحيح فلا يقبلون به ولا يرتضونه سبيلًا، «ولا عندهم أنكر من المعروف»، المعروف الحقيقي منكر عندهم، «ولا أعرف من المنكر»[٥٠١]،

٥٠١. نهج البلاغة ١. ٥١ الكلام ١٧.

والمنكر معروف عندهم، لأنهم يعملون بالمنكر ويهملون المعروف، فهذا القاضي الذي لا يلتزم بالمعايير الصحيحة، هكذا يكون حاله وشأنه.

خطورة مهمة القضاء.. بحث روائي

نستعرض هنا بعض الروايات التي يرويها الحر العاملي في كتابه الشريف (وسائل الشيعة). ونبدأ بهذه الرواية عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: (قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لشريح: «يا شريح، قد جلست مجلسًا لا يجلسه إلاّ نبيٌ أو وصيٌّ نبي أو شقيٌّ»)[٥٠٢].

وفي رواية أخرى عن النبي عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «من جعل قاضيًا فقد ذُبح بغير سكين»[٥٠٣]، أي عرض نفسه إلى مخاطر كبيرة حينما تصدى إلى القضاء.

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله الصادق (سلام الله عليه) يقول: «القضاة أربعة، ثلاثة في النار وواحد في الجنة؛ رجل قضى بجور وهو يعلم فهو في النار، ورجل قضى بجور وهو لا يعلم فهو في النار، ورجل قضى بالحق وهو لا يعلم فهو في النار، ورجل قضى بالحق وهو يعلم فهو في الجنة»[٥٠٤]، لاحظوا كم هي خطيرة مهمة القضاء.

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «الحكم حكمان؛ حكم الله عزّ وجلّ، وحكم أهل الجاهلية، فمن أخطأ حُكم الله، حكم بحكم الجاهلية»[٥٠٥]، إذن فالقاضي أمام خيارين؛ إما حكم الله، وهذا وصي وقديس، أو حكم الجاهلية، وهذا شقي ومنحرف.

وعن هشام بن سالم قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «ما حق الله على خلقه؟ قال: أن يقولوا ما يعلمون ويكفوا عمّا لا يعلمون، فإذا فعلوا ذلك فقد أدّوا إلى الله حقه»[٥٠٦]، هذا هو حق الله؛ أن لا تتعجل.

وعن محمد بن سنان عن طلحة بن زيد قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول: «العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق»[٥٠٧].

---

٥٠٢. وسائل الشيعة ٢٧. ١٧ باب ٣ من أبواب صفات القاضي ح٢.
٥٠٣. وسائل الشيعة ٢٧. ١٩ باب ٣ من أبواب صفات القاضي ح٨.
٥٠٤. وسائل الشيعة ٢٧. ٢٢ باب ٤ من أبواب صفات القاضي ح٦.
٥٠٥. وسائل الشيعة ٢٧. ٢٢ باب ٤ من أبواب صفات القاضي ح٨.
٥٠٦. وسائل الشيعة ٢٧. ٢٣ باب ٤ من أبواب صفات القاضي ح١٠.
٥٠٧. وسائل الشيعة ٢٧. ٢٤ باب ٤ من أبواب صفات القاضي ح١١.

وعن أبي عبد الله الصادق عن أبيه الإمام الباقر عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «من أفتى الناس بغير علم، لعنته ملائكة السماء والأرض»[٥٠٨]، يصبح ملعنة لملائكة السماء والأرض، فيجب أن لا يحكم القاضي ولا يفتي إلاّ بما يعلم.

وعن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عَلَيْهِٱلسَّلَامُ يقول: «من حكم في درهمين بغير ما أنزل الله عز وجل، فهو كافر بالله العظيم»[٥٠٩]، إذا حكمت بغير علم فهذا كفر بالله سبحانه وتعالى، إلى هذا المستوى يصل الأمر.

وعن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال: «ومن حكم بما لم يحكم به الله كان كمن شهد بشهادة زور»، لأن الحق ما حكم به الله، فكل شيء غير حكم الله شهادة زور، «ويُقذف به في النار»[٥١٠]، يعذب بعذاب شاهد الزور، نسأل الله أن يجيرنا من ذلك.

إن الروايات كثيرة في هذا المجال، نكتفي منها بما ذكرناه من روايات تؤكد أهمية وخطورة مهمة القضاء، وأنه يجب أن يتصدى لهذه المهمة أقدر الناس، وأكفأ الناس. هذه هي السمة الأولى.

السمة الثانية: (مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ):

يجب أن تختار شخصًا يتسم بالحكمة، والهدوء، والمصداقية، فلا يأخذه الانفعال، ولا يرتبك في إصدار الحكم، ويكون منصفًا، ومنصتًا يسمع من الطرفين، فقد يكون هناك من يبكي ويصرخ وهو الظالم وليس المظلوم، لا تغرنّك دمعة، ولا بكاء، ولا صراخ، فهناك أناس يعرفون كيف يمثلون جيدًا، وقد يقف المظلوم مسلّمًا أمره إلى الله؛ فلا يبكي ولا يصرخ بل يبين الحقيقة، فهنا يجب أن لا يؤخذ القاضي، وأن لا تضيق به الأمور، فلا يخرج عن حالة الهدوء والطمأنينة والسكينة، فالانفعالات قضية طبيعية في القضاء، وعلى القاضي أن لا ينظر إلى هذه القصص، بل ينظر إلى المعلومات والمعطيات، لكي يحكم بشكل صحيح بعيدًا عن الأحاسيس والمشاعر.

يجب أن لا يتعرض القاضي إلى الترغيب والترهيب؛ هذا يهدده فيغير حكمه، وذاك يطمعه فيغير حكمه، بل يجب أن يكون واضحًا، لذلك يجب أن لا يكون القاضي ممن يُستفز، ويخرج عن حالة الاستقرار والطمأنينة، ويصاب بحالة من الانفعال، فعليه أن

---

٥٠٨. وسائل الشيعة ٢٧. ٢٠ باب ٤ من أبواب صفات القاضي ح١.
٥٠٩. وسائل الشيعة ٢٧. ٢٨ باب ٥ من أبواب صفات القاضي ح٢.
٥١٠. وسائل الشيعة ٢٧. ٢٩ باب ٥ من أبواب صفات القاضي ح٥.

يكون هادئًا وينظر إلى المعطيات ولا يتأثر، ويركز على المعلومة والوثائق والحقائق والوقائع، ويصدر حكمه على هذا الأساس.

ورد عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «من ابتُلي في القضاء بين المسلمين، فليعدل بينهم في لحظه»، أي في نظراته، «وإشارته»، إشاراته وأحاسيسه ومشاعره، «ومقعده»[511]، محل قعوده، فيكون مجلسه وسط الطرفين لا يميل إلى أحدهما، فكل هذه؛ أي النظرة والإشارة والمقعد وطريقة الإقبال على المتخاصمين، يجب أن تكون بمستوى واحد.

السمة الثالثة: (وَلَا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ):

يجب أن يكون القاضي بعيدًا عن المماحكة والجدل، فالقاضي يجب أن يتسم بشخصية ثقيلة رزنة، لا يطمع فيه طامع، ويكون بعيدًا عن اللجاج والانفعالات وما شابه.

السمة الرابعة: (وَلَا يَتَمَادَى فِي الزَّلَّةِ):

إذا رأى المعطيات وأخذ قرارًا، ثم بعد ذلك ظهرت معطيات جديدة تبين أنه كان مخطئًا في قراره، فعليه أو يتراجع عن خطئه ويتخذ القرار الصحيح، ولا يفكر بموقعه ومكانته أو بانطباع الناس عنه بأنه متسرع وعجول، كل هذه الأشياء لا يفكر بها، بل ينتصر للحقيقة بعيدًا عن جميع هذه الاعتبارات ويعالج هذا الخطأ، أما الإصرار على الخطأ وتبريره ومحاولة الالتفاف على الحقيقة، فكلها أخطاء إضافية من قبل القاضي، وعليه أن يبتعد عن ذلك.

السمة الخامسة: (وَلَا يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ):

لا يحصر: يعني لا يضيق صدره، ولا ينقبض قلبه من الفيء إلى الحق، أي من العودة إلى الحق إذا عرفه، فحين يتبين له الحق يعترف بشجاعة ويعيد النظر ويأخذ القرار الصحيح، ويتراجع عن موقفه ويعالج الآثار المترتبة على قراره الخاطئ.

إن مبدأ التراجع عن الخطأ والاعتراف به وتصحيحه، ليس قضية أخلاقية في القاضي فقط، وإنما هي معيار كما يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِٱلسَّلَامُ؛ معيار مقوّم من معايير وسمات القاضي، أي يجب أن يكون كذلك.

---

٥١١. وسائل الشيعة ٢٧. ٢١٣ باب ٢ من أبواب صفات القاضي ح١.

السمة السادسة : (وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ) :

على القاضي ألاّ يكون طماعًا، فالطمعُ خسة ودناءة، ولذلك فإن أمير المؤمنين يقول: «تُشرف»، والإنسان إنما يُشرف من العالي على الداني، والقاضي يُشرف لأنه يفترض أن يكون أعلى من الطمع، فالقاضي الطماع عينه على الجهة المستفيدة ماذا ستعطيه؟ وبمجرد أن يدخل القاضي في هذه المعمعة تبقى عينه شاخصة إلى من يشكره ويقدره ويثمن موقفه، ويطمع بما سيُعطى له إذا ما حكم لصالح هذا أو ذاك، فيدخل في دوامة لها أول وليس لها آخر؛ وبالتدريج يفقد السيطرة على نفسه، فيحكم لصالح من يدفع أكثر، ولصالح الأقوى، مع أنه يعلم أن الحق مع الطرف الآخر، وحين تسأله عن السبب يجيب أن هذا وراءه حزب، أو هذا مسؤول، أو وراءه ظهر، ولا أريد التورط في مشاكل، ويطمع بوجاهةٍ أو فرصة أو مال، فيلتف على الحقيقة ويصطف مع من يوفر له مطامعه، وهذا من أخطر الأشياء.

يجب أن يكون القاضي بعيدًا مترفعًا عن الطمع بأي شيء، لكي يتوخى في حكمه الحقيقة ويبحث عنها دون أي اعتبارات أخرى، فإذا كان صاحب الحق ضعيفا، وخصمه صاحب مليارات أو تقف وراءه قوى سياسيّة أو وراءه ناس، وذاك الضعيف ليس وراءه أحد، ولكنه صاحب الحق، فاحكم لصالح صاحب الحق وليكن ما يكون، واخرج مرفوع الرأس، ولا تقبل لنفسك أن تجافي الحقيقة وتحكم بالباطل، فمن حكم بغير حق فليتبوأ مقعده من النار والعياذ بالله.

ذم الطمع.. شواهد روائية

نذكر في ما يلي شواهد روائية في ذم الطمع:

الرواية الأولى: عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إياكم واستشعار الطمع»، الطمع في كل شيء، وفي كل شريحة، وفي كل مهمة، حالة مزرية تورث الهوان والذل، وتوقع الإنسان في مطبات، ولكن الطمع للقاضي أكثر حساسية وأسوأ وأشد.

«إياكم واستشعار الطمع فإنه يشوب القلب»، يشوب القلب، يعني يخلط القلب، فيفقد صفاءه ونقاءه، وتصبح فيه حالة من الاختلاط، «فإنه يشوب القلب شدة الحرص»، الطمع وشدة الحرص يُفقدان القلب نقاءه وصفاءه، فيصبح القلب غير نظيف والعياذ بالله.

«ويختم على القلوب بطبائع حب الدنيا»، هذا الطمع والحرص والطموحات غير المشروعة، تختم على القلب بختم حب الدنيا، فتصبح الدنيا هي المعيار عنده، فيكون مستعدًا لكسر الرقاب، وإزهاق الأرواح، فالمهم هو أن يحصل على فرصة، ولا مانع عنده من كتابة تقارير كيدية لكي يزيح من هو في طريقه، ومن هو أفضل منه، لكي يصل، نستجير بالله من الطمع.

«وهو مفتاح كلِّ سيئة»، الطمع مفتاح كل موبقة، وكل سيئة، وكل شر، والإنسان الطماع إنسان ضعيف الشخصية يطمع به الآخرون؛ لأن طمعه يكون سببًا لطمع الآخرين به، فهو نقطة ضعفه، والمدخل الذي يدخل منه الآخرون اليه.

«ورأس كل خطيئة»، الطمع منشأ جميع الذنوب، جميع الخطايا، جميع الموبقات، إذ يطمع إنسان بشيء فيرتكب الذنب والعياذ بالله، «وسبب إحباط كل حسنة»[٥١٢]، جميع الحسنات، وكل فعل صالح، تُحبط نتيجة الطمع، فالإنسان يجب ألاّ يكون طماعًا، وعليه أن يسيطر على مشاعره، ولا بأس في أن تكون عنده طموحات مشروعه، فالطموح المشروع ليس طمعًا؛ فحين ترى نفسك كفوءًا، تعمل على أن تكون في موقع معين ليستفيد المجتمع من كفاءتك، وهذا ليس طمعًا، إذا كنت تملك قدرات معينة، وسعيت للحصول على فرصة تجعل المجتمع يستفيد من هذه الكفاءات والطاقات المتوفرة عندك، بل الطمع حينما يكون الطموح غير مشروع، أو طموحًا مشروعًا بوسائل وأدوات وخطوات غير مشروعة.

الرواية الثانية: عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتاب له ورد في نهج البلاغة، قال: «وإياك أن توجف بك مطايا الطمع فتوردك مناهل الهلكة»[٥١٣]، توجف: تسرع، ويعبر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الطمع بأنه مطية، كما نمتطي الحمار، وهذه المطية تقودك إلى مناهل الهلكة، فالهلاك بالطمع، والمصائب بالطمع، والمشاكل بالطمع، والانحرافات بالطمع، وزوال النعمة بالطمع، ووقوع الإنسان في المهالك بالطمع، نستجير بالله من ذلك.

الرواية الثالثة: ورد في نهج البلاغة: «الطمع رقٌّ مؤبد»[٥١٤]، الإنسان الطامع عبد، وعبوديته مؤبدة لا يستطيع أن يخرج منها، فهو أسير مطامعه، وهذا في أي قضية، وفي

٥١٢. بحار الأنوار ٧٤. ١٨٢ ح٢٤.
٥١٣. نهج البلاغة ٣. ٥١ الكتاب ٣١.
٥١٤. نهج البلاغة ٤. ٤٢ الحكمة ١٨٠.

أي موقع، ليس فقط حين يكون مسؤولا كبيرا في الدولة، بل يكون الطمع حتى عند أبسط الناس وأفقرهم، وحتى في أوساط المؤمنين، هناك من يريد أن يُعرف بالصلاح، فيتظاهر أمام الناس بالتدين والإيمان وواقعه ليس كذلك، فالطمع في أي موقع، وفي أي شخص، وفي أي مهمة، وفي أي مستوى، يُوقع الإنسان في العبودية المؤبدة، كالسجن المؤبد الذي هو من أصعب الأشياء، فالطماع يُوقع نفسه في أسرٍ ورقٍ مؤبد.

الرواية الرابعة: عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «عبد المطامعِ مُسترَق»[٥١٥]، الذي يقع فريسة الطمع يكون عبدًا لطمعه، فيدخل في رِقّ مؤبد لا يجد معه العتق أبدًا، بل يبقى دائمًا مُسترَقًّا، أي عبدًا مملوكًا، وأسيرًا لطمعه.

الرواية الخامسة: عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «آفة القضاة الطمع»[٥١٦]، كل صنف من الأصناف له آفة، فيجب أن يركز القضاة على تطهير أنفسهم من صفة الطمع.

السمة السابعة: (وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ):

القاضي يجب أن يكون عميقًا في إصدار الحكم، حريصًا على اكتشاف الحقيقة، وأن لا يصدر الحكم بناء على ظواهر الأمور، ولا يؤثر فيه الكلام أو الدموع، فيصدر حكمه سريعًا من دون أن يسمع من الطرف الآخر.

لا يمكن أن تُأخذ الأمور على ظواهرها، فالقاضي عليه أن يحلل ويدقق ويتعمق، ويقرأ ما بين السطور، وأن يستمع إلى الحقيقة بكامل أبعادها مهما بدت واضحة في أول الأمر، ولا يكون عجولًا فيحكم قبل أن يدقق، فإن عليه أن «لا يكتفي بأدنى فهمٍ دون أقصاه»، أي يجب أن يبحث عن أقصى الفهم، وأن يُلم بجميع التفاصيل، ويدقق بجميع الحقائق والوقائع والوثائق.

إذن، على القاضي أن لا يكتفي بانطباعاته الأولية، بل عليه أن يتعمق بشكل كامل، وهذا التدقيق يجب أن يكون تدقيقًا في الموضوع أولًا، وفي الحكم ثانيًا؛ أي ما الحكم القضائي لهذا الموضوع؟.

عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في حكمة له وردت في نهج البلاغة: «ليس من العدل القضاء على الثقة بالظن»[٥١٧]، مهما كان لديك من وثوق بظنك، بانطباعك، بتصورك،

---

٥١٥. غرر الحكم ٤. ٣٥٢.

٥١٦. غرر الحكم ٣. ١٠٤.

٥١٧. نهج البلاغة ٤. ٤٩ الحكمة ٢٢٠.

بالرؤية الأولى، بقدراتك، بحدسك، فلا يجوز لك أن تصدر حكمًا بناء على ذلك مهما كنت واثقًا منه، إذ عليك أن ترى المعطيات، وتدرس الوثائق، وتستمع للطرفين، ثم تحكم على ضوء المعطيات والأدلة المتوفرة.

وورد في كتاب «من لا يحضره الفقيه»، عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إذا كان الحاكم يقول لمن عن يمينه ولمن عن يساره: ما تقول؟»، يعني أن القضية ملتبسة عليه ولا يعلم أين الحق، فيسأل من بجانبه عن قوله فيها، فليست لديه القدرة على أن يفحص ويكتشف الحقيقة بالأدلة.

«فعلى ذلك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»، هذا القاضي ملعون؛ لماذا تبوأت موقعًا لست أهلًا له؟.

«أن لا يقوم من مجلسه ويجلسهما مكانه»[٥١٨]، هذا المكان لا يليق بك، بل يليق بفلان، لذلك فالتفحص والتمحيص والتدقيق والغربلة والتأكد من كل حيثيات القضية، وقراءة ما بين السطور حتى يستبين الموقف ويصدر الحكم، هذه سمة أخرى من السمات التي يجب أن يتسم بها القاضي.

وورد كذلك في كتاب «من لا يحضره الفقيه»، عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إذا تقاضى إليك رجلان، فلا تقضِ للأول حتى تسمع من الآخر»، لا تصدر الحكم حتى تسمع إفادة أو وجهة نظر الطرف الثاني، فلا يحق لك أن تصدر حكمًا قضائيًا من خلال الاستماع لأحد المتخاصمين وأحد طرفي النزاع، مهما كانت حجته قوية ودليله واضحًا.

«فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء»[٥١٩]، إذا سمعت للطرفين فسوف تتضح لديك الصورة، فتحكم وأنت ملمٌ بجميع التفاصيل، هذا هو الشرط السابع من الشروط التي وضعها أمير المؤمنين للقاضي، وهناك شروط أخرى تأتي تباعًا.

السمة الثامنة: (وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ):

على القاضي أن يقف ويحذر ويتريث ويستكمل البحث والمعلومات حينما تعرض عليه قضية فيها شبهة، وقد ورد في نهج البلاغة، قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَإِنَّمَا

٥١٨. من لا يحضره الفقيه ٣. ١١ ح٣٢٣٥.
٥١٩. من لا يحضره الفقيه ٣. ١٣ ح٣٢٣٨.

سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ، فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ، وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى، وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللهِ فَدُعَاؤُهُمُ الضَّلالُ، وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى»[٥٢٠].

وفي كتاب الكافي الشريف، عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «حَلالٌ بَيِّنٌ وَ حَرَامٌ بَيِّنٌ وَ شُبُهَاتٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَمَنْ تَرَكَ الشُّبُهَاتِ نَجَا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ وَ مَنْ أَخَذَ بِالشُّبُهَاتِ ارْتَكَبَ الْمُحَرَّمَاتِ وَ هَلَكَ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُ»[٥٢١].

وفي كتاب تهذيب الأحكام الشريف، عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «فَإِنَّ الْوُقُوفَ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ خَيْرٌ مِنَ الاقْتِحَامِ فِي الْهَلَكَاتِ»[٥٢٢].

وفي نهج البلاغة، في وصية أمير المؤمنين لابنه الحسن عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، قال: «وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلالَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأَهْوَالِ»[٥٢٣].

وفي نهج البلاغة، قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ»[٥٢٤].

وفي أمالي الشيخ الطوسي، وصية أخرى للإمام علي لابنه الحسن المجتبى (صلوات الله وسلامه عليهما): «أُوصِيكَ- يَا حَسَنُ- وَ كَفَى بِكَ وَصِيّاً . . . . . . وَ الصَّمْتِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ»[٥٢٥]، فالقاضي عليه أن يقف عند الشبهات، هذه هي السمة الثامنة.

السمة التاسعة: (وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ)

على القاضي أن يكون ممن يأخذ بالحجّة والدليل والبرهان ويتجنب:

- الاعتماد على الذوق والمزاج والاستلطاف أو الاستهجان الشخصيّ، (أنا لا يروق لي ذلك، أنا أحب ذلك، أنا أشمئز من ذلك، أنا آنس بذلك، . . .).
- الاعتماد على احتمالات غير منطقيّة وغير واقعيّة.
- التعويل على نظرات وخلفيات علميّة متغيرة.
- الركون إلى مغالطات وتأويلات، وما شابه ذلك.

---

٥٢٠. نهج البلاغة ١. ٨٩ الخطبة ٣٨.
٥٢١. الكافي ١. ٦٨ ح١٠.
٥٢٢. تهذيب الأحكام ٦. ٣٠٣ ح٥٢.
٥٢٣. نهج البلاغة ٣. ٣٩ الوصية ٣١.
٥٢٤. نهج البلاغة ٤. ٢٧ الحكمة ١١٣.
٥٢٥. الأمالي للطوسي. ٧.

السمة العاشرة : (وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ) :

من سمات القاضي أن لا يضجر أو ينزعجَ من كثرة المراجعة، فصاحب الحاجة أعمى، والغريق يتشبث بكل شيء، والمتخاصمون يعيشون حالة قلق مستمر، ويسعون بكل الوسائل للتأثير على القاضي في كلمة، فيرسلون الوسائط والمعارف والمحامين، ويطرحون أمورًا مختلفةً ومتناقضة من أجل استمالة القاضي في قراره، ويكثرون المتابعة، وعليه أن يتحمل ذلك دون كلل أو ملل.

السمة الحادية عشرة : (أَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الْأُمُورِ) :

يكون صبورًا في البحث حتى تنكشف له الحقيقة، فالصبر والتحمل ومواصلة الجهد والنظر في الموضوع تساعد على اكتشاف الحقيقة، ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «الصبر أفضل العدد»، أفضل الوسائل الصبر، فيجب أن يكون الإنسان صبورًا في البحث عن الحقيقة، وعن أمير المؤمنين أيضًا: «بالصّبرِ تُدرَكُ الرّغائبُ». والرغائب: هي الأمور التي يرغب فيها الإنسان ويطمح إليها

السمة الثانية عشرة : (وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ) :

أي: أمضاهم وأقطعهم للخصومة، فالاحتياطَ والتدقيق والصبر لحين الوضوح لا يعني التردد في إصدار الحكم بعد وضوح الموقف وتكشّف الحقيقة؛ لأن التأخير في إصدار الحكم مع وضوحه يمنع صاحب الحق من الوصول إلى حقه بأسرع وقت، و يدفع الخاسر للدعوى لمزيد من الضغط وتهييج الرأي العام وبذل الجهد في التأثير على قرار القاضي ويخاطر بإحقاق الحق وسمعة القضاء.

وحين تتضح الحقيقة مهما كانت مرة، ومهما كانت قاسية، فعليك أن تكون صارمًا ومقدامًا في اتخاذ القرار، فمن السمات المطلوبة في القاضي أن لا يتردد.

لقد رأينا ماذا حصل في الهجوم الإرهابي على سجن (أبو غريب)، حين هرب الآلاف من السجن، وبينهم قادة لداعش، واضطررنا إلى أن ندفع ضرائب كبرى في قتالهم، مع أنهم كانوا بين أيدينا، ولو نُفذ بهم الحكم لارتحنا منهم وانتهى الأمر، لذلك فالصرامة مهمة، لكي تقطع الطريق على مثل هذه الأمور.

السمة الثالثة عشرة : (مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ) :

يجب أن يمتلك القاضي شخصية قوية وثقة بالنفس، فلا يغره مدح المادحين حين يتملقونه بالكلام المعسول، ولا يؤثر ذلك في نفسه ولا يشعره بالزهو والخفة، فإذا تحركت مشاعره وطرب لهذا الإطراء والمديح، فإن هذا قد يؤثر في صدقية قراره وحياديته، ووضوح الحق وانحيازه إليه، فإن صاحب الكلام المعسول قد يكون هو الطرف المعتدي، فيحاول أن يغطي على باطله بكلامٍ وحديثٍ ومدحٍ وإطراءٍ وما إلى ذلك.

إن القاضي الذي يُستدرج إلى كلمات المديح والإطراء يخضع لحالة بهيمية، وكيف له أن يحكم ويتهم أحد الخصمين وهو قد أصبح المتهم الأول حين تحركت مشاعره وأصبح ينحاز إلى من يمدحه وليس إلى الحقيقة؟.

السمة الرابعة عشرة : (وَلاَ يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ) :

لا يطمع فيه طامع، فالإغراء لا يؤثر به، فقد يخضع بعضهم أمام التهديد فيحكم بغير ما تُملي عليه الحقيقة، لكي يحافظ على نفسه وعائلته، أو ليحصل على فرصة، بينما يجب أن يكون القاضي بعيداً عن ذلك، ولا يستطيع الآخرون استمالته ولو هددوه بحز رقبته، فلا يحيد عن قول الحق، وهذا شيء مهم جداً.

«وأولئك قليل»، يا مالك الأشتر؛ إن حاملي هذه السمات قليل، فاختر للقضاء من فيه هذه الأوصاف، والعلم وحده لا يكفي، فالعلم ضروري ولكنه غير كافٍ، فالقضاء فيه آداب، وسلوك، وقيم ومُثل ومبادئ، وفيه طريقة عمل ووسائل لتنفيذ المهمة، وفيه علم، فالعلم ليس هو الشيء الوحيد لإنجاح القاضي في مهمته، نسأل الله أن يرزقنا في بلادنا قضاة يتسمون بهذه السمات، وينتصرون للحق والحقيقة.

الفهرست

المقدّمة ٥

النظام السياسيّ ٩

تمهيد ١١

دروس من عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ لمالك الأشتر ٤٧

المقطع الأول

دور المسؤول في موقع القيادة ٤٩

الدرس الأول

الإدارة من موقع العبودية لله سبحانه وتعالى ٥١

الدرس الثاني

الأهداف العامة للمنظومة القياديّة ٥٨

المقطع الثاني

المعايير الخلقية للشخصية القياديّة ٦٣

الدرس الثالث

التقوى ٦٧

الدرس الرابع

إيثار الطاعة ٧٧

الدرس الخامس

اتباع الأوامر الإلهيّة ٨٣

الدرس السادس

طرق توثيق العلاقة مع الله ٨٥

الدرس السابع
السنن الإلهيّة ٨٧
الدرس الثامن
المسؤول وتزكية النفس ٩٦

المقطع الثالث

الرأي العام ١٠٩
الدرس التاسع
رقابة الرأي العام ١١١
الدرس العاشر
معيار الرأي العام ١٢١
الدرس الحادي عشر
التعامل مع الرأي العام ١٢٧

المقطع الرابع

العلاقة بين المسؤول والمسؤول عنهم ١٤٧
الدرس الثاني عشر
الأصل العام في العلاقة بين المسؤول والمسؤول عنهم ١٤٩
الدرس الثالث عشر
أثر الخلفية الفكرية في تقييم الآخرين ١٦٠
الدرس الرابع عشر
مبدأ العفو والصفح في التعامل مع الأمة ١٧٢
الدرس الخامس عشر
سلسلة المراتب ١٨٣
الدرس السادس عشر
حسن الأداء والكفاءة ١٩٤
الدرس السابع عشر
السمات القياديّة ٢٠١

الدرس الثامن عشر
المسؤولية ابتلاء ٢١٨

المقطع الخامس

الأخلاق القياديّة ٢٢١

الدرس التاسع عشر
محاربة الله ٢٢٣

الدرس العشرون
التنزه عن الصفات السلبية ٢٢٦

الدرس الحادي والعشرون
نبذ سياسة ردود الأفعال ٢٣٣

المقطع السادس

تحديات موقع التصدي ٢٣٧

الدرس الثاني والعشرون
المسؤولية والاستبداد ٢٣٩

الدرس الثالث والعشرون
أمراض السلطة وعلاجها ٢٥٩

الدرس الرابع والعشرون
تشبّه الحاكم بالله في جبروته ٢٧٤

المقطع السابع

إنصاف الحاكم وظلمه ٢٨٣

الدرس الخامس والعشرون
إنصاف الله وإنصاف الناس ٢٨٥

الدرس السادس والعشرون
ظلم الناس ٢٩١

الدرس السابع والعشرون
الظلم وحلول العقوبة الإلهيّة ٢٩٩

المقطع الثامن

محورية الأمة في القيادة والإدارة ٣٠٣

الدرس الثامن والعشرون

تغليب مصالح الأمة على مصالح الطبقة الأرستقراطية ٣٠٥

المقطع التاسع

المبعدون ٣١٧

الدرس التاسع والعشرون

صفات وسمات المبعدين ٣١٩

الدرس الثلاثون

سمات مهمة للمسؤول ٣٣١

المقطع العاشر

المستشارون والوزراء ٣٣٧

الدرس الحادي والثلاثون

سمات وصفات المستشارين ٣٣٩

الدرس الثاني والثلاثون

الاستعانة بالوزراء السابقين ٣٤٨

الدرس الثالث والثلاثون

سمات الوزير الناجح ٣٥٤

المقطع الحادي عشر

المقربون ٣٥٩

الدرس الرابع والثلاثون

حاشية المتصدي وبطانته والفريق الذي يلتصق به ٣٦١

الدرس الخامس والثلاثون

تكريم المحسن ٣٧٥

المقطع الثاني عشر

تعامل الحاكم مع الأمة ٣٨٩

الدرس السادس والثلاثون

ثقة الحاكم بالأمة ٣٩١

المقطع الثالث عشر

التعاطي مع السنن الصالحة ٤٠٩

الدرس السابع والثلاثون

الإبقاء على العمل الناجح ٤١١

المقطع الرابع عشر

الاستعانة بالعلماء وأهل الخبرة ٤٢٥

الدرس الثامن والثلاثون

مدارسة العلماء والحكماء ٤٢٧

المقطع الخامس عشر

الطبقيّة الاجتماعيّة في الإسلام ٤٣٥

الدرس التاسع والثلاثون

الرؤية الإسلاميّة في طبقات المجتمع ٤٣٧

المقطع السادس عشر

التكامل الطبقي بين الحقوق والواجبات ٤٥١

الدرس الأربعون

الطبقية بين رؤيتين ٤٥٣

المقطع السابع عشر

معايير اختيار القادة العسكريين ٥٠١

الدرس الحادي والأربعون

معايير اختيار القادة العسكريين ٥٠٣

المقطع الثامن عشر

مسؤوليات القادة العسكريين تجاه المستويات الدنيا ٥٢٣

الدرس الثاني والأربعون

مسؤوليات القادة العسكريين تجاه المستويات الدنيا ٥٢٥

المقطع التاسع عشر

طبقة القضاة ٥٤٥

الدرس الثالث والأربعون

صفات القاضي المؤهل ٥٤٧